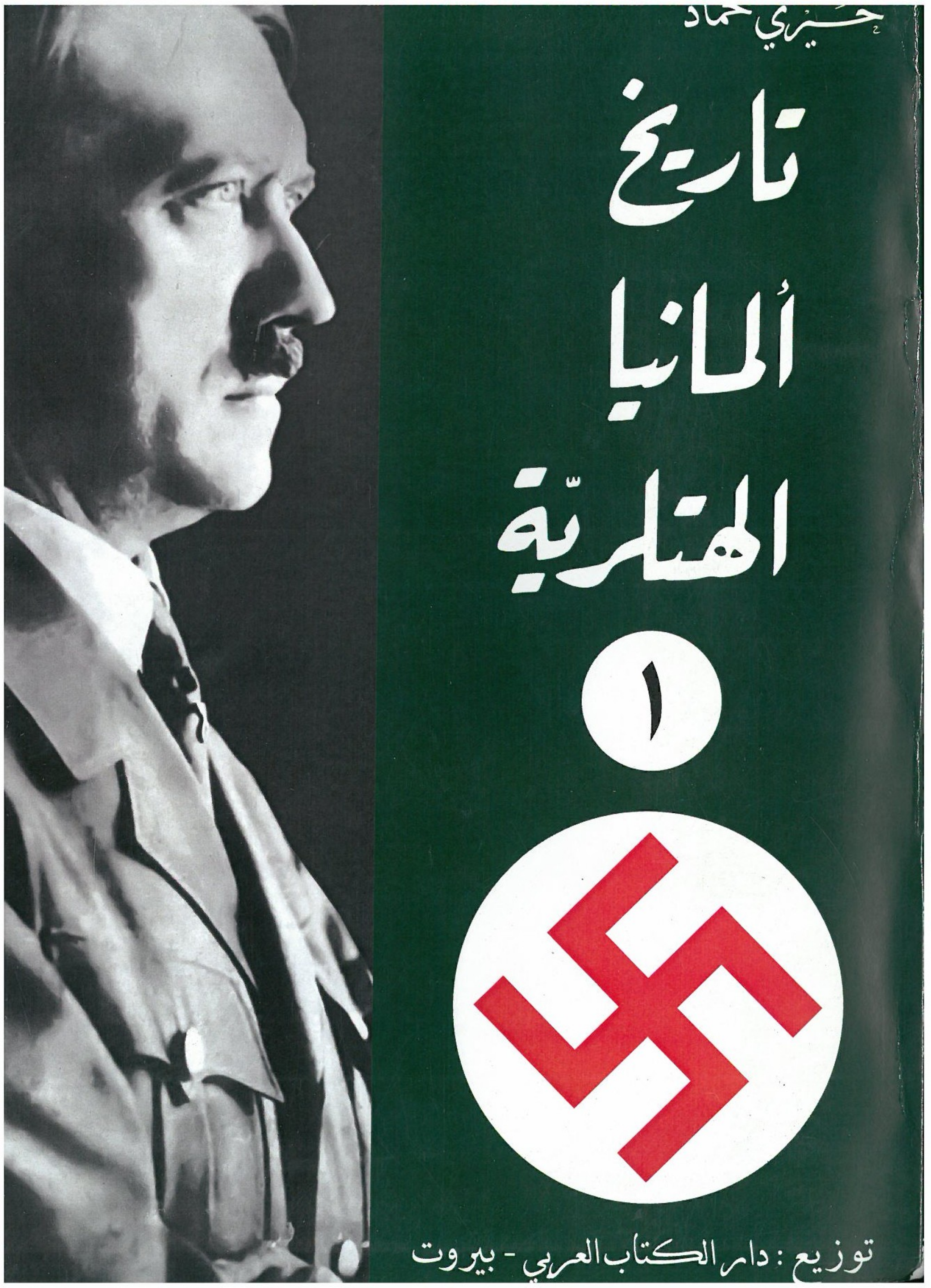
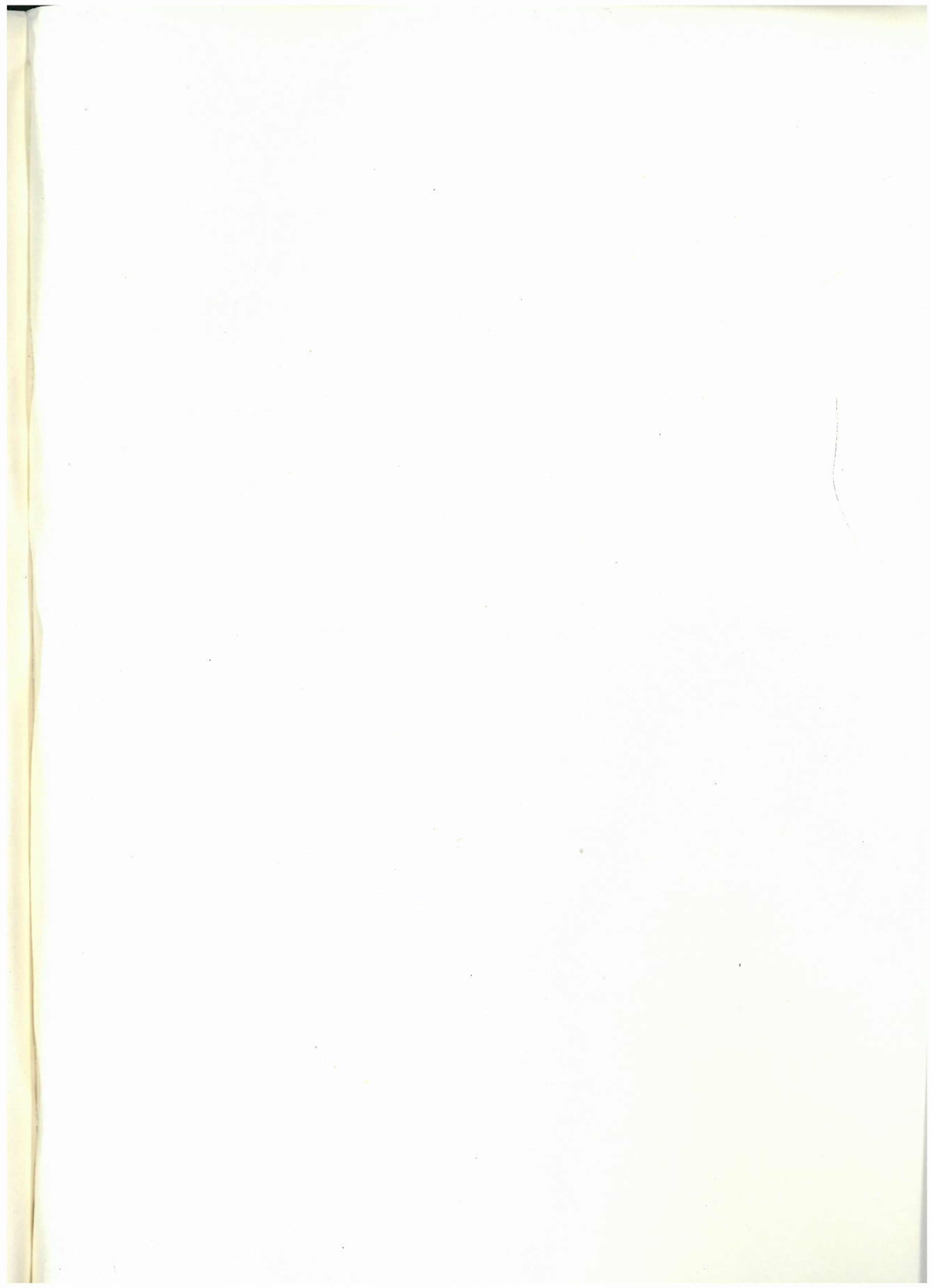

خيري حماد
تاريخ
ألمانيا
الهتلرية
١
توزيع : دار الكتاب العربي - بيروت

١

تاريخ ألمانيا الهتلرية



وليام شيرر



نشأة وسقوط الرايخ الثالث

تعريب

خيري حماد

منشورات مكتبة المثنى - بغداد

توزيع دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

THE RISE AND FALL OF THE THIRD REICH

***

A History of NAZI Germany

by

William L. Shirer.

الطبعة الأولى – آب (اغسطس) ١٩٦٢

الطبعة الثانية – حزيران (يونيه) ١٩٦٦

مقدمة الطبعة العربية الثانية

اصبحت الحرب العالمية الثانية واحداثها ، شأناً من شؤون الماضي والتاريخ ، فقد انقضى على نهايتها نحواً من عشرين عاماً او يزيد ، وظهر جيل جديد من الشباب في العالم ، لم يعش ايامهـــا ، ولم يكتو بنيرانها ، ولم يتتبع احداثها واهوالها . وهو لا يعرف عنها الا ما يكون قد سمعه من ذويه ، من ابناء الجيل الذي سبقه والذي عاش في خضمها، أو ما يكون قد قرأه عنها من كتب وسير وتواريخ . ولم يوضع حتى الآن تاريخ رسمي لهذه الحرب أو للاحداث الدولية التي سبقتها باستثناء ما صدر من مذكرات من كتب كبار الساسة الذين كانوا يوجهون سياسات دولهم ويتحكمون في مقدراتها ، أو من كتب كبار القادة العسكريين الذين خاضوا غمار معاركها . لكن مثل هذه المذكرات لا تتصف بالشمول ، لأنها تتناول الموضوع من زوايا محددة ، ومن وجهات نظر معينة ، ولأنها تروي الاحداث المتصلة بدولة من الدول أو جبهة من الجبهات .

ولعل هذا الكتاب الذي قمت بتعريبه والذي صدرت طبعته الأولى ، وفي مجلداته الاربعة في ابريل من عام ١٩٦٣ ، هو اكثر الكتب التي اوفت هذا الموضوع حقه من العناية والاهتمام ، وتناولت تاريخ المانيا في عهد هتلر ، وتاريخ الحرب العالمية الثانية ، من مختلف نواحيهـا وزواياها . ولا ريب في ان الرواج الذي لقيه هذا الكتاب في طبعته الانجليزية الاصلية ، اذ بيعت منه ملايين النسخ في

السنة الأولى من صدوره ، وظل اكثر الكتب رواجاً منذ صدوره حتى الآن ، والرواج الذي لقيته الطبعة العربية الأولى منه ، بالرغم من ضخامة حجمه الذي يقع في اربعة مجلدات تتجاوز صفحاتها الالفين والمائة صفحة ، ومن ارتفاع ثمنه نظراً لضخامته ، يدلان على اهمية هذا الكتاب الذي احتل مكاناً مرموقاً في المكتبة العربية ، وعلى مدى اهتمام القارىء العربي بالدراسات الجدية التي تتناول أي موضوع من المواضيع ، مما يبشر بالخير ، ويشير الى ما حققته ثورتنا الفكرية من انتصارات ضخمة في شتى ارجاء وطننا العربي الكبير .

وقد سبق لي ان قدمت هذا الكتاب الضخم في الطبعة الأولى ، وهي المقدمة التي يراها القارىء الكريم ، بعد انتهائه من مطالعة هذه التقدمة . ولكنني اود ان اضيف هنا ، ناحية ارى انها جديرة باطلاع القارىء العربي عليها . فقد سبق لي أن عربت كتابين وهما مذكرات ايدن ومذكرات تشرشل ، وهما يتناولان موضوع كتابنا الحالي من زاوية واحدة ، ووجهة نظر معينة ، هي وجهة النظر البريطانية . كما عربت مذكرات ديجول ، وهي تتناول الموضوع نفسه من وجهة النظر الفرنسية . وعربت كتاباً عن موسوليني والعهد الفاشي في ايطاليا . وبعكس وجهات نظر موضوعية ، للمرة الأولى عن هذه الحقبة من تاريخ ايطاليا ، اذ كانت الكتب التي صدرت عنها قبل هذا الكتاب الذي عربته ، اما معادية او مؤيدة . واذا ما اضفنا الى مجموعة الكتب هذه ، هذا الكتاب الذي يتناول الموضوع من وجهة نظر امريكية – المانية بحكم طبيعة مؤلفه ، صاحب الجنسية الامريكية والأصل الالماني ، يتبيّن لنا ان الموضوع كاد يستوفي حقه من الالمام الشامل ، ولا ينقصه إلا كتاب يتناوله من وجهة النظر السوفياتيه ، وهو مـــا انا في سبيل الوصول اليه عما قريب باذن الله .

واذا ما تمّت هذه السلسلة ، وستتم باذن الله ، يصبح في وسع الباحث العربي اذا كان مؤرخاً . ان يطلع على جميع وجهات النظر في الاحداث العالمية التي

وقعت في الربع الثاني من قرننا الحالي ، وان يخرج منها بدراسة عميقة تساعده على عرض هذا الموضوع من وجهة نظر عربية ، تتناول احداث العالم وسياساته بالنسبة الى الوطن العربي في هذه الفترة الزمنية المحددة التي تعتبر من اهم الفترات في تاريخ العالم كله . ولعلي أوفق في اداء هذه المهمة ، بعد ان اكون قد اوفيت الموضوع حقه اولاً ، بعكس جميع وجهات النظر المختلفة فيه ، ومن جميع الاطراف والزوايا .

ونعود الآن الى موضوع هذا الكتاب الذي نضع طبعته الثانية ، بعد تنقيحها في ايدي القراء العرب ، فأقول ان طبعته الأولى ، قوبلت ولله الحمد ، بعاصفة من التقدير ، من كبار الكتاب والنقاد ، يستحقها الكتاب وقد لا يستحقها شخصي المتواضع . وقد كتبت عنه المقالات الكثيرة وكلها تجمع على اطراء الجهد الذي بذل في اعداد هذا الكتاب الضخم وفي نقله الى اللغة العربية . وأرى ان اقتطف في هذه التقدمة ، بعض ما كتب فيه .

قال الاستاذ احمد بهاء الدين في صحيفة « الاخبار » القاهرية في عددها الصادر في ١٥ ابريل ١٩٦٣ ، تحت عنوان « ظاهرة اسمها خيري حماد » ما نصه : « يكفي ان يكون المرء صديقاً للاستاذ خيري حماد ، لكي تصبح عنده — اوتوماتيكياً — مكتبة عامرة . فالاستاذ خيري حماد يكاد يكون انشط من يترجم المؤلفات العالمية الى المكتبة العربية . وهو مع ذلك يترجم في دقة كبيرة تميّزه عن كثير من الترجمات المختصرة او المشوهة ... حتى اصبح بنشاطه الهائل اشبه بظاهرة غير طبيعية ... !

« هذا الاسبوع مثلاً تلقيت منه مع الاهداء الرقيق ، خمسة مجلدات ضخمة . اربعة مجلدات منها مجموع صفحاتها ٢٢٠٠ صفحة هي ترجمة كتاب وليم شيرر الضخم عن « نشأة وسقوط الرايخ الثالث » عن تاريخ المانيا الهتلرية ، والمجلد الخامس عن كتاب السيدة دورين وارينر ، عن الارض والاصلاح الزراعي في الشرق العربي .

« وانا دائماً اعجب من قدرة خيري حماد المذهلة على الترجمة ، لأنني جربت الترجمة مراراً ، دون نجاح ... »

وبعد حديث عن تجربة سيادته مع الترجمة قال ... « وعندما قرأت كتاب وليم شيرر هـذا منذ مدة ، كتبت عنه في اخبـار اليوم ، متمنياً ان يترجم الى العربية ، وكانت امنية لم اتوقع لها ان تُحقق ، لأن الكتاب ضخم ، وموضوعه ليس موضوعاً « تجارياً » أي من الموضوعات التي توزع توزيعاً كبيراً ... ولم اكن اتصور ان خيري حماد يطلع بهذه المهمة الفدائية ...

« وتقترن عصور النهضة في حياة كل أمة بالترجمة ... وأول سطر تتعلمه في سير ازدهار الحضارة العربية مثلاً ايام الامويين والعباسيين هو ان الازدهار صاحبه عصر تم فيه نقل الآثار العالمية الى اللغة العربية . وانني لأتمنى ان يأتي اليوم الذي يظهر فيه كل كتاب عالمي جديد باللغة العربية ، في نفس الوقت الذي يظهر فيه بلغته الاصلية ، كما يحـــدث في اللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية والروسية والايطالية اليوم » .

وكتب الاستاذ لطفي الخولي ، في صحيفة « الاهرام » في عددها الصادر في ١٩ نوفمبر ١٩٦٣ وتحت عنوان « خيري حماد – عميد المترجمين العرب » يقول ...

« في وطننا العربي ، ككل مجتمع ، عديد من الظواهر غير الطبيعية ، بعضها ايجابي وبعضها سلبي .

« وفي حقل الثقافة ، يلتقي المثقفون العرب اليوم ، ومنذ سنوات ، بخيري حماد ، كظاهرة غير طبيعية من النوع الايجابي . واقصد بعبارة « غير طبيعية » هنا ، الخروج عن دائرة المألوف والمتوقع من الامور .

« والواقع ان خيري حماد يملك قدرة فذة على ترجمة امهات الكتب الاجنبية الدقيقة ، الى لغتنا العربية ... ترجمة دقيقة واقعية وكاملة ، حتى لكأنك تقرأ الاصل بذات ايحاءاته واجوائه .

« اقرأ ترجمته الرائعـة ، للكتاب الضخم « قيام وسقوط الرايخ الألماني الثالث » للكاتب الامريكي وليم شيرر . ولقد صب شيرر كتابه في قالب ادبي اقرب الى قالب القصص منه الى قالب البحث الجاف . ولعله استهدف من ذلك ان يوسع دائرة قراء كتابه ، ليوسع بالتالي – علمياً وواقعياً – من دائرة الناقمين على النازية تاريخاً واسلوباً . ونجح شيرر في تحقيق هدفه ، واصبح كتابه اليوم ، اروج الكتب انتشاراً وبيعاً في العالم . وجاء خيري حماد ، فاحتفظ بمهارة فائقة بقالب الكتاب الادبي وحيوية الاسلوب والعرض ، فحقق بمثل هذا التعريب الواعي ذيوعاً كبيراً للكتاب في الوطن العربي .

« ولا تنحصر قدرة خيري حماد في اجادته للترجمة ، بحيث يتقمص قلمه ، وهو يجري ، محولاً العبارة الانجليزية الى عبارة عربية سهلة ،قلم الكاتب الاصيل فحسب ،وانما في سرعته الفائقة في الترجمة والانتاج .

« خلال اقل من اربع سنوات ، استطاع ان ينقل الى العربية آلافاً من الصفحات الانجليزية الجادة الى العربيـة . ترجم مذكرات ونستون تشرشل كاملة (١٦٥٠ صفحة) ، والامير (٢١٦) صفحة ، ومطارحات مكيافلي (٨٠٠ صفحة) وباسم الحرية لقوامي نكروما (٣٧٤ صفحة) والسلطان لبرتراند راسل (٣٤٠ صفحة) وثورة افريقيا لبانيكار (٢٨٢ صفحة)والطريق الى السويس لارسكين تشيلدرز ، ويوميات جوبلز ، وبعض مسرحيات اوسكار وايلد ، واخيراً السياسة بين اصدقائها واعدائها لبرنارد كريك » .

« ولعل خيري حماد ، بهذا الانتاج الجيد المتنوع في الترجمة ، كماً وكيفاً ، على السواء ، هو الوريث الحقيقي لقدرة استاذنا الراحل ابراهيم المازني .

« ولقد شككت يوماً في ان خيري حماد ، هو المترجم الوحيد للكتب التي تحمل اسمه كمعرب ، وافضيت اليه بشكوكي في وجود « شركة ترجمة مساهمة من مترجمين متعددين » تستتر خلف اسمه . ولكن هـذه الشكوك اصطدمت

بوحدة اسلوب الترجمة بالنسبة لكل كتاب ، وبالسمات المشتركة بين جميع كتبه المترجمة . وكشف لي خيري حماد ، عن سره ، وهو انه يعيش يومه على غرار يوم تشرشل المعروف، حيث يستولد من اليوم العادي الواحد، ثلاثة ايام انتاجية سيتفرغ فيها كلية للترجمة .

« ونحن نغمط حق خيري حماد اذا نظرنا اليه اليوم كعميد للمترجمين العرب فحسب ، فقد أثرى المكتبة العربية ، بجانب ترجماتـــه بالكتب المؤلفة عن تاريخ المغـامر الاستعماري المعروف عبد الله فيلبي في الوطن العربي ، وبالذات في المملكة السعودية ، وكذلك بحثه النظري والميـــداني عن قضايانا في الامم المتحدة .

« وخيري حماد يعيش في قاهرتنـــا اليوم ، مواطناً منتجاً ، بعد ان دعاه الدكتور عبد القادر حاتم ، الى الاسهام في حركة الترجمة الواسعة التي تقوم بها وزارة الثقافة ، واجهزتها المختلفة ، والاستفادة بخبرته عملياً في تدريب جيل جديد من المترجمين في بلادنا لتوسيع نوافذنـا المفتوحة على الفكر العالمي .

« والحق اننا ، ونحن نبني مجتمعنا الميثاقي الجديد، نحتاج الى مئات من امثال خيري حماد ، وطاقاته الانتاجيـــة ، كي نتيح الفرص الموضوعية ، للتفاعل مع التراث الانساني وحركة الثقافة العالمية التقدمية بجميع فروعها » .

وكتب الاستاذ صالح جودت في مجلة « المصور » القاهرية في عدد ٣ مايو ١٩٦٣ يقول ... « ظفرت المكتبة العربية بكتاب ضخم ، تقع اجزاءه الاربعة في ٢١٤٦ صفحة ، من القطع الكبير ، ألفه الصحفي الامريكي وليام شيرر ، وعربه المؤرخ العربي الكبير خيري حماد ، وهو يعد من اعظم وثائـــق التاريخ المعاصر ، اسمه « تاريخ المانيا الهتلرية » .

« انه يروي القصة الكاملة للرايخ الثالث ، منذ نشأته الى سقوطه ، معتمداً

على مئات الاطنان من الوثائق ، التي وقعت في ايـــدي الحلفاء بعد نهـاية الحرب العالمية الثانية .

« واكون مغالياً اذا قلت ، اني قرأت كل هذه الصفحات التي تربو على الالفين، وكل صفحة منها تحتاج الى كثير من التأمل ، وقد تسرق خيال القارىء، لتعود به الى الماضي غير البعيد ، الذي عشنا عن كثب في احداثه التي اقتربت منا حتى بلغت مشارف الاسكندرية في حملة روميل .

« والأصـح من ذلك ان اقول ، انني استعرضت صفحاته ، ووقفت عند الكثير منها ، ثم انتقيت منه فصولاً لم املك الا ان اقرأها بامعان ، كذلك الفصل الممتع الحزين ، الذي يروي قصة ايفا براون مـع هتلر . وهي من اروع القصص العاطفية التي تنتظر شكسبير الجديد الذي يكتبها مأساة من اعجب المـآسي العاطفية في التاريخ » .

وكتب الاستاذ ناصر الدين النشاشيبي في صحيفة « الجمهورية » وفي عـددها الصادر في ١٧ ابريل ١٩٦٣ يقول ... « قرأت الجزء الأول من مجلدات الرايخ الثالث التي احالها خيري حماد ، بالعرق ، والتعب ، والسهر ، والجهـد ، الى حروف وصفحات ومعان وصور ، تنبض كلها بالحياة والقوة .

« ولم اعد ادري اينا اسرع من الآخر ، خيري الصديق ، في ترجمة مئات الصفحات الى العربية ، أم انا في الاشادة بهذا المجهود الضخم الذي رفع صاحبه الى مرتبة الامتياز والكمال » .

هذه مقتطفات مما كتبه بعض كبار الكتّـاب ، حول هذا الكتاب الضخم الرائع عند صدور طبعته الأولى ، مما اشكرهم عليه بالغ الشكر ، معترفاً لهم بالفضل الذي طوقوا عنقي به . ولا ريب في ان الكتاب ، وقـــد ظل يحتل صدور الصحف الادبية وتعليقاتهـــا في عالم الغرب شهوراً طويلة عند صدور نسخته الانجليزيـة ، يستحق هذا الاهتمام الذي قوبلت به طبعتنا العربية ،

ونفادهـا بالرغم من وفير عدد نسخها في هـذه الفترة القصيرة التي انقضت على صدوره ، مما دفعنا الى اصدار طبعة جديدة منه ، بفضل الناشر الذي اقدم على مثل هذا المشروع الضخم البالغ التكاليف . ولذا فله مني ايضاً اعمق الشكر والتقدير .

القاهرة في أول نوفمبر ١٩٦٥

خيري حماد

مقدّمة المعرّب

تسعة وعشرون عاماً انقضت مذ وصل هتلر الى دفة الحكم في المانيا ، ليقضي اثني عشر عاماً فقط ، قائماً على أمرها . موجهاً سياستها ، ومتصرّفاً في أمرها ، تصرف الحاكم الفرد ، الذي تعتبر مشيئته قانوناً وارادته شرعة وسنناً ، وليترك من الدوي في العالم بأسره ، ما لم يتركه أي فرد آخر ، وعلى نفس النطاق من الاتساع ، الذي لم يقتصر أمره على زاوية أو ناحية أو قارة ، وإنما شمل كل مكان على وجه هذه البسيطة .

وكان العالم في هذه الفترة القصيرة التي حكم فيها هذا الطاغية المصاب بجنون العبقرية ولوثة التعصب الأعمى للنزعة الفردية والعنصرية ، يقف مبهور الانفاس ، مشدوه الفكر ، متوتر الاعصاب ، يشهد شريطاً سينمائياً متحركاً بسرعة جنونية ، قوامة الاثارة ، ولُحمته العمل المتهور العجول ، وسداه المهابة والخوف النابعان عن الارهاب والبطش . فهو لا ينتهي من أزمة يثيرها هذا الحاكم الفرد ، الا ويجد نفسه محاطاً بأزمة تفوقها بأساً وعنفاً ، وتبزها تهوراً وجنوناً ، الى ان يصل الشريط الى ذروته ، متمثلة في الحرب الكونية الثانية التي شملت كل أرض وبحر وسماء ، والتي سجلت من الأهوال ومناظر الرعب ، ما لم تسجله أية حرب سابقة لها ، في مدى اتساعها وشمولها ، وكثرة ضحاياها وخسائرها . ثم ينتهي بالصورة الحتمية التي تمثل نهاية كل طاغية .

وقد عاش الكثيرون من أبناء هذا الجيل ، وقائع هذا الشريط من أولها الى آخرها . واكتوى بعضهم بنارها ، وتأثر بأهوالها ومفازعها ، ولكنها غدت بالنسبة إليهم أمراً من أمور الماضي ، وشجناً من شجون التاريخ القريب ، لكن الكثيرين ، وأعني بهم أبناء الجيل الجديد الصاعد ،لا يذكرون من أمره شيئاً سوى ما يقرأونه في بعض الكتب والسير والمذكرات التي كتبت بعد انتهاء الحرب الثانية ، والتي لم تكن شاملة كل الشمول في عرضها ، وانما تناولت زوايا معينة من زوايا الوقائع والأحداث ، وباتوا والحالة هذه لا يعرفون الحقائق عنها لأنهم لم يحيوها ، ولا يدركون منأهوا لها الا ما وصل الى مسامعهم من أمرها ، ولو عاشوها كما عاشها أبناء الجيل الذي سبقهم ، لما وقفوا مكتوفي الأيدي على النحو الذي يقفونه اليوم تجاه هذه الاستعدادات المحمومة التي تقوم على قدم وساق ، في اكثر من قارة لخوض غمار حرب جديدة تغدو أهوال الحرب التي سبقتها تافهة ولا شأن لها ازاء ما تخبئه في طياتها من شقاء للجنس البشري ومن دمار للحضارة ، وفناء للحياة ، نتيجة الابتكارات الجهنمية في ميدان السلاح الذري ، ولما تسامحوا مع هذه الاتجاهات الخطرة التي يتجه اليها العالم نتيجة الحرب الباردة بين الكتلتين الماردتين التي قد تنقلب في اية لحظة ، بنزوة عابرة من نزوات الجنون ، الى معركة ضارية لا تبقي ولا تذر .

وهذا الكتاب الضخم الذي نقدمه الى القراء اليوم ، صورة مرعبة للأحداث التي مر بها العالم ، في الربع الثاني من القرن الحالي ، تحاول الموضوعية محاولة جدية صادقة ، ولكنها لا تستطيع الخروج على الهوى ، إذ أن راسمها ،عاش في خضم تلك الاحداث ، ورأى ويلاتها،وتابعها متابعة شخصية بحكم عمله الصحفي الذي اقتضاه العيش في المانية هتلر ، وفي ظل رايخه الثالث . ثم عاد بعد انتهاء المعركة العالمية المخيفة ليدرس كل ما ظهر من وثائق عنها ، دراسة العليم ببواطن الأمور ، الخبير بتسلسل أحداثها ، ليخرج من كل ذلك بهذا المجهود الضخم الذي أرى أن أصدق ما قيل في وصفه ما نشرته صحيفة «الغارديان» البريطانية

في عرضها للكتاب اذ قالت « لا نستطيع ان نتصور كتاباً يوضع بين ايــدي القراء الذين يرغبون في معرفة ما وقع في المانيا بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٥ ، وفي رؤية الأسباب التي تدفع المرء الى عدم نسيان تاريخها أعظم من هذا الكتاب الرائع الشامل » .

وعندما يطالع القارىء هذا الجهد الضخم الذي حاولت نقله الى العربيــة بكل صدق وامانة وتجرد ، يكاد يلمس ان مؤلفه كان يكتبه بمداد من آلامه ، متأثراً بالاحداث التي عاش في خضمها ، ويحس بأن هذه الآلام وذلك التأثر كانا العامل الأساسي في خروجه على الموضوعية حيناً وانسياقه مع عواطفــه احياناً ، وان كان هذا الخروج وذلك الانسياق لا يمسان جوهر الموضوع الذي يعالجه ولبابه ، وانما يتناولان بعض العبارات التي يستخدمها في وصف حادث أو رسم شخصية ، دون أن يضعفا من قيمته كتاريخ .

لكن هذا الشعور الذي يحس به المؤلف وهو يكب على هذا التاريخ يرسمه لقرائه ، صورة في حد ذاتها لما يحس به الجنس البشري قاطبة ، باستثناء قلة من الناس ، تزدهر مصالحهم على آلام الآخرين ، وتتضخم ثرواتهم على حساب الويلات والاهوال التي تنزل بالبشرية . ولعل أحسن ما قيل في التعبير عن هذا الشعور ما كتبه أحدهم -- وهو المستر سنو - معلقاً على هذا الكتاب اذ قال : « انه لعرض شامل رائع ، لما يقف اليوم دون أي تعرض للشك ، كأسوأ حقبة في التاريخ الانساني . ومن المهم ان لا ننسى هذا التاريخ ابداً . وقد عزمت عزماً أكيداً على ان لا انساه » .

أجل انه تاريخ لا ينسى ، وضعه مؤلف كان من أبرز رجال الصحافة لا في بلاده أمريكا فحسب بل وفي العالم أيضاً ، وقد عاش في باريس ولندن وبرلين وفيينــا وروما ، ورافق هتلر في نشوئه واوج قوته ، وكان آخر صحفي

أمريكي غادر المانيا بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ، وقد قضى في إعداده اكثر من خمسة أعوام درس في غضونها اطنان الوثائق وعشرات الكتب .

وها نحن نضعه بين أيدي قراء العربية فلعل في قراءته ما يفيد وينفع .

٥ — ٥ — ٦٢

خيري حماد

مقدّمة المؤلف

لم يكن ليخطر ببالي ان احاول كتابة هذا الكتاب ، على الرغم من انني عشت في الرايخ الثالث في النصف الأول من حياته القصيرة ، حيث كنت اعمل وارقب عن كثب ادولف هتلر ، وهو يوطد سلطانه كديكتاتور ويحكم امته العظيمة والمضلـّلة ، ثم يقودها الى الحرب والفتح ، لولا أنني بحكم ما مررت به من تجارب شخصية شهدت حادثاً فريداً من نوعه في التاريـــخ في نهاية الحرب الكونية الثانية .

وكان هذا الحادث ،هو الاستيلاء على معظم الوثائق السرية للحكومة الألمانية بجميع فروعها . بما في ضمنها وثائق وزارة الخارجيـــة والجيش والاسطول ، والحزب الاشتراكي الوطني ، وشرطة هنريخ هملر السرية . ولا اكاد اصدق ، ان مثل هذا الكنز الضخم والثمين قد وقع من قبل في ايدي المؤرخين المعاصرين. فلقد كانت مثل هذه الوثائق عند الدول العظيمة ، حتى بعد هزيمتها في الحرب ، وبعد قلب حكوماتها عن طريق الثورة ، كما حدث في المانيـــا وروسيا عام ١٩١٨ ، تظل مصونة في ايدي السلطات الحاكمة الجديدة ، التي لم تكن لتنشر منها في النهاية ، الا تلك الوثائق التي تخدم مصلحتها .

ولم يؤد انهيار الرايخ الثالث السريع ، في ربيع عام ١٩٤٥ ، الى وقوع مجموعة ضخمة من وثائقه السرية فحسب ، بل والى وقوع مواد لا تقدر بثمن

ايضاً كاليوميات الخاصة والخطب السرية للغاية ، وتقارير المؤتمرات والرسائل ، وحتى تسجيلات الاحاديث بين الزعماء النازيين التي التقطت بصورة سرية عن طريق مكتب خاص اقامه هيرمان غورنغ في وزارة الطيران .

فقد احتفظ الجنرال فرانز هولدر ، مثلاً ، بيوميات ضخمة كتبت بطريقة اختزال (غابلز برغر) ، وهي لا تتناول الاحداث من يوم إلى آخر فحسب ، بل ومن ساعة الى اخرى ايضاً. وهذه اليوميات مصدر فريد من نوعه للمعلومات عن الفترة الواقعة بين الرابع عشر من آب عام ١٩٣٩ والرابع والعشرين من ايلول عام ١٩٤٢ . وهي الفترة التي اشغل فيها منصب رئيس هيئة اركان حرب الجيش والتي كان فيها على اتصال دائم بهتلر وغيره من قادة المانيا النازية . وعلى الرغم من وجود يوميات أخرى ذات قيمة عظيمة ، كتلك التي دوّنها الدكتور جوزف غوبلز وزير الدعاية ، والوثيق الاتصـــال حزبياً بهتلر ، أو تلك التي وضعها الجنرال الفريد يودل ، مدير العمليات الحربية في القيادة العليا للقوات المسلحة ، الا ان يوميات هولدر تظل ، اكثر اليوميـــات التي من نوعها كشفاً للاسرار . وهناك يوميات اعدتها القيادة العليا للقوات المسلحة نفسها ، والقيادة البحرية العليا . ولا ريب في ان الستين الفاً من ملفات القوات البحرية الألمانيـة التي تم الاستيلاء عليها في « شلوس تامباخ » على مقربة من كوبرغ ، تضم جميع البرقيات والرسائل المتبادلة ، وسجلات السفن البحرية واليوميات والمذكرات وما شابهها ، التي تتناول تاريخ الاسطول في فترة تنتهي في نيسان عام ١٩٤٥ عندما تم الاستيلاء عليها وتبدأ في عام ١٨٦٨ عندما ظهر اسطول المانيا العصري الى حيّز الوجود للمرة الأولى .

وتضم الاربعمائة والخمسة والثمانون طناً من وثائق وزارة الخارجية الألمـانية التي استولى عليها الجيش الامريكي الأول في مختلف القلاع والمنـــاجم في جبال « هارز » وهي على وشك الاحراق بأمر من برلين ، المعلومات المتعلقة لا بعهـد الرايخ الثالث وحده ، وانما بما سبقه من عهود ترجع الى جمهورية ويمـار والى بداية الرايخ الثاني في عهد بسمارك . وظلت اطنان الوثائق النـــازية قابعة في

صناديقها المقفلة والمختومة في احد مستودعات الجيش الأمريكي في الاسكندرية في ولاية فرجينيا ، دون أن تبدي حكومتنا أي اهتمام حتى بفتح هذه الصناديق لرؤية ما تنطوي عليه من وثائق تاريخية . وتم اخيراً في عام ١٩٥٥، وبعد عشر سنوات من الاستيلاء عليها ، بفضل الجمعية التاريخية الامريكية ، وبسخاء بعض المؤسسات الخاصة ، فتح وثائق مستودع الاسكندرية ، وعهد الى مجموعة صغيرة للغاية من المؤرخين تعوزهم فئة صغيرة وغير كافية من الموظفين والمعدات بدراسة هذه الوثائق وتصويرها قبل ان تتولى الحكومة ، وهي المعنية بالأمر ، والملحفة بسرعة اعادتها الى المانيا ، نقلها الى الحكومة الألمانية . وقد ثبت ان هذه الوثائق تؤلف كشفاً ثميناً .

وكان ثمة قيمة كبيرة أيضاً للوثائق المختزلة الى حد ما والتي تتناول واحداً وخمسين مؤتمراً من المؤتمرات التي عقدها الفوهرر ، لبحث الأوضاع العسكرية اليومية كما كان مقر قيادته يراها ويدرسها ،مع النص التفصيلي الكامل لأحاديث سيد الحرب على موائد الطعام مع اخوانه من قادة الحزب وسكرتيرية ، ابان الحرب ، وقد تم انقاذ القسم الأول من هذه الوثائق من حطام مخلّفات هتلر وأوراقه التي اسودّت من الدخان ، من برختسغادن على يدي ضابط استخبارات من ضباط الفرقة الامريكية (١٠١) من قوات المظليين ، بينما عثر على القسم الثاني منها بين أوراق مارتن بورمان .

وجمعت مئات الألوف من الوثائق النازية التي تم الاستيلاء عليها بسرعة هائلة في نورمبرغ ، لتقدم كأدلة في محاكمات كبار مجرمي الحرب النازيين ، وعندما كنت أشهد هذه المحاكمات في مستهلها ، جمعت مجموعات من النسخ المصورة لهذه الوثائق ، كما جمعت فيما بعد ، الاثنين والاربعين مجلداً المطبوعة ، والتي تضم الوثائق والشهادات ، وقد ألحق بها عشرة مجلدات من ترجمات بعض الاوراق الهامة جداً الى الانكليزية . وكانت لنصوص الوثائق الأخرى التي طبعت فيما بعد في سلسلة تتألف من خمسة عشر مجلداً ، والتي كان لها مساس بمحاكمات نورمبرغ اللاحقة أهمية كبيرة ايضاً ، على الرغم من حذف الكثير من الادلة

والشهادات منها .

وبالاضافة أخيراً الى هذا الكنز الذي لا مثيل له من الوثائق، فهناك سجلات التحقيق الذي اجري مع كبار القادة العسكريين الألمان وكبار موظفي الحزب والحكومة ، والشهادات المشفوعة باليمين التي تقدموا بها في محاكمات ما بعد الحرب المتعددة ، وهي شهادات أمّنت مواد للكتابة لا مثيل لها كما اعتقد ، في الحروب السابقة من مصادر مماثلة .

ولم اقرأ بالطبع ، جميع هذه الكميات الضخمة من الوثائق ، اذ ان مجرد قراءتها يعدو حدود الطاقة لإنسان فرد . ولكنني شققت طريقي على أي حال في قراءة نسبة لا بأس بها منها ، ولم يلحق بي البطء في هذه المهمة ، الا لعين السبب الذي يلحق بالكادحين في مثل هذه الكروم الغنيّة ، بسبب الافتقار الى اية فهارس منظمة .

ولعل من البارز حقاً ، ان الكثيرين منا ، من الذين كانوا يقيمون في المانيا في العهد النازي كصحفيين أو دبلوماسيين ، كانوا لا يعرفون الكثير مما يدور وراء الواجهة الامامية للرايخ الثالث . فالديكتاتورية الجماعية تعمل بطبيعتها في منتهى السرية ، وهي تعرف كيف تحافظ على تلك السرية عن أعين الغرباء المتلصّصه . وكان من السهل تسجيل الأحداث العارية والمثيرة والداعية الى الاستفزار التي وقعت في الرايخ الثالث وشرحها ، كوصول هتلر الى الحكم ، وحريق الريخستاغ ، وعملية تطهير روهم الدموية ، والانشلوس (الاتحاد مع النمسا) ، واستسلام تشمبرلين في ميونيخ ، واحتلال تشيكوسلوفاكيا ، والهجوم على بولندة واسكندينافيا والغرب والبلقان وروسيا ، واهوال الاحتلال النازي ومعسكرات الاعتقال. أما القرارات ذات الأهمية التاريخية التي كانت تتخذ سراً ، والدسائس ، والخديعة ، والدوافع والانحرافات التي ادت اليها ، والادوار التي قام بها الممثلون الرئيسيون وراء الكواليس ، ومدى ما مارسوه من ارهاب ، واسلوبهم في تنظيمه ، فقد ظلت كلها ، وغيرها خفية عن أعيننا ، الى ان كشف النقاب عن وثائق المانيا السرية .

وقد يخيل الى البعض ان من السابق لأوانه محاولة كتابة تاريخ عن الرايخ الثالث ، وان مثل هذه المهمة ، يجب ان تترك الى الاجيال اللاحقة من الكتّاب الذين يتيح لهم عنصر الزمن فرصة التطلع الى الوراء . ولقد واجهت هذه الفكرة مسيطرة على فرنسا بصورة خاصة عندما مضيت إليها للقيام ببعض البحوث فيها . وقيل لي هناك أن من المستحسن ان لا يعالج المؤرخون مواضيع في هذا العصر ، حدثت بعد عهد الحقبة النابولونية . لأن الوقت لم يصبح مهيئاً بعد لمعالجة مواضع اكثر عصرية .

وهناك بعض الحق في وجهة النظر هذه . ولقد انتظر معظم المؤرخين خمسين سنه أو قرناً كاملاً او اكثر ، قبل ان يحاولوا كتابة شيء عن بلاد أو عن امبراطورية أو عن حقبة . ولكن ألم يكن هذا ناجماً بصورة رئيسية ،عن الحاجة الى وقت طويل لتيسر حصولهم على الوثائق الصالحة ، وضمان تقديمها اليهم ما هم في حاجة اليه من معلومات موثوقة ؟ ولكن على الرغم من توافر عنصر الزمن الكافي لاستقراء الاحداث الماضية ، الم يفقد التاريخ عنصراً هاماً ، وذلك لأن المؤلفين اصبحوا بسبب فوات الوقت يفتقرون الى التعرف الشخصي على حياة الازمنة التي أرّخوها واجوائها ، وعلى الشخصيات التاريخية التي كتبوا عنها ؟ .

وقد غدت جميع مواد الوثائق ، في حالة الرايخ الثالث ، وهي حالة فريدة في نوعها في متناول ايدي المؤرخين والكتاب عند سقوطه ، وازدادت ضخامة هذه الوثائق بالشهادات التي قدمها كافة الزعماء الاحياء من عسكريين ومدنيين، وقد قدمها بعضهم قبل اعدامهم وقررت بعد الحصول على هذه المصادر التي لا مثيل لها ، والتي توافرت لي بسرعة ، ومستذكراً حياة المانيا النازية، ومظهر الرجال الذين حكموها وفي طليعتهم ادولف هتلر وسلوكهم وطبيعتهم لاسيما وان ذكراهم لا تزال عالقة في فكري وفي جسدي وعظامي ، ان احاول وضع تأريخ الرايخ الثالث منذ ولادته حتى انهياره .

ولقد كتب توسيديدس معلقاً في مقدمة كتابه « تاريخ حروب البلوبونيز »

يقول : « لقد عشت الحرب كلها ، ولمـــا كنت قد بلغت سناً تمكنني من فهم الاحداث ، وايلائها عناية كاملة ، تمكنني من معرفة الحقيقة الصحيحة عنهـــا » . ولا ريب في ان كتابه هذا يعتبر من اعظم ما كتب في التاريخ .

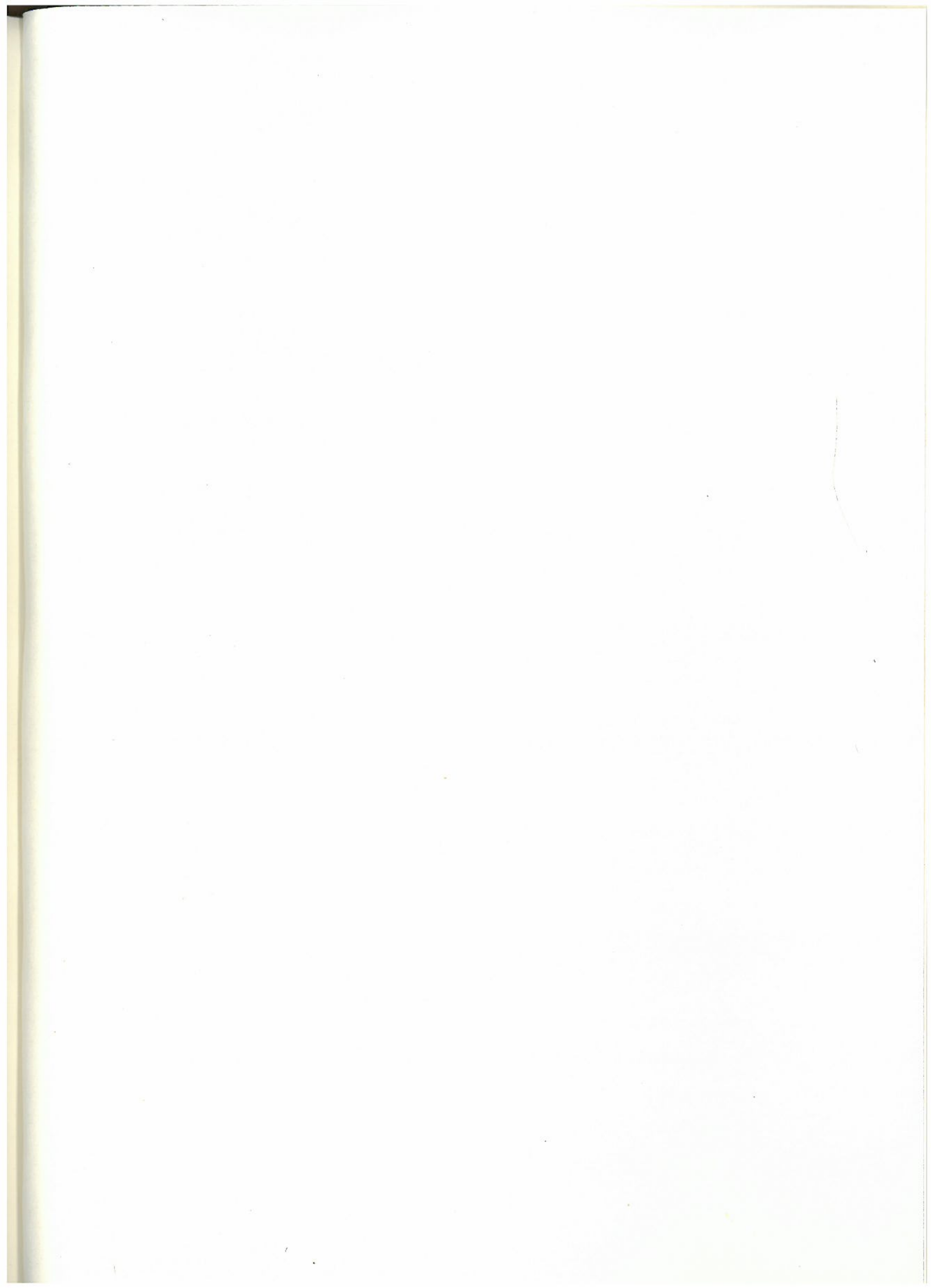
وقد وجدت ان من الصعوبة بمكان عظيم، وان ليس في الامكان دائماً، معرفة الحقيقة الصحيحة عن المانيـــا الهتلرية . ومن الطبيعي ان يكون توافر المواد الثبوتية والوثائق مساعداً للانسان في سيره على طريق الحقيقة ، اكثر مما كان في استطاعته قبل عشرين عاماً ، ولكن اتساع هذه المواد في حد ذاته كان مربكاً وكثير الازعاج . ولا ريب في ان جميع الوثائق والشهادات قد تبدو محتوية على الكثير من المتناقضات المضللة .

وليس ثمة من شك في ان اهوائي التي تنبع عـــادة من تجاربي ومن تكوين شخصيتي تتسلل عبر صفحات هذا الكتاب ، من وقت الى آخر . فأنا اكره الديكتاتوريات الجماعية كرهاً مبدئياً ، وقد غدوت اكره ديكتاتورية المانيـــا بصورة خاصة ، وتشتد كراهيتي لها، كلما طالت المدة التي اعيش فيها، واشهد الهجوم البشع الذي تشنه على الروح الانسانية ، ولكنني حاولت مع ذلك في هذا الكتاب ، ان اكون موضوعياً الى حد التزمت، تاركاً للحقائق ان تتحدث عن نفسها ، ومراقباً مصدر كل حقيقة منها . ولا تبدو أية وقائع أو مناظر أو اقتباسات مستمدة من الخيال ، فكلها ترتكز الى الوثائق ، والى شهادات شهود العيان ، أو الى ملاحظاتي الشخصية . وفي الحالات القليلة التي يظهر فيهـــا التكهن والخيال ، حيث يفتقر الى الحقـــائق ، فقد بينت هذا الوضـــع تمام البيان .

وليس لدي من شك في ان الكثيرين سيناقضون التفسيرات التي توصلت اليها، وهذا شيء متوقع طالما ان آراء الانسان ليست معصومة عن الخطأ. أما التفاسير التي غامرت بتقديمها هنا لإضافة بعض الإيضـــاح والعمق الى هذه القصة ، فهي في رأيي خير ما تمكنت من الوصول اليه ، عن طريق الأدلة ، وعن طريق ما تحقق لي من معرفة وتجربة .

وقد يكون ادولف هتلر آخر حلقة في سلسلة الفاتحين المغامرين العظام من امثال الاسكندر وقيصر ونابوليون ، وقد يكون الرايخ الثالث ، آخر الامبراطوريات التي سارت على الطريق الذي اختطته فرنسا وروما ومقدونيا ولقد اسدل الستار اخيراً على هذه المرحلة من التاريخ ، بسبب اختراع القنبلة الهيدروجينية على الأقل ، او اختراع الصواريخ القاذفة ، او الصواريخ العابرة للفضاء والتي في وسعها ان تصل الى القمر اذا أطلقت عليه.

وفي عصرنا الحديث هذا ، عصر الاختراعات القاتلة الرهيبة ، التي استعيض بها بسرعة عن الاختراعات السابقة ، فان اول الحروب العدوانية العظيمة ، ستشن ان حدثت ، على ايدي قلة من المجانين الانتحاريين ، الذين يضغطون على زر الكتروني . ولن تطول مثل هذه الحرب ، ولن تحدث وراءها حرب أخرى . ولن يكون في هذه الحرب ، فاتحون وغزاة ، بل العظام التي سوّدها الدخان ، عظام الموتى على حطام كوكب لم يبق فيه انسان .



« كلـّما فكرتُ بالشعب الألماني ، أحسست
بالألم ، وهو ألم له مكانته عند الفرد ،
وشقاؤه عند المجموع » ...

غوته

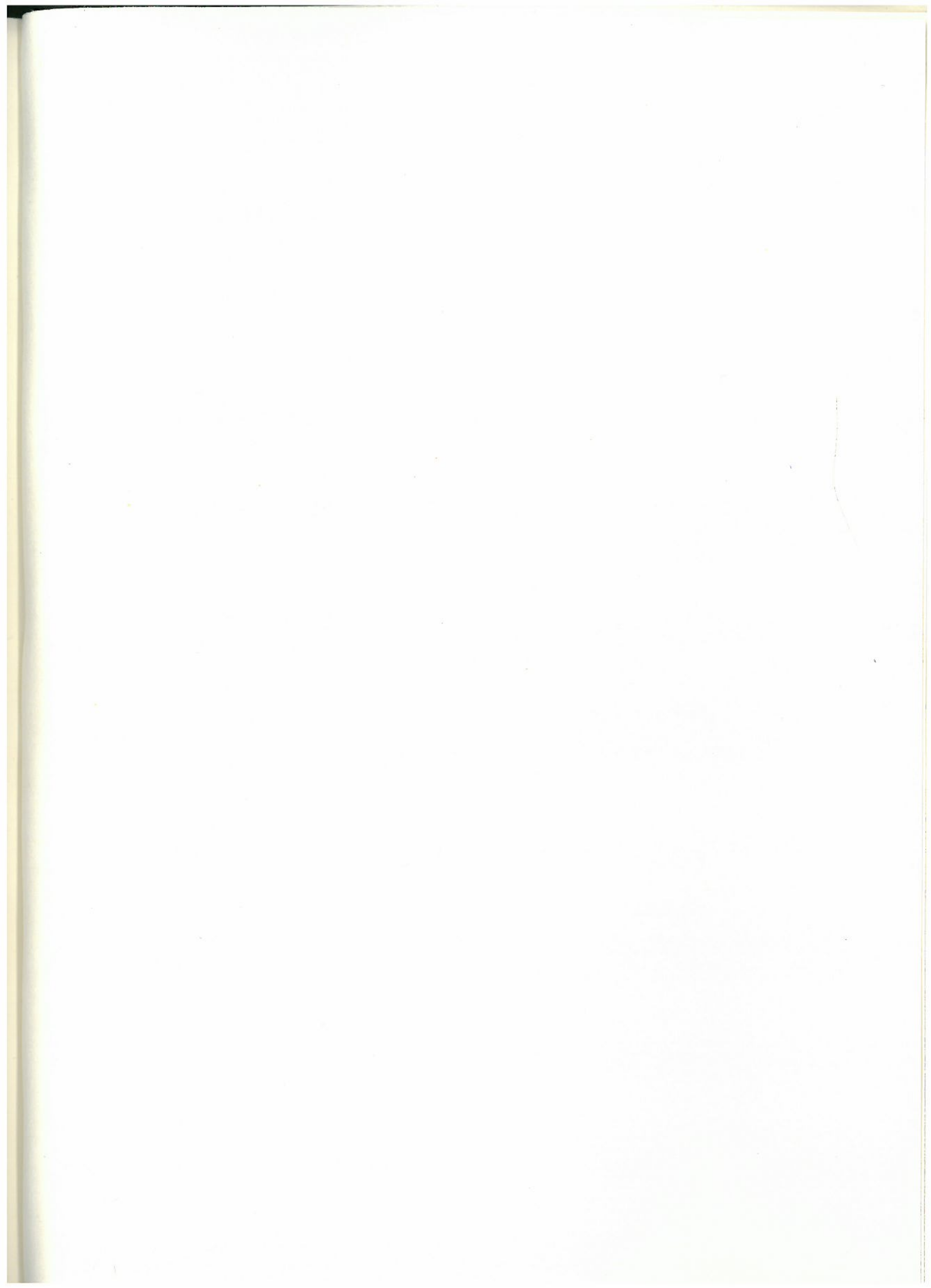
« كان هتلر َقدَرَ المانيــا ، ولم يكن في
الإمكان تأجيل هذا القضاء والقدر »

الفيلد مارشال ولترفون براوختش

القائد العام للجيش الألماني من ١٩٣٨ الى ١٩٤١

« على من لا يـذكرون المـاضي ، ان
يستعيضوا عنه بالحاضر » .

سانتا يانا



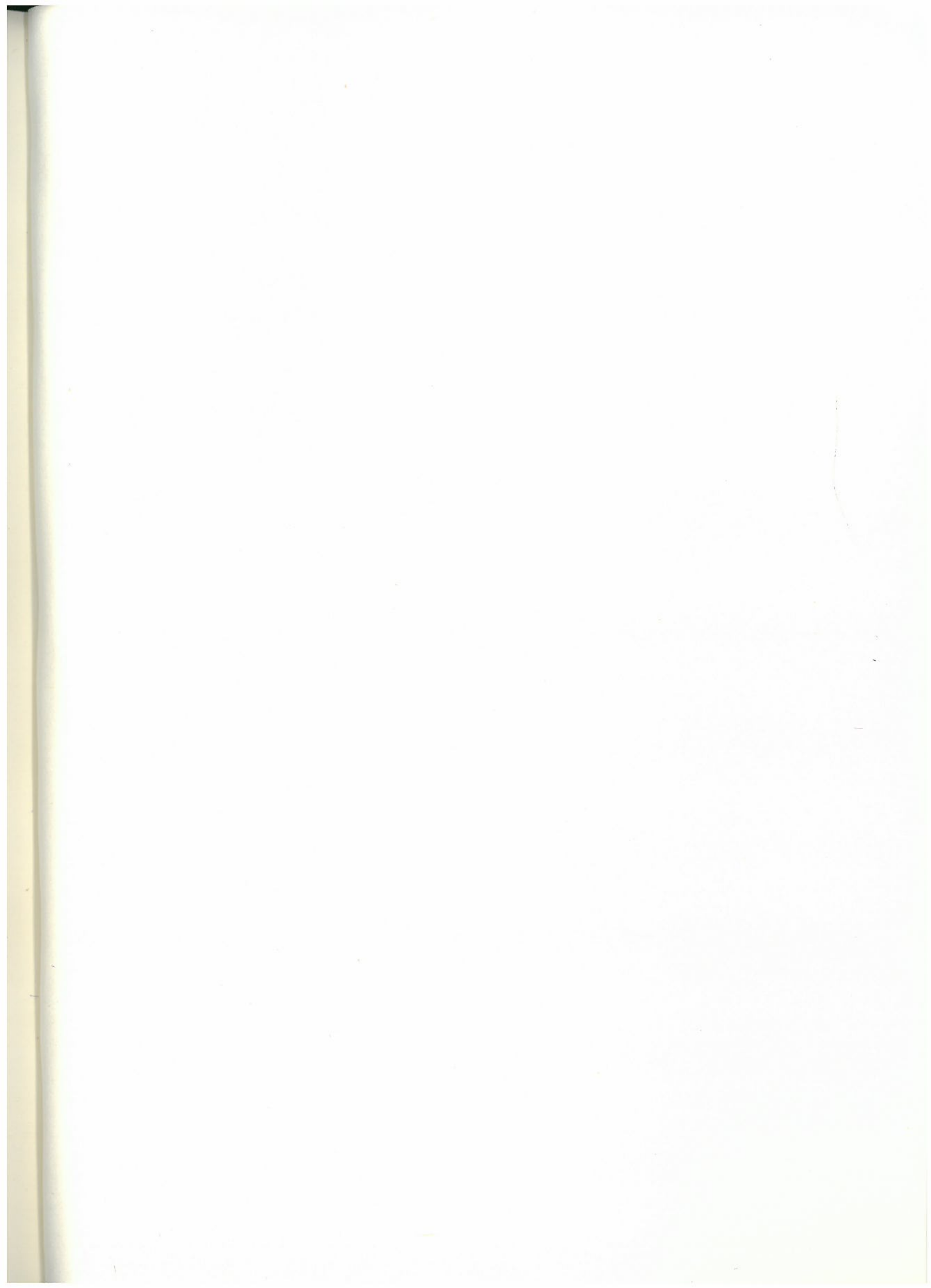
القسم الأول

الكتاب الأول

ظهور أدولف هتلر

الكتاب الثاني

الانتصار والتركيز



ولادة الرايخ الثالث

سيطرت على مدينة برلين ، عشية ولادة الرايخ الثالث حالة من التوتر تشبه الحمى . وكان قـــد بدا بالنسبة الى كل انسان ان جمهورية ويمـار ، توشك ان تنتهي وتزول . فلقد بدأ انهيارها منذ نحو من اكثر من عـــام . وكان الجنرال كورت فون شلايخر كسلفه المبـاشر فرانز فون بابن لا يهتم كثيراً بالجمهورية أو بالنظام الديموقراطي ، اذ حكم كسلفه بموجب مرسوم جمهوري دون استشارة البرلمان ، وقد وصل الآن وبعد سبعة وخمسين يوماً من الحكم ، الى نهاية مداه .

وقام رئيس الجمهورية العجوز المشير (الفيـلد مارشال) فون هندنبرغ ، يوم السبت في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٣ ، بصرفه من الخدمة فجأة . واخذ ادولف هتـــلر ، زعيم الحزب الاشتراكي الوطني ، وهو اكبر الاحزاب في المانيا يطلب لنفسه منصب المستشارية في الجمهورية الديموقراطيـة التي اقسم اليمين على تدميرها .

وسادت العاصمة ، في تلك العطـــلة الاسبوعية القدرية ، من ايام الشتاء ، شائعات قاسية ، عما يتوقع حدوثه . ولم يكن اكثرهـــا مدعاة الى الفزع ، كما ثبت فيما بعد ، من الشائعات التي تفتقر الى الاساس . وكانت ثمـة انباء عن ان شلايخر ، بالتواطؤ مع الجنرال كورت فون هامر شتاين القائد الاعلى للجيش ، كان يعد انقلاباً عسكرياً تؤيده حامية بوتسدام ، لاعتقـال رئيس الجمهورية ،

واقامة دكتاتورية عسكرية . وكثر الحديث ايضاً عن انقلاب نازي ، وعن ان قوات جيش العاصفة في برلين يؤيدها انصار النازيه في اوساط الشرطة ، قررت الاستيلاء على شارع « الولهلمشتراسه » حيث يقوم قصر الرئيس ومعظم وزارات الدولة . وقيل ايضاً ، عن وجود اضراب عام . واحتشد نحو من مائة الف عامل يوم الأحد في التاسع والعشرين من تشرين الثاني ، في حدائق « لوست » في قلب برلين ، ليعلنوا معارضتهم ، لتعيين هتلر مستشاراً . وحاول احد قادتهم الاتصال بالجنرال فون هامر شتاين ليقترح عليه عملاً مشتركاً . من قبل الجيش والمنظمات العمالية في حالة ترشيح هتلر لرئاسة الحكومة [1] . ومما يجدر ذكره ان الاضراب العام الذي قام به العمال عام ١٩٢٠ بعد انقلاب كاب (Kapp) هو الذي أنقذ الجمهورية ، بعد فرار الحكومة من العاصمة .

وقضى ادولف هتلر ليلة الاحد - الاثنين ، بطولها يذرع غرفته مجيئة وذهاباً في فندق « كايزر هوف » في ميدان « رايخ كانزر بلاتز » القريب جداً من دار المستشارية [2] . وكان واثقاً من ان ساعته قد حانت ، على الرغم من الحالة العصبية التي كانت ترافقه . فلقد انقضى عليه اكثر من شهر وهو يتفاوض سراً مع فون بابن وغيره من زعماء اليمين المحافظ . وتحتم عليه ان يهاودهم بعض الشيء . فليس في وسعه ان يؤلف حكومة خالصة من النازيين ، ولكن في وسعه ان يغدو مستشاراً وان يرئس حكومة ، ثمانية من وزرائها الأحد عشر ، من غير النازيين كما وافقوا معه على الخلاص من عهد ويمار الديموقراطي . وبدا ان الرئيس العجوز والعنيد ، هو الشخص الوحيد الذي يقف في طريقه . وكان المشير (الماريشال) العجوز الاشيب ، قد صرح قبل ثلاثة ايام فقط من تلك العطلة الاسبوعية الحرجة ، أي في السادس والعشرين من كانون الثاني ، للفريق فون هامر شتاين انه لا يعتزم مطلقاً ، ولا في اية حالة من الاحوال ، اسناد

---

١ - مذكرة هامر شتاين كما نقلها ويلر - بنيت في كتابه « نقمة السلطان » ص ٢٨٥. وقد حصل ويلر - بنيت على المذكرة من الدكتور كونراث فون هامر شتاين ، نجل الجنرال ، استناداً الى يوميات والده . وعنوان المذكرة « شلايخر ، شتاين هامر ، واغتصاب السلطان » - المؤلف .

٢ - كتاب جوزيف غوبلز « من كايزرهوف الى المستشارية » ص ٢٥١ .

« منصب وزير الدفـاع او مستشارية الرايخ الى ذلك العريف النمسوي »[١].

ولكن الرئيس اخذ يضعف اخيراً تحت ضغط ولده الرائـــد (الميجور) اوسكار فون هندبرغ، والحاف اوتو فون مايزنز، وزير الدولة لشؤون الرئاسة، وبابن وغيره من أعضاء «بطانته». وكان الرئيس قد بلغ السادسة والثمانين وأخذ يتجه نحو الخرف. وبينما كان هتلر يتناول القهوة والكعك مع غوبلز وغيره من مساعديه بعد ظهر التاسع والعشرين من كانون الثاني، اقتحم هرمان غورنغ، رئيس الرايشستاغ، والزعيم الثاني للحزب بعد هتلر، القاعة، وقال للمجتمعين بلهجة تنطوي على الجزم والتأكيد بأن هتلر سيكلف في الغد بمنصب المستشارية[٢].

ومضى هتلر قبيل ظهر الاثنين في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٣ في سيارته الى دار المستشارية، لمقابلة هندبرغ، وكانت هذه المقابلة، ضربة من ضربات القدر له، ولألمانيا وللعالم بأسره. وظل غوبلز وروهم وغيرهما من زعماء النازي يرقبون من نافذة من نوافذ فندق « كايزرهوف» باب دار المستشاريـة، حيث كان من المتوقع ان يخرج هتلر بعد قليل، وقد سيطر عليهم القلق. وقال غوبلز : « وسنرى من لمحات وجهه، ما اذا كان قد افلح في مهمته او أخفق ». ولم يكن الزعماء النازيون حتى تلك اللحظة واثقين من النتيجة. وكتب غوبلز في يومياته يقول : « وكانت مشاعر الشك والأمل والمسرة واليأس تعتمل في نفوسنا. فلقد خبرنا من خيبة الامل في الماضي، ما دفعنا الى عدم تصديق حدوث المعجزة الكبرى من جماع افئدتنا »[٣].

ولكن سرعان ما شهدوا بعد دقائق قليلة وقوع المعجزة. فالرجـــل ذو الشارب الذي يشبه شارب شارلي شابلن، والأفاق المتسكع الذي عرفته شوارع فيينا في شبابه، ثم شهدته الحرب الكونية الأولى جندياً مغموراً، ليغدو في ميونيخ في السنوات الاولى التي تلتها انساناً منبوذاً، ثم يصبح الزعيم المهرج لمحاولة انقلاب حانة الجعة، والساحر الذي لا يمت الى أصل الماني بل نمسوي، قد عهد اليه وهو

١ـ مذكرة هامرشتين وقد اقتبسها هويلر ـ بنيت ص ٢٨٠.
٢ ـ غوبلز ـ يوميات ـ ص ٢٥٠.
٣ ـ غوبلز ـ يوميات ـ ص ٢٥٢.

في الثالثة والاربعين من عمره ، قبل لحظات بعد ان ادى اليمين الدستورية بمنصب المستشارية في الرايخ الالماني .

وقاد سيارته مئات الياردات ، الى الفندق لينضم بعد لحظات الى أخوانه القدماء ، من أمثال غوبلز وغورنغ وروهم وغيرهم من ذوي القمصان البنية الذين ساعدوه في طريقه الطويلةالشاقة التي تعتورها الصعاب والعقبات والجنادل ليصل الى السلطان . وسجل غوبلز في يومياته يقول : « لم ينطق بشيء ، وخيم علينـا جميعاً صمت طويل مطبق ولكن عينيه كانتا مغرورقتين بالدمع » [١] .

وقام رجال جيش العاصفة النازي تلك الليـلة ، منذ حلول المساء حتى ساعات الصباح الباكر بعرض عسكري محموم ، في شوارع العاصمة ، يحملون المشاعل الضخمة احتفاء بالنصر العظيم . أجل لقد خرج عشرات الالوف منهم ، في ارتال طويلة منظمة من أعماق « تيير غارتن » يمرون تحت اقواس النصر في بوابة برندنبورغ، ويعبرون شارع « ولهلمشتراسه » ، وجوقاتهم الموسيقية تعزف الالحان العسكرية ، مصحوبة بقرع الطبول الداوي كهزيم الرعود ، وأناشيدهم ترتفع مرددة اغاني « هورست ويسل » وغيرها من الأغاني القديمـة قدم المانيـا ، بينما تقرع احذيتهم الطويلة ، في رتابة منسقة ، رصيف الشارع ، وترتفع مشاعلهم مؤلفة شريطاً طويلاً من اللهيب الذي يضيء حلكة الظلام ، والذي يزيـد اشتعاله هتافات النظارة المتجمهرين على طرفي الشـارع . وتطلع هندبرغ من احد نوافذ القصر على الجماعات المستعرضة ،قارعاً بعصاه على درفتها على أنغام الالحان العسكرية ،وقد بدا عليه السرور في انه قداختاراخيراً مستشاراً في وسعه ان يستثير الشعب بالطريقة الألمانية التقليدية . ومن المشكوك فيه ان يكون الرجل العجوز ، في خرفه ، قد احس بمغبة المارد الذي أطلقه من عقاله في ذلك اليوم . وسرعان ما انتشرت قصة يعتقد انها مختلفة في برلين، تقول ان الرئيس قد تحول أثناء العرض الى جنرال قديم وقال : « لم اكن أعرف انناقداخذنا

---

١ ـ غوبلز ـ ص ٢٥٢ .

هذا العدد الضخم من الأسرى الروس » .

وعلى مرمى حجر من القصر ، في شـــارع « الوهلمشتراسه » وقف ادولف هتلر في نافذة مفتوحة من نوافذ دار المستشارية ، وقد سيطر عليه المرح والسرور ، يرقص في الغرفة وهو يذرعها ، رافعاً يده باستمرار بالتحية النازية ، مبتسمـــاً ومقهقهاً ، حتى امتلأت عيناه ثانية بالدموع.

وشهد مراقب اجنبي احتفالات تلك الليـــلة وقد سيطرت عليـه مشاعر مختلفة . فقد كتب اندريه فرانسوا — بونسيه ، السفـير الفرنسي في برلـــين يقول : « لقد كان نهر من النيران ينساب ماراً بالسفـــارة الفرنسية . ووقفت وقد اثقل فؤادي بالأسى ، واترع بالتشاؤم ارقب مؤخرته الملتهبة المضيئة » [1].

وعاد غوبلز الى بيته في الساعة الثالثة صباحاً ذلك اليوم وقد أحس بالإنهاك المصحوب بالسعـادة ، وشرع يكتب بسرعة في يومياته قبـــل ان يأوي الى فراشه ، ما نصبه : « حقاً انه حلم ... بل انه قصة خرافية واسطورة ... لقد ولد الرايخ الجديد . وقد كللت جهود اربعة عشر عاماً بالنصر . لقد بـــدأت الثورة الألمانية » [2] .

* * *

وتبجّح هتلر بأن الرايخ الثالث الذي ولد في الثلاثين من كانون الثاني عـــام ١٩٣٣ ، سيعيش نحواً من الف عام [3] ، وكثيراً ما اشير اليه في الاحـــاديث النازية بانه « رايـــخ الألف سنة » . ولكنه لم يعش اكثر من اثني عشر عامـاً واربعة اشهر ، ولكن في هذه الومضة من الزمن ، اذا ما قيست بحساب التاريخ ، أحدث هذا الرايخ تفجرات على هذه الارض التي نعيش فوقها اكثر عنفاً وأشد ارتجاجاً من أية رجة سابقة خبرها العالم ، وحلـّـق بالشعب الألماني الى أوج من

١ — اندريه فرانسوا بونسيه (سنوات القدر) ص ٤٨ ، سفير فرنســـا في برلـين ١٩٣٠ — ١٩٣٨ .

٢ — غوبلز — كايزرهوف ص ٢٥١ — ص ٢٥٤ .

٣ — اعلان ٥ ايلول ١٩٣٤ في نورمبرغ .

السلطان لم يعرفه منذ اكثر من الف عام جاعلاً منه في وقت من الاوقات سيد اوروبا كلها من المحيط الاطلسي حتى نهر الفولغا ومن رأس الشمال حتى البحر الابيض المتوسط ، ثم هبط به الى اعماق الدمار والخراب في نهاية حرب كونية هو الذي اشعلها عن تعمد وقصد ، واقام في غضونها حكماً من الارهاب على الشعوب المستعبدة المقهورة ،فاق في وحشيته التي خطط لها وذبحه للأرواح البشرية والروح الانسانية كل أعمال الطغيان الوحشي في العصور السابقة .

وكان الرجل الذي أقام الرايخ الثالث ، والذي حكمه بمثل هذه القسوة ، وبذكاء ودهاء مفرطين ، والذي قاده الى مثل هذه الآفاق السامية ، والى مثل تلك النهاية المحزنة ، ذا عبقرية شريرة مشكوك فيها .ومن الحق ان يقال، انه عثر في الشعب الألماني ، على اداة طبيعية تعاونت العناية الخفيّة ، والقرون الطويلة من التجارب على صياغته وفقاً لمقتضيات العصر ، فتمكن من تكييف هذه الصياغة وفق غاياته الشريرة . ولكن لو لم يكن هناك ادولف هتلر ، الذي حبته الطبيعة بشخصية شيطانية ، وبارادة قدّت من الصخر ، وغرائز غريبة وخطرة ، وقسوة لا حدود لها ، وذكاء مفرط ، وخيال سامق محلّق ، وقدرة مدهشة لتقييم الناس وتقدير الأوضاع لم تفارقه لحظة واحدة الا عند النهاية ، عندما اثملته خمرة السلطان والنجاح فأعمت بصائره ، لما كان قط هنالك رايخ ثالث .

ولقد قال فريدريش مانيكيه ، المؤرخ الألماني المشهور ... « انه لمثل من أعظم الأمثلة ، على السلطة المطلقة والتي لا حدود لها للشخصية في حياة التاريخ » [١].

وبدا لمعظم الأجانب ، ولبعض الألمان ، ولا ريب ان انساناً أ̄فاقاً ومغامراً قد تسلم زمام السلطان في برلين . أما بالنسة الى معظم الألمان فلقد

١ ـ فريدريش مانيكيه ـ الكارثة الألمانية ص ٩٦ .

كان هتلر يتمتع ، أو يوشك أن يبدو بصورة الزعيم الموهوب حقاً ، وكان عليهم ان يسيروا وراءه دون وعي أو تبصرة ، وكأنه يمتلك سلطة سماوية مقدسة طيلة الاثني عشر عاماً القادمة من العواصف والاعاصير .

مجيء ادولف هتلر

من الصعب علينا اذا درسنا الأصل الذي ينتمي اليه ، وحياته المبكرة ، ان نتصور انساناً كهذا الانسان الفرد الذي يمت الى أصل نمسوي من الفلاحين ، والذي ولد في الساعة السادسة والنصف من مساء العشرين من نيسان عام ١٨٨٩ في خان « غاستهوف زوم برومر » المتواضع في بلدة « بروناد آم أين » الواقعة عبر الحدود النمسوية من ناحية بافاريا ، مرتدياً حلة بسمارك واباطرة الهوهنزولرن والرئيس هندبرغ .

وكان هذا المكان الذي ولد فيه على الحدود النمسوية – الألمانية ،عاملاً مهما في حياته المقبلة ، اذ تسلطت عليه منذ صباه الباكر ، فكرة طاغية ، وهي ان لا تكون هناك حدود بين هذين الشعبين الناطقين باللغة الالمانية ، والذين يمتان الى رايخ واحد . ولقد كانت مشاعره في هذه الناحية قوية وراسخة الى الحد الذي دفعه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، عندما كان قابعاً في السجن ، ابان املاء ذلك الكتاب الذي قدر له ان يغدو الطبعة الزرقاء الرسمية للرايخ الثالث ، الى ان يجعل الأسطر الاولى منه متعلقة بالأهمية الرمزية التي يضفيها على مكان ولادته . فلقد بدأ كتاب « كفاحي » بالاسطر التالية :

« يبدو لي اليوم ان العناية الالهية ، شاءت ان يختار القدر بلدة بروناد آم اين ، مكاناً لولادتي . فهذه البلدة الصغيرة تقع على الحدود بين دولتين

المانيتين جعلنا نحن ابناء الجيل الاكثر حداثة ، همنا مدى حياتنـا ، توحيدهما بكل وسيلة تقع تحت تصرفنا ... وتبدو لي هذه المدينة الصغيرة على الحـــدود وكأنها رمز لرسالة عظيمة »[1] .

كان ادولف هتلر الابن الثالث ، للزوجة الثالثة التي بني بها أحد صغار موظفي الجمارك ، الذي ولد ولادة غير شرعية ، والذي حمل مدة تسع وثلاثين سنة من حياته اسم اسرة والدته شيكلغروبر . ويبدو اسم هتلر في التسلسل مـــن ناحيتي الأم والاب على حد سواء . فلقد حملت جدة هتلر من ناحية امـه ، وجده من ناحية ابيه اسم هتلر . أو اشكالاً اخرى منه ، اذ كتب اسم الاسرة في صور متعددة منها «هيدلر » و«وهويتلر »و«وهويتّلر» و« هتلر» . وكانت والدة هتلر ، ابنة عم والده ، وكان من الضروري الحصول على خلاص اكليركي ، ليتمكن والده من تحقيق رجائه في الزواج الجديد .

وقد أقام أسلاف فوهرر المستقبل من ناحيتي والديه ، أجيالاً طويلة ، في منطقة « وولدفيريتل » الواقعة في النمسا السفلى بين الدانوب وحدود بوهيميا ومورافيا . وكثيراً ما مررت أثناء اقامتي المبكره في فيينا بهذه المنطقة وانا في طريقي الى براغ او الى المانيا . وهي منطقة تنتشر فيها التلال وتغطيها الغابات ، وتحتشد فيها قرى الفلاحين والمزارع الصغيرة ، وعلى الرغم من انها لا تبعد خمسين ميلاً عن فيينا نفسها ، إلا أنها تحمل طابع العزلة والفقر ، وكأن التيارات الرئيسية للحياة النمسوية قد تغافلتها وتجاوزتها . ويميل السكان فيها الى الصرامة والعناد . تماماً كالفلاحين التشيكيين الذين يعيشون الى الشمال منهم . وتعدد التزاوج شيء مألوف عندهم ، كما هي الحالة بالنسبة الى والدي هتلر . كما ان اللاشرعية في التوالد شيء مألوف .

وهناك شيء من الاستقرار في أصل هتلر من ناحية والدته . فقد ظلت اسرة كلارا بوليزيل اربعة اجيال ، مستحوذة على المزرعة رقم (٣٧) في قرية

---

١ - كتاب كفاحي - لادولف هتلر ، الطبعة الاميريكية - ص ٣ .

« سبيتال » [1] . أما قصة أسلاف هتلر من ناحية ابيه ، فمختلفة تمام الاختلاف . فقد تغيرت تهجئة اسم العائلة كما ذكرنا قبل قليل ، كما تغير مكان الاقامـــة . اذ سيطر شعور من القلق وعدم الاستقرار على اسرة هتلر ، وكان أفرادهـا يحسون بحافز يدعوهم الى الانتقال من قرية الى اخرى ، ومن عمل الى آخر ، ويستفزهم الى تجنب الوشائج الانسانية الثابتة ، واتباع حياة بوهيميـــة معينة بالنسبة الى علاقاتهم مع النساء .

وكان جوهان جورج هيدلر ، جد ادولف ، طحاناً جوالاً ، يمارس عمله في قرية اثر أخرى من قرى النمسا السفلى ، وقد جاء له ولد بعد خمسة أشهر من زواجه الأول عام ١٨٢٤ ولكن لم يقدر لا للطفل ولا لوالدته العيش والبقـاء . وبعد ثماني عشرة سنة ، وبينما كان يعمل في « ديورنثيال » تزوج امرأة فلاحة في السابعة والأربعين من عمرها ، من قرية « سترونز » تدعى ماريا آنا شيكلغروبر . وكانت هذه المرأة قد وضعت قبل خمس سنوات من زواجها ، وفي السابع من حزيران عام ١٨٣٧ ، غلاماً غير شرعي اسمته « ألواز » ، وهـو والد أدولف هتلر . ومن المحتمل جداً ، ان يكون جوهان هيدلر هو والد « ألواز » ، مـع ان الدليل الصحيح الشامل ، غير موجود ولا قائم .. لكن جوهان تزوج من المرأة على أي حال ، وان كان خلافاً للعادة المألوفة آنذاك ، لم يكلف نفسه عناء الاعتراف بشرعيـــة ابوته للطفل بعد الزواج . ونشأ الطفل وهو يدعى بألواز شيكلغروبر :

وتوفيت آنا في عام ١٨٤٧ ، واختفى جوهان هيدلر أكثر من ثلاثين عاماً ، ليعود بعدها الى الظهور وهو في الرابعة والثمانين من عمره في مدينة « ويترا » في « وولدفيريتل » وقد تبدلت تهجئة اسمه الى هتلر ، ليشهد أمام مسجل للعقود وبحضور ثلاثة من الشهود انه الوالد الشرعي لألواز شيكلغروبر . ولا تظهـــر السجلات المتوافرة « لماذا انتظر هذا الرجل العجوز هذه المدة الطويلة لاتخـــاذ

١- كونراد هايدن- الفوهرر -ص ٣٦ .

هذه الخطوة ، او لماذا اتخذها أخيراً ، وقد أسر ألواز فيما بعد الى أحد أصدقائه بانه قام بهذه الخطوة لمساعدته في الحصول على حصته من ارث تركه عم له ، هو أخو العجوز الطحان، وكان قد تولى رعاية الطفل وتنشئته في بيتـه [1] . على أي حال ، تم هذا الاعتراف المتأخر في السادس من حزيران عام ١٨٧٦ وفي الثالث والعشرين من تشرين الثاني ، قام راعي أبرشية « دولز هايم » الذي قدمت اليه وثيقة الاعتراف القانوني ، بشطب ألواز شيكلغروبر المسجل عند عمـــادته في سجلات الابرشية ، وكتب بدلاً منه اسم ألواز هتلر .

وعرف والد هتلر منذ ذلك اليوم باسم الواز هتلر ، بصورة قانونية ، وانتقل اسمه على هذا النحو طبعاً الى ولده . وفي عـــام ١٩٣٠ أو بعده بقليل قـــام الصحفيون المغامرون في فيينا بالبحث في وثائق الابرشية واكتشفوا الحقائق عن أصل هتلر ، فتجاهلوا محاولة جوهان جورج هيدلر العجوز ، اصلاح خطئـــه تجاه ولده غير الشرعي ، وحاولوا ان يلصقوا بالزعيم النـــازي اسم ادولف شيكلغروبر ..

وهناك عدد من لفتات القدر الغريبة في حياة ادولف هتلر العجيبة ، ولكن اكثرها غرابة تلك التي وقعت قبل ثلاثة عشر عاماً من ولادتـــه ، اذ لو لم يقم الطحان الجوال البالغ من العمر اربعة وثمانين عاماً ، بالظهور بصورة غير متوقعة ليعترف بشرعية ابوته لولده البالغ آنذاك التاسعة والثلاثين من عمره ، وبعـــد ثلاثين عاماً من وفاة امه ، فان ادولف هتلر، كان سيظهر الى الوجود حتماً وهو يحمل اسم ادولف شيكلغروبر . وقد لا يكون في الاسم الكثير من المعاني أو من الاهمية ، ولكنني سمعت على أي حال عدداً من الألمان ، يتراهنون ، على ان هتلر ، ما كان ليصبح سيد المانيا ، لو كان يحمل اسم شيكلغروبر ، ففي هذا الاسم رنة مضحكة بعض الشيء ، وذلك عندما ينطلق على لسان الماني من اهل الجنوب . وهل يستطيع انسان ان يتصور الجماهير الألمانية التي اعماها الحماس ،

---

١ - كونراد هايدن - ص ٤١ .

وهي تهتف لشيكلغروبر عندما تقول بهتافاتهـــا التي تنطلق كهزيم الرعود « هايل ! » ؟ « هايل شيكلغروبر ؟ » . ولم تكن عبارة « هايل هتلر » تستخدم كأغنية وثنية موسيقية كموسيقى واغنر ، على لسان الجماهير التي سيطر عليها الشعور الصوفي الغامض ، في المهرجانات النازية ، بل غدت أيضاً الطريقـــة الالزامية في التحية بين الالمان في الرايخ الثالث ، حتى ابان محادثاتهم الهاتفية اذ استعاضوا بها عن عبارة « هالو » . ان من الصعب على المرء ان يتصور استخدام عبارة « هايل شيكلغروبر ! »[1] .

ولما كان والدا ألواز لم يعيشا معاً قط كما يبدو ، حتى بعد زواجهما ، فإن والد ادولف هتلر نشأ عند عمـــه ، الذي كان يهجىء اسمه ، على الرغم من أنه شقيق لجوهان هايدلر ، تهجئة أُخرى ، فقد عرف باسم جوهان فون نيبوموك هويتلر . وبالنظر الى الكراهية الخالدة التي أحس بهـا الفوهرر النازي ، منذ صباه للتشيكيين ، الذين قدر له ان يقضي على بلادهم نهائياً فيما بعد ، فإنني أرى ان الاسم الأول لعمه جدير بملاحظتنا . فجوهان فون نيبوموك هو اسم القديس القومي للتشيكيين ، وقد رأى بعض المؤرخين في ان حمل هتلر لهـذا الاسم ، دليل على الأصل التشيكي في اسرته .

وبدأ الواز شيكلغروبر حياتـــه بتعلم صناعة الاحذية في قرية سبيتال ، ولكنه ، نظراً لما تميز به من عدم استقرار كوالده ، انطلق الى فيينا ، محاولاً البحث عن الثراء فيها . وقد انضم وهو في الثامنة عشرة من عمره الى شرطة الحدود في سلك الجمارك النمسوية ، على مقربة من سالزبرغ ، وعندما رقي في وظيفته الى منصب رسمي في خدمة الجمارك بعد تسع سنوات ، تزوج من آنا

---

(١) يبدو ان هتلر نفسه قد ادرك هذه الحقيقة ، فقد أسر في طفولته ، الى الصديق الوحيد الذي عاشره ، بان لاشيء كان احب اليه ، من تغيير والده لاسمه ، وقد ذكر لاوغست كوبيزيك ان اسم شيكلغروبر « يبدو له غليظاً » ، وجافاً بالاضافة الى ما فيه مـــن جمود وبعد عن الواقعية ، اما اسم هايدلر ، فهو مغرق في النعومة ، أما اسم هتلر فجميل ، وسهل على التذكر ».
(اوغست كوبيزيك ـ هتلر الفتى الذي عرفت ـ ص ٤٠) .

غلاسل ـ هوبرر ، الابنة المتبناه لموظف في الجمارك . وقد حملت له دوطـة صغيرة ، كما رفعت من مستواه الاجتماعي ، وهو أمر كان مألوفاً بـين الطبقة البيروقراطية الصغيرة في الامبراطورية النمسوية ـ المجرية . لكن هذا الزواج لم يكن سعيداً . فقد كانت تكبره بأربعة عشر عاماً ، وكانت في حالة صحية متداعية ، ولم تنجب له اولاداً . وافترقا عن بعضهما بعد ستة عشر عاماً ، ثم توفيت بعد ثلاثة أعوام أي في عام ١٨٨٣ .

وكان الواز ، الذي أصبح يدعى الآن قانونياً باسم هتلر ، قد صادق قبل الانفصال ، فتاة شابة تدعى فرانزيسكا ماتزيلبرغر ، تعمل طباخة في أحـد الفنادق ، فحملت منه سفاحاً ، وولدت له غلاماً في عام ١٨٨٢ اطلق عليه اسم ألواز . ولم يمضي شهر واحد على وفاة زوجته ، حتى كان يبنى بالطباخة ، فولدت له بعد ثلاثة أشهر من الزواج طفلة اسمياها انجيلا . ولم يقدر لهذا الزواج الثاني ان يعمر طويلاً . فقد توفيت فرانزيسكا بعد عام متأثرة بالسل ، ولم تمض ستة أشهر حتى كان ألواز هتلر يتزوج للمرة الثالثة والاخيرة .

وكانت كلارا بويلزل ، العروس الجديدة ، والتي قدر لها ان تصبح والدة ادولف هتلر ، في الخامسة والعشرين من عمرها ، بينما كان زوجها في الثامنـة والاربعين ، وكانا قد عرفا بعضهما منذ عهد بعيـد ، وتنتمي كلارا ، الى قرية سبيتال ، وهي القرية التي تنتمي إليها اسرة هتلر ، وهي حفيدة جوهان فون نيبو موك هويتلر ، الذي نشأ والد ادولف ، الواز في كنفه . وهكذا كان الواز وكلارا ولدي عم ، ولذا فقد وجدا من الضروري ، كما ذكرنا ، الحصول عـلى تحليل كنسي ، للسماح بزواجهما .

وكان هذا الزواج ، هو ما حلم به موظف الجمارك منذ سنوات طويلة،عندما أخذ كلارا في رعايته كابنة بالتبني في بيته الخالي من الأطفال أثناء حياته الزوجية الاولى . وعاشت الطفلة سنوات عدة مع الواز وزوجته في بروناد ، وعندمـا اصيبت زوجته بالمرض ، فكر الرجل بالزواج من كلارا فور وفاتها . وقد وقع الاعتراف بشرعية بنوته وحصوله على الارث من عمه ، الذي كان جد كلارا ،

في نفس الوقت الذي بلغت فيه الفتاة السادسة عشرة من عمرهـــا ، وهو سن الزواج الشرعي . ولكن لما كانت الزوجـــة كما رأينا قد عاشت سنوات بعد الانفصال ، وبسبب ما حدث من علاقة كما يبدو آنذاك بـين الواز والطباخـة فرانزيسكا ماتزيلبرغر ، فقد ارتحلت كلارا وهي في العشرين من عمرهـــا عن منزل الاسرة ، ومضت الى فيينا ، حيث حصلت على عمـل كخادمـة في أحد المنازل .

وعادت بعد أربع سنوات لترعى منزل ابن عمها ، بعد أن ارتحلت عنه فرانزيسكا أيضاً في الأشهر الأخيرة من حياتها . وتزوج ألواز هتلر وكلارا بويلزل في السابع من كانون الثاني عام ١٨٨٥ ، وجاء طفلهما الأول غوستاف الى الحياة بعد أربعة أشهر وعشرة أيام من زواجهما . ولكن هـــذا الطفل توفي في سن الطفولة ، كما توفيت الطفلة الثانية أيدا التي ولدت في عام ١٨٨٦ ، وكان ادولف الطفل الثالث لهذا الزواج الثالث . وعاش الطفل الرابع ادموند الذي ولد عام ١٨٩٤ ست سنوات ليس الا ، أمـا الطفلة الخامسة والأخيرة بولا ، فقد ولدت عام ١٨٩٦ ، وقد قدر لها أن تعيش حتى بعد وفاة أخيها الشهير .

وعاش ألواز، شقيق ادولف واخته انجيلا، وهما ولدا فرانزيسكا ماتزلبرغر ، حتى كبرا . وقد تزوجت انجيلا ، وهي فتاة جميلة شابة من موظف في ضريبة الدخل يدعى روبال ، وبعد موته عملت مديرة لأحد المنازل في فيينا ، كما عملت ، ردحاً من الزمن ، إذا صحت رواية هايدن ، طباخة في مؤسسة يهودية للإحسان[1] . وقد أتى بها هتلر في عام ١٩٢٨ الى برختسغادن ، لتعمـل مديرة لمنزله ، وكثيراً ما سمع الناس في الأوساط النازية بعد ذلـك ، باطباق الحلوى المدهشة التي كانت تطهيها له ، والتي كان يحبها كل الحب . وقـد تخلت عنه في عام ١٩٣٦ لتتزوج من استاذ في الهندسة المعمارية في درسدن ، فغضب هتلر لذلك غضباً شديداً ، وكان قد أضحى آنذاك ، مستشاراً وديكتاتوراً .

---

١ ـ هايـدن ـ الفوهرر ص ٤٣ .

وامتنع عن تقديم هدية الزواج إليها . وكانت الشخص الوحيد من اسرته ، الذي بدا في سنواته الأخيرة كثير الاتصال به. باستثناء شخص واحد. إذ كانت لانجيلا ، ابنة تدعى جيلي روبال ، وهي فتاة شقراء جذابة ، باهرة الجمال ، علق هتلر ، كما سنرى فيما بعد بحبها ، وكانت الحب الصادق الوحيد في حياته .

ولم يكن ادولف هتلر ، راغباً قط ، في السماع بذكر شقيقه الواز . فقد عمل الواز ماتزلبرغر ، الذي اعترف بشرعيته فيما بعد ، وأصبح يدعى بألواز هتلر ، ندلا في أحد المطاعم ، وكانت حياته سنوات طويلة ملأى بالمتاعب القانونية . ويقول هايدن أن الشاب حكم بالسجن خمسة أشهر بتهمة السرقة وهو في الثامنة عشرة من عمره ، ثم ادين بتهمة مماثلة وهو في العشرين ، وقضى ثمانية أشهر أخرى في السجن . وانتقل أخيراً إلى المانيا ، حيث تورط كما يبدو في متاعب أخرى . وعندما كان ادولف هتلر ، عام ١٩٢٤ يعاني شقاء السجن بسبب اشتراكه في ثورة ميونيخ السياسية ، كان الواز هتلر ، قد ادين بالسجن من محكمة همبورغ لستة أشهر بتهمة تعدد الزوجات . ويروي هايدن أنه انتقل فيما بعد إلى انكلترا ، حيث اسس اسرة جديدة بسرعة . ثم تخلى عنها[1] .

وجاء وصول النازيين إلى الحكم في المانيا ، بأوقات أطيب لألواز هتلر ، فقد أقام مشرباً للجعة في إحدى ضواحي برلين ، منتقلاً بها قبيل الحرب إلى « ويتنبرغ بلاتز » وهو حي الطبقة الراقية في الطرف الغربي من العاصمة . وكان كبار النازيين يؤمون هذا المشرب باستمرار ، وعندما غدت المواد الغذائية نادرة في الأيام الأولى من الحرب . كان مشرب ألواز ، حاشداً بأنواعها دائماً . وقد ألفت ارتياد المكان في ذلك الوقت . وكان ألواز قد أشرف على الستين من عمره آنذاك ، وبدا في صورة الرجل الساذج السليم الطوية، مع شبه بسيط يقربه إلى شقيقه الشهير ، وكان لا يمتاز في الحقيقة بشيء عن عشرات أمثاله من أصحاب المشارب الصغيرة التي يراها المرء منتشرة في المانيا والنمسا . ويبدو أن عمله كان

---

١ – هايدن – الفوهرر ص ٤٣ .

على ما يرام . ومهما كان شأن ماضيه ، فقد ظهر وكأنه متمتع بالحياة الرخية المزدهرة التي يحياها . ولم يكن يخشى إلا شيئاً واحداً ، وهو أن يقوم شقيقه ، في نوبة من نوبات غضبه ، أو ازدرائه له ، بالغاء رخصته ، وكثيراً ما سمعت بالهمسات في أحد المشارب الصغيرة تتناقل بأن فوهرر الرايخ ومستشاره ، آسف أشد الأسف ، على هذه الذكرى الماثلة أمامه ، عن وضاعة اسرة هتلر وطبيعتها . واني لأذكر أن ألواز نفسه ، كان يرفض أن يجرّ إلى أي حديث مهما كان عن شقيقه ، ولا ريب في أن الحذر شيء مثناه في الحكمة ، ولكنه مخيب لآمالنا نحن الذين كنا نحاول أن نعرف أكثر ما نستطيع معرفته ، عن جذور ذلك الرجل ، الذي كان في ذلك الحين قد شرع في تنفيذ خطته للسيطرة على أوربا كلها .

وإذا ما استثنينا بعض اللمحات الخاطفة ، من كتاب كفاحي ، عن تاريخ حياة هتلر الشخصية ، وكثيراً ما تكون هذه اللمحات مضلّلة إذ اعتمد فيها الحذف ، فان هتلر نفسه ، ندر ان بحث ، أو حتى سمح بالبحث في حضوره ، في موضوع جذور اسرته ، أو في موضوع الأيام المبكرة من حياته . وقد رأينا فيما سبق جذوره العائلية بوضوح وصراحة . وسنرى الآن ، شكل الحياة المبكرة التي عاشها .

حياة ادولف هتلر المبكرة

دخل الصبي ادولف هتلر ، وهو في السادسة من عمره . وفي نفس العام الذي احيل فيه والده إلى التقاعد من وظيفته الجمركية ، بعد أن بلغ الثامنة والخمسين ، مدرسة حكومية في قرية فيشلهام ، التي تقع على مقربة من لينتز وفي جنوبها الغربي . وكان هذا في عام ١٨٩٥ . وظل الرجل المتقاعد ، الذي لم يحس بالاستقرار قط في حياته ، يتنقل في غضون السنوات الأربع أو الخمس التالية ، من قرية إلى أخرى في ضواحي لينتز . وعندما بلغ الفتى الخامسة عشرة من

عمره ، كان في وسعه أن يتذكر سبعة تبدّلات في عنوانه ، وخمس مدارس أمّها. وقضى بعد ذلك سنتـين ، يحضر الدروس في دير الآباء البندكتيين في لامباخ ، التي كان والده قد ابتاع مزرعة على مقربة منها . وقد اشترك في جوقة الانشاد في الدير ، وتلقى بعض الدروس في الغناء ، ويروي هو أنه كان يحلم آنذاك[1] في الانضمام إلى صفوف الرهبان . واستقر موظف الجمارك المتقاعد أخيراً في قرية ليوندينغ ، الواقعة في ضواحي لينتز الجنوبية ، حيث أقامت الأسرة في منزل متواضع تحيط به حديقة .

وبعثت الاسرة بأدولف وهو في الحادية عشرة ، إلى مدرسة ثانوية في لينتز ، ومثلت هذه الخطوة تضحية مالية من جانب الوالد ، كما أشارت إلى طموحه في أن يرى ولده يسير على خطاه ليصبح فيما بعد موظفاً حكوميـاً . لكن الوظيفة ، كانت آخر ما يحلم به الفتى .

وقد ذكر هتلر فيما بعد[2] : « وجدت نفسي وأنا لم أكد أبلغ الحادية عشرة ، في موقف المرغم على معارضة والده لأول مرة . . . فقـد كنت عزوفـاً عن الوظيفة الحكومية » .

ولعل قصة النضال المرير والمستمر ، بين الغلام الذي ما زال في الحلقة الثانية من عمره ، وبين والده القاسي – على حد تعبيره هو – والراغب في السيطرة ، هي القصة التاريخية الوحيدة ، التي حـاول هتلر أن يسردها بتفصيل واسهاب كبيرين مشفوعين بالاخلاص والحقيقة ، في كتابه « كفاحي » . وقد أثار هـذا الصراع ، أول مظاهر تلك الإرادة المتصلبة والعنيفة ، التي قدر لها فيما بعد ، أن تمضي به بعيداً على الرغم من العقبات الكأداء ، والموانـع التي لا يمكن التغلب عليها كما يبدو ، والتي تغلبت على كل من وقف في طريقه ، وقدر لها أن تترك أثراً لا يمحى ، في تاريـخ المانيا وأوروبا بأسرها .

---

١ – كفاحي – لهتلر ص ٦ .
٢ – كفاحي – لهتلر ص ٨ .

« لم ارغب في ان اصبح موظفاً . كلا ، والف كلا. وقدر لجميع المحاولات التي بذلهـا والدي ، ليبعث في نفسي ، شعور الحب والارتياح لهذه المهنة ، عن طريق القصص التي كان يسردها على مسامعي ، مستوحياً اياها من حياته وتجاربـه ، ان تحدث عكس الاثر تماماً... وكنت أحس بالتقزز من فكرة الجلوس إلى مكتب ، محروماً من حريتي ، ومن السيطرة على وقتي ومقدراتي ، لأجـد نفسي مرغماً على املاء محتويات حياتي كلها . في نماذج من الورق ، يتحتم عليّ املاؤها ...

« وبـدا لي ذات يوم ، انني سأصبح رساماً ، أي فناناً ... واصيب والدي بالوجوم عندما سمع ذلك .

« وقال ... رسام ؟ فنان ؟

« وبدا انه يشك في قواي العقلية ، أو أنـه لم يسمع حقيقة ما قلته ، أو أنه أساء فهم قولي ، ولكن عندما اتضحت له الحقيقة وبعد ان ايقن فعلاً من جدي في نواياي ، عارضني بكل ما عرف عن طبيعته من اصرار وتصميم ...

« فنان ! لا ! لن تكون كذلك ما دمت على قيد الحياة . ولم ينفك والدي عن ترديد عبارة أبداً . أبداً ، بينما واصلت ترديد عبارة .. ولكنني ... » [١]

وكانت احدى نتائج هذا الصدام ، كما شرح هتلر فيما بعد ، توقفه عن الدراسة في المدرسة . « وخيل اليّ ، ان والدي ، إذا رأى تأخري في مدرستي الثانوية فسيسمح لي ، بتكريس نفسي لتحقيق الحلم الذي عشت فيه ، سواء أرغب في ذلك أو لم يرغب » [٢] .

---

١ - كفاحي لهتلر ص ٨ - ١٠ .

٢ - كفاحي - هتلر ص - ١٠ .

ويبدو ان هذه الفقرات التي كتبها هتلر بعد اربعة وثلاثين عامـــاً ، كانت محاولة منه لتبرير فشله في المدرسة . ولقد كانت علاماته في المدارس الابتدائية متوسطة ، أما علاماته في مدرسة لينتز الثانوية ، فكانت رديئة للغاية ، حتى انه ارغم في النهاية ودون الحصول على الشهادة المعتادة ، على الانتقال منها إلى مدرسة الدولة الثانوية ، في ستير البعيدة عن لينتز . وقد ظل في هذه المدرسة فترة قصيرة ثم غادرها دون ان يتخرّج منها .

وقد أجج الفشل الدراسي في صدر هتلر ، الحقد ، في حياته التـــالية على المدارس ، فصب على « طبقة الاساتذة النبيلة » جام هزئه وسخريته ، ساخراً بدرجاتهم وشهاداتهم وأساليبهم التربوية . وكان يسمح لنفسه حتى في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من حياته ، عندما كان منهمكاً في مقر قيادته العليا للجيش ، بدقائق السوقية (الاستراتيجية) العسكرية والتعبئة ، والقيادة ، بمتسع من الوقت في بعض الليالي ليستذكر مع أخدانه القدماء من رجالات الحزب ، بلادات الأساتذة الذين خبرهم في فتوته . وقد حفظت لنا الوثائق ، بعض هـذه المتاهات الفكرية ، لهذا العبقري المجنون ، الذي غدا آنذاك ، سيد الحرب الأعلى والذي يتولى شخصياً توجيه جيوشه الهائلة من الفولغا حتى القنال الانكليزي .

« وعندما أفكر بأولئك الرجال الذين علموني ، ادرك لتوي ، ان معظمهم كانوا مصابين بلوثات من الجنون . وكان الذين يعتبرون من خيرة الأساتذة ، نادرين كل الندورة . ولعل من المفجـع ، ان يفكر المرء ، بأن في وسع مثل هؤلاء الناس ان يسدوا على الشاب طريقه » ٣ آذار ، عام ١٩٤٢[1] .

« واني لأحمل ذكريات متناهية في السوء عن اولئك الأساتذة الذين علموني . فقد كان مظهرهم الخارجي يفيض بالقذارة ، وكانت ياقات قمصانهم كثـــة مجعدة . . . فهم ثمرة طبقـــة بروليتارية ،

---

١ – احاديث هتلر السرية ١٩٤١ – ١٩٤٤ ص ٢٨٧ .

(عاملة) مجردة من كل استقلال فكري ذاتي ، ومتميزة بالجهل المطبق الذي لا مثيل له ، ويصلح أفرادها ليكونوا أعمدة في نظام عاجز للحكم ، غداً، والحمد لله ، الآن ، شأناً من شؤون الماضي » — ١٢ نيسان ١٩٤٢[١] .

« وعندما تعود بي الذاكرة الى الأساتذةالذين علموني في المدرسة أتبين على الفور،ان نصفهم على الأقل ،كانوا شاذي الأطوار...وقد نشأنا نحن طلبة النمسا على احترام النساء وكبار السن منا . ولكننا لم نكن نرحم أساتذتنا ، فهم أعداؤنا الطبيعيون .وكانت غالبيتهم من المصابين بالضعف العقلي ، وانتهى أمر بعضهم ، إلى الجنون المطبق ... وكان الأساتذة ينظرون الي بصورة خاصة على أنني رائحة كريهة . ولم أكن أبدي أية رغبة مهما ضؤلت في تعلم اللغات الأجنبية مع أن من المحتمل ، أن أكون خلاف ذلك لو أن استاذ هذه اللغات لم يكن إنساناً أحمق بفطرته . انني لم أكن أطيق رؤيته » ٢٩ آب ١٩٤٢ [٢] .

« كان أساتذتنا طغاة مستبدين .ولم يكونوا يحسون بأي عطف على الشباب ، بل كان همهم الوحيد حشو أدمغتنا وتحويلنا إلى قرود ذكية ومقلدة مثلهم تماماً . وإذا أظهر أحد الطلبة شيئاً من الابداع ، كانوا يضطهدونه بحزم ، وكان الطلبة المثاليون ، الذين عرفتهم في سني الدراسة ، من الفاشلين في حياتهم العامة فيما بعد » ٧ — ايلول ١٩٤٢ [٣] .

ويبدو ان هتلر لم يغفر حتى يوم مماته ، لمعلميه العلامات السيئة التي كانوا

---

١ — احاديث هتلر السرية ص ٣٤٦ .

٢ - احاديث هتلر السرية ص ٥٤٧ .

٣ — احاديث هتلر السرية ص ٥٦٦ — ٥٦٧ .

يعطونها له ، ولم يكن في استطاعته ان يغفر لهم هذه الخطيئة . ولكن كان في وسعه ان يشوه الحقائق إلى حدود مخيفة ومرعبة .

ولم تسجل الانطباعات التي تركها عند اساتذته ، والتي تذكرها هؤلاء الأساتذة بعد أن غدا شخصية عالمية ، الا بصورة مختصرة . ويبدو أن الأستاذ ثيودور غيسينغر كان أحد الأساتذة القلائل الذين أحبهم هتلر ، وقد بذل هذا الأستاذ جهده لتعليمه علوم الطبيعة ، وقال غيسينغر فيما بعد متذكراً تلميذه : « أعتقد من ناحيتي ، ان هتلر لم يترك في لينز انطباعاً حسناً أو سيئاً . ولم يكن في أي حال من الأحوال زعيماً لصفه . لقد كان رقيق الجسم منتصب القامة ، وكان وجهه نحيلاً وشاحباً ، أما نظرته فكانت أشبه ما تكون بنظرة المصاب بالسل ، فعيناه مفتوحتان دائماً وفيهما بريق ولمعان »[1] .

وكان الأستاذ ادوارد هيومر ، هو « الأحمق بطبيعته » الذي ذكره هتلر في الفقرة السابقة ، إذ كان يدرس الفرنسية ، وقد جاء إلى ميونيخ في عام ١٩٢٣ ليشهد لتلميذه السابق الذي كان يحاكم آنذك بتهمة الخيانة ، نتيجة محاولة انقلاب حانة الجعة . وعلى الرغم من اعجابه باهداف هتلر ، ومن قوله بأنه يرغب من قرارة فؤاده في رؤية هذه الأهداف وهي تحقق مثلها ، فقد اعطى هذه الصورة الصغيرة عن تلميذه في المدرسة الثانوية وقد رسمها بظفر ابهامه :

« لا ريب في أن هتلر كان طالباً موهوباً ، وان كانت هـــذه الهبة في مواضيع معينة ، إلا انه كان يفتقر إلى السيطرة على عواطفه ، وكان يعتبر على الأقل محباً للجدل ومستبداً برأيـــه ، وحاد الطبع والمزاج ، ومعتداً بذاته ، وعاجزاً عن الاذعان لأنظمة المدرسة . ولم يكن طالباً مجداً ، والا لأحرز علامات أعلى مع المواهب الرفيعة التي كان يتمتع بها »[2] .

---

١ ــ اوغست كوبيزيك ــ هتلر الفتى الذي عرفته . ص ٥٠ .

٢ ــ اوغست كوبيزيك ــ ص ٤٩ .

وكان ثمة استاذ واحد ، في مدرسة لينتر الثانوية قد ترك اثراً قوياً ،بل واثراً قدرياً على ادولف هتلر الشاب . وكان هذا الاستاذ هو الدكتور ليوبولدبويتش، وقد علمه التاريخ وهو ينتمي إلى منطقة تقع على الحدود الأجنبية للبـــلاد التي تنطق بالألمانية ، والتي تلتقي بحدود البلاد التي يأهلها السلافيون الجنوبيون ، كما ان تجربته الشخصية مع النضال العنصري فيها قد جعلت منه وطنياً المانيـاً متعصباً . وكان الاستاذ بويتش قبل مجيئه إلى لينتر ، قد عـلم في ما ربورج التي غدت تدعى ما ريبور بعد ان ضمت المنطقة فيما بعد إلى يوغوسلافيا في نهـــاية الحرب الكونية الأولى .

وعلى الرغم من ان الدكتور بويتش ، كان يعطي لطالبه علامة « متوسطة » في التاريخ ، فلقد كان الوحيد من اساتذة هتلر الذي اثنى عليه ثناء عاطراً في كتابه « كفاحي » إذ اعترف بما هو مدين به له من فضل عندما قال :

« وربما كان من الأمور الحاسمة في حياتي المقبلة كلها ، أن حسن طالعي ، قد وهبني استاذاً للتاريخ ، فهم ، كما فهمت القلة فقط ، المبدأ القائل بالحفاظ عـــلى الاشياء الجوهرية ونسيان الأمور غير الجوهرية ... وقد حقق استاذي الدكتور ليوبولد بويتش ، في مدرسة لينتر الثانوية ، هذا المتطلب بطريقة مثالية حقاً . وكان هذا الرجل العجوز لطيفاً ولكنه ثابت في معتقده في نفس الوقت ، ولم يكن قادراً على اجتذاب انتباهنا فحسب ببلاغته المذهلة ، بل كان في وسعه ايضاً ان يحملنا معه إلى الآ فاق التي يريدها . وعندما اذكر اليوم هذا الرجل الاشيب الشعر ، أحس بعطف أصيل تجاهه فقد كان في وسعه عن طريق عباراته اللاهبة ، ان يحملنا على نسيان الماضي احياناً ، وكثيراً ما كان ينقلنا وكأنه يستخدم السحر ، إلى الايام الماضية ، ويستخلص من ضباب الزمن الذي انقضت عليـه الوف السنين ، الحقائق التاريخية الجافة محولاً اياها إلى واقع ظاهر بيّن . وكنا نجلس هناك ، تلهبنا احياناً مشاعر الحماسة ، فتتدفق

الدموع من اعيننا . . . وقد لجأ إلى استخدام تعصبنا القومي المتأصل في نفوسنا ، كوسيلة لتثقيفنا ، متحدثاً في اغلب الاحيان إلى احساسنا بالكرامة الوطنية .

« وقد جعل هذا الاستاذ من التاريخ درسي المفضل ..

« وعلى الرغم من انه لم يكن يرمي حقاً إلى ذلك ، فقد غدوت آنذاك شاباً ثائراً » [١] .

وبعد نحو من خمسة وثلاثين عاماً ، أي في عام ١٩٣٨ ، وكان هتلر يطوف بأرجاء النمسا منتشياً بالنصر الذي حققه بعد ان فرض ضمها الى الرايخ الثالث ، توقف المستشار في كلاغينفورت ليرى استاذه القديم ، الذي كان قد احيل الى التقاعد . وقد اثلج فؤاده ، ما وجده من ان السيد العجوز كان عضواً في فرق الحرس النازي السرية ، التي كانت غير مشروعة في عهد النمسا المستقلة . وقد تحدث هتلر الى استاذه مدة ساعة وحدهما ،ثم اسر الى اعضاء حزبه قائلاً «ليس في وسعكم ان تتصوروا كم انا مدين لهذا الرجل العجوز » [٢] .

وتوفي ألواز هتلر في الثالث من كانون الثاني عام ١٩٠٣ وهو في الخامسة والستين من عمره متأثراً من نزيف في رئته . وقد أُصيب بنوبة وهو يقوم بمشيته الصباحية المألوفة ، ومات بعد لحظات بين يدي أحد جيرانه في خان قريب . وعندما شاهد الولد البالغ الثالثة عشرة من عمره جثمان والده ، انهارت أعصابه وبكى بكاء مراً [٣] .

وانتقلت والدته التي كانت تبلغ الثانية والاربعين من عمرها بعد ذلك إلى بيت متواضع في اورفاهر ، من ضواحي لينتر ، حيث حاولت ان تعيل نفسها وولديها الباقيين بولا وادولف ، بوفرها القليل ، والتقاعد الضئيل الذي حصلت

---

١ - كفاحي لهتلر ص ١٤ - ١٥ .
٢ - كوبزيك ... هتلر الفتى الذي عرفته ص ٥٢ ومحادثات هتلر السرية ص ٥٦٧ .
٣ - كوبزيك ص ٤٤ .

عليه ، وأحست بشيء من الالزام والاكراه ، كما يقول هتلر في كتابه « كفاحي » يدفعها إلى حمله على مواصلة تعليمه ، وفقاً لرغبات والده ، أو « بكلمة اخرى » كما وصفها ، « لحمله على مواصلة الدرس ليغدو موظفاً حكومياً » . ولكن على الرغم من ان الأرملة الشابة كانت شديدة العطف على ولدها ، وعلى الرغم مما بدا عليه من انه يحبها حباً جماً ، فقد كان كما قال « اكثر تصميماً من أي وقت مضى على عدم المضي في هذه الطريق » . وهكذا فعلى الرغم من رقة العاطفة المتبادلة بين الأم وولدها ، فقد كان ثمة احتكاك دائم بينهما حول هذا الموضوع ، وواصل ادولف اهمال دروسه .

« وفجأة داهمني المرض ، الذي جاء لمساعدتي ، ولم تمض بضعة أسابيع حتى كان مستقبلي قد تقرر ، كما سوي النزاع البيتي الدائم » . [1]

فقد أدى ألم الرئة الذي عانى منه هتلر وهو في السادسة عشرة من عمره ، إلى ضرورة تخليه عن مدرسته لمدة عام واحد على الأقل . وبعثت الأم بصبيها إلى مسقط رأس الأسرة في قرية سبيتال ، حيث قضى دور النقاهة في بيت خالته ، تريزا شميت ، المرأة الفلاحة . وعندما أبلّ من مرضه ، عاد إلى مدرسة الدولة الثانوية في ستير ، ليقضي فترة قصيرة ، ويشير التقرير المدرسي الأخير الذي حصل عليه في السادس عشر من ايلول عام ١٩٠٥ ، إلى انه حاز علامات « متوسطة » في الألمانية والكيمياء ، والفيزياء والهندسة والرسم الهندسي ، كما حاز على علامات « مرضية » في الجغرافيا والتاريخ و « ممتازة » في الرسم الحر وقد اثملته فكرة الخلاص من المدرسة نهائياً ، حتى انه شرب الخمر للمرة الأولى والأخيرة من حياته . وعندما تذكر ما وقع له بعد سنوات طويلة ، قال ان بائعة للحليب قد عثرت عليه وهو ملقى عند الفجر على قارعة الطريق الممتد من ستير إلى الارياف ، فساعدته على العودة إلى المدينة بعد أن أقسم على أن لا يعود إلى الخمر مرة ثانية . ولا ريب في انه وفى بوعده تمام الوفاء ، إذ غدا من ذلك

---

١ – كتاب كفاحي لهتلر – ص ١٨ .

الحين من دعاة منع المسكرات ، ومن محرمي التدخين ، ومن اكلة الخضار بدافع العوز أولاً كأفـّاق مفلس في فيينا وميونيخ ،وبدافع العقيدة فيما بعد.[١]

وقد وصف هتلر السنتين التاليتين أو السنوات الثلاث التالية من حياته بأنها أسعد الأيام التي قضاها[٢] . وبينما مضت والدته تقترح عليه ، يؤيدها في ذلك بعض أقاربه ، ان يمضي الى العمل ،لتعلم مهنة من المهن ، اكتفى بأن يعيش مع أحلامه في مستقبله كفنان وبأن يقضي أيامه في حياة من البطالة على ضفاف الدانوب . ولم ينس قط « النعومة الوادعة » لتلك السنوات التي قضاها بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة من عمره ، عندما كان « معبود والدته » وأصبح متمتعاً « بالخواء في الحياة الرخية المريحة »[٣] .وعلى الرغم من ان الأرملة الثكلى وجدت من العسير عليها ، الاكتفاء بدخلها القليل ، تقاعس أدولف الشاب عن مد يد العون إليها ، بالحصول على عمل . وكان يأنف من الحصول على ما يقيم اوده بأي نوع من انواع العمل المنظم ، وظلت هذه النزعة غالبة عليه طيلة حياته .

ويبدو أن ما أضفى السعادة على هذه السنوات الأخيرة من سني اقترابه من الرجولة ، هو ما أحس به من تحرر من قيود العمل،مما أفسح المجال له ، ليتصور ويحلم ، وليقضي أيامه جائلاً شوارع المدينة ، أو أرجاء الريف ، محدثاً رفيقه بما يراه من أخطاء في هذا العالم ، وبما يرتئيه من سبيل لإصلاحها، وليقضي امسياته اما مرافقاً لأحد الكتب أو واقفاً في مؤخرة دار الاوبرا في لينتز او فيينا ،

---

١ ـ سرد هذه القصة عن نفسه ذات مساء ليلة الثامن من كانون الثاني عام ١٩٤٢ في مقر قيادته . (احاديث هتلر السرية ص ١٦٠) .

٢ ـ « وكانت هذه أسعد ايام حياتي ، بل كانت اشبه ما تكون بالحلم » . (كفاحي ص١٨) وكتب هتلر في رسالة بتاريخ الرابع من آب عام ١٩٣٣ اي بعد ستة أشهر من وصوله الى المستشارية الى صديق صباه ، اوغست كوبيزيك يقول . . . « يجب ان اكون سعيداً جداً ، لأستعيد معك ذكريات السنوات السعيدة من حياتي » . (كوبيزيك ـ هتلر الفتى الذي عرفت ص ٢٧٣) .

٣ ـ كفاحي ص ٢١ .

مصغياً بجماع حواسه وهو كالثمل الى مقطوعات ريتشارد واغنر الوثنية الغامضة.

وقد تذكره احد أصدقـاء طفولته فيما بعد، فذكر أنه كان فتى شاحب الوجه يبدو عليه المرض، وشديد النحول، قادراً رغم ما يبدو عليه من خفر وحياء على الانفجار غاضباً وبصورة مفاجئة أحياناً مصحوباً بنوبات هستيرية، ضد اولئك الذين يخالفونه الرأي. وخيل اليه لمدة أربع سنوات انه قد وقع في غرام فتاة شقراء جميلة تدعى ستيفاني، وعلى الرغم من انه كان يكاد يلتهمها بنظراته اللاهبة عندما تذرع شارع «لاندستراسه» في لينتز مع والدتها، إلا أنه لم يبذل اية محاولة مهما كانت ضئيلة، للتحدث اليها ولقائها، مؤثراً الابقاء عليها، كالأهداف الأخرى التي تطلع اليها، في عالم الظلال، لخيالاته المحلقة في الفضاء. وقد نظم في الحديث عنها عدداً من القصائد الشعرية، التي لم يبعث اليها بواحدة منها قط، وكان عنوان احداها «اغنية الى الحبيبة»، وكان يصر على تلاوة قصائده على مسامع صديقه الشاب الكثير الاحتمال «اوغست كوبيزيك»[1]، وقد صورها فيها بصورة غادة هابطة من السماء، وقد ارتدت وشاحاً فضفاضاً من القطيفة الزرقاء، تركب جواداً ابيض، محلقة به فوق المروج الزاهرة[2].

وعلى الرغم من ان تصميم هتلر كان منصرفاً الى ان يغدو فناناً، مؤثراً الرسم او الهندسة المعمارية على غيرهما من الفنون، إلا انه كان واقعاً منذ السادسة

---

١ - رسم كوبيزيك، الذي يبدو انه كان الصديق الوحيد لهتلر في صباه، في كتابه «هتلر الفتى الذي عرفت» صورة ممتعة لرفيقه في السنوات الاربع الاخيرة، قبل ان يغدو في التاسعة عشرة من عمره، الافاق المتسكع الذي يعيش في فيينا. وهي صورة، لا تملأ فراغاً في تاريخ حياة الفوهرر الالماني فحسب، وإنما تصحح بعض الانطباعات التي كانت شائعة عن طبيعته المبكرة. وكان كوبيزيك يختلف كل الاختلاف عن هتلر. فقد نعم بحياة بيتية سعيدة في لينتز، وتعلم مهنة والده كمنجد للأثاث، وعمل فيها بجد بينما واصل دراسته للموسيقى، وتخرج من معهد فيينا الموسيقي بامتياز، ثم بدأ حياة موسيقية ناجحة كمؤلف وملحن، لم تقطعها إلا الحرب الكونية الأولى.

٢ - كتاب كوبيزيك ص ٥٩ .

عشرة من عمره تحت سيطرة السياسة ، وكان منذ صباه ، قـد أنمى في نفسه كراهية شديدة لأسرة هبسبورغ المالكة ، ولجميع العناصر غير الألمانيـة في الامبراطورية النمسوية — المجرية المتعددة الجنسيات ، وأنمى في الوقت نفسه حباً شديداً لكل ما هو الماني . وكان قد غدا وهو في السادسة عشرة من عمره ، ما قدر له ان يكونه حتى آخر نفس من حياته ، الوطني الألماني المتعصّب .

ويبدو ان هتلر ، لم يكن يحمل تلك الروحية من اللامسؤوليـة التي عرف بها الشبان ، على الرغم من تسكعه ، فقد كان يحس بالمشاكل العـالمية التي ينوء تحت أعباء ثقلها . وقد كتب كوبيزيك فيما بعد ، عنه يقول : « لم يكن يرى في كل مكان إلا العقبات والعداء .... وكان يرى نفسه دائماً في خصام مع شيء من الأشياء ، وفي خلاف مع العالم ... ولم أره قط قليل الاكتراث بالأمور ، غير آبه بها ... » [١] .

وفي هذه الفترة التي مل فيها الشاب من مدرسته ، غدا قارئاً نهمـاً شديد الولع بالقراءة . واشترك في مكتبة « تعليم الراشدين » في لينز ، كما انضم إلى جمعية المتحف ، التي كان يفترض اعداداً كبيرة من كتبها . ويذكره صديقه الشاب محاطاً دائمـاً بالكتب التي كان يؤثر منها المؤلفات عن تاريخ المانيـا واساطيرها (ميتولوجيتها) [٢] .

ولما كانت لينز من مدن الاقاليم ، لم تمض فترة طويلة قبل ان تشرع فيينـا عاصمة الامبراطورية المتألقة والعجيبة في استهواء شاب كهذا الشاب يمتـاز بالطموح والخيال الواسع . وقد ارتحل عام ١٩٠٦ ، بعد مدة قصيرة من احتفاله بعيد ميلاده السابع عشر إلى العاصمة ، مجهزاً ببعض المال الذي وفرته له والدته وبعض أقاربه ، لقضاء شهرين في المدينة الكبيرة . وعلى الرغم من انهـا غدت فيما بعد مسرح السنوات الشديدة المرارة من حياته ، عندما عاش فيما بعد بعض

---

١ ـ كوبيزيك ـ ص ٧٦ .

٢ ـ كوبيزيك ـ ص ٥٤ ـ ٥٥ .

الاوقات، في مجاريها، إلا انها كانت هذه المرة ، وابان زيارته الاولى لها ، مصدر النشوة له . وكان يقضي الايام الطوال جائلاً شوارعها ، ممتلئاً بالاثارة النفسية من رؤيته لأبنيتها الرائعة المحيطة بالساحة الرئيسية، ومنتشياً بمايشهده في متاحفها ودار اوبراها ، ومسارحها من مناظر تأسر لبه .

واستعلم اثناء هذه الزيارة عن متطلبات الالتحاق باكاديمية الفنون الجميلة فيها، ولم يمض اكثر من عام ، حتى كان يعود اليها في تشرين الأول عام ١٩٠٧ ليشترك في فحص الدخول الى المعهد ، وليخطوا خطوته العملية الأولى في تحقيق حلمه المنشود في ان يغدو رسّاماً. وكان آنذاك في الثامنة عشرة من عمره ، تترع صدره الآمال العراض ، ولكنها سرعان ما تحطمت على صخرة الحقيقة ، ولا ريب في ان فقرة من فقرات نشرات المعهد تتحدث الينا بالقصة الكاملة عن هذا التحطيم :

« لقد تقدم الطلاب التالية اسماؤهم الى الامتحان ، فلم يحصلوا على نتائج كافية ، ولذا لم يقبلوا في المعهد ادولف هتلر ، من بروناو . ا . أين . ولد في ٢٠ نيسان عام ١٨٨٩ . ألماني الأصل كاثوليكي . والده موظف حكومة . قضى أربع سنوات في مدرسة ثانوية . نجح في بعض الدروس ولكنه فشل في الحصول على نتيجة مرضية في الرسم » [١] .

وقام هتلر بنفس المحاولة في العام التالي ، وكانت رسومه سيئة للغاية حتى أنه لم يسمح له بالاشتراك فى الامتحان . وبدت هذه النتيجة بالنسبة الى الشاب الطموح كما كتب فيما بعد، بمثابة صاعقة هبطت من سماء صافية . فقد كان مقتنعاً كل الاقتناع من نجاحه. وطلب هتلر ، كما ذكر في « كفاحي» تفسيراً لهذا الموقف من رئيس المعهد .

« أكد لي السيد ان الرسوم التي قدمتها قد اظهرت بصورة

---

١ ـ كونراد هايدن ـ الفوهرر . ص ٥٢ .

لا تقبل الشك أو الجدال ، عدم صلاحي لأن اغدو رسّاماً ، وان كفايتي على ما يبدو ، تقوم في ميدان الهندسة المعمارية . وذكر لي ان قبولي في كلية الرسم ، أمر خارج الموضوع، وان المكان الصالح لي هو كليـة الهندسة المعمارية » [1] .

وكان ادولف الشاب ميالاً الى الأخذ بهذا الرأي ، ولكن سرعان ما ادرك آسفاً كل الأسف ، ان افتقاره الى شهادة التخرّج من المدرسة الثانوية ، سيحول ايضاً دون قبوله في كلية الهندسة المعمارية .

وكانت والدته تحتضر في غضون ذلك متأثرة من سرطان استشرى في صدرها فعاد الى لينز ، وكانت كلارا هتلر واقاربها ، قـــد مدوا يد العون الى الشاب منذ ثلاث سنوات أي منذ تركه المدرسة ، دون ان يروا نتيجة لهـــذا العون . وتوفيت والدة هتلر في الواحد والعشرين من كانون الأول عام ١٩٠٧ ، في الوقت الذي بدأت فيه البلدة تتأهب لارتداء حلة الاحتفال بعيد الميـلاد ، وشيع جثمانها بعد يومين الى مقره الأخير في ليوندينغ،لتدفن الى جانب زوجها. وكتب هتلر يصف شعوره آنذاك وهو في التاسعة عشرة من عمره ..

« لقد كانت ضربة قاتلة ... لقد كنت اجِّل والدي، أما أمي فقد احببتها... ووضعت وفاتها نهاية مفاجئة لجميع مشاريعي المحلقة في اجواء الخيال ... وحتم علي الفقر والواقع القاسي ، ان اخطو خطوة حاسمة...فقد واجهت الى حد ما مشكلة البحث كيفما كان عما يقيم اودي » [2] .

كيف ما كان ! انه لا يعرف اية مهنة . وكان يزدري دائماً العمل اليدوي . ولم يكن قد حاول قط اكتساب فلس واحـــد . ولكنه لم يفزع ولم يرهب الواقع . وودع اقاربه وداعاً طويلاً . معلناً لهم انه لن يعود ابداً الى ان ينجح في حياته .

---

١ ـ كفاحي ـ لهتلر ص ٢٠ .

٢ ـ كفاحي ـ هتلر . ص ١٨ .

« ومضيت الى فيينـا . احمل حقيبة ملأى بالالبسة في يدي ، وعزيمة لا تقبل الضعف في فؤادي . وكنت آمـل في ان استخلص من القضاء والقدر ، ما حققه والدي قبل خمسين عاماً . وأملت في ان اصبح « شيئاً ما » في هذه الحيـاة ، ولكنني لن اكون على اي حال من الاحوال موظفاً في الحكومة » [1] .

« اشقى فترة في حياتي »

وغدت السنوات الاربع التالية ، بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١٣ من ايام الشقاء الكامل والعوز في حيـاة الشاب القادم من لينز ليغزو العاصمة . وكانت فيينا تتمتع في هذه السنوات السريعة الزوال ، قبل سقوط اسرة هبسبورغ ، ونهايتها كعاصمة لامبراطورية تضم اثنين وخمسين مليونـاً من الناس في قلب اوربا ، بوضع من المرح ، والفتنة لا مثيل له بين عواصم العالم . وكانت تعيش في جو من التأنق في الحياة ، والغرابة في الزخرفة ، قل ان يكون له ند أو شبيه في الغرب ، لا بفضل ما فيها من فن الهندسة المعمارية والنحت والموسيقى فحسب ، بل وبفضل ما امتاز به اهلها من ميل الى اللهو والتمتع بالحياة ، وروحية مرفهة وانيقة ايضاً.

وكانت المدينة بموقعها على ضفـاف الدانوب الازرق ، ممتدة على سفوح « وينروولد » التي تغطيها الغابات ، والتي تنتشر فوقها حقول الكرمـة التي امتزجت خضرتهـا باللون الاصفر الذي يرصعها ، تمتاز بجمال طبيعي أخاذ ، يستحوذ على زائرها ، ويحمل أهلها على الايمان بان العناية الالهيـة ، قد حبتهم بالكثير من نعمائها وخيراتها . وكانت الموسيقى تملأ اجواءهـا ، وقد رددت معزوفات ابنائها الموهوبين ، الذين مثلوا اعظم من انجبته اوربا بأسرها من رجال الفن ، من امثال هايدن وموزارت وبيتهوفن وشوبير ، كما رددت في لياليها التي

---

١ - كفاحي - هتلر . ص ١٨ .

تشبه ليالي الصيف المتأخر ، انغام « الفالس » المحلّقة التي وضعها جوهان شتراوس المحبوب . وكانت الحياة بالنسبة الى شعب حي بكل هذه النعم ، وتأثر بهذا الطراز المزخرف من العيش ، اشبه ما تكون بالحلم ، وكان هذا الشعب الطيب من ابناء المدينة يقضي ايامه ولياليه الممتعة ، يرقص الفالس ، ويحتسي النبيذ ، ويمضي الاوقات في احاديث طروبة في المقاهي الوديعة المؤنسة ، مستمعاً الى الموسيقى ، ومستعرضاً ما يراه من قصص الخيال التي يكاد يصدقها على المسارح وفي « الاوبرات » والمسرحيات الغنائية ، ومنتهباً من لذات الزمن ما يستطيعه من مغازلات وعشق ، صارفاً القسم الأعظم من الحياة ، في اقتناص الملذات ، والجري وراء الاحلام .

وكان من المحتوم ، ان تحكم الامبراطورية ، وان يؤمن الرجال للجيش والاسطول ، وان تصان طرق المواصلات ، وتتبادل السلع التجارية ، وتنجز الاعمال . ولكن قليلين هم اولئك الذين كانوا يصرفون اوقاتاً كافية ، أو فوق الكافية ، في ممارسة هذه الاعمال .

وكان ثمة جانب كثير الأخاديد ، مدبّب الأسنة ، مناقض لهذه الصورة الرائعة . فهذه المدينة كغيرها من المدن تضم ايضاً عدداً من الفقراء ، الذين يرتدون رث الثياب ، والذين يعيشون في الجحور . ولكن لما كانت اعظم مركز صناعي في وسط أوربا ، وعاصمة الامبراطورية ، فقد ازدهر الوضع الاقتصادي فيها ، وعمّ هذا الرخاء جميع اهلها ، متخللاً الى الطبقات الفقيرة ونافذاً اليها . وكانت الجماهير الضخمة من الطبقة الوسطى الخفيضة تسيطر على المدينة سياسياً ، بينما كان العمال لا يكتفون بتنظيم النقابات المهنية ، بل ويقومون على اعداد حزب سياسي قوي لهم ، يسمى الحزب الديموقراطي الاشتراكي . وكان ثمة نوع من الاختمار في حياة المدينة ، التي ارتفع عدد سكانها الآن حتى بلغ المليونين . وشرعت الديموقراطية في تنحية حكم آل هبسبورغ الأوتوقراطي ، بينما تفتحت مجالات التعليم والثقافة امام الجماهير الكبيرة ، بحيث وجد المجال ، عندما أم هتلر فيينا في عام ١٩٠٩ ، لشاب مفلس ، للخيار بين امرين ، اما الحصول على

تعليم ارقى من تعليمه ، أو كسب المورد لحياة كريمة نسبياً ، كما سنحت له الفرصة للعيش كواحد من مليون شخص من كاسبي الاجور ، في السحر الحضاري الذي تضفيه المدينة على اهلها . أو لم يكن صديقه الوحيد كوبيزيك وهو شبيه له في فقره وفي خمول ذكره ، قد شرع في البروز في معهد الموسيقى ؟

ولكن ادولف الشاب لم يتابع طموحه في الالتحاق بكلية الهندسة المعمارية . وكان المجال ما زال مفتوحاً امامه للالتحاق بها ، على الرغم من افتقاره الى شهادة الدراسة الثانوية ، اذ نصّت انظمة المعهد على قبول الشبان الذين يبدون « مواهب خاصة » حتى ولو لم يكونوا من حملة الشهادات الثانوية ، ولكننا لا نعرف حتى الآن انه تقدم بطلب للالتحاق بها . ولم يبد في الوقت نفسه أي اهتمام لتعلم مهنة من المهن ، أو للحصول على أي عمل منظم . وقد آثر عوضاً عن ذلك ، ان يتنقل في وظائف غريبة متعددة كأزاحة الثلج من الحدائق ، أو تنظيف البسط والسجاد ، أو حمل الحقائب خارج محطة السكة الحديدية ، أو العمل في البناء لعدة ايام . واضطر في تشرين الثاني عام ١٩٠٩ ، أي بعد اقل من عام واحـــد من وصوله الى فيينا « لاستعجال القدر » للتخلي عن الغرفة المؤثثة التي كان يقيم فيها في « سيمون دينك غاسي » والعيش للسنوات الاربع التالية في منازل متداعية ، أو في احياء الفقر والشقاء في نزل للرجال في رقم **٢٧** « ملديمان ستراسه » في المنطقة العشرين من فيينا على مقربة من نهر الدانواب دافعاً عن نفسه المجاعة بارتياد مطاعم الحساء التي توزع الطعام مجاناً عـــلى فقراء المدينة .

وليس ثمة من الغرابة في شيء ، انه تمكن من الكتابة بعد حقبتين ما يلي :

« تمثل فيينا في خاطري ، ويؤسفني ان اقول هذا القول ، الذكرى الحيّة لأشقى ايام حياتي ، على الرغم من انها كانت للكثيرين عنوان المتع البريئة ، والمجال الفسيح لطالبي المسرات والمتعة .

« ولا تستطيع هذه المدينة حتى في يومنا هذا ، ان تثير في خاطري اكثر من مجرد افكار مفزعة . ويمثل اسم هذه المدينة

الخالدة بالنسبة اليّ خمس سنوات من الشقاء والمتاعب . انها خمس سنوات اضطررت فيها الى كسب القوت ، كعامل يومي اولاً ، ومن ثم كرسام صغير، وكان دخلي ضئيلاً الى الحد الذي لا يكاد يفي باقل ما يمكن من متطلبات حياتي اليومية » .[1]

وكان يكثر من الحديث دائماً عن مجاعة تلك الايام فيقول :

« كان الجوع مرافقي الأمين آنذاك ، ولم يكن ليفارقني لحظة واحدة ، بل يشترك معي في كل ما أعمله .. وكانت حيـاتي كلها نضالاً مستمراً مع ذلك الصديق الذي لا يرحم »[2] .

لكن هذا الجوع لم يدفعه قط الى حد البحث عن عمل رتيب منظم . ولقد اوضح في كتابه « كفاحي » انه كان يحس دائماً بخوف « البورجوازي الصغير » من الانزلاق الى صفوف العمال والبروليتاريين ، أي العمال اليدويين ، وهو خوف استغله فيما بعد في بناء حزبه الاشتراكي الوطني ، على الاساس الواسع من الطبقة التي كانت حتى ذلك الحين دون قيادة وكانت مهملة تتقاضى ادنى الأجور ، ويرتدي افرادها القمصان ذات الياقات المنشاة ، يعدون بالملايين ويعيشون على الوهم بأنهم على الأقل ، ارفع اجتماعياً من طبقة « العمال » .

وعلى الرغم من ان هتلر يقول ، بأنه قد « دبّر » هذه الآونة جزءاً من معاشه « كرسام صغير » ، الا انه لا يحدثنا في تاريخ حياته باسهاب وتفصيل عن هذه الناحية ، ويكتفي بالاشارة الى انه في عامي ١٩٠٩ و ١٩١٠ ، قد حسّن من وضعه بحيث لم يعد ملزماً بالعمل كأي عامل عادي .

فهو يقول ... « وكنت في هذا الوقت اعمل بصورة مستقلة، كرسام صغير ومصور بألوان الماء »[3] .

ولكن في هذا القول الكثير من التضليل ، شأنه في ذلك شأن الكثير من

---

١ ـ كتاب كفاحي ـ لهتلر ص ٢١ .

٢ ـ كتاب كفاحي ـ لهتلر ص ٢١ ـ ٢٢ .

٣ ـ كتاب كفاحي ص ٤٠.

الأقوال التي أرّخ بها حياته في كتاب « كفاحي » . وعلى الرغم من ان اقوال الذين عرفوه في هذا الوقت قد لا تكون اكثر وثوقاً وصدقاً ، الا انها اذا جمعت الى بعضها ، اعطت صورة كافية قد تكون اكثر دقة ، ولا ريب في انها اكثر كمالاً من الصورة التي رسمها هو لنفسه [١] .

ولا ريب في ان ادولف هتلر ، لم يكن في يوم ما دهاناً للبيوت كما حـــاول خصومه السياسيون ان يصفوه ، للهزء به . فليس ثمة من دليل ، يقوم على انه زاول هـــذه المهنة . وكان كل ما عمله هو ان يرسم او يصور بالألوان ، صوراً صغيرة لا فن فيها لفيينا تضم بعض مناظرها البارزة ككاتدرائيـــة القديس اسطفان او دار الأوبرا او مسرح(برغ)او قصر شوينبرون ، او الآثارالرومانية في حديقة شوينبرون . ويقول عارفوه انه كان ينقل هذه الصور ، من آ ثار فنية قديمـــة ، ومن المعتقد انه كان عاجزاً عن الابتكار في الرسم . وكانت صوره ملطخة بالدهانات ، ولا حياة فيها ، اشبه ما تكون بالمسودات الأولىالتافهة التي يرسمها مهندس مبتدىء ، وكانت الشخصيات الانسانية التي يضيفها احياناً اليها من البشاعة بحيث تذكر المرء بالصور الهزلية المضحكة . وقد عثرت علىملاحظة دونتها بنفسي بعد ان قلبت « ألبوماً » يجمع عدداً من الصور الاصلية التي رسمها هتلر ، اذ قلت .. « هناك بعض الوجوه ، انها غليظة لا فن فيها .واحدها يشبه وجه الغول » . اما هايدن فقد كتب عنها يقول : « انهـــا أشبه ما تكون بالاكياس الصغيرة المحشوة التي تقف الى جانب قصور شاهقة فخمة » [٢] .

---

١ ـ راجع كتاب « نهاية اسطورة هتلر » لجوزف عريتر ، الذي تعرف على هتلر شخصياً في هذه الايام من حياته في فيينا . وراجع كتاب « هتلر الأداة المسخرة » لرودلف اولدين ، ففي الكتاب اقوال لشخص يدعى راينهولد هانيش من الألمان السوديت ، كانمتسكعاً في فيينا،وكان في يوم ما يعيش مع هتلر في نفس غرفته ، ويبيع له بعض صوره . ويقتبس كونراد هايدن في كتابه (الفوهرر) اقوالاً لهانيش ايضاً ، وبينها سجلات احدى المحاكم لقضية رفعها هتلر عـــلى الصعلوك متهماً اياه بالاحتيال عليه وسلبه مالاً من بيع احدى صوره .

٢ ـ هايدن ـ الفوهرر ص ٥٤ .

ويبدو ان هتلر قد باع المئات من هذه القطع الحقيرة الى صغار تجار التحف لتزيين الجدران بها ، او الى بعض تجار « الاطارات » ليملأوا اطاراتهم الفارغة بها ،أو الى تجار الأثاث الذين كانوا يضعونها في مؤخرة الأرائك والمقاعد الرخيصة التي كانوا يبيعونها جرياً على المألوف المعروف في فيينا في تلك الأيام . وكان في وسع هتلر ان يكون اكثر اقبالاً على التجارة . فقد رسم كثيراً لوحات اعلانية لاصحاب الحوانيت للدعاية للبضائع التي يبيعونها كمسحوق تـــدي (البودرة) لمكافحة العرق . وكانت هناك لوحة واحدة بين لوحاته ، اغدقت عليـــه بعض المال أيام أعياد الميلاد ،وقد ظهر فيها« سانتكلوز »وهو يبيع بعض الشموع الزاهية الالوان ، ولوحة اخرى تظهر برج القديس اسطفان الغوطي الذي لم يكلّ هتلر من رسمه ، وقد برز مرتفعاً من جبل من زبد الصابون .

وكان هذا هو المدى الذي وصلت اليه انجازات هتلر « الفنيّة » ، ومع ذلك فقد ظل يعتبر نفسه حتى آخر لحظة من حياته ، فناناً .

وقد عاش بكل تأكيد حياة « بوهيمية » في هذه السنوات من التسكع في فيينا . ويذكره الذين عرفوه تلك الايام ، وقد ارتدى معطفاً طويـــلا اسود مهلهلا ، يمتد الى ركبتيه ، واشبه ما يكون « بالجبّة » أو « القفطان » ، وكان قد اخذه من بائع يهودي هنغاري للملابس القديمة ، كان يعيش معه في نفس النزل الحقير ، وقد غدا صديقاً له . ويذكر هؤلاء ايضاً قبعته السوداء المغضّنة ، التي كان يرتديها طيلة ايام السنة ، وشعره المنسدل على جبهته تماماً كما كان يبدو في ايامه الاخيرة ، وقد غطّى رقبته كلها ، وحتى ياقته القذرة ، اذ ندر ان بـدا حليق الشعر والذقن ، بينما برزت شعيرات ذقنه السوداء ، على صفحات خديه ووجهه مؤلفة لحية لا تنسيق فيها .واذا صـــدق الانسان ما قاله هانيش الذي اصبح فيما بعد ، فنّاناً الى حد ما ، فقد كان هتلر يشبه «طيفاً من الاطياف التي لا يألفها المسيحيون » [1] .

---

١ ـ هايدن ـ الفوهرر ص ٦٨ .

وكان على النقيض من رفاقه من الشبان الفاسدين لا يعرف شيئاً من مباذل الحياة . فلم يكن يألف الشراب او التدخين ابداً . ولم تكن له اية علاقات مع النساء ، لا بسبب أي شذوذ او ضعف ، وانما بسبب حياء متأصل فيه من المرأة .

ولقد ذكر هتلر فيما بعد في كتابه « كفاحي » ، في لمحة من لمحاته النادرة من التنكيت والسخرية : « اعتقد ان الذين عرفوني في تلك الايام ، حسبوني انساناً شاذاً » [1] .

وهم يذكرون كما يذكر اساتذته ، عينيه المحملقتين ، وقد سيطرتا على وجهه ، وأعربتا عن شيء كامن في تلك الشخصية التي لا تتفق مع الوجود الحقير لذلك الصعلوك القذر . ويذكرون ايضاً ان الشاب على الرغم من كسله في الاعمال اليدوية ، كان نهماً في القراءة ، يقضي معظم ايامه ولياليه في التهام الكتب .

« لقد قرأت في تلك الآونة كثيراً ، وكنت اشغل كل ما يتوافر لدي من وقت بعد العمل في الدراسة . وقد سبكت في غضون بضع سنوات بهذه الطريقة اسس المعرفة التي ما زلت اعيش على غذائها حتى اليوم » [2] .

وقد بحث هتلر في كتابه « كفاحي » مطولاً في موضوع القراءة وفنها فكتب يقول :

« انني اعني بكلمة « القراءة » شيئاً مختلفاً على الغالب عما يعنيه الفرد العادي من افراد ما يدعى بالطبقة المثقفة عندنا » .

« وانا اعرف اناساً يقرأون كثيراً ... ومع ذلك فأنا لا اصفهم بالمجيدين في القراءة . وقد يملكون حشداً من « المعرفة » ولكن عقولهم عاجزة عن تنظيم وتسجيل ما لقنته . . أما الرجل الذي يملك فن القراءة الصحيحة . . فيدرك فوراً وبدافع الغريزة ، كل ما يرى انه جدير بالتذكر والحفظ بصورة دائمة . . اما لأن

---

١ - كفاحي - هتلر ص ٣٤ .
٢ - كفاحي - هتلر ص ٢٢ .

ما قرأه يتفق مع اهوائه وأهدافه ، أو لأن مـــا قرأه يستحق المعرفة بصورة عامة . وفن القراءة كفن التعلم يكون في الحفاظ على ما هو جوهري ، ونسيان ما هو غير جوهري ... ولهذا الطراز من القراءة وحـده ، هدف ومعنى ... واذا ما نظرت الى فترة الحياة التي قضيتها في فيينا من هذه الزاوية ، بدت لي مثمرة وكبيرة الفائدة » [1] .

ترى ما هي الفائدة التي عناها ؟ ان رد هتلر على هذا السؤال ، هو انه من قراءته ، ومن الحياة التي قضاها بين فقراء فيينا وبؤسائها ، تعلم كل مـــا كان بحاجة الى معرفته في حياته المقبلة ...

« لقد كانت فيينا ، وما زالت ، بالنسبة اليّ ، اقسى مدرسة في حياتي كلها وأكملها . فقد وضعت قدمي فيهـا وكنت لا ازال نصف طفل ، وغادرتها وانا رجل ، بعد ان كبرت وغدوت هادئاً ورصيناً .

« وقد تكونت لدي في هذه الفترة صورة عالمية ، وفلسفة غـدت الاساس الصخري الثابت لكل اعمالي. ولم اكن بحاجة الى تعـلم أي شيء يضاف الى ما خلقته آنذاك ، كما لم اكن بحاجة الى تبديل أي شيء » [2] .

ترى ما هو الذي تعلمه من مدرسة تلك الضربات القاسية التي أمنتها له فيينا بسخاء وكرم ؟ وما هي الأفكار التي حصل عليها من قراءاته وتجـاربه ، وهي الأفكار التي قال عنها بأنها ستظل في جوهرها دون تغيير أو تبديل حتى النهاية ؟ ان أي فحص سطحي لها يظهر بوضوح ، انها افكار ضحله للغاية ورثة بالية ، على الرغم من تظاهرها بالنفخة الكاذبة والتمجيد البالغ، ومن تسممها بالحزازات الشاذة العجيبة . لكن اهميتها بالنسبة الى هذا التاريخ ، بل وبالنسبة إلى العالم أيضاً ، كثيرة الوضوح كذلك ، فقد قدّر لها أن تؤلـّف جزءاً من الاساس الذي قام عليه الرايخ الثالث ، وهو الرايخ الذي قدر لهذا الأفاق الكثـــير القراءة والقليل الفهم ، أن يبنيه في وقت قريب .

---

١ ـ كفاحي لهتلر ـ ص ٣٥ ـ ٣٧ .

٢ ـ كفاحي لهتلر ـ ص ٢٢ ـ و ص ١٢٥ .

تفريخ الافكار عند ادولف هتلر

كانت الافكار التي حملها ادولف هتلر ، اذا ما استثنينا فكرة واحدة منها، من النوع المقتبس لا الاصيل، وقد التقطها فجّة، من الدوّامة المخّاضة للسياسات النمسوية وللحياة في السنوات الأولى من القرن العشرين. وكانت ملكية الدانوب تعاني سكرات الموت من سوء الهضم . فقد حكمت اقلية من النمسويين – الالمان عدة قرون، امبراطورية متعددة الألسن تضم نحواً من « دزينة » من القوميات، وفرضت عليها لغتها وثقافتها . لكن هذه السيطرة اخذت تسير نحو الضعف منذ عام ١٨٤٨ . ولم يكن في وسع الملكية هضم هذه الاقليات ، كما ان النمسا لم تكن قدراً تذوب فيه الاقليات وتنصهر . وفي حقبة الستين من القرن الماضي ، انفصل الايطاليون عن الامبراطورية ، بينما تمكن المجريون في عـــام ١٨٦٧ من الفوز بالمساواة مع الألمان في ظل ملكية ثنائية . وعندما هلّ القرن العشرون ، أخذت الشعوب السلافية المتعددة من تشيكيين وسلوفاك وصرب وكروات ، وغيرهم يطالبون بالمساواة وبالاستقلال الذاتي على الاقل . وغدت السياسات النمسوية واقعة تحت سيطرة الخلافات المريرة بين القوميات المختلفة .

ولم يكن هذا كل شيء في الافق . فقد كانت ثمة ثورة اجتماعية تتخطى احياناً حدود الصراع العنصري . وكانت الطبقات الخفيضة المحرومة من الانتخاب ، تطالب بحقوقها في الاقتراع ، واخذ العمال يصرون على نوال حقهم في تنظيم النقابات المهنية وفي الاضراب ، ولا ينشدون الحصول على اجور أعلى واوضاع افضل في العمل فحسب ، وانما يطلبون اهدافاً سياسية ديموقراطية . وأدّى الاضراب العـــام الذي وقع اخيراً ، الى تقرير حق الانتخاب العام لجميـع الرجال ، وجاءت مع هذا القرار نهاية السيطرة السياسية للألمان النمسويين ، الذين كانوا يعدون ثلث سكان النصف النمسوي من الامبراطورية .

وكان هتلر ، الوطني النمسوي – الألماني المتعصب الشاب ، الذي ينتمي الى

لينز ، من اشد مقاومي هذا التطور . وبدت الامبراطورية له وكأنها تغرق في « مستنقع قذر » ، وكان سبيلها الوحيد للخلاص في رأيه استعادة العنصر الألماني السيد ، سلطانه المطلق فيها . وكانت الأقوام غير الألمانيــــة فيها ولا سيما من السلاف والتشيكيين ، في رأيه من الاجناس الوضيعة ، ومن حق الألمان أن يحكموها ويسيطروا عليها بقبضتهم الحديدية . وكان من رأيه ان البرلمان يجب ان يلغى ، وان توضع نهاية لجميع هذه « التفاهات » الديموقراطية .

وقد تابع هتلر ، على الرغم من عدم اشتراكه في النشاط السياسي ، اعمال الاحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة في النمسا القديمة باهتمام زائد ، وهي حزب الديموقراطيين الاشتراكيين ، وحزب الاشتراكيين المسيحيين ، والحزب القومي لجميع ألمانيا . وبدأت تقفز في فكر هذا الرجل غير المهندم ، الذي ألف ارتياد مطابخ الحساء الذي توزعه جمعيات البر والاحسان ، ألمعية سياسية ، مكنته من ان يرى بوضوح مدهش مــــا في الحركات السياسية المعاصرة من نقاط القوة والضعف ، وجعلت منه بعد ان تم نضجها ، السياسي الأول في المانيا كلها .

وقد نمت في نفسه من اتصالاته الأولى ، كراهية عنيفة لحزب الاشتراكيين الديموقراطيين . وكتب يقول : « ان اشد ما استفزّني ضد هذا الحزب ، موقفه المعادي للنضال في سبيل الحفاظ على الجامعة الألمانيــــة ، وعطفه البشع على «الرفاق» السلافيين ... وقد حصلت في أشهر قليلة ، على ما كان يقتضيني جهود حقب طويلة ، وهو تفهم « العاهرة الناقلة للعدوى » ، متسربلة برداء من الطهر الاجتماعي والحب الاخوي »[1] .

ولكنه كان من الذكاء ، بحيث تمكن من اخماد عواطفه وغضبه على حزب الطبقة العاملة هذا ، ليستطيع ان يدرس بتعمق وعناية الاسباب التي ادت الى انتشاره بين جماهير الشعب . وقد استخلص وجود اسباب عدة ، سرعان ما استعادها الى ذاكرته ، واستخدمها في بناء حزبه الوطني الاشتراكي الألماني .

---

١ – كفاحي – لهتلر ص ٣٨ – ٣٩ .

وهو يذكر في كتابه « كفاحي » انه شهد ذات يوم مظاهرة جماهيرية قام بها عمال فيينا . « وقد وقفت نحواً من ساعتين ارقب بنفس متقطع هـذا التنيّن البشري الضخم ، وهو يتلوى ببطء . واخيراً تركت مكاني وانا احس بقلق مكبوت ، ومضيت اجر اقدامي الى المنزل » [1] .

وشرع يقرأ في منزله صحف الديموقراطيين الاشتراكيين وخطب قادتهم ، كما اخذ يدرس تنظيماتهم ، ويستعرض نفسيتهم واساليبهم السياسية ، مفكراً في نتائجها . وتوصل الى ثلاثة استنتاجات اوضحت له اسباب نجاحهم ، فقد كانوا بارعين في خلق الحركات الجماهيرية ، التي لا جدوى لأي حزب سياسي بدونها ، كما اتقنوا فن الدعاية الى الجماهير ، واخيراً فهموا قيمة مـا اطلق عليه اسم « الارهاب الروحي والبدني » .

وقد ضلّل هتلر الشاب بهذا الاستنتاج الثالث الذي اقامه فعلاً على ملاحظات خاطئة اختلطت باهوائه الكثر . ولم تمض عشر سنوات حتى كان يفيـد من استنتاجه هذا في تحقيق غاياته :

« لقد فهمت الارهاب الروحي المعيب الذي تفرضـه هذه الحركة ، ولا سيما عـلى الطبقة البورجوازية ، التي ليست اهلاً للصمود لا من الناحية الخلقية ولا من الناحية العقلية امام مثل هذه الهجمات ، فهي تنشر عند اعطاء أية اشارة معينة ، ستاراً واقعياً من الاكاذيب والاتهامات ضد أي خصم يبدو خطر عليها ، وتواصل عملها هذا الى اللحظة التي تنهار فيها اعصاب هذا الانسان الذي تعرض الى الهجوم ... ولا ريب في ان هذا الاسلوب مرتكز على حسابات مدروسة للضعف الانساني ، وتؤدي نتائجها الى النجاح بشيء من اليقين الرياضي ...

« وحصلت على تفهم مماثل لأهمية الارهاب البدني ضد الفرد

---

١ - كفاحي - هتلر ص ٤١ .

والجماهير ... وبينما يبدو النصر الذي تحقق الى صفوف المؤيدين وكأنه ظفر لعدالة القضية التي يؤيدونها ، يشعر الخصوم المهزومون في معظم الحالات ، باليأس من امكان النجاح في أية مقاومة مقبلة»[1].

وليس ثمة من تحليل اكثر دقة للاساليب النازية التي طوّرها هتلر فيما بعد ، من هذا التحليل الذي اوردناه على لسانه .

وكان ثمة حزبان سياسيان في فيينا استهويا هتلر الذي بدأ ريشه في النمو في هذه الايام ، وقد طبق القوة النامية لتحليله الذكي الدقيق عليهما . ويقول هتلر ان ولاءه الأول اتجه الى الحزب القومي لجميع المانيا الذي اسسه جورج ريترفون شوينيرر ، الذي ينتمي الى نفس المنطقة القريبة من سبيتال في النمسا السفلى ، التي تنتمي اليها اسرة هتلر . وكان انصار القومية الألمانية الجامعة قد اشتبكوا آنذاك في معركة حاسمة للإبقاء على التفوق الالماني في الامبراطورية ، المتعددة الاجناس . وعلى الرغم من ان هتلر ، اعتبر شوينيرر « مفكراً عميقاً » وعلى الرغم من انه احتضن بحماسة برامجه الاساسية القائمة على القومية المتطرفة العنيفة ، وعلى مناهضة السامية ، وعداء الاشتراكية ، والوحدة مع المانيا ومعارضة اسرة هبسبورغ والكرسي البابوي ، الا انه سرعان ما ادرك السبب في فشل الحزب اذ قال :

« ان عدم تقدير هذه الحركة تقديراً صحيحاً لأهمية المشكلة الاجتماعية ، كلفت الحزب خسارة الجماهير الشعبية المناضلة ، وأدى دخوله البرلمان إلى فقده لكل حافز ثوري ، وتحميله اعباء من الضعف الذي تميزت به هذه المنظمة ، وحرمه النضال ضد الكنيسة الكاثوليكية من أحسن العناصر التي لا عد لها ولا حصر ، والتي يعتز بها كل بلد من البلاد »[2] .

ومع ان هتلر قد نسي ذلك عندما وصل الى السلطان في المانيا ، الا ان احد

---

١ - كفاحي - هتلر ص ٤٣ - ٤٤ .

٢ - كفاحي - هتلر ص ١١٦ - ١١٧ .

الدروس التي تلقاها في سنوات حياتـــه في فيينا ، والتي كرر التأكيد عليها باسهاب كبير في كتابه « كفاحي » هو عدم الجدوى من محـــاولة الاحزاب السياسية ، الوقوف في وجه الكنائس . ولقد قال موضحاً رأيه في خطل الحركة التي نادى بها شوينيرر والتي اسماها « بعيداً عن روما » بان هـــذه الخطيئة تعبوية وانه «مهما كان المجال فسيحاً للنقد في اية سيطرة دينية ، الا ان من واجب أي حزب سياسي ، ان لا ينسى برهة واحدة الحقيقة الواقعة وهي ان جميع التجارب التاريخية السابقة ، قد اقامت الدليل على فشل أي حزب سياسي مجرد في اخراج حركة اصلاح ديني»[1] .

وكانت هناك خطيئة اخرى اقترفها انصار حزب جميع المانيا ، وحكم هتلر على نفسه بعدم اتباعها . وهذه الخطيئة هي فشل الحزب في كسب التأييـد من بعض المؤسسات الراسخة الدعائم والقوية في البلاد، كالجيش اذا استثنينا الكنيسة أو مجلس الوزراء أو رئاسة الدولة . ولقد رأى الشاب أن الحركة السياسية اذا لم تحظ بمثل هذا الدعم، فسيكون من الصعب بل من المستحيل عليها ان تحصل على السلطان السياسي. وكان هذا التأييد، هو ما تمكن هتلر بدهائه من الحصول عليه في ايام شهر كانون الثاني عام ١٩٣٣ الشديدة الحراجة في برلين ، والتي مكنته وحدها ، كما مكنت حزبه الاشتراكي الوطني من تولي الحـكم في تلـــك البلاد العظيمة .

ولم يكن ثمة من زعيم سياسي في فيينا في عهد هتلر ، قد فهم هذه الحقيقة او فهم ضرورة القيام ببناء حزب على اساس جماهيري ، الا شخص واحـد هو الدكتور كارل لوغر ، عمدة مدينة فيينا وزعيم الحزب الاشتراكي المسيحي ، الذي غدا أكثر من غيره من الزعماء ، المثل السياسي الأعلى الذي يتطلع اليه هتلر، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان الرجلين لم يجتمعا قط . وكان هتلر يعتبره دائماً « اعظم عمدة مدينة الماني في كافة العصور ... وسياسياً اعظم من جميع

---

١ - كفاحي - لهتلر ص ١١٨.

من كان يطلق عليهم اسم دبلوماتيي العصر . ولو عاش الدكتور كارل لوغر في المانيا لاعتبر احد الادمغة العظيمة لشعبنا الألماني » [1] .

ولم يكن ثمة الا شبه ضئيل للغاية بين هتلر كما غدا فيما بعد ، وبين هذا المعبود الضخم والشامخ رغم وداعته لجماهير الطبقة الوسطى الخفيضة في فيينا . وصحيح ان يقال ان لوغر قد غدا أقوى رجال السياسة في النمسا بوصفه زعيم الحزب الذي انبثق من الطبقة البورجوازية الصغيرة التي سيطر اليأس على افرادها ، ولكونه اعتمد في رأس ماله السياسي كما اعتمد هتلر فيما بعد على الفكرة الخشنة المناهضة للسامية . ولكن لوغر الذي نشأ من وسط متواضع ، شاقاً طريقه عبر الجامعة ، كان رجلاً يمتاز بمكتسباته الفكرية الضخمة ، وكان اشد خصومه حتى اليهود منهم ، يعترفون له على الفور ، بأنه كان في قرارة فؤاده ، انساناً شريفاً وشهماً وكريماً ومتسامحاً . وقد شهد ستيفان زفايج الكاتب اليهودي النمسوي البارز ، الذي كان يشبّ في هذا الحين في فيينا ، بان لوغر ، لم يسمح قط لعقيدته الرسمية المناهضة للسامية ، بالحيلولة بينه وبين مد يد المعونة والصداقة الى اليهود . ويقول زفايج ان « ادارته لبلدية المدينة ، كانت عادلة تمام العدل ، ومثلاً صادقاً للديموقراطية .. وظل اليهود الذين ارتعدوا من انتصار حزبه المناوىء للسامية ، يعيشون في المدينة متمتعين بنفس الحقوق ومظاهر الاحترام التي كانوا يتمتعون بها في الماضي » [2] .

ولم يعجب هتلر الشاب بهذه الحقيقة . واعتقد بان لوغر كان مبالغاً في تسامحه وانه لم يقدر كل التقدير المشكلة العنصرية لليهود . وسخط على العمدة لفشله في احتضان فكرة الجامعة الألمانية ، كما شك في تعلقه بالاكليركية الكاثوليكية ، وفي ولائه لآل هابسبورغ . او لم يرفض الامبراطور فرانسوا جوزيف مرتين تصديق انتخابه عمدة للمدينة ؟

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ص ٥٥ ، ٦٩ ، ١٢٢ .
٢ ـ ستيفان زفايج ـ عالم الأمس ـ ص ٦٣ .

ولكن هتلر اضطر في النهاية مرغماً الى الاعتراف بعبقرية هذا الرجـل ، الذي عرف كيف يكتسب نصرة الجماهير وتأييـــدهم ، والذي تفهم المشاكل الاجتماعية العصرية ، واهمية الدعاية ، والخطابة في السيطرة على عواطف الجماهير. ولم يستطع هتلر الا ان يعجب بالطريقة التي عالج فيها لوغر مشكلة الكنيسة ذات السلطان ، فقد « صاغ سياسته بشيء من الدهاء الذي لا حـــدود له » . واخيراً كان لوغر « مسارعاً الى الافادة من جميع الوسائـــل المتوافرة لكسب تأييد المنظمات الوطيدة الدعائم منذ أمد بعيد ، وذلك ليتمكن من استخلاص اعظم الفوائد الممكنة لحركته من تلك المصادر القديمة للسلطان »[١].

وهكذا عثر هتلر في «صدفة » على الافكار والاساليب التي استخدمهـــا فيما بعد في بناء حزبه السياسي ، وفي السير به الى السلطان في المانيـــا . وتمثل ابداعه في انه كان السياسي الوحيد من ساسة اليمين الذي طبق هـــذه الافكار على المانيا بعد الحرب الكونية الأولى . وكانت الحركة النازية وحـدها آنذاك بين الاحزاب القومية والمحافظة ، هي التي تمكنت من اجتذاب الجماهير الغفيرة لتبعيتها ، وبعد ان حققت هذه التبعية اكتسبت تأييد الجيش ورئيس الجمهورية ، واتحادات اصحاب الأعمال الضخمة ، وهي ثلاث مؤسسات ثابتـــة الدعائم منذ عهد بعيد وتتمتع بسلطان ضخم مما رفع زعيمها الى رتبة المستشارية. وهكذا ثبت ان الدروس التي تعلمها هتلر في فيينا كانت نافعة له كل النفع .

وكان الدكتور كارل لوغر خطيباً مفوهاً لامعاً ، بينما كان حزب جميع المانيا يفتقر الى الخطباء المفوّهين . وقد لاحظ هتلر هذا النقص ، وأوضح في كتابه « كفاحي » الاهمية التي يعلقها على الخطابة في السياسة :

« كان السلطان السحري للكلمة المقولة وحدها منذ اقدم عصور التاريخ القوة التي شرعت دائماً في بنـــاء اعظم الحركات الدينية والسياسية التي سجلها التاريخ .

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ص ١٠٠ .

« ولا يمكن للجماهير الغفيرة من الشعب ان تتأثر أو تتحرك الا بسلطان الخطابـــة . وكانت جميع الحركات العظمية ، شعبية في جوهرها ، ومتدفقة كالانفجارات البركانيـــة العواطف البشرية والاحاسيس العاطفية تتأثر اما بما ينطلق عن آلهة الشقاء من قسوة وفظاعة ، أو بما تلهبه الكلمة من شواظ من نار تبعثها الكلمة بين الجماهير ، وهي لا تشبه بأي حال من الاحوال ما يصدر عن الادباء الجماليين من عبارات رقيقةمنسابة او ما يتحدثون عنه من بطولات رجال الصالونات » [1] .

وعلى الرغم من امتناعه عن الاشتراك فعلياً في السياسات الحزبية النمسوية ، فان هتلر الشاب ، قد شرع في هذه الفترة ، في التمرن على قوته الخطابية وتأثيره على سامعيه ، الذين يلقاهم في البيوت المتداعيـــة أو في مطابخ الحساء او زوايا الشوارع . وسرعان ما تطور هذا المران الى موهبة (يشهد مؤلف هذا الكتاب الذي استمع فيما بعد الى عشرات خطبه المشهورة) ، في انها غدت اعظم من اية موهبة مماثلة لها عند أي انسان عاش في المانيا في فترة بين الحربين ، وكان لهـا فضل كبير في النجاح المذهل الذي حققه .

وكان اليهود ، الحلقة الاخيرة في تجارب هتلر في فيينا . وهو يقول ان بلدة لينز ، لم تكن تضم الا عدداً قليلاً من اليهود . « ولا اذكر انني سمعت بهـــذه الكلمة في بيتنا طيلة حياة والدي » . وكان هناك صبي يهودي واحد في مدرسة هتلر الثانوية ، «ولكننا لم نعر الموضوع اية اهميـة ... وكنت أعتبر اليهود من الالمان » [2] .

لكن صديق هتلر في صباه ، يناقض هذا القول تماماً ويظهر كذبه .اذ يقول اوغست كوبيزيك ، مستذكراً ايامهما معاً في لينز : « عندما التقيت بادولف

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ص ١٠٧ .

٢ ـ كفاحي ـ هتلر ص ٥٢ .

هتلر لأول مرة ، كان قد شرع في اظهار لاساميته ... وعندما ذهب هتلر الى فيينا كانت الفكرة اللاسامية قد تأصلت في نفسه. وعلى الرغم من ان تجاربه في فيينا قد تكون هي السبب في ان شعوره هذا قد امتد عميقاً في قرارة فؤاده ، الا ان هذه التجارب لم تكن السبب في خلق هذا الشعور » [١].

ويقول هتلر ... « ثم جئت الى فيينـــا ... وكنت منهمكاً في غزارة ما تكوّن لدي من انطباعات... وأحسست بالضيق من المتاعب التي أعانيها، فلم أتمكن في البداية من الحصول على استشفاف للتصنيف الداخلي للشعب في هذه المدينة الهائلة. وعلى الرغم من ان فيينا كانت تضم في هذه الايام نحواً من مائتي الف يهودي بين سكانها الذين يبلغون مليونـــين ، الا انني لم اشعر بهم ... ولم اكن اميّز اليهودي حتى ذلك الحين الا بدينه ، وعلى ضوء الاسس التي اعتنقتها من التسامح الانساني ، حافظت على رفضي لكل هجوم على اليهود بسبب دينهم وبدت لي بالنتيجة نغمة الصحف اللاسامية في فيينا ، غير جديرة بالتقاليد الثقافية لشعب عظيم » [٢] .

ويروي هتلر أنه مضى في أحد الايام، يمشي في قلب المدينة ، « وفجأة قابلت طيفاً يرتدي قفطاناً أسود ، وتمتد جدائل شعره على عارضيه. هل هذا يهودي ؟ كانت هذه هي الفكرة الأولى التي ساورتني . ولم يكن اليهود يبدون بهذا المظهر في لينتز . وأخذت أختلس النظر الى الرجل ، متفحّصاً شكله بعناية ، ولكن كلما امعنت النظر في وجهه الأجنبي الغريب، محققاً في سماته واحدة إثر أخرى، اتخذ سؤالي الأول ، شكلاً جديداً ... هل هذا الماني ؟ » [٣] .

وفي وسع المرء ان يعثر على رد هتلر على هذا السؤال بسهولة . ولكنه يزعم

---

١ – كوبيزيك – ص ٧٩ .
٢ – كفاحي – هتلر ص ٥٢ .
٣ – كفاحي – هتلر ص ٥٦ .

على أي حال ، انه قبل الرد على هذا السؤال ، قرر « ان يحاول ازالة شكوكه عن طريق الكتب » . وشرع يغرق نفسه في الكتب اللاسامية ، التي أُلفت من قبل ، والتي كانت تلقى رواجاً كبيراً في فيينا في ذلك الوقت . وانتقل بعد ذلك الى الشوارع ، ليراقب هذه « الظاهرة الطبيعية » عن كثب مراقبة دقيقة . ويقول ... « وحيثما كنت أمضي ، كنت ارى اليهود ، وكلما ازدادت رؤيتي لهم ، ازداد بروزهم وتميزهم في ناظري ، عن بقية الناس ... وأخذت اشعر بالتقزز في نفسي فيما بعد من رؤية هؤلاء الناس من لابسي القفاطين » [١] .

ثم يقول بعد ذلك انه اكتشف « اللوثة الخلقية عند هذا الشعب المختار ، فهل ثمة من قذارة أو فجور ، ولا سيما في الحياة الثقافية ، لا يكون يهودي واحد على الاقل مشتركاً فيهما ؟ ولو حاولت ان تفجّر بجذر أحد البثور لوجدت فيه دويدة يهودية تعشش في جسم معفّن ، وقد سلطت عليها الأضواء » .. وهو يقول ان اليهود مسؤولون الى حد كبير عن الدعارة وعن الاتجار في الرقيق الابيض . ثم يمضي فيقول ... « وعندما تبينت لأول مرة ان ثمة يهودياً يقوم بادارة هذه التجارة من الرذيلة التي تستثير النفس دون أي شعور بالخجل وعن عمد وتقصد ، في قلب المدينة الكبيرة ، أحسست برعدة في مفاصلي » [٢] .

وهناك الكثير من الصور الجنسية السقيمة في هذر هتلر عن اليهود . وكانت هذه الصور ، من خصائص الصحافة اللاسامية في فيينا ذلك الوقت ، كما غدت الصفة الغالبة على الصحيفة الاسبوعية القذرة «العاصفة» التي اصدرها في نورمبرغ ، احد اخوان هتلر الخلّص ، وهو جوليوس شترايخر ، الزعيم النازي في فرانكونيا والمعروف بمروقه وإلحاده ، واكثر الشخصيات نتانة وتفاهة في الرايخ الثالث . وتنتشر في كتاب « كفاحي » اشارات مفزعة الى يهود شاذين قاموا بغواية فتيات مسيحيات بريئات ، وافسدوا دماءهن . وكان في وسع

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٢ ـ كفاحي ـ هتلر ص ٥٩ .

هتلر ان يتحدث عن «الكابوس المخيف» وعن غواية مئات الالوف من الفتيات على ايدي أوغاد من اليهود من ذوي السيقان المعوجّة والذين تتقزز النفس من مرآهم » . ويقول رودولف اولدين ان جسد هتلر الجنسي المكبوت والمعذب ، يقوم في جذور لاساميه . وعلى الرغم من انه كان في مستهل العقد الثالث من عمره، الا انه لا يعرف عن قيام اية علاقة له مع النساء من أي نوع في هذه الفترة من حياته في فيينا .

ويروي هتلر ... « وبدأت أكرههم بصورة متدرجة ... ومثلت هذه الفترة لي اعظم ثورة روحية مررت بها في حياتي . فقد عدلت عن الظهور بمظهر الأممي الواهي العقيدة ، لأبدو من غلاة اللاساميين » [١] .

وظل من اكثر اللاساميين تعصباً وعمىً حتى النهاية ، واحتوت وصيته الاخيرة التي كتبها قبل ساعات من وفاته ، على قنبلة اخيرة فجرها على اليهود ، متهماً اياهم بالمسؤولية عن الحرب التي شرع هو فيها ، والتي كانت تسير به الآن وبرايخه الثالث الى النهاية . ولا ريب في ان هذه الكراهية الساعرة التي سرت عدواها الى الكثيرين من الألمان في تلك الامبراطورية ، قد ادت في النهاية الى مذابح فظيعة على نطاق كبير تركت أثراً لا يمحى في الحضارة الانسانية .

وغادر هتلر فيينا في ربيع عام ١٩١٣ ، الى الأبد ، ومضى يعيش في المانيا التي تعلق بها فؤاده منذ نعومة أظفاره كما يقول. وكان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره ، وبدا في عيون الجميع ، باستثناء عينه هو، انساناً فاشلاً كل الفشل . ولم يكن قد غدا رساماً ولا مهندساً معمارياً . ولم يكن قد غدا في عيون الناس أي شيء ، سوى ذلك المتشرد الأفاق ، المهووس المغرم بالقراءة . ولم يكن له اصدقاء او اسرة او عمل ، او منزل. ولكن كان له شيء واحد ، مع ذلك ، وهو الثقة المطلقة في نفسه ، والاحساس العميق اللاهب بالرسالة التي يتحتم عليه اداؤها .

---

١ - كفاحي - هتلر - ص ٦٣ - ٦٤ .

ومن المحتمل ان يكون قد غادر النمسا فراراً من الجندية [1] ولم يكن فراره هذا ناجماً عن جبن في طبيعته ، بل مقت لفكرة العمـــل في الجيش مع اليهود والسلافيين وغيرهم من عناصر الاقليات التي تتألف منها الامبراطورية . ويقول هتلر في « كفاحي » انه مضى الى ميونيخ في ربيع عام ١٩١٢ ، ولكن هـــذا القول خاطىء كل الخطأ . فسجلات الشرطة في فيينا تقول انه كان يعيش فيها حتى ايار عام ١٩١٣ .

أما الاسباب التي أوردها هتلر لمغادرته النمسا فتنطوي على الكثير من التعظيم لنفسه ...

« كان الاحساس الداخـلي الذي يساورني بالاشمئزاز من دولة آل هبسبورغ آخذاً في النمو باضطراد ... وكنت امتعض من هذا الامتزاج في الاجناس الذي اشهده في العاصمة ، بل وكنت اثور على هــذا الخليط الغريب من التشيكيين و البولنديـــين ، والمجريين والروتينيين والصرب والكروات ، واليهود وهؤلاء يؤلفون « عش الغراب » ، في كل مجتمـــع انساني . وبدت لي المدينـــة ، الضخمة

---

١ ـ اصبح هتلر معرضاً للجندية الاجبارية منذ عام ١٩١٠ أي عندما بلغ الواحدة والعشرين من عمره. ويقول هايدن ان السلطات النمسوية لم تستطع العثور عليه اثناء اقامته في فيينا. وعثرت عليه اخيراً في ميونيخ واصدرت اليه امرها بالمضي الى لينز لاجراء الفحص الطبي. ونشر جوزيف غرينر في كتابه « هـــذه نهاية اسطورة هتلر » بعض الرسائل التي تبودلت بـــين هتلر وبين السلطات العسكرية النمسوية، وقد نفى فيها هتلر انه مضى الى المانيا هرباً من الخدمة العسكرية. وطلب مدعياً افتقاره الى المال، ان يجري الفحص الطبي له في سالزبرغ القريبة من ميونيخ . وقد اجري له الفحص هناك في الخامس من شباط عام ١٩١٤ ، وقرر الاطباء عدم صلاحه للخدمة العسكرية او الاحتياطية بسبب سوء حالته الصحية ووجود علة في احدي رئتيه. ويبدو ان تهربه من الخدمة العسكرية الى ان عثرت عليه السلطات وهو في الرابعة والعشرين قد ضايقه عندما اخذ نجمه في الصعود في المانيا . ويؤكد غرينر قصة شاعت في الاوساط المعادية للنازية عندما كنت في برلين، تقول ان هتلر أمر الغستابو عندما احتلت القوات الالمانية النمسا عام ١٩٣٨، بالبحث عن الاوراق الرسمية المتعلقة بخدمتـــه العسكرية . ولم يعثر على هذه الاوراق ، اذ كان احـــد الموظفين قد اخفاها ، ليطلع غرينر عليها بعد انتهاء الحرب .

تجسيداً للتدنيس العنصري ... وكلما طالت حياتي في هذه المدينة، نمت كراهيتي للخليط الغريب من الشعوب، الذي بدأ يعمل على اهتراء هذا المركز القديم للثقافة الألمانية ... ولهذه الاسباب كلها، اشتد الحنين في فؤادي وأخذ يقوى شيئاً فشيئاً، الى الذهاب اخيراً الى المكان الذي كانت تجتذبني اليه منذ طفولتي، رغبات خفية، وحب شديد يتأجج في صدري »[1] .

وقدر له ان يكون مصيره في تلك البلاد التي احبها ذلك الحب الشديد، من النوع الذي لم يحلم به قط حتى في اغرب احلامه . ولقد كان وظل حتى قبيل ان يغدو مستشاراً، غريباً من الناحية الرسمية عن تلك البلاد، فهو نمسوي يعيش في الرايخ الألماني . وهكذا كان هتلر، ذلك النمسوي الذي بلغ رشده في الحقبة الاخيرة قبل انهيار امبراطورية هبسبورغ، والذي فشل في ان يجد جذوراً له في عاصمتها المتحضرة، ثم احتضن كل تلك الاهواء والكراهيات المنافية للعقل والمنطق، والتي انتشرت بين المتطرفين من الناطقين بالألمانية، الذين لم يتمكنوا من ادراك كل ما هو نبيل وكريم وشريف عند غالبية مواطنيهم سواء أكانوا من التشيكيين أو اليهود أو الالمان، وسواء أكانوا من الفنانين أو العمال الفنيين، من الفقراء أو المرفهين، وعلى ضوء هذه الحقائق يمكن فهم هتلر . ومن المشكوك فيه ان يكون أي الماني من الشمال أو من حوض الراين في الغرب، أو من بروسيا الشرقية، أو حتى من بافاريا في الجنوب، قد جمع في عقله ودمه، نتيجة للتجارب التي مر بها، ذلك المزيج الغريب من المحتويات التي دفعت هتلر الى تلك الذرى التي وصل اليها في النهاية . ولا ريب في ان لمسة متحررة من العبقرية التي لا يمكن التنبؤ بها، قد رافقت هذا المزيج الغريب .

ولكن عبقريته لم تكن قد بدت بعد في عام ١٩١٣ . فقد ظل في ميونيخ كما كان في فيينا مفلساً، لا صديق له . ولا يزاول عملاً منتظماً، وفي صيف عام

---

١ - كفاحي - هتلر . ص ١٢٣ - ١٢٤ .

١٩١٤ حلّت الحرب ، فاختطفته كغيره من الملايين ، وأمسكت به بقبضتها الشديدة . وطلب في الثالث من آب في عريضة قدمها الى لود فيغ الثالث ملك بافاريا السماح له بالتطوع في فوج بافاري فأجيب الى طلبه .

وكانت هذه هي الفرصة التي حبته السماء بها . وتمكن الأفّاق الشاب ، لا من إرضاء عاطفته فحسب في خدمة البلاد التي تبنـّاها واحبها، في النضال الذي اعتقد انه من أجل بقائها ، بل ومن الخلاص مما كان يعانيه من مرارات وخيبات امل في حياته الشخصية .

وكتب في كفاحي يقول : « وجاءت هـذه الساعات بالنسبة اليَّ طريق الخلاص من الشقاء الذي كان قد جثم على صدري طيلة ايام شبابي . ولا أجـد نفسي وقد اعتورني الخجل عندما أقول ، بأنني وقد استفزتني حماسة اللحظة التي عشتها ، اجثم على ركبتي ، واتوجه بالشكر الى السماء ، من قرارة قلبي ، لأنها اتاحت لي فرصة رائعة وهي الحياة في مثل هذا الوقت ... وبدأت بالنسبة الي كا لكل الماني ، الفترة الخالدة في حياتنا ، أو في حياتي بوجه خاص . واذا ما قورنت باحـداث الكفاح الهائل ، فـان الماضي باسره انطوى في زوايا النسيان »[١] .

وقدر ان يظل الماضي بالنسبة الى هتلر ، بكل ما فيه من بشاعة ووحدة ، وخيبة أمل ، في الظلال ، على الرغم من ان هذا الماضي هو الذي رسم له عقله وطبيعته الى الابـد فيما بعد . وجاءت له الحرب ، التي حملت الموت الى الملايين العديدة ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ببداية جديدة في الحياة .

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ـ ١٦١ ـ ١٦٣ .

٢

ولادة الحزب النازي

مر هتلر عشية يوم الأحد العاشر من تشرين الثاني عـــام ١٩١٨ ، بتجربة اعتبرها في اعمـــاق ما يحس به من كراهية وخيبة أمل ، اعظم « سفالات العصر »[١] . فقد وصل كاهن ، الى المستشفى العسكري في « بيسووك » البـلدة البوميرانية الصغيرة الواقعة الى الشمال الشرقي من برلين ، حيث كان هتـــلر ، يسير في طريق الشفاء من عمىً مؤقت أصاب به في هجوم استخدم البريطانيون فيه الغازات قبل شهر على مقربة من ايبرس ، يحمل اخباراً لا تكاد تصدق.

فقد ابلغ الكاهن الجنود الجرحى في ذلك اليوم ان القيصر قـــد تنازل عن العرش ، وفر الى هولندة ، وان الجمهورية قد اعلنت في برلين في اليوم السابق . واضاف ان الهدنة ستوقع في كامبيين في فرنسا صبيحة اليوم التالي في الحـــادي عشر من الشهر ، وان المانيا قد خسرت الحرب ، واصبحت تحت رحمة الحلفاء الظافرين ، ثم شرع الكاهن يجهش بالبكاء .

ويقول هتلر وهو يستذكر القصة والمنظر ... « ولم يكن في استطاعتي ان احتمل اكثر ممـــا احتملت ... فقد اسودّ كل شيء في ناظري من جديد ...

---

١ ـ ظهر هذا التعبير في الطبعة الالمانية الأولى من كتاب كفاحي ، ولكنه مـــا لبثت ان استبدل بعبارة « ثورات » في جميـع الطبعات التالية .

واخذت أترنح وأنا أزحف عائداً الى القاعة التي انام فيها ، ثم قذفت بنفسي على سريري ، ودفنت رأسي الملتهب في وسادتي وتحت غطائي ... اذن فقد ضاع كل شيء ، وانتهى عبثاً ... وقد ذهبت جميع التضحيات والآلام سدى ودون جدوى ... وضاعت جميع الجهود التي بذلناها في اداء واجبنــا ، والتي قضينا فيها الساعات الطوال ، ونحن نمسك بافئدتنا جزعاً وخوفاً ... وراحت ارواح مليونين من جنودنا هباء ... فهل قتل هؤلاء من اجل هذه النهاية ؟ وهل حدث كل هـذا حتى تتمكن عصابة من المجرمين الاشقياء من وضـع ايديها على ارض الوطن ؟ »[١] .

وقد انهار للمرة الأولى ، منذ وقف تلك الوقفة على قـبر أمه ، ثم شرع في البكاء ... وقال يصف نفسه ... « ولم يكن في وسعي ان افعل شيئاً » . ولم يستطع شأنه في ذلك شأن الملايين من رفاقه الالمان ، لا آنذاك ولا فـيما بعد ، ان يقبل بالحقيقة العارية والمذهلة ، من ان المانيا قد هزمت في الميدان ، وانها خسرت الحرب .

وكان هتلر كغيره من ملايين الألمان ايضاً ، جندياً شجاعاً باسلاً . وقد اتهمه بعض خصومه السياسيين فيما بعد، بأنه كان جباناً في ميدان الوغى ، ولكن من العدل ان يقال ، ان ليس ثمة خيط من دليل ، في تاريخه او سجله على صحة هذا الاتهام . وقد وصل الى الجبهة حوالي نهاية تشرين الأول عام ١٩١٤ ، ليعمل كجندي مراسلة في السرية الأولى من فوج المشاة البافاري الاحتياطي السادس عشر ، بعد ان قضى نحواً من ثلاثة اشهر في التدريب العسكري . وقد ابيدت وحدته تقريباً بعد اربعة ايام من القتال المرير في معركة ايبرس الأولى ، حيث تمكن البريطانيون من وقف الزحف الالماني في اتجاه القناة . وتقول رسالة بعث بها هتلر الى صاحب المنزل الذي كان يعيش فيه في ميونيخ ، وهو خياط يدعى بوب ، ان عدد افراد الفوج قد هبط بعد اربعة ايام من القتال من (٣٥٠٠)

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ، ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

جندي الى (٦٠٠) ، وان ثلاثين ضابطاً فقط من ضباطه قد نجوا من تلك المعركة ، وتقرر حلّ اربع سرايا من مجموع السرايا .

وقد اصيب بجراح اثناء الحرب مرتين ، الأولى منهما في السابع من تشرين الأول عام ١٩١٦ في معركة السوم ، عندما اصيب في قدمه . وبعد ان عولج في مستشفيات المانيا، عاد الى فوج ليست – وقد اطلق عليه هذا الاسم بالنسبة الى قائده الأول – في اذار عام ١٩١٧ ، ورُفع الى رتبة عريف، ثم اشترك في معركة اراس ، وفي معركة ايبرس الثالثة التي دارت في صيف ذلك العام ، وكان فوجه مشتركاً في خضم القتال الذي وقع ابان الهجوم الألماني الشامل الاخير في ربيع عام ١٩١٨ وصيفه . وقد وقع ليلة الثالث عشر من تشرين الأول . في شراك هجوم شنه البريطانيون واستخدموا فيه الغاز على تل يقع الى الجنوب من ديرويك ابان معركة ايبرس الاخيرة . ويروي هتلر عن نفسه قائلاً : «ومضيت اتعثر ، في مشيتي. وقد التهبت عيناي، حاملاً معي ، آخر تقرير لي عن الحرب. وتحوّلت عيناي بعد بضع ساعات الى جمرتين لاهبتين ، واستحال كل شيء حولي الى ظلمة قاتمة » [١] .

وقد أحرز مرتين وسام الشجاعة تقديراً لبسالته ، فقد منح في كانون الأول عام ١٩١٤ ، الصليب الحديدي من الدرجة الثانية ، كما منح في آب عام ١٩١٨ الصليب الحديدي من الدرجة الأولى ، وهو وسام لم يكن يعطى الا نادراً الى جندي عادي في العهد الامبراطوري . وقد شهد احد رفاقه في الوحدة التي كان يعمل فيها انه نال الوسام الرفيع لأنه أسر خمسة عشر جندياً بريطانياً لوحده، بينما شهد رفيق آخر انهم كانوا من الفرنسيين . ولا يضم التاريخ الرسمي لفوج ليست اية كلمة عن مثل هذه المغامرة، فهو لا يتحدث بشيء عن الاعمال الفردية العظيمة التي قام بها بعض اعضاء الفوج من الذين تلقوا اوسمة . ومهما كان السبب ، فان الحقيقة تقوم في ان العريف هتلر قد نال الصليب الحديدي من الدرجة الأولى .

---

١ – كفاحي – هتلر – ص ٢٠٢ .

وظل يتحلى به معتزاً حتى اليوم الاخير من حياته .

ولقد كان في سني الجندية على ضوء اقوال رفاقه غريباً كل الغرابة . فلم يكن يتلقى كغيره من الجنود ، رسائل او هدايا من اسرته . ولم يحدث قط ان طلب اجازة او كانت له أية رغبة في النساء من الرغبات التي تعاود الجنود عادة . ولم يكن يتذمّر كغيره من الرجال البواسل ، من القذارة والقمل والوحل والروائح العفنة في خط النار . بل كان المحارب الشديد العواطف ، الكثير الجدية في جميع الاوقات ، والمفكر في اهداف الحرب وفي مصير المانيا العظيم .

وقد تذكر احد رفاقه في وحدته فيما بعد فقال عنه « كنا جميعاً نشتمه ، وكنا نجده انساناً لا يطاق . وكان بيننا هذا الغراب الابيض الذي لا يتفق معنا في حملتنا على الحرب وشتمنا لها » [1] . ووصفه رجل آخر بانه كان يجلس « في زاوية منتدانا ، وقد وضع رأسه بين يديه ، غارقاً في افكاره العميقة . وكنا نراه يقفز فجأة ، ثم يشرع في الركض مهتاجاً ، قائلاً ان النصر قد لا يكون من نصيبنا على الرغم من مدافعنا الضخمة ، لأن الأعداء غير المرئيين للشعب الألماني يؤلفون خطراً اضخم من اكبر مدافع العدو » [2] . وسرعان ما يشرع في هجوم عنيف على هؤلاء «الاعداء السريين» الذين يعني بهم اليهود والماركسيين؛ أو لم يتعلم في فيينا انهم مصدر كل شر ؟

أو لم ير هذا بنفسه في الوطن الألماني عندما كان في دور النقاهة من الجرح الذي اصيب به في ساقه في وسط الحرب ؟ وكان قد زار العاصمة بعد خروجه من المستشفى في بيليتنز القريبة من برلين ، ثم مضى الى ميونيخ . وكان يجد في كل مكان « اوغاداً » يشتمون الحرب ويتمنون نهايتها السريعة . وكثر عدد الانهزاميين ولكنهم كانوا جميعاً من اليهود . « وكانت المكاتب » التي وجدها «ملأى باليهود ، فكل كاتب يهودي ، وكل يهودي كاتب ... وكان

---

١ – هايدن — الفوهرر ، ص ٨٤ .

٢ – رودلف اولدن – هتلر ، مخلب القط . ص ٩٠ .

الانتاج كله في عام ١٩١٦ - ١٩١٧ تحت سيطرة المال اليهودي ... وكان اليهودي يسرق الشعب كله ، ويضعه تحت سيطرته ... ورأيت فزعاً الكارثة تقترب ... »[١] . ولم يستطع هتلر احتمال ما رآه ، وسر غاية السرور من عودته الى الجبهة .

ولم يكن في وسعه ان يحتمل الكارثة التي حلت بوطنه المحبوب في تشرين الثاني عام ١٩١٨ . وكانت هذه الكارثة بالنسبة اليه والى جميع الألمان « مرعبة » ولا تستحقها المانيا . فالجيش الالماني لم يقهر في الميدان . وانما طعنه الخونة في الوطن من الداخل .

وهكذا تكونت لدى هتلر ، كما لدى غيره من الألمان ، العقيدة المتعصبة في الاسطورة القائلة « بالطعنة في الظهر » وهي عقيدة قدر لها ان تلعب اكثر من غيرها دوراً بارزاً في تحطيم جمهورية ويمار وان تمهد الطريق لانتصار هتلر النهائي . وكانت هذه الاسطورة مضللة وخادعة . وكان الجنرال لودندورف القائد الفعلي للقيادة العليا قد اصر في الثامن والعشرين من ايلول عام ١٩١٨ على وجوب عقد الهدنة « فوراً » ، وكان رئيسه الاسمي المشير (الماريشال) هندنبورغ ، قد ايده في فكرته . وعاد هندنبوغ فأيدفي اجتماع عقده مجلس التاج في برلين في الثاني من تشرين الاول برئاسة القيصر غليوم الثاني ، طلب القيادة العليا بعقد هدنة فورية . ولقد قال : « ان الجيش لا يستطيع الانتظار ثماني واربعين ساعة أخرى » . وأوضح هندبورغ في رسالة كتبت في نفس اليوم بصراحة ان الوضع العسكري يتطلب « وقف القتال » . ولم يذكر في هذه الرسالة شيئاً « عن الطعنة في الظهر » . ولم يسهم بطل المانيا العظيم في نشر هذه الخرافة الا فيما بعد . فقد أعلن في شهادته امام لجنة التحقيق التي انتدبتها الجمعية الوطنية في ١٨ تشرين الثاني عام ١٩١٩ أي بعد سنة من انتهاء الحرب « ان قائداً انكليزياً ، كان صادقاً في قوله بان الجيش الألماني طعن من

---

١ - كفاحي، هتلر ص ١٩٣.

الخلف » [1] .

وكانت الحكومة المدنية التي يرئسها الأمير ماكس اوف بادن، لا تعلم شيئاً من القيادة العليا عن سوء الوضع العسكري ، ولم تتلق مثل هذه المعلومات الا في نهاية شهر ايلول ، ولذا فقد ظلت صامدة عدة اسابيع في اصرارها على رفض طلب لودندورف عقد الهدنة .

وكل من عاش في المانيا في فترة بين الحربين يدرك تمام الادراك سرعة انتشار هذه الاسطورة التي لا تصدق وتقبلها من الشعب الالماني . وكانت الحقائق التي تظهر ما فيها من تضليل ، تمثل في كل ناحية . ولكن الماني اليمين ما كانوا ليواجهوا هذه الحقائق . وكانوا يصرخون دائماً وباستمرار ، ان المذنبين هم « مجرمو تشرين الثاني » ، وهو تعبير ظل هتلر يقرع به وعي الشعب . ولم يكن يهتم مطلقاً بالحقيقة الواقعة وهي ان الجيش الالماني هو الذي دفع بمكر ودهاء وجبن الحكومة الجمهورية إلى توقيع الهدنة التي كان القادة العسكريون

---

١ – لم تكن نسبة الخرافة الى قائد انكليزي صحيحة تماماً . فقد اوضح ويلر – بنيت في كتابه (الحصان الخشبي : هندنبرغ) بصورة لا تخلو من السخرية ان قائدين بريطانيين قد اسهما عن طريق التهاون في نشر هذه الاسطورة الكاذبة ، وأول هذين القائدين هو اللواء السير فريدريك موريس الذي شوه تصوير كتابه (الاشهر الاربعة الاخيرة) الذي طبع عام ١٩١٩ تشويهاً كبيراً من قبل الناقدين في الصحف الالمانية عندما ذكروا انه اقام الدليل على ان الاشتراكيين في الجبهة الداخلية هم الذين خانوا الجيش الالماني الذي لم يهزم في الميدان . وقد نفى القائد هذا التفسير في الصحف الالمانية ولكن دون جدوى . وقد استغل لودندورف هذه الاقوال في اقناع هندنبرغ . ويقول ويلر – بنيت : ان الضابط الثاني هو اللواء ماكلولم رئيس البعثة العسكرية البريطانية في برلين . فقد كان لودندورف يتناول طعام العشاء مع اللواء ذات مساء ، وكان يشرح بما عرف عنه من بلاغة مألوفة ورائعة ، كيف إن القيادة العليا الالمانية عانت من الافتقار الى التأييد من الحكومة المدنية ، وكيف ان الثورة قد خانت الجيش . ورغب اللواء في بلورة المعاني التي كان لودندورف قد اسهب في شرحها في جملة واحدة فسأل محدثه قائلاً : «اتعني ايها الجنزال ، انكم طعنتم من الخلف؟ » . واشرقت عينا لودندورف بوميض سريع ، وهب يقبض على العبارة كما يقبض الكلب على عظمة تلقى اليه ... « طعنا من الخلف ؟ ... اجل هذا ما وقع بالضبط . لقد طعنا من الخلف » .

قد اصروا عليها اصراراً شديداً ، وانهـــم هم الذين نصحوا الحكومة بقبول معاهدة الصلح في فرساي. ولم يكن يهمه ايضاً ان الحزب الاشتراكي الديموقراطي قد قبل الحكم في عام ١٩١٨ ، متردداً ومتذمراً ، رغبة منه في منع الفوضى المطلقة من ان تضرب اطنابها في البلاد مهددة بسيطرة البلشفية . ولم يكن هذا الحزب مسؤولاً عن انهيار المانيا . وانما يقع اللوم على العهد القديم الذي كان قائماً على الحكم [1] ولكن ملايين الالمان رفضوا الاعتراف بهذه الحقائق . وكان عليهم ان يجدوا كبش الفداء لتحميله مغبة الهزيمة ، ومسؤولية الاذلال والشقاء. وقد اقنعوا انفسهم بسهولة ، في انهم وجدوا هـذا الكبش في « مجرمي تشرين الثاني » الذين وقعوا وثيقة الاستسلام ، والذين اقاموا الحكم الديموقراطي عـلى انقاض الحـــكم المطلق « الاوتوقراطي » السابق . وكانت مرارات الألمان الموضوع الذي عزف عليه هتلر ألحانـه كثيراً في كتابه « كفاحي » وسرعان ما استغل هذه المرارات استغلالاً كلياً .

وعندما ترك الكاهن مستشفى بيسووك تلك الليلة في العـــاشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، عانى هتلر بعدها « اياماً فظيعة وليالي اشد فظاعة من الايام ». ويقول هتلر ... « وقد عرفت اننا اضعنا كل شيء . فالمجانين وحدهم والكاذبون والمجرمون يمكن لهم ان ينتظروا الرحمة والاشفاق من العدو . ونمت الكراهية في نفسي في هذه الليالي ، الكراهية لأولئك المسؤولين عن هذا العمل ... انهم مجرمون منحلـّـون وتعساء ! وكلما حاولت الحصول على الوضوح بالنسبة الى هذا الحادث المخيف في تلك الساعـــة ، ألهبت جبهتي مشاعر الخجـــل والغضب والعار . ترى هل تقاس الآلام التي اشعر بها في عيني بهذا الشقاء ؟ » .

---

١ – كان عدد القادة الذين وجدوا الشجاعة لقول هذا قليلاً للغاية . وقد نشرت صحيفة الفرانكفورتر زايتونغ في عددها في الثالث والعشرين من آب عام ١٩٢٤ مقالاً كتبه الفريق فريهرفون شويناخ، حلل فيه اسباب هزيمة المانيا. وقد وصل الى الاستنتاج القائل باننا « مدينون بخرابنا الى تفوق سلطاتنا العسكرية على سلطاتنا المدنية ... « وحقـاً فقد انتحرت العسكرية الألمانية». مقتبسة من تيلفورد تيلور في كتابه «السيف والصليب المعقوف » ص ١٦.

« وآنذاك . اتضح امامي مصيري. فقد قررت ان أخوض ميدان السياسة »[1] .
وكان هذا القرار قدرياً بالنسبة الى هتلر والى العالم كله .

استهلال الحزب النازي

لم تكن الآمال في تحقيق مستقبل سياسي في المانيا لهذا الشاب النمسوي الذي يبلغ الثلاثين عاماً من عمره ، براقة ، او مشرقة في البداية ، والى فترة من الفترات ، فقد كان هذا الشاب بلا اصدقاء وبلا مال ، وبدون عمل او مهنة او حرفة ، او حتى شهادات عمل منظم سابق ، كما كان بلا تجربة مهما ضؤلت في ميدان السياسة ، ويقول هتلر عن نفسه وقد ادرك هذه الحقيقة ... « وكنت افكر فيما قد يمكنني عمله ، وأصل في كل مرة افكر فيها الى نتيجة واحدة وجادّة ، وهي انني – ولا اسم لي او شهرة – لا أملك المقومات اللازمة لأي اساس لعمل نافع مجد »[2] .

وكان قد عاد الى ميونيخ في نهاية تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، ليجد المدينة التي آثرها على غيرها وتبناها ، وقد غدت في وضع لا يستطيع تمييزه . فالثورة قد انفجرت ايضاً في هذه المدينة . والملك الذي ينتمي الى اسرة ويتلباخ قد تنازل عن العرش كذلك . وكان الديموقراطيون الاشتراكيون يسيطرون على بافاريا ، وقد اقاموا فيها « دولة شعبية » تحت زعامة كورت آيزنر ، الكاتب اليهودي المشهور الذي ولد في برلين . وكان آيزنر في السابع من تشرين الثاني ، وهو شخص معروف في ميونيخ بلحيته البيضاء الكبيرة ، وانفه المعقوف وقبعته السوداء الضخمة ، وحجمه الصغير ، قد قاد جماعة تعد بضع مئات من الرجال . واجتاز بها شوارع المدينة ، واحتل دار البرلمان ، ومركز الحكومة ، دون

---

١ – كفاحي – هتلر ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .
٢ – كفاحي – هتلر ص ٢٠٧ .

اطلاق عيار ناري واحد ، معلناً قيام الجمهورية . ولكن ضابطاً شاباً من رجال الجناح اليميني ، يدعى الكونت انطون اركو - فالي ، اغتاله قبل مضي ثلاثة اشهر . وسرعان ما أقام العمال جمهورية سوفياتية ، ولكن لم يقدر لها ان تعمّر طويلاً . فقد وصلت قوات نظامية من الجيش الألماني في الأول من أيار عام ١٩١٩ قادمة من برلين تعززها وحدات المتطوعين من « الفيلق البافاري الحر » ، الى ميونيخ واطاحت بالعهد الشيوعي ، بعد أن ذبحت عدة مئات من الاشخاص بينهم عدد من غير الشيوعيين ثأراً لإعدام نحو من اثني عشر شخصاً من الرهائن ، بأيدي السوفيات . وعلى الرغم من قيام حكومة اشتراكية ديموقراطية معتدلة بزعامة جوهان هوفمان ، تولت الحكم بصورة اسمية في هذه الفترة ، إلا ان السلطان الحقيقي في سياسات بافاريا قد انتقل الى اليمين .

ترى ما هو اليمين الذي كان قائماً في بافاريا في هذا الوقت المضطرب الذي تسوده الفوضى ؟ إنه الجيش النظامي (الرايخوهر) ، والملكيون الذين يتوقون الى عودة أسرة ويتلباخ الى العرش ، بل إنه جمهور غفير من المحافظين الذين ازدروا الجمهورية الديموقراطية التي اقيمت في برلين ، وكان هذا اليمين مع مضي الوقت ، ذلك العدد الضخم من الجنود المسرحين الذين رأوا انهيار قاعدة العالم في عام ١٩١٨ ، والذين اقتلعوا من جذورهم ، ولم يستطيعوا ان يعثروا على اعمال ، أو يعودوا إلى المجتمع الوادع الذي خلفوه في عام ١٩١٤ ، وتحولوا الى اناس غلاظ القلوب ميالين الى العنف عن طريق الحرب ، ولم يتمكنوا الآن من الابتعاد عن العادات التي ألفوها ، والذين كما قال هتلر عنهم ، وهو واحد منهم « غدوا ثوريين يؤيدون الثورة لأنها ثورة ، ويودون استقرارها كوضع دائم » .

وانتشرت عصابات من « الفيلق الحر » المسلح ، في جميع انحاء المانيا ، وقام جيش (الرايخوهر) بتسليحها بصورة سرية ؛ وكانت مهمة هذه العصابات في البداية محاربة البولنديين والبلطيقيين ، لإنقاذ المناطق المتنازع عليها على الحدود الشرقية ، ولكن سرعان ما شرعت في دعم المؤامرات الرامية الى قلب العهد الجمهوري . وقامت احدى هذه العصابات ، وهي لواء ايرهاردت المرعب ، الذي

يقوده قاطع الطريق ايرهاردت ، باحتلال برلين في آذار عام ١٩٢٠ ، وتمكين الدكتوروولفغانغ كاب (Kapp) [١] ، وهو سياسي متوسط من رجال الجناح اليميني المتطرف من اعلان نفسه مستشاراً . ووقف الجيش النظامي الذي يقوده الفريق (الجنرال) فون سيخت موقف المتفرج ، بينما فر رئيس الجمهورية واعضاء حكومته ، وقد سادهم الهرج والمرج الى المانيا الغربية . ولم يكن في الامكان اعادة الحكومة الجمهورية الا عن طريق اضراب عام قامت به الحركة النقابية .

ووقع انقلاب آخر في الوقت نفسه في ميونيخ ، قدر له أن يكون أكثر نجاحاً . فقد قام الجيش في الرابع عشر من آذار عام ١٩٢٠ باسقاط حكومة هوفمان الاشتراكية ، وأقام عوضاً عنها عهداً يميني الجناح بقيادة غوستاف فون كار . وغدت العاصمة البافارية الآن ، المغناطيس الذي يجتذب اليه جميع العازمين على قلب الجمهورية ، واقامة عهد جماعي ، ورفض إملاء معاهدة فرساي . ووجد قادة القوات المسرحة وبينم اعضاء لواء ايرهاردت ، في هذه المدينة المأوى والترحاب . وأقام فيها ايضاً الفريق (الجنرال) لودندورف مع فريق من ضباط الجيش المسرحين واليائسين [٢] . وكانت مؤامرات الاغتيال السياسي تعد في هذه المدينة وبينها اغتيال ماتيا ايرزبرغر ، السياسي الكاثوليكي المعتدل ، الذي وجد الجرأة لتوقيع الهدنه عندما تردد القادة العسكريون في توقيعها ، واغتيال وولتر راتيناو ، وزير الخارجية اللامع المثقف ، الذي كرهه المتطرفون

---

١ ـ ولد كاب في مدينة نيويورك في ٢٤ تموز عام ١٨٦٨ .

٢ ـ فر لودندورف في نهاية الحرب الى السويد متنكراً ، وقد وضع على عينيه نظارتين زرقاوين . وقد عاد الى المانيا في شباط عام ١٩١٩ بعد ان كتب الى زوجته يقول : «ستكون بلادة عظمى من الثوريين اذا سمحوا لنا بالبقاء احياء . فاذا قدر لي ان أعود الى السلطان ثانية ، فلن يكون ثمة تسامح او غفران . وسآمر وانا مرتاح الضمير بشنق ايبرت وشيديمان وشركاهما ، وارقب اجسادهم وهي متدلية » (مرغريت لودندورف — كتاب « لما كنت زوجة لودندورف » ص ٢٢٩) : وكان ايبرت أول رئيس جمهورية كما كان شيديمان أول مستشار لجمهورية ويمار . ولقد كان لودندورف على الرغم من أنه القائدالثاني بعد هندنبورغ ، الحاكم المطلق فعلاً في المانيا في السنتين الأخيرتين من الحرب .

ليهوديته ، ولإشرافه على تنفيذ سياسة الحكومة القومية الرامية الى تنفيذ شطر من نصوص معاهدة فرساي على الأقل .

وفي هذا الميدان الخصيب ، في ميونيخ ، وجد أدولف هتلر نقطة البداية .

***

وعندما عاد الى ميونيخ في نهاية تشرين الثاني عام ١٩١٨ وجـــد ان الفوج الذي ينتمي اليه قد غدا تحت سيطرة « مجالس الجنود » . وقد اشمأز من هـذا الوضع كما يقول ، حتى انه قرر فوراً « أن يترك الفوج في أسرع وقت ممكن » . وقد قضى فصل الشتاء يتولى أعمال الخفر في معسكر لأسرى الحرب في ترونساين على مقربة من الحدود النمسوية . وعاد إلى ميونيخ في الربيع . ويحدثنـــا في « كفاحي » عن استثارته « لاستياء » حكومة الجنـــاح اليساري ، ثم يزعم انه تجنب الاعتقال ، عن طريق تصويب بندقيته على ثلاثة « أوغاد » كانوا قـد جاءوا لاعتقاله . وبعد أن تم قلب العهد الشيوعي ، شرع هتلر كما قـــال ، في « أول نشاط سياسي له » . وكان هذا النشاط ، متمثلاً في تقديم المعلومات الى لجنة التحقيق التي أقامها فوج المشاة الثاني للتحري عن أولئك الذين اسهموا في تحمل مسؤولية العهد السوفياتي القصير في ميونيخ .

ويبدو ان خدمات هتلر في هذا المضمار كانت ثمينة الى الحد الذي حمل الجيش على ان يعهد اليه بعمل جديد . فقد انتدبه للعمل في مكتب الصحافة والاخبار التابع للدائرة السياسية لقيادة الجيش في المنطقة . وكان الجيش الألماني ، خلافاً لتقاليده ، قد انغمس الآن ، كلية في النشاط السياسي ولا سيما في بافاريا ، حيث افلح اخيراً في اقامة حكومة من الطراز الذي يهواه . ورغبة منه في الترويج لآرائه المحافظة ، كان ينظم دروساً للجنود لتهذيبهم سياسياً ، وكان هتلر طالباً مجداً في احد هذه الصفوف . ويروي هو انه قاطع المدرّس ذات يوم اثناء إلقائه احدى المحاضرات ، التي اشار فيها اشارة طيبـــة الى اليهود . وكانت ميوله اللاسامية سبباً كما يبدو ، في رضا ضباطه الكبار عنه ، حتى انهم عينوه ضابطاً ثقافياً في احد الافواج المرابطة في ميونيخ ، وغدت مهمته الاساسية مناهضة

الافكار الخطرة الهدامة ، كالدعوة الى السلام ، والاشتراكية والديموقراطيـة ، وهكذا كان مفهوم الجيش عن دوره في الجمهورية الديموقراطية التي اقسم اليمين على خدمتها .

وكانت هذه المرحلة كبيرة الاهمية بالنسبة الى هتلر ، اذ كانت أول اعتراف كسبه في حقل السياسة الذي كان قد اعتزم خوضه الآن . يضاف الى هذا ان عمله الجديد اتاح له الفرصة لتجربة قـدرته الخطابية ، وهو المتطلب الأول ، كما قال هو دائماً ، لأي سياسي ناجح . ويقول هتلر في كفاحي : « وفجأة اتيحت لي الفرصة للتحدث امام جمهور غفير ، وقد تعزز الشيء الذي كنت ادعيه دائماً بدافع الشعور المجرد دون المعرفة الوثيقة ، فقد كان بوسعي ان اخطب » . وقد سرّ لهذا الاكتشاف غاية السرور ، على الرغم من أنه لم يكن مفاجئاً له . وكان يخشى من ان تكون الغازات السامة التي استنشقها في الجبهة اثناء الحرب ، قد اضعفت صوته بصورة دائمة . وقد وجد الآن انه قد شفي بصورة كاملة، مكنته من ان يسمـــع صوته « على الأقل في كل زاوية من زوايا غرف المعسكر [١] » . وكانت هذه الخطب بداية الموهبة التي جعلت منه بسهولة اكثر الخطباء تأثيراً في المانيا ، يتمتع بسلطان سحري مكنه من الوقوف امام المذياع ليسيطر بصوته على ملايين الألمان .

وتلقى هتلر ذات يوم من ايام ايلول عام ١٩١٩ ،الاوامر من الدائرة السياسية للجيش ، للتحري عن جماعة سياسية صغيرة في ميونيخ تطلق على نفسها اسم حزب العمال الألمان ، وكان العسكريون دائمي الشك في احزاب العمال ، لأنها تكون على الغالب اشتراكية او شيوعية ، ولكنهم ، اعتقدوا ان هذا الحزب مختلف تمام الاختلاف . ويقول هتلر انه لم يكن يعرف شيئاً مطلقاً عن هـــذا الحزب . ولكنه كان يعرف احد الناس الذين تقرران يخطبوا في اجتماع للحزب الذي عهد اليه بالتحري عنه .

وكان هتلر قد استمع قبل بضعة اسابيع في احد دروس الجيش الثقافية الى

---

١ - كفاحي - هتلر - ص ٢١٨ - ٢١٩ .

محاضرة القاها غوتفريدفيدر ،وهو مهندس معماري ومتطفل على حقل الاقتصاد ، غدا واقعاً تحت سيطرة الفكرة القائلة ، بأن رأس المال « المضارب » هو الأساس في الكثير من متاعب المانيا الاقتصادية ، لأنه يختلف اختلافاً كلياً عن رأس المال « الخلاق » و « المنتج » . وكان ينادي بإلغاء هذا النوع من الرساميل ، وكان قد اسس في عام ١٩١٧ منظمة لتحقيق هـــذا الهدف اطلق عليه اسم « العصبة الألمانية المناضلة لتحطيم عبودية الفائدة » . وقد تأثر هتلر لجهله بالاقتصاد بمحاضرة فيدر ، ورأى في ندائه « لتحطيم عبودية الفائدة » احدى « النظريات الاساسية لإقامة حزب جديد » . ويقول انه رأى في محاضرة فيدر « شعاراً قوياً يرفعه للنضال القادم » .[1]

ولكنه لم يعلق في البداية اية اهمية على حزب العمال الألمان . وقد مضى الى اجتماعه لأنه أمر بالذهاب اليه ، وبعد ان شهد ما خيل اليه انـــه اجتماع بليد وسخيف لنحو من خمسة وعشرين شخصاً اجتمعوا في غرفة معتمة في قهوخانة « ستيرنيكر باد » لشرب الجعة ، لم يتأثر قيد أنملة بما دار فيه . فلقد كان كما قال « تنظيماً جديداً لا يختلف عن التنظيمات الاخرى الكثيرة . وكان الوقت مواتياً لكل ساخط على التطورات ... ليشعر بأن من واجبه ان يؤلف حزباً جديداً . وقدانطلقت مثل هذه المنظمات في كل مكان منبثقة من الارض ،لتختفي مغمورة بعد فترة من الزمن . ولم يكن حكمي على حزب العمال الالمان مختلفاً عن المنظمات الاخرى »[2] . وبعد ان انتهى فيدرمن محاضراته ،وكان هتلر على وشك مغادرة الدرس ، هب احد الاساتذة ، يتحدى سلامة الحجج التي اوردها المحاضر ، ثم اقترح ان تنفصل بافاريا عن بروسيا وان تؤسس مع النمسا دولة المانية جنوبية . وكانت هذه الفكرة مألوفة في ميونيخ في ذلك الوقت ، ولكن الجهر بها ، اثار غضب هتلر ، فهب من مكانه ، ليلقن « السيد المثقف » كما ذكر فيما بعد ، درساً يوضح فيه رأيه . ويبدو أن درس هتلر كان من العنف الى الحـــد الذي حمل

١ — كفاحي — هتلر . ص ٢١٠ و ٢١٣ .
٢ — كفاحي — هتلر . ص ٢١٨ و ٢١٩ .

« الاستاذ » كما ذكر هتلر على ترك القاعة وكأنه كلب بللته الميـــاه » ، بينما تطلعت بقية الجماعة من المستمعين الى الخطيب الشاب المجهول، و «الدهشة تسيطر على وجوههم » . ويروي هتلر ، ان احد الموجودين وقد نسي اسمه ، جاء يقفز وراءه ، ودفع بكتيب صغير الى يديه .

وكان هذا الرجل انطون دريكسلر ، وهو صانع اقفال ، ويمكن ان يطلق عليه اسم المؤسس الحقيقي للاشتراكية الوطنية . وكان دريكسلر هذا ، يعمل آنذاك موظفاً في مستودعات السكك الحديدية في ميونيخ، ويمتاز بوجه شاحب، تعلوه نظارتان ، ويفتقر الى التعليم الرسمي النظامي ، بينما يتسم عقله بالاستقلال والتشويش ويتميز بالعجز في الكتابة والخطابة . وكان قد اسس في السابع من آذار عام ١٩١٨ « لجنة للعمال المستقلين » يناهض بها ماركسية النقابات المهنية الحرة وينادي بسلم « عادل » لألمانيا . وكانت هذه اللجنة في الحقيقة فرعـاً من حركة اكبر تأسست في شمالي المانيا تحت اسم « اتحـــاد الترويج للسلام وفق مخططات الطبقة العاملة » - وكانت المانيا آنذاك وظلت حتى عام ١٩٣٣ ملأى بجماعات لا حد لها ولا حصر تحمل اسماء طنانة .

ولم يتمكن دريكسلر من حشد اكثر من اربعين عضواً في لجنتـه ، وانضم في كانون الثاني عام ١٩١٩ ، الى جماعة مماثلة تسمى «الحلقة السياسية للعمال» التي يتزعمها احد مخبري الصحف ويسمى كارل هارير . واطلق على المنظمة الجديدة التي ضمت اقل من مائة عضو ، اسم حزب العمال الالمـان ، وكان هارير اول رئيس له . ويطري هتلر ، رغم عدم تحدثه كثيراً في كتابه كفاحي عن رفاقه الأقدمين الذين نسيت اسماؤهم ، هذا الانسان، أي هارير ،ويصفه بانه «شريف» و « واسع العلم والثقافة » ولكنه يعرب عن اسفه لانه كان يفتقر الى « الموهبة الخطابية ». ولعل السبب في عدم شهرة هارير ، هو اصراره على الادعاء بان هتلر ، لم يكن من الخطباء البارزين ، وهو حكم اغضب الزعيم النازي فيما بعد ، كما اوضح في تاريخ حياته . لكن دريكسلر يبدو على أي حال ، وكأنه القـوة المحركة الرئيسية في هذا الحزب الألماني المغمور للعمال .

وشرع هتلر في الصباح التالي في مطالعة الكتيب الذي دفعه دريكسلر بين يديه . وهو يشرع في كتابه « كفاحي » المنظر باسهاب وتفصيل . فقد افاق من نومه في الخامسة صباحاً ، وظل مستلقياً حسب عادته ، على سريره في ثكنات فوج المشاة الثاني يرقب الجرذان وهي تقضم نتف الخبز التي كان قد نثرها لها على الأرض في الليلة السابقة . ثم يمضي قائلاً : « وكنت قد خبرت الكثير من الفقر والتعاسة في حياتي ، حتى انه كان في استطاعتي ان اتصور مـــا تحس به هذه المخلوقات الصغيرة من جوع ، وما تجده من متعة في كسرات الخبز هذه » . وتذكر فجأة الكتيب الصغير وشرع يقرأه . وكان عنوانه «يقظتي السياسية». ودهش هتلر في انه وجد فيه انعكاساً للكثير من الآراء التي تولدت لديه عبر السنين التي مر بها . وكان هدف دريكسلر الاساسي ، بناء حزب سياسي يرتكز الى جماهير الطبقة العاملة ، ولكنه يختلف عن حزب الديموقراطيين الاشتراكيين ، في وطنيته العارمة القوية . وكان دريكسلر عضواً فى «جبهة الوطن» الوطنية ، ولكنه سرعان ما أحس بخيبة الأمل من روحية الطبقة الوسطى المسيطرة عليها ، والتي تبدو معزولة كلياً عن الجماهير . وقد رأينا سابقاً ان هتلر ، ابان حياته فى فيينا ، كان قد شرع فى ازدراء الطبقة البورجوازية لعين السبب ، وهو افتقارها الكلي الى الاهتمام باسر الطبقه العاملة ومشاكلها الاجتماعية ، وهكذا فقد اثارت آراء دريكسلر اهتمامه بصورة كلية .

ودهش هتلر عندما تلقى فى ساعة متأخرة من ذلك اليوم بطاقة تقول انه قد قبل فى عضوية حزب العمال الألمان. وقد تذكر فيما بعد... «ولم ادر هل اغضب او اضحك . فلم تكن لي رغبة فى الانضمام الى حزب قائم ، وانما كنت اهدف الى اقامة حزب لي . ولا ريب فى أن ما طلبوه مني الآن كان امراً ينطوي على الغرور ، ويعتبر خارجاً على الموضوع » [١] . وكان على وشك التعبير عن رأيــه هذا فى رسالة يبعث بها الى الحزب ، عندمــا « أنتصر الفضول » وقرر ان يمضي

---

١ – كفاحي – هتلر ص ٢٢٠

الى اجتماع للجنة كان قد دعي الى حضوره ليشرح شخصيـاً الاسباب التي تحول بينه وبين الانضمام الى « هذه المنظمة الصغيرة الغريبة » .

« وكان الكهف الذي سيعقد الاجتماع به ، في ملهى « اولـتى روزينبناند» في شارع هيرنيشتراسه ، وهو من الاماكن المطروقة.. ومررت في صالة الطعام السيئة الاضاءة،ولم أجد فيها انساناً واحداً ، ثم فتحت باب الغرفة الخلفية ووجدت نفسي وجهاً الى وجه مـع اللجنة . ورأيت على ضوء المصباح الغازي الشاحب اربعة من الشبان يجلسون الى مائدة وبينهم مؤلف ذلك الكتيب الصغير ،الذي حيّاني بسرور كبير فوراً ورحب بي كعضو جديد فى حزب العمال الألمان.

« وقد اذهلتني المفاجأة حقاً . وتليت وقائع الجلسة السابقة ، واقترع على الثقة بأمين السر . ثم تلي تقرير امين الصندوق ، وكانت المنظمة تملك سبعة ماركات وخمسين بفيننغ ،ثم اقترع على الثقة بأمين الصندوق . وقد ادرج كل هذا في جدول اعمـال الجلسة . وشرع الرئيس الأول يتلو بعد ذلـك الردود على رسالة من كييـل ، واخرى من دوسلدورف وثالثة من برلين ، ووافق الجميع عليها .ثم تلي بعد ذلك تقرير عن الرسائل الواردة ...

« يا للفظاعة ، يا للفظاعة ! لقد كان هذا اسوأ نوع وطراز من حياة النوادي . فهل قدر لي ان انضم الى هذه المنظمة ؟ »[1] .

ومع ذلك فقد كان ثمة ما يثير الاهتمام في هؤلاء الرجـال الشاحبي الوجوه الجالسين في تلك الغرفة السيئة الإضاءة ... ان هـذا الشيء على حد تعبـيره « هو التطلع الى حركة جديدة تكون اكثر من مجرد حزب في المعنى السابـق للكلمة » . وعاد في ذلك المساء الى الثكنات «لأواجه اقسى سؤال في حياتي . ترى هل يجب ان انضم ؟ » . ان المنطق ، كما يعترف يدعوه الى الاعتذار . ومع

١ — كفاحي — هتلر ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

ذلك ... فان تفاهة المنظمة ستتيح لشاب مثله يمتاز بالحيوية وافكار ، الفرصة «لنشاط شخصي حقيقي »وقد فكر هتلر ملياً فيما يمكن له ان يؤديه في هذا السبيل.

« أما انني فقير ولا موارد لدي ، فهذا اكثر شيء احتمالاً بالنسبة الي . ولكن الشيء الشاق علي ، هو انني كنت معتبراً واحداً من الذين لا تصح عليهم اية تسمية وانني واحد من هذه الملايين التي يسمح لها الحظ بالعيش أو يدعوها الى الوجود ، دون أن يحس بها أو يتنازل للاحساس بها ، حتى أولئك الذين يعيشون على مقربة وثيقة منها . يضاف الى هذا وجود صعوبة ثانية ،وهي ناشئة حتماً عن افتقاري الى التعليم .

« وبعد يومين من التأمل المؤلم والتفكير ، توصلت اخيراً الى الاعتقاد بأن علي ان اخطو هذه الخطوة .

« وكان هذا القرار اكثر القرارات التي اتخذتها في حياتي حسماً. فليس ثمة من نكوص أو عودة عنه » [١] .

✲ ✲ ✲

وهكذا تم تسجيل ادولف هتلر ،العضو السابع ،في لجنة حزب العمال الألمان.

وكان هناك عضوان في هذا الحزب التافه يستحقان الذكر هنا ، لأنهما لعبا دوراً هاماً في قيام هتلر . فقد كان الرئيس (الكبتن) إيرنست روهم ،من اركان القيادة السابعة الجيش في المنطقة في ميونيخ قد انضم الى الحزب قبل هتلر . وكان هذا الرجل بديناً ، له عنق كعنق الثور ، وعينان كعينان الخنزير ،ووجه مليء بالندوب ، كما كان جندياً محترفاً ، وقد طار القسم الأعلى من أنفه من شظية عيار ناري في عام ١٩١٤ ،ويمتاز بالميل إلى العمل السياسي والكفاية الطبيعية في أعمال التنظيم . وكان كهتلر يتلظى بنار الكراهية والحقد على الجمهورية الديموقراطية . وعلى «مجرمي تشرين الثاني» الذين يعتبرهم مسؤولين عنها . وكان

---

١ — كفاحي — هتلر . ص ٢٢٤ .

هدفه بعث المانيا القومية القوية ، واعتقد كهتلر ، ان السبيل إلى تحقيق هـذا الهدف لا يكون إلا بحزب يستند إلى الطبقات الدنيا التي ينتمي هو اليها، خلافاً لمعظم ضباط الجيش النظامي. وكان رجلاً صلباً قاسياً، يمتاز بالحيوية والاندفاع، وان كان كالكثيرين غيره من النازيين الاوائل من المصابين بالشذوذ الجنسي ، وقد ساعد في تنظيم أول الفرق النازية العسكرية التي تطورت إلى جيش العـاصفة (S - A) ، الذي ظل متولياً قيادته الى أن أعدمه هتلر عام ١٩٣٤ . ولم يكن أثر روهم في انه أتى الى الحزب بعدد كبير من الجنود المسرحين والمتطوعين في الفيالق الحرة الذين تألف منهم العمود الفقري للمنظمة في أيامها الأولى فحسب، بل انه بوصفه ضابطاً في الجيش المسيطر على بافاريا قد حقق لهتلر وحركـته الحماية من السلطات واحياناً تأييدها . ومن المحتمل ان هتلر لولا هذه المساعدة، ما كان ليستطيع حتماً الشروع في بداية حقيقية لحملته الهادفة الى تحريض الشعب على قلب الجمهورية . ولولا تسامح الحكومة البافارية وشرطتها لما تمكن قطعاً من المضي في الأساليب التي أتبعها لفرض الإرهاب والتخويف .

وكان الثاني ديتريخ ايكارت ، الذي يكبر هتلر بواحد وعشرين عاماً والذي كثيراً ما أطلق عليه اسم المؤسس الروحي للاشتراكية الوطنية . وهو صحفي ذكي ، وشاعر وكاتب مسرحي متوسط ، وقد ترجم الى الألمانية بعض روايات ابسين ، كما كتب عدداً من المسرحيات التي لم تمثل. وكان قد عاش في برلين، وقتاً ما نفس الحياة البوهيمية التى عاشها هتلر في فيينا ، وادمن تعـاطي الخمر والمورفين ، مما أدى به كما قال هايدن الى مصح للأمراض العقلية ، حيث تمكن أخيراً من اخراج مسرحياته مستخدماً المرضى كممثلين يؤدون أدوارها . وكان قد عاد الى مسقط رأسه في بافاريا في نهاية الحرب، وأخذ يخطب أمام حلقات المعجبين به في أقبية النبيذ في برينيسل فى شوامبلينغ ، وهو حي الفنانين في المدينة ، مبشراً بالتفوق الآري ، وداعياً الى ابادة اليهود وسقوط « الخنازير » في برلـــين .

ويروي هايدن الذي كان يعمل صحفياً في ميونيخ في ذلك الحين، ان ايكارت

كان يخطب مرتادي حانات الخمور في عام ١٩١٩ قائلاً : « اننا في حاجة الى رئيس يستطيع ان يصمد لصوت المدفع الرشاش . فالغوغاء في حاجة الى الخوف في لهاثهم . ولن يكون في وسعنا استخدام ضابط لإيجاد هذا الخوف لأن الشعب لم يعد يحترم الضباط . ولعل أحسن من يؤدي هذا الدور ، عامل يجيد الكلام . وهو ليس بحاجة الى الكثير من العقل والتفكير ... ويشترط فيه ان يكون اعزب ، ففي هذه الحالة تلتف النساء حوله »[١] .

ولعل من الطبيعي ان الشاعر السكّير[٢] قد وجد ضالته في ادولف هتلر . وسرعان ماغدا المستشار الوثيق الصلة بالشاب الصاعد في أوساط حزب العمال الألمان ، يقرضه الكتب ، ويساعده على تحسين لغته الألمانية سواء في الكتابة أو الخطابة ، ويقدمه الى حلقته الواسعة من الأصدقاء ، التي لم تكن تضم بعض الأثرياء الذين اقتنعوا بالإسهام في تمويل الحزب واعالة هتلر فحسب ، بل ضمت ايضاً بعض الأشخاص الذين غدوا من كبار الأعوان في المستقبل من أمثال رودلف هس والفرد روزنبرغ . ولم يضعف قط إعجاب هتلر بايكارات ، وكانت الجملة الأخيرة في كتاب « كفاحي » تعبيراً عن اعترافه بالجميل لهذا المستشار الأفّاق . فقد كان على حد تعبير هتلر في نهاية كتابه « واحداً من خيرة الناس إذ كرس حياته لبعث شعبه في كتاباته وافكاره واخيراً في اعماله »[٣] .

هذه هي التشكيلة الغريبة من الاشخاص الذين لا توافق بينهم والذين انشأوا الاشتراكية الوطنية ، والذين شرعوا دون تصميم أو فهم في صياغة حركة قدر لها ان تكتسح البلاد في ثلاثة عشر عاماً ، وتجعل منها اقوى دولة في اوروبا وتأتي لها بالرايخ الثالث . وقد قدم دريكسلر صانع الاقفال المشوّش الفكر « لهذه الحركة جوهرها ولبابها ، بينما قدم لها الشاعر السكّير ايكارات اسمها « الروحية » ، والدعيّ الاقتصادي فيدر ما غدا عقائديتها ، والشاذ جنسياً

١ - كفاحي - هتلر . ص ٦٨٧ .
٢ - كفاحي - هتلر ص ٦٨٧ .
٣ - توفي ايكارت متأثراً من الإغراق في الشراب في كانون الأول عام ١٩٢٣

روهم ، تأييد الجيش والمحاربين القدماء ، بينما أخذ الصعلوك الســابق ادولف هتلر ، الذي لم يبلغ الواحدة والثلاثين من عمره ، والمغمور تمامـاً ، يتولى دور الصدارة في بناء ما لم يكن في البداية يعدو مجتمعاً للمناقشة في غرفة خلفية في احدى الحانات ، ليصبح بعد فترة قصيرة اقوى حزب سياسي في اوروبا .

ووجدت جميع الأفكار التي كانت تتأجج في صدره ، منذ أيام وحدته في فيينا متنفساً لها الآن ، بينما تفجرت في صدره الطاقات الداخلية التي لم تكن ملحوظة من أي انسان. وشرع يدفع لجنته الرعديدة الجبانة الى تنظيم اجتماعات اضخم واكبر . واخذ يطبع بنفسه الدعوات ويوزعها . ويتذكر فيما بعد كيف انه بعد ان وزع ثمانين دعوة ... « جلس ينتظر وصول الجمـاهير التي كان يتوقع ظهورها . وبعد ساعة اضطر الرئيس الى افتتاح الاجتماع . وكنا ما زلنا سبعة اشخاص ، نفس السبعة القدماء » [١] . ولكنه لم ييأس ، ولم تثبط عزيمته. وضاعف من عــدد الدعوات عن طريق تصويرها ، وجمع عدداً من الماركات لينشر اعلاناً عن احد الاجتماعات في صحيفة محلية . ثم يقول : « وكان النجاح مدهشاً في ايجابيته . فقد شهد الاجتماع مائة واحد عشر شخصاً » . وتحتم على هتلر ان يلقي أول خطاب عام له بعد الخطاب الرئيسي الذي سيلقيه «استاذ من ميونيخ » . واعترض هارير ، الرئيس الاسمي للحزب . ويقول هتلر : « وكان هذا السيدالذي لااشك في اخلاصه،مقتنعاً من ان في وسعي ان أقوم بكل شيء الا الخطابة فقد كان يشك في مقدرتي الخطابية . ولكنني خطبت مـدة ثلاثين دقيقة ،وقد تحقق الآن ما كنت اشعر به دائماً في قرارة نفسي دون ان اعرفه، وهو انني استطيع الخطــابة في الواقع » [٢] . ويزعم هتلر ان المستمعين قد «تكهربوا» من خطابه ، وان حماستهم قدثبتت في تبرعهم بثلاثمائة مارك .وهو مبلغ كان كافياً لإنقاذ الحزب من متاعبه المالية .

---

١ — كفاحي — هتلر ص ٣٥٤ .
٢ — كفاحي — هتلر ص ٣٥٥ .

تولى هتلر في بداية عام ١٩٢٠ دعـاية الحزب ،وهي من مجالات النشاط التي كان قد اولاها الكثير من التفكير منـذ ادرك اهميتها في الحزبين الاشتراكي والاشتراكي المسيحي في فيينا .وشرع فوراً يعدالعدة لإقامة اضخم اجتماع فكر الحزب للصغير البائس باقامته . وتقرر عقد هذا الاجتماع في الرابع والعشرين من شباط عام ١٩٢٠ في قاعة الاحتفالات المشهورة في « هوفبرو هاوس » التي تتسع لنحو من الفي انسان . وخيل لرفاق هتلر من اعضاء اللجنة انه قد اصيب بمس في عقله . واستقال هارير من رئاسة اللجنة محتجاً ، وخلفه دريكسلر الذي ظل متشائماً من النتيجة [١] ويؤكد هتلر انه أشرف بنفسه على الاستعدادات لهـذا الاجتماع . ولا ريب في ان الحادث قد بدا له كبير الفخامة والاهمية ، حتى انـه انهى المجلد الأول من كفاحي بوصف مسهب له،وذلك لأنه كان كما اوضح،الفرصة التي « تفجر فيها الحزب من الحدود الضيقة لناد صغير ، وبـذل لأول مرة في تاريخه تأثيراً مصمماً على العامل الاقوى في عصرنا وهو الرأي العام » .

ولم يكن اسم هتلر قد ادرج على انه الخطيب الرئيسي للاجتماع ، اذ احتفظ بهذا الدور لشخص اسمه الدكتور جوهـانز دينغفيلدر ، وهو طبيب متخصص بمعالجة الأمراض بادوية تجانس الداء ، ودعي على الاقتصـاد يكتب مقالات اقتصادية في الصحف تحت اسم مستعار هو «اغريغولا الالماني» ، ولكنه سرعان ما نسي واصبح مغموراً . وقد استقبل خطابه بالصمت . ثم شرع هتلر يتكلم . وها هو يصف المنظر بقوله ...

« كانت ثمة هتافات صارخة،وكان هناك اصطدامات عنيفة في القاعة،واشتبكت جماعة من اوفى رفاق الحرب وغيرهم من المؤيدين مع مثيري الشغب والاضطراب من الاشتراكيين والشيوعيين ... ولم نتمكن من اعادة النظام الا شيئاً فشيئاً ... وتمكنت من المضي في خطابي . وبعد نصف ساعة انفجرت هتافات الاستحسان لتخفت

---

١ – كان هارير معارضاً ايضاً للاسامية هتلر العنيفة ، وكان يعتقد ان هتلر يبعد جماهير الطبقة العاملة عن الحركة . وكانت هذه هي الاسباب الحقيقة لاستقالته .

الصراخ والزعيق ... وعندما شرعت القاعة تخلو بعد نحو من اربع ساعات من المستمعين ، عرفت آنذاك ان مبادىء الحركة ،لا يمكن ان تنسى بعد ،وانها اخذت في الانتشار وسط الشعب الألماني». [1]

وقد ردد هتلر في خطابه لأول مرة المبادىء الخمسة والعشرين والتي يتضمنها برنامج حزب العمال الألمان . وكان دريكسلر وفيدر وهتلر ، قد رسموا هـذه النقاط بسرعة . وقد بلغت المضايقة اشدها ،لهتلر في انهيال الاسئلة عليه ،عندما اخذ يتلو اجزاء من هذا البرنامج ، ولكنه اعتبر أي حال أن معظم النقاط قد قبل ، وغدت البرنامج الرسمي للحزب النازي عندما تبدل اسمه في الأول من نيسان عام ١٩٢٠ ليصبح حزب العمال الالمان الاشتراكي الوطني . ولا ريب في ان هتلر لأسباب تكتيكية ، اعلن في عام ١٩٢٦ ان هذه النقاط لا تقبل التغيير أو التبدل .

وليس ثمة من شك في ان هذه النقاط كانت مزيجاً يقصد منه اجتذاب العمال والطبقة الوسطى الدنيا والفلاحين ، وقد نسي معظم هذه النقاط عندما وصل الحزب الى الحكم . وسخر الكثيرون من الكتاب الذين كتبوا عن المانيا منها ، وكثيراً ما تضايق الزعيم النازي نفسه فيما بعد عندما كان يذكّر ببعضها .ومع ذلك ، فالنسبة الى المبادىء الاساسية التي ادرجت في «كفاحي» ، فقد قـام الرايخ الثالث بتنفيذ اهمها ، مما أدى الى نتائج مفجعة للملايين من الناس داخل المانيا وخارجها .

وقد طالبت النقطة الاولى من البرنامج باتحاد جميع الألمان في المانيا الكبرى . أو لم يكن هذا هو تماماً ما اصر عليه المستشار هتلر ،وحصل عليه عندما الحق النمسا بملايينها الستة من الألمان بالرايخ ، وعندما أخذ بلاد السوديت بملايينهـا الثلاثة من الألمان ؟ أو لم تكن مطالبته بعودة دانزيغ الألمانية . وغيرهـــا من مناطق بولندا التي يقطنها الألمان ، هي التي ادت الى الهجوم الألماني على بولندة ،

---

١ ـ كتاب كفاحي ـ هتلر ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

والى نشوب الحرب العالمية الثانية ؟ أو لا يمكننا ان نضيف ايضاً ان من مصائب العالم ان الكثيرين في سنوات ما بين الحربين اما انهم تجاهلوا أو هزأوا بالاهداف النازية ، والتي كلّف هتلر نفسه عناء كتابتها وتسجيلها ؟ لا ريب في ان النقاط المناوئة للسامية التي ادرجت في البرنامج الذي اعلن في حانة الجعة في ميونيخ مساء الرابع والعشرين من شباط عام ١٩٢٠ شكلت في حد ذاتها انذاراً صريحاً . فقد تضمنت هذه النقاط حرمان اليهود من المناصب وحتى من الرعوية في المانيا ، ومنعهم من العمل في الصحافة ، كما تضمنت ايضاً وجوب طرد جميع الذين دخلوا الرايخ بعد الثاني من آب عام ١٩١٤ .

وكان الكثير من فقرات برنامج الحزب مجرد نداءات غوغائية تستهدف التأثير على مزاج الطبقات الدنيا في وقت كان فيه هذا المزاج يشعر بالضيق الشديد والحرج ، ويعطف كل العطف على الشعارات المتطرفة والاشتراكية . فقد نصّت الفقرة الحادية عشرة مثلاً على ان لا يكون هناك دخل بلا عمل ، كما نصّت الفقرة الثانية عشرة على تأميم الاحتكارات ، ونصت الفقرة الثالثة عشرة على اشتراك الدولة في الارباح الناتجة عن الصناعة الكبيرة ، بينما نصت الفقرة الرابعة عشرة على إلغاء أجور الاراضي والمضاربة بها . وطالبت الفقرة الثامنة عشرة بفرض عقوبة الاعدام على الخونة والمرابين والمستغلين ، والفقرة السادسة عشرة بالحفاظ على « طبقة وسطى معقولة » وعلى جعل المستودعات العامة ملكاً للمجموع ووجوب تأجيرها باسعار مخفضة الى صغار التجار . ولا ريب في ان هذه المطالب قد وضعت تحت الحاح دريكسلر وفيدر اللذين كما يبدو كانا يؤمنان حقاً « باشتراكية » الحركة الاشتراكية الوطنية . ولا ريب في ان هذه الآراء هي التي وجدها هتلر مزعجة له عندما شرع كبار الصناعيين وملاك الاراضي يصبّون المال في خزائن الحزب ، ولهذا لم تنفذ هذه الآراء مطلقاً .

وكانت هناك اخيراً نقطتان في البرنامج ، عمل هتلر على وضعهما موضع التنفيذ بعد أن غدا مستشاراً . فقد طالبت الفقرة الثانية بإلغاء معاهدتي

فرساي وسنت جرمين . واصرت الفقرة الخامسة والعشرون على « خلق جهاز مركزي قوي للدولة » . ولا ريب في ان هاتين الفقرتين بالاضافة الى الفقرة التي تطالب بوحدة جميع الألمان في الرايخ قد ادرجت بالحاح من هتلر نفسه ، وقد اظهرت ، كيف ان هذا الرجل ، كان يتطلع بعينيه إلى آفاق ابعد ، حتى في تلك اللحظة التي لم تكن شهرة حزبه قد تعدّت حدود ميونيخ . وحتى لو ادى تطلعه الى خسارته للتأييد الشعبي في منطقته الانتخابية الخاصة .

وكانت الروح الانفصالية قوية للغاية في بافاريا في ذلك الحين ، وكان البافاريون في حالة من الصراع الدائم مع الحكومة المركزية في برلين ، اذ كانوا يطالبون بالتخفيف من مركزية الحكم ، حتى تتمكن بافاريا من حكم نفسها بنفسها . وكان هذا ما تعمله بافاريا في الواقع في تلك اللحظة اذ لم تكن للمراسيم الصادرة عن برلين أية قوة تنفيذية في الولايات . وكان هتلر يتطلع للوصول الى الحكم لا في بافاريا وحدها ، بل في الرايخ اخيراً ، وكان يتطلع الى ممارسة ذلك الحكم عن طريق عهد ديكتاتوري ، كان قد تصوره ضرورياً ، على ان يتخذ شكل سلطة مركزية قوية ، منهياً تلك الحالة من الاستقلال شبه الذاتي الذي تنعم به الولايات ، التي تمتعت في عهد جمهورية ويمار كما في عهد امبراطورية الهوهنزولرن بوجود برلماناتها وحكوماتها الخاصة . وكان من أول الأعمال التي قام بها بعد الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٣ ، تنفيذ هذه النقطة الأخيرة في برنامج الحزب بسرعة فائقة وهي نقطة لم يكن الكثيرون قد لاحظوها ، أو نظروا اليها نظرة جدية . ولن يكون في وسع أي انسان ان يقول ، ان هتلر ، لم يتقدم بإنذار واضح وخطي حتى في مستهل عهده ، بانه يعتزم السير في هذا الاتجاه .

ولم تكن الخطابة الملهبة للجماهير ، ولا البرنامج المتطرف المستهوي لها ، على الرغم من اهميتهما بالنسبة الى حزب « فرخ » لم ينبت ريشه بعد يسعى الى اجتذاب الاهتمام وحشد التأييد الجماهيري ، بالشيء الكافي ، ولذا ركز هتلر عنايته الآن في ايجاد وسائل اخرى . وشرعت الدلائل الأولى لعبقريته الخاصة والغريبة في الظهور ، وفي حمل الاحساس بها . ولقد فكر بأن ما تحتاج اليه الجماهير ليس

مجرد افكار ، بسيطة ، يقرع على عقولهم بها ، وانما تحتـــاج الى رموز تحظى باكتساب ايمانها وابهة وزخارف تستثيرها ، واعمال عنف وارهاب تجتـذب الانصار اذا ما تحقق لها النجاح، ولا سيما وان معظم الالمـــان تستهويهم القوة ، وتعطيهم شيئاً من الاحساس بالغلبة على الضعفاء .

ولقد سبق لنا ان ذكرنا ، انه كان ابان وجوده في فيينا مأخوذاً بما أسماه « الارهاب الروحي والبدني المعيب » الذي خيـــل اليه ان الديموقراطيين الاشتراكيين كانوا يستخدمونه ضد خصومهم السياسيين . وقد حول هذا الارهاب الآن الى أهداف افضل في حزبه المعادي للاشتراكية . اذ أعدّ منذ البداية عدداً من الجنود المسرحين لحضور الاجتماعات لإسكات المشاغبين ، ولإخراجهم من الاجتماعات اذا اقتضى الامر . وبعد ان اضاف الحزب الى اسمه كلمة « الاشتراكي الوطني »واصبح يدعى بحزب العمال الالمان الوطني الاشتراكي(N. S.D . A .P) ، قام هتلر بتنظيم جماعة من المتطوعين المعروفين بالصلابة من فصائل قوية تحت قيادة اميل موريس المجرم السابق والساعاتي . وفي الخامس من تشرين الاول عـــام ١٩٢١ ، وبعد تسترهم مدة طويلة بستار « فريق الرياضيين ولاعبي الجمباز » في الحزب ، للنجاة من اضطهاد حكومة برلين ، اصبحوا يسمون رسميـــاً بفرق العاصفة التي اشتق منها اسم(S· A) . واخذ جنود جيش العاصفة يرتـــدون الملابس البنية ، ويجمعون من قطاع الطرق والجنود المسرحين ،وقد وضعوا تحت قيادة جوهان اولريخ كلاينتزيش ، الذي كان يعمل مساعداً للرئيس ايرهاردت الشقي ،الذي اطلق سراحه مؤخراً من السجن لثبوت علاقته بمقتل ايرزبيرغر .

ولم يكن هؤلاء الغلاظ الذين يرتدون الزي العسكري قانعين بأن تقتصر مهمتهم على حفظ النظام في الاجتماعات النازية ، بل سرعان ما شرعوا يحاولون تمزيق اجتماعات الاحزاب الاخرى .وقاد هتلر شخصياً ذات مرة في عام ١٩٢١ رجاله من فرق العاصفة في هجوم على اجتماع كان من المقرر ان يخطب فيه شخص اتحادي بافاري(فيدرالي) ،يدعى بالرستيدت ، كان من نصيبه ان ضرب «علقة» ساخنة . وقد حكم على هتلر لهذا العمل بالسجن ثلاثة اشهر ، قضى منها شهراً

واحداً ، وكانت هذه هي تجربته الاولى في السجن ، ليخرج منه شهيداً ، وقد اكتسب شعبية اكثر من اي وقت مضى . وقال هتلر متبجحاً امام رجال الشرطة « لابأس، فقد حققنا ما نريد . ولم يخطب بالرستيدت في الاجتماع » . وكان هتلر قد ذكر لسامعيه قبل نحو من شهر ان « الحركة الاشتراكية الوطنية ، ستحول دون رحمة في المستقبل ، وبالقوة اذ تطلب الامر ، دون عقد اية اجتماعات او محاضرات قد تضلل عقول اخواننا المواطنين » . (١)

وقد طلع هتلر، الفنان الفاشل الذي غدا الآن استاذاً في الدعاية في صيف عام ١٩٢٠ ، بشيء من الوحي والالهام يمكن ان يوصف بأنه لمحة من لمحات العبقرية . فقد رأى ان ما يفتقر اليه الحزب ، هو شعار او راية او رمز ، يمكن له ان يعبر عما تمثله المنظمة الجديدة ، وان يستفز خيال الجماهير ، التي يجب ان يكون لها كما رأى هتلر ، راية بارزة ، تسير الجماهير وراءها، وتحارب في ظلها . وبعد تفكير طويل ، ومحاولات لا عد لها ولا حصر ، تمكن من ابتكار علم ، ذي قاعدة حمراء تقوم في وسطه اسطوانة بيضاء وقد طبع عليها الصليب المعقوف بأللون الاسود . وهو الصليب المعقوف (السواستيكا) الذي اقتبس من العصور القديمة والذي بات الرمز القوي والمخيف للحزب النازي كما غدا فيما بعد رمز المانيا النازية ولم يتحدث الينا هتلر في كتابه « كفاحي » بتفصيل واسهاب ، عن الكيفية التي نبتت عنده فيها هذه الفكرة في استخدام الصليب المعقوف للراية ولشعار الحزب.

وفكرة الصليب المعقوف قديمة قدم وجود الانسان على سطح البسيطة . فقد عثر عليه في خرائب طروادة وآثار مصر والصين . وقد شهدته بنفسي في المخلفات المقدسة للهندوكيين والبوذيين في الهند . وظهر في العصور الحديثة كالشعار الرسمي لبعض دول البلطيق كايستونيا وفلندة ، حيث شهده رجال الفيلق الالماني الحر إبان القتال في عام ١٩١٨ — ١٩١٩ . وكان جنود لواء ايرهاردت قد رسموا صورته على خوذهم الفولاذية عندما دخلوا برلين إبان انقلاب

١- كونراد هايدن — تاريخ الاشتراكية الوطنية ص ٣٦ .

« كاب » في عام ١٩٢٠ . ولا ريب في ان هتلر كان قد شهده في النمسا كشعار لحزب او اكثر من الاحزاب المعادية للسامية ، ومن المحتمل ان يكون قد انطبع في ذاكرته عندما وصل لواء ايرهاردت الى ميونيخ . ويقول في « كفاحي » ان عدداً من اعضاء الحزب ، قد اقترحوا عليه تصاميم شعارات مختلفة كانت تتضمن جميعها الصليب المعقوف وان « طبيب اسنان من ستير نبرغ » قد اخرج فعلاً تصميماً لراية « لم يكن سيئاً مطلقاً وكان قريباً من تصميمي » .

أما بالنسبة الى الالوان ، فقد رفض هتلر بالطبع الالوان السوداء والحمراء والذهبية الموجودة في راية جمهورية ويمار المكروهة . وقد رفض تقبل الراية الامبراطورية القديمة المؤلفة من الالوان الاحمر والأبيض والأسود ، وان كان قد احب ألوانها لا لأنها ، كما يقول ، تؤلف « اروع تناسق في الالوان في الوجود » فحسب ، بل لأنها تمثل ألوان المانيا التي كان قد حارب من اجلها . ولكن كان من الواجب إضفاء شكل جديد عليها ، وهكذا اضيف اليها « السواستيكا » .

وقد طرب هتلر لابتكاره الفذ ، فهتف قائلاً في كفاحي « حقاً انه لشعار ! ففي اللون الاحمر نجد الفكرة الاشتراكية في الحركة ، وفي اللون الأبيض نجد الفكرة الوطنية ، وفي الصليب المعقوف نجد رسالة النضال لتحقيق النصر للرجل الآري » [١] .

وسرعان ما ابتكرت اشرطة الصليب المعقوف لتوضع على اذرع جنود العاصفة واعضاء الحزب ، وابتكر هتلر بعد سنتين ، الرايات النازية ، التي تحمل في الاستعراضات الكبيرة ، والتي تزدان بها المنابر في الاجتماعات الجماهيرية . وقد اقتبس هذه الرايات من التصميمات الرومانية القديمة ، وهي تتألف من صليب معقوف معدني اسود يقوم فوق اكليل فضي يعلو نسراً ، وتحته توجد الحروف الاولى لاسم الحزب N.S.D.A.P. على مستطيل معدني تتدلى منه حبال لها « شرّابات » واهداب مطرزة ، تعلوا راية الصليب المعقوف المربعة وقد تألق

١ - كفاحي - هتلر ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

عليها «اسم استيقظي يا المانيا» .

قد لا يكون هذا «فناً» ولكنه دعاية من الطراز الأول . فقد غدا للنازيين الآن رمز لم يكن له مثيل عند أي حزب آخر . ويبدو ان الصليب المعقوف كان يملك سلطاناً سحرياً خاصاً به ، يدعو افراد الطبقات الوسطى الدنيا ، التي لم تكن تحس بالاطمئنان والتي كانت تعيش في جو من عدم الثقة في السنوات الأولى التي انتشرت فيها الفوضى بعد الحرب ، الى العمل في اتجاه جديـــد . وشرعت هذه الطبقات في الاحتشاد تحت هذه الراية .

ظهور « الفوهرر »

وتولى الثوري الشاب الصاعد الذي اظهر مواهب حارقة ومدهشة لا كخطيب فحسب ، بل وكمنظِّم وداعية ايضاً في صيف عام ١٩٢١م ، زعامة الحزب دون ان يكون له منافس فيها . وقد قدم لزملائه من العمال في عمله هذا ، اول طعم للقسوة والدهاء التكتيكي ، اللذين قدر له عن طريقهما ان يكسب نجاحاً أكبر في مواقع اكثر اهمية في المستقبل .

وكان هتلر قد مضى في مستهل الصيف الى برلين للاتصال بالعناصر الوطنية في شمال المانيـــا ، وللخطابة في المنتدى الوطني الذي كان المقر الروحي لهذه العناصر . وكان يرمي من وراء رحلته هذه إلى تقدير ممكنات حمل حركته الى ما وراء الحدود البافارية والانتقال بها الى انحاء المانيا الاخرى . وكان يطمع ايضاً في اجراء محالفات اكثر فائدة وجدوى لتحقيق هدفه . وعندما كان بعيداً عن ميونيخ ، قرر الاعضاء الآخرون في لجنة الحزب النازي ان القرصة قد غدت مواتية لتحدي زعامته ، فقد بات شديد النزعة الديكتاتورية بالنسبة اليهم . واقترحوا اقامة بعض المحالفات مع جماعات اخرى تتماثـل معهم في آرائهم في جنوب المانيا ولا سيما مع « الحزب الاشتراكي الألماني » ، الذي كان يحاول اقامته

في نورمبرغ، احد اعداء اليهود المدعو جوليوس شترايخر ، الذي يعتبر عدواً شديد المراس ومنافساً لهتلر في نورمبرغ وتأكد اعضاء اللجنة ان هذه الفئات اذا ما توحّدت مع النازيين وعلى رأسها قادتها الطموحون ، فان اهمية هتلر ستتقلص وتنكمش .

واحس هتلر بهذا الخطر يهدد مركزه فسارع بالعودة الى ميونيخ للقضاء على هذه الدسائس التي كان يقوم بها هؤلاء «المجانين الحمقى» كما اسماهم في «كفاحي» وقد اقترح عليهم ان يستقيل كلّية من الحزب ، ولكن مثل هذه الخطوة كانت اكبر مما يستطيع الحزب احتماله ، كما تبين للاعضاء الآخرين في الحزب بسرعة ، اذ لم يكن هتلر اقوى خطبائهم فحسب ، بل كان ايضاً منظّمهم وداعيتهم . يضاف الى هذا انه كان الرجل الذي يأتي لصندوق الحزب بمعظم موارده المالية من التبرعات التي يجمعها ابان الاجتماعات الجماهيرية التي يخطبها ، ومن مصادر أخرى بينها الجيش طبعاً . وادرك الاعضاء انه إذا تخلى عن الحزب ، فان هذه المنظمة التي كانت لاتزال « برعماً » يتفتح ، ستتمزق شذر مذر ، ولهذا فقد رفضت اللجنة قبول استقالته . ولما وثق هتلر الآن من قوة مركزه ، فرض على الزعماء الآخرين الاستسلام المطلق . فطلب سلطات ديكتاتورية لشخصه بوصفه الزعيم الاوحد للحزب . كما طلب إلغاء اللجنه نفسها ووضع حد للدسائس مع الفئات الاخرى كفئة شترايخر .

وكانت هذه التطورات تفوق مااستطاع الاعضاء الآخرون احتماله . وتزعم مؤسس الحزب انطوان دريكسلر، اعضاء اللجنة الذين اعدوا اتهاماً للديكتاتورية المنتظر وزعوه على انه احدى النشرات الحزبية . وكان هذا الاتهام اقسى ما وجه الى هتلر من صفوف حزبه، ومن اولئك الذين عرفوا طبيعته معرفة وثيقة وكانوا على علم بالوسائل التي يلجأ اليها في عمله .

« وكانت شهوة السلطان والطموح الشخصي هي التي حملت الهر ادولف هتلر على العودة الى منصبه بعد أن أقام ستة اسابيع في برلين لم يدر انسان هدفه منها . وقد اعتبر ان الوقت قد

اصبح ناضجاً لإحلال الخلاف والشقاق في صفوفنا عن طريق اناس اشبه مايكونون بالظلال يقفون وراءه ، ويعملون بهذه الطريقة لخدمة مصالح اليهود واصدقائهم . وغدا من الواضح شيئاً فشيئاً ان ما يهدف اليه هو مجرد استخدام الحزب الاشتراكي الوطني كنقطة انطلاق ، لتحقيق اهداقه المنافية للاخـــلاق . واقتناص الزعامة رغبة منه في ارغام الحزب على السير في طريق مغاير تماماً في اللحظة النفسية المواتية . وقد ظهر هذا الهدف واضحاً وجلياً في الانذار الذي وجهه الى قادة الحزب قبل بضعة ايام الذي طلب فيه بين عدة امور اخرى منحه الديكتاتورية المطلقة والفرديـة في الحزب وان تقوم اللجنة وبين اعضائها صانع الاقفال انطون دريكسلر ، زعيم الحزب ومؤسسه بالانسحاب من الميدان ...

« ترى كيف يستطيع ان يواصل حملته ؟ انه يواصلها كيهودي . فهو يستغل كل حقيقة ويحاول تحويلها الى صالحه . ايها الاشتراكيون الوطنيون ! احزموا امركم واتخذوا قراركم ازاء مثل هؤلاء الناس ! لا ترتكبوا اية اخطاء . ان هتلر انسان غوغائي ، فهو يعتقد ان في وسعه ان يملأ عقولكم بجميع انواع القصص التي قـد تنطوي على أي شيء سوى الحقيقة » . [١]

وعلى الرغم مما اصابه من ضعف من جراء لاساميتـــه السخيفة فقد كانت الاتهامات صحيحة الى حد ما ، ولكن اذاعتها لم تحقق للثائرين ما كانوا يفترضون امكان الوصول اليه . ورفع هتلر نفسه قضية تشهير على اصحاب المنشور ، واضطر دريكسلر نفسه في اجتماع عام الى تكـذيب كل ما جاء فيه . وأملى هتلر في اجتماعين خاصين عقدهما الحزب شروطه للصلح . وتبدلت انظمة الحزب لتمكين هتلر من إلغاء اللجنة ومنحه سلطات ديكتاتورية كرئيس له . ودفع دريكسلر

١ ـ هايدن ـ تاريخ الاشتراكية الوطنية . ص ٥١-٥٢ .

الذي تحطم الى الاعلى ليصبح رئيساً فخرياً ، وسرعان ما اختفى نهائيـــاً من الصورة [١] . ويصور هايدن ما حدث على انه انتصار للفرسان النبلاء في الحزب على العامة من ذوي الرؤوس المستديرة [٢] . ولكن النتيجة كانت اكثر من ذلك بالفعل فقد توطدت في تموز عـــام ١٩٢١ اقدام « مبدأ القيادة » الذي اصبح قانوناً لا بالنسبة للحزب النازي فحسب بل وللرايخ الثالث ايضاً . وقد وصـل « الفوهرر » الى المسرح الألماني .

وشرع «الزعيم » الآن في العمل لإعادة تنظيم الحزب. وقد تخلى الحزب عن الغرفة الخلفية المعتمة في « ستيرنيكبراد » ، والتي لم تكن تعني بالنسبة الى هتـلر اكثر من قبر ، ليفتح مكاتب جديدة احتلها في ملهى آخر في شارع « كورنيليوشتراسه » وكانت هذه المكاتب افسح مجالاً واكثر ضوءاً . وابتاع الحزب آلة طابعة قديمة من طراز آدلر ، على اساس التقسيط ، كما ابتاع خزانة حديدية ، اخرى للملفات وبعض الاثاث ، ووضع جهاز هاتف في مكاتبه ، وعهد الى سكرتير بأعمـاله الادارية مقابل الأجر .

وشرع المال في التدفق على الحزب . وكان الحزب قد حصل قبل نحو من سنة أي في كانون الأول عام ١٩٢٠ ، على صحيفة تافهة ، مثقلة بالديون اسمها « الفولكشير بيوباختر » ، لم تكن تعدو في الحقيقة نشرة رخيصة ، تحمـــل الشائعات والهمسات اللاسامية وتصدر مرتين في الاسبوع . ولا يعرف تماماً من أين جاء الحزب بالستين الف مارك التي دفعها ثمناً للصحيفة ، اذ ظل هتلر يحتفظ بهذا السر لنفسه ، ولكن المفهوم ان ايكارت وروهم قد تمكنا من اقناع اللواء ريتر فون ايب ، قائد روهم في الجيش الالماني النظامي ، وعضو الحزب ، على

---

١ - انفصل عن الحزب في عام ١٩٢٣ ، ولكنه غدا نائباً لرئيس البرلمان البافاري بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٨ . وقد عاد التفاهم بينه وبين هتلر في عام ١٩٣٠ ، ولكنه لم يعـــد قط الى الاسهام الفعلي في السياسة . ويبدو ان المحققين ، قد تجاهلوا مصيره .

٢ - اشارة الى المعركة التي دارت بين النبلاء من انصـــار الملك شارل الاول والعامـــة من انصار اوليفر كروموبل في بريطانيا عام ١٦٤٨ وانتهت الى انتصار كروموبل . - المعرب

تأمين هذا المبلغ ، ولعل الصحيح ان اهذا المبلغ قد جاء من مخصصـــات الجيش السرية . وتحولت الصحيفة في مطلع عام ١٩٢٣ الى جريدة يومية ، مما اتاح لهتلر المتطلب الأول لوجود كل حزب سياسي في المانيا وهو الصحيفة اليومية ، التي تنشر آراء الحزب وتعاليمه . وتطلب اصدار صحيفة سياسية يومية المزيـــد من المال، وقد توافر هذا المال الآن من مصادر بدت سرية وغريبة في عيون الكثيرين من افراد الطبقة البروليتارية الغلاظ في الحزب ، وكانت السيدة هيلين بخشتاين زوجة صانع اجهزة البيانو الثري ، بين ممولي الحزب . فقد مالت منذ اجتماعها الأول بهتلر ، الى هذا الشاب المتدفق حماسة ، ودعته الى ضيافة منزلها ، عندما يكون في برلين ، معدة له الحفلات التي يستطيع ان يلقى فيها اولئك االذين في وسعهم يقدموا الهبات السخية الى الحركة . وكان بعض المال اللازم لإصدار الصحيفة يتدفق ايضاً من السيدة جرترود فون سيدليتز ، وهي بلطيقية تملك اسهماً في احد مصانع الورق الناجحة في فنلندة .

وقام ارنست (بوتزي) هانفستينغل [١] ، وهو من خريجي جامعة هارفرد

---

١ – يقول هانفستيغل في كتابه « شهادة لم تسمـع » أن شخصاً امريكياً، هو الذي كان أول من دفعه الى هتلر . وهذا الشخص هو الكبتن (الرئيس) ترومان سميث ، وكان مساعداً للملحق العسكري في السفارة الامريكية في برلين . فقد أوفد سميث في تشرين الثاني عام ١٩٢٢ من قبل سفارته الى ميونيخ للتحري عن انسان مهيج مغمور يدعى ادولف هتلر وعن حزبه المؤلف حديثاً والمسمى بحزب العمال الاشتراكي الوطني. وكان الرئيس سميث بوصفه ضابطاً امريكياً شاباً ومحترفاً، يميل بطبيعته الى التحليل السياسي . وتمكن في غضون الاسبوع الأول الذي قضاه في ميونيخ من الاتصال بلودندورف وولي العهد الامير روبرخت ، واكثر من عشرة زعماء سياسيـين في بافاريا ، وقد ذكروا له جميعاً ان هتلر كوكب يسير في طريق الصعود ، وان حركته قوة سياسية ناميـة بسرعة . ولم يضع سميث وقته بل شهد مهرجاناً نازياً في العراء، القى هتلر فيه خطاباً ، ثم دون في يومياته فوراً .. « لم ار منظراً قط كهـــذا المنظر في حياتي . وقد اجتمعت بهتلر ، ووعد ان يحدثني عن اهدافه ويوضحها الي يوم الاثنين القادم » . ومضى سميث يوم الاثنـين الى منزل هتلر ، وكتب عنه يقول : « انها غرفة نوم عارية صغيرة تقع في الطبقة الثانية من منزل متهـــدم » ، ودار له حديث طويل مع ديكتاتور المستقبل ، الذي لم يكن آنذاك معروفاً خارج ميونيخ . واستهل مساعد الملحق العسكري الامريكي ما كتبه في يومياته ذلك المساء بالعبارة التالية « انه غوغائي

الامريكية ، ومن أم امريكية ، وينتمي الى اسرة ثرية ومثقفة تملك احدى دور نشر الآثار الفنية في ميونيخ ، باقراض الحزب في اذار عام ١٩٢٣ ، مبلغ الف دولار مقابل رهن صحيفة الفولكشاير بيوباختر لديه . وكان هذا المبلغ اسطورياً في تلك الايام التي هبط فيها سعر المارك الى حد كبير ، كما كان ذا عون كبير الى الحزب وصحيفته . ولكن صداقة اسرة هانغستينغل امتدت الى اكثر من المساعدت المالية . فلقد كانت هذه الاسرة احدى الأسر المحترمة والثرية الأولى في ميونيخ التي فتحت ابوابها الى السياسي الشاب الصخّاب .

مدهش .لم اسمع في حياتي حديث مثل هذا الرجل المتعصب والمنطقي » .وكان تاريخ اليومية الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٢ .

وقبل ان يغادر سميث برلين ذلك المساء اجتمع بها نفستينغل وتحدث اليه عن مقابلته لهتلر ، ونصحه برؤية الرجل . وكان من المقرر ان يلقي الزعيم النازي خطاباً ذلك المساء في مهرجان ، وقدم سميث بطاقته الصحفية الى هانغستينغل ليحضر المهرجان بها ، وقد أسر هذا الرجل كغيره بما في بيان هتلر من سحر ، وسرعان ما اخذ يبحث عنه بعد الاجتماع ، وغدا من المؤمنين بالنازية ..

وعندما عاد الرئيس سميث الى برلين ، ولم تكن المدينة آنذاك كثيرة الاهتمام بهتلر ، اعد تقريراً مطولاً بعثت به السفارة الى واشنطن في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٢ . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار التاريخ الذي كتب فيه التقرير تبينت لنا اهميته كوثيقة .

فقد كتب سميث يقول : « ان اكثر القوى السياسية نشاطاً في بافاريا في الوقت الحاضر ، هو حزب العمال الوطني الاشتراكي . وهذه المنظمة هي حركة شعبية اكثر منها حزباً سياسياً ، ويجب اعتبارها ، كالصنو البافاري للحزب الايطالي الفاشي ... وقد حققت نفوذاً سياسياً هاماً في الآونة الاخيرة لا يتفق مع حقيقة قوتها العددية ...

« وكان ادولف هتلر منذ البداية القوة المسيطرة في الحركة ، ولا ريب في ان شخصية هذا الرجل ، كانت من اهم العوامل التي ادت الى نجاح حركته .. وليس ثمة من جدال في قدرته على التأثير على أي اجتماع شعبي . ويكشف عن نفسه في احاديثه الشخصية فيظهر بمظهر المحدث القوي والمنطقي ، مما يترك اثراً عميقاً في كل مستمع محايد اليه وهو يتحدث بحماسة متعصبة » .

وقد تلطف العقيد سميث ، الذي اشغل فيما بعد منصب الملحق العسكري الامريكي في برلين ابان الايام الأولى من العهد النازي ، بوضع مذكراته وملاحظاته ابان رحلته المشار اليها الى ميونيخ تحت تصرف مؤلف هذا الكتاب ، ولا ريب في انها كانت قيمة جداً بالنسبة الى اعداد هذا الفصل .

وغدا بوتزي من اخلص اصدقاء هتلر ،فعينه هذا رئيس دائرة الصحافة الاجنبية ، في الحزب . وكان هذا الرجل مصاباً بلوثة في عقله وكثير العقد ، وكان ذكاؤه وخبثه يعوضان عليه ما في تفكيره من سطحيــــة وتضحّل . وكان فناناً في عزف البيانو ، وكثيراً ما استأذن منا عندما نكون في رفقته في المســاء ليلبي دعوة عاجلة من الفوهرر . ويقال ان عزفه على البيانو وضربه بعنف على اوتاره ، وتهريجه كانت من عوامل تهدئة الزعيم ، واراحة اعصابه بعد يوم متعب . وقد قدر لهذا الرجل الغريب واللطيف المعشر ، المتخرج من جامعة هــارفرد ، ان يفر من البلاد الى الخارج لينجو بحياته ، شأنــــه في ذلك شأن الكثـــيرين من اخدان هتلر القدامى [١] .

وكان معظم الرجـــال الذين قدر لهم ان يغدوا من اقرب اعوان هتلر ، قد دخلوا الحزب الآن ، أو اوشكوا على الدخول فيه ، فقد انضم رودلف هس في عام ١٩٢٠ ، وكان والده تاجراً بالجملة يقيم في مصر ، وقد قضى هس الاربعـة عشر عاماً الاولى من حياته في تلك البلاد ثم جاء الى منطقة الراين لاستكمال تعليمه . وقد عمل ابان الحرب في فوج ليست ، امداً قصيراً يزامل هتلر ، على الرغم من انه لم يعترف عليه آنذاك ، وبعد ان اصيب بجراح مرتين تحـــول الى االطيران . وبعد انتهاء الحرب،التحق بجامعة ميونيخ لدراسة الاقتصاد ، ولكنه كان يقضي جل اوقاته في توزيع النشرات اللاسامية ويقاتل مع مختلف العصابات المسلحة ، التي كانت تسرح طليقة في بافاريا في تـلك الايام . وكان في خضم المعركة عندما اطيح بالعهد السوفياتي في ميونيخ في الاول من ايار عام ١٩١٩ ، واصيب بجراح في ساقه . ومضى ذات مساء بعد سنة من هذا التاريخ ليستمع الى خطاب لهتلر ،فأسرته بلاغته ،وسرعان ما انضم الى الحزب،وغدا من اصدقاء

---

١ — قضى هانفستينغل شطراً من الحرب الكونية الثانية كاحد رعايا العدو المعتقلين ظاهراً بينما كان في الحقيقة« مستشاراً »لحكومة الولايات المتحدة في مواضيع المانيا النازية . ولاريب في ان هذا الدور الاخير من حياته الذي بدا مضحكاً للامريكيين الذين عرفوه وعرفوا المانيـــا النازية ، قد اطربه كثيراً .

هتلر الحميمين ، وتابعاً من اتباعه المخلصين واميناً لسره . وكان هو الذي عرّف هتلر على الآراء السياسية – الجغرافيـة التي دعا اليها الفريق كارل هوشوفـر ، الذي كان يدرس الجغرافيا السياسية في الجامعة آنذاك .

وقد أثار هس هتلر في اطروحة قدمها الى الجامعة ونالت الجائزة وعنوانهـا « التركيب الضروري للرجل الذي يجب ان يعيد المانيا الى امجادها القديمة » .

«وعندما تختفي جميع السلطات ، لا يكون في وسع احد الا اذا كان منبثقاً من الشعب ان يعيد تركيز السلطـة .. وكلما كانت جذور الديكتاتور اعمق فطرياً في القاعدة الجماهيرية ، كان اكـثر صلاحاً لفهم معاملتها نفسياً ، وزادت ثقـة العمال به ، واكتسب عدداً اضخم من الانصار ،بين صفوف افراد الشعبمن ذوي الحماسة والحيوية . وقد لا يشترك هذا الرجل مع الجماهير في أية خصلة من خصالها ، اذ يكون ككل عظيم من العظماء ،شخصية قائمة بذاتها.. وعندما يحزب الامر ، لا ينكمش امام سفك الدماء . وكثيراً ماتقرر القضايا العظيمة بالدم والحديد .. وهو على استعداد ليدوس اقرب اصدقائه ، ليتمكن من الوصول الى هدفه .. اما المشرع للقوانين، فلا يخطو الا بمشقة بالغة .. واذا ما اقتضت الحاجة ففي وسعه ان يخطو على الشعب ، بحذاء الجندي القاذف للقنابل اليدوية » . [١]

وليس من الغريب ان يكون هتلر قد اجتذب الشاب . وقـــد لا تكون الصورة التي رسمها هذه ، هي صورة الزعيم كما كان في ذلك الحـين بل صورة الزعيم كما اراده ان يكون وكما اصبح في الحقيقة .وقد ظل هس على الرغم من كل جدّه ورغبته في الدرس، رجلاً ذا ذكاء محدود ، واسع التقبل للافكار العنيفة التي يستطيـع تبنيها بتعصب زائد .وقد ظل حتى النهاية تقريباً اكثر اتباع هتلر ولاء ووثوقاً ، واحد القليلين الذين لم يطغ عليهم الطموح الشخصي القتال .

---

١ ـ هايدن ـ الفوهرر ص ٩٨ ـ ٩٩ .

وكان ألفرد روزنبرغ على الرغم من تسميته دائماً « بالزعيم الفكري » للحزب النازي ، و « بفيلسوفه » رجلاً ذا ذكاء معتدل ايضاً . وفي الامكان ان يوضع هذا الرجل على قدم المساواة مع اقرانه من الروس. فهو كالكثيرين من « المثقفين » الروس ينتمي الى اصل الماني بلطيقي . وقد ولد في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٨٩٣ في ريغال في استونيا (وتسمى الآن كالسين) ، لأب يعمل في صناعة الاحذية ، وكانت استونيا آنذاك جزءاً من الامبراطورية القيصرية التي ضمت اليها عام ١٧٢١ . وقد آثر بالدراسة في روسيا لا في المانيا ، ونال شهادته في الهندسة المعمارية من جامعة موسكو في عام ١٩١٧ . كما عاش في تلك المدينة ايام ثورة البلاشفة ، ومن المحتمل ان يكون قد فكر ذات يوم ، كما قال بعض خصومه من رجال الحزب النازي فيما بعد ، في ان يغدو ثورياً بلشفياً . لكنه عاد على اية حال الى ريغال في شباط عام ١٩١٨ ، وتطوع للخدمة العسكرية في الجيش الالماني عندما وصل الى المدينة ، ولكنه رفض لأنه « روسي » ، ومضى اخيراً في نهاية عام ١٩١٨ الى مونيخ حيث ابدى نشاطاً بادىء ذي بدء في اوساط المهاجرين من الروس البيض .

وتعرف روزنبرغ آنذاك بديتريخ ايكارت الذي عرفه الى هتلر ، وانضم الى الحزب في نهاية عام ١٩١٩ . وكان من المحتوم ان يؤثر رجل حصل على شهادة في الهندسة المعمارية ، على آخر ، فشل حتى في الالتحاق بمدرسة الهندسة . وتأثر هتلر أيضاً بواسع معرفة روزنبرغ واطلاعه ، واحب في البلطيقي الشاب كراهيته لليهود والبلاشفة . وقبيل وفاة يكارت ، في نهاية عام ١٩٢٣ ، عين هتلر روزنبرغ رئيساً لتحرير الفولكشير بيوباختر ، وظل لسنوات عدة يدعم هذا الرجل التام الارتباك والتشوّش بل وهذا « الفيلسوف » الضحل والمختلط التفكير ، ويصوره على انه المستشار الفكري للحركة النازية ، واحد ثقاتها في قضايا السياسة الخارجية .

وجاء هيرمان غورنغ مثل رودلف هس الى ميونيخ بعد انتهاء الحرب بأمد ما لدراسة الاقتصاد في الجامعة على ما يبدو ، وسرعان ما غدا ايضاً واقعاً تحت

سحر ادولف هتلر . وكان بوصفه احد ابطال البلاد العظام في الحرب ، وآخر قائد لسرب طيران ريختهوفن المشهور من الطائرات المحاربة ، وحامل وسام الاستحقاق ، وهو اعلى الاوسمة الحربية في المانيا ، قد وجد أن من الصعب عليه بل لعله اكثر صعوبة عليه من بقية مناضلي الحرب وابطالها ، ان يعود الى الوجود الثقيل والممل لحياة المدنيين السلمية . واصبح طياراً يعمل في طائرات شركات النقل في الدانمارك فترة من الوقت ومن ثم في السويد . ونقل ذات يوم الكونت ايرك فون روزين الى مقاطعته الواقعة بعيداً عن ستوكهولم ، وعندما كان يرتاح في مزرعة الكونت وقع في شراك غرام شقيقة الكونتيسة ، كارين فون كانتزو ، البارونة فوك ، التي تعتبر من اجمل جميلات السويد . ونشأت بعض المتاعب . فلقد كانت كارين متزوجة وكانت مصابة بالصرع وأم الطفل في الثامنة من عمره ولكنها تمكنت من فصم زواجها السابق ، ومن التزوج بالطيار الشاب الشجاع ، ولما كانت تملك مالاً جماً فقد تمكنت من الذهاب مع زوجها الجديد الى ميونيخ ، حيث عاشا عيشة الرفاه ، وتمكن من الاغراق في دراساته في الجامعة .

ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً . فقد التقى هتلر في عام ١٩٢١ وانضم الى الحزب ، وتبرع بسخاء الى ميزانيته (والى هتلر شخصياً) وألقى بكل حيويته القلقة في مساعدة روهم في تنظيم قوات العاصفة ، وغدا بعد عام واحد أي في عام ١٩٢٢ ، قائد جيش العاصفة .

والتف حشد من الرجال الأقل مكانة والاكثر تفاهة حول الحلقة التي تحيط بديكتاتور الحزب . فقد انضم ماكس أمان العريف الأول لهتلر في فوج ليست وهو رجل غليظ وخال من التهذيب وان تميز بقوة التنظيم ، الى الحزب وعين مديراً لأعماله ، ومديراً لادارة الفولكشاير بيو باختر ، وسرعان ما رتب الأمور المالية في كليهما . واختار هتلر اوليريخ غراف المصارع الهاوي ، ومساعد القصّاب ، والمشهور بمشاكساته ومشاحناته ، مرافقاً شخصياً له . واختار « مصوراً خاصاً له » ظل لعدة سنوات الشخص الوحيد الذي يسمح له بتصويره وهو هنريخ هوفمان الاعرج ، الذي كان يشبه الكلب في ولائه وامانته ، والذي

غدا فيما بعد من اصحاب الملايين. واختار لاعمال الشغب والقتال ايضاً كريستيان ويبر ، سمسار الخيل ، واحد ابطال القفز في الماء في ميونيخ والمعروف بنهمه في احتساء الجعة . وكان من اوثق المقربين الى هتلر في هذه الايام هيرمان ايسر الذي كان ينافس الزعيم في قوته الخطابية ، والذي كانت مقالاته العنيفة ضد اليهود في الفولكشير بيو باختر ، ابرز ابواب صحيفة الحزب . ولم يكن يخفي الحقيقة الواقعة وهي انه اعتمدفي معيشته بعض الوقت على سخاء بعض عشيقاته واشتهر امر هذاالرجل بالتشهير ومحاولة الابتزاز عن طريق التهديد « بالفضائح» حتى انه شمل في تهديده بعض الرفاق الذين كانوا يغضبونه ، ولذا فقد غدا مكروهاً لدى عدد من اعضاء الحزب القدماء المعروفين بنبلهم وطالبوا بفصله من الحزب . وكان هتلر يقول علناً : « انا اعرف أن ايسّر وغد من الأوغاد ، ولكنني سأتمسك به ،طالما ان في امكانه ان ينفعني »[1] . وكان هذا موقفه من جميع معاونيه الوثيقين دون ان يأبه بما هو عليه ماضيهم من قذارة ، او حاضرهم ايضاً . وكان لا يكترث بما اذا كان هؤلاء المعاونون من القتلة أو القوّادين او المنحرفين جنسياً ، او مدمني المخدرات ، أو مثيري المشاحنات اذا كانوا يخدمون له اغراضه .

فقد احتمل جوليوس شترايخر وصبر عليه حتى النهاية تقريباً . فهذا الانسان العادي (الشاذ جنسياً) الذي بدأ حياته معلماً في احدى المدارس الابتدائية ، كان واحداً من اكثر المحيطين بهتلر سمعة سيئة ، وظل معه من عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣٩ ، عندما أفل نجمه نهائياً .وكان يفخر بفجوره وعهره ، ويشهر حتى بازواج خليلاته ، وقد بنى شهرته وثروته على اساس تعصبه الأعمى ضد الساميين .وقد ذاع صيت مجلته الاسبوعية « العاصفة» بسبب القصص المفضوحة عن جرائم اليهود الجنسية وعن « القرابين اليهودية » التي كانت تنشرها وكانت قذارة هذه القصص من النوع الذي تعافه نفوس حتى الكثيرين من النازيين .

---

١ ـ هايدن ـ تاريخ الاشتراكية الوطنية ص٥٢ .

وقد اشتهر شترايخر ايضاً بانه من دعاة الادب المكشوف واصبح معروفاً بلقب « ملك فرانكونيا غير المتوج » ، حيث اقام مركز سلطـــانه في نورمبرغ التي غدت كلمته فيها شرعة وقانوناً ، وكان مصير كل من يغضبه أو يسيء اليه السجن أو العذاب . والى ان قابلته في سجن نورمبرغ ، حيث كان يواجه المحـاكمة كأحد مجرمي الحرب ، لم يكن قد سبق لي أن رأيته دون سوط في يده أو في حزامه وكان يتبجح دائماً بعدد السياط التي جلدها في ذلك النهار .

هذا هو طراز الرجال الذين حشرهم هتلر حوله ، في السنوات الاولى من زحفه السريع نحو السلطان ليغدو ديكتاتور الأمة التي قدمت للعالم امثال لوثر وكانت وغوته وشيلر وباخ وبيتهوفن وبرامز .

* * *

وتحول حزب العمال الالمان في الاول من نيسان عام ١٩٢٠ الى حزب العمال الالمان الاشتراكي الوطني الذي اشتقت منه كلمـة النازي ، واستقـال هتلر من الخدمة في الجيش نهائياً . وقرر منذ ذلك التاريخ ان يكرس وقته كله للحزب النازي ، الذي لم يقبل منه آنذاك ولا فيما بعد أي راتب .

وقد يسأل سائل ، اذن كيف كان يعيش هتلر ؟ وكان زملاؤه من عمال الحزب يسألون انفسهم احياناً هذا السؤال . وقد وجه السؤال التالي في منشور الاتهام الذي اعده اعضاء لجنة الحزب الثائرون في تموز عام ١٩٢١ .. « وكان اذا سأله احد الاعضاء عن الطريقة التي يعيش فيها ، وعن المهنة السابقة التي كان يزاولها ، يغضب ويثور . ولم يتوافر الرد على هذه الاسئـلة حتى الآن . وهكذا فان ضميره لا يمكن ان يكون نقياً ، لا سيما بالنسبة الى علاقاته المفرطة مع السيدات اللائي يصف نفسه اليهن احياناً بأنه « ملك ميونيخ » واللائي يكلفهن الكثير من المال » .

وقد رد هتلر على هذا السؤال ابان قضيـة القدح التي رفعها على اصحـــاب المنشور . فلقد قال شارحاً الطريقة التي يعش فيها : « اذا خطبت بالنيابة عـن الحزب الوطني الاشتراكي فانني لا اتقـاضى أية اموال لنفسي . ولكنني اتحدث

بالنيابة عن منظمات اخرى .. وبالطبع انا اقبل منها اجراً . يضاف الى هذا انني اتناول وجبة الغداء مع رفاق الحزب بالتناوب . ويتولى بعض الاعضاء مساعدتي الى حد متوضع [1] » .

ومن المحتمل ان يكون ما قاله قريباً من الحقيقـــة . ولا ريب في ان بعض اصدقائه من ذوي اليسر من امثال دايتريخ ايكارت وغورنغ وهانفستينغـل ، كانو « يقرضونه » بعض المال لدفع اخرة بيته ، وشراء ملابسه ووجبات طعامه . وكانت حاجاته ولا ريب متواضعة . وظل يشغل حتى عام ١٩٢٩ ، شقة مؤلفة من غرفتين في احد احياء الطبقة الوسطى الدنيا في شارع « شيير شتراســـه » على مقربة نهر الايزر . وكان يرتدي في الشتاء معطفه القـديم الواقي من المطر ، الذي غدا فيما بعد معروفاً لكل انسان في المانيا من الصور العديدة التي اخذت له وهو يرتدي هـــذا المعطف . وكان يرتدي في الصيف السراويل القصـيرة (الليدرهوزن) التي يلبسها معظم البـافاريين في الطقس الحار . وعـثر ايكارت وايسّر في عـام ١٩٢٣ على « البـــلاترهوف » وهو نزل يقع على مقربة مـن برخستغادن ليغدو موئلاً لهتلر واصدقائه في الصيف . وأحب هتلر الريف الجبلي الجميل . الذي قدر له ان يشيد فيه فيما بعد الدارة المعروفة « بير غهوف » ، التي قدر لها ان تغدو منزله ، والتي كان يقضي فيهـــا معظم وقته حتى حـــلول سنوات الحرب .

لم يتوافر له على اي حال المجال للراحـــة والاستجمام في السنوات العاصفة الواقعة بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٣ . فقد كان عليه ان يبني حزباً وان يحافظ على سيطرته عليه امام منافسين حسودين لا يقلون عنه افتقاراً الى الضمير . ولم يكن الحزب الا حركة واحدة من حركات الجناح اليميني المتعددة التي تكافح لاجتذاب الاهتمام العام والتأييد ، يضاف الى هذا انه كانت هناك احزاب مماثلة في بقيـة انحاء المانيا .

---

١ – هايدن – هتلر – ص ٩٠ – ٩١ .

وكان ثمة تعاقب طائش في الاحداث وفي الاوضاع الدائمة التقلب ، مما يستحق الرقابة من أي سياسي ، ليقيّمها ويحاول الافادة منها . وقدم الحلفاء في نيسان عام ١٩٢١ قائمة التعويضات الى المانيا وبلغت قيمتها المزعجة (١٣٢) بليوناً من الماركات الذهبية أي حوالي (٣٣) بليوناً من الدولارات ، مما دفع الألمان الى الشكوى من انهم سيعجزون عن دفعها وكان المارك الذي تبلغ قيمته عادة ربع دولار قد بدأ في الهبوط ، ولم يحل صيف عام ١٩٢١ حتى كانت قيمة الدولار قد بلغت خمسة وسبعين من الماركات ، ثم هبطت بعد نحو من عام الى اربعمائة مارك للدولار الواحد . واغتيل ايرز برغر ، وجرت محاولة في حزيران عام ١٩٢٢ لاغتيال فيليب شيدمان الاشتراكي الذي اعلن قيام الجمهورية . واطلقت النار في الرابع والعشرين من نفس الشهر على راتيناو ووزير الخارجية فقتل في الشارع . وكان القتلة في الحالات الثلاث رجالاً من اليمين المتطرف . وقد ردت حكومة برلين المركزية على هذا التحدي اخيراً بقانون خاص اصدرته لحماية الجمهورية ، فرضت فيه العقوبات الصارمة على الارهاب السياسي . وطلبت برلين حل جميع الفئات المسلحة التي لا عد لها ولا حصر ووضع نهاية للعصابات السياسية . وكانت الحكومة البافارية حتى بزعامة الكونت ليرشينفيلد المعتدل، الذي خلف كار المتطرف في عام ١٩٢١ ، قد وجدت ان من الصعب عليها ان تساير النظام المركزي في برلين . وعندما حاولت ان تفرض القانون وتطبقه ضد الارهاب ، نظم اليمينيون البارفاريون الذي كان هتلر الآن احد زعمائهم الشبان المعترف بهم مؤامرة لقلب حكومة ليرشينفيلد وللزحف على برلين لإسقاط الجمهورية .

وعانت جمهورية ويمار الديموقراطية الحديثة العهد متاعب بالغة ، وتعرض وجودها كله للتهديد بصورة دائمة لا من اليمين المتطرف فحسب بل ومن اليسار المتطرف أيضاً .

٣

فرساي - ويمار
وانقلاب حانة الجعة

بدا اعلان الجمهورية في برلين في التاسع من تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، بالنسبة الى الكثيرين في بلاد الحلفاء الظافرة في الغرب دليلاً على بزوغ فجر عهد جديد للشعب الألماني ولبلادهم . وقد ألحّ وودرو ولسون في المذكرات التي تبودلت والتي ادت الى عقد الهدنة على وجوب إلغاء اوتوقراطية الهوهنزولرن العسكرية ، ويبدو ان الألمان قد اذعنوا الى إلحاحه وان كان اذعانهم قد جاء بعد تردد . وارغم القيصر على التنازل عن العرش والفرار من البلاد . وتم إلغاء الملكية ، وقضي على جميع الاسر المالكة في المانيا واعلن قيام الحكومة الجمهورية .

لكن هذا الاعلان لم يكن الا حادثاً عارضاً . فبعد ظهر التاسع من يشرين الثاني اجتمعت ما تسمى بغالبية الديموقراطيين الاشتراكيين ، بزعامة فريدريش ايبرت وفيليب شيديمان في مجلس الرايشستاغ في برلين على اثر استقالة المستشار الامير ماكس بادن . وغلبت عليهم الحيرة فيما يفعلونه . فقد اعلن الأمير ماكس تنازل القيصر . وخيل الى ايبرت وهو « سروجي » في مهنته ، ان في وسع أي ولد من اولاد غليوم باستثناء ولي العهد الخليع ، ان يخلفه على العرش ، اذ انه كان يؤيد الملكية الدستورية على غرار النظام البريطاني . وكان ايبرت على الرغم من قيادته للاشتراكيين يكره الثورة الاشتراكية . وكان قد اعلن ذات مرة .. « انا

اكره الثورة على انها خطيئة » .

ولكن الثورة كانت معدة للحدوث في برلين فقد اصيبت العاصمة بشيء من الشلل من جراء الاضراب العام وكان السبارتاكيون ، الذين تقودهم الاشتراكية اليسارية روزا لكسمبرغ وكارل ليبنخت ، يعدون العدة من قلعتهم التي اقاموها في قصر القيصر على بعد امتار قليلة من الرايشيستاغ في شارع اونتردن ليندن ، لاعلان الجمهورية السوفياتية. وعندما وصل النبأ الى الاشتراكيين في الرايشيستاغ اصابهم الفزع. وكان من الضروري القيام بعمل سريع لإحباط خطة السبارتاكيين. وعثر شيديمان على الطريقة. ودون استشارة رفاقه ، اندفع الى زاوية مطلّة على كونيغز بلاتز ، حيث اجتمع حشد غفير من الناس ، وأخرج رأسه من النافذة واعلن الجمهورية بنفسه ، وكأن الفكرة قـــد طرأت له . وثار « السروجي » ايبرت . فلقد كان امله متركزاً على انقاذ ملكية الهوهنزولرن .

وهكذا ولدت الجمهورية الألمانية وكأنها وليدة ضربة عارضة . واذا لم يكن الاشتراكيون جمهوريين مخلصين، فليس من المنتظر ان يكون المحافظون كذلك. ولكن هؤلاء كانوا قد تخلوا عن مسؤوليتهم . وكانوا هم وقادة الجيش من امثال لودندورف وهندنبرغ ، قد دفعوا بالسلطان السياسي الى ايدي الاشتراكيين الديموقراطيين المترددين . وكانوا بعملهم هذا قد ألقوا ايضاً على عواتق زعماء الطبقة العاملة من الاشتراكيين المسؤولية الظاهرة لتوقيع الاستسلام ومعاهدة الصلح، محملينهم اللوم على هزيمة المانيا وعلى ما قد تأتي به الحرب الخاسرة والصلح المفروض من نتائج وآلام للشعب الألماني . وعلى الرغم من تفاهة هذه الخدعة التي كان في وسع أي صبي أن يتبينها، الا أنها نجحت في المانيا، وقضت على الجمهورية بالاعدام منذ قيامها .

ومن المحتمل ان لا يكون هذا القضاء حتمياً. فلقد كان في وسع الاشتراكيين الديموقراطيين في تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، وهم يمسكون بزمام الحكم المطلق ، ان يضعوا فوراً وبسرعة الاسس لقيام جمهورية ديموقراطية دائمة . وكان القيام بمثل هذا العمل يتطلب منهم القضاء بصورة دائمة، أو كبح الجماح بصورة مؤقتة،

للقوى التي دعمت امبراطورية الهوهنزلرن، والتي لا ينتظر منها ان تؤيد بإخلاص الديموقراطية في المانيا، وتضم هذه القوى السادة الاقطاعيين وغيرهم من رجال الطبقات العليا، وكبار رجال الصناعة الذين يتحكمون في الاحتكارات الصناعية، وقادة الفيلق الحر المتجولين، وكبار موظفي الجهاز المدني الامبراطوري، وفوق ذلك كله، الطبقات العسكرية واعضاء اركان الحرب. وكان عليهم ان يجزئوا عدداً كبيراً من الاقطاعيات، التي لم تكن اقتصادية في وضعها، وإنما كانت مبددة لثروة البلاد، وان يحطموا الكثير من الاحتكارات الصناعية، والاتحادات الضخمة، وان يطهروا البلاد من البيروقراطية وسلك القضاء والشرطة والجامعات والجيش من كل اولئك الذين لا يخدمون بولاء واخلاص العهد الجمهوري الجديد.

ولم يكن في وسع الاشتراكيين الديموقراطيين الذين لم يعدوا في تنظيمهم النقابيين المسالمين، والذين ألفوا الخنوع للسلطة القديمة القائمة، التي تأصلت في نفوس الألمان من ابناء الطبقات الاخرى. وبدلاً من ان يتحملوا السلطة، تخلوا عنها الى القوة التي كانت دائمة السيطرة في المانيا وهي سلطة الجيش. وعلى الرغم من ان هذا الجيش قد هزم في الميدان فإن آماله ما زالت مركزة على الاحتفاظ بسلطته في الوطن وعلى هزم الثورة. وقد تحرّك الجيش لتحقيق هذه الغايات بسرعة وجرأة.

ولم تمض بضع ساعات على اعلان الجمهورية ليلة التاسع من تشرين الثاني عام ١٩١٨، حتى رن جرس الهاتف في مكتب ايبرت في مستشارية الرايخ في برلين. وكان هذا الهاتف خاصاً للغاية، اذ كان متصلاً بالقيادة العليا للجيش في «سبا» بخط سري وخاص. وكان ايبرت وحيداً في مكتبه فتناول سماعة الهاتف. وسمع على الخط صوتاً يقول: «غروينر يتحدث». وتأثر «السروجي» القديم، الذي كان لا يزال واقعاً تحت تأثير الدهشة والانفعال من احداث اليوم التي قذفت فجأة بين يديه الكارهتين بما تبقى من سلطان سياسي في المانيا المنهارة. فلقد كان الفريق ولهلم غروبيتر هو الذي خلف لودندورف في منصبه كالجنرال المسؤول عن

ادارة الجيش . وكان هو عين الضابط الذي ابلغ القيصر بصراحة في صبيحة ذلك اليوم نفسه عندما تردد المشير (الماريشال) فون هندنبرغ ، بأنه لم يعد حائزاً على ولاء الجيش وان عليه ان يتنازل عن العرش ، وهو عمل جريء وشجاع لم تغفره له طبقة العسكريين قط . وكانت علاقة من الاحترام المتبادل قد نمت بين ايبرت وغرونير منذ عام ١٩١٦ عندما كان الفريق مسؤولاً آنذاك عن الانتاج الحربي ، وكان يتعاون تعاوناً وثيقاً مع الزعيم الاشتراكي. وكانا قد تشاورا قبل ايام أي في مطلع شهر تشرين الثاني في برلين في خير السبل لإنقاذ الملكية والوطن .

وهكذا قام خط هاتفي سري بايصالهما الى بعضهما في هذه اللحظة التي وصل فيها الوطن الى اسوأ حالاته . وعقد الزعيم الاشتراكي والقائد الثاني للجيش الالماني في تلك اللحظة وعن طريق هذه المخاطبة الهاتفية ميثاقاً ، على الرغم من بقائه سراً من الاسرار عدة سنوات ، الا ان القدر شاء له ان يقرر مصير البلاد . فقد وافق ايبرت على ان يقضي على الفوضى وعلى البلشفية وان يحافظ على الجيش في تقاليده القديمة . ووعد غرونير تبعاً لذلك بتأييد الجيش للحكومة الجديدة ومساعدتها على تثبيت اقدامها وتحقيق اهدافها .

وقال ايبرت متسائلا ... وهل سيحتفظ المشير هندنبرغ بقيادة الجيش ؟

فرد الفريق غروينر بأنه سيحتفظ بها .

وأجاب ايبرت ... اذن انقل الى المشير شكر الحكومة .[١]

وهكذا تم انقاذ الجيش ، وقضي على الجمهورية بالضياع منذ اليوم الأول لولادتها . فالجنرالات باستثناء غروينر النبيل وبعض القادة الآخرين ، قرروا ان لا يخدموها باخلاص . وقام هؤلاء الجنرالات يقودهم هندنبرغ نفسه اخيراً بخيانتها وتسليمها الى النازيين .

---

١ – ويلرت بنيت «هندنبرغ ـ الحصان الخشبي» ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

وكان منظر ما وقع في روسيا يؤرق في تلك اللحظة بكل تأكيد خيـــال ايبرت ورفاقه من الاشتراكيين. ولم يكونوا راغبين قط في ان يمثلوا دور حكومة « كيرينسكي » في المانيا ، كما لم يكونوا عازمين على ان يحـــل البلاشفة محلهم . وكانت مجالس الجنود والعمال ، تنبثق في كل مكان في المانيا ، وتغتصب السلطة تماماً كما حدث في روسيا . وكانت هذه الجماعات نفسها هي التي انتخبت في العاشر من تشرين الثاني مجلساً لممثلي الشعب عهد برئاسته الى ايبرت ، ليتولى حكم المانيا بصورة مؤقتة. واجتمع اول مؤتمر سوفياتي لألمانيا في برلين في كانون الأول من ذلك العام . وتألف المؤتمر من مندوبي مجالس الجنود والعمال في انحاء البلاد ، وطلب اقالة هندنبرغ ، وإلغاء الجيش النظامي ، والاستعاضة عنه بحرس وطني ، ينتخب ضباطه من الناس ، ويكون تحت القيادة العليا للمجلس .

وكان هذا التطور اكثر مما يحتمله هندنبرغ وغروينر . وقد رفضا الاعتراف بسلطة المؤتمر السوفياتي . ولم يقم ايبرت نفسه بأي عمل لتنفيذ مقرراته ولكن الجيش ، وهو يقاتل معركة الحياة او الموت بالنسبة الى وجوده طلب من الحكومة التي وافق على تأييدها عملاً اكثر ايجابية . وقامت فرقة بحرية الشعب قبل يومين من عيد الميلاد ، وكانت قد غدت تحت سيطرة السبارتاكيين الشيوعيين باحتلال الولهلمشتراسه ، والوصول الى المستشارية حيث قامت بقطع اسلاكها الهاتفية. لكن الخط السري الموصل بين المستشارية وقيادة الجيش ظل قائماً ، وتمكن ايبرت عن طريقه من طلب المساعدة. ووعد الجيش بتحرير المستشارية على ايدي حامية بوتسدام ، ولكن قبل وصول الحامية ، كان البحارة العصاة قـــد تراجعوا الى ثكناتهم في اسطبلات القصر الامبراطوري التي كانت لا تزال تحت سيطرة السبارتاكيين .

وظل السبارتاكيون وعلى رأسهم كارل ليبنخت وروزا لكسمبورغ ، وهما اكثر المهيّجين فعالية في المانيا ، ويواصلون الضغط لإقامة جمهورية سوفياتيـــة . وكانت قواتهم المسلحة في برلين آخذة في الازدياد . وتمكن جنود الفرقة البحرية عشية عيد الميلاد بسهولة من صد هجوم قامت به القوات النظامية من بوتسدام ،

لاخراجهم من الاسطبلات الامبراطورية . وضغط هندنبرغ وغرونير على ايبرت للوفاء بالميثاق الذي عقد معه ، والقضاء على البلاشفة . وكان الزعيم الاشتراكي على اتم استعداد لتحقيق هذه الرغبة ، فعين بعد يومين من عيد الميلاد غوستاف نوسكيه ، وزيراً للدفاع الوطني ، وسارت الاحداث بعـــد التعيين في طريق منطقي توقعه كل من كانوا يعرفون الوزير الجديد .

كان نوسكيه رئيساً للقصابين في الماضي وقد شق طريقه عبر الحركة النقابية والحزب الاشتراكي الديموقراطي الى ان غدا عضواً في الرايشستاغ عام ١٩٠٦ ، حيث اعترف به خبيراً للحزب في الشؤون العسكرية . وقد اعترف به ايضاً على انه عنيف في قوميته ، قوي في شخصيته . وكان الأمير ماكس بادن قد اختاره لإخماد الفتنة التي قام بها الاسطول في كييل في الايام الأولى من تشرين الثاني وقد تمكن بالفعل من اخمادها . وقد اعلن هذا الرجل الغليظ الجسم ، المستدير الفك الذي يتمتع بقوة بدنية خارقة وحيوية لا نظير لها رغم ضآلة ذكائه ، والذي يعتبر نموذجــاً ، كما يقول خصومه لأقرانه من القصابين ، عشية تسلمه منصبه كوزير للدفاع الوطني ، ان « فريقاً يجب ان يكون دموياً في مقارعة اعدائه » .

وضرب ضربته في مستهل كانون الثاني عام ١٩١٩ . وتمكنت القوات النظامية وقوات الفيلق الحر في « اسبوع الدماء » كما اسمي في برلين آنذاك ، الواقع بين العاشر والسابع عشر من كانون الثاني بتوجيه نوسكيه وتحت قيادة الفريق فون لوتيويتز[1] من سحق السبارتاكيين . وقد اعتقلت روزا لكسمبورغ ورفيقهـــا

---

١ ـ اظهر الفريق فريهر وولترفون لوتيويتز ، الضابط الرجعي من رجال المدرسة القديمة مدى اخلاصه للجمهورية عامة ولنوسكيه بصورة خاصة ، عندما قاد جنود الفيلق الحر بعد سنة من الاستيلاء على برلين تأييداً لانقـــلاب كاب . واضطر ايبرت ونوسكيه وغيرهما من اعضاء الحكومة الى الفرار من العاصمة في الساعة الخامسة من صباح الثالث عشر من آذار عام ١٩٢٠ . ورفض الفريق فون سيخت ، رئيس اركان الجيش ومساعد نوسكيه وزير الدفاع اسمياً ، السماح للجيش بالدفاع عن الجمهورية ضد لوتيويتز وكاب . وصرخ نوسكيه يقول ... « لقد اظهرت هذه الليلة افلاس سياستي كلها . فقد تحطم ايماني بفريق القادة والضباط ، اذ تخليتم عني جميعاً » ، (اقتبس هذا القول من كتاب ويلر ـــ بنيت « نقمة السلطان » ص ٧٧) .

كارل ليبنخت وقتلا على ايدي ضباط فرقة فرسان الحرس .

***

ولم يكد القتال في برلين ينتهي ، حتى اجريت الانتخابات في جميع انحاء المانيا للجمعية الوطنية التي تقرر ان تقوم بسن الدستور الجديد . واسفر الاقتراع الذي جرى في التاسع عشر من كانون الثاني عام ١٩١٩ عن الطبقتين العالية والوسطى قد استعادتا بعض شجاعتهما في أقل من شهرين من قيام الثورة . وقد نال الديموقراطيون الاشتراكيون مع الاشتراكيين المستقلين الذين حكموا وحدهم، لعدم وجود فئة اخرى تشترك معهم في تحمل العبء ، (١٣،٨٠٠،٠٠٠)صوت من مجموع ثلاثين مليوناً من المقترعين ، وحصلوا على (١٨٥) مقعداً من (٤٢١) هي مجموع مقاعد الجمعية الوطنية ، مما يشير الى انهم لم يتمكنوا من الحصول على الاغلبية . واتضح ان الطبقة العاملة لن تكون الوحيدة في بناء المانيا الجديدة . واحرز حزبان من احزاب الوسط او الطبقة الوسطى ، يمثلان الحركة السياسية للكنيسة الكاثوليكية والحزب الديموقراطي الذي ولد من اندماج الحزب التقدمي القديم والجناح اليساري للاحرار الوطنيين الذي تم في كانون الاول، (١١،٥٠٠،٠٠٠) صوت ، وحصلا على (١٦٦) مقعداً في الجمعية . وكان الحزبان يؤيدان قيام جمهورية ديموقراطية معتدلة ، مع وجود عطف شديد لديهما على اعادة الملكية .

واظهر المحافظون الذين كان بعض زعمائهم قد لجأوا الى الاختفاء في شهر تشرين الثاني ، والذين كان بعضهم الآخر كالكونت فون ويستارب مثلاً قد ناشدوا ايبرت حمايته ، انهم ما زالوا احياء وان كانت قوتهم قد ضعفت عددياً بعض الشيء . وكانوا قد حملوا الآن اسم حزب الشعب الوطني الالماني ، ونالوا ثلاثة ملايين صوت واصبح لهم اربعة واربعون نائباً ، بينما نال حلفاؤهم اليمينيون من الاحرار الوطنيين الذين ابدلوا اسمهم الآن الى حزب الشعب الالماني نحواً من مليون ونصف المليون من الاصوات وتسعة عشر مقعداً . وعلى الرغم من ان الحزبين كانا يمثلان الاقلية الا ان ما نالاه من مقاعد ، مكنهما من ان يظل صوتهما

مسموعاً . وبالفعل لم تكد الجمعية الوطنية تجتمع في ويمار في السادس من شباط عـام ١٩١٩ ، حتى هب قادة هاتين الجماعتـين يدافعون عن اسم القيصر غليوم وعن الطريقة التي قاد فيها هو وجنرالاته الحرب. ولم يكن غوستاف ستريسمان ، رئيس حزب الشعب قد جرب بعدما بدا للكثيرين انه تبدل في فؤاده وتفكيره. وكان في عام ١٩١٩ لا يزال يعتبر الناطق بلسان القيادة العليا في الرايشستاغ و « غلام لودندورف » كما كان يدعى ، نظراً لتأييـــده العنيف لسياسة الضم والاحتلال ، وتعصبه الشديد لعدم تقييد حرب الغواصات .

وكان الدستور الذي انبثق عن الجمعية الوطنية بعد ستة اشهر من النقاش ، اذ أقرته في الواحد والثلاثين من تموز عـــام ١٩١٩ وابرمه رئيس الجمهورية في الواحد والثلاثين من آب ، نموذجياً ولكن « على الورق » ليس الا ، فقد كان أكثر وثيقة ديموقراطية وليبرالية من نوعها عرفها القرن العشرون ، وكاد يكون كاملاً في اجراءاته ، وحافلاً بالابتكارات العبقرية والرائعة التي بدت وكأنها خير ضمان لاستمرار الديموقراطية السليمة . وقد اقتبس الدستور فكرة الحكومة الممثلة في مجلس وزراء من انكلترا وفرنسا ، وفكرة رئيس الجمهورية القوي المنتخب من الشعب من الولايات المتحدة ، وفكرة الاستفتاء من سويسرا . واختراع نظام دقيق ومعقد للتمثيل النسبي ، والاقتراع عن طريق القوائم ، للحيلولة دون ضياع الاصوات هدراً ولإعطاء الاقليات الصغيرة الحق في التمثيل في البرلمان [١] .

---

١ - كانت هناك عيوب ولا شك ، وقد ثبت في النهاية انها مفجعة . فلقد ادى نظام التمثيل النسبي والاقتراع وفقاً للقوائم الى الحيلولة ولا ريب دون ضياع الاصوات ، ولكنه ادى في الوقت نفسه الى زيادة عدد الأحزاب الصغيرة التي جعلت استقرار الاغلبية الرايشستاغ في النهاية أمراً مستحيلاً مما ادى التبدل المستمر في الحكومة. وقد سجل نحو من ثمانية وعشرين حزباً في انتخابات عام ١٩٣٠ العامة .

ولو لم يرفض المجلس بعض آراء الاستاذ هوغو بروس ، المشرع الرئيسي للدستور ، لتوافر للجمهورية استقرار أكثر مما وقع فعلاً . فقد اقترح في ويمار ان تغدو المانيا دولة مركزية ، وان تحل بروسيا وغيرها من الولايات المستقلة ، وتحول الى امارات . ولكن الجمعيـــة الوطنية رفضت =

وكانت العبارات التي صيغ فيها دستور ويمار عذبة وبليغة ، وتستسيغها اذن كل من يفكر تفكيراً ديموقراطياً . فقد نص على ان السيادة للشعب وان « السلطان السياسي يستمد من الشعب » . واعطي حق الانتخاب لجميع الرجال والنساء ممن بلغوا أو بلغن العشرين من العمر . ونص ايضاً « على ان جميع الالمان متساوون أمام القانون .. وان الحرية الشخصية مصونة لا تمس .. وان لكل الماني الحق في التعبير عن رأيه بحرية ... وان من حق جميع الألمان ان يؤلفوا النوادي والجمعيات ... وان جميع سكان الرايخ يتمتعون بالحرية المطلقة في العقيدة والضمير ... » . وقضى الدستور على الورق على الاقل بان لا يكون ثمة رجل في العالم اكثر حرية من الألماني ، وان لا تكون هناك أية حكومة اكثر ديموقراطية وليبرالية من حكومته .

شبح فرساي

وقع حادث قبل ان ينتهي سن دستور ويمار ، ألقى ظلاً من القضاء المحتوم على هذا الدستور وعلى الجمهورية التي كان من المقرر ان يرسي قواعدها . وكان هذا الحادث الذي لم يكن ثمة مفر منه هو وضع معاهدة فرساي . ويبدو ان الشعب الألماني لم يكن ابان الايام الاولى المشحونة بالفوضى والاضطراب بعد الصلح ، وحتى ابان المناقشات التي دارت في الجمعية الوطنية في ويمار ، قد اولى نتائج هزيمته في الحرب العناية الكافية . وحتى لو كان الشعب قد اولى هذه النتائج بعض عنايته ، فقد بدا انه كان واثقاً كل الثقة من انه وقد حقق للحلفاء

= هذا الاقتراح .

ومنحت المادة الثامنة والاربعون من الدستور لرئيس الجمهورية سلطات ديكتاتوريه ابان الطوارىء . وادى استخدام هذه المادة من قبل المستشارين من امثال برونينغ وفون بابن وفون شلايخر في ظل الرئيس هندنبرغ الى تمكينهم من الحكم دون موافقة الرايشستاغ ، وهكذا انتهى الحكم البرلماني الديموقراطي في المانيا حتى قبل وصول هتلر الى السلطان .

مطلبهم في الخلاص من اسرة الهوهنزارن ، وفي سحق البلاشفة ، وشرع في اقامة حكومة جمهورية ديموقراطية ، اصبح ذا حق في الحصول على صلح عادل ، لا يقوم على اساس خسارته للحرب بل على اساس مبادىء الرئيس ولسون الاربع عشرة المشهورة .

ويبدو ان ذكريات الألمان لم تكن قد عادت الى عام خلا ، في الثالث من آذار عام ١٩١٨ ، عندما فرضت القيادة العليا الألمانية الظافرة آنذاك على روسيا المغلوبة ، صلحاً في بريست ليتوفسك ، نعته مؤرخ بريطاني ، بعد حقبتين من هدوء العواطف التي اججتها الحرب وأورتها ، بأنه « إذلال لا مثيل له في التاريخ الحديث »[1] . فقد انتزع من روسيا مقاطعات تبلغ في سعتها ، مساحة النمسا والمجر وتركيا معاً ، ويقطنها (٥٦) مليوناً من الناس يؤلفون (٣٢) في المائة من مجموع سكان البلاد كلها ، كما حرمها من ثلث خطوطها الحديدية ، و (٧٣) في المائة من مصادر الحديد الخام فيها و (٨٩) في المائة من انتاج فحمها واكثر من خمسة آلاف مصنع ومؤسسة صناعية . يضاف الى هذا ان المعاهدة نصت على ارغام روسيا على دفع تعويضات لألمانيا قيمتها ستة بلايين من الماركات .

وحلت ساعة الحساب والتفكير بالنسبة الى الألمان في أواخر ربيع عام ١٩١٩ ، فقد نشرت في برلين في السابع من شهر ايار نصوص معاهدة فرساي التي وضعها الحلفاء دون اية مفاوضات مع المانيا . وجاءت هذه النصوص ضربة مذهلة بالنسبة الى شعب ظل يخدع نفسه بالأوهام حتى اللحظة الأخيرة . وسرعان ما عقدت الاجتماعات الجماهيرية الصاخبة في جميع ارجاء البلاد للاحتجاج على هذه المعاهدة ومطالبة المانيا بعدم توقيعها . وصرخ شيديمان الذي غدا مستشاراً في اجتماع للجمعية الوطنية في ويمار قائلاً ... « فلتقطع اليد التي ستوقع هذه المعاهدة !» . وأعلن ايبرت الذي غدا رئيساً مؤقتاً للجمهورية وحكومته في

---

١ - ويلر بنيت « هندنبرغ - الحصان الخشبي » ص ١٣١ .

الثامن من أيار ان نصوص المعاهدة « لا يمكن تنفيذها ولا قبولها » . وبعث الوفد الالماني الموجود في فرساي ، في اليوم التـالي برسالة الى كليمنصو الذي لا يتراجع قيد أنملة عن موقفه يقول فيها ان مثل هذه المعاهدة ، « لا يمكن قبولها من أي بلاد » .

ترى ما هو الشيء الذي لا يقبل ولا يطاق فيها ؟ لقد اعـادت الالزاس واللورين الى فرنسا ، وقطعـة من الأرض الى بلجيكا وقطعة مماثلة في شلزويج بعد الاستفتاء الى الدانمارك ، وكان بسمارك قـد انتزعها من الدانماركيين في القرن الماضي بعد ان هزمهم في الحرب . واعادت المعاهـدة الى البولنديين الأراضي التي كان الألمان قد اخذوهـا بعد اقتسام بولندة ، مع العلم ان بعض هذه الاراضي سيجري الاستفتاء فيه . وكان هذا الشرط من الشروط التي اثارت سخط الألمان اكثر من غيرها ، لا لأنهم ثاروا على فصل بروسيا الشرقية عن الوطن الأب برواق اعطى لبولنـدة ممراً الى البحر فحسب ، بل لأنهم كانوا يحتقرون البولنديين كثيراً ، وكانوا يعتبرونهم عنصراً خفيضاً في مكانته . ولم يكن الشرط الآخر الذي اعتبر الألمان مسؤولين عن شن الحرب ، والذي فرض عليهم تسليم القيصر غليوم ونحو من ثمانمائة شخص آخر من « مجرمي الحرب » الى الحلفاء ، اقل استفزازاً لغضب الألمان من سابقه .

وتقرر ان يتم تحديد التعويضات فيما بعد ، وان كانت المعاهدة قد نصت على دفع مبلغ خمسة بلايين من الدولارات بالماركات الذهبية كدفعة اولى بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢١ ، وعلى تسليم بعض المواد العينية كالفحم والسفن والخشب والماشية وغيرها عوضاً عن التعويضات النقدية .

ولكن اقسى هذه الشروط بالنسبة الى الألمان ، هو ان معاهدة فرساي نصت على نزع سلاح المانيا [١] ، وحالت بذلك الى وقت مـا دون سيادة المانيا على

---

١ - حددت المعاهدة جيش المانيا بمائة الف متطوع ومنعته من اقتناء الدبابات والطائرات . ونصت المعاهدة ايضاً على اعتبار هيئة اركان الحرب غير مشروعة ، كما نصت على تخفيض الاسطول الى قوة رمزية ، وحظرت عليه بناء الغواصات او القطع البحرية التي تعـدو حمولتها عشرة آلاف طن .

اوروبا . ومع ذلك فان معاهدة فرساي الكريهة ، خلافاً لتلك التي فرضتها المانيا على روسيا، تركت الريخ سليماً الى حد كبير من الناحيتين الجغرافية والاقتصادية، وحفظت له وحدته السياسية وقوته وامكانياته كدولة عظمى .

وعارضت حكومة ويمار المؤقتة باستثناء ايرز برغر ، الذي كان يحث على القبول، معاهدة فرساي، وكان هذا يتذرع بان في الامكان تجنب التنفيذبسهولة، اما الحكومة فقد اعتبرتها « املاء » ، ووقفت خلفهـا تؤيدها في موقفها هذا الاغلبية الساحقة من الشعب من اقصى اليمين الى اقصى الشمال .

ترى ما موقف الجيش ؟ اذا رفضت الحكومة المعاهدة ، هل يتمكن الجيش من صد هجوم حتمي سيقوم به الحلفاء من الغرب ؟ كان هذا هو السؤال الذي وجهه ايبرت الى القيادة العليا ، التي كانت قد نقلت الآن مقرها الى كولبرغ في بوميرانيا . وقد رد المشير هندنبرغ ، في السابع عشر من حزيران ، مدفوعـاً من الفريق غرونر الذي ادرك ان المقاومة الألمانيـة العسكرية غير مجدية بالجواب التالي :

« في حالة استئناف العمليات الحربيـة ، في وسعنا ان نعيد احتلال مقاطعة بوزن (في بولندة) وان ندافع عن حدودنا في الشرق ، أما في الغرب ، فيستحيل علينـا من الناحية الاخرى ، الاعتماد على الامل في قدرتنا على مقاومة هجوم جدي قد يشنه العدو بالنظر الى تفوقه العددي علينـا والى قدرته على احاطة جناحينا والالتفاف حولهما .

« وعلى هذا فان من المشكوك فيه نجاح العملية في مجموعها ، ولكنني كجندي لا استطيع الا ان اشعر بان من الخير ان نموت بشرف وكرامة على ان نقبل بصلح شائن ومعيب » .

ولا ريب في ان هذه الكلمات الاخيرة من رسالة القائد العام المحترم تتفق مع تقاليد المانيا العسكرية ، ولكن الحكم على صدقها واخلاصها يمكن ان يقوم في معرفتنا للحقيقة الواقعة التي كان يجهلها الشعب الألماني وهي ان هندنبرغ كان قد

اتفق مع غروينر على ان محاولة مقاومة الحلفاء الآن بالاضافة الى انها يائسة وغير مجدية ستؤدي الى دمار الجهاز العسكري الألماني المعبود والى تدمير المانيا كلها.

وكان الحلفاء يطلبون رداً واضحاً من المانيا الآن . وكانوا قد وجهوا في السادس عشر من حزيران، أي في اليوم الذي سبق ارسال رد هندنبرغ الخطي الى ايبرت ، انذاراً نهائياً الى المانيا يقضي اما بقبول توقيع المعاهدة قبل الرابع والعشرين من حزيران أو اعتبار اتفاق الهدنة لاغياً ، مما يدعو دول الحلفاء الى « اتخاذ الخطوات التي ترى انها ضرورية لتنفيذ شروطها » .

وبعث ايبرت من جديد يناشد غروينر . انه يقول له .. اذا كانت القيادة العليا ، تعتقد بوجود اي احتمال مهما ضؤل لقيام مقاومة عسكرية ناجحة ضد الحلفاء، فان ايبرت يعد بأن يحاول تأمين رفض الجمعية الوطنية للمعاهدة . ورجاه ان يتلقى الرد فوراً . وحل اليوم الاخير من الانذار اي الرابع والعشرون من حزيران . وكانت الوزارة مجتمعة في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، لاتخاذ قرارها النهائي . وتشاور هندنبرغ وغروينر من جديد . وقال المشير العجوز الذي انهكته السنون . . »انك تعرف كما اعرف ان المقاومة العسكرية مستحيلة» . ولكنه مرة ثانية رفض ان يقول الحقيقة لرئيس الجمهورية المؤقت ، تماماً كما فعل في «سبا» في التاسع من تشرين الثاني عام ١٩١٩ ، عندما عجز عن ان يحمل نفسه على قول الحقيقة الى القيصر ، وعهد بهذا الواجب الثقيل والمؤلم الى غروينر. وقال لغروينر (١) : « في وسعك ان تقدم الرد الى الرئيس تماماً كما أقدمه انا » وحمل الفريق الشجاع مرة ثانية المسؤولية النهائية بالنيابة عن المشير ، على الرغم من معرفته الوثيقة بأن هذا العمل سيجعله كبش الفداء امام الجهاز العسكري . وراح يهتف لرئيس الجمهورية بوجهة نظر القيادة العليا .

وأحست الجمعية الوطنية بالعبء يرتفع عن كاهلها ، بعد ان تحمل قادة الجيش المسؤولية — وهي حقيقة سرعان ما نسيت في المانيا — فوافقت على توقيع

---

١ – ويلر–بنيت « نقمة السلطان ص ٥٨ ».

الصلح بأغلبية ضخمة ، ونقل القرار الى كليمنصو قبل تسع عشرة دقيقة فقط من انتهاء موعد انذار الحلفاء . وتم التوقيع في قاعة المرايا في قصر فرساي على معاهدة الصلح بعد اربعة ايام أي في الثامن والعشرين من حزيران عام ١٩١٩ .

البيت يتجزأ

وغدت المانيا منذ ذلك اليوم بيتاً مجزّءاً .

ولم يكن المحافظون ليقبلوا لا بمعاهدة الصلح ولا بالجمهورية التي ابرمتها . ولم يكن من المنتظر ايضاً على المدى الطويل ان يؤيد الجيش باستثناء الفريق غروينر العهد الديموقراطي الجديد على الرغم من انه اقسم اليمين على تأييده ، وعلى الرغم من انه هو الذي اتخذ القرار النهائي لتوقيع صلح فرساي . وظل المحافظون على الرغم من « ثورة » تشرين الثاني هم الذين يقبضون على زمام السلطان الاقتصادي . فهم اصحاب الصناعات والاقطاعيات الضخمة والقسم الاكبر من رأس مال البلاد . وكان في الامكان استخدام ثرواتهم لتمويل الاحزاب السياسية والصحافة والسياسة التي تقرر ان تعمل منذ هذه اللحظة للقضاء على الجمهورية .

وشرع الجيش منذ تلك اللحظة يحاول المكر بالقيود العسكرية التي فرضتها معاهدة الصلح قبل ان يجف المداد الذي كتبت به . وتمكن الجهاز العسكري أو « فيلق الضباط » من الحفاظ على الجيش ضمن تقاليده البروسية القديمة كما رأينا بفضل جبن الزعماء الاشتراكيين الديموقراطيين وقصر نظرهم ، كما غدا المركز الحقيقي للسلطان السياسي في المانيا الجديدة . ولم يعلق الجيش مصيره حتى آخر أيام الجمهورية القصيرة العمر ، على اية حركة سياسية واحدة . ولكنه تمكن تحت قيادة الفريق هانز فون سيخت الخالق اللامع لجيش المائة الف من فرض نفسه رغم صغر حجمه كدولة داخل دولة فارضاً نفوذاً متزايداً على سياسات البلاد الاجنبية والداخلية الى ان تم الوصول الى نقطة غدا فيها استمرار وجود الجمهورية معتمداً على ارادة فيلق الضباط .

وحافظ الجيش كدولة داخل دولة على استقلاله عن الحكومـــة المركزية القومية . وكان دستور ويمار ينص على تبعية الجيش الى مجلس الوزراء والبرلمان تماماً كغيره من المنظمات العسكرية في جميع الديموقراطيات الغربية ، ولكنه لم يكن تابعاً لهما في الحقيقة ، كما لم يطهر فيلق الضباط مـــن العناصر ذات الآراء الملكية والمناهضة للجمهورية . وحث بعض الزعماء الاشتراكيين من أمثـــال شيدمان وغريزينسكي على « دقرطة » القوات المسلحة . وقـد رأوا الخطر في اعادة تسليم الجيش إلى الضباط من حملة التقاليد الامبراطورية والسلطوية القديمة . ولكن هؤلاء الزعماء واجهوا معارضة قوية لا من القادة العسكريين فحسب ، وانما من زملائهم الاشتراكيين ايضاً بقيادة نوسكيه وزير الدفاع . وكان هـذا الوزير العمالي للجمهورية يتبجّح علناً بانه يعتزم احياء « الذكريات العسكرية المجيدة للحرب العالمية » . وقد بيّن مرور الزمن فيما بعد ان خيبة الحكومـة المنتخبة بطريقة صحيحة في بناء جيش جديد يكون موالياً لروحها الديموقراطية ومعتمداً على الوزارة والريشستاغ ، كانت خطيئة قتالة بالنسبة الى الجمهورية .

وكان الفشل في تطهير الجهاز القضائي خطيئة اخرى ايضاً . فقد غـــدا المهيمنون على انفاذ القانون المحور الذي يلتف حوله المناهضون للثورة ، محرّفين العدالة لتحقيق غايات سياسية رجعية . وعلق المؤرخ فرانز. إل نيومان على ذلك قائلاً « من المستحيل علينا ان لا نصل الى الاستنتاج القائل بأن العدالة السياسية هي اكثر الصفحات سواداً في حياة الجمهورية الالمانية »[1]؛ فبعد فشل انقلاب كاب في عام ١٩٢٠ وجهت الحكومة تهمة الخيانة العظمى الى (٧٠٥) اشخاص، ولكن الحكم لم يصدر الا على شخص واحد هو مدير شرطة برلين بالسجن خمس سنوات « سجناً رمزياً » . وعندما قررت دولة ولاية بروسيا وقف راتبه التقاعدي ، اصدرت المحكمة العليا امرها باعادته اليه . وقضت محكمة المانية في كانون الاول عام ١٩٢٦ بمكافأة الفريق فون لورتيز ، القائد العسكري لانقلاب كاب ، بدفع

---

١ ــ فرانز نيومان « البهموت (فرس البحر) » ص ٢٣ .

رواتبه التقاعدية الموقوفة لا عن المدة التي كان فيها ثائراً على الحكومة فحسب بل وعن السنوات الخمس التي قضاها هارباً من القضاء في المجر .

ومع ذلك فقد كانت احكام السجن بمدات طويلة تصدر على المئات من الاحرار الألمان بتهمة الخيانة العظمى ، لأنهم كانوا يستنكرون او يكشفون اسرار تحدي الجيش الدائم لمعاهدة فرساي في مقالاتهم التي ينشرونها في الصحف أو الخطب التي يلقونها . وكانت قوانين الخيانة العظمى تطبق بلا رحمة ولا اشفاق ضد مؤيدي الجمهورية ، أما انصار اليمين الذين حاولوا قلبها ، كادولف هتلر مثلاً ، فقد خرجوا من المحكمة طليقي السراح ، أو باحكام خفيفة تافهة ، وكانت المحاكم تعامل حتى القتلة إذا كانوا من انصار اليمين ، وكان ضحاياهم من الديموقراطيين ، معاملة رؤوفة ، وهذا ما وقع فعلاً ، أو كان ضباط الجيش ومتطرفو الجناح اليميني يعملون على فرارهم من القضاء .

وهكذا كان الاشتراكيون الضعفاء، يساعدهم الديموقراطيون وانصار الوسط من الكاثوليك ، يسندون الجمهورية ، التي ولدت مترنحة خائرة . وتحملوا كراهية خصومهم واحياناً قدحهم وسبابهم وحتى رصاصهم ، وكان هؤلاء الخصوم يزدادون عدداً ويشتدون بأساً وتصميماً. وهتف اوزوالد شبينغلر الذي حلّق في اوج الشهرة بكتابه « انحطاط الغرب » يقول ... « وهكذا تقرر مصير دستور ويمار في صفوف الشعب » . وادرك ادولف هتلر المتأجج في بافاريا ما للتيار القومي المناوىء للديموقراطية والجمهورية من قوة ، فشرع يسير في اتجاهه ويوجهه .

وقد أعانه سير الاحداث في تنفيذ خطته وفي مقدمتها حادثان مهمان اولهما سقوط المارك وثانيهما احتلال الفرنسيين لحوض الروهر . وكان المارك ، كما رأينا من قبل قد شرع في الانهيار منذ عام ١٩٢١ عندما وصلت قيمة الدولار خمسة وسبعين ماركاً ثم بلغت في السنة التالية اربعمائة مارك،ولم يحل عام ١٩٢٣ حتى كان الدولار يبلغ سبعة آلاف مارك. وطلبت الحكومة الألمانية في خريف عام ١٩٢٣ من دول الحلفاء منحها مهلة « موراتوريوم » لدفع اقساط التعويضات ،

ولكن حكومة بوانكاريه الفرنسية رفضت هذا الطلب رفضاً قاطعاً .
وعندما تأخرت المانيا في تسليم شحنات الاخشاب أمر رئيس الوزراء الفرنسي الصلب المراس والذي كان رئيساً للجمهورية ابان الحرب ، القوات الفرنسية باحتلال الروهر . وهكذا اقتطع من البلاد قلبها الصناعي ، الذي غدا يمونها بعد ان اخذت بولندة مقاطعة سيليزيا العليا مع اربعة اخماس انتاجها — اي انتاج المانيا — من الفحم والفولاذ .

ووحدت هذه الضربة الصاعقة لاقتصاد المانيا ، شعبها بصورة مؤقتة ، لم تعرفها البلاد منذ عام ١٩١٤ .وأعلن عمال الروهر الاضراب العام ، وتلقوا العون المالي من حكومة برلين التي دعت الى حملة مقاومة سلبية . وتم تنظيم أعمال التخريب وحرب العصابات في الحوض بمساعدة الجيش. وقابل الفرنسيون ذلك بحملة من الاعتقالات ، والابعاد وأحكام الاعدام ، ولكن عجلة واحدة لم تدر في مصانع الروهر .

وعجلت عملية خنق الاقتصاد الالماني بانهيار المارك بصورة نهائية . فعندما احتل الفرنسيون الروهر في كانون الثاني عام ١٩٢٣ بلغت قيمة الدولار ثمانية عشر الف مارك ولم يحل الاول من تموز حتى بلغ الدولار (١٦٠) الف مارك ثم بلغ في الاول من آب مليوناً من الماركات . وعندما حل شهر تشرين الثاني ، وكان هتلر قد ظن بأن ساعته قد أزفت أصبحت قيمة الدولار أربعة بلايين مارك ثم ارتفع الرقم فيما بعد الى « التراليونات » . ولم تعد للنقد الالماني أية قيمة اطلاقاً وهبطت القوة الشرائية للرواتب والاجور إلى الصفر . ولم تعد هناك قيمة للأموال التي وفرها أفراد الطبقتين الوسطى والعمالية لضمان مستقبلهم . وتم تحطيم شيء أهم من ذلك كله ، وهو إيمان الشعب بالبناء الاقتصادي للمجتمع الألماني . فأية قيمة لمقاييس ذلك المجتمع واجراءاته ، إذا كان يشجع الناس على التوفير والاستثمار ، ويعدهم بالكسب المضمون ، ثم يفشل في تحقيق ذلك ويخونهم ؟ أو لا يعتبر هذا خداعاً للشعب الالماني ؟

أو لا يوجه اللوم على الكارثة التي حلت إلى الجمهورية الديموقراطية التي استسلمت إلى العدو وارتضت اعباء التعويضات ؟ ومن سوء حظ الجمهورية وبقائها انها

احتملت المسؤولية . فلقد كان في امكانها وقف الانهيار عن طريق ايجاد التوازن في الموازنة وهي مهمة شاقة ولكنها ليست مستحيلة . وكان في امكان فرض الضرائب الصحيحة أن يحقق ذلك ولكن الحكومة الجديدة لم تجرؤ على فرضها. وعلى أي حال، فقد كانت نفقات الحرب التي بلغت (١٦٤) بليوناً من الماركات، قد غطيت تماماً لا جزئياً ، إذ أمّنت الضرائب المباشرة (٩٣) بليوناً منها عن طريق القروض الحربية وأمّنت سندات الخزينـــة (٢٩) بليوناً منها بينما تأمن الباقي عن طريق اصدار أوراق نقدية جديدة . وبدلاً من أن ترفع الحكومة من الضرائب التي يستطيع القادرون دفعها رفعاً جذرياً ، عمدت الحكومة الجمهورية فعلاً إلى خفضها في عام ١٩٢١ .

وأخذت الحكومة منذ ذلك الحين ، مدفوعة من كبار الصناعيين وأصحاب الأراضي الذين طمعوا في الكسب على الرغم من خراب جماهير الشعب ودمارهم مالياً ، تعمل عن عمد واصرار على السماح للمارك بالهبوط ، رغبة منها في تخليص الدولة من ديونها العامة ، ومن دفع التعويضات ، وأملاً منهـا في تخريب احتلال الفرنسيين للروهر، يضاف إلى هذا أن انهيار النقد مكّن الصناعة الالمـــانية الثقيلة من التخلص كلياً من ديونها ، عن طريق دفع التزاماتها بمـاركات لا قيمة لها . وتنكرت القيادة العامة الآن في شكل «مكتب القوات » لتجنب معاهدة الصلح التي جعلت منها أمراً غير مشروع ، وراعت أن يؤدي هبوط المارك إلى تنظيف جميع ديون الحرب ، لتصبح المانيا من الناحية المالية غير مثقلة بالأعباء استعداداً لحرب جديدة .

ولم تدرك جماهير الشعب على أي حال كم كان أرباب الصناعة والجيش والدولة ينتفعون من انهيار النقد . وكل ما عرفته هذه الجماهير أن حساباً مصرفياً ضخماً ما كان في وسعه أن يبتاع حزمة من الجزر أو نصف اوقية من البطاطا أو بعض الآونسات مـن السكر أو رطلاً من الدقيق . وقد عرفوا أنهم غدوا مفلسين كافراد. وعرفوا أيضاً المجاعة عندما عضتهم بأنيابها وأخذوا يعانون منها يومياً . وجعلوا من الجمهورية في هذه الحالة من الشقاء واليأس التي أحسوا بها كبش الفداء

يصبّون عليها مسؤولية كل ما وقع .

ولا ريب في أن مثل هذه الأوقات كانت هبة من السماء لأدولف هتلر .

ثورة في بافاريا

وهتف هتلر قائلاً : « ان الحكومة تمضي بهدوء في طبع هذه القصاصات من الورق ، لأنها إذا توقفت عن ذلك ، فسيكون في توقفها نهايتها . إذ عندما تتوقف المطابع عن اصدار أوراق النقد ، وهذا التوقف شرط أساسي وأولي لاستقرار النقد ، فإن الغش والتدليس سرعان ما ينكشف أمرهما . . صدقوني أن تعاستنا ستزداد . ان المحتال سينتصر ويفوز ، والسبب في ذلك أن الدولة نفسها غدت في رأس قائمة المحتالين والنصابين. انها دولة اللصوص !.. وإذا كان الشعب الفزع الخائف يستطيع أن يتصور بأن في وسعه أن يموت جوعاً رغم البلايين التي يملكها ، فإن عليه أن يصل إلى هذه النتيجة ... إننا لن نذعن إلى دولة تقوم على فكرة خداع الأغلبية ... اننا نريد الديكتاتورية ... »[1]

ولا ريب في أن المتاعب والشكوك التي نجمت عن موجة الغلاء وانهيار النقد كانت تدفع الملايين من الألمان إلى تلك النتيجة ، وكان هتلر يدفعهم إليها دفعاً . فقد بات يعتقد أن الأوضاع المضطربة في عام ١٩٢٣ قد خلقت فرصة لقلب الجمهورية، وقد لا تعود هذه الفرصة ، ولكن بعض العقبات كانت تقف في طريقه إذا كان من المقدر أن يقود هو الثورة المضادة ، وبالطبع ما كان ليأبه بها إلا إذا كان هو الذي سيتولى قيادتها .

فعلى الرغم من أن الحزب النازي ، كان ينمو عدداً باضطراد ، إلا أنه ظل من الناحية الأولى ، بعيداً عن أن يصبح أكثر الحركات السياسية أهمية في بافاريا . أما في خارجها ، فقد كان مجهولاً كل الجهل . فكيف يمكن لحزب صغير

---

١ ـ هايدن ـ الفوهرر ص ١٣١ ـ ١٣٣ .

كهذا الحزب ان يقلب الجمهورية ؟ واعتقد هتلر الذي لم تكن العقبات التي تقف في طريقه لتثبط من عزيمته بسهولة، ان هناك سبيلاً لتحقيق ما يريد. فقد اعتقد ان في امكانه ان يوحد تحت زعامته جميع القوى القومية المناوئة للجمهورية في بافاريا . وركز أمله في أنه سيصبح في امكانه بمساعدة الحكومة البافارية والعصابات المسلحة ، والجيش النظامي المرابط في بافاريا أن يقود زحفاً على برلين تماماً كما زحف موسوليني على رومة قبل عام ، وان يطيح بجمهورية ويمار. ومن الواضح ان نجاح موسوليني السهل ، قد قدم إليه غذاءً فكرياً .

وعلى الرغم من أن احتلال الفرنسيين للروهر ، قد جدّد الكراهية الألمانية للعدو التقليدي وأنعش روح الوطنية ، إلا أنه في الوقت نفسه عقد مهمة هتلر . فقد شرع يوحد الشعب الألماني وراء الحكومة الجمهورية في برلين ، التي آثرت تحدي فرنسا . وكان هذا آخر ما يريده هتلر . فقد كان هدفه أن يقضي على الجمهورية . وفي امكان المانيا بعد ثورتها القومية وإقامة الديكتاتورية فيها ان تعالج موضوع فرنسا . وتجرّأ هتلر على أن يقف موقفاً غير شعبي ضد تيار قوي من الرأي العام ، فصاح هاتفاً : « لا ، ليست فرنسا هي التي تسقط ، بل ليسقط خونة الوطن ، ليسقط مجرمو تشرين الثاني . هذا هو شعارنا » . [1]

وكرس هتلر جهوده طيلة الأشهر الأولى من عام ١٩٢٣ ، لجعل شعاراته مؤثرة وفعّالة . وتمكن بفضل المواهب التنظيمية لروهم في شهر شباط من ضم أربع منظمات من « العصبات الوطنية » في بافاريا مع النازيين لتأليف « اتحاد عملي للعصبات المناضلة عن الوطن » تحت زعامة هتلر السياسية . وتم في شهر ايلول تأليف جماعة أقوى تحت اسم « اتحاد النضال الألماني » ، وكان هتلر أحد أفراد الثالوث الذي تولى قيادتها. وقد انبثقت المنظمة عن اجتماع جماهيري ضخم عقد في نورمبرغ في الثاني من ايلول للاحتفال بالذكرى السنوية لانتصار المانيا على فرنسا في معركة سيدان عام ١٨٧٠ .وقد تمثّلت في الاجتماع كافة الجماعات ذات

---

١ ـ هايدن ـ الفوهرر . ص . ١٦٤ .

التفكير الفاشي في جنوب المانيا وتلقى هتلر شيئاً من الترحاب الحماسي بعد الخطاب العنيف الذي ألقاه والذي حمل فيه على الحكومة المركزية. وقد حددت أهداف المنظمة النضالية الجديدة بصراحة في قلب الجمهورية وتمزيق معاهدة فرساي.

ووقف هتلر في اجتماع نورمبرغ على منصة العرض إلى جانب الفريق لودندورف أثناء الاستعراض الذي قام به المتظاهرون. ولم يكن هذا مجرد حدث عارض. فلقد كان الزعيم النازي الشاب منذ مدة يوثق صلاته ببطل الحرب، الذي كان قد أضفى اسمه الشهير على أصحاب انقلاب كاب في برلين، والذي واصل تشجيع الحركات الثورية المضادة من اليمين ولذا فقد بات في الامكان اغراؤه لدعم عمل أخذ يتكوّن في عقل هتلر. ولم يكن للفريق أي منطق سياسي، فقد كان يعيش الآن خارج ميونيخ ولكنه لا يخفي ازدراءه للبافاريين ولولي العهد روبرخت، وللمطالب بعرش بافاريا، وللكنيسة الكاثوليكية في أكثر الولايات الألمانية تمسكاً بالكثلكة. وكان هتلر يعلم كل هذا، ولكنه يتفق مع أهدافه. فهو لا يريد من لودندورف أن يصبح الزعيم السياسي للثورة المضادة الوطنية وهو دور كان من المعروف أن بطل الحرب يطمح في تمثيله. فقد أراد هتلر أن يكون هذا الدور من نصيبه وقد صمّم على ذلك. ولكن شهرة لودندورف واسمه الذائع الصيت لدى فيلق الضباط ولدى المحافظين في جميع أرجاء المانيا، شيء له قيمته عند سياسي اقليمي لا يكاد أحد يحس بوجوده خارج بافاريا. وشرع هتلر يدرج اسم لودندورف في مخططه.

***

ووصلت العلاقات في خريف عام ١٩٢٣ بين الجمهورية الالمانية وبين ولاية بافاريا إلى مرحلة التأزّم. فقد أعلن غوستاف ستريسمان المستشار في السادس والعشرين من ايلول نهاية المقاومة السلبية في حوض الروهر، واستئناف المانيا دفع التعويضات إلى الحلفاء. وكان هذا الناطق السابق بلسان هندنبرغ ولودندورف، والمحافظ المتزمت، والملكي في قرارة فؤاده، قد وصل إلى

الاستنتاج القائل بانه إذا كانت الغاية انقاذ المانيا وتوحيدها ، واستعادة قوتها ، فإن من الواجب في الوقت الحاضر على الاقل ، قبول الجمهورية والتفاهم مع الحلفاء ، والحصول على فترة من الهدوء لاستعادة القوة الاقتصادية . واعتقد أيضاً أن المضي في الانشقاق سيؤدي إلى الحرب الأهلية وإلى الدمار النهائي للبلاد .

وأثار التخلي عن مقاومة الفرنسيين في الروهر واستئناف تحمل التعويضات ، موجة من السخط والغضب والهستيريا لدى الوطنيين الألمان والشيوعيين الذين كان عددهم يأخذ في الازدياد أيضاً ، مما حملهم على الاشتراك معاً في الحملة على الجمهورية والمناداة بسقوطها . وهكذا واجه ستريسمان ثورة عنيفة وخطيرة من متطرفي اليمين واليسار على حد سواء . وكان قد توقعها من قبل إذ حمل رئيس الجمهورية ايبرت على اعلان حالة الطوارىء في نفس اليوم الذي أعلن فيه تبدل السياسة في موضوع الروهر والتعويضات . وعهد بالسلطة التنفيذية بين السادس والعشرين من ايلول عام ١٩٢٣ وشهر شباط عام ١٩٢٤ في المانيا في ظل قانون الطوارىء إلى أيدي وزير الدفاع اوتو غيسلر وقائد الجيش الفريق فون سيخت . ومكن هذا الاجراء في الواقع الفريق وجيشه من أن يغدوا الحكام المطلقين في الرايخ .

ولم تكن بافاريا على استعداد لتقبل مثل هذا الحل . فقد أعلنت الوزارة البافارية برئاسة يوجين فون نيلينغ حالة الطوارىء من ناحيتها في السادس والعشرين من ايلول ، وعينت الملكي اليميني ورئيس الوزراء السابق غوستاف فون كار ، مفوضاً للدولة مع صلاحيات مطلقة . وانتشر الخوف في برلين من أن تنفصل بافاريا عن الرايخ ، وأن تعيد اسرة وتيلسباخ المالكة ، وأن تؤلف مع النمسا اتحاداً لجنوب المانيا . ووجه الرئيس ايبرت الدعوة إلى جلسة عاجلة لمجلس الوزراء ، ودعي الفريق فون سيخت لحضورها . وأراد ايبرت أن يعرف موقف الجيش ، فأبلغه سيخت بصراحة .. « ان الجيش يقف ورائي يا سيدي الرئيس » [1] .

---

١ ـ الفريق فريدريش فون رابيناو سيخت ـ من حياته ـ ص ٣٤٢ .

ولم ترهب هذه الكلمات الباردة برودة الثلج والتي فاه بها القائد العام البروسي للجيش ذو الوجه الجامد ، والعين التي تغطيها المونوكل ، كما كان متوقعاً ، رئيس الجمهورية أو مستشاره . فلقد كانا قد اعترفا من قبل بالجيش دولة داخل دولة ، واعترفا باستقلاله ، وكنا قد رأينـا كيف أن الجيش قبل ثلاث سنوات ، عندما احتلت قوات كاب ، مدينة برلين ، وعندما تلقى نداء مماثلا من الحكومة ، لم يقف وراء الجمهورية وإنما وراء الفريق . وكان السؤال الآن في عام ١٩٢٣ ، ترى أين يقف سيخت ؟ .

من حسن حظ الجمهورية أن الفريق قد آثر هذه المرة الوقوف إلى جانبهـا ، لا لإيمانه بالمبادىء الجمهورية الديموقراطية ، بل لأنه رأى في الوقت الحاضر ان تأييد العهد القائم ضروري للحفاظ على الجيش نفسه الذي بات مهدداً بالثورة في بافاريا وفي الشمال ، ولإنقاذ المانيا من كارثة الحرب الاهلية. وكان سيخت يعرف أن عدداً من الضباط البارزين في فرقة الجيش الموجودة في ميونيخ يقفون إلى جانب البافاريين الانفصاليين . وكان يعرف بوجود مؤامرة « للجيش الأسود » بقيادة الرائد بوخروكر ، ضابط أركان الحرب السابق ، تستهدف احتلال برلين واسقاط الحكومة الجمهورية . وقد تحرك الفريق الآن بهدوء واصرار مطلقين ، لتسوية أمر هذا الجيش وانهاء خطر الحرب الأهلية .

وقام « الجيش الأسود » ليلة الثلاثين من ايلول عام ١٩٢٣ ، بقيـادة الرائد بوخروكر ، باحتلال ثلاث من القلاع تقع إلى الشرق من برلين . وأمر سيخت القوات النظامية بمحاصرة قوات هذا الجيش ، واستسلم بوخروكر بعد يومين اثنين. وقد حوكم بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالسجن عشر سنوات . وأمر الفريق سيخت بحل « الجيش الأسود » الذي كان هو قد انشأه تحت ستار اسم « فدائيي العمال » ليكون بمثابة امداد سري للجيش النظامي الذي نصت معاهدة فرساي على أن يكون مائة ألف[١] .

---

١ – كانت قوات « الجيش الأسود » تتألف من نحو عشرين الف مقاتل تقريباً وقد وزعت

وركز سيخت بعد ذلك اهتمامه في التهديدات الناجمة عن الفتن الشيوعية في سكسونيا ، وتورينجيـا وهمبورغ والروهر . وكان في الامكان الاعتماد على ولاء الجيش المطلق في اخماد الفتن اليسارية . وقام قائد الجيش المحلي في سكسونيا باعتقال أعضاء حكومتها الاشتراكية – الشيوعية ، وتم تعيين مفوض من الرايخ لتولي الأمور فيها . وتم القضاء بسرعة وصرامة على الشيوعيين في همبورغ وغيرها من المناطق . وبدا لبرلين الآن ان سهولة القضاء على البلاشفة قد حرم المتـآمرين في بافاريا من ذريعة الادعاء بأنهم يعملون حقاً لإنقاذ الجمهورية من الشيوعية . وانها ستحملهم على الاعتراف بسلطة الحكومة المركزية . ولكن الوضع لم يسر في هذا الاتجاه أبداً .

وقد ظلت بافاريا على تحديها لبرلين . وكانت الآن واقعة تحت حكم مطلق يسيطر عليه ثالوث مؤلف من كار مفوض الدولة والفريق اوتوفون لوسّو قـائد الجيش النظامي في بافاريا والعقيد هانز فون سيسّر ، مدير شرطة الولاية . ورفض كار الاعتراف بسريان حالة الطوارىء التي أعلنها الرئيس ايبرت في المانيـا على بافاريا . ورفض كذلك تنفيذ أية أوامر يتلقاها من برلين . وعندمـا طلبت الحكومة المركزية اغلاق صحيفة هتلر الفولكشاير بيوباختر بسبب حملتها المسمومة على الجمهورية عامة وعلى سيخت وستريسمان وغيسلر بصورة خاصة ، رفض كار إطاعة هذه الأوامر بازدراء .

وتجاهل كار أيضاً أمراً ، تلقاه من برلين بإلقاء القبض على ثلاثة شريرين من

على الحدود الشرقية للمساعدة في حمايتهـا ضد البولنديين في الفترة المضطربة بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٣ . وغدت المنظمة غير المشروعة مضرب المثل في شرورها لإحيائها الاعمال الارهابية للمحاكم السرية التي عرف امرها في القرون الوسطى لأنها كانت تنزل عقوبة الاعدام بالأشخاص الذين يكشفون عن نشاط الجيش الاسود الى لجنة مراقبة الحلفاء . ووصلت بعض اعمال القتل الوحشية التي قام بها الجيش الى مسامع المحاكم . ونفى وزير الدفاع الالماني اوتو غيسلر الذي خلف نوسكيه ، في احدى المحاكمات معرفته بوجود هذه المنظمة وأصر على انكار وجودها . وعندما احتج احد سائليه على هـذا الانكار صرخ الوزير قائلاً : « ان كل من يتحدث عن الجيش الاسود يرتكب عملاً من اعمال الخيانة العظمى » .

قادة العصابات المسلحة في بافاريا وهم الرئيس هيس والرئيس ايرهارت (بطل انقلاب كاب) والملازم روزباخ (وهو صديق لروهم ومن المعروفين بالشذوذ الجنسي) . وعندما نفد صبر سيخت ، أمر الفريق فون لوسّو باغلاق الصحيفة النازية واعتقال الرجال الثلاثة . وتردد الفريق ، وهو بافاري أيضاً ، وضابط ضعيف ومشوّش التفكير ، وكان قد وقع أسيراً لبلاغة هتلر وقوة اقناع كار ، في إطاعة الأمر. وأصدر سيخت في الرابع والعشرين من تشرين الاول أمراً ثانياً بإقالته وتعيين الفريق كريس فون كريسينشتاين خلفاً له . لكن كار لم يقبل على أي حال مثل هذه الأوامر من برلين ، وأعلن أن لوسو سيحتفظ بقيادة الجيش النظامي في بافاريا ، ثم تحدى الدستور أيضاً بالاضافة إلى تحديه لسيخت، وأرغم ضباط الجيش ورجاله على أن يؤدوا يميناً خاصاً بالولاء للحكومة البافارية .

ورأت برلين في هذا العصيان ، أمراً عسكرياً بالاضافة إلى الناحية السياسية فيه فقرر الفريق فون سيخت أن يقضي على العصيانيين في وقت واحد[1] .

وأصدر أمراً صريحاً للثالوث البافاري ولهتلر والعصبات المسلحة بأنه سيخمد بالقوة كل عصيان يقومون به . وكان الوقت قد فات على تمكن الزعيم النازي من الانسحاب والتراجع . وكان اتباعه المهووسون يطالبونه بالعمل . وحثه الملازم ولهلم بروخنر من قواد جيش العاصفة على أن يضرب فوراً وبسرعة . وقال هتلر : « لقد حان الوقت عندما أصبح عاجزاً عن كبح جماح رجالي . وإذا لم نقم بعمل الآن فإنهم سينفضون من حولنا » .

وأدرك هتلر ان عامل الزمن يعمل إلى مصلحة ستريسمان وأنه إذا بدأ يحقق النجاح في إعادة الهدوء إلى البلاد ، فإن فرصته هو ستضيع ولن تعود . وتوسل إلى كار ولوسّو للشروع في الزحف على برلين قبل أن تبدأ برلين زحفها على ميونيخ . وبدأت الشكوك تساوره ، في ان الثالوث ، اما ان يكون قد فقد الجرأة على العمل أو أن أفراده يخططون للقيام بانقلاب انفصالي يستهدف

---

١ — الفريق فريدريش فون رابيناو سيخت (من حياته) ص ٣٧١ .

فصل بافاريا عن الرايخ . ولا ريب في أن هتلر بافكاره الشديدة التعصب لإقامة رايخ قوي وقومي ومتحد ، كان يعارض في مثل هذا التخطيط .

وبدأت عزائم كار ولوسّو وسيسّر تخور بعد انذار سيخت. ولم يكن يهمهم القيام بحركة غير مجدية قد تؤدي إلى دمارهم . وقاموا بابلاغ اتحاد المانيا النضالي الذي يتولى هتلر زعامته السياسية في السادس من تشرين الثاني ، بأنهم لن يسمحوا بالانسياق وراء عمل متهور ، وأنهم هم وحدهم الذين سيقررون متى يعملون وكيف يعملون . وكان هذا البلاغ بمثابة إشارة لهتلر لتسلم زمام المبادرة بنفسه . ولم يكن يملك التأييد الكافي للقيام بحركة انقلابية وحيداً ، إذ كان في حاجة إلى تأييد الدولة البافارية والجيش والشرطة ، وهو درس كان قد تعلمه في أيام صعلكته في فيينا . وفكر في أن الضرورة تحتم عليه أن يضع كار ولوسّو وسيسّر في مركز يرغمهم على التعاون معه ، ولا يجعل لهم سبيلاً للخلاص أو التراجع . وأصبح الوضع يتطلب شيئاً من الجرأة أو حتى من التهوّر ، وقد أقام هتلر الدليل على أنه لم يكن مفتقراً إليهما . وقرر أن يعمل على اختطاف أعضاء الثالوث وأن يرغمهم على استخدام سلطانهم بأمر منه .

وكان لاجئان روسيان هما روزنبرغ وشوبنر ريختر ، هما اللذين اقترحا عليه هذه الفكرة لأول مرة ، وكان هذا الأخير قد حمل اسم زوجته وأصبح يدعى ماكس ايروين فون شوبنر – ريختر ، وهو شخصية غامضة يشبه إلى حد ما روزنبرغ ، في أنه قضى معظم حياته في الإمارات الروسية في البلطيق ، ثم شق طريقه في نهاية الحرب كغيره من اللاجئين من الاتحاد السوفياتي إلى ميونيخ حيث انضم إلى الحزب النازي وغدا واحداً من القريبين إلى هتلر .

وتقرر أن يقام عرض عسكري في قلب ميونيخ في الرابع من تشرين الثاني بمناسبة يوم المانيا التذكاري ، وأعلن في الصحف أن أفراد الثالوث ، بالاضافة إلى ولي العهد المحبوب ، روبرخت سيقفون في منصة العرض لتقبل تحية الجنود ، وان المنصة ستقام في شارع ضيق متفرع عن « فولدرنهال » . واقترح شوبنر – ريختر وروزنبرغ ، على هتلر أن يقوم بضع مئات من جنود

العاصفة بالاطباق على الشارع الصغير قبل وصول القوات المستعرضة لإغلاقه بدافعهم الرشاشة ، على أن تحمل السيارات هؤلاء الجنود . ويرتقي هتلر بعد ذلك المنصة ، فيعلن قيام الثورة ويرغم وجوه المدينة تحت خطر التهديد بالمسدسات على الانضمام إليها ومساعدته في قيادتها . وقد أعجب هتلر بالخطة وتبناها بحماسة شديدة . ولكن عندما وصل روزنبرغ مبكراً في اليوم المعين إلى الشارع بقصد الاستطلاع ، اكتشف أن الشارع الصغير ، كان تحت حراسة قوية من مجموعة كبيرة من رجال الشرطة المسلحين تمام التسلح . وتقرر العدول عن تنفيذ المؤامرة أو الثورة .

لكن الفكرة ظلت قائمة ولم يكن العدول عنها في ذلك اليوم إلا بمثابة تأجيل لها . وتم اعداد خطة ثانية لا يمكن لوجود جماعة من قوات الشرطة المتمركزة في مواضع استراتيجية أن تحبطها وتقرر حشد جميع قوات العاصفة وغيرهم من أفراد العصابات المسلحة التابعة للاتحاد النضالي الألماني ليلة العاشر — الأحد عشر من تشرين الثاني في مرج « فرويتما نينغر » الواقع إلى الشمال من ميونيخ ، على أن تقوم هذه القوات كلها صبيحة الحادي عشر ، أي بمناسبة الذكرى السنوية للهدنة المعيبة والكريهة بالزحف على المدينة واحتلال المراكز السوقية (الستراتيجية) فيها ، واعلان الثورة الوطنية ومواجهة كارلوسو وسيسّر المترددين بالأمر الواقع .

وصدر اعلان رسمي لم تكن له اهميه كبرى في هذا الحين، اقنع هتلر بالتخلي عن الخطة وابتكار أخرى بدلاً منها . فقد صدر اعلان صغير في الصحف المحلية يقول ان كار بناء على طلب بعض المؤسسات التجارية الكبيرة في ميونيخ سيلقي خطاباً في قاعة الجعة (البيرة) الكبرى في « بورغربروكلار » الواقعة في الضواحي الجنوبية من المدينة . وكان مساء الثامن من تشرين الثاني هو الموعد المحدد لإلقاء الخطاب . وأضاف الاعلان أن موضوع الخطاب سيتناول برنامج الحكومة البافارية ، وان الفريق فون لوسو والعقيد فون سيسر وغيرهما من الكبراء سيكونون بين الحضور .

ودفع اعتباران هتلر إلى اتخاذ قرار متهور . وكان أول هذين الاعتبارين أنه شك في أن كار سينتهز فرصة الاجتماع لإعلان استقلال بافاريا وإعـــادة اسرة « الويتلبـاخ » إلى العرش البـــافاري . وحاول هتلر طيلة الثامن من تشرين الثاني عبثاً الاجتماع إلى كار الذي أجّل الاجتماع به حتى التاسع من الشهر ، مما أدى إلى زيادة شكوك الزعيم النازي ، فقرر أن يبادر هو بالعمل قبل كار . أما الاعتبار الثاني فهو أن اجتماع الحانة يتيح له الفرصة التي أضاعهـا في الرابع من تشرين الثـاني ، وهي اعتقال أعضاء الثالوث معاً وارغامهم تحت ضغط التهديد بالسلاح على الانضمام إلى النازيين في تنفيذ الثورة . وقرر هتلر أن يعمل فوراً . وألغيت الخطط لتعبئة القوات في العاشر من تشرين الثـــاني واستعيض عنها باستنفارهم بصورة عاجلة لأداء الواجب في حانة الجعة الكبرى .

انقلاب حانة الجعة

في الساعة التاسعة إلا ربعاً من مساء الثامن من تشرين الثاني عام ١٩٢٣ ، وكان كار قد قضى أكثر من نصف ساعة يخطب في نحو من ثلاثـــة آلاف من المواطنين الذين اقتعدوا مجالسهم حول الموائد الخشنة يحتسون الجعة من الأكواب الفـخّارية على الطريقة البافارية ، أحاطت قوات الصاعقة بالحانة ، واندفع هتلر داخلاً إلى القاعة . وبينما كان بعض رجاله قد أعدوا مدفعاً رشاشاً في مدخـــل القاعة ، قفز هتلر فوق احدى الموائد ، وأطلق عياراً نارياً من مسدسه على سقف الحانة لاجتذاب الانتباه ، بينما توقف كار عن القاء خطابه . والتفت المستمعون ليروا السبب في هذا الاضطراب الذي وقع . وشق هتلر بمساعدة هيس واولريخ غراف القصاب السابق والمصارع الهاوي ، وخالق المشاحنات الذي غدا مرافق الزعيم وحارسه ، طريقه إلى المنصـّة . وحاول رائد من رجال الشرطة وقفه عن السير ولكن هتلر وجه إليه مسدسه ، وتابع سيره . ويقول شهود العيان ان كار كان قد غدا في تلك اللحظة «شاحب الوجه كثير الارتباك» وتراجع عن المنصة ،

ليحتل هتلر مكانه عليها .

وصرخ هتلر هاتفاً : « لقد بدأت الثورة الوطنية . ان ستمائة رجل مدججين بالسلاح يحتلون هذا البناء الآن ، وليس في وسع أي منكم أن يغادر مكانه . وإذا لم يسد الهدوء فوراً ، فسآمر بوضع مدفع رشاش علـــى الشرفة . لقد اقيلت حكومتا بافاريا والرايخ ، وتم تشكيل حكومة وطنية مؤقتة . وتم احتـلال ثكنات الجيش والشرطة . وهاهم أفراد الجيش والشرطة يزحفون على المدينة رافعين علم الصليب المعقوف » .

وكانت الجملة الأخيرة مجرد اكذوبة ، قصد منها « بلف » الحاضرين. ولكن لم يكن أحد في غمرة الاضطراب الذي وقع يعرف الحقيقة . وكان الشيء الواقع هو المسدس في يد هتـلر ، فقد انطلقت رصاصة منه . وكان وجود جنود العاصفة ببنادقهم ومدافعهم الرشاشة أمراً واقعاً . وأصدر هتلر أمره إلى كار ولوسّو وسيسّر ، بأن يتبعوه إلى غرفة خاصة مجاورة قريبة من المسرح.واطاع ارفع موظفي بافاريا أمر هتلر تحت تهديد جنود العـاصفة ، بينما أخذت الجموع تتطلع في دهشة وذهول .

لكن هذا الذهول كان مصحوباً بسخط أخذ ينمو بصورة متدرجة . فلقد كان الكثيرون من رجال الاعمال ، ما زالوا ينظرون إلى هتلر ، على انه انسان حديث الظهور . وصرخ أحدهم برجال الشرطة ... « لا تكونوا جبناء كما كنتم في عام ١٩١٨ . اطلقوا النار » . ولكن رجال الشرطة وقد رأوا رؤساءهم على هذا النحو من الخور والاستسلام،وابصروا بجنود العاصفة يسيطرون على القاعة ، لم يتحركوا . وكان هتلر قد رتّب ان يقوم احد عيونه في مقر قيادة الشرطة وهو وِلهلم فريك ، بالتحدث هاتفياً إلى الشرطي الخفر في حانة الجعة ، ليأمره بعدم التدخل ، ومراقبة الحالة ليس إلا . وبدأ الهياج يشتد في أوساط الجمهور إلى الحد الذي جعل غورنـغ يؤمن بضرورة التدخل والوقوف على المنبر لتهدئته. وصرخ غورنـغ ... « ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف . اننا نحمل نوايا ودية .ولهذا عليكم أن لا تهتاجوا ،وتابعوا احتساءكم لجعتكم » . وأكد لهم أن حكومة جديدة

يجري تأليفها في الغرفة المجاورة .

وكان هذا يتم تحت تهديد مسدس هتلر . فبعد أن ساق المسجونين الثلاثة إلى الغرفة المجاورة قال لهم .. « لن يترك أي منكم هذه الغرفة دون اذن مني » .

ثم أبلغهم أنهم سيعينون في مراكز رئيسية إما في الحكومة البافارية أو في حكومة الرايخ التي كان يقوم بتأليفها مع لودندورف وعلت الدهشة وجوههم، وهتفوا « مع لودندورف ؟ » . أجل كان هتلر قد بعث في ساعة مبكرة من ذلك المساء بشوبنر - ريختر إلى « لود ويغز هوهي » للبحث عن القائد الشهير، الذي لم يكن يعرف شيئاً عن المؤامرة النازية، وللمجيء به إلى حانة الجعة فوراً.

ورفض الأسرى الثلاثة في البداية حتى الحديث إلى هتلر . وواصل هو مضايقتهم والالحاف عليهم فعلى كل منهم أن يشترك معه في اعلان الثورة وقيام الحكومة الجديدة، وعلى كل منهم أن يقبل بالمنصب الذي عينه هتلر له وإلا « فلن يكون من حقه أن يعيش » . وكان هتلر قد أعلن لهم أن كار سيكون الوصي على عرش بافاريا وأن لوسّو سيكون وزير الجيش الوطني، وأن سيسر سيكون وزير شرطة الرايخ . ولكن أياً من الثلاثة لم يؤثر عليه اغراء المنصب الرفيع الذي عرضه هتلر، ولذا رفض الرد على حديثه .

وفقد هتلر زمام السيطرة على أعصابه . وأخيراً أشهر مسدسه عليهم وهزّه في وجوههم قائلاً : « هنالك أربع طلقات في مسدسي ! ثلاث منها لأنصاري إذا تخلوا عني، والأخيرة لي » . وصوّب فوهة المسدس إلى جبهته قائلاً : « إذا لم أُحقق الانتصار قبل ظهر غد، فسأكون انساناً ميتاً » .

ولم يكن كار بالانسان الذكي اللامع ولكنه كان يتمتع بشجاعة بدنية فائقة . ورد عليه قائلاً : « اسمع يا هر هتلر . في وسعك أن تطلق النار بنفسك علي أو تأمر غيرك باطلاقها علي . وسيان لدي أمتّ أم لم أمت » .

وتحدث سيسر أيضاً، فوبخ هتلر على نكثه بوعده في أن لا يقوم بأية حركة انقلابية ضد الشرطة .

ورد هتلر : « أجل لقد وعدت . اغفر لي، ولكنني وجدت نفسي مضطراً

لذلك من أجل الوطن .

وتمسك الفريق فون لوسو بالصمت المطبق مزدرياً محدثه . ولكن عندما شرع كار يهمس في اذنه ، صرخ هتلر .. « صه . لا حديث بدون اذن مني » .

ولم يكن قد توصل بعد الى نتيجة رغم كل ما تحدث به . فقد رفض الثلاثة الذين يمسكون بزمام السلطة في الدولة البافارية أن ينضموا إليه ، حتى ولو تحت تهديد المسدس . وهكذا لم يسر الانقلاب وفق الخطة المرسومة له . وسرعان ما اندفع هتلر ينفذ فكرة مفاجئة عنت له ، ودون أن ينبس ببنت شفة ، خرج من الغرفة الى القاعة ، وارتقى المنبر ، وواجه الحشد العابس وأعلن أن أعضاء الثالوث الموجودين في الغرفة المجاورة قد انضموا إليه في تشكيل حكومة وطنية مركزية جديدة .

وصرخ هاتفاً .. «لقد اقلنا الوزارة البافارية . وها نحن نعلن إقالة حكومة مجرمي تشرين الثاني ورئيس جمهورية الرايخ. وسنعلن عن قيام حكومة جديدة هنا في ميونيخ هذا اليوم ، كما سيتم تشكيل جيش وطني الماني فوراً . . وأقترح أن أتولى توجيه السياسة في الحكومة المركزية الوطنية إلى أن تتم تسوية الحساب مع مجرمي تشرين الثاني . وسيتولى لودندروف قيادة الجيش الوطني الألماني . . وستكون مهمة الحكومة الوطنية المؤقتة أن تنظم الزحف على برلين ، « بابل الخاطئة » لإنقاذ الشعب الالماني .. وسيطلع الغد إما على حكومة وطنية في المانيا ، أو علينا ونحن في عداد الأموات » .

ولم يكن هتلر قط قد اخترع فيحياته مثل هذهالا كذوبة الضخمة التيحققت غايتها . فعندما سمع الجمهور ان كار والفريق فون لوسو ورئيس الشرطة فون سيسر قد انضموا إلى هتلر،تبدل وضعه وموقفه فجأة. وارتفعت هتافاتعالية، وتأثر الثلاثة الذين كانوا لا يزالون أسرى في الغرفة الجانبية بهذه الهتافات .

وسرعان ما أخرج شوبنر — ريخنر ، الفريق لودندورف من قبعته . وطلع به على الجمهور . وكان بطل الحرب بادي الثورة على هتلر ، لأنه فاجأه على هذا النحو. وعندما ادخل إلى غرفة جانبية ، علم بأن العريف السابق ، لا هو ،

سيكون الحاكم المطلق في المانيا فثار ثائره ، واشتد غضبه . ولم يوجه كلمة واحدة الى الشاب الرقيق الجسم . ولكن هتلر لم يهتم بذلك طالما ان لودندورف قد وافق على ان يمنح اسمه المشهور جداً ، الى المشروع البائس . وان يعمل على اكتساب الزعماء البافاريين الثلاثة المترددين ، الذين رفضوا حتى تلك الساعة الاستجابة الى رجائه وتهديده . وشرع لودندورف ينفذ وعده . فقد غدت القضية متعلقة بقضية وطنية كبيرة كما قال ، ونصح السادة الثلاثة بالتعاون . وأحس الثالوث بالمهابة امام « الجنراليسمو » ، وبدا افراده على اهبة التسليم ، على الرغم من ان لوسّو أنكر فيما بعد انه وافق على ان يضع نفسه تحت قيادة لودندورف . وانطلق كار يهذر بضع دقائق ، في موضوع اعادة ملكية « الويتلباخ » ، وهو موضوع عزيز على فؤاده ، ثم اعلن اخيراً انه سيتعاون بوصفه « نائب الملك » .

وهكذا انقذ مجيء لودندورف في الوقت المناسب هتلر ، وسيطرت عليه موجة من الفرح لهذا الحظ الحسن ، فقاد الآخرين الى المنصة ، حيث ألقى كل منهم كلمة قصيرة ، واقسم يمين الولاء للعهد الجديد ولزملائه . وقفز الحشد على الموائد والمقاعد يصفقون ويهتفون في موجة هستيرية من الحماسة . واشرق وجه هتلر . وقال احد المؤرخين البارزين الذي شهد الحادث . . « لقد كان وجهه كالطفل يبدو عليه تعبير السعادة الواضح الذي لن انساه في حياتي » . [1]

وعاد هتلر يستقل المنصة ويلقي الكلمة الاخيرة على الحشد . .

« اريد ان احقق الآن الوعد الذي قطعته على نفسي قبل خمس سنوات ، عندما كنت عاجزاً ضريراً في المستشفى العسكري ، وهو ان لا اعرف الراحة ولا الهدوء الى ان تتم الإطاحة بمجرمي تشرين الثاني ، لنقيم على انقاض المانيا التعيسة اليوم ، المانيا جديدة تتميز بالعظمة والقوة والحرية والمجد » .

وبدأ الاجتماع ينفضّ . وقام هس في مدخل القاعة برفقة بعض جنود العاصفة باعتقال عدد من اعضاء الحكومة البافارية وغيرهم من الوجهاء الذين حاولوا التسلل

---

١ ـ كارل اليكساندر فون مولر . اقتبسه هايدن من الفوهرر . ص ١٩٠ .

مع الجماهير . وظل هتلر يراقب كار ولوسو وسيسر . وسرعان ما جاءت الانباء تقول بوقوع صدام بين جنود العاصفة التابعين لإحدى العصبـــات النضالية « بانداوبرلاند »وبين القوات النظامية في ثكنات فرقة المهندسين. وقرر هتلر ان يذهب بنفسه الى المكان وان يسوي الموضوع شخصياً ، تاركاً حانة الجعـــة في عهدة لودندورف .

وثبت فيما بعد ان هذه الخطوة ، كانت خطيئة قاتلة . فقد كان لوسو اول من تسلل من المكان ، متذرعاً للودندورف بوجوب المضي الى مكتبه في قيادة الجيش لإصدار الاوامر اللازمة . وعندمـا اعترض شوبنر – ريختر على ذلك ، قال لودندورف بصرامة : « انا امنعك من الشك في كلام ضابط الماني » ، وسرعان ما اختفى كار وسيسر ايضاً .

وعاد هتلر ، منتعش الفؤاد الى الحانة ليجد ان الطيور قد فرّت من القفص. وكانت هذه هي الضربة الأولى التي تلقاها في ذلك المساء ، فأصابته بالذهول . وكان قد توقع عن ثقـــة وايمان ، ان يجد « وزراءه » مشغولين في أداء مهماتهم الجديدة ، بينما يكون لودندورف ولوسّو يضعان الخطط للزحف على برلـــين . لكن شيئاً من هذا لم يحدث مطلقاً . فلم تكن القوات الثورية ، قد احتلت حتى مدينة ميونيخ نفسها. كان روهم على رأس فصيلة من جنود العاصفة الذين ينتمون الى عصبة مناضـلة اخرى « رايخز كريغز فلاغ » قـد استولى على مركز قيادة الجيش في وزارة الحربية في شارع « شونفيلد » ، ولكن اية قوات ثورية اخرى لم تكن قد احتلت أي مركز آخر ذي أهمية سوقيـة (استراتيجية) حتى دائرة البرق نفسها ، التي طيَّرت على اسلاكها انباء الانقلاب الى برلين ، فجاءت الأوامر من الفريق فون سيخت الى الجيش في بافاريا بإخماد الانقلاب .

وعلى الرغم من وجود بعض الانقسام في صفوف الجيش ، اذ ان عـدداً من صغار الضباط وبعض الجنود ، كانوا يعطفون على هتلر وروهم ، الا ان كبار الضباط بقيادة اللواء فون دانر ، قائد حامية ميونيخ ، لم يكونوا على استعداد فحسب لإنفاذ أوامر سيخت ، بل وكانوا متألمين للمعاملة التي لقيها الفريق فون

لوسو . وكان قانون الجيش يقضي بضرب أي مدني يجرؤ على تهديد « جنرال » بالمسدس ، بسلاح أي ضابط أو سيفه . وصدرت الأوامر من قيادة لواء المشاة التاسع عشر ، حيث كان لوسّو قد انضم الى دانر ، الى جميع الحاميات في خارج المدينة لإرسال النجدات في الحال . ولم يطلع الفجر حتى كانت قوات الجيش النظامي ، قد فرضت نطاقاً من الحصار على قوات روهم في وزارة الحرب .

وكان هتلر ولودندورف ، قبل هذا العمل قد انضما بعض الوقت الى روهم في وزارة الحرب ، للاطلاع على الموقف . واصيب روهم بما يشبه الصاعقة ، عندما علم انه كان الوحيد الذي قام بعمل عسكري ، واحتل مركزاً مهماً . وحاول هتلر جاهداً ، ولكن دون نتيجة ، اعادة الاتصال بلوسّو وكاروسيسّر . وأوفد الرسل الى مقر قيادة اللواء التاسع عشر باسم لودندورف ، ولكنهم لم يعودوا . وارسل بوهنر مدير شرطة ميونيخ السابق واحد مؤيدي هتلر الآن ، مع الرائد هوهنلاين على رأس جماعة من جنود العاصفة لاحتـــلال قيادة الشرطة . ولكن الجميع اعتقلوا هناك .

ترى ماذا حدث لغوستاف فون كار رئيس الحكومة البافارية ؟ لقد مضى بعد مغادرته حانة الجعة ، وبعد ان استعاد شجاعته وعقله ، يأمر بنقل الحكومة الى ريغنسبرغ ، مخافة الوقوع مرة ثانية في أسر هتلر وأوباشه . وفوراً أصدر اوامره برفع اعلانات في طول ميونيخ وعرضها تحمل البيان التالي :

« لقد حولت خيانة بعض الرفاق الطموحين ونذالتهم ، مظاهرة كان القصد منها بعث الروح القومية الى منظر من مناظر العنف الكريه الممجوج . واني اعلن ان البيانات التي صدرت عني وعن الفريق فون لوسو والعقيد فون سيسر تحت وطأة التهديد بالمسدس لاغيه وباطلة كما وأعلن حل حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني ، وحل العصبتين النضاليتين « اوبرلاند » و « رايخز كريغز فلاغ » ايضاً .

التوقيـع : **فون كار**

مفوض الدولة العام

وهكذا اخذ النصر الذي بدا في بدايـة المساء لهتلر قريباً وسهلاً ، يختفي بسرعة مع مضي الليل. وانهار الاساس للثورة السياسية الناجحة، الذي كان قد اصر على وجوده دائماً ، وهو تأييد المنظمات القائمة كالجيش والشرطة والفئات السياسية الحاكمة . واتضح الآن ان اسم لودندورف السحري لم يستطع كذلك التأثير على قوات الدولة المسلحة . واقترح هتلر ان في الامكان انقاذ الوضع اذا انسحب هو ولودندورف الى الريف القريب من روزنهايم لحشد الفلاحين وراء العصابات المسلحة والقيام بهجوم على ميونيخ ، ولكن لودندورف رفض الفكرة رفضاً قاطعاً .

وخيل اليه ايضاً ان ثمة احتمالاً آخر ، يمنع وقوع الـكارثة على الاقل. فعندما سمع ولي العهد الامير روبرخت ، وهو عدو شخصي عنيف للودندورف بنبأ الانقلاب لأول مرة ، اصدر بياناً قصيراً دعـــا فيه الى اخماد الفتنة فوراً ، وقرر هتلر الآن ان يناشد الأمير التدخل مع لوسّو وكار للحصول على تسوية سلمية كريمة ، فأوفد الملازم نونزين وهـــو صديق لهتلر وروبرخت في الوقت نفسه ، عند الفجر الى قصر ويتلباخ على مقربة من برختسغادن للقيام بالمهمة الدقيقة ، وعندما عجز عن العثور على سيارة تنقله ، انتظر القطار ، ولم يصل الى القصر الا عند الظهر ، وكانت الاحداث آنذاك قد اتجهت اتجاهاً لم يتوقعه هتلر ، كما لم يحلم لودندورف بامكان وقوعه .

كانت خطة هتلر تقوم على اساس الانقلاب لا الحرب الاهلية . وعلى الرغم من حالة الهياج المحمومة التي كان فيها ، الا انه كان مسيطراً سيطرة كافية على حواسه ليدرك انه يفتقر الى القوة الـكافية للتغلب على الشرطة والجيش . وكان يهدف الى القيام بثورة عن طريق القوات المسلحة لا ضدها . وعلى الرغم من تعطشه للدماء كما بدا في خطبه الأخيرة وابان الساعات التي احتفظ فيها باعضاء الثالوث تحت تهديد المسدس ، الا انه انكمش امام فكرة رؤية الرجال المتحدين في كراهيتهم للجمهورية يسفكون دم بعضهم البعض .

وكان هذا وضع لودندورف ايضاً . فهو يرغب كما قال لزوجته في ان يعلق

الرئيس ايبرت وشركاءه على حبال المشانق ، ولكنه لا يرغب في قتل الجنود والشرط ، في ميونيخ على الأقـــل ، لأنهم يؤمنون عـــين ايمانه في الثورة الوطنية المضادة .

واقترح لودندورف الآن على الزعيم النازي الشاب الغارق في حيرته خطة جديدة فكر بها ، يمكن لها أن تأتي لهما بالنصر وان تحول دون سفك الدماء . فلقد رأي ان الجنود الألمان ورجال الشرطة ولا سيما اولئك الذين كانوا جنوداً سابقين ، لن يجرأوا قط على اطلاق النار على القائد الاسطوري الذي قادهم الى انتصاراتهم العظيمة في الجبهتين الشرقية والغربية ، ولذا فقد اقترح ان يزحف هو وهتلر على رأس اتباعهما الى قلب المدينة لاحتلالها . وكان واثقاً من ان الجنود والشرط لن يكتفوا بعدم الاجتراء على معارضته ، بل انهم سينضمون اليه ويقاتلون تحت امرته . ووافق هتلر على الخطة رغم الشكوك التي ساورته ، فلم يعد ثمة سبيل آخر ، اذ لم يكن ولي العهد قد رد على طلب وساطته .

* * *

وقاد هتلر ولوندورف في الساعة الحادية عشرة من صباح التاسع من تشرين الثاني ، وهو يوم الذكرى السنوية لاعلان الجمهورية الألمانية ، رتلاً يعد نحواً من ثلاثة آلاف رجل من جنود العاصفة ، من حدائق حانة الجعة ، متجهين به الى قلب ميونيخ . وسار على مقربة منهما في المقدمة ، كل من غورنغ قائد جيش العاصفة وشوبنر – ريختر وروزنبرغ واولريخ غراف حارس هتلر الشخصي ، ونحو ستة من كبار النازيين وقادة العصبات النضالية . ورفع الرتل علم الصليب المعقوف وعلم « المانيا فوق الجميـع » في مقدمته . وسارت وراء الصف الأول شاحنة ملأى بالمدافع الرشاشة ومعها مدفعيوها . وحمل جنود العاصفة بنادق متدلية على اكتافهم وقد ركز بعضهم اسنة الحراب في مقدمتها . ومضى هتلر يلوّح بمسدسه . ولم تكن هـــذه القوة كبيرة ، ولكن لودندورف الذي قاد الملايين من خيرة الجنود الألمان اعتقد كما يبدو ، انها كافية لتحقيق اغراضه .

واصطدم العصاة على بعد نحو من مائة ياردة الى الشمال من الحانة بأول عقبة

تواجههم ، فقد وقفت فصيلة من رجال الشرطة المسلحين على جسر لودويغ القائم على نهر ايزار باتجاه قلب المدينـــة ، تسد الطريق على الزاحفين . قفز غورنغ وخاطب قائد الفصيلة مهدداً بقتل عدد من الرهائن قائلاً انهم في ذيل الرتل ، اذا اطلقت الشرطة نيرانها على رجاله . وكان هس وغيره قـــد جمعوا في الليل عدداً من الرهائن وبينهم اثنان من اعضاء الوزارة ، تحسباً لمثل هذا الوضع . وسواء أكان غورنغ صادقاً في تهديده او غير صادق ، فإن قائد الشرطة ، اعتقد بصدقه ، وسمح للرتل بالعبور على الجسر دون أن يعترض طريقه .

وواجه الرتل النازي عند مارييننبلاتز ، حشداً كبيراً من النـــاس كانوا يستمعون الى خطاب يلقيه جوليوس شترايخر عدو اليهود في نورمبرغ ، وكان قد سارع بالمجيء الى ميونيخ عندما بلغت اسماعه اول انباء الانقلاب . ولمـــا كان لا يرغب في البقاء بعيداً عن الثورة فقـــد اقتضب خطابه وانضم الى الثائرين ، قافزاً وراء هتلر .

واقترب الزاحفون بعيد الظهر من هدفهم ، وهو وزارة الحربية ، حيث كان جنود الجيش النظامي يطوقون روهم ورجاله من جنود العاصفـــة . ولم تكن العيارات النارية قد تبودلت بعد بين المحاصَرين والمحاصرين . فقـــد كان روهم ورجاله من الجنود المسرحين ، وكان لهم عدد كبير من رفاق الحرب بين الرجال العاملين على الطرف الآخر من الاسلاك الشائكة . ولم يكن أي من الفريقـــين راغباً في القتل .

واراد هتلر ولودندورف الوصول الى وزارة الحربيـــة وتحرير روهم من الطوق المفروض عليه ، فاجتازا برتلهما شارع «ريزيد انتشتراسه» الضيق ، الذي يصل الى ساحة «اوديون» وراء فيلد هيرنهال . وعندما وصل الرتل الى نهاية الشارع الذي يشبه الاخدود لضيقه ، وجد ثلة من رجال الشرطة تعد نحواً من مائة شرطي مسلحين بالبنادق تغلق الطريق ، ويرابطون في مواقـــع سوقية منيعة . وقد رفض هؤلاء ان يفسحوا المجال للرتل الزاحف .

وحاول النازيون مرة ثانية شق طريقهم بالاقنـــاع . وخرج اولريخ غراف

حارس هتلر الأمين من الصف وصاح مخاطباً قائد الشرطة ... « لا تطلقوا النار ان صاحب السعادة لودندورف يقودنا » . وقد تذكر هذا الثوري الألماني حتى في هذه اللحظة الحرجة ، والخطرة كل الخطورة ، على الرغم من انه لا يعدو ان يكون مصارعاً هاوياً ، ومحرضاً محترفاً ان يضيف الى السيد المحترم ما يستحقه من صفات الاحترام والتبجيل . واضاف هتلر صيحة أخرى ... وهتف بالشرط « استسلموا ! استسلموا ! » . ولكن ضابط الشرطة المجهول لم يستسلم . ويبدو ان اسم لودندورف لم يكن سحرياً بالنسبة اليه ، فهو شرطي لا عسكري من الجيش .

ولم يثبت قط من كان البادىء باطلاق النار ، فكل فريق ينحي باللائمة على الفريق الآخر . وقد شهد احد المتفرجين فيما بعد ان هتلر كان اول من اطلق النار من مسدسه . وقال شاهد آخر ، ان شترايخر كان هو الذي اطلق النار ، وان هذا العمل ، اكثر من أي عمل آخر ، فيما بعد هو الذي قربه من قلب هتلر ، وهي رواية ايدها اكثر من نازي واحد في احاديثهم الى مؤلف هذا الكتاب [1] .

على أي حال ، اطلق عيار واحد . وفي اللحظة التالية ، انهمر سيل من الطلقات من الجانبين فقضى في التو على آمال هتلر . وسقط شوبنر - ريختر مصاباً بجرح قاتل . ووقع غورنغ وقد اصيب بجرح خطير في فخذه . وتوقف اطلاق النار بعد ستين ثانية ، لكن الشارع كان قد امتلأ بالاجساد المتهاوية ، فقد قتل ستة عشر نازياً وثلاثة من الشرطة واصيب كثيرون بجراح ، بينما امسك الآخرون وبينهم هتلر بالرصيف منبطحين لإنقاذ ارواحهم .

وكان هناك استثناء واحد ، ولو حذا الآخرون حذوه ، لتبدلت نتيجة

---

١ - اعلن هتلر بعد عدة سنوات ، عندما وافق على تعيين شترايخر زعيماً نازياً لفرانكونيا رغم معارضة بعض رفاقه في الحزب : « قد يكون هناك واحد او اثنان لا يحبان شكل انف الرفيق شترايخر . ولكن عندما كان ينبطح الى جانبي في ذلك اليوم على رصيف فيلدهيرنهال ، أقسمت لنفسي ان لا اتخلى عنه قط ، طالما انه لا يتخلى عني » - (هايدن - هتلر - تاريخ حياة . ص ١٥٧) .

المعركة . فقد رفض لودندورف ان ينبطح على الارض ، وظل منتصباً ،متعجرفاً طبقاً لأروع التقاليد العسكرية والى جانبه مرافقه الرائد ستريك،شاقين طريقهما بهدوء عبر فوهات بنادق الشرطة حتى وصلا الى ساحة« اوديون » . ولا ريب في انه بدا في هذه اللحظة انساناً وحيداً وغريب الهيئة ، اذ لم يلحق بـه اي نازي حتى القائد الاعلى ادولف هتلر .

وكان المستشار المقبل للرايخ الثالث أول من طلب النجاة لنفسه . وكان قد شبك ذراعه اليسرى بالذراع اليمنى لشوبنر - ريختر (وهي ايماءة غريبة ولكنها تكشف عن اشياء كثيرة) ، عندما تقدم الرتل من سياج الشرطة ،وعندما سقط الاخير صريعاً ، جر هتلر معه الى الارض . ومن المحتمل ان يكون هتلر قد اعتقد بأنه قد اصيب بجراح اذ أحس بألم شديد تبين فيما بعد انه ناجم عن اقتلاع « كتفه » من موضعه . وتظل الحقيقة قائمة ، على أي حال ، طبقاً لشهادة احـد اتباعه النازيين في الرتل، وهو الطبيب وولتر شولز،التي أيدها شهود آخرون كثيرون ، على ان هتلر « كان اول من نهض عن الارض وتراجع » ، تاركاً رفاقـه القتلى والجرحى ، على ارض الشارع . وسرعان ما دفعه الرفاق الى سيارة تقف في الانتظار ، ونقل الى البيت الريفي الذي تملكه أسرة هانفستينغل في اوفينـغ ، حيث قامت على تمريضه زوجـة « بوتزي » وشقيقته ، وحيث اعتقـل بعد يومين اثنين .

واعتقل لودندورف فوراً. وكان قد أحس بالازدراء للثائرين الذين لم يجدوا الشجاعة الكافية في انفسهم للسير وراءه ، كما اشتد ألمه من الجيش الذي لم يسارع الى الوقوف الى جانبه ، حتى اعلن انه لن يعترف بعد ذلك اليوم بأي ضـابط الماني ، وانه لن يرتدي بعد ذلك اليوم بزته العسكرية . وحصل غورنغ الجريح على الاسعاف الأولي اللازم عند صاحب مصرف يهودي قريب نقل اليه فوراً ، ثم تولت زوجته تهريبه عـبر الحدود الى النمسا ، حيث نقـل الى المستشفى في اينزبروك . وفر هس ايضاً الى النمسا . واستسلم روهم في وزارة الحربية ، بعد ساعتين من انهيار الثورة في « فيلد هيرنهول ». ولم تمض بضعة ايام حتى كان جميع

قادة الثورة باستثناء غورنغ وهس قد اعتقلوا وأودعوا في السجن. وانتهت محاولة النازي الانقلابية الى فشل ذريع . وقامت السلطات بحل الحزب . وبدا للعيان ان الاشتراكية الوطنية قد انتهت وماتت . وبدا ايضاً ان زعيمها المطلق ، الذي فر عند اول سيل منهمر من العيارات النارية ، قد غدا محتقراً كل الاحتقار ، وان مستقبله السياسي الذي يشبه الشهاب الثاقب في سقوطه قد انتهى .

المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى

لكن الحوادث دلت على ان هذا المستقبل لم ينته فعلاً ، وانما انقطع مجرد انقطاع لفترة قصيرة . وكان هتلر ذكياً الى الحد الذي جعله يرى ان محاكمته ، بدلاً من ان تكون القاضية عليه ، ستؤمن له المنبر الجديد الذي يستطيع عن طريقه ، لا التشهير بالسلطات الخائنة التي ألقت القبض عليه فحسب ، بل وهذا هو الأهم ، ستضمن لاسمه لأول مرة ان يصبح معروفاً وراء حدود بافاريا ، بل وخارج حدود المانيا ايضاً. وكان يدرك تمام الادراك ان مراسلي الصحف العالمية ، بالاضافة الى كبريات الصحف الألمانية قد اخذوا يهرعون الى مونيخ لينقلوا انباء المحاكمة التي تقرر ان تبدأ في السادس والعشرين من شباط عام ١٩٢٤ امام محكمة خاصة تعقد جلستها في مدرسة المشاة القديمة في شارع « بلوتنبرغ ». وعندما انتهت المحاكمة بعد اربعة وعشرين يوماً ، كان هتلر قد أحال الهزيمة الى نصر ، وقاد كار ولوسو وسيسر الى الخراب ، بعد ان جعلهم يظهرون امام الرأي العام بمظهر شركائه في جريمته ، وأثّر على الشعب الألماني ببلاغته وبالتهاب وطنيته ، ووضع اسمه متألقاً على الصفحات الاولى من صحف العالم .

وعلى الرغم من ان لودندورف كان اكثر العشرة المتهمين شهرة ، الا ان هتلر سرعان ما اجتذب الأضواء لنفسه . وسيطر على قاعة المحكمة من اول ايام المحاكمة حتى آخرها . وكان فرانز غيرتز وزير العدل البافاري والصديق القديم والحامي للزعيم النازي ، قد ضمن ان يكون القضاة متساهلين وليّنين مع

المتهمين . وقد سمح لهتلر بمقاطعة اجراءات المحاكمة في اية لحظة يشاؤها ، وان يناقش الشهود ويعيد مناقشتهم متى اراد ، وان يدافع عن نفسه في كل وقت ، ومهما طال دفاعه . اذ استغرق بيانه الاستهلالي اربع ساعات ، ولم يكن الا البيان الأول من مجموعة من الخطب الطويلة .

ولم يكن يعتزم ارتكاب الخطأ الذي وقع فيه اولئك الذين حوكموا بتهمة الاشتراك في انقلاب « كاب » ، عندما ادعوا كما قال فيما بعد « انهم لا يعرفون شيئاً ولم يكونوا يعتزمون شيئاً أو يرغبون في شيء ، فقد كان هذا الموقف هو الذي حطم العالم البورجوازي ، اذ لم يجدوا في انفسهم الشجاعة الكافية للوقوف الى جانب عملهم ... وللاعلان امام قضاتهم . » اجل هذا ما اردنا عمله . لقد اردنا القضاء على الدولة » .

ووقف هتلر الآن أمام قضاته وامام ممثلي الصحافة العالمية في مونيخ يقول باعتزاز « انني احمل المسؤولية وحدي . ولكنني لست بالمجرم لأنني فعلت ما فعلت . واذا كنت اليوم أقف هنا ثائراً ، فان ثورتي انما تهدف الى محاربة الثورة . وليس ثمة ما يصح وصفه بالخيانة العظمى ضد من يحارب خونة عام ١٩١٨ » .

ولو كانت هناك خيانة ، لكان حرياً بالرجال الثلاثة الذين يرئسون الحكومة والجيش والشرطة في بافاريا والذين تآمروا معه ضد الحكومة المركزية ، ان يكونوا من المجرمين أيضاً كاجرامه ، وإن يقفوا معه في قفص الاتهام ، بدلاً من ان يقفوا في صف الشهود وفي مقدمة من يوجهون اليه الاتهام . وتمكن بدهاء وذكاء من قلب الاوضاع بالنسبة الى الثالوث القلق الذي يحس بوطأة الجريمة عندما قال :

« هناك شيء واحد مؤكد ، وهو ان لوسّو وكار وسيسر كانوا يهدفون الى عين الغاية التي نهدف اليها وهي الخلاص من حكومة الرايخ ... واذا صح اطلاق اسم الخيانة العظمى على مشروعنا حقاً، فان لوسو وكار وسيسّر كانوا طيلة الوقت كله يرتكبون إثم

الجريمة العظمى معنا ، اذ اننا طيلة هـــذه الاسابيع كلها لم نكن نتحدث الا عن الاهداف التي نقف اليوم متهمين بسببها » .

ولم يكن في استطاعة الرجال الثلاثة نكران ذلك ، فقد كان ما قاله هو الحقيقة بعينها . ولم يكن كار وسيسر ندّين لمواجهة سهام هتلر . أمـــا الفريق فون لوسو فقد دافع عن نفسه بتحدٍ واصرار وقال : « لم اكن صعلوكاً عاطلاً عن العمل ، وانما كنت احتل منصباً رفيعاً في الدولة » . وصب الجنرال كل ما في قلبه من ازدراء ضابط الجيش القديم على رأس عريفه السابق ، هذا الانسان الحديث الظهور والعاطل عن العمل ، الذي دفعـــه طموحه الهائل الى محاولة املاء اوامره على الجيش والدولة . واضاف ان هذا الغوغائي المغمور قد مضى بعيداً عن تلك الايام القريبة الماضية ، عندما كان جل ما يتمناه هذا الانسان ان يكون « هتافاً » أو « طبالاً » في حركة وطنية .

مجرد طبال ؟ لقد عرف هتلر كيف يرد على هذا القول :

« ما اتفه افكار صغار الرجـــال ! صدقوني ، انني لا اعتبر الحصول على حقيبة وزارية شيئاً يستحق الكفاح من اجـله . وانا لا ارى مما يجدر بالرجل العظيم ان يحاول الانطواء مع التاريخ عن طريق صيرورته وزيراً . فلعل مما يهدد الانسان بالخطر أن يـــدفن الى جانب الوزراء . لقد كان هدفي منذ البداية اسمى الف مرة من ان اصبح وزيراً . لقـد اردت ان اكون محطم الماركسية . وسأحقق هذه الغاية ، واذا مـــا حققتها فان لقب الوزير يصبح بالنسبة الي شيئاً تافهاً » .

وجاء بمثال واغنر تأييداً لقوله :

« وعندما وقفت اول مرة على مقربة من قبر ريتشارد واغنر ، امتلأ قلبي كبرياء واعتزازاً بهذا الرجل الذي رفض ان يكتب على قبره « هنا يرقد سعادة عضو المجلس الخاص ومدير الموسيقى البارون ريشارد فون واغنر » . وقد اعتززت بان هذا الرجل و كثيرين غيره

من الرجال في التاريخ الألماني اكتفوا بأن يقدموا اسماءهم مجردة من الألقاب الى التاريخ ، وهكذا لم يكن تواضعاً مني انني اردت ان اكون طبّالاً تلك الايام . فقد كان هذا أعلى هدف لي . أما البقية فع شيء يجانبه » .

وقد اتهم بأنه اراد ان يقفز من مكانة الطبـــال الى مكانة الحاكم المطلق او الديكتاتور . انه لا ينكر هذا الاتهام . فقد شاء له القدر ذلك :

« ان الرجل الذي يخلق لكي يكون ديكتاتوراً ، لا يكون مرغماً على ذلك . انها ارادته . وهو لا ينساق وراء الناس ، وانما هو الذي يسوق نفسه . وليس ثمـــة من شيء ينبو على التواضع في ذلك . فهل من الكبرياء في شيء ان يدفع العامل نفسه الى العمل الشاق ؟ وهل من الاصطناع والادعاء في شيء ان يقضي الرجل الذي يحمل رأس مفكر شامخ، لياليه حتى يقدم الى العالم اختراعاً ؟ وليس من حق الانسان الذي يشعر بأن القدر قد شاء له ان يحكم شعباً ، ان يقول : « اذا دعوتموني ، او اردتموني فسأتعاون معكم » . لا ان واجبه ان يتقدم مختاراً » .

وعلى الرغم من انه كان في قفص الاتهام يواجه احتمال الإدانة والحكم عليه بالسجن الطويل بتهمة الخيانة العظمى لبلاده ، فان ثقته بنفسه وبالنداء الموجه اليه « ليحكم شعبه » لم تضعف أو يصيبها وهن . وكان في فترة سجنه انتظاراً للمحاكمة قد حلل الاسباب التي ادت الى فشل الانقلاب ، وقد اقسم على ان لا يعود الى ارتكاب الخطأ نفسه في المستقبل . وعندمـا استعاد افكاره بعد ثلاثة عشر عاماً من تحقيقه لهدفه ، قـــال لأتباعه القدامى ، الذين اجتمعوا في حانة الجعة للاحتفال بالذكرى السنوية لمحاولة الانقلاب : «استطيـع ان أقول بهدوء ، انه كان القرار الأكثر تهوراً في حياتي . وعندما أعود بفكري اليه اليوم اصاب بالدوار . ولو قدر لكم اليوم ان تروا إحدى فصائلكم في عام ١٩٢٣ ، تسير في طريقها لساءلتم انفسكم « ترى من أي مشغل فر هؤلاء ؟ » ... لكن القدر كان

يخطط لنا شيئاً حسناً ، اذ لم يسمح لذلك العمل بالنجاح ، اذ لو نجح ، لتحطم في النهاية بصورة حتمية نتيجة ما امتازت به الحركة يومذاك من افتقار في داخلها الى النضوج ومن افتقار ايضاً الى الأسس التنظيمية والفكرية .. وقد ادركنا ان قلب الدولة القديمة ليس بالشيء الكافي ، وانما المهم هو ان تعد الدولة الجديدة مسبقاً وان تكون على اهبة ... وفي عام ١٩٣٣ ، لم تعد القضية موضوع قلب دولة عن طريق عمل من اعمال العنف ، وقد بنيت الدولة الجديدة في غضون ذلك ، وكل ما بقي علينا عمله ، هو ان نحطم آخر ما تبقى من الدولة القديمة ، ولم يستغرق هذا العمل منا أكثر من بضع ساعات » .

وعندما كان يصطرع مع قضاته ومع ممثلي النيابة ، كانت طريقة بناء الدولة النازية الجديدة قد تولدت في ذهنه . وهناك شيء مهم للغاية ، وهو ان يكون الجيش الألماني في المرة القادمة الى جانبه لا ضده . وعزف في دفاعه الختامي على فكرة التفاهم مع القوات المسلحة . ولم يوجّه أية كلمة لوم الى الجيش :

« واني لأعتقد ان الوقت سيحين عندما تتحد الجماهير التي تقف اليوم في الشارع حاملة صليبنا المعقوف مع اولئك الذين اطلقوا النار عليها ... وعندما عرفت ان الشرطة « الخضراء » هي التي اطلقت النار أثلج قلبي سروراً ، لأن الجيش لم يكن هو الذي لوّث ماضيه وصفحته ، وان هذا الجيش يقف اليوم كما وقف دائماً نقياً طاهراً لا يلوّث . وسيحين اليوم الذي يقف فيه الجيش ضباطاً وجنوداً الى جانبنا » .

وكانت هذه النبوءة صادقة ، ولكن رئيس المحكمة شاء ان يتدخل فقال : « يا هر هتلر ، لقد قلت ان الشرطة الخضراء ملوثة ، وهذا أمر لا اسمح لك به » .

ولم يكترث المتهم بالتحذير . ومضى متدفقاً في خطابه الذي أسر لباب المستمعين في قاعة المحكمة ، يقول كلماته الأخيرة :

« ان الجيش الذي شكلناه آخذ في النمو يوماً بعد آخر ... وانني أعيش على الأمل الفخور بأن اليوم سيحين عندما تكبر هذه

السرايا الصغيرة لتغدو افواجـــاً ، وتكبر الأفواج لتغدو ألوية ، والألوية لتصبح فرقـاً وعندما يرتفع شريط القبعة العسكرية القديم من الوحل ، وترفرف الأعلام القديمة من جديد ، وان يكون هناك تفاهم في النهاية ، بالنسبة الى الحكم السماوي العظيم الذي نحن على استعداد لمواجهته » .

والتفت بعينيه اللاهبتين الى القضاة مباشرة وقال :

« ولستم ايها السادة باولئك الذين من حقهم ان يصدروا الحكم علينا . ان الحكم سيصدر علينا من محكمة التاريخ السرمدية . وانا اعرف الحكم الذي قد تصدرونه . لكن تلك المحكمة لن توجه الينا السؤال التالي: « هل اجترمتم جريمة الخيانة العظمى أو لم تجترموها؟ » . وستحكم علينا تلك المحكمة ، على القائد العام لادارة الجيش القديم (لودندورف) وعلى ضباطه وجنوده ، باننا كنا ألماناً نريد فقط خير شعبنا ورفعة وطننا ، وان كنا جنوداً نريد ان نقاتل ونموت . وقد تقضون علينا بالإدانة الوف المرات ، ولكن آلهة محكمة التاريخ السرمدية ، ستبتسم ، وتمزق الى نتف ، مرافعة محامي الدولة ، وحكم هذه المحكمة ، وذلك لأنها ستقضي ببراءتنا » [1] .

ولم تكن احكام القضاة الحقيقيين اذا لم نقل ادانتهم ، بعيدة جداً عن حكم التاريخ كما يقول هايدن . فقد قضت المحكمة ببراءة لودندورف ، وادانة هتلر وبقية المتهمين. وبدلاً من ان يعاقب هتلر طبقاً للقانون بموجب المادة الواحدة والثمانين من قانون العقوبات الالماني التي تنص على « ان كل من يحاول ان يغير بالقوة دستور الرايخ الالماني او دستور أية ولاية المانية ، يعاقب بالسجن مدى الحياة » ، قضت عليه المحكمة بالسجن خمس سنوات في قلعة لاندزبرغ القديمة . وقد احتج القضاة المدنيون على صرامة الحكم وقسوته ، فأكد لهم رئيس المحكمة ،

١ـــ سجل المحاكمة منقول في « عملية هتلر » في كتاب « هايدن » الفوهرر .

ان السجين يصبح أهلاً لصدور العفو عنه بعد قضاء ستة اشهر في السجن . ولم تفلح الجهود التي بذلها رجال الشرطة لإبعاد هتلر عن البلاد بوصفه اجنبياً ، اذ كان لا يزال يحمل الجنسية النمسوية، واصبحت احكام مبرمة في الأول من نيسان عام ١٩٢٤ . وبعد أقل من تسعة اشهر أي في العشرين من كانون الاول ، اطلق سراح هتلر، ليستأنف نضاله لقلب الدولة الديموقراطية . ولم تكن عقوبة اقتراف الخيانة العظمى ، اذا كان مرتكبها من رجال اليمين المتطرف بالعقوبة القاسية على الرغم من القانون ، ولا ريب في ان الكثيرين من خصوم الجمهورية قد ادركوا هذه الحقيقة .

وعلى الرغم من فشل الانقلاب ، فقد جعل من هتلر شخصية قومية وخلق منه في عيون الكثيرين بطلاً وطنياً . وسرعان ما احالت الدعاية النازية هذا الانقلاب الى احدى الاساطير العظيمة للحركة النازية . وفي كل عام ، حتى بعد ان وصل هتلر الى الحكم ، وبعد ان نشبت الحرب الكونية الثانية ، كان الفوهرر يمضي عشية الثامن من تشرين الثاني الى حانة الجعة في ميونيخ ليخطب في رفاقه القدامى من رجال الحرس، الذين ساروا وراء الزعيم ، الى ما بدا انه كارثة جلى". وأمر المستشار هتلر في عام ١٩٣٥ ، بنقل رفاة الستة عشر نازياً الذين سقطوا في الاشتباك القصير الى مقبرة فخمة تم اعدادها في « فيلدرنهول » ، التي غدت صرحاً قومياً . وعندما دشن الزعيم هذا الصرح قال عن رفاقه « انهم يمضون الآن الى ساحة الخلود الألماني ، وهنا يقفون حراساً على المانيا وشعبها . انهم يثوون هنا شهوداً عدلا على حركتنا » . ولكنه لم يضف الى ذلك ، كما لم يذكر أي الماني كما يبدو ، انهم كانوا الرجال الذين تخلى عنهم هتلر ، ليموتوا ، عندما حمل نفسه حملا عن الرصيف فاراً من مكان المعركة .

* * *

وفي صيف ذلك العام ، أي عام ١٩٢٤ ، وفي قلعة لاندزبرغ القديمة الشامخة فوق ضفاف نهر ليش ، استدعى هتلر ، الذي كان يعامل كضيف عزيز ، له غرفته الخاصة التي تطل على منظر رائع ، بعد ان تخلص من زائريه الذين كانوا

يفدون ليقدموا اليه فروض الولاء والهدايا ، تابعه الأمين رودلف هس الذي كان قد عاد اخيراً الى ميونيخ ، حيث قضي عليه بالسجن ايضاً ، وشرع يملي عليه كتابه كفاحي ، فصلاً بعد فصل .[1]

١ ـــ كان اميل موريس المجرم السابق وصانع الساعات والقائد الاول لفرق «الذراع القوية» النازية يقوم بدور هس قبل وصوله الى السجن في كتابة ما يمليه الزعيم .

٤

عقل هتلر وجذور الرايخ الثالث

أراد هتلر أن يطلق على كتابه اسم « أربع سنوات ونصف من الكفاح ضد الأكاذيب والبلادة والجبن » . ولكن ماكس امان ، المدير العتيد لأعمال النشر النازية ، والذي تولى اصدار الكتاب ، رفض مثل هذا العنوان الثقيل ، الذي لا يستسيغه الذوق ، وأصر على اختصاره بكلمة « كفاحي » . وأحس أمان بخيبة الأمل من محتويات الكتاب ، فلقد كان يأمل في باديء الأمر بقصة شخصية أصيلة ، يتحدث هتلر فيها عن ارتقائه من ذلك العامل « المغمور » في فيينا إلى ذلك الزعيم ذي الشهرة العالمية . ولكن الكتاب ، كما ذكرنا سابقاً ، كان يخلو تقريباً من تأريخ الحياة . وطمع مدير أعمال النازيين أيضاً في قصة دقيقة تتناول النواحي الخفية من محاولة انقلاب حانة الجعة ، وما وقع فيها من تمثيل وخداع ، وأمل في أن يكون لها عدد ضخم من القراء . لكن هتلر كان في منتهى البراعة والذكاء في هذه الناحية ، لا سيما في هـذا الوقت العصيب الذي كانت حظوظ الحزب في أسوأ حالاتها ، ولم يرغب في إثارة الأحقاد القديمة[1] . ولذا فلم يشر في كتابه مجرد إشارة ولو عابرة إلى الانقلاب الفاشل .

---

١ — وكتب في نهاية المجلد الثاني يقول : «من العبث ان ننكأ جراحاً لم تكد تشفى بعد... ومن العبث ان نتهم بالجريمة رجالاً، كانوا في قرارة قلوبهم على الغالب، شديدي الاخلاص لبلادهم التي يحبونها حباً معادلاً لحبنا ، ولكنهم ضلوا الطريق ليس إلا او فشلوا في تبينها » .ولا ريب في

وطبع المجلد الأول في خريف عام ١٩٢٥. وبلغت صفحاته نحواً من أربعمائة صفحة ، وحدد سعره باثني عشر ماركاً (ثلاثة دولارات) ، وهو ضعف سعر معظم الكتب التي كانت تصدر في المانيا في تلك الآونة . ولم يغد الكتاب رائجاً وواسع الانتشار على الفور ، وقد تبجح أمان بأنه باع منه (٢٣) ألف نسخة في العام الأول ، وأن المبيعات استمرت في الارتفاع ، وهو ادعاء قوبل بالكثير من الشك في الأوساط المناوئة للنازية .

وفي الإمكان الآن بفضل تسلم الحلفاء في عام ١٩٤٥ للبيانات المتعلقة بمبيعات الكتب التي أصدرتها مؤسسة « ايهر فيرلاغ »، وهي دار النشر النازية ، الكشف عن الحقائق المتعلقة بالمبيعات الفعلية لكتاب « كفاحي » فقد بيعت من الكتاب في عام ١٩٢٥ ، تسعة آلاف وأربعماية وثلاث وسبعون نسخة وظلت المبيعات في هبوط سنوي للسنوات الثلاث التالية ، فقد بلغت (٦٩١٣) في عام ١٩٢٦ و (٥٦٠٧) في عام ١٩٢٧ و (٣٠١٥) في عام ١٩٢٨ ، وعاد الرقم إلى الارتفاع فبلغ (٧٦٦٤)في عام ١٩٢٩ ثم ارتفع مع صعود نجم الحزب النازي في عام ١٩٣٠، عندما صدرت طبعة رخيصة واحدة تضم المجلدين بثمانية ماركات فبلغ الرقم (٥٤،٠٨٦) وعاد إلى الهبوط إلى (٥٠،٨٠٨) في عام ١٩٣١ ثم إلى الارتفاع الكبير عام ١٩٣٢ إذ بلغ (٩٠،٣٥١) .

وكانت عائدات هتلر من بيع الكتاب ، وهي المصدر الرئيسي لدخله منذ عام ١٩٢٥ ، كبيرة إلى حد ما إذا ما قورنت بدخله في السنوات السبع الاولى ولكنها لا تقاس مطلقاً بالعائدات التي حصل عليها في عام ١٩٣٣ وهي السنة التي غدا فيها مستشاراً . ففي السنة الأولى من تسنمه الحكم بيع من الكتاب مليون نسخة ، وبلغت عائدات هتلر التي رفعت من عشرة إلى خمس عشرة في

ان مثل هذا القول، يصدر عن رجل كهتلر عرف بشدة حقده، يظهر تسامحا غير منتظر بالنسبة الى اولئك الذين سحقوا ثورته وزجوا به في السجن ، كما يبدو ايضاً ، بالنسبة لما حل بكارو والآخرين الذين اساءوا إليه فيما بعد ، بمثابة عرض لقوة الإرادة والقدرة على كبت عواطفه مؤقتاً لأسباب تكتيكية . لكنه على اي حال امتنع عن التقاذع والسباب .

المائة بعد الأول من كانون الثاني عام ١٩٣٣ ، أكثر من مليون مارك ، أي نحواً من ثلاثمائة ألف دولار ، وجعلت منه أعظم المؤلفين نجاحاً في المانيا ، ومليونيراً للمرة الأولى في حياته[1] . وإذا ما استثنينا التوراة ، لم يرج أي كتاب آخر ، رواج هذا الكتاب في العهد النازي ، إذ لم تكن أية أُسرة تشعر بالطمأنينة إلا إذا كانت نسخة من الكتاب موضوعة على مكتبتها . وكان من المفروض بل من آداب اللياقة أن تقدم نسخة من الكتاب إلى العروسين عند زواجهما كهدية من أقاربهما . وكان كل طالب من الطلاب يتلقى نسخة منه عند تخرجه من المدرسة التي ينتمي إليها . وقد بيع في عام ١٩٤٠ ، أي بعد سنة من نشوب الحرب الكونية الثانية ما يزيد على ستة ملايين نسخة من الانجيل النازي في المانيا وحدها . [2]

ولم يكن مجرد ابتياع نسخة « كفاحي » يعني ان مشتريها قد قرأها . وقد سمعت من أكثر من نازي واحد قوي الشكيمة ، متعصب لنازيته الشكوى من صعوبة قراءته . ويعترف الكثيرون سراً على الأقل ، بأنهم لم يستطيعوا مطلقاً اكمال قراءته حتى نهاية صفحاته البالغة (٧٨٢) . ولكن من المنطق أن يقال أنه لو كان عدد اللانازيين الذين قرأوه أكثر من حقيقتهم قبل عام ١٩٣٣ ، ولو كان ساسة العالم قد أمعنوا النظر فيه بعناية قبل أن يفوت الأوان ، لكان في الإمكان انقاذ المانيا والعالم بأسره من خطر الكارثة قبل وقوعها . إذ مهما وجهنا إلى هتلر من اتهامات فليس في وسع أي منا أن ينكر انه لم ضمّن كتابه صورة عن المانيا التي يعتزم إيجادها لو توصل إلى الحكم ، وطراز العالم الذي أراد خلقه عن طريق الاحتلال الالماني المسلح . ولا ريب في أن ملامح الرايخ الثالث والنظام البربري

---

١ — وقعت مشاكل لهتلر كغيره من الكتاب مع جبابرة ضريبة الدخل ، حتى اللحظة التي غدا فيها حاكم المانيا المطلق ، كما سنرى فيما بعد .

٢ — اقتبست الأرقام من حسابات شركة ايهر فيرلاغ وقد نقلها البروفسور آرون جيمس هول ونشرها في المجلة التاريخية الامريكية عدد تموز ١٩٥٥ تحت عنوان « ادولف هتلر — دافع الضرائب » .

الجديد الذي فرضه هتلر على أوروبا المحتلة في سنوات انتصاره بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، وقد ظهرا بوضوح وجلاء مفزعين وباسهاب وتفصيل بين دفتي هـذا الكتاب المستجلي للغوامض ، والكشّـاف للأمور .

وقد تكونت أفكار هتلر الرئيسية كما رأينا في السنوات الأولى من حقبـة العشرين من عمره عندما كان في فيينا ، وقد قرأنا له نفسه انه لم يتعلم شيئاً فيما بعد ، ولم يبدل شيئاً مما كان يفكر به . [١] وعندما ترك النمسا إلى المانيا في عام ١٩١٣ ، وكان في الرابعة والعشرين من عمره ، كان يلتهب بعاطفة حارقة للوطنية الألمانية وكراهية ساعرة للديموقراطية والماركسية واليهود ، وبالثقة المطلقة في أن العناية الآلهية قد اختارت الآريين ولاسيما الألمان منهم ليكونوا سادة الجنس البشري .

وقد أوضح آراءه في كتاب « كفاحي » وطبقها بصورة محـــدودة على المشكلة التي عالجها والتي لم تتناول إعادة المانيا المهزومة التي تسودها الفوضى إلى مكانتها اللائقة بها تحت الشمس أو إلى مكانة أسمى مما كانت عليه من قبل فحسب ، بل تناولت أيضاً إقامـــة طراز جديد من الدولة ، يستند إلى أساس العنصر ، ويضم جميع الألمان الذين كانوا يعيشون خارج حدود الرايخ ، وتكون السلطة المطلقة فيه للحاكم الفرد (الديكتاتور) وهو الزعيم ، مع جمع من الزعماء الأصغر منه حجماً ، يتلقون أوامرهم منه ، وينقلونها إلى من دونهم . وهكذا ضم الكتاب اولاً مخططاً للدولة الألمانية المقبلة وللوسائل التي تستطيع عن طريقها أن تغدو في يوم ما « سيدة العالم » ، كما يصفها المؤرخ في الصفحة الأخيرة من كتـابه ، كما ضم ثانياً ، وجهة نظر أو مفهوماً عن الحياة على حد تعبـير هتلر نفسه . وليس ثمة من حاجة إلى القول بأن هذه النظرة إلى الحياة تبدو لأي عقل عادي في القرن العشرين بمظهر المزيج الضخم الذي لا رابطة فيه والذي سلقه عقل مصاب بمرض العُصاب ، يفتقر إلى التعليم وناقص الثقافـــة ، ولا ريب في أن ما يضفي عليها الأهمية هو أن الملايين العديدة من الألمان قد آمنوا بها واعتنقوها بتعصب وحماسة ،

---

١ - منقولة من المجلة السابقة ص ٢١ .

وانها قد طوحت بهم إلى دمارهم النهائي ، كما أدت إلى دمار الملايين الكثيرة من البشر الأبرياء والشرفاء داخل المانيا وخارجها .

ولننظر الآن كيف خطط هتلر لكي يستعيد الرايخ الجديد مركزه كقوة عالمية ، لينتقل منه إلى مرحلة السيادة على العالم ؟ لقد شرح هتلر هذه القضية في المجلد الأول ، الذي كتب معظمه عندما كان في السجن في عام ١٩٢٤ ، ثم عاد إليها ليشرحها باسهاب أطول في المجلد الثاني الذي أتمه عام ١٩٢٦ .

ولقد رأى هتلر أولاً أن من الواجب تصفية الحساب مع فرنسا «العدو القتال المتزمت للشعب الألماني » . وقال ان الفرنسيين يهدفون إلى ايجاد « المانيا ممزقة ومحطمة . . أي إلى ايجاد مزيج من الدويلات الصغيرة . . » وأضاف ان هذا أمر واضح ذاتياً ، و « لو كنت فرنسياً . . لما تصرفت تصرفاً مغايراً لما فعله كليمنصو . . » ولهذا يجب أن يكون « ثمة حساب نهائي وفعال مع فرنسا . . عن طريق نضال حاسم . . وفي مثل هذه الحالة وحدها نستطيع أن ننهي النضال الأزلي والذي لا ثمرة له بيننا وبين فرنسا ، مفترضين سلفاً بالطبع ان المانيا تعتبر تدمير فرنسا حقاً كوسيلة ليس إلا ، تمكنها أخيراً وفيما بعد من أن تحقق لشعبها التوسع في مكان آخر » . [1]

التوسع في مكان آخر ؟ بهذه الطريقة يقودنا هتلر إلى نواة أفكاره عن سياسة المانيا الخارجية التي قرر أن يحاول تنفيذها بأمانة عندما يغدو حاكم الرايخ . فلقد قال بصراحة ان على المانيا ان تتسع شرقاً ، ولا سيما على حساب روسيا .

وقد تحدث هتلر في المجلد الأول من « كفاحي » طويلاً عن مشكلة « المجال الحيوي »(Lebensoraum) ، وهو موضوع ظل متسلطاً عليه إلى النفس الأخير من حياته . وقد أعلن أن امبراطورية الهوهنزلرن قد أخطأت في البحث عن مستعمرات لها في أفريقيا . «فسياسة امتلاك الأراضي لا يمكن تحقيقها في الكاميرون وإنما تحقق الآن بصورة مطلقة في أوروبا » . ولكن أرض أوروبا

---

١ – المقتبسات من كفاحي . ص . ص ٦١٩ ، ٦٧٢ ، ٦٧٤ .

محتلة كلها . وقد اعترف هتلر حقاً بذلك ولكنه قال « ولكن الطبيعة لم تحتفظ بهذه التربة لتتملكها في المستقبل أية دولة معينة أو أي شعب، وإنما هي على النقيض موجودة لكي يمتلكها الشعب الذي يتمتع بالقوة الكافية لامتلاكها» . ترى ماذا يحدث إذا اعترض على ذلك المالكون الحاليون ؟ « عندئذ يعمل قانون تنازع البقاء عمله، وما لا يمكن تحقيقه بالاساليب الودية يمكن تحقيقه بقوة السلاح» .[1]

ومضى هتلر يوضح ما تميزت به سياسة المانيا الخارجية قبل الحرب من عمى واضح فقال : «وكان امتلاك التربة الجديدة أمراً ممكناً في الشرق وحده ..وإذا كنا نرغب في أرض أوروبا فلا يمكن الحصول عليها وعلى نطاق واسع إلا على حساب روسيا . هذا يعني أن الرايخ الجديد ، يجب أن يهيىء نفسه ليسير على الطريق التي سار عليها فرسان التيوتون القدامى ، ولينال بالسيف الالماني ،التربة للمحراث الالماني والخبز اليومي للشعب » [2] .

واعتقد هتلر أنه لم يوضح نفسه ايضاحاً كافياً في المجلد الأول ، فعاد إلى الموضوع في المجلد الثاني وقال :

« لا يمكن لأي شعب أن يثق من حرية بقائه ووجوده إلا عن طريق الحصول على فسحة واسعة من الارض ... وعلى الحركة الاشتراكية الألمانية دون اكتراث « بالتقاليد » والحزازات ان تجد الشجاعة لتجميع شعبنا وحشد قوانا للتقدم على الطريق الذي سيقودنا من مجالنا الحيوي الراهن المحدود إلى أرض وتربة جديدتين .. وعلى الحركة الاشتراكية الوطنية أن تجاهد لإزالة عدم التناسب القائم بين عدد سكان بلادنا وبين مساحة منطقتنا ، ناظرة إلى هذه المساحة بوصفها مصدر الغذاء لنا ومصدر سياسات قوتنا .. وعلينا أن نتمسك بهدفنا بإصرار وعناد ... وأن نؤمن للشعب الألماني الارض والتربة اللتين يستحقهما » [3] .

---

١ – كفاحي – هتلر ص . ص ١٣٨ – ١٣٩ .
٢ – كفاحي – هتلر ص ١٤٠ .
٣ – كفاحي – هتلر ص . ص . ٦٤٣ ، ٦٤٦ ، ٦٥٢ .

ترى مـــا هي مساحة الارض التي يستحقها الشعب الألماني ؟ يقول هتـــلر بلهجة تنطق بالازدراء « ان البورجوازية التي لا تملك أية فكرة سياسية خلاقـة واحدة بالنسبة إلى المستقبل » ، كانت تصخب دائمـــاً ، مطالبة بعودة الحدود الألمانية إلى ما كانت عليه عام ١٩١٤ .

« والإلحـــاف على إعادة حدود عام ١٩١٤ ، سخافة سياسية ضخمة تبدو بالنسبة إلى نتائجها وكأنها جريمة . فلقد كانت هـذه الحدود في الحقيقة ، تخلو من كل احساس منطقي . إذ أنها كانت تفتقر في الواقع إلى الكمال من ناحية ضم الشعوب المنتمية للقومية الألمانية، وتفتقر الى المنطق من ناحية المصلحة الجغرافية العسكرية. ولم تكن هذه الحدود ثمرة عمل سياسي مدروس وإنما كانت حدوداً موقوتة في صراع سياسي لم يكن قد وصل إلى مرحلته الختامية بعد .. وفي وسعنا أن نختـــار سنة نموذجية أُخرى من التاريخ الألماني لها حق متعادل أو أكثر من التعادل ، وأن نعلن أن هدف سياستنا الخارجية هو إعـــادة الأوضاع إلى ما كانت عليه في تلك السنة » [١] .

وتعود « سنة هتلر النموذجية » إلى ستة قرون خلت ، عندما كان الألمـان يردون السلافيين إلى الوراء في الشرق . فمن الواجب استئناف الاندفاع شرقاً. « ونحن نعد اليوم ثمانين مليوناً من الألمان في أوروبا! ولا يمكن الاعتراف بصحة هذه السياسة الخارجية ، إلا إذا أصبح هناك نحو من مائتين وخمسين مليوناً من الألمان على ظهر هذه القارة في غضون قرن واحد » [٢] ، واشترط هتلر أن يكونوا جميعاً داخل حدود الرايخ الجديد والمتوسع .

ومن البديهي أن هناك عدداً من الشعوب ، التي يجب أن تفسح المجال لهذا العدد الضخم من الألمان . ترى ما هي هذه الشعوب ؟

---

١ - كفاحي - هتلر ص ٦٤٩ .

٢ - كفاحي هتلر ص . ٦٧٥

« وهكذا فعلينا نحن الاشتراكيين الوطنيين ... أن نستأنف ما انقطع قبل ستمائة عام . علينا ان نوقف الحركة الألمانية المستمرة نحو الجنوب والغرب ، وأن نتطلع إلى الارض الواقعة في الشرق ، مركزين عليها نظرنا .

« وإذا كنا نتحدث عن التربة في أوروبا اليوم ، فنحن لا نضع في فكرنا بصورة رئيسية إلا روسيا ودويلات الحدود التابعة لها » [١] .

ويشير هتلر إلى أن الحظ كان لطيفاً مع المانيا في هذه الناحية . فلقد سلّم روسيا إلى البلشفية ، التي تعني في رأيه ، تسليم روسيا الى اليهود . ويقول هتلر متفاخراً : « لقد غدت الامبراطورية الماردة في الشرق ناضجة للانهيار . وسيعني نهاية الحكم اليهودي في روسيا أيضاً نهاية روسيا كدولة » . ويستنتج هتلر من هذا أن السهوب العظيمة إلى الشرق يمكن احتلالها بسهولة عند انهيار روسيا ودون أن تكلف الألمان ثمناً باهظاً في الدماء .

فهل في وسع انسان أن يقول أن التخطيط هنا ليس واضحاً أو دقيقاً ؟ ان فرنسا ستدمَّر ، ولكن هذا أمر ثانوي بالنسبة إلى زحف الألمان شرقاً . وستؤخذ الأراضي المجاورة الى الشرق أولاً والتي يأهلها الألمان في مجموعها . فما هي هذه الأراضي يا ترى ؟ انها النمسا ، وأراضي السوديت في تشيكوسلوفاكيا والأقسام الغربية من بولندة وفيها دانزيغ . ثم يأتي دور روسيا نفسها . فلماذا أصيب العالم بالدهشة إذن ، عندما شرع المستشار هتلر بعد سنوات قليلة ليس إلا ، في تحقيق هذه الأهداف ؟ .

ولعل أفكار هتلر في طبيعة الدولة النازية المقبلة ، كانت أقل وضوحاً ودقة في كتابه « كفاحي » . لقد أوضح انه لن يكون هناك « سخف ديموقراطي » وأن مبدأ القيادة هو الذي سيتولى حكم الرايخ الثالث ، أي أن نظام الحكم سيكون فيها ديكتاتورياً مطلقاً . وليس ثمة أي بحث في الكتاب عن الشؤون

---

١ - كفاحي - هتلر - ص ٦٥٤ .

الاقتصادية . فلقد كان هذا الموضوع يضايق هتلر، ولم يكلف نفسه قط عناء تعلم شيء عنه، باستثناء التلهي بالأفكار المجنونـة التي جاء بها غوتفريد فيدر، المهووس الذي حمل على « عبودية الفائدة » .

وكان السلطان السياسي هو جل ما يهتم به هتلر، أما السلطان الاقتصادي ففي وسعه، أن يتحقق ذاتياً :

« ليس للدولة ما يهمها مطلقـاً في أي موضوع يتعلق بالمفاهيم الاقتصاديـة المحدودة أو الإنماء ... فالدولة تنظيم عنصري وليست بالتنظيم الاقتصادي ... وتتفق القوة الذاتية لأية دولة في الحالات النادرة فقط مع الرخاء الاقتصادي المزعوم، الذي يوضح في حالات كثيرة لا عد لها ولا حصر، دنو انهيار الدولة ... وتعرض بروسيا بوضوح عجيب، كيف ان الفضائل المثالية للدولة لا المزايا المادية لها هي التي تجعل تشكيلها أمراً ممكناً. ولا يمكن للحياة الاقتصادية ان تزدهر إلا في ظل حمـاية هذه الفضائل . ولم تتحسن الأوضاع الاقتصادية في المانيا طيلة تاريخها إلا في حالات الغليان في السلطان السياسي، ولكن عندما غدت الاقتصاديات هي سبيل الإرضاء الوحيد في حياة شعبنا الاقتصادية حاجبة الفضائل المثالية، انهارت الدولة، وجرت معها الى الانهيار في وقت سريع الحياة الاقتصادية .. وليس ثمة من دولة ارتكزت في نشوئها على الوسائل الاقتصادية السلمية »[١] .

ولهذا قال هتلر في خطاب ألقاه في ميونيخ في عام ١٩٢٣ : « ليس ثمة من سياسة اقتصادية ممكنة بدون سيف. ولا تصنيع بلا سلطان. وإذا ما استثنينا تلك السياسة الغامضة الفجة، وإشارة عابرة في كفاحي إلى «الغرف الاقتصادية» وإلى «غرف الاقطاعيات» وإلى «البرلمان الاقتصادي المركزي» الذي «سيعمل على الإبقاء على الاقتصاد الوطني في حالة العمل »، فقد امتنع هتلر عن التعبير

---

١ – كفاحي – هتلر ص ١٥٠ – ١٥٣ .

عن أي رأي عن الأساس الاقتصادي للرايخ الثالث .

وعلى الرغم من أن الحزب النازي كان يحمل اسم « الاشتراكي » فقد كان هتلر أكثر غموضاً تجاه طراز « الاشتراكية » الذي ارتآه لألمانيا . وليس هذا بالمستغرب إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تعريف « الاشتراكي » الذي أورده في خطاب ألقاه في الثامن والعشرين من تموز عام ١٩٢٢ :

« وكل من هو على استعداد ليجعل من القضية الوطنية قضية إلى المدى الذي لا يعرف فيه مثلاً أعلى من سعادة بلاده ، وكل من تفهم شعارنا الوطني ، « المانيا فوق الجميع » على اعتبار انه يعني بأن لا شيء في العالم الواسع يتفوق في رأيه على المانيا وشعبها وأرضها ، فهذا الرجل هو الاشتراكي » .[١]

* * *

ولم تحل المشورة الأدبية الكبيرة ولا حتى التشذيب والتهذيب من جانب ثلاثة مساعدين على الأقل ، بين هتلر وبين الانتقال من موضوع إلى آخر في كتاب « كفاحي » . وحاول رودلف هس ، الذي أملى هتلر عليه معظم الكتاب في سجن لاندسبرغ أولاً وفي بيت واخفيلد ، القريب من برخستغادن ، فيما بعد ، كل ما لديه من جهد ، ليجعل المخطوطة دقيقة ولكنه لم يكن من النوع الذي يستطيع الصمود للزعيم . وكان الأب برنار سيتمبفيل ، الراهب السابق في رهبنة القديس جيروم والصحفي المناوىء لليهود بصورة شريرة في بافاريا ، أكثر نجاحاً من هس في تحقيق هذه الغاية . وقام هذا القس الغريب الذي سنسمع عنه أكثر وأكثر في هذا التاريخ بتصحيح أخطاء هتلر اللغوية ، وتحسين طريقته الانشائية في الكتابة ، وشطب بعض الفقرات التي استطاع اقناع المؤلف بأنها غير صالحة من الناحية السياسية . وكان جوزيف كزيرني ، التشيكي الأصل ، هو المستشار الثالث ، وكان يعمل محرراً في صحيفة الفولكشاير بيوباختر النازية ، وقد حببته قصائده المناوئة لليهود إلى هتلر ، وكان كزيرني فعالاً في مراجعة المجلد الأول

---

١ – بالوك – مناقشات هتلر ص ٦٨ .

من كتاب « كفاحي » ، عند إعادة طباعته للمرة الثانية، وحذف منه أو ابدل بعض الجمل والكلمات المزعجة ، كما قام بتصحيح الاخطاء الطباعية في المجلد الثاني .

لكن معظم الالتواءات في الكتاب ظلت على حالها . فقد أصر هتلر على اطلاق أفكاره دون ضابط ، وحول كل موضوع ممكن ، من ثقافة وتربية ومسرح وسينما ، وروايات هزلية ، وفن وأدب وتاريخ وجنس وزواج ودعارة وأمراض تناسلية . وقد خصص هتلر عشر صفحات ضخمة للبحث في موضوع مرض الزهري ، معلناً ان مهمة الأمة، الاساسية لا الفرعية هي في القضاء عليه. وطالب هتلر بحشد جميع أجهزة الدولة الدعائية لمقاومة هذا المرض المخيف ثم قال : « ويتوقف كل شيء على حل هذه المشكلة » . وأضاف هتلر أن من الواجب القيام بحملة على الزهري وعلى الدعارة ، وذلك بتسهيل الزواج المبكر . ثم قدم لنا ما يراه من رأي في علم الانسال بالنسبة إلى الرايخ الثالث ، بالاصرار على « أن الزواج لا يمكن أن يكون غاية في حد ذاته بل يجب أن يخدم الغاية الاسمى وهي زيادة النسل والنوع الألماني وحفظه . وهذا وحده هو المعنى وهو الواجب » . [1]

ونصل بذكر حفظ النوع والعنصر في كتاب كفاحي إلى الاعتبار الرئيسي الثاني، وهو نظرة هتلر إلى الحياة « ويلتا نشونغ » ، التي رأى فيها الكثيرون من المؤرخين ولا سيما في انكلترا ، شكلاً فجاً وغير مصقول من أشكال النظرة الداروينيه ، Darwinism ، والتي لا تعدو في الواقع أن تكون ، كما سنرى فيما بعد ، فكرة تمتد جذورها عميقة في تاريخ المانيا وفكرها . ولقد رأى هتلر ، كما رأى داروين ، وسلسلة طويلة من فلاسفه الألمان ومؤرخيهم ، وملوكهم ، وقادتهم وساستهم ، إن الحياة كلها ، ليست إلا كفاحاً ازلياً ، وان العالم ليس إلا غابة ، يعيش فيها الأصلح ، ويحكم فيها الأقوى ، وانها « عالم يتغذى فيه كل مخلوق ، على مخلوقات أخرى ، ويعني

---

١ - كفاحي - هتلر ص . ص ٢٤٧ - ٢٥٣ .

موت الضعيف فيه حياة الأقوى » .

ويكتظ كتاب « كفاحي » بمثل هذه التعابير : « وفي النهاية لا يمكن إلا لدافع البقاء الذاتي أن ينتصر ويتغلب ... فقد نمت عظمـــة الجنس البشري في الكفاح الأزلي وهي لا تنتهي وتزول إلا في استمرار السلام الدائم ... والطبيعة ... تأتي بالمخلوقات الحية إلى هذا الكون ، ثم تشرع في مراقبة ما تقوم به القوى من انطلاقات . وسرعان ما تمنح حق السيادة لطفلها المحبوب ، وهو الأقوى في شجاعته ومثابرته .. وعلى الأقوى أن يسيطر وأن لا يختلط بالضعفاء ، مضحياً عن طريق اختلاطه بعظمته . ولا يمكن إلا للخائر بفطرته ،أن ينظر إلى هذه الأقوال على أنها تنطوي على القسوة.. » ويرى هتلر ان الحفاظ على الثقافة « مرتبط بقانون الحاجة المتزمت ،وبحق الأحسن والأقوى في العالم ، بالنصر . وعلى كل من ينشد الحياة ، أن يحارب ويناضل، في هذا العالم من الكفاح الأزلي ، أما اولئك الذين لا يريدون النضال في عالم الكفـــاح فلا يستحقون العيش. هذه هي الحقيقة على الرغم من قسوتها وصرامتها »[1] .

ولكن تُرى من هو « طفل الطبيعة المحبوب، القوي في شجاعته ومثابرته، الذي منحته العناية الالهية « حق السيادة » ؟ انه الرجل الآري . ونصل هنـا الآن في كتاب « كفاحي » إلى لباب الفكرة النازية القائلة بالتفوق العنصري ، وجوهر المفهوم النازي القائل بالعنصر السيد ، وهما المبدأ والمفهوم اللذان يقوم عليهما الرايخ الثالث ونظام هتلر الجديد في أوروبا .

« إن كل ما نراه حولنا اليوم من ثقافة إنسانية ومن نتائج الفن والعلم والتقنية ، هو النتاج الخلاق للجنس الآري . وهذه الحقيقـة نفسها تعترف بالاستنتاج الذي له ما يبرره ، وهو أن الآري وحده، هو المؤسس لكل مـا في الانسانية من رفعة ، ممثلاً لذلك الطراز الذي نفهمه من عبارة « الانسان » . فهو فرومينوس (مانح النور والنار في الأساطير اليونانية) الجنس البشري ، الذي انبثقت من

---

١ – كفاحي – هتلر ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ .

جبهته المتألقـــة ، الشعلة السماوية للعبقرية التي ظلت مضيئة طيلة الوقت ،مشعلة دائماً وبصورة متجددة نار المعرفة، التي أضاءت ديجور الغموض والخفايا الصامتة ، دافعة بالانسان إلى ارتقاء طريق السيادة على بقية مخلوقات العالم . . ولقدكان الآري هو الذي أقام اسس كل بناء عظيم في الثقافة البشرية وأرسى قواعده » . [١]

ولكن كيف حقق الآري كل هذا ، وغدا الانسان المتفوق على غيره ؟ يقول هتلر .. لقد حقق ذلك ، عن طريق تخطيه على الآخرين ووطئهم باقدامه. وقد استمرح هتلر كالكثيرين من مفكري الالمان في القرن التاسع عشر الفكرة الصادية ونقيضتها الماسوشية (Sadism and Masochism) [٢] التي وجـــد دارسو الروح الالمانية من الاجانب مشقة كبيرة في فهمها .

« وهكذا كان وجود النماذج الخفيفة من المتطلبـات الجوهرية جداً لتشكيل الثقافات الاكثر سمواً ... ومن المؤكد أن ثقافات البشرية الاولى كانت أقل ارتكازاً على الحيوانات الأليفـة منها على استخدام المخلوقات الانسانية الحقـــيرة الطراز . ولم يصب الحظ نفسه ، الحيوانات ، الا بعد استعباد الاجناس الخاضعة . ولقد جرّ المحارب المهزوم أولاً المحراث ثم جر وراءه الحصان . وعلى هـــذا فليس من قبيل الصدفة أن تظهر الثقافات الأولى في الأماكن التي تمكن فيها الآري بعد اشتباكه مع الشعوب الخفيضة من اخضاعها ، وحملها على إطاعة إرادته ... وقد ظل طيلة المدة التي احتفظ فيها دون رحمة واشفاق بموقف السيادة،السيد المطلق والحافظ والمنمّي للثقافة » [٣] .

---

١ – كفـــاحي – هتلر ص ٢٩٠ .

٢ – الصادية انحراف جنسي نسبة الى المركيز دي ساد الفرنسي (١٧٤٠ – ١٨١٤ ويميل المصاب به الى استعمال العنف اما الماسوشية (نسبة الى فون ساشر ماسوش (١٨٣٦ – ١٨٩٥) المؤلف النمسوي) وهو انحراف جنسي يشعر فيـــه المصاب بالمسرة من العبوديـــة لمن يحبه .

٣ – كفاحي — هتلر . ص ص ٢٩٥ — ٢٩٦ . المعرب

ووقع آنذاك شيء فسره هتلر على انه انذار إلى الالمان :

« وعندما شرعت الشعوب الخاضعة في الرفع من مستواها والاقتراب من مستوى مستعبديها، منتقلة الى المرحلة التي استخدمت فيها لغة هؤلاء المستعبدين ، أخذت الحواجز تنهار بين السيد والمسود » .

وكان هناك ما هو أسوأ من اشتراك المسودين في لغة السادة :

« وتخلى الآري عن نقاء دمه ، وفقد تبعاً لذلك اقامته القصيرة في الفردوس الذي أقامه لنفسه . وغدا غارقاً في مزيج عنصري ، ثم فقد بصورة تدريجية قوته الثقافية الخلاقة » .

وكانت هذه هي الخطيئة الضخمة بالنسبة الى الزعيم النازي الشاب :

« وأدى امتزاج الدم وما نجم عنه من هبوط في المستوى العنصري ، الى موت الثقافات القديمة وزوالها ، فالناس لا يفنون نتيجة الحروب الخاسرة ، وانما يفنون من ضياع قوة المقاومة التي لا يمكن استمرارها إلا مع وجود الدم النقي وجميع الذين لا ينتمون الى عنصر طيب في العالم هم من الترهات »[١] .

وكان اليهود والسلافيون من الترهات ، وعندما وصل هتلر مع مضي الزمن الى الحكم المطلق ، غدا ديكتاتوراً وفاتحاً ، وحرم التزاوج بين الألماني وبين أي من أبناء هذه الأجناس ، مع انه كان في وسع أية معلمة مدرسة ان تبلغه ان ثمة الكثير من الدم السلافي في الألمان ولا سيما الذين يقيمون منهم في المقاطعات الشرقية . ومن واجبنا ان نعترف ان هتلر في تنفيذ آرائه العنصرية كان شديد الاخلاص للعهود التي قطعها على نفسه . فقد تحتم على التشيكيين والبولنديين والروس وغيرهم من العناصر السلافية في الشرق ان يكونوا ابان الحرب وعند تطبيق النظام الجديد الذي بدأ هتلر في فرضه، والذي كان من المقرر ان يبقى لو ظل عهد هتلر قائماً ، أن يقوموا بقطع الاخشاب ، وجر المياه من الآبار

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر . ص ٢٩٦ .

لسادتهم الألمان .

وكانت خطوة هينة بالنسبة إلى انسان كهتلر ، جاهل بالتاريخ وعلم الأجناس البشرية ،أن يجعل من الألمان ،الآريين المعاصرين – وبالتالي الجنس السيد المسيطر . فلقد رأى هتلر في الالمان « النوع الاسمى من الاجنـاس البشرية الموجودة على سطح الكرة الارضية » ، وسيظلون كذلك « إذا لم يشغلوا أنفسهم بتربية الكلاب والجياد والقطط فحسب ، بل وعنوا بنقاء دمائهم » [1] .

وأدى وقوع هتلر تحت سيطرة الفكرة العنصرية إلى منـــاداته بالدولة « الشعبية » . ولم أستطع قط أن أفهم أي نوع من الدول هذه التي عناها هتلر ، على الرغم من قراءتي لكتاب « كفاحي » أكثر من مرة ومن استماعي إلى عشرات الخطب التي ألقاها هتلر نفسه عن الموضوع ، مع اني سمعت الديكتاتور يعلن أكثر من مرة ، أن هذه الدولة هي محور تفكيره كله . وليس في الوسع ترجمة كلمة (VOLK) الألمانية ترجمة دقيقة الى الانكليزية ، فهي كثيراً ما تعني « الأمة » أو « الشعب » ، ولكنها في الألمانية تملك معنى أكثر عمقاً ، وأبعد اختلافاً ، إذ تشير الى مفهوم المجتمع القبلي البدائي القائم على أساس الدم والتربة . وقد بذل هتلر جهده في كتابه « كفاحي » لشرح ما يعنيه وعانى مشقة بالغة في تعريف الدولة الشعبية ، قائلاً مثلاً في الصفحة ٢٧٩ من كتابه انه سيوضح « المفهوم الشعبي » ، ولكنه يشرد بعيداً عن هذا الإيضاح ، ويطوّف بعيداً في مواضيع كثيرة في صفحات عدة ، ثم يعود أخيراً إلى الموضوع قائلاً :

> « تجد الفلسفة الشعبية في تعارضهـــا مع العالمين البورجوازي والماركسي – اليهودي ، أهمية الجنس البشري في عناصره العنصرية الأساسية . فهي لا ترى في الدولة إلا واسطة تصل إلى غاية وتؤوّل غايتها بأنها الحفاظ على الوجود العنصري للانسان . وهي لهذا لا تؤمن بشيء يسمى المساواة بين الاجناس . بل تعترف بالاضافة إلى الفروق القائمة بينها بقيمها التي تتفاوت في الارتفاع والهبوط ، وتجد

---

١ – كفاحي – هتلر ص ٦٤٦ .

نفسها مضطرة لتشجيع انتصار العنصر الأفضـــل والأقوى ، والمطالبة باخضاع العنصر الأقل مرتبة والأضعف وجوداً ، طبقاً للإرادة الأزلية المسيطرة على الكون . وهكذا فهي تخدم من ناحية المبدأ الفكرة الارستقراطية الرئيسية للطبيعة وتؤمن بصلاح هذا القانون الى آخر فرد . وهي لا تكتفي برؤية القيم المختلفة للاجناس وإنما ترى أيضاً القيم المختلفة للافراد ، وهي تستخلص من الجميـــع أهمية الشخصية الفردية ... ويكون لها بذلك أثر تنظيمي . وهي تؤمن بضرورة استمثال الانسانية ، الذي ترى فيه وحده الفرضية للوجود البشري . ولكنها لا تستطيع أن تمنح الحق في الوجود حتى إلى فكرة أخلاقية إذا كانت هذه الفكرة تنطوي على خطر يهدد الحياة العنصرية لحاملي هذه الأخـلاق السامية . ففي عالم مستعهر ومستلون تضيع الى الأبد جميع المفاهـيم السامية والجميلة كما تضيع جميع الافكار المتعلقة بمستقبل مثالي للانسانية .

« وهكذا فإن الفلسفة الشعبية للحياة تصبح متماثلة مع الإرادة الذاتية والفطرية للطبيعة ، طالمـــا انها تعيد ذلك الانطلاق الحر للقوي الذي يجب أن يؤدي إلى تنشئة مستمرة ورفيعة ومشتركة ، إلى أن يجد خير ما في الإنسانية بعد تحقيق امتلاكه لهذه الارض ، منطلقاً حراً للنشاط في آفاق تقوم فوقـــه جزئياً وخارجه من ناحية ثانية .

« وعلينا أن ندرك جميعاً أن الانسانية في المستقبل البعيد يجب أن تواجه مشاكل ، لا يستطيع قهرها والتغلب عليها ، إلا العنصر الأسمى الذي يغدو العنصر السيد ، مدعوماً بكل ما في العالم من وسائل وممكنات »[1] .

ويمضي هتلر معلناً فيما بعد أن هذه الاهداف السامية للدولة الشعبية تغدو

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

مدار الاهتمام للحفاظ على هذه العناصر العنصرية الاصيلة ، التي تمنح الثقـــافة وتخلق الجمال والكرامة لجنس بشري ارفع »[1] . ويقوده هذا القول بعد ذلك الى موضوع يتعلق بالانسان من جديد فيقول .

« على الدولة الشعبية ان تضع قضية العنصر في محور الحياة كلها . وعليها ان تعنى العناية كلها بالإبقاء على نقـاء هذا العنصر . وعليها ان تضمن بأن يولد الاطفال للاصحاء فحسب ، هناك عـــار كبير ، وهو ان يأتي المريض والمصاب بالعاهات والعيوب باطفال الى هذا العالم ، وهناك شرف رفيع وسام وهو ان يمتنع مثل هؤلاء عن انجاب الاطفال . وعلى هذا الضوء يجب اعتبار كل من يمتنع عن انجاب الاطفال الاصحاء للأمة مذنباً ومسؤولاً . وهنا يتحتم على الدولة الشعبية ان تعمل كحارس للمستقبل لآلاف السنين ، وان تغدو رغبات الافراد وانانيتهم تفاهات لا قيمة لهـا ، وان تخضع لإرادة الدولة الشعبية التي يتحتم عليها ان تبدأ برفـــع الزواج من مستوى التلويث المستمر للعنصر ، وان تضفي عليه قدسيـــة النظام الذي يفترض فيه انتاج صور عن « الرب » ، لا مجرد اشكال مرعبة تقف وسطاً بين الانسان والقرد »[2] .

وقاده مفهومه المضحك العجيب عن الدولة الشعبية الى عـــدد ضخم من الاعتبارات الكلامية ، التي اذا اهتم بها المرء كما يقول ، ستوصل الألمان الى سيادة الكرة الأرضية ، لا سيما وقد غدت سيطرة الألمان فكرة متسلطة عليه . وهو يقول في مكان ما ان الفشل في الابقاء على نقاء الجنس الألماني ، «قد حرمنا من السيطرة العالمية . ولو كانت لدى الشعب الألماني وحدة القطيع الموجودة عند غيره من الشعوب لكان الرايخ الألماني اليوم وبدون شك سيد الكرة الارضية»[3] ، ولما كانت الدولة الشعبية تقوم على فكرة العنصر ، « فان على الرايخ الألماني ان

---

١ – كفاحي هتلر . ص ٣٩٤ .
٢ – كفاحي هتلر . ص ٤٠٢ – ٤٠٤ .
٣ – كفاحي ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

يحتضن كافة الألمان » وهذه هي النقطة المهمة في مناقشته ، وهي نقطة لم ينسها ولم يتغافل عن تنفيذها عندما وصل الى السلطان .

ولما كانت الدولة الشعبية ترتكز على « الفكرة الارستقراطية للطبيعة » ينتج عن هذا ان تغدو الديموقراطية خارجة عن الموضوع ، ويجب الاستعاضة عنها بفكرة القيادة المطلقة . وعلى الرايخ الثالث ان يتبنى فكرة الجماعية القائمة في الجيش البروسي ، والقائلة « بالسلطة لكل قائد من الاعلى والمسؤولية من القاعدة » .

« ويجب ان لا تكون هناك قرارات اكثرية بل اشخاص مسؤولون ... وسيكون لكل رجل حتماً مستشارون الى جانبه ، لكن القرار لا يصدر إلا عن رجل واحد ... فهو وحده الذي يملك السلطة والحق في السيطرة ... وقد لا يكون في الامكان التخلص من البرلمان . ولكن مهمة اعضائه ستكون في هذه الحالة استشارية ... ومن الواجب ان لا يقترع في أي من مجلسيه على القرارات . فمجالس البرلمان منظمات عاملة لا ادوات اقتراع . وسيؤدي هذا المبدأ القائم على اساس المسؤولية المطلقة مرتبطة بصورة غير مشروطة بالسلطة المطلقة ، الى تنشئة فئة مختارة من القادة كما هي الحالة اليوم ، وتغدو البرلمانية غير المسؤولة في هذا العهد امراً لا يفكر فيه انسان » .

هذه هي الأفكار التي وضعها ادولف هتلر ، في صورتها الفجّة المفزعة عندما كان يجلس في سجن لندسبرغ ، متطلعاً من نافذة غرفته الى حديقة ملأى بالزهور ، تطل على نهر ليش[1] ، او عندما كان يجلس فيما بعد في عام ١٩٢٥ — ١٩٢٦ ،

---

١ ـ علق هتلر فيما بعد قائلاً : « لو لم اسجن ، لما وضعت (كفاحي) قط . فلقد اتاحت لي تلك الفترة الفرصة لتعميق مختلف الافكار التي لم يكن لي بالنسبة اليها حتى ذلك الوقت سوى احساس غريزي ... ومنذ هذا الوقت ايضاً تولد لدي الاعتقاد الذي لم يستطع انصاري فهمه ابداً ، بأننا لن نستطيع قط الوصول الى الحكم عن طريق القوة . فلقد اتيح المجال الكافي من

مستلقياً على شرفة نزل مريح في برختسغادن ، ومتطلعاً عبر قمم الالب العالية الى مسقط رأسه في النمسا ، مملياً سيلاً جارفـــاً من الكلمات على خدينه الوفي رودلف هس وحالماً بالرايخ الثالث الذي سيقيمه على القواعد المقلّدة غير الاصيلة التي بحثناها ، والتي سيحكم بمقتضاها بقبضة يده الحديدية . ولم يكن لديه شك مطلقاً في انه سيبني هذا الرايخ ويحكمه في يوم ما ، اذ كان حائزاً لذلك الاحساس اللاهب بالرسالة التي يحملها ، والتي تكون من خصائص الكثيرين من العباقرة ، الذين يطلعون فجأة عبر القرون والاجيال ، من المجهول في المكان ، والغيب في الزمان . وسيقوم بتوحيد شعب مختار ، لم يكن في وقت من الاوقات في الماضي قد اتحد سياسياً . وسيعمل على تنقية عنصر هذا الشعب ، ويخلق منه قوة هائلة ، يجعلها سيدة هذا العالم .

هل هي داروينية فجة ؟ أو هل هي انانية تفتقر الى الاحساس بالمسؤولية ؟ أو هل هو جنون العظمة ؟. لا ريب في انها مزيج من كل ذلك ، بل انها لتعدو هذا المزيج ايضاً . فلقد كان لعقل هتلر وعواطفه ، ولجميع الانحرافات التي سيطرت على دماغه المحموم ، جذور عميقة في التجربة والفكر الألمانيين ولم تكن النازية والرايخ الثالث في الحقيقة الا استمراراً منطقياً للتاريخ الألماني .

الجذور التاريخية للرايخ الثالث

تعوّدت في تلك الايام المحمومة من المهرجانات السنوية التي كان يقيمها الحزب النازي في نورمبرغ في مطلع شهر ايلول من كل عام ، ان اجد التحية يبادرني بها حشد من البائعين الجوالين الذي يبيعون بطاقات مصورة تحمل صور فريدريك الاكبر وبسمارك وهندنبرغ وهتلر . وقد كتب على هذه البطاقات تحت الصور

الزمن للدولة لتثبيت اقدامها ، وكانت لديها الاسلحة » (مناقشات هتلر السرية ص ٢٣٥ وقد صرح بهذه الاقوال لبعض اخوانه في مركز قيادته في الجبهة الروسية مساء الثالث من شباط عام ١٩٤٢) .

العبارة التالية : « قام الأمير بتأليف ما احتله الملك ، وتولى المشير الدفاع عنه بينما تولى الجندي انقاذه وتوحيده ». وهكذا لم يصور الجندي هتلر على انه منقذ المانيا وموحدها فحسب ، بل صور كذلك على انه خليفة هذه الشخصيات المشهورة التي خلقت عظمة المانيا . ولم تغب عن بال الجماهير الألمانية الفكرة الموحية باستمرار التاريخ الألماني التي بلغت ذروتها في حكم هتلر . وجاء تعبير « الرايخ الثالث » معززاً لهذا المعنى ايضاً. فلقد عنى الرايخ الأول ، الامبراطورية الرومانية المقدسة في القرون الوسطى ، بينما عنى الرايخ الثاني ، الدولة التي اقامها بسمارك في عام ١٨٧١ ، بعد انتصار بروسيا على فرنسا . وقد اضاف الرايخان امجاداً الى الشهرة الألمانية ، وصورت الدعاية النازية ، جمهورية ويمار ، على انها قذفت باسم المانيا الرائع الى الحضيض والوحل . وقد أعاد الرايخ الثالث هذا الاسم تنفيذاً لوعد هتلر. وهكذا صوّرت المانية هتلر على انها تطور منطقي لكل ما وقع في الماضي ، أو لكل ما هو مجيد وعظيم .

لكن افـّاق فيينا السابق ، ادرك رغم ما في عقله من تشوّش وارتباك ، من التاريخ ، ما مكنـّه من معرفة بعض نواحي الفشل في المانيا ، وهو فشل يجب ان يوضع موضع المقايسة مع ما حققته فرنسا وبريطانيا من نجاح ، ولم يغب عن ذهنه قط ان المانيا كانت في نهاية القرون الوسطى ، على الرغم من ظهور بريطانيا وفرنسا دولتين موحدتين ، لا تزال ، اشبه ما تكون بقطعة القماش المرقّعة ترقيعاً مشوشاً مجنوناً ، اذ تضم نحواً من ثلاثمائة امارة منفصلة . ولا ريب في ان هذا الافتقار الى التطور القومي هو الذي قرر اتجاه سير التاريخ الألماني منذ نهاية القرون الوسطى حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وجعله مغايراً تمام المغايرة لتاريخ الدول العظمى الأخرى في اوروبا الغربية .

وقد اضيفت الى هذا الافتقار للوحدة السياسية ، والوحدة في التاج ، كارثة اخرى في القرنين السادس عشر والسابع عشر نجمت عن الخلافات الدينية التي تلت عصر الاصلاح الديني . ويضيق مجال هذا الكتاب مهما اتسع عن الحديث عن التأثير الهائل الذي تركه مارتن لوثر الفلاح السكسوني الذي غدا راهباً

« اوغسطينيا » والذي شرع في حملة الاصلاح الديني ، على الألمان وعلى تاريخهم اللاحق . ولكن يمكن القول قولاً عابراً بأن هذا العبقري الشامخ والشارد في آن واحد ، وهذا العدو المتوحش للسامية والكاره العنيف لرومة ، الذي جمع في شخصيته العاصفة الكثير من احسن طبائع الألمان واسوئها ، كالصلافة والغرور والتعصب وعدم التسامح والضعف مع الشرف والبساطة والاستقراء الذاتي والتعلق بالمعرفة والميل الى الموسيقى والسفر والحق ، قد ترك في حياة الألمان اثراً متناهي الاهمية في خيره وشره، اثراً يفوق ما تركه أي فرد آخر منذ ذلك التاريخ في ثباته واستمراره وقدريته . ولقد خلق لوثر في مواعظه وفي ترجمته الرائعة للانجيل اللغة الالمانية الحديثة،واثار لدى الشعب رؤيا بروتستانتية جديدة عن المسيحية ، بالاضافة الى احساس ملتهب بالقومية الالمانية وعلمه ما للضمير الفردي من تفوق . ولكن من المفجع لهذا الشعب ، ان وقوف لوثر الى جانب الامراء ابان ثورات الفلاحين التي كان هو الملهم لها الى حد بعيد ، وعطفه على الاوتوقراطية السياسية ، قد خلقا نوعاً من الاطلاقية السياسية الاقليمية الخالية من الوعي والتفكير ، التي عملت على الهبوط بغالبية الشعب الألماني الى درك الفاقة والى التبلـُد المرعب ، والعبودية المذلـَّة . وقد عملت هذه الاطلاقية على الوصول الى نتيجة اسوأ، اذ ساعدت على استمرار الخلافات اليائسة القائمة لا بين الطبقات فحسب بل وبين الفئات السياسية والمالكة المختلفة في الشعب الالماني ، وزيادة حدتها . وقضت لعدة قرون على كل امل في وحدة المانيا .

وجاءت حرب الثلاثين سنة ومعاهدة ويستفاليا التي عقدت في عـام ١٦٤٨ في نهايتها بالكارثة النهائية لألمانيا ، وكانت الضربة من القوة في اثرهـا المخرب الهدام بحيث لم تتمكن البلاد قط من النقاهة من اثرها . ولقد كانت هذه الحرب آخر ما وقع في اوروبا من حروب دينية ، ولكنها تحولت قبل نهايتها مـن صراع كاثوليكي – بروتستانتي الى نضال مشوش بين اسرة هابسبورغ النمسوية الكاثوليكية من ناحية واسرة البوربون الكاثوليكية والملكية السويديـة البروتستانتية من الناحية الأخرى . وقد تحولت المانيا نفسهـا الى ارض خراب

يباب اثناء القتال الوحشي العنيف ، وتحولت المدن والارياف الى مناطق يعمها التدمير كما في الشعب وابيد فيها . ويقدر المؤرخون ان ثلث الشعب الألماني قد ابيد ابان هذه الحرب البربرية .

وكانت معاهدة ويستفاليا لا تقل في هولها وكارثتها بالنسبة الى مستقبل المانيا عن الحرب نفسها . وقد ثبت الأمراء الألمان الذين وقفوا الى جانب فرنسا والسويد ، كالحكام المطلقين في مقاطعاتهم الصغيرة ، وبلغ عددهم نحواً من ثلاثمائة وخمسين اميراً مع بقاء الامبراطور كمجرد رأس رمزي بالنسبة الى هذه الاراضي الالمانية . وخمدت روح الاصلاح والبحث عن المعرفة ، التي عمت المانيا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر . وكانت المدن الحرة العظيمة قد تمتعت بالاستقلال الاسمي في تلك الفترة ، اذ اختفى نظام الاقطاع منها ، وازدهرت التجارة والفنون فيها . وتمكن الفلاح الالماني في الريف من تأمين حريات لنفسه اوسع من تلك التي تمتع بها فلاحو انكلترا وفرنسا . وكانت المانيا في مطلع القرن السادس عشر ،أحد الينابيع الرئيسية للحضارة الاوروبية .

وقد انحطت المانيا بعد صلح ويستفاليا الى الاوضاع البربرية الموسكوفية . فاعيد نظام رقيق الارض ، وفرض حتى في المناطق التي لم تكن تعرفه من قبل . وفقدت المدن استقلالها الذاتي . وقام الامراء باستغلال الفلاحين والعمال وحتى مواطني المدن من ابناء الطبقة الوسطى ، وفرضوا عليهم اوضاعاً من العبودية وتوقفت عملية الجري وراء المعرفة والفنون . ولم يكن لدى الحكام الطامعين اي احساس بالقومية الالمانية او الوطنية ، واخفتوا كل مظهر من مظاهرهما لدى رعاياهم . وتوقف ركب الحضارة عن السير في المانيا . واستقر وضع الرايخ ، كما قال احد المؤرخين « بصورة مصطنعة ، عند مستوى القرون الوسطى من ناحية الضعف والارتباك » . (١)

ولم تستفق المانيا قط من هذه النكسة . وغدا تقبل الاوتوقراطية ، والطاعة

---

١ – اي . هي . لي . تيلو ـ سير التاريخ الالماني ص ٢٤ .

العمياء لصغار الطغاة الذين يحكمون كأمراء، جزءاً من العقل الالماني، ولم تتفجر في المانيا فكرة الديموقراطية والحكم عن طريق البرلمان ، وهي الفكرة التي خطت خطوات حثيثة الى الامام في انكلترا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم تفجرت في فرنسا في عام ١٧٨٩ . وادى هذا الى الانحطاط السياسي عند الالمان المجزئين الى عدد ضخم من الولايات الصغيرة ، والمعزولين عن التيارات الدافقة للفكر الاوروبي والتطور ، الى ابقاء المانيا بعيدة بل ومتأخرة عن غيرها من البلاد الاوروبية في الغرب. ولم يقم فيها نمو طبيعي في طريق تشكيل الأمة. وعلينا ان نأخذ هذه الحقائق بعين الاعتبار اذا اردنا ان نتفهم الطريق المفجع الذي سار فيه هذا الشعب فيما بعد ، والحالة العقلية الملتوية التي سيطرت عليها . وقد تمت صياغة الأمة الالمانية في النهاية بفضل القوة العارية ، وتم الحفاظ على وحدتها بفضل العدوان العاري ايضاً .

* * *

وتقع بروسيا الى الشرق من نهر الالب . وعندما سار القرن التاسع عشر في طريق الذبول والنهاية بعد ان شهد الفشل المؤسف الذي مني به احرار فرانكفورت الجبناء والمشوّشون ، في خلق المانيا موحدة وديموقراطية الى حد ما في عامي ١٨٤٨ — ١٨٤٩ ، تولت بروسيا الدور القيادي في تقرير مصير المانيا . وكانت هذه الولاية الالمانية طيلة القرون الماضية تعيش خارج التيار الرئيسي للتطور التاريخي الالماني والثقافة الالمانية . وبدت هذه الولاية وكأنها نزوة من نزوات التاريخ ، فقد استهلت عهدها كمقاطعة نائية تقع على الحدود تسمّى «براندنبرغ» وتقوم على الاراضي الرملية الجرداء الى الشرق من نهر الالب ، يحتلها السلافيون احتلالاً بطيئاً في مستهل القرن الحادي عشر . وقام الامراء الحاكمون في براندبرغ ، بصد الهوهنزلرن الذين لم يكونوا اكثر من مجرد مغامرين حربيين ، والسلافيين ومعظمهم من البولنديين الى الوراء ، بصورة تدريجية على ضفاف البلطيق . أما الذين قاوموا ، فقد كان مصيرهم اما الإبادة أو التحول الى رقيق لا ارض لهم وكان القانون الامبراطوري للامبراطورية الالمانية يحول بين الامراء

وبين التسمّي بالالقاب الملكية ، ولكن الامبراطور اذعن في عام ١٧٠١ ليسمح بتتويج المنتخب الامير فريدريك الثالث ملكاً على بروسيا في كونيغزبرغ .

وكانت بروسيا في هذه الآونة قد رفعت من شأنها بواسطة فرسانها ، لتغدو احدى القوى العسكرية الأولى في اوروبا . وبالطبع لم تكن لديها الموارد المتوافرة للدول الأخرى ، فأرضها قاحلة وخالية من المعادن تماماً ، وكان عدد السكان فيها قليلاً ، وليس فيها مدن ضخمة او صناعة او ثقافة . وكان النبلاء فيها فقراء ، اما الفلاحون الذين لا ارض لهم ، فكانوا يعيشون كقطعان الماشية ولكن ما تميز به آل هوهنزلرن من ارادة حديدية وعبقرية في التنظيم ، مكنهم من ان يخلقوا دولة عسكرية اسبارطية ، حقق جيشها المدرب أحسن تدريب النصر تلو النصر ، وجاءت لها دبلوماسيتها المكيافلية المستندة الى اقامة المحالفات مع الدول التي تبدو قوية ، بالمكاسب الاقليمية .

وهكذا نشأت دولة مصطنعة كل الاصطناع ، لا تدعمها أية قوة شعبية ، ولا يقوم وراءها اية فكرة إلا فكرة الاحتلال والسيطرة ، تحفظ لها قوة الحاكم المطلقة وحدتها ، وتقف وراءه طبقة بيروقراطية ضيقة الافق تنفذ اوامره ، تستند الى جيش رائع الانضباط يتميز بالقسوة . وكانت هذه الدولة تنفق ثلثي موازنة دخلها السنوي واحياناً خمسة اسداسها على الجيش الذي غدا هو الدولة في ظل الملك . ولقد قال ميرابو ذات يوم : « ليست بروسيا بالدولة التي تملك جيشاً ، وانما هي جيش يملك دولة » . وغدت الدولة التي تسير كالمصنع تماماً في كفايته وخلوه من الحياة ، كل شيء ، ولم يعد الشعب فيها الا مجرد « اسنان في آلة » . وانضم الفلاسفة الى الملوك والى عرفاء التدريب في تعليم افراد الشعب ، بأن دورهم في الحياة لا يعدو والطاعة والعمل والتضحية والواجب . وقد بشر حتى « كانت » نفسه بان الواجب يتطلب اخماد العواطف الانسانية ... ومجّد الشاعر البروسي ديليبولد اليكسيس ، عبودية الشعب في ظل الهوهنزلرن . أما ليسينغ الذي لم يرتح الى هذا الوضع فقد وصف بروسيا » .. بأنها اكثر بلاد في اوروبا عبودية » . وكانت طبقة النبلاء الشبان « اليونكرز » التي قدر لها ان تلعب دوراً حيوياً

في المانيا الحديثة ، ثمرة فريدة من نوعها في بروسيا . فلقـد كانت تمثل على حد تعبيرهم ، عنصراً سيداً . وكان هؤلاء النبلاء هم الذين استولوا على الارض التي احتلوها من السلافيين ، وزرعوها على اساس الاقطاعيات الكبيرة التي يعمـل فيها هؤلاء السلافيون الذين غدوا رقيقاً لا ارض له ، يختلف كثيراً عن الرقيق في الغرب . ولقد كان هناك خلاف جوهري بين النظام الزراعي في بروسيا والنظام المتبع في المانيا الغربية واوروبا الغربية كلها . فلقد كان النبلاء في الغرب ، الذين يملكون معظم الاراضي ، يتقاضون اجوراً أو رسومـاً اقطاعية من الفلاحين ، الذين على الرغم من بقائهم في حالة الرق كانوا يتمتعون ببعض الحقوق والامتيازات . وكان في وسعهم كما فعلوا حقاً ان يحصلوا بصورة متدرجة على الارض وعـلى حريتهم المدنية . وكان الفلاحون يؤلفون في الغرب جزءاً ثابتاً من المجتمع ، وكان سادة الارض على الرغم من جميع عيوبهم قد انموا في اوقات فراغهم ثقافات ادت الى طراز متمدن من الحياة بالاضافة الى امور اخرى ، وقد بدا هذا الطراز واضحاً في تهذيب العادات وفي الفكر والفن .

اما النبيل الالماني ، فلم يكن من رجال اللهو والفراغ . فهو يعمل بكد وجد في ادارة اقطاعيته الضخمة ، تماماً كما يفعل مدير المصنع اليوم . أما عماله الذين لا ارض لهم ، فلا تفوق معاملتهم معاملة العبيد تماماً . والنبيل هو السيد المطلق في مقاطعاته الواسعة . ولم تكن عنده مدن ضخمة أو طبقة وسطى كبيرة كما هي الحالة في الغرب يؤدي احتكاكه بها ، الى تأثره بحضارتها . واذا ما رسمنا مقارنة بين السيد الكبير المهذب في الغرب وبين النبيل الالماني ، تبين لنا ان الطبقة التي ينتمي اليها الاخير قد تطورت الى طراز من الناس الافظاظ والمحبين للسيطرة والمبالغين في العجرفة ، دون ان يتميزوا بأي ثقافة أو تهذيب ، مـع ميل الى الاستفزاز والعدوان والغرور والقسوة وضيق العقل والسعي الى جني الارباح التافهة مما دعا أحد المؤرخين الألمان الى ملاحظة كل هذه الخصال في الحياة الخاصة لأوتو فون بسمارك ، الذي اعتبره اكثر النبلاء في حياته .

ولقد كان هذا العبقري السياسي الذي بشر بسياسة « الدم والحديـد » هو

الذي تمكن بين عامي ١٨٦٦ و ١٨٧١ من انهاء حالة التجزئة في المانيـــا التي استمرت نحواً من الف عام مستعيضاً عنها بطريق القوة ببروسيا الكبرى أو ما يمكن تسميته بالمانيا البروسية . ولا ريب في ان المخلوق الفذ الذي لا مثيل له ، الذي اوجده بسمارك ، هو المانيا التي عرفناها في عصرنا ، والتي غـدت الطفلة المشكلة لأوروبا وللعالم باسره قرابة قرن كامل ، اذ ضمت شعباً موهوباً وكثير الحيوية ، تمكن من أن يجسد فيه هذا الرجل البارز أولاً ليتبعه القيصر غليوم الثاني وهتلر اخيراً ، ومعهم طبقة بارزة من العسكريين وفئة غريبة من المثقفين ، شهوة قاتلة للسلطان والسيطرة ، ورغبة عارمة في العسكرية التي لا كابح لها ، واحتقاراً شديداً للديموقراطية وحرية الفرد وتعطشاً للسلطة وفلسفة تفضيـــل الطاعة العمياء على الحرية الشخصية . وتمكن هذا الشعب ، تحت سيطرة هـذا السحر الجديد من الارتقاء الى اشمخ الذرى ، ثم هوى ليرتفع ثانية ، حتى بدا وكأنه قد دمـّر نهائياً بانتهاء هتلر في ربيع عام ١٩٤٥ ، على الرغم من تعذر الجزم بذلك حتى الآن .

وقد اعلن بسمارك عندما اصبح رئيساً لوزراء بروسيا عام ١٨٦٢ : « ان اعظم مشاكل العصر ، لا يمكن ان تحـــل عن طريق القرارات واقتراعات الاغلبية ، وهي الطريق التي اخطأ في اتباعها رجال عامي ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، وانما عن طريق الحديد والدم » . وكان هذا هو السبيل الذي اختاره لحل هذه المشاكل ، مع الاعتراف بانه اضاف اليه لمسة من الذوق الدبلوماسي الذي تغلب عليه طبيعة المكر والخداع . وقد هدف بسمارك الى تحطيم الليبرالية ، ودعم سلطات الرجعية ، أي سلطات النبلاء والجيش والتاج ، والى ان يجعل من بروسيا مقابل النمسا ، القوة المسيطرة ، لا بين الالمان فحسب ، بل وعلى كل اوروبا ان امكنه ذلك ايضاً . ولقد قال متحدثاً الى النواب في البرلـمان البروسي : « ان المانيا لا تتطلع الى ليبرالية بروسيا ، بل الى قوتها العسكرية » .

وكان بسمارك أول من بنى الجيش البروسي ، وعندما رفض البرلمان تصديق الاعتمادات الاضافية التي طلبها لتحقيق هذه الغاية ، أمر بسمارك بتنفيذها من

نفسه وحل البرلمان . ولما تأكد من وجود الجيش القوي الى جانبه ، شرع يوجه الضربات في ثلاث حروب متتالية . وكانت حربه الأولى ضد الدانمـارك في عام ١٨٦٤ التي اقتطع منهـا دوقيتي شلزويج وهولشتاين وضمها الى السيطرة الألمانية . ثم وجـه حربه الثانية ضد النمسا في عام ١٨٦٦ ، فجاءت له بنتائج واسعة النطاق ، اذ تمكن من اخراج النمسا التي ظلت عدة قرون الدولة الأولى بين الدويلات الالمانية من حظيرة الشؤون الالمانية ، ولم يسمح لها بالانضمام الى الاتحاد التعاوني (كونفيداريشين) الذي شرع بسمارك في اقـامته الآن في شمال المانيا .

لقد كتب ولهلم روبكه العالم السياسي الألماني البارز يقول : « لقد انتهت المانيا من الوجود في عام ١٨٦٦ » . فقد تمكنت بروسيا من ان تضم اليها كافة الامارات الألمانية الى الشمال من نهر المين والتي كانت قد حاربتها كلها باستثناء سكسونيا ، وكان بين هذه الامارات هانوفر وهيسّي وناساو وفرانكفورت وايلبي . وارغمت جميع الامارات الاخرى الواقعة الى الشمال من نهر المين على الانضمام الى الاتحاد التعاوني الألماني الشمالي . وسيطرت بروسيا التي امتدّت الآن من الراين الى كونيغسبرغ على هـذا الاتحاد سيطرة كاملة ، وتمكنت في غضون خمس سنوات ، وبعد ان هزمت فرنسة نابليون الثالث ، من جر جميـع الامارات الالمانية الجنوبية وفي مقدمتها مملكة بافاريا المهمة الى المانية بروسيا[١] .

وحقق بسمارك اعظم اعماله ، وهو خلق الرايخ الثاني في الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٨٧١ ، عندما توج ولهلم الأول ملك بروسيا ، امبراطوراً على المانيا في قاعـة المرايا في قصر فرساي . وهكذا توحّدت المانيا بفضل القوة المسلحة البروسية ، وغدت الآن اعظم قوة في القارة الأوروبية ولا تنافسها في اوروبا كلها الا انكلترا .

ومع ذلك فقد كان هناك خطأ قتال . فلقد ذكر تريتشكه ان الامبراطورية

---

١ ـ ولهلم روبكه ـ حل المشكلة الالمانية ص ١٥٣ .

الالمانية لم تكن في الواقع الا امتداداً لبروسيا. ومضى مؤكداً « ان بروسيا هي العامل المسيطر ... وليست ارادة الامبراطورية الا ارادة الدولة البروسية » .
وكان هذا القول صحيحاً، وقدر له ان تكون له نتائج مفجعة بالنسبة الى الالمان انفسهم. فقد سار اتجاه التاريخ الألماني من عـام ١٨٧١ حتى عام ١٩٣٣ ، او حتى الى نهاية هتلر في عام ١٩٤٥ ، نتيجة هذا الخطأ ، في هذا الخط المستقيم ، وطبقاً لمنطقة ، باستثناء الفترة التي قامت فيها جمهورية ويمار .

وعلى الرغم من الواجهة الديموقراطية الممثلة فى اقامة الرايشستاغ ، الذي كان اعضاؤه ينتخبون بموجب نظام الاقتراع العام لجميع الذكور ، فلقد كانت الامبراطورية الالمانية في الواقع اوتوقراطية عسكرية يحكمها ملك بروسيا الذي كان في الوقت نفسه امبراطور المانيا . وكانت للرايشستاغ بعض الصلاحيات ، فقد كان اكثر بقليل من مجرد مجتمع للمناقشة ، حيث يجتمع ممثلو الشعب يتساومون أو يتجادلون على المنافع غير الاصيلة للطبقات التي يمثلونهـــا . وكانت للعرش سلطاته بموجب الحق المقدس للملوك . وكان في وسع غليوم الثاني حتى في عام ١٩١٠ أن يعلن بان التاج الملكي « منحة من الله وحده ، لا من البرلمانات ، أو من المجالس الشعبية او القرارات الشعبية ، وانني لذلـك اعتبر نفسي اداة الله المنفذة وامضي في طريقي على هذا الاساس ».

ولم يستطع البرلمان ان يقف في طريقه . فالمستشار الذي يعينه هو مسؤول أمامه هو لا أمام الرايشستاغ . ولم يكن في وسع المجلس ان يقيل مستشاراً أو يبقي عليه في منصبه . فهذا حق وامتياز للسلطان نفسه . وهكذا فعلى سبيل المقارنة مع التطور الذي وقع في البـــلاد الاخرى في الغرب لم تستطع فكرة الديموقراطية وسيادة الشعب وسيطرة البرلمان ان تثبت لها قدماً او موطئاً له في المانيا حتى بعد بدء القرن العشرين . وقد غدا الديموقراطيون الاشتراكيون بعد سنوات طوال من اضطهاد بسمارك والامبراطور اضخم حزب سياسي فرد في الرايشستاغ في عام ١٩١٢ . وراحوا يجهرون بالمطالبة باقامة الديموقراطية البرلمانية . ولكنهم لم يكونوا فعالين في ذلك ، ولم يستطيعوا ان يحققوا شيئاً .

وعلى الرغم من ان حزبهم كان اضخم الاحزاب ، الا انهم ظلوا اقلية في حكم الواقع . وكانت الطبقات الوسطى وقد ازدهر وضعها بفضل الثورة الصناعية التي جاءت بطيئة ومترنحة في تطورها . وذهلها ما حققته سياسة بسمارك القائمة على القوة والحرب ، قد قبلت التخلي عن اية آمال لها في الحرية السياسة مقابل الكسب المادي الذي حققته[1] . وقبلت هذه الطبقات اوتوقراطية الهوهنزلرن ، واذعنت بارتياح لبيروقراطية النبلاء (اليونكرز) ، واعتنقت بحماسة الفكرة العسكرية البروسية . وكان نجم المانيا قد تألق ، واصبحت هذه الطبقات بل وجميع الالمان ، تواقين لتنفيذ ما يأمرهم به اسيادهم .

وكان هتلر النمسوي في النهاية واحداً من هؤلاء . فلقد كان الرايخ الثاني الذي اقامه بسمارك ، على الرغم من اخطائه ، وعلى الرغم من « قوى الانحلال الرهيبة » القائمة فيه عملاً رائعاً ، عثر فيه الألمان اخيراً على ضالتهم .

« .. او لم تكن المانيا اكثر من غيرها من البلاد ، مثالاً رائعاً للامبراطورية التي ارتقت من أسس سياسية تقوم على القوة المجردة ؟ ولقد نشأت بروسيا النطفة التي ولدت منها الامبراطورية ، عن بطولات متألقة لا عن عمليات مالية او صفقات تجارية ، ولم يكن الرايخ نفسه وبدوره ، الا الجزاء المجيد للقيادة السياسية العدوانية

---

١ — وقد قامت الطبقة العاملة بعملية مساومة مشابهة . فلقد وضع بسمارك رغبة منه في مقاومة الاشتراكية برنامجاً بين عامي ١٨٨٣ و ١٨٨٩ للضمان الاجتماعي يفوق أي برنامج مماثل في أي بلد اوروبي آخر . ويضم هذا البرنامج التأمين الالزامي للعمال ضد الشيخوخة والمرض والطوارىء والعجز ، وعلى الرغم من قيام الدولة بتنظيمه ، فان اصحاب الاعمال والعمال هم الذين يمولونه . ولا يمكن ان يقال بأن هذا البرنامج قد اوقف نمو الديموقراطيين والاشتراكيين أو النقابات المهنية ، ولكنه ترك اثراً عميقاً على الطبقة العاملة اذ جعل أفرادها يؤثرون بصورة متدرجة الضمانة على الحرية السياسية ودفعتهم الى ان يروا في الدولة مهما كانت محافظة ، الحامي لهم والمحسن اليهم. وقد استغل هتلر كما سنرى فيما بعد هذا الوضع العقلي تمام الاستغلال . وقد تعلم في هذا الموضوع كما في غيره من القضايا ، الكثير عن بسمارك فقال : « لقد درست تشريع بسمارك الاشتراكي » . كفاحي ص ١٥٥ (وعرفت نواياه ونضاله ونجاحه) .

وللشجاعة التي تتحدى الموت التي ابداها جنوده .

« .. وبدا أن الأساس الحقيقي للرايخ الثاني قد رصّع بسحر حادث رفع من معنويات البلاد كلها . وقد ولد الرايخ بعد سلسلة من الانتصارات التي لا مثيل لها ، ليكون المكافأة ، على ما ابداه الشعب من بطولات خالدة، والتراث الذي يحفظه لأبنائه واحفاده.. وقد حلّق الرايخ الذي لم يكن مديناً بوجوده الى حيل المناورات البرلمانية فوق اجراءات الدول الأخرى ، عن طريق السبيل المجيدة لقواعده . ولم يتم تحقيق العمل العظيم عن طريق قعقعة المعارك الكلامية البرلمانية وانما عن طريق الرعود والبروق التي انطلقت في الجبهة المحيطة بباريس، وتمثل هذا العمل باعلان عن ارادتنا ، يذيع على العالم ان الألمان ، أمراء وشعباً، قد صمموا في المستقبل على اقامة رايخ عظيم ، وان يرفعوا التاج الامبراطوري من جديد الى ذرى عالية .. ولم يكن الانهزاميون والخائرون هم الذين أسسوا الدولة البسماركية ، بل كان مؤسسوها من الوحدات العسكرية العاملة في الجبهة .

« .. وقد احاطت هذه الولادة الفريدة والعمادة التي تمثلت في النار المنطلقة في المولود الجديد ، الريخ بهالة من الامجاد التاريخية التي لا تستطيع الا الدول العريقة التفاخر بها نادراً .

« .. وأي ارتقاء قد بدأ الآن وأي صعود !

« .. فالحرية في الخارج قد ضمنت الخبز اليومي في الداخل، وغدت البلاد غنية بعدد ابنائها وبالسلع الدنيوية . وقد تدرّع شرف الدولة، ومعه شرف الشعب كله ، بحماية جيش في وسعه ان يشير بكل وضوح ، الى الخلاف القائم بين الرايخ الجديد وبين الاتحاد الألماني السابق ».[1]

---

١ ــ كفاحي ــ هتلر ص ص ١٥٤ ، ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

هذه هي المانيا التي قرر هتلر اعادتها . وهو يتحدث في « كفاحي » بتفصيل ضاف عما يعتقد انه السبب في سقوطها ، كتسامحها مع اليهود والماركسيين وكالمادية الغليظة والأثرة اللتين عرفت بهما الطبقة الوسطى ، وكالتأثير الفظيع الذين تركه « المتملقون والطفيليون » الذين احاطوا بعرش الهوهنزلرن « وسياسة التحالف الألماني المفجعة » التي ربطت المانيا بأسرة هابسبورغ المنحلة، والايطاليين الذين لا يوثق بهم بدلاً من انكلترا ، والافتقار الى سياسة عنصرية و «اشتراكية» جوهرية . وكانت كل هذه عيوب وعد بأن تتولى الاشتراكية الوطنية اصلاحها .

الجذور الفكرية للرايخ الثالث

ولكن اذا ما استثنينا التاريخ ، فمن أين جاء هتلر بأفكاره ؟ لقد استوعب هتلر الى حد ما، كغيره من الألمان مزيجاً غريباً من الآراء المجنونة واللامسؤولية فيها التي تفجرت عن المفكرين الألمان في القرن التاسع عشر وهي حقيقة لم يستطع خصومه داخل المانيا وخارجها ملاحظتها الا بعد فوات الاوان اما بسبب كثرة اشغالهم او بسبب ما هم عليه من بلادة . ولم يحصل هتلر على هذه الآراء من قراءاته مباشرة ، وانما على طريق الواسطة التي تمثلت في شخص المختلط التفكير ومنتحل الفلسفة الفرد روزنبرغ او شخص الصديق الشاعر السكير ديتريخ إيكارت ، فاعتنقها بحماسة محمومة يتميز بها عادة المبتدئون في كل شيء . ولعل ما هو أسوأ من ذلك ، قراره بان يضع هذه الآراء موضع التنفيذ عند ما تتاح له الفرصة .

وقد رأينا هذه الأفكار وهي تنطحن في عقل هتلر، من تمجيد الحرب والغزو والسلطان المطلق للدولة التي تؤثر الطاعة المطلقة على الحرية الفردية ، والايمان بالآريين او الالمان كالعنصر السيد المتفوق ، وكراهية اليهود والسلافيين واحتقار الديموقراطية والايمان بالانسانية . ولم تكن هذه الافكار أصيلة عند هتلر ، على الرغم من ان الوسائل التي لجأ اليها لتطبيقها كانت اصيلة . وقد انبثقت هذه

الآراء من مجموعة غريبة من الفلاسفة الحصفاء على الرغم من عدم توازنهم عقلياً ، ومن المؤرخين والاساتذة الذين سيطروا على العقل الألماني طيلة القرن الذي سبق هتلر . تاركين نتائج مفجعة لا بالنسبة الى الألمان وحدهم كما ثبت فيمابعد بل لشطر كبير من الجنس البشري ايضاً .

وليس ثمة من شك في ان المانيا قد انجبت عدداً من أكبر العقول والارواح السامية في العالم الغربي من امثال ليبنيتز وكانت وهيردر وهمبولدت وليسينغ وغوته وشيلر وباخ وبتهوفن الذين اسهموا اسهاماً فريداً في حضارة الغرب . ولكن الثقافة الألمانية التي غدت مسيطرة في القرن التاسع عشر ، والتي توافقت وتزامنت مع نشوء المانيا البروسية ، ممتدة من بسمارك الى هتلر ، ترتكز بصورة رئيسية على فيخت وهيغل في البداية وعلى ترتيشكه ونيتشه وريشارد واغنر ومجموعة اخرى من الكواكب الأصغر شأناً التي تضم ويا للغرابة فرنسياً غريب الاطوار وانكليزياً مهووساً . وقد افلح هؤلاء في خلق تصدع روحي في الغرب ، لم يلتئم حتى الآن .

ففي عام ١٨٠٧ ، وبعد هزيمة بروسيا المذلة على ايدي نابوليون في معركة يينا (Yena) ، اطلق جوهان غويكيب فيخته خطاباته المشهورة « الى الامة الالمانية » من فوق اسوار جامعة برلين التي كان يحتل مقعد تدريس الفلسفة فيها . وقد قامت هذه الخطابات باستثارة الشعب المهزوم المجزأ ، وانعاشه ، وما زال رجع صداها الداوي يرن في الرايخ الثالث حتى اليوم ، وكانت تعاليم فيخته بمثابة خمرة مسكرة لجماهير خابت آمالها . فالشعوب اللاتينية في رأيه وفي مقدمتها الفرنسيون ومعهم اليهود ليسوا الا شعوباً منحلة ومنهارة . ولا يملك الا الالمان الطاقة على البعث . فلغتهم هي انقى اللغات واكثرها اصالة . وستزدهر في ظلهم حقبة جديدة من حقب التاريخ ، تعكس النسق القائم في العوالم . وستقود طبقة مختارة صغيرة هذا الشعب ، تكون متحررة من أي زواجر اخلاقية ذات طبيعة « خاصة » . ولا ريب في ان هذه الآراء ، هي بعض ما ادرجه هتلر من افكار في « كفاحي » .

وعندما توفي فيخته عام ١٨١٤ ، خلفه في جامعـــة برلين جورج وهلم فردريك هيغــــل . وكان هذا الرجل صاحب العقل النفـّاذ والشديد الدهاء ، الذي اوحى جدله المنطقي الى ماركس ولينين واسهم تبعاً لذلك في اقامـــة الشيوعية ، والذي مهد تمجيده الطنان للدولة على انها العنصر السامي في الحيـاة الانسانية الطريق للرايخين الثاني والثالث في ايام بسمارك وهتلر . فالدولة بالنسبة الى هيغل هي كل شيء او تكاد تكون كل شيء ، وهو يصفها صفات متعددة منها انها التكشف الاسمى « للروح العالميـــة » ،وانها « العـالم الاخلاقي » وكذلك « واقع الفكرة الاخلاقية ... وواقع الفكر الاخلاقي ... وواقع المعرفـــة والتفكير نفسيهما » .ثم يمضي فيقول ان للدولة « الحق الاسمى والمطلق على الفرد الذي يحتم عليـــه واجبه الاسمى ان يكون عضواً في الدولة ... اذ ان من حق الروح العالمية ان تتمتع قبل غيرها بامتيازات خاصة ... »

وما هو رأيه في سعادة الفرد يا ترى ؟ يقول هيغل ان « التاريخ العـالمي لا يؤلف امبراطورية من السعادة » .وهو يعلن ان « فترات السعادة هي الصفحات الخاليات في التاريخ ، لأنها فترات الاتفاق التي لا صراع فيهـا » . فالحرب في رأيه هي المطهر الاعظم ، وهي التي تعمل على ايجاد « الصحة الاخلاقية للشعوب التي افسدها السلام الطويل الأمد ، تماماً كما يقوم هب الريح بالحفـاظ على البحر نقياً من القذارات التي تنجم عن الهدوء الطويل » .

ورأى هيغل ان ليس من حق المفاهيم التقليدية للاخــــلاق ان تقلق الدولة المتفوقة او « الابطال » الذين يتولون قيادها . ثم قال » ويحتل التاريخ العـالمي ارضاً ارفع ... ومن الواجب ان لا تصطدم المزاعم الاخلاقيه التي لا شأن لهـا ، بالاعمال التاريخية العالمية ومنجزاتها . ومن الواجب ان لا تثار ضدهـــا أوراد الفضائل الخاصة من امثال التواضع ، والمسكنة والاحسـان والصبر ... ومثل هذا الطراز القوي من الدولة يجب ان يدوس على الكثير من الازاهير البريئة ، وان يسحق تحت اقدامه الكثير من الأمور التي تقف في طريقه » .

ويتوقع هيغل مثل هذا الطراز من الدولة لألمانيا ، عندما تستعيد عبقريتها

التي وهبها الله اياها . وهو يتكهن بأن « ساعة المانيا » ستحين ، وان رسالتها ستكون بعث العالم واحياءه من جديد . وعندما يقرأ المرء هيغل يدرك على الفور مدى ما اوحى به الى هتلر كما اوحى لكارل ماركس ، حتى ولو كان ايحاؤه للاول عن طريق الواسطة . ويبدو ان هيغل في نظريته عن « الابطال » الذين يمثلون الوكلاء العظام الذين قدرت العناية السماوية الخفيّة لهم ان ينفذوا « ارادة الروح العالمية » قد اوحى لهتلر اكثر من أي شيء آخر ، كما سنرى في نهاية هذا الفصل باحساس الرسالة الذي تسلط عليه .

وجاء هنريخ فون تريتشكه بعد ذلك الى جامعة برلين ، فعمل استاذاً للتاريخ فيها من عام ١٨٧٤ حتى وفاته ١٨٩٦ ، وكان محبوباً فيها ، اذ كان يشهد محاضراته عدد ضخم من المتحمسين الذين لا يضمون الطلاب فحسب بل وضباط اركان الحرب والموظفين من ابناء البيروقراطية النبيلة (اليونكرز) . وكان تأثيره على الفكر الالماني في الربع الاخير من القرن ضخماً وظل مستمراً طيلة ايام الامبراطور غليوم وايام هتلر ايضاً. وعلى الرغم من أنه كان سكسونياً الا انه كبير الدعاة للبروسية ، واصبح بروسياً اكثر من البروسيين انفسهم . وهو يمجد الدولة ، شأنه في ذلك شأن هيغل ، ويرى فيها شيئاً متفوقاً على كل شيء ، ولكن موقفه كان اكثر وحشية ،فالشعب والرعايا ليسوا اكثر من مجرد عبيد ارقاء في الامة . وهو يهتف قائلاً : « ليس من المهم ما تفكر فيه طالما انك تطيع ما تؤمر به » .

ويتفوق تريتشكه على هيغل في انه يعلن ان الحرب هي اسمى تعبير عن الانسان . وهو يرى ان « المجد العسكري هو اساس الفضائل السرية كلها » ولا ريب في ان المجد العسكري البروسي يؤلف درة ثمينة في الكنز الضخم للأمجاد الألمانية تماماً كروائع شعرائنا ومفكرينا ثم يضيف « ان التحدث عن عمى عن السلام ، هو العار الذي لحق بالفكر والاخلاق في عصرنا هذا » .

« وليست الحرب بالضرورة العملية فقط بل انها ضرورة نظرية ايضاً ، ومقتضى منطقي ،ويعني مفهوم الدولة مفهوم الحرب،فالسلطان هو روح الدولة

وجوهرها ..ولا ريب في ان الأمل بزوال الحرب في العالم،أمل سخيف،ومناف للأخلاق ايضاً تمام المنافـــاة . فهذا الأمل ينطوي على ضمور الكثير من القوى الجوهرية والسامية المتعلقة بالروح الانسانية..ولا ريب في انالشعب الذي يتعلق بالأمل الخيالي أو سراب السلام الدائم ، ينتهي بصورة لا صلاح لها ، عن طريق الانحلال في عزلته المتعجرفة ..

ولم يكن رأي نيتشه، شأنه في ذلك شأن غوته،حسناً فيالشعب الألماني [١]، ولذا فقد جاءت انطلاقات هذا العبقري المصاب بجنون العظمة،مختلفة عنالآراء الوطانية (الشوفينية) التي نادى بها المفكرون الألمان في القرن التـاسع عشر . وقد اعتبر الفلاسفة الألمان وبينهم فيخته وهيغل« مدلسين يفتقرون الى الوعي». وقد سخر بما يسمى « بطرطوفية كانت العجوز » [٢] . وقد كتب في كتابه هذا الرجل «يقول ان الألمان لايعرفون مدى ما فيهم من رذيلة»،ثم توصل الىالنتيجة القائلة « وحيثما نفذت المانيا فانها ستهدم الثقـافة » . وقد اعتقد بأن المسيحيين مثلهم مثل اليهود مسؤولون عن « اخلاق العبيد » التي سادت العالم ، ولم يكن لا سامياً في أي يوم من أيامه . وكان كثير الخوف احياناً من مستقبل بروسيا ، وقد دعا في سنواته الاخيرة،وقبل ان يطبق الجنون على عقله ، الى فكرة الاتحاد الاوروبي والحكومة العالمية .

ولا اعتقد مع ذلك ، أن أياً من الذين عاشوا في الرايخ الثالث،قد فشلوا من ان يتأثروا بما تركه نيتشه من أثر فيه.وقد تكون كتبه كما يقول سانتايانا«سخافة اصيلة »او « كفراً صبيانياً » ، لكن الكتاب النازيين لم يملـّوا قط من تمجيده

---

١ ــ قال غوته ذات يوم..«لقد شعرت دائماً بالألم المرير عندما افكر بالشعب الألمانيالجدير بالاحترام في افراده ، والشقي في مجموعه.وتعتبر المقارنة بين الشعب الألماني والشعوب الاخرى ، شعوراً مؤلما احاول التغلب عليه بكل طريقة ممكنة.»حديث مع اش لودين في ١٣ كانونالاول عام ١٨١٣ ، اقتبسه ولهلم روبكه في كتابه (حل المشكلة الالمانية) ص ١٣١ .

٢ ــ نسبة الى طرطوف بطل رواية موليير المشهورة وقد ترجمت فيمصرباسم(الشيخ متلوف) ويضرب مثلاً (للشيخ المتصابي) . المعرب ـ

وتفخيمه. وكان هتلر كثيراً ما يقوم بزيارة متحف نيتشه في ويمار ، ونشر الدعاية عن اجلاله للفيلسوف بأخذ صور له وهو يحملق ضاحكاً في تمثال الرجل العظيم النصفي .

وهناك سبب دعا الى اعتبار نيتشه أحد مبتكري العقيدة النازية. اذ ألم يرعد الفيلسوف ويبرق ضد الديموقراطية والبرلمانات مبشراً بالارادة في السيطرة ، ومطرياً الحرب ، ومتكهناً بظهور العنصر السيد والرجل الأسمى (السوبرمان) في اكثر الحكم والاقوال المأثورة شرحاً وتعبيراً ؟ وكان في وسع الزعيم النازي ان يقتبس من نيتشه معتزاً في كل موضوع من المواضيع التي يطرقها ، فهو يقول عن المسيحية انها « السبّة الكبرى بل الانحراف الباطني الهائل .. وانني لأسميها باللطخة الأزلية في تاريخ الجنس البشري .. فهذه المسيحية لا تختلف في شيء عن التعاليم النموذجية للاشتراكيين » . وهو يتحدث عن الدولة والسلطان وعالم الغاب للانسان قائلاً : « ان المجتمع لم يعتبر الفضيلة قط الا وسيلة الى القوة والسلطان والنظام. وليست الدولة الا تنظيماً للاخلاقية .. فهي صورة العزيمة على الحرب والثأر. وليس من حق المجتمع ان يبقى لنفسه وانما كدعامة وكصقالة خشب ، يعبر عن طريقها عنصر مختار من الناس ، ليرفعوا من شأنهم الى مستوى الواجبات السامية .. وليس ثمة من شيء يدعى بحق الحياة أو حق العمل أو الحق في السعادة ، فالإنسان في هذا الصدد لا يختلف عن أحقر الحشرات [1] . وقد مجد الرجل الأسمى وصوره على انه حيوان مفترس أو « وحش مغبرّ رائع راغب

---

١ — وضع نيتشه النساء اللائي لم تكن له اية علاقة بهن قط في وضع خفيض ، تماماً كما فعل النازيون الذين قرروا ان المكان الطبيعي للمرأة هو المطبخ وان دورها الرئيسي في الحياة انجاب الاطفال للمحاربين الألمان . وقد وضع نيتشه الفكرة على هذا النحو « سيدرب الرجل على الحرب بينما تدرب المرأة على الانجاب للمحاربين . وكل ما عدا ذلك مجرد سخف » . وقد مضى الى ابعد من ذلك فقال في كتابه « هكذا قال زرادشت » .. « اذا ذهبت الى المرأة فلا تنس ان تأخذ سوطك معك » . ولا ريب في ان هذا القول هو الذي دفع برتراند راسل الى التعليق : « كان في وسع تسع نساء من عشرة ان يخلصن السوط من يده ، وهذا ما كان يعرفه ، ولذا فقد نأى عن المرأة » .

رغبة قوية في الغنيمة والنصر » .

ونصل الى موضوع الحرب.. ترى ما رأيه في الحرب؟ لقد حمل نيتشه في هذا الموضوع نفس الرأي الذي نادى به المفكرون الألمان الآخرون في القرن التاسع عشر. وهو يهتف صارخاً في لهجة العهد القديم القاصفة كالرعد في كتابه (هكذا قال زرادشت) « انك ستحب السلام على انه وسيلة لحرب جديدة ، وتؤثر السلام القصير على السلام الطويل . وانا لا انصحك بأن تعمل بل انصحك بأن تقاتل . وانا لا انصحك بالسلام بل بالنصر ... وانت تقول ان القضية الطيبة هي التي تبارك حتى الحرب . ولكنني اقول لك : ان الحرب الطيبة هي التي تبارك كل قضية . فلقد اثمرت الحرب والشجاعة ثماراً اعظم من الاحسان » .

ونصل اخيراً الى نبوءة نيتشه عن النخبة المختارة القادمة التي ستحكم العالم والتي سينبثق عنها الرجل الاسمى (السوبرمان) .. فهو يقول في كتابه (العزم على السلطان) ما نصه : « هناك عنصر حاكم وجريء يسير في طريق التكوّن .. ومن الواجب ان يكون الهدف اعداد تقييم جديد للفضائل ليصلح الى طراز قوي من الرجال الموهوبين في عقولهم وارادتهم . وسيصبح هذا الرجل والطبقة المختارة التي تحيط به « سادة العالم » .

ولا شك في ان هذا الهذر الصادر عن اكثر عقل الماني ابتكاراً ، قد اصاب وتراً حساساً في عقل هتلر المشوّش . لكنه نسب هذا الهذر الى نفسه ولم يكتف بالآراء التي اوردها الفيلسوف ينتحلها لنفسه وانما انتحل ايضاً ولع الفيلسوف بالمبالغات الضخمة كما انتحل نفس تعابيره . وقد غدت عبارة « سادة العالم » التي اوردها الفيلسوف تعبيراً شائعاً في كتاب كفاحي . وليس ثمة من شك في ان هتلر اعتبر نفسه في النهاية الانسان الاسمى الذي تحدث عنه نيتشه في نبوءته .

وكان هتلر يقول دائماً [1] : « ان على كل من يرغب في فهم المانيا الاشتراكية الوطنية ان يتعرف على واغنر » . وقد يكون هذا القول مرتكزاً الى اساءة فهم

---

١ ــ تأيدت ذكرياتي بالكتاب الذي وضعه اوتو توليشوس بعنوان (لقد ارادوا الحرب) ص ١١ .

جزئية الملحن العظيم ، اذ على الرغم من ان ريتشارد واغنر كان يحمل كهتلر كراهيـــة متعصبة لليهود ، الذين اقتنع بأنهم يسعون الى السيطرة على العـالم بأموالهم ، وعلى الرغم من انـــه كان يحتقر البرلمانات والديموقراطية وماديـة البورجوازيين وتفاهتهم ، كان يأمل بحماسة في ان الألمـان سيصبحون « بفضل مواهبهم الخاصة لا حكام العالم فحسب بل العاملين على تعظيمه والرفع من شأنه ».

ولم تكن كتابات واغنر السياسية ، بل الحانه واوبراته الرفيعة ، في استذكار العالم الألماني القديم بما فيه من أساطير البطولة ، ومن آلهة وثنية وابطال محاربين ، ومن شياطين وثنيّين ، وحزازات دموية وشرائع قبلية بدائية ، ومن احساس بالقضاء والقدر وروعة الحب والحياة ونبل الموت ، هي التي الهمت المـانيا الحديثة اساطيرها ، واضفت تلك النظرة الألمانيه الى الحياة ، التي اقتنصها هتلر ونازيوه لأنفسهم ، مع وجود كل ما يبرر لهم ذلك .

وقد عبد هتلر واغنر منذ أيامه الأولى ، وحتى عندمـــا دنت حياته من نهايتها في الاقبية الرطبة الجرداء التي جعل منها مقر قيادته العسكرية في الجبهـة الشرقية ، وعندما اخذ عالمه واحلامه يسيران في طريق الانهيار والتحطم ، كان يحب ان يتذكر جميع الاوقات التي استمع فيها الى الحـــان واغنر العظيمة ، ويستجلي ما عنت له هذه الالحان وما اوحت له به ولا سيما لحن « عيد بايروث » ، ويستذكر زياراته التي لا عد لها ولا حصر لبيت « وانفريـد » الذي كان يعيش فيه الملحن الخالد ، والذي ما فتىء يعيش فيه ولده سيغفريد مع زوجته وينفريد المولودة في انكلترا ، وكان من الاصدقاء الذين احترمهم هتلر ابلغ الاحترام فترة من الزمن .

وقد هتف هتلر ليلة الرابع والعشرين من كانون الثـاني عام ١٩٤٢ ، بعد ان مني الألمان بأول هزائمهم الهائلة في روسيا ، عندما كان يتحدث الى قادتـــه العسكريين واخدانه وبينهم « هملر » قائـــلاً : « يا لروعة الفرح الذي تركه كل لحن من الحان واغنر في نفسي ! » وكان هذا الحديث في اعماق الملجأ الذي جعل منه مقر قيادته في « دولفشانزي » القريبة من « راستنبرغ » في بروسيا الشرقية . وكان

الثلج يتساقط في الخارج ، كما عمت برودة القطب الشمالي ، وهما عنصران كرههما هتلر اشد الكره ، وكان يخشاهما كل الخشية ، اذ اسهما كبيراً في اول نكسة عسكرية مني بها الألمان في الحرب . ولكن أفكاره ذلك المساء ، وفي دفء القبو ، اتجهت إلى واحد من أعظم الإيحاءات التي عرفها في حياته . ثم مضى يقول لصحبه « واني لأذكر عواطفي الدافقة عندما دخلت وانفريد لأول مرة . والقول بأنني تأثرت تقليل من حقيقة ما شعرت به . فلقد كانوا يحتملونني دائماً حتى عندما اكون في اسوأ حالاتي وسينغفريد في مقدمتهم وكانت علاقاتي الأولى طيبة معهم دائماً ، فقد احببتهم جميعاً كما احببت وانفريد .. وكانت الايام العشرة التي عزفت فيها مقطوعة « بايروث » ، من اسعد الايام في حياتي . ويسرني ان افكر دائماً ، بأنني سأتمكن في يوم ما من استئناف حجي !! وفي اليوم الذي تلا انتهاء عيد بايروث ... سيطر عليّ حزن شديد ... تماماً كالحزب الذي يسيطر على المرء عندما ينتزع من شجرة عيد الميلاد كل ما فيها من مظاهر الزينة والعيد »[1] .

وعلى الرغم من ان هتلر اكد في احاديثه المنطلقة في تلك الامسية من امسيات الشتاء انه يعتبر « تريسترام وايزولدي » اعظم ما ألفه واغنر ، الا ان « حلقة نيبيـلانجن » وهي سلسلة من أربع أوبرات ، استحواها الملحن العظيم من الاسطورة الالمانية القصصية التي تحمل هذا الاسم ، وظل يعمل في اعدادها نحواً من خمسة وعشرين عاماً . هو اللحن الذي قدم لألمانيا ولا سيما للرايخ الثالث الكثير من الأساطير الألمانية البدائية . وكثيراً ما تكون الاساطير الشعبية ، هي ارفع تعبير واصدقه عن روحية الشعب وثقافته ، ولا ريب في ان هذا القول اكثر انطباقاً على المانيا منه على غيرها . وقد ذكر شيلينغ « أن الأمة تأتي الى الوجود حاملة معها اساطيرها (ميتولوجيتها) ... وتقدم هذه الاساطير وحدة تفكير الأمة التي تعني فلسفتها الجماعية ، ولهذا فهي تشتمل على مصير

---

١ — احاديث هتلر السرية ص ١٩٨.

الأمة » . وقال ماكس ميل: الشاعر المعاصر ، الذي كتب صورة عصرية من « اغنية النيبيلانج »...« لم يبق حتى اليوم الا القليل من الهة الاغريق التي تريد الفلسفة الانسانية التي تزرعها في ثقافتنا ولكن سيغفريد وكريمهيلد .. كانا دائماً موجودين في روح الشعب ! » .

وكان سيغفريد وكريمهيلد وبرونهيلد وهاغين، الابطال والبطلات القدامى .. وكان الكثيرون من الألمان والكثيرات من الألمانيات ، يريدون ويردن التشبه بهم وبهن في عصرنا الحاضر . وتعيش مع هؤلاء الابطال وتلك البطلات ذكريات عن عالم نيبيلانجن البربري الوثني ، العالم البطولي الغامض الذي يسمو على الادراك ، والذي احاطت به الخيانة من كل جانب ، وسيطر عليه العنف ، فغرق في الدماء ، وتمثل في شفق الآلهة ، عندما قام « ووطان » باحراق « وهالا » بعد كل ما قام به من شرور ، فاحترق في لهب متصاعد يرمز الى الفناء . ولا ريب في أن هذه الذكريات كانت ساحرة دائماً للعقل الالماني ، وكانت التفسير الصحيح لما تحس به الروح الالمانية من حنين رهيب . فلقد كان هؤلاء الابطال ، وكان هذا العالم الشيطاني البدائي متماثلين دائماً حسب قول ميل في « روح الشعب » وفي مثل هذه الروح يمكننا ان نلمس دائماً النضال بين معنى الحضارة وبين روح نيبيلانجن ، ويبدو ان هذه الروح الاخيرة كانت هي الظافرة في الوقت الذي يعرض هذا تأريخه . وليس من الغريب والحالة هذه ولا المدهش ان يحاول هتلر تقليد ووطان عندما أراد في عام ١٩٤٥ ، تدمير المانيا كلها ، حتى تحترق معه كما احترقت « وهالا » مع « ووطان » .

أما واغنر ، صاحب العبقرية المذهلة للعقول ، والفنان الضخم الى الحد الذي لا يكاد يصدق ، فقد كان يمثل شيئاً اكثر بكثير مما حاولنا تحديده هنا . ويدور الصراع في اوبرات « الحلقة » حول فكرة الطمع في الذهب التي جعلها الملحن متعادلة مع « مأساة الرأسمالية الحديثة » والتي رأى فيها الملحن ، وهو يحس بالفزع ، محواً للفضائل القديمة التي وصلت الينا من أيام خوال . وعلى الرغم من جميع ابطاله الوثنيين لم يقنط واغنر من المسيحية كما قنط منها نيتشه . وكان يحس

بالعطف البالغ علي الجنس البشري الكثير الخطأ ، والدائم الحروب . ولكن هتلر لم يكن مخطئاً كل الخطأ عندما قال ان فهم النازية يتطلب اولاً معرفة واغنر.

وقد عرف واغنر شوبنهور وتأثر به أولاً وبنيتشه ثانياً ، وعلى الرغم من ان الاخير قد اختلف معه لأنه اعتقد ان اوبراته ولا سيما « برسيفال » تظهر الكثير من الكفر المسيحي . وقد اتصل واغنر في حياته الطويلة والمليئة بالعواصف ، برجلين آخران احدهما فرنسي والآخر انكليزي ، كانت لهما اهميتهما في هذا التاريخ الذي نضعه ، لا بالنسبة الى ما تركاه من اثر على الملحن العظيم ، رغم عظمه في حالة واحدة على الاقل ، وانما بالنسبة الى تأثيرهما على العقل الألماني الذي ساعدا على توجيهه في الطريق الى الرايخ الثالث .

وهذان الرجلان هما الكونت جوزيف آرثر دي غوبينو الدبلوماتي الفرنسي والاديب هوستون ستيوارت تشمبرلين ، اغرب انكليزي عرفه التاريخ .

ولم يكن أي من الرجلين دجالاً مطلقاً بل كانا من الرجال الذين يتميزون بالحصافة والذكاء المفرط ، والثقافة العميقة والتجربة الواسعه في الأسفار والترحال . ولكن كلاً من الرجلين وضع مذاهب عنصرية زائفة ومصطنعة ، حتى ان شعبيهما لم يحملاها على محمل الجد ، وكان الألمان الوحيدين الذين آمنوا بهما ، اذ غدت نظرياتهما التي تحتمل التشكيك والجدال انجيلاً بالنسبة الى النازيين . وقدلا اكون مبالغاً ان قلت انني سمعت من اكثر من واحد من اتباع هتلر ، بان تشمبرلين هو المؤسس الروحي للرايخ الثالث . فقد عبد هذا الانكليزي الفرد الذي آمن بأن الألمان هم العنصر السيد وانهم هم أمل الغد ، ريتشارد واغنر ، وتزوج احدى كريماته ، ونظر بعين الاجلال والتقديس الى غليوم اولاً والى هتلر اخيراً وكان المستشار الامين لكليهما . وكان في وسعه بعد حياة غريبة ان يهلل للعريف النمسوي ، وذلك قبل ان يصل هتلر الى الحكم بوقت طويل ، بل وحتى قبل ان يحلم بذلك ، وان يعتبره الرسول الذي اوفده الله الى الشعب الألماني قادماً من الصحراء . وليس من الغريب بعد هذا اذا كان هتلر قد اعتبر تشمبرلين نبياً ، كما ثبت فيما بعد .

ترى ماذا انطوت عليه تعاليم هذين الرجلين ، من افكار طعم بها الألمان بلقاح الجنون في موضوع العنصر والمصير الألماني ؟

كان اسهام غوبينو الرئيسي كتاباً يقع في أربعة مجلدات طبعت في باريس بين عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٥ تحت عنوان « رسالة عن عـــدم التكافؤ بين الاجناس البشرية » . ولعل من سخرية القدر ان هذا النبيـل الفرنسي بعد ان قضى مدة ضابطاً في الحرس الملكي ،بدأ حياته العامة مديراً لمكتب اليكسيس دي توكفيل ، عندما غدا هذا المؤلف البارز لكتاب « الديموقراطية في امريكا » ، وزيراً لفترة قصيرة في عام ١٨٤٨ . وكان غوبينو قد سافر آنذاك الى هانوفر وفرانكفورت في مهمات دبلوماتية ،ولا ريب في انه اشتق نظرياته عن عدم التكافؤ بين الاجناس من اتصاله بالالمان لا بدي توكفيل ، على الرغم من انه اعترف ذات يوم بانه كتب المجلدات الاربعة ليقيم الدليل جزئياً على تفوق اصله النبيل .

ولقد ذكر غوبينو في اهدائه مؤلفه الى ملك هانوفر انه يعتبر العنصر مفتاح التاريخ والحضـــارة . ثم مضى يقول : « وتسيطر المشكلة العنصرية على سائر مشاكل التاريخ الأخرى .. ولا ريب في ان عدم التكافؤ بين الاجناس ، يكفي لإيضاح كل ما في مصائر الشعوب من غموض . » وهو يقول أن ثمة ثلاثة عناصر رئيسية هي الابيض والاصفر والاسود ، وان العنصر الابيض هو المتفوق عليها. ثم مضى يقول : « ويظهر التاريخ ان الحضارة كلها انبثقت عن العنصر الابيض، وان ليس ثمة من حضارة يمكن لها ان تقوم دون تعاون هذا العنصر ».والعنصر الآري هو جوهرة الجنس الابيض،وذلك لان « هذه الأسرة الانسانية المشهورة، هي اكثر اسر الجنس الابيض نبلاً»ثم تابع اصولها الى ان وصل بهـا الى اواسط آسيا.ويضيف غوبينو ان العنصر الآري المعاصر قد اختلط لسوء الحظ باجناس أقل منه درجة ، كما يبدو هذا واضحـاً في جنوب اوروبا في عصره . لكنه في الشمال الغربي ، والى الشمال من خط يمتد تقريبـــاً من نهر السين حتى سويسرا شرقاً ، احتفظ الآريون رغم عدم نقاء دمهم نقاء تاماً بالتفوق العنصري . وقد اشتمـل هذا التحديد على بعض الفرنسيين وجميع الانكليز والايرلنديين وسكان

الاراضي المنخفضة (هولندة وبلجيكا) ، وسكان الراين وهانوفر والبلاد الاسكنديناڤية . ويبدو ان غوبينو استثنى بقية الألمان الذين يعيشون الى الشرق والجنوب الشرقي من الخط الذي رسمه ، وهي حقيقة تجاهلها النازيون عندما تبنوا تعاليمه .

ومع ذلك فقد رأى غوبينو الالمان أو الالمان الغربيين على الاقل هم خير الآريين ، ولم يتجاهل النازيون هذا الاكتشاف الذي توّصل اليه. فحيثما يذهب الألمان يحملون معهم الاصلاح والتطور . وكان هذا القول ينطبق في رأيه حتى على عهد الامبراطورية الرومانية . فالقبائل الألمانية التي يطلقون عليها اسم البرابرة والتي احتلت الامبراطورية الرومانية وحطمتها ، قدمت خدمة جلّى للحضارة الانسانية ، وذلك لان الرومان في القرن الرابع ، كانوا قد غدوا من الأقوام الهجينة المنحلّة ،بينما كان الألمان من الآريين الخلص ... ثم مضى يقول: « والالماني الآري ، مخلوق قوي... ولذا فكل ما يفكر به ويقوله ويفعله بالغ في اهميته » .

وسرعان ما تبنت المانيا آراء غوبينو وافكاره . فقد اعتنق واغنر الذي قابل الفرنسي في عام ١٨٧٦ ، أي قبل وفاته اذ توفي عام ١٨٨٢ ، هذه الآراء بحماسة بالغة وسرعان ما انتشرت الجمعيات التي تحمل اسم غوبينو في جميع ارجاء المانيا .

حياة تشمبرلين العريبة ومؤلفاته

كان هوستون ستيوارت تشمبرلين واحداً من اكثر اعضاء جمعية غوبينو حماسة ، وكانت حياته ومؤلفاته تؤلف مهزلة من اشد المهازل سحراً في سير التاريخ المتزمت الذي ادى الى نشوء الرايخ الثالث وسقوطه .

ولد هذا الرجل في مدينة بورتسموث عام ١٨٥٥ لأب هو اميرال في الاسطول البريطاني وعمه مشير في الجيش وهو الماريشال السير نيفيل تشمبرلين ، وله عمان

آخران يحملان رتبة الفريق ، ثم تزوج ابنة الموسيقي العالمي ريتشارد واغنر . وكان من المقرر ان يلتحق بالجيش البريطاني أو الأسطول، ولكن حالته الصحية الرقيقه ، جعلت مثل هذا الأمر غـــير محتمل الوقوع ، وتلقى العلم في فرنســا وجنيف حيث غدت الفرنسية لغته الأولى والاساسية ، ودفع به القدر وهو بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة الى الاتصال باثنين من الألمان .وسرعان مــا اجتذبته المانيا التي غدا مواطناً لها في النهاية ، واحد البارزين من مفكريهـا ، والتي كتب بلغتها جميع كتبه الكثيرة ، التي ترك العديد منهـــا أثراً أعمى على غليوم وادولف هتلر ونفر لا يعد ولا يحصى من الألمان الأقل وزناً وشأناً .

وعندما بلغ الخامسة عشرة عام ١٨٧٠ ،غدا تشمبرلين بين يدي استاذ بارز هو اوتو كونتزي ، البروسي الحق بين البروسيين، الذي طبع مدة اربع سنوات على عقله المتفتح وروحه الحساسة امجاد بروسيا الفاتحة والعسكرية، دون ان يهمل في الوقت ذاته الناحية الاخرى التي تتعلق بالفنانين والشعراء من امثال بيتهوفن وغوته وشيلر وواغنر . ووقع تشمبرلين وهو في التـاسعة عشرة الى غرام آنا هورست وهي فتاة بروسية تكبره بعشر سنوات ، وتشبهه الى حد كبير في عُصابيته . وارتحـــل في عام ١٨٨٢ من جنيف الى بايروث وهو في السابعة والعشرين، بعد ان كان قد قضى ثلاث سنوات مشغولاً بدراسة الفلسفة والتاريخ الطبيعي والفيزياء والكيمياء والطب الى بايروث ، حيث التقى واغنر ، الذي غدا كما يقول شمس حياته ، وكوزيما زوجة الملحن العبقري ، التي ظل على تعلقه بها ، واخلاصه المتفاني لها بقية ايام حياته . وعندما مضى في عام ١٨٨٥ مع آنا هورست التي غدت زوجته الى دريسدن للعيش فيها ، أصبح المانياً في فكره ولغته ، ثم عاد الى فيينا عام ١٨٨٩ التي عاش فيها حقبة كاملة ، وارتحل اخيراً الى بايروث في عام ١٩٠٩ حيث اقام حتى وفاته عام ١٩٢٧ .وقد طلق زوجته البروسية التي عبدها عام ١٩٠٥ وكانت في الستين من عمرها وقد اشتد مرضها البدني والعقلي (وكان الانفصـــال مؤلماً له الى حد كبير حتى انه ذكر انه كاد يجنّ منه) ، وبعد ثلاث سنوات تزوج من ايفا واغنر واستقر على مقربة مــن

وانفريد ، حيث اراد ان يظل على اتصال بجماعتـــه التي يحترمها كل الاحترام ، كوزيما ذات الارادة القوية .

وقد ألف تشمبرلين المفرط الاحساس والشديد العُصاب والمتعرض دائماً الى الانهيارات العصبية رؤية الشياطين الذين قال عنهم انهـم كانوا يدفعون به دائماً وبشدة الى البحث عن آفاق جديدة للدراسة ، والمضي في كتاباته الغزيرة المدهشة . وكانت تصوراته تدفعه الى التحول من علم الحياة الى علم النبـات فالفنون الجميلة والموسيقى والفلسفة وكتابة تواريخ الحياة فالتاريخ . وفي ذات مرة في عام ١٨٩٦ وكان عائداً من ايطاليا ، ركبه احد شياطينه ، ولم يتخل عنه ، مما اضطره الى مغادرة القطار في غاردوني حيث اغلـق على نفسه باب غرفته في احـد فنادق البلدة مدة ثمانية ايام ، متخلياً عن مؤلف كان يضعه عـــن الموسيقى ، وشرع يكتب بجنون في موضوع متصل بعلم الحيـاة ، الى ان انبثقت منه الفكرة التي قدر لها ان تسيطر على كافة كتبه اللاحقة ، وهي فكرة العنصر والتاريخ .

ومهما كانت لوثاته العقلية ، فقد كان فكره يجول آفاقاً واسعة تشمل الادب والموسيقى وعلم الحياة وعلم النبات والدين والتاريخ والسياسة . وكان ثمة وحدة عميقة كما قال جان ريال [١] ، في الهامه في جميع الكتب التي وضعها والتي كانت منسجمة كل الانسجام . ولما كان يشعر دائماً ان الشيـاطين هي التي تستحثه على الكتابة ، فقد جاءت كتبه عن (واغنر وغوته وكانت والمسيحية والعنصرية) ، تحت تأثير حمّى فظيعة ، أو غشية حقيقية ، وحالة عقلية تشبه الشمول الذاتي ، حتى انه يقول في تاريخ حياته الذي كتبه عن نفسه ، انه كان عاجزاً في اغلب الاحيان عن اعتبار هذه الكتب من تأليفه ، لأنها تتفوق كل التفوق على ما كان يتوقعه من قلمه . وقد حطمت بعض العقول الاكثر اتزاناً من عقله ، نظرياته عن العنصر وعن التاريخ ، وبدت هذه النظريات لمفكر فرنسي تخصص بالدراسات الألمانية (Germanism) مثل ادموند فيرمي ، على انهـــا « زائفة » وليست

---

١ - راجع دراسته عن تشمبرلين في كتاب (الرايخ الثالث) تنقيح لا مونت وفرايد وفيرمي .

اصيلة . ومع ذلك فقد كان بالنسبة الى كونرايد هايدن، الكاتب الألماني المعادي للنازية والذي ارّخ حياة هتلر ، واستنكر تأثير تعاليمه العنصرية « واحداً من اكثر اصحاب المواهب روعة في تاريخ العقل الالماني ، كما كان منجماً من المعرفة والأفكار العميقة » .

ولا ريب في ان الكتاب الذي أثر تأثيراً عميقاً على ذلك المفكر ، والذي دفع بغليوم الى حد الذهول من الدهشة وزوّد النازيين بانحرافاتهم العنصرية ، هو كتاب « اسس القرن التاسع عشر » الذي يقع في نحو الف ومائتي صفحة ، والذي وضعه تشمبرلين ايضاً ، وهو واقع تحت سيطرة « عفريته » في تسعة عشر شهراً امتدت بين الأول من نيسان عام ۱۸۹۷ والواحد والثلاثين من تشرين الاول عام ۱۸۹۸ في فيينا ، لتصدره المطبعة في عام ۱۸۹۹ .

وقد وجد تشمبرلين شأنه في ذلك شأن غوبينو الذي كان يعجب به ان العنصرية هي مفتاح التاريخ بل واساس الحضارة . ورأى ان شرح القرن التاسع عشر العالم الذي عاش فيه يتطلب منه ان يدرس اولاً ما ورثه هذا القرن عن العصور القديمة . وقد حدد هذا الأرث بثلاثة امور أولها فلسفة الاغريق وفنهم وثانيها القانون الروماني وثالثها شخصية المسيح . وكان هناك ايضاً ثلاثة ورثة للماضي اولهم اليهود وثانيهم الالمان — وهما عنصران نقيّان تمام النقاء — وثالثهم اللاتين الهجناء الذين يقيمون على ضفاف المتوسط ويؤلفون فوضى من مختلف العناصر . والألمان وحدهم في رأيه هم اصحاب الحق في مثل هذا الميراث ، على الرغم من ان دخولهم التاريخ جاء متأخراً أي في القرن الثالث عشر ، ولكنهم على اي حال . اثبتوا قيمتهم في تحطيم الامبراطورية الرومانية . ثم يقول ... « وليس صحيحاً ما يقال من ان البرابرة الجرمان هم الذين استحضروا « ديجور القرون الوسطى » ، فقد جاء هذا الديجور في اعقاب الافلاس الفكري والاخلاقي للفوضى العنصرية التي حلت بالبشرية من جراء تعهد الامبراطورية الرومانية المشرفة على الموت لها ، ولو لم يكن التيوتون لظل هذا الديجور السرمدي ، يلف العالم كله بحلكته » . وكان يرى عندما وضع هذا الكتاب ان

التيوتون هم أمل العالم الوحيد .

وقد اشتمل تحديد تشمبرلين للتيوتون على الكلتيين والسلافيين على الرغم من ان التيوتون يؤلفون العنصر الأهم . ومع ذلك فهو ينحو منحى رجراجاً في تعاريفه فهو يعلن مثلاً في احدى النقاط « ان كل من يسلك سلوك التيوتون ، هو تيوتوني مهما كان الأصل العنصري الذي ينتمي اليه » . ومن المحتمل ان يكون قد فكر وهو يكتب هذه العبارة بأصله غير الألماني . ويمضي فيقول في مكان آخر . « ومهما كان التيوتوني فهو روح ثقافتنا . وتعتمد أهمية كل أمة اليوم كقوة حية على نسبة ما في دم هذه الأمة من دم تيوتوني أصيل ... ولا يبدأ التاريخ الحقيقي الا عندما يضع التيوتوني قبضته بيديه القويتين الماهرتين على التراث القديم » .

هذا ما قاله عن التيوتون ، ترى ما رأيه في اليهود ؟ لقد كرّس لهم اطول فصل في كتابه « الاسس » . وقد رأينا سابقاً انه زعم بأن اليهود والتيوتون هم العنصران النقيان الوحيدان في الغرب . وهو في هذا الفصل يستنكر « اللاسامية البليدة التي تعافها النفس » ، ثم يقول ان « اليهود ليسوا دون التيوتون وانما هم يختلفون عنهم » . فلهم أمجادهم الخاصة كما انهم يدركون « الواجب المقدس » للانسان في حماية نقاء العنصر . ومع ذلك ، فعندما يمضي في تحليل اليهود ينزلق الى نفس اللاسامية التي يستنكرها عندغيره والتي تطوّح به في النهاية الى مخازي جوليوس شترايخر في صوره الكاريكاتورية عن اليهود في مجلة « العاصفة » التي وضعها في ايام هتلر . ولا ريب في ان الشطر الكبير من الأساس « الفلسفي » للاسامية النازية ينبع من هذا الفصل .

ويبدو ما في آراء تشمبراين من تناقض مع العقل بسرعة بالغة . فقد اعلن ان شخصية المسيح هي احدى هبات العصور القديمة الثلاث للحضارة الحديثـــــة . وسرعان ما يشرع في محاولة « اقامة الدليل » على ان المسيح لم يكن يهودياً . وهو يزعم ان أصله الجليلي وعجزه عن النطق نطقاً صحيحاً بالحروف الحلقية السريانية دليلان واضحان على وجود « نسبة كبيرة من الدم اللاسامي عنده » . وينتقل بعد ذلك الى الإفضاء ببيان مثالي في سطحيته فيقول : « ان كل من يزعم ان المسيح

كان يهودياً ، اما انه مغـال في سخفه أو كاذب في قوله ... فالمسيح لم يكن يهوديـاً . »

واذا لم يكن المسيح يهودياً ترى الى أي عنصر ينتمي ؟ يحاول تشمبرلين الرد على هذا السؤال فيقول ان المسيح كان على الغالب آريا. وهو اذا لم يكن بالآري الكامل دماً فهو بالتأكيد آري بمنطق تعاليمه الدينية والاخلاقية ، التي تتعارض تمام المعارضة مع المادية والشكلية المطلقة الموجودة في الديانة اليهودية . وكان من الطبيعي والحالة هذه بالنسبة الى تشمبرلين على الأقل ان يصبح المسيح «اله الشعوب الهندية – الاوروبية الفتية والمتدفقة بالحياة » ، واله التيوتون . لعدم وجود أي شعب آخر معد تمام الاعداد كاعداده للاستماع الى هذا الصوت السماوي » .

وينتقل بعد ذلك الى ما يمكن ان يسمى بالتاريخ المفصل للجنس اليهودي ، منذ الوقت الذي امتزج فيه السامي أو بدوي الصحراء بالحثي المدور الرأس ذي « الأنف اليهودي » واخيراً بالعموريين الذين يمتون الى الأصل الآري ، وهو يقول اخيراً «ان المزيج الآري المتمثل في العموريين الطوال القامة والشقر الوجوه والجميلي الصورة ، قد جاء متأخراً لسوء الحظ بحيث لم يتمكن من تحسين الشكل العبري ، الفاسد ». ويمضي الكاتب الانكليزي بعد ذلك فيناقض نظريته السابقة القائمة على نقاء العنصر اليهودي ، ويجد ان اليهود قد غدوا عنصراً « سلبياً » بل « وغير شرعي في سلالته » بحيث اضحى للآريين كل مبرر في « انكار » اسرائيل . وهو يحمل بالفعل على الآريين لأنهم اضفوا على اليهود « هالة من الامجاد الكاذبة » ويصل من ذلـك الى القول بأن « اليهود يفتقرون افتقاراً مفجعاً للديانـة الحقيقية » .

ويقوم طريق الخلاص اخيراً لتشمبرلين في التيوتون وثقـافتهم ، وهو يحدد بأن الألمان اكثر العناصر الآرية مواهب ، لا سيما وقد ورثوا عن الاغريق الهنود الآريين أحسن خصائصهم ، مما يعطيهم الحق في سيادة العـالم . وقد كتب في مكان آخر يقول : « ان الله يعتمد اليوم على الالمان وحدهم . وهذا هو لباب المعرفة والحقيقة المؤكدة التي ملأت عليّ روحي سنوات طولاً » .

وقد اثارت طباعة هذا الكتاب « أسس القرن التاسع عشر » ضجة كبرى وجاءت لهذا الانكليزي الغريب بالشهرة المفاجئة في المانيا. وعلى الرغم من فصاحة اللغة وجزالة الاسلوب — اذ كان تشمبرلين كاتباً فناناً — لم يكن الكتاب سهلاً جداً على القراءة . ولكن الطبقات العليا سرعان ما تبنته اذ عثرت فيه على ما ودّت دائماً الاعتقاد به . ولم تمض عشر سنوات حتى كان الكتاب قد طبع ثماني طبعات وبيع منه ما يزيد على الستين الف نسخة ، وما نشبت الحرب الكونية الاولى عام ١٩١٤ ، حتى كان عدد النسخ المبيعة منه قد ارتفع الى المائة الف . وعاد الى الانتعاش في العهد النازي ، واني لأذكر اعلاناً عنه بان الطبعة الرابعة والعشرين منه قد صدرت في عام ١٩٣٨ ، اذ بلغت المبيعات منه آنذاك نحواً من ربع مليون نسخة .

وكان الامبراطور غليوم من اكثر قرائه حماسة ومن اولهم وقد وجه الدعوة الى تشمبرلين لزيارته في قصره في بوتسدام ، ونشأت بين الرجلين منذ مقابلتهما الاولى صداقة استمرت حتى وفاة المؤلف في عام ١٩٢٧ . وقد استمر التراسل على نطاق واسع بين الرجلين منذ المقابلة الاولى . وبعث تشمبرلين بثلاث واربعين رسالة الى الامبراطور رد على ثلاث وعشرين منها، وكانت رسائل المؤلف مقالات طويلة استغلها الحاكم في اعداد الكثير من خطبه البليغة وبياناته . وقد كتب له الامبراطور في احدى رسائله الاولى يقول .. « لقد كانت العناية الالهية هي التي بعثت بكتابك الى الشعب الالماني ، وبك شخصياً الي » . وكان تذلل تشمبرلين وتملقه المغرق في الغلو ، في هذه الرسائل من النوع الذي تعافه النفس وتتقزز منه . فلقد كتب اليه ذات مرة يقول « لقد ولدت جلالتك كما ولد رعاياك في محراب مقدس » ومضى يقول للقيصر انه قد وضع صورته في مكتبه مقابل الصورة التي رسمها ليوناردو للمسيح ، بحيث يستطيع وهو يكتب ان يجيل النظر بين « مخلّصه » وبين « سلطانه » .

ولم تحل ذلته هذه واستكانته بينه وبين التقدم بالنصيحة باستمرار الى السلطان العنيد والملتهب عاطفة وحماسة . وكانت المعارضة الشعبية لغليوم قد بلغت في عام

١٩٠٨ حداً أعلى ، حمل الرايشستاغ على توجيه اللوم اليه على تدخـله المفجع في الشؤون الخارجية . ولكن تشمبرلين اشار عليه بأن الرأي العـام لا يمثل الا الحمقى والخونة ، وان عليه – أي على القيصر – ان لا يأبه به ، فرد عليه غليوم قائلاً انهما سيقفان دائماً الى جانب بعضهما «انت بقـلمك وانا بلساني وماضي سيفـي » .

وكان الانكليزي يواصل تذكير الامبراطور برسالة المانيا وقدرها. وقد كتب اليه بعد نشوب الحرب الكونية الاولى يقول : « وعندما تحقق المانيا لنفسهـا السلطان ، ونحن على ثقة من انها ستحققه ،عليها ان تشرع فوراً في تنفيذ سياسة عالمية من العبقرية. ولقد أخذ اوغسطس على عاتقه مهمة التحويل المنظم للعـالم، وعلى المانيا ان تأخذ على عاتقها مهمة اداء مثل هذه الرسالة. .وسيكون في وسع المانيا ، بعد ان تسلح بكافة الاسلحة الهجومية والدفاعية، وبعد ان تنظم تنظيماً صارماً وصحيحاً وكأنها جيش محارب ،ونتيجة لتفوقها على الجميع في الفن والعلم والتقنية والصناعة والتجارة والمال وكل ميدان من الميادين تبرز فيه لتغدو معلمة العالم ورائدته والممسكة بدفته،مع وقوف كل فرد من ابنائها في مركزه،وتقديمه كل ما في وسعه لقضيته المقدسة ، ان تحتل العالم بتفوقها الذاتي » .

وقد منح الرعوية الالمانية في عام ١٩١٦ ، مكافأة له على التبشير بمثل هذه الرسالة المجيدة للبلاد التي تبنَّاهـا ، كما منحه القيصر وسام الصليب الحديدي تقديراً لآرائه .

ولكن تأثير هذا الانكليزي كان اكبر ما يكون على الرايخ الثالث الذي تنبأ بمجيئه ،والذي لم يتحقق فعلاً الا بعد ست سنوات من وفاته . وقد اعتنق النازيون نظريته العنصرية ، واحساسه اللاهب برسالة المانيا وقدرها ، واعتبروه نبياً من انبيائهم . وصدرت الكتب والمنشورات والمقالات في العهد الهتلري ، متدفقة من المطابع ، تمجد « المؤسس الروحي » لألمانيا الاشتراكية الوطنيـة . وحاول روزنبرغ بوصفه احد مستشاري هتلر ، ان يعزو حماستـه للفيلسوف الانكليزي الى الفوهرر، ومن المحتملَ ان يكون هتلر قد عرف لأول مرة عـن

كتابات تشمبرلين قبـــل مغادرته لفيينا ، اذ كانت رائجة آنذاك لدى الفئات المنادية بالجامعة الألمانية والمناهضة للسامية، وهي الفئات التي كان هتلر يلتهم تلك الايام كل ما يصدر عنها من كتابات، ومن المحتمل ان يكون هتلر قد قرأ بعض مقالات تشمبرلين الوطانية (الشوفينية) ابان الحرب . وقد اعرب في كتابـه « كفاحي » عن اسفه لأن ملاحظات تشمبرلين لم تلق ما تستحقـــه من اهتمام وعناية ابان عهد الرايخ الثاني .

وكان تشمبرلين بين المثقفين الأوائل في المانيا الذين توقعوا مستقبلاً عظيمـاً لهتلر ، وفرصاً جديدة للألمان اذا ما ساروا وراءه . وقـد اجتمع اليه هتلر في « بايروث » عام ١٩٢٣ ، وعلى الرغم من مرضه ومن شلله النصفي ،وخيبة آماله من جراء هزيمة المانيا وسقوط امبراطورية الهوهنزلرن ، وانهيار جميع آمـاله ونبوءته ، فقد قفز تشمبرلـــين على قدميه عندما استمع الى فصاحة النمسوي الشاب . وبعث اليه برسالة في اليوم التالي يقول فيها : « ان امامك اموراً عظيمة تستطيـع ان تحققها ، فإيماني بالخصائص الألمانية في الرأي والتفكير (الألمنة) لم يضعف قط ولم يهن، وان كانت آمالي قد وصلت كما أعترف الى مرحلة جزرها . وقد تمكنت بضربة واحدة من تحويل الحالة الروحية التي كنت فيها . ولا ريب في ان المانيا بانتاجها هتلر في ادق ساعات حاجتها ، تقيم الدليل على حيويتها ، ولا سيما لما ينبثق منه من تأثيرين عظيمين مترابطين هما الشخصية والتأثـير ... فليرعك الله بعين عنايته » .

وقد كتبت هذه الرسالة في الوقت الذي كان فيه معظم الألمـان لا يزالون ينظرون الى ادولف هتلر بشاربه الذي يشبه شارب شارلي شابلن ، وبطبائعه الفجّة غير المهذبة ، وتطرفه العنيف والمغالي ، نظرة هزء وسخرية . ولم يكن أتباعه آنذاك يعدون زمرة قليلة . ولكن ما في شخصيته من سحر مغناطيسي، اجتذب اليه الفيلسوف العليل العجوز ، وجدد ما في نفسه من ايمـــان بالشعب الذي آثر ان ينضم اليه وان يمجده وانضم تشمبرلين الى عضوية الحزب النـازي الذي كان لا يزال في مرحلة التكوّن ، وشرع يكتب بقدر ما تسمح له احواله

الصحية، لمطبوعات الحزب المغمورة . وقد مجّدت احدى مقالاتـــه التي نشرت في عام ١٩٢٤ هتلر الذي كان آنذاك في غياهب السجن، على انه الانسان الذي بعثت به العناية الالهية ليقود الشعب الألماني . وكان القدر قد اختـار غليوم، ولكنه فشل، وهـــا هو الآن يختـار ادولف هتلر . واحتفـلت الفولكشاير بيوباختر صحيفة الحزب النازي بعيد ميلاد هذا الانكليزي البارز السبعيني في الخامس من ايلول عام ١٩٢٥ بنشر خمسة اعمدة من التقريظ والمدح، ووصفت كتابه « اسس القرن التاسع عشر » بانه «انجيل الحركة النـــازية » ، ومضى الفيلسوف الى لحده بعد ستة عشر شهراً أي في الحادي عشر من كانون الثاني، وقد أشرقت آماله في ان جميع ما بشر به وتنبأ، سيتحقق في ظـــل التوجيه السماوي لهذا المسيح الألماني الجديد .

ولقد كان هتلر، اذا استثنينا احد الامراء الذي جـــاء ممثلاً لغليوم الذي لم يكن في وسعه ان يعود الى المانيا، الشخص المهم الوحيد الذي شهـد تشييع جثمان تشمبرلين الى مقره الاخير .وقالت الفولكشاير بيوباختر تنعي الرجل الى الشعب الألماني، بأن هذا الشعب « قد خسر بوفاته احد صانعي اسلحته العظام، الذي لم تجد الاسلحة التي صنعها بعد المجال الكامـــل لاستعمالها » . ولم يكن في وسع ذلك العجوز الميت والنصف مشلول، ولا في وسع هتلر أو أي شخص آخر في المانيا، ان يتكهن في ذلك اليوم القاتم من ايام كانون الثاني عام ١٩٢٧، عندما كانت حظوظ الحزب النازي في اسوأ حالات جزرها، بالسرعة الهائلة التي سيتاح فيها المجال الكامل لتلك الاسلحة التي صاغها الانكليزي للاستعمال، حاملة معها تلك النتائج المرعبة »[1] .

---

١ ـ اعتمدت في كل ما كتبته عن تشمبرلين وفيختة وهيجل وغـــيرهم على الكتب ومافيهـــا من المقتطفات والشروح التي قرأتها والتي تشمل القائمة التالية :(فلسفة المانيا وسياستها) لجون ديوي، (الكارثة الالمانيـــة) لفريـــدرش منيكة ،(حـــل المشكلة الالمانية) لولهـــم روبكـــه، (تاريخ الفلسفة الغربية) لبرتراند راسل ،(هكـــذا قالت المانيا)اعداد كول وبوتر ، (الرايـــخ الثالث)، اعـــداد بومونت وفرايد وفيرمي، (القومية الالمانيـــة) للويس سنيـــدر ، (تاريخ

ومع ذلك فقد كان هتلر يحس احساساً غامضاً برسالته الشخصية على الارض منذ تلك الايام وقبلها ، فقد كتب في « كفاحي » يقول ... « سيطلع من بين ملايين الرجال ، رجل واحد ، يخلق مبادىء صلبة كالصخر بقوته التي لا شك فيها من عالم الجماهير الفقيرة والمشحون بالآراء المتقلبة ،ويحمل راية النضال هادفاً الى تصحيح اوضاعها ،لتنبثق من امواجها المتحولة في العالم المتحرر الفكر، صخرة من الفولاذ تمثل الوحدة القوية في العقيدة والارادة »[1] .

ولم يترك هتلر شكاً لدى قرائه ، في انه يعتبر نفسه ذلك الرجل الواحد . وفي كتاب كفاحي ، رذاذ من المقالات الصغيرة ، عن الدور الذي سيلعبه العبقري الذي ستختاره العناية الالهية لقيادة هذا الشعب العظيم ، على الرغم من ان هذا الشعب قد لا يفهمه تمام الفهم في البداية ، أو يعترف بقيمته ، نتيجة المتاعب التي عاناها في تحقيق العظمة .ولا ريب في ان القارىء يفهم بأن هتلر انما يشير الى نفسه والى وضعه الراهن . فالعالم لم يعترف بعد بحقيقته ، وهذا شأن العباقرة في بدايتهم . ويقول ... « ولا بد من وجود حافز ، لإظهار العبقري على المسرح ، وسرعان ما يشرع العالم في مقاومة هذا العبقري لأنه لايريد ان يصدق ان هذا الطراز ، الذي يبدو مشابهاً له يختلف عنه في الواقع اختلافاً بيناً وبصورة مفاجئة ، وهي عملية تتكرر مع كل ابن بارز من ابناء الانسانية». ثم يمضي معلناً « ان شعلة العبقرية تقوم في عقل الرجل الخلاق فعلاً منذ اللحظة

المانيا ـــ بعض آراء المانية جديدة) اعداد هانز كون ،(نشوء وسقوط المانيا النازية)لحارمان (الفوهرر) لكونراد هايدن،(سير التاريخ الألماني)، لتيلور(المانيا المعاصرة) لادمون فيرمي، (تاريخ المانيا) لهرمان بينو . و (بسمارك والامبراطورية الالمانية) لأيك .

ولا ريب في ان ضيق المجال في كتاب كهذا المؤلف ،حال بيني وبين البحث في التأثيرات المهمة الاخرى التي تركها في الرايخ الثالث نفر آخر من المثقفين الالمان، الذين راجت كتبهم واشتهرت في المانيا من امثال شليغل ، وغوريس ونوفاليس ، وارتدت وجان ولاغارد وليست ودرويزن في ورانكيه وموسين وقسطنطين فرانز وستوكر وبرنهاردي وكلادس واغنر ولانغبين ولانج وشبنغلر .

١ ـ كفاحي ـ هتلر .

التي يولد فيها . فالعبقري الحقيقي يولد كذلك، ولا يظهر نتيجة التعهد والتنشئة فهو يتعلم من نفسه » .[١]

وقد اعتقد ان الرجال العظام الذين قدر لهم ان يصنعوا التاريخ، كانوا مزيجاً من السياسي العملي والمفكر . وكثيراً ما يحدث في فترات التاريخ الانساني الطويلة ، ان يتزاوج السياسي والنظري . وكلما كان هذا الازدواج عميقاً كلما كانت العقبات التي تقف في طريق السياسي اكثر صعوبة ومشقة . فهو لا يعمل من أجل الضروريات التي يفهمها اول صاحب حانوت عادي ، وانما يعمل في سبيل غايات لا يستطيع فهمها الا القليلون . وهكذا تتجزأ حياته بين الحب والكراهية . ويتصارع احتجاج الحاضر الذي لايستطيع فهمه ، مع الاعتراف بالاجيال المقبلة التي يعمل ايضاً من اجلها . اذ كلما كانت اعمال الانسان اعظم بالنسبة الى المستقبل ، كان فهم الحاضر له اضعف وادهى وكان نضاله اقسى واصعب » .[٢]

وقد كتبت هذه الاسطر في عام ١٩٢٤ ، عندما كان القليلون فقط يفهمون ماذا يريد ان يقول هذا الانسان القابع في السجن ، والذي هبطت قيمته بعد فشل انقلابه الذي يشبه الروايات الهزلية . ولكن هتلر لم يكن يشك في نفسه مطلقاً . ولا يعرف احد ما اذا كان هتلر قد قرأ هيغل أو لم يقرأه ، فهذه قضية قابلة للنقاش والجدال . ولكن الشيء الواضح في كتاباته وخطبه انه كان مطلعاً بعض الاطلاع على آراء الفيلسوف ، ولو عن طريق النقاش مع مستشاريه الأولين كروزنبرغ وايكارت وهس. ولا بد ان تكون محاضرات هيغل المشهورة في جامعة برلين ، قد اجتذبت نظره بشكل أو بآخر ، وينطبق هذا القول أيضاً على أقوال نيتشه المأثورة ، وقد رأينا في السابق باختصار ان هيغل قد طور نظرية « الابطال » التي وجدت تأثيراً عظيماً على العقل الألماني . وقد بحث في احدى محاضراته في برلين كيف ان « ارادة الروح العالمية » يتولى تنفيذها « افراد ذوو شهرة تاريخية عالمية » .

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ص ٢٩٣ .

٢ ـ كفاحي ـ هتلر ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

« وقد يطلق عليهم إسم الابطال ، إذا كانو قد اشتقو أهدافهم وأعمالهم ، لا من السير الطبيعي الهادىء للأمور الذي تقره الأنظمة الراهنة ، بـــل من نبـع خفي ، متدفق من الروح الداخلية التي ما زالت مخبوءة تحت الغطاء الخارجي ، والتي تصطدم بالعالم الخارجي كالقنبلة مفجرة إياه الى شظـــايا . هذا هو الطراز الذي ظهر فيه الاسكندر وقيصر ونابوليون . فلقد كانوا ساسة واقعيين ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه مفكرين ، ينفذ بصرهم الى مقتضيات العصر والى كل ما هو جاهز للتطور . هذه هي الحقيقة بالنسبة الى عصرهم والى عالمهم ... وكان عليهم ان يعرفوا هذا المبدأ الذي لا يزال في طور التكوّن ، وهو مبدأ الخطوة اللازمة واللاحقة بصورة مباشرة في مجال التقدم التي تحتم على عالمهم ان يخطوها ، وان يجعلوا منه هدفهم وان يصرفوا طاقتهم في تحقيقها . وعلى هذا يجب الاعتراف بالرجال ذوي الشهرة التاريخية العالمية ، على انهم ابطـــال عصرهم وانهم أكثر رجال عهدهم اتضـــاح نظر ، وان أفعالهم وأقوالهم هي خير ما جاء به عصرهم »[1] .

أو ليس ثمة من شبه بين هذا القول وبين الفقرة السابقة التي إقتبسناهـــا من « كفاحي » . فالتزاوج بين السياسي والمفكر هو الذي يؤدي إلى خلق البطل او الشخصية التاريخية العالمية كالاسكندر وقيصر ونابوليون . وإذا كان مثل هذا الازدواج موجوداً فيه ، وهو ما شرع هتلر في الاعتقاد به ، أو لا يكون في وسعه أن يطمح في الوقوف إلى جانبهم ؟

وتتجلى في أقوال هتلر الفكرة التي تنادي بأن القائد الاعلى هو فوق السنن الاخلاقية للرجال العاديين . وقد رأى كل من هيغل ونيتشـــه نفس هذا الرأي ايضاً ، وقد رأينا في أقوال هيغل كيف أن « الفضائل الخاصة » و« المتطلبات الخلقية غير المناسبة » يجب ان لا تقف عائقاً في طريق الحكام العظام ، كما يجب

---

١ – هيغل – محاضرات عن فلسفة التاريخ . ص ٣١ – ٣٢ نقلها بولوك في ص ٣٥١ .

أن لايكون الانسان سريع التأثر ، إذا كان الابطال في تحقيقهم لأقدارهم قد داسوا أو « حطموا » الكثير من الزهرات البريئـــة . ويمضي نيتشه بمبالغته الضخمة إلى أبعد من ذلك فيقول :

« ويستعيد الرجال الأقوياء ، أو السادة الضمـير النقي الذي يصاحب الحيوانات المفترسة ، ويعم السرور المجرمين ، ففي وسعهم أن يعودوا من سلسلة مخيفة من أعمال القتل ، والحرق والاختطاف والتعذيب وقد سيطرت عليهم نفس مشاعر الفرح ، واحسوا بنفس حالات الرضا في أرواحهم ، وكأنهم قد اشتركوا في عملية تأنيب أحد الطلاب ... وعندما يكون الانسان قادراً على القيـــادة ، وعندما تكون الطبيعة قد جعلت منه « سيداً » ، وعندما يكون عنيفاً في أعماله وفي إيماءاته ، ترى ما هي أهمية المعاهدات اليه ؟ .. وللحكم على الاخلاق حكماً صحيحاً ،علينـا ان نستعيض عنهــا ، بمفهومين نستمدهما من علم الحيوان ، مفهوم ترويض الحيوان الكاسر ومفهوم تربية فصيلة معينة من الحيوانات » . [1]

ويبدو أن مثل هذه التعاليم التي حملها نيتشه الى حدها النهائي ، والتي هلل لها حشد من الألمان الأقل شأناً منه ، قد تركت كما يبدو أثراً واضحاً عند هتلر واستهوته . فالعبقري صاحب الرسالةفوق القانون ولا يمكن حصره ضمن قيود أخلاق « البورجوازيين » .وهكذا فعندما حلت ساعته للعمل ، كان في وسع هتلر أن يبرر أكثر الأعمالقسوة ووحشية ،كاضطهاد الحرية الشخصية وممارسة أعمال السخرة ممارسة وحشية ،وأهوال معسكرات الاعتقال ، ومذابح أتباعه أنفسهم في حزيران عام ١٩٣٤ ، وقتل اسرى الحرب ، والذبح الجماعي لليهود.

وعندما خرج هتلر من سجن لاندسبرغ قبل خمسة أيام من حلول عيد الميلاد عام ١٩٢٤، وجد وضعاً كان في إمكانه أن يحمل أي رجل آخر على التقاعدمن الحياة العامة . فقد حـــل الحزب النازي وأغلقت صحفه ، واشتبك الزعمـاء

١ ـ منقولة من كتاب الرايخ الثالث ـ اعداد بومنت ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

السابقون في خصومات مع بعضهم البعض ، وأخذوا ينفضّون عن الحزب . وقد حُظر عليه نفسه أن يخطب في الاجتماعات العامة . ولعل ما هو أسوأ من هذا كله ، إنه واجه خطر الترحيل إلى مسقط رأسه في النمسا ، فقد أوصت شرطة ولاية بافاريا وزارة الداخلية توصية شديدة باتخاذ هذه الخطوة . وقد أتفق حتى الكثيرون من رفاقه القدامى مع الرأي العام الذي ساد بأن هتلر قد إنتهى ، وإنه سيغيب الآن في زوايا النسيان ، كما غاب من قبل الكثيرون من الساسة الاقليميين الذين أُتيح لهم أن يقضوا فترة قصيرة من الشهرة إبان السنوات الملأى بالكفاح عندما كان يبدو للجميع أن الجمهورية ستنهار . [1]

ولكن الجمهورية صمدت للاعاصير والزوابع . وكانت قد شرعت تسير في طريق النجاح . وعندما كان هتلر في غياهب السجن ، إستدعي ساحر مالي يدعى الدكتور هجالمار هوراس غريلي شاخت ليعمل على إستقرار النقد وقد نجح في أداء مهمته . وأدى مشروع داوس إلى تخفيف أعباء التعويضات . وشرع رأس المال يتدفق على المانيا من امريكا . وأخذت الاوضاع الاقتصادية تسير في طريق النقاهة بسرعة . وأخذ ستريسمان يسير في طريق النجاح في سياسته التي أتبعها للتفاهم مع الحلفاء . وبدأ الفرنسيون في الجلاء عن الرهر . وشرع الساسة يبحثون في عقد ميثاق للسلامة المشتركة يمهد الطريق إلى تسوية اوروبية عامة (لوكارنو) ، ويسهل على المانيا دخول عصبة الأمم . وأخذ الألمان لأول مرة بعد الهزيمة وبعد سنوات ست من التوتر والغليان والازمات المالية ، يعودون الى الحياة العادية . وتمكن الديموقراطيون الاشتراكيون أو « مجرمو تشرين الثاني » كما كان هتلر يدعوهم ، قبل اسبوعين من إطلاق سراحه من قلعة

---

١ ـ كتب الاستاذ غيرو تورل ، منقح يوميات اللورد دابيرنون في عام ١٩٢٩ ، هامشاً علق فيه على رواية السفير عن انقلاب حانة الجعة ، وبعد ان ذكر ان الحكم بالسجن على هتلر قال : « لقد اطلق سراحه اخيراً بعد ستة اشهر ، وربط بكفالة مالية للمدة المتبقية من الحكم عليه ، مما حتم عليه ان يختفي في زوايا النسيان » . وكان اللورد دابيرنون سفيراً لبريطانيا في برلين بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٦ وقد عمل ببراعة على تقوية جمهورية ويمار .

لاندسبرغ ، من زيادة الاصوات التي حصلوا عليها بنسبة ثلاثين في المائة (فبلغ ناخبوهم ثمانية ملايـين) ، في انتخابات عامة رفعوا فيها شعارهم بالدفاع عـــن الجمهورية . ورأى النازيون الذين تحالفوا مع بعض الفئات العنصرية في شمالي المانيا في جبهة واحدة اطلقوا عليها اسم الحركة الوطنية الاشتراكية لحرية المانيـــا، عدد ناخبيهم يهبط من مليونين في انتخابات ايار عام ١٩٢٤ الى اقل من مـليون في انتخابات كانون الأول . وبدت النازية وكأنها قضية تسير في طريق الموت . فلقد كانت تعيش على مصائب البلاد ،ولما بدأت آمال الأمة تسير الآن فجأة في طريق الاشراق ،سارت بسرعة في طريق الذبول والانحلال . وهذا ما اعتقده معظم الألمان والمراقبين الاجانب على الاقل .

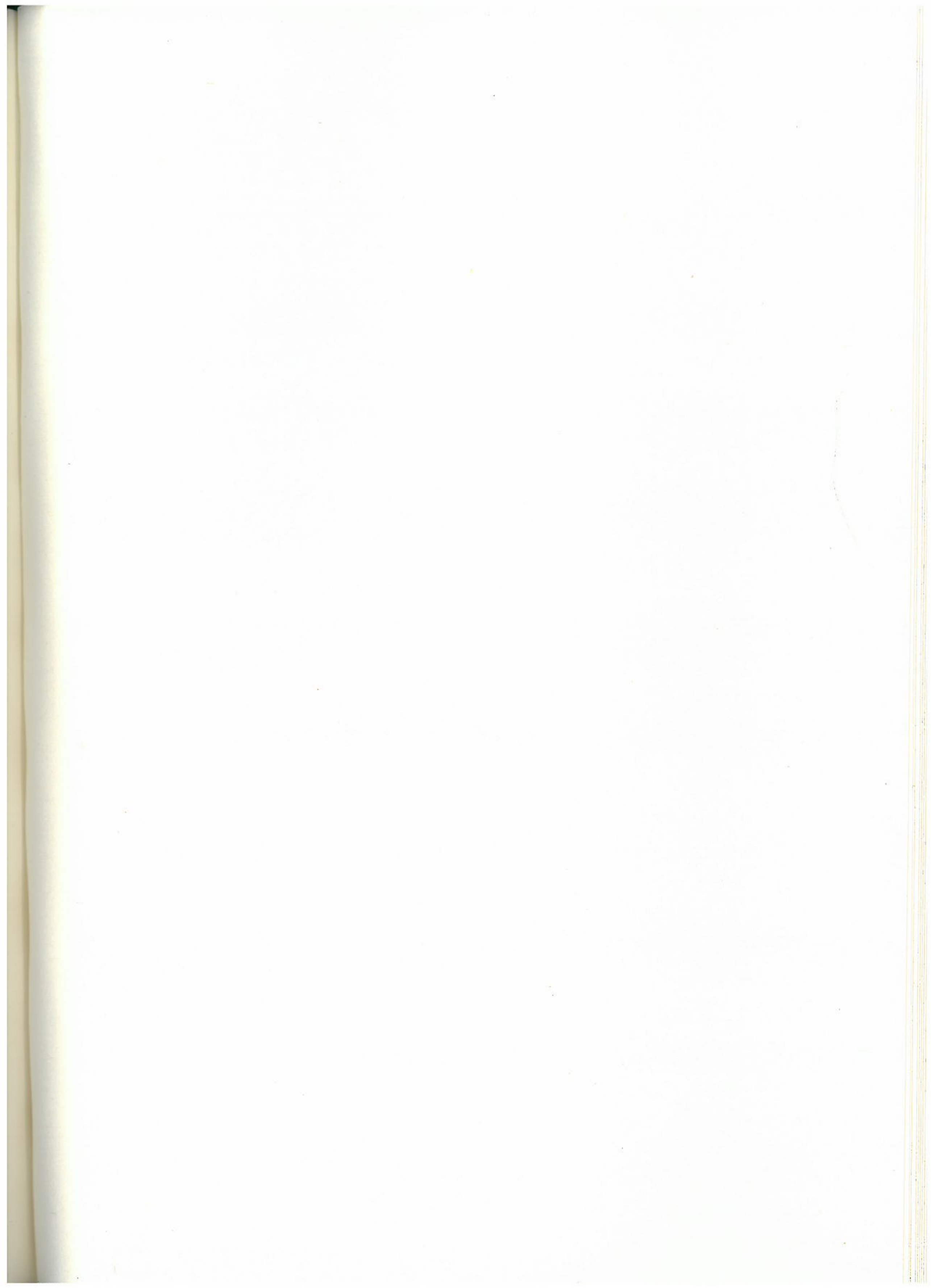
لكن ادولف هتلر لم ير هذا الرأي مطلقـاً ، فلم يكن من السهل ، ان تثبط عزيمته وكان يعرف كيف ينتظر الفرصة السانحة . وعندما كان يستعيد التقاط خيوط حياته،في الشقة الصغيرة ذات الغرفتين الواقعة في الطابق العلوي من المنزل رقم (٤١) في «ثيير شتراسه »في مونيخ ، ابان اشهر شتاء عام ١٩٢٥ ، لينتقل منها عندما حل الصيف الى عدد من الفنادق الصغيرة في « اوبر سالزبرغ » فوق برختسغادن ،عملت التأملات التي عاش فيها مستعرضاً النوازل التي حلت به في الماضي القريب ، والخسوف الذي اصاب حاضره ، على الشحذ من همته، وتقوية تصميمه واصراره . وكان قد وجد الوقت وراء قضبان سجنه لا لاستعراض ماضيه ومـــا فيه من انتصارات وأخطاء فحسب ، بل وماضي الشعب الالماني المضطرب ، بما فيه من مكاسب واغلاط ايضاً . وقد اتضحت له الصورة الآن اكثر من أي وقت مضى . وسرعان ما اتقد فيه احساس الرسالة اللاهب مـن جديد ، لنفسه ولألمانيا ، بعد ان زالة من نفسه جميع الشكوك . وانهى في هذا الوضع الروحي المنتعش املاء تلك الزوبعة من الكلمات التي ألفت المجـلد الاول من كتابه « كفاحي » وشرع يملي المجلد الثاني . ووضع في حروف جامدة التصميم الذي اختارته العناية الالهية لوضعه في عالمـــه الذي تجتاحه الجائحات والفلسفة او طريقة الحياة التي يراها،لكي يدرسها الجميع . وكانت لهذه الفلسفة

رغم هوسها جذور عميقة، كما سبق لنا أن رأينا في الحياة الالمانية. ومن المحتمل ان يكون ذلك الكتاب قد بدا مناقضاً لعقول الكثيرين من ابناء القرن العشرين حتى في المانيا نفسها ، الا انه لا يخلو على أي حال مـــن بعض المنطق . وكان ينطوي في الوقت نفسه على رؤيا . اذ عرض على الرغم من ان قليلـين هم الذين رأوا هذه الحقيقة في ذلك الوقت ،استمراراً للتاريخ الالماني ، فلقد رسم الطريق الى قدر الماني مجيد .



الكِتَابُ الثَّانِي

الانتِصَار وَالتركيز



٥

الطريق الى الحكم

١٩٢٥ - ١٩٣١

كانت السنوات التي انصرمت بين عام ١٩٢٥ وحلول الأزمة الاقتصادية في عام ١٩٢٩ من السنوات العجاف بالنسبة الى ادولف هتلر والحركة النازية ، ولكنها في الوقت نفسه تعتبر مقياساً للرجل الذي احتفظ برجولته ، والذي لم يفقد الأمل أو الثقة مطلقاً . وعلى الرغم من حدة مزاجه الذي كان يقوده احياناً الى تفجّرات هستيرية ، فقد اتصف بالصبر على الانتظار وبالدهاء للتحقق من ان ذلك الجو من الرخاء المادي ، وهذا الاحساس من الارتياح الذي خيّم على المانيا في تلك السنوات ، لم يكن مناسباً لتحقيق اهدافه .

وكان واثقاً من ان هذه الاوقات الطيبة لن تستمر ، وكان يقول ان هذه الاحوال الرخية بالنسبة الى المانيا لم تكن تعتمد على قوتها نفسها وإنما على قوة الآخرين ، ولا سيما قوة امريكا ، التي فتحت خزائنها المنتفخة مغدقة القروض على المانيا للابقاء على ازدهارها . وارتفعت قروض المانيا بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٣٠ الى نحو من سبعة بلايين دولار وكان معظمها من المستثمرين الامريكيين الذين لم يفكروا لحظة واحدة في الطريقة التي يمكن للالمان ان يسددوا ديونهم بها في النهاية . ولم يكن الألمان انفسهم اكثر تفكيراً من الامريكيين في هذه القضية .

وكانت الجمهورية تقترض لتفي اقساط التعويضات المفروضة عليها ولتزيد من خدماتها الاجتماعية الواسعة التي كانت انموذجاً مثالياً للعالم كله. وكانت حكومات الولايات، وادارات المدن والبلديات تقترض لا لتمويل الاصلاحات الضرورية فحسب بل ولبناء المطارات والمسارح والملاعب والمدرجات الرياضية واحواض السباحة الرائعة. واخذت الصناعة التي تمكنت من مسح ديونها في فترة هبوط النقد، وفي اقتراض البلايين لتجديد آلاتها ولتنظيم عملياتها الانتاجية. وكان انتاج هذه الصناعة الذي هبط في عام ١٩٢٣ بنسبة (٥٥) في المائة عما كان عليه في عام ١٩١٣ قد عاد فارتفع الآن في عام ١٩٢٧ بنسبه (١٢٢) في المائة. وقد هبط عدد العمال العاطلين فى عام ١٩٢٨ لأول مرة منذ الحرب، عن المليون، اذ بلغ (٦٥٠) الفاً فقط. وارتفعت مبيعات المفرق في ذلك العام بنسبة عشرين في المائة عما كانت عليه في عام ١٩٢٥، وارتفعت أرقام الأجور في السنة التالية عشرة في المائة عما كانت عليه قبل اربع سنوات. وكان لأبناء الطبقات الوسطى الدنيا وللملايين من صغار اصحاب الحوانيت وذوي الرواتب الصغيرة الذين يعتمد عليهم هتلر في تأييده الجماهيري، نصيب في هذا الرخاء العام.

وقد بدأت معرفتي بالمانيا في هذه الايام. وكانت باريس مركز عملي، كما كنت أذهب احياناً الى لندن، وعلى الرغم مما في هاتين العاصمتين من سحر كاف لاجتذاب شاب امريكي يحس بالسعادة لفراره من حياة الفراغ والاختيال التي لا تصدق في منطقة « كالفين كولدج » الامريكية، الا انهما كانتا تبدوان شاحبتين اذا ما قارنها المرء ببرلين وميونيخ وكانت هناك حالة غريبة تختمر فى المانيا. فقد بدت الحياة اكثر حرية وعصرية وإثارة في هاتين المدينتين من أي مكان آخر سبق لي ان شهدته. ولم يكن هناك حياة فنية أو ثقافية اكثر انطلاقاً وروعة منها فيهما. وكانت هناك تيارات حديثه، ومواهب رائعة أخذت تبدو في الكتابات المعاصرة والرسم وفن العمارة والموسيقى والتمثيل. وكان ثمة تأكيد ايضاً على كل ما يتصل بالشباب، ففي وسع المرء ان يجلس الى الشبان طيلة الليل في المقاهي الجانبية أو الحانات الرخيصة، أو المخيمات الصيفية، أو على ظهر البواخر النهرية في الراين،

أو في مراسم الفنانين التي يملؤها الدخان ، وأن يتحدث إليهم بصورة مستمرة عن شئون الحياة . وكان شباب المانيا وشاباتها يبدون في حالة صحية ممتازة ، منطلقين ، يعبدون الشمس ، ويتدفقون بالحماسة الهائلة لاستيعاب الحياة استيعاباً كاملاً والانطلاق فيها انطلاقاً تاماً . وبدت الروح البروسية العدوانية القديمة وكأنها قد ماتت ، ودفنت في مرقدها . وكان معظم الالمان الذين يلقاهم المرء من ساسة وكتاب وصحفيين وفنانين وأساتذة وطلاب ورجال أعمال، وزعماء عمال، يبدون ديموقراطيين ليبراليين حتى ومن دعاة السلام .

ولم يكن المرء يسمع شيئاً عن هتلر وحزبه النازي إلا على سبيل التندّر ولا سيما في موضوع انقلاب حانة الجعة . ولم يحرز الحزب النازي في انتخابات عام ١٩٢٨ أكثر من (٨١٠) آلاف صوت من مجموع واحد وثلاثين مليوناً من المقترعين، ولم ينل إلا اثني عشر مقعداً في الرايشستاغ من مجموع ٤٩١. وقد خسر الوطنيون المحافظون أيضاً خسارة كبيرة ، إذ هبط عدد المقترعين لهم من ستة ملايين في عام ١٩٢٤ إلى أربعة ملايين ، كما هبطت مقاعدهم من (١٠٣) إلى (٧٣) . وربح الاشتراكيون الديموقراطيون مقابل ذلك مليوناً وربع المليون من الأصوات في انتخابات عام ١٩٢٨ وبذلك ارتفع عدد المقترعين إلى جانبهم عن التسعة ملايين وغدا لهم (١٥٣) مقعداً في الرايشستاغ وغدوا أكبر حزب سياسي في المانيا . وبدت الجمهورية الألمانية بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب وكأنها قد ثبتت أقدامها أخيراً .

وبلغ عدد أعضاء الحزب الاشتراكي الوطني في تلك السنة - ١٩٢٨ - نحواً من (١٠٨) آلاف. وعلى الرغم من ضآلة الرقم إلا أنه بدا آخذاً في الارتفاع بصورة متدرجة. وكان هتلر بعد أسبوعين من اطلاق سراحه من السجن في نهاية عام ١٩٢٤ قد سارع إلى مقابلة الدكتور هنريخ هيلد ، رئيس وزراء بافاريا وزعيم حزب الشعب الكاثوليكي البافاري . وأمر هيلد، بناء على الوعد الذي قطعه هتلر له على نفسه بحسن السلوك (وكان هتلر لا يزال مقيداً بالكفالة) ، برفع الحظر عن الحزب النازي وصحيفته . وقال هيلد لوزير عدليته غيرتير « لقد كبحنا جماح

الوحش الكاسر . وغدا في وسعنا أن نرخي له القيد » . وكان رئيس الوزراء البافاري واحداً من الأوائل وإن لم يكن من الأواخر على أي حال من ساسة المانيا الذين وقعوا في هذه الخطيئة المميتة من الحكم والتقدير .

وعادت الفولكشير بيوباختر إلى الظهور في السادس والعشرين من شباط عام ١٩٢٥ ، وقد ظهرت في صدرها افتتاحية طويلة كتبها هتلر تحت عنوان « بداية جديدة » . وألقى في اليوم التالي خطاباً في أول اجتماع عام عقده الحزب النازي الذي عاد الى الحياة في « برغربوكلر » التي كان هو وأتباعه الأوفياء قد رأوها لآخر مرة صبيحة التاسع من تشرين الثاني قبل نحو من عـــام ونصف ، عندما شرعوا في زحفهم السيىء الحظ وقد غاب عن هذا الاجتماع عدد كبير من الاتباع الأوفياء . فقد مات أيكارت وشوبنر ـ ريختر. وكان غورنغ لا يزال في منفاه . أما لودندورف وروهم ، فقد اختلفا مع الزعيم . وكان روزنبرغ على خلاف مع شترايخر وايسر ، ولذا فقد تقاعس عن المجيء وظل بعيداً . وغاب أيضاً غريغور شتراسر الذي قاد مع لودندورف الحركة الاشتراكيـة الوطنية لحرية المانيا ابان وجود هتلر في السجن وحظر الحزب النازي عن العمل السياسي. وعندما طلب هتلر إلى انطون دريكسلر ، أن يتولى رئاسة الاجتماع ، رد عليه صانع الاقفال العجوز ومؤسس الحزب قائلاً : اذهب إلى الجحيم . لكن نحواً من اربعة آلاف عضو ، اجتمعوا في قاعة الحانة ثانية ليستمعوا الى هتلر من جديد، وكان عند حسن ظنهم ، إذ كانت بلاغته مؤثرة كعهدها دائماً . وبعد نحو من ساعتين من الخطابة ، ضج الحشد مرعداً بالهتاف والتصفيق . وعلى الرغم من انفضاض عدد كبير من الاعضاء عن الحزب ، وعلى الرغم من الآمال الضعيفة الخائرة ، فقد أوضح هتلر أنه ما زال يعتبر نفسه الزعيم المطلق للحزب ، ثم قال : « أنا وحدي أقود الحركة ، وليس في وسع انسان أن يملي شروطه علي ، طالما انني اتحمـــل المسؤولية شخصياً » . ثم مضى يقول : « وسأتحمل مرة ثانية جميـع المسؤولية عن كل ما يحدث من الحركة » .

وكان هتلر ، حين مضى إلى الاجتماع ، قد وضع هدفـين نصب عينيه وقد

صمم على متابعتها . وأول هذين الهدفين ان يركز جميع السلطات بين يديه ، أما الثاني فإعادة تنظيم الحزب النازي كمنظمة سياسية تبحث عن الوصول إلى الحكم بالطرق الدستورية وحدها . وكان قد شرح اسلوبه الجديد إلى أحد أتباعه، وهو كارل لودويك، عندما كان لا يزال في السجن إذ قال له : « وعندما أستأنف العمل الجدي والنشاط ، أرى لزاماً علي أن أتبع سياسة جديدة . وبدلاً من الجري وراء الحكم عن طريق الانقلابات المسلحة ، أرى أن نحتفظ بكبريائنا وأن ندخل إلى الرايشستاغ ضد النواب الكاثوليك والماركسيين ، وإذا كان التغلب عليهم بالأصوات يتطلب وقتاً أطول من التغلب عليهم بالرصاص ، فإن النتيجة على أي حال ستكون مضمونة طبقاً لدستورهم . وتكون كل عملية مشروعة بطيئة ، ولكننا سنحصل على الأغلبية ان عاجلاً وان آجلاً وآنذاك سنفوز بألمانيا »[1] . وأكد بعد اطلاق سراحه لرئيس وزراء بافاريا ان الحزب النازي سيعمل بعد الآن ضمن النطاق الدستوري .

ولكنه سمح لنفسه أن ينساق وراء الحماسة التي أبدتها الجماهير عند عودته إلى الظهور في حانة الجعة في السابع والعشرين من شباط ، ولذا لم يخف وعيده للدولة ، وتهديداته وقال ان العهد الجمهوري والماركسيين واليهود ، كلهم «أعداء الاشتراكية الوطنية » . وقال مندفعاً أثناء فورة حماسته : « وهناك طريقان ممكنان لا ثالث لهما لهذا النضال الذي نقوم به ، فإما ان يمر العدو فوق أجسادنا أو نمر نحن فوق أجساد الأعداء » .

وبدا أن هذا « الوحش الشرس » لم « يكبح » مطلقاً في هذا الخطاب العام الأول الذي ألقاه بعد خروجه من السجن . فقد كان يتوعد الدولة بالعنف من جديد على الرغم من الوعد الذي قطعه على نفسه بحسن السلوك وعادت الحكومة البافارية فحظرت عليه الخطابة في الاجتماعات العامة ، وهو حظر ظل ساري المفعول سنتين اخريين . وسرعان ما حذت الولايات الأخرى حذو بافاريا ، فجاء القرار ضربة موجعة لهذا الرجل ، الذي حققت له قوته الخطابية

---

١ - كورت لوديك — عرفت هتلر ص ٢١٧ - ٢١٨ .

جل نجاحه . فالصمت بالنسبة الى هتلر يعني الهزيمة ، إذ يغدو غـير فعال تماماً كالملاكم المقيد اليدين في حلبة الملاكمة . وهذا ما ظنّـه الكثيرون على الاقل .

ولكن ظنونهم خابت أيضاً ، فقـــد نسوا أن هتلر لم يكن يقل شأواً في تنظيمه عن ابداعه في التأثير على الجماهير بسحر بلاغته ، وكبح هتلر ما اتقد في صدره من ثورة لحرمانه من الكلام في الاجتماعات العامة ، وشرع بحماسة ساخطة عنيفة يعمل على إعادة بناء حزب العمال الالمان الاشتراكي الوطني ليجعل منه منظمة لم تشهد المانيا لها مثيلاً من قبل . وأراد أن يجعل من الحزب منظمـــة تشبه الجيش ، أو الدولة داخل دولة . وكان أول ما هدف إليه أن يجتذب إلى عضويته اناساً من دافعي الرسوم . ولم يكن عددهم يربو في نهاية عام ١٩٢٥ على السبعة والعشرين الفاً . ومضت القافلة تخطو ببطء ، ويسجل كل عـــام عدداً جديداً ، فقد بلغ في عام ١٩٢٦ نحواً من (٤٩) الفاً ، كما بلغ (٧٢) الفاً في عام ١٩٢٧ و (١٠٨) آلاف في عام ١٩٢٨ و (١٧٨) الفاً في عام ١٩٢٩ .

وكانت الخطوة المهمة الاخرى أن يقيم جهـــازاً حزبياً دقيقاً ومعقداً يماثل تنظيم الحكومـــة الألمانية بل وتنظيم المجتمع الألماني . فقـام بتقسيم البلاد إلى مقاطعات او «غاو».وهي تشبه إلى حد ما الدوائر الانتخابية الأربع والثلاثين بالنسبة إلى عضوية الرايشستاغ ، وعهد بقيادة الحزب في كل مقاطعة إلى قائد اقليمي اطلق عليه اسم « الغوليتر » ، هو الذي يقوم بتعيينه مباشرة . وكانت هناك سبع مقاطعات اضافية اخرى للنمسا ودانزيغ والسار وبلاد السوديت في تشيكوسلوفاكيا . وقسمت المقاطعة إلى حلقات (كريسي) ، ويرئس الحزب في كل منها قائد يدعى (كريسليتر) . وتنقسم الحلقة إلى وحدات أصغر تدعى فئات محلية (اورتزغروب) ، على ان تنقسم كل فئة منها في المدن إلى خـلايا للشوارع واخرى للأبنية .

وانقسم التنظيم السياسي للحزب إلى جماعتين اولاهما تدعى (P . O . I .) ومهمتها مهاجمة الحكومة والقيام بأعمال التخريب ضدها ، والثانية (P . O . II .) ومهمتها اقامة دولة ضمن دولة . وضمت المجموعـــة الثانية دوائر للزراعة والعدل ،

والاقتصاد الوطني والداخلية والعمل ، بالاضافة الى دوائر اخرى تستهدف العمل في المستقبل وهي للعنصر والثقافة والهندسة . أما المجموعة الأولى فضمت دوائر للشؤون الخارجية والنقابات العمالية والصحافة . وكان قسم الاعلام والدعاية دائرة مستقلة قائمة بذاتها وكاملة التنظيم .

وعلى الرغم من أن أوغاد الحزب الذين تمرسوا على قتال الشوارع ومعارك حانات الجعة قد عارضوا في ادخال النساء والاطفال في الحزب إلا أن هتلر أعد منظمات خاصة لهم أيضاً . وقامت منظمة شبيبة هتلر بتسجيل الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة وكانت لهم دوائرهم الخاصة بهم التي تعني بشؤون ثقافتهم ومدارسهم وصحافتهم ودعايتهم ورياضتهم الدفاعية ، بينما سجل الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة في منظمة اخرى تدعى « الشباب الألماني » (Deutches Jungvolk) . وأسس هتلر للفتيات منظمة دعاها « اتحاد الفتيات الألمانيات » (Bund Deutscher Maedel) . وللنساء منظمة اخرى أسماها « النساء الوطنيات الاشتراكيات » (N . S . Frauen Schaften) . وأقام لجماعات الطلاب والمعلمين والموظفين والاطباء والمحامين والقضاة منظماتهم الخاصة بهم كما أسس رابطة ثقافية نازية لتضم شمل المثقفين والفنانين .

وتم بعد مصاعب جمة تنظيم جيش العاصفة ليكون بمثابة قوة تضم بضعة مئات الألوف من الرجال يتولون حراسة الاجتماعات النازية ، وتفريق اجتماعات الآخرين ، ويقومون بارهاب كل من يعارض هتلر . وقد تركزت آمال بعض قادة هذا الجيش ، في أن يحل محل الجيش النظامي عندما يصل هتلر إلى الحكم . وتوقعاً لمثل هذا الاحتمال ، نظمت دائرة خاصة تولى رئاستها الفريق فرانز ريترفون ايب ، وأطلق عليها اسم « المكتب السياسي للجيش » (Wehr- Politische Amt) . وانقسم المكتب إلى خمسة أقسام لمعالجة المشاكل المتعلقة بالسياسة الدفاعية الخارجية والسياسة الدفاعية الداخلية ، والقوات الدفاعية وطاقات الدفاع الشعبي وما شابهها . ولكن جيش العاصفة من لابسي القمصان البنية ، لم يصبح قط أكثر من

مجرد رعاع متنافر من « القبضايات ». وكان عدد من كبار قادتهم ، وفي طليعتهم رئيسهم الأكبر روهم نفسه ، من المشهورين بانحرافاتهم الجنسية . ولم يكن الملازم ادموند هاينز الذي قاد فرق الصاعقة في ميونيخ مجـرد انسان مصاب بالشذوذ الجنسي فقط بل كان أيضاً قاتلاً مداناً . وكان هذان الرجلان وعشرات غيرهما يتشاحنون ويختلفون ، شأنهم في ذلك شأن جميع المصابـــين بالميول الجنسية الشاذة ، لوقوعهم دائماً تحت تأثير الغيرة والعواطف المتنافرة .

وأراد هتلر أن تكون له عصابة يستطيع الاعتماد عليها أكثر من سابقتها فخلق فريق الحرس النازي (.S.S) وألبس أفراده الزي العسكري الأسود ، المشابه للزي الذي يرتديه الفاشيون الايطاليون ، وحملهم على أن يقسموا يميناً خاصاً بالولاء له شخصياً . ولم يكن الحرس النازي عند تأسيسه أكثر من مجرد حرس خاص لهتلر . وكان أول قائد له صحفياً يدعى بيرشتولد . ولما كان هـذا الرجل يؤثر الهدوء النسبي في غرفة الاخبار في الفولكشاير بيوباختر على مسرحيـــة القائد والجندي ، فقد استعيض عنه بشخص آخر يدعى ايرهارد هـايدن ، وهو أحد رجال الشرطة السابقين . ولا ترتفع سمعته عن الشبهات . ولم يستطع هتلر العثور على الرجل المثالي الذي طال بحثه عنه لتولي قيادة هذا الحرس إلا في عام ١٩٢٩ ، وقد وجده في شخص مزارع يعمل في تربية الدواجن في قرية «وولدترو ديدرينغ» القريبة من ميونيخ ، ويبدو في مظهر الانسان الوادع الذي يخدع كل من يراه ، كما خُدع مؤلف هذا الكتاب عندما تعرف عليه لأول مرة فحسبه مدير مدرسة في احدى المدن الصغيرة ، وهو هنريخ هملر . وعندما تولى هذا الرجل قيـادة الحرس النازي لم يكن أفراده يزيدون على المائتين ، ولكنه عندما أنهى عمله معه ، كان هذا الحرس هو المسيطر على المانيا كلها ، وكان اسمه كافياً لإلقاء الرعب والفزع في أوروبا المحتلة جميعها .

وفي قمة الهرم لهذا التنظيم الحزبي المعقد ، يقف ادولف هتلر ، بلقبه الطنان « الزعيم الأعلى للحزب والقائد الأعلى لجيش العاصفة ، ورئيس منظمة العمال الألمان الاشتراكية الوطنية » . ويقوم مجلس مديري الرايخ (Reichs leitung) ، الى

جانب الزعيم وعلى اتصال مباشر به ويضم كبار زعماء الحزب وبعض الموظفين النافعين من أمثال « أمين صندوق الرايخ » و « مدير أعمال الرايخ » . وإذا ما قام المرء بزيارة مقر قيادة الحزب القومية في ميونيخ الذي يحتل قصراً يدعى « القصر البني » ، في الأيام الأخيرة من حياة الجمهورية ، خرج الزائر بالانطباع ، بأن هذا القصر يضم دولة داخل دولة . وليس ثمة من شك في أن هتلر توخى أن يترك هذا الانطباع الذي ساعده كثيراً على تحطيم الثقة داخل المانيا وخارجها في الدولة الالمانية التي كان يعمل على اسقاطها .

لكن هتلر كان مصمماً على شيء أكبر وأهم من مجرد أن يترك انطباعاً . فقد شرح بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى الحكم أي في عام ١٩٣٦، في خطاب ألقاه في « المحاربين القدماء » في « برغربراو » بمناسبة الذكرى السنوية للتاسع من تشرين الثاني ، أحد الاهداف التي توخاها من بناء الحزب في هذا الشكل الهائل والشامل من التنظيم ، وقال مستعيداً ذكرى الايام التي كان يعمل فيها على إعادة تنظيم الحزب بعد الانقلاب « لقد أدركنا ، ان قلب الحكومة القديمة أمر لا يكفينا ، وان علينا ان نبني مسبقاً الدولة الجديدة ، وان تكون على أهبة الاستعداد عملياً لتسلّم الحكم ... وعندما حل عام ١٩٣٣ ، لم يعد الموضوع قضية اطاحة بالدولة عن طريق عمل من أعمال العنف ، إذ كنا في غضون ذلك قد بنينا الدولة الجديدة ولم يبق أمامنا إلا تحطيم آخر ما تبقى من الدولة القديمة ، ومثل هذا التحطيم لم يستغرق منا أكثر من بضع ساعات » [١] .

* * *

لكن هذا التنظيم مهما كان رائعاً في كفايته واتقانه يتألف على أي حال من بشر معرضين للخطأ ، وقد لقي هتلر في تلك الأيام التي أعد فيها حزبه لتسلم مقاليد المانيا وقضاءها ، متاعب جمة مع كبار مساعديه ، الذين كانوا دائمي التشاحن والعراك لا مع بعضهم البعض فحسب بل معه هو أيضاً . وكان هذا

---

١ - باينيز - خطب ادولف هتلر ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الرجل الذي لا يعرف التسامح بطبيعته ، متسامحاً للغاية بالنسبة الى وضع انساني وحيد ، وهو اخلاق الانسان . إذ لم يكن هناك من حزب آخر في المانيا قد تمكن من اجتذاب مثل هذا العدد الضخم من الاشخاص السيئي السمعة . وقد سبق لنا أن رأينا أن خليطاً غريباً من « القوادين » والقتلة ، والشواذ جنسياً ، والمدمنين على الخمر ، والميالين الى الابتزاز عن طريق التشهير بالفضائح قد تكأكأوا على الحزب ، وكأنه الملجأ الطبيعي لهم. ولم يكن هتلر ليكترث بذلك طالما انهم ينفعونه ، وعندما خرج من السجن، وجد أن هؤلاء قد أخذوا برقاب بعضهم البعض يتعاركون ويتشاحنون ، وأن هناك إلحافاً من جانب بعض القادة المحترمين وذوي المكانة في الحزب ، كروزنبرغ ولودندورف ، على وجوب طرد المجرمين ولا سيما المعروفين بشذوذهم الجنسي من الحركة . ولكن هتلر رفض الاذعان بصراحة الى هذا الطلب وقال في مقال افتتاحي كتبه في الفولكشاير بيوباختر في السادس والعشرين من شباط عام ١٩٢٥ « لا أعتقد أن من مهمة القائد السياسي أن يحاول اصلاح المادة البشرية التي تقف جاهزة في متناول يده أو حتى التوحيد بينها » .

وبلغت الاتهامات المتبادلة بين قادة النازي في عام ١٩٢٦ حداً ضايق هتلر كل المضايقة فأمر بإقامة محكمة للحزب للفصل في هذه الاتهامات ، ولمنع رفاقه من نشر غسيلهم القذر علناً . وقد لقبت هذه المحكمة الحزبية باسم « لجنة التحقيق والفصل » (اوشلا Uschla) . وكان أول رئيس لها جنرال سابق يدعى هينمان . لكنه لم يستطع تفهم الغاية الأساسية المتوخاة من المحكمة ، التي لم يكن يطلب إليها اصدار الاحكام على المتهمين بالجرائم العادية ، بل إسكات هؤلاء المتهمين وإخفات هذه الجرائم ، والحيلولة دون ازعاج الانضباط الحزبي أو تحدي سلطة الزعيم . وهكذا استعيض عن الجنرال بضابط سابق أكثر تفهماً هو الرائد دولتربوك ، الذي عين له الزعيم مساعدين لمعاونته أحدهما اولريخ غراف ، القصّاب السابق الذي كان يعمل حارساً شخصياً لهتلر ، وهانز فرانك المحامي النازي الشاب الذي سنسمع عنه كثيراً فيما بعد عندما نروي تعطشه للدماء بعد أن أصبح الحاكم العام لبولندة المحتلة . وهو ما قاده إلى

دفع حياته ثمناً له على مشانق نورمبرغ . وقد أدى هـذا الثالوث القضائي الرائع دوره رائعاً بحيث أرضى الفوهرر ارضاءً كاملاً . فقد كانت الاتهامـات البشعة توجه إلى أي واحد من زعمـاء الحزب ، وكان موقف بوك منها يتلخص دائماً في العبارة التالية : « وماذا في ذلك ؟ » ان كل ما يريده هو أن يعرف ما إذا كانت الجريمة التي اقترفها تلحق الأذى بالانضبـــاط الحزبي أو تسيء إلى الفوهرر ليس الا .

وكان الحفاظ على ذلك الرعيل من النازيين الكبار ، الطموحين ، وقاطعي الرقاب ضمن نطاق الانضباط الحزبي يتطلب أكثر من هذه المحكمة على الرغم من فعّاليتها في أكثر من ألف حادث وقضية . وكثيراً ما اضطر هتلر الى التدخـل شخصياً ، لا للحفاظ على مظهر من مظاهر الانسجام فحسب ، بل وللحيـلولة دون وصول السكين إلى رقبته لقطعها .

وبينما كان الذبول يلاحقه وهو في سجنه في لاندسبرغ، أخذ نجم شاب يدعى غريغور شتراسر ، يلمع فجأة في صفوف الحركة النازية . وكان هذا الشاب الذي يصغر هتلر بثلاث سنوات يعمل صيدليـــاً قبل الحرب في بافاريا التي ولد ونشأ فيها ، وقد منح ابان الحرب كهتلر وسام الصليب الحديدي من الطبقة الأولى ، وارتقى خلالها إلى رتبة الملازم . وقد انضم إلى الحزب النازي في عام ١٩٢٠ ، وسرعان ما غدا قائداً اقليمياً في بافاريا السفلى . وقد تميز هذا الرجل بضخامة جسمه وبدانته ، وميله إلى التمتع بالحياة ، وتدفقه بالحيوية ، وتطور ليصبح خطيباً عاماً مؤثراً بما امتاز به من قوة شخصية لا من بلاغة كبلاغة هتلر . إذ افتقر الى مواهب الزعيم الخطابيـــة . يضاف الى هذا انه كان منظـّماً عظيماً بفطرته . وكان شتراسر استقلالياً عنيفاً في عقله وروحـه ، فرفض أن يسجد لهتلر ، أو أن يعترف بجـــدية ادعاءاته بديكتاتوريتـــه المطلقة على الحركة النازية . وقد أثبت هذا الموقف مع الوقت، انه كان عائقاً مميتاً لهذا الرجل تماماً كحماسته المطلقة للاشتراكية في الحركة الاشتراكية الوطنية .

وانضم شتراسر رغم معارضة هتلر السجين الى لودندورف وروزنبرغ في

تنظيم حركة نازية شعبية تتولى دور التحدي لسيادة الدولـــة . وفي الانتخابات العامة في ربيع عام ١٩٢٤ ، تمكنت الكتلة الجديدة من الحصول على أصوات كافية لجعلها الحزب الثاني في ضخامته ، فقد حصلت في المانيا كما سبق لنا ان قلنا ، تحت ستار اسم الحركة الوطنية الاشتراكية لحرية المانيا على مليوني صوت ونالت اثنين وثلاثين مقعداً في الرايشستاغ ، كان أحدهـا من نصيب شتراسر نفسه .

وحمل هتلر انطباعاً أسود عن نشاط الشاب ، وانطباعاً أكثر سواداً عن نجاحه . وكان شتراسر بدوره ، غير ميال الى قبول هتلر كالسيد المطلق ، ولذا فقد نأى عامداً عن المهرجان الضخم الذي عقد في ميونيخ في السابع والعشرين من شهر شباط عام ١٩٢٥ ، وهو الذي أعاد الحزب النازي الى الوجود من جديد .

وأدرك هتلر ، أنه إذا أُريد للحركة أن تغدو قومية حقاً ، فمن الواجب أن يصبح لها موطىء قدم في الشمال أي في بروسيا ولا سيما في برلين قلعة الاعداء . وكان شتراسر في انتخابات عام ١٩٢٤ قد قام بنشاط انتخابي في الشمال عاقداً أحلافاً مع بعض الجماعات المغالية في تعصبها القومي هناك والتي يقودها اولبرخت فون غريف . والكونت ارنست زو ريفينتلو . وهكـــذا كان شتراسر الزعيم النازي الوحيد الذي يملك اتصالات شخصية في تلك المنطقة وله بعض الأتباع . وبعد اسبوعين من اجتماع السابع والعشرين من شباط ابتلع هتلر الاهانة الشخصية التي وجهت إليه ، وبعث في طلب شتراسر ، مقنعاً اياه بالعودة الى الحظـيرة ، ومقترحاً عليه القيام بتنظيم الحزب النازي في الشمال . وقبل شتراسر العرض ، فقد اتيحت له الفرصة لإظهار مواهبه . دون أن يكون الزعيم الغيور المتغطرس في وضع يمكنه من قطع رقبته .

ولم تمض عدة أشهر ، حتى كان قد أسس صحيفة للحزب في العاصمة أسماها « برلينر زايتونغ » وعهد برئاسة تحريرها إلى أخيه اوتوشـــتراسر ، كما أسس « رسالة أنباء » تصدر مرتين في الشهر ، تسمى « أنباء النازي » ، وهدفها ابقاء أعضاء الحزب على اطلاع على مخططه . ووضع القواعد لمنظمة سياسيـة امتدت عبر بروسيا وسكسونيا وهـانوفر وحوض الرين الصناعي . وكان شتراسر أشبه

ما يكون بالمحرك الحقيقي فهو يطوّف في جميع أرجاء الشمال ، ملقياً الخطب في الاجتماعات العامة ، ومعيناً الزعماء الاقليميين ومقيماً الاجهزة الحزبية . وكانت عضويته في الرايشستاغ تضفي عليه ميزتين للتفوق عـلى هتلر ، أولاهما حرية التنقل في القطارات دون أن يكلف نفسه أو خزينة الحزب أية نفقات ، وثانيتهما الحصانة البرلمانية التي يتمتع بها . ولم يكن في وسع أية سلطة أن تحول بينه وبين إلقاء الخطابات العامة ، ولم يكن في وسع أية محكمة أن تقاضيه عـلى التشهير أو تحقير أي انسان أو شيء يريـد تحقيره . وقد كتب هايدن متهكماً . . . « السفر مجاناً ، وحرية التشهير . . . ميزتان مكنتا شتراسر من الانطلاق أمام زعيمه » .

وقد اختار غريغور شتراسر كسكرتير له وكرئيس تحرير «لرسالة أخباره» شاباً في الثامنة والعشرين من عمره ، ومن منطقة الراين يدعى بول جوزيف غوبلز .

ظهور بول جوزيف غوبلز

ولم يكن هذا الشاب القزم القاتم ، ذو القدم العرجاء والعقل الحاضر البديهة والشخصية العصابية المعقدة بالانسان الغريب على الحركة النازية ، فقد اكتشفها في عام ١٩٢٢ عندما استمع إلى هتلر وهو يلقي خطاباً في برلين . فاعتنق ديانته وغدا عضواً في الحزب . لكن الحركة لم تكتشفه حقاً إلا بعد نحو مـن ثلاث سنوات ، عندما استمع إليه غريغور شتراسر وهو يخطب فقرر أن في وسعه أن يستخدم مثل هذا الشاب الذي يتمتع بمواهب واضحة . وكان غوبلز وهو في الثامنة والعشرين خطيباً عاطفياً فارهاً ، كما كان وطنياً متعصباً ، وكان كما عرف شتراسر ، صاحب قلم هجّاء يتقن القدح ، كما كان من القلائل بين زعماء النازية ، الذين مروا بتعليم جامعي صحيح . وكان هنريخ هملر قد استقـال من منصبه كسكرتير لشتراسر ليكرس وقتاً أطول لتربية الدجاج ، فعيّن هذا غوبلز في موضعه ، وسرعان ما برهن هذا التعيين على أنه اختيار موفق .

ولد بول جوزيف غوبلز في التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٨٩٧ في

بلدة ريدت ، المعروفة بصناعة النسيج والتي تضم نحواً من ثلاثين ألف نسمة في حوض الراين . وكان والده فريتز غوبلز مراقباً للعمل في أحـــد مصانع النسيج المحلية ، أما والدته ماريا كاتارينا أو دينهاوزن ، فكانت ابنة حداد في البلدة ، وكان الوالدان من الكاثوليك الأتقياء .

وتلقى جوزيف غوبلز معظم تعليمه عند الكاثوليك ، فقد انتمى الى مدرسة ابرشية كاثوليكية ثم التحق « بالجمنازيوم » في ريدت . ومكنته منحة دراسية من جمعية البرت ماغنس الكاثوليكية من الالتحاق بالجامعة ، أو بالأحرى بثماني جامعات . وقبل أن يحصل على شهادة الدكتوراه في عام ١٩٢١ من جامعـــة هايدلبرغ وهو في الرابعـة والعشرين من عمره كان قد درس في جامعات بون وفريبورغ ودورزبورغ وكولون وفرانكفورت وميونيخ وبرلين . وركّـز غوبلز في هذه المؤسسات العظيمة التي تعتبر زهرة التعليم العالي الالماني على دراسة الفلسفة والتاريخ والأدب والفنون بينما واصل في الوقت نفسه دراسة اللاتينية والاغريقية .

وقد هدف غوبلز إلى أن يغدو كاتبـاً . وكتب في السنة التي حصل فيها على الدكتوراه ، قصة عن تاريخ حياته أسماها « ميشيل » ، لم يرض أحد الناشرين في ذلك الحين بطبعها ، كما أتم في السنتين التاليتين روايتين مسرحيتين نثريتين هما « الجوّال » عن السيد المسيح و « الضيف الوحيد » ولكن اياً من المخرجين لم يقبل باعدادهما للمسرح [١] . ولم يكن حظه في الصحافة ، أحسن من حظه في التأليف ، فقد رفضت الصحيفة الليبرالية الكبرى « برلينر تاغبلات » ، نشر عشرات المقالات التي بعث بها إليها ، كما رفضت تعيينه محرراً فيها .

وامتلأت حياته الشخصية أيضاً في مستهلها بالكثير من خيبة الأمل . فلم

---

(١) طبعت « ميشيل » اخيراً في عام ١٩٢٩ ، بعد ان غدا غوبلز معروفاً بانه من زعماء النازيين . « أما الجوال » فقد مثلت على المسرح بعد ان غدا غوبلز وزير دعاية الرايخ والمسؤول عن المسرح الألماني . ولم يقدر لها ان تعمر طويلاً .

يستطع بسبب عاهته أن يخدم في الحرب، وهكذا حرم من التجربة التي بدت له في البدايه كما لغيره من الشبان مجيدة كل المجد، والتي كانت شرطاً أساسياً للقيادة في الحزب النازي . ولم يكن غوبلز قد ولد كما يعتقد معظم الناس مشوه القدم، بل اصيب وهو في السابعة من عمره بالتهاب في العظم النقبي والتهاب في النخاع النقبي . ولم تنجح عملية اجريت له في فخذه الايسر، وظلت ساقه اليسرى اقصر من رفيقتها وأضعف . وكان هذا العيب الذي أرغمه على المشي عارجاً ، قد آلمه طيلة أيام حياته وكان سبباً من أسباب نقمته المبكرة. وكان ابان حياته الجامعية والفترة القصيرة التي عمل فيها محرضاً ضد الفرنسيين في الروهر يتظاهر بأنه من متطوعي الحرب الجرحى والمشوهين .

ولم يكن كذلك محظوظاً في حبه، على الرغم من أنه طيلة حياته كان يخطىء في فهم تعشقه للنساء ، فقد غدا مشهوراً في أيام سلطانه بأنه زير نساء، وراجت قصص كثيرة عن مغامراته الغرامية . وكانت اليوميات التي دونها في عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ عندما كان في الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين من عمره ، وعندما شرع يخوض غمار السياسات النازية مدفوعاً من شتراسر، حاشدة بنزواته وشهواته مع عشيقاته الكثيرات العدد في وقت واحد[1] فقد كتب يقول :

« ١٤ آب ١٩٢٥ - بعثت إلى آلما ببطاقة بريدية من بادهارزبورغ وكانت هذه أول رسالة منها منذ تلك الليلة . يا لها من ساحرة ومدللة ! !

« تسلمت أول رسالة من إلزي في سويسرا . وليس ثمة من تستطيع الكتابة على هذا النحو سوى إلزي العزيزة .. سأذهب عما قريب إلى الراين لقضاء اسبوع هادىء وحيداً .. وستأتي إلزي بعد ذلك .. ما أسعدني في انتظارها !

---

١ - تعتبر هذه اليوميات المبكرة التي عثر عليها عملاء مخابرات الحلفاء بعد الحرب مصدراً ثميناً للمعلومات عن هذه الفترة من حياة غوبلز .

« ١٥ آب – يجب أن أفكر طويلاً في هذه الأيام بأنكي ... بالروعة السفر معها . هذه الغادة الرائعة !!

« ما زلت في لهفة إلى إلزي . ترى متى يتاح لي أن أضمها ثانية بين ذراعي ؟

« ايه يا إلزي العزيزة متى أراك من جديد ؟

« وانت يا ألما .. انك في وزن الريشة .

« اما انت يا أنكي ، فلن استطيع نسيانك .

« ٢٧ آب – قضيت أياماً ثلاثة على الراين..لم أتلق كلمة واحدة من إلزي .. ترى هل هي غاضبة عليّ ؟ انني اتحرق شوقاً إليها ! ما زلت أعيش في نفس الغرفة التي شهدت حبنا معاً في عيد العنصرة.. يا لها من أفكار ! ويا لها من مشاعر ! ترى ما الذي حال بينها وبين المجيء ؟

« ٣ ايلول – ها هي إلزي معي هنا . لقد عادت يوم الثلاثاء من سويسرا – لقد امتلأت صحة وشحماً ولحماً ، وتدفقت بالسرور والمرح ، كما لوّحت الشمس بشرتها بالسمرة بعض الشيء . انها سعيدة وفي أحسن حالاتها . ما أحسنها معي ! فهي تغدق الكثير من الفرح والسرور .

« ١٤ تشرين الأول : ترى لماذا اضطرت انكي إلى التخلي عني؟.. علي ان لا افكر على هذا النحو .

« ٢١ كانون الأول هناك لعنة حلّت بي وبالنساء . . ما أشقى اللائي يحببنني ! !

« ٢٩ كانون الأول ذهبت إلى كريفيلد ليلة أمس مع هس . شهدنا احتفالات الميلاد . ورأيت فتاة جميلة ممتعة من فرانكونيا .. انها الطراز الذي احبه . ذهبت معها إلى البيت تحت المطر وفي ابان العاصفة . الوداع .

« لقد وصلت إلزي .

« ٦ شباط ١٩٢٦ - انني أكاد أحترق تطلعاً الى امرأة جميلة !
يا له من ألم شديد العذاب !

لم ينس غوبلز قط انكي هيلهورن ، الفتاة الأولى التي احبها ، والتي اجتمع بها ابان الفصل الثاني من دراسته في فريبورغ. ويومياته مليئة باللهفة عليها وعلى جمالها الأسمر ، وبخيبة الأمل التي أصابته عندما تخلت عنه . وقد كشف فيما بعد عندما أصبح وزيراً للدعاية النقاب الى بعض أصدقائه بشيء من الغرور والشراسة عن الأسباب التي دفعتها الى هجره إذ قال لهم : «لقد خانتني لأن الرجل الآخر، كان أكثر مالاً وكان في وسعه أن يخرج بها الى العشاء والى المسارح. ما أحمقها !.. كان في وسعها أن تكون اليوم زوجة وزير الدعاية!.. ولا شك في انها تحس اليوم بالكثير من خيبة الأمل » . وكانت أنكي قد تزوجت « الرجل الآخر » ثم طلقت منه ، وجاءت الى برلين في عام ١٩٣٤ ، حيث عثر لها غوبلز على عمل في احدى المجلات [١] .

وكان تطرف شتراسر وإيمانه « باشتراكية » الحركة الاشتراكية الوطنية ، هي التي استهوت غوبلز الشاب . فلقد رغب الرجلان في إقامة الحزب على دعائم من الطبقة العاملة . وتحتشد يوميات غوبلز بالتعبيرات التي تظهر العطف على الشيوعية في ذلك الوقت . وقد كتب في الثالث والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٢٥ ، يقول : وسيكون من الأفضل لنا في التحليل الأخير ، أن ننهي وجودنا في ظل البلشفية على أن نحتمل العبودية في ظل الرأسمالية » . وقال يحدث نفسه في يومياته بتاريخ الواحد والثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٢٦ : « أعتقد ان من الفظاعة بمكان ، ان نلطم نحن النازيين رؤوسنا برؤوس الشيوعيين ... فأين يمكن لنا ان نتفاهم مع القادة الشيوعيين ؟ » . وفي هذا الوقت بالذات نشر رسالة مفتوحة الى زعيم شيوعي أكد له فيها ان النازية

---

١ - كورت ريس - جوزف غوبلز ص ٨ .

والشيوعية في الواقع شيء واحد ، ثم قــال : « اننا نقاتل بعضنا البعض ... ولكننا في الواقع لسنا بالاعداء » .

وكانت هذه الآراء بالنسبة الى هتلر ، هرطقة مجسّمة ، فأخذ يراقب بشيء من القلق المتزايد نجاح الاخوين شتراسر ، وغوبلز في بناء جناح عمالي متطرف ونشيط في الحزب في الشمال واعتقد أنه إذا افسح لهم المجال ، فإن هـؤلاء الرجال قد يسيطرون على الحزب ويوجهونه الى أهداف يعارضها هتـلر بعنف شديد . وقد وقع الخصام المحتــوم في خريف عام ١٩٢٥ وفي شهر شباط الذي تلاه .

وكان غريغور شتراسر وغوبلز همـا من فرضا المعركة وفي قضية أثارت الكثير من المشاعر في المانيـــا في ذلك الوقت ، فقد اقترح الاشتراكيون الديموقراطيون والشيوعيون أن تضع الجمهورية يدها على الاقطاعيـات الواسعة والثروات الكبيرة التي خلفتها الاسر المالكـــة المخلوعة واسر الامراء ، بعد مصادرتها . وكان من المقرر طبقاً لدستور ويمار اجراء استفتاء للشعب على هذه القضية . واقترح شتراسر وغوبلز أن يقفز الحزب الى المعركة وأن ينضم الى الشيوعيين والاشتراكيين في تأييد الحملة لانتزاع ما يملكه النبلاء .

وثار هتلر ثورة عاصفة. فلقد كان عدد من هؤلاء الحكام السابقين قد أغدقوا التبرعات على الحزب. وإضافة إلى هذا كان عدد من كبار الصناعيين قد بدأ في الاهتمام مالياً بالحركة التي بعثها هتلر من جديد،وذلك بسبب الأمل في أن تكون فعّالة في مقاومة الشيوعيين والاشتراكيين والنقابات العمّالية . واعتقد هتلر أن نجاح شتراسر وغوبلزفي خططهما ، سيؤدي الى نضوب مصادر دخل الحزب.

ودعا شتراسر ،قبل أن يتمكن هتلر من العمل ،الى اجتماع لقادة الحزب في المنطقة الشمالية يعقد في هانوفر في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٥، ولم يكن الهدف من هذا الاجتماع حشد الفرع الشمالي للحزب النازي وراء حملة المصادرة فحسب ، بل الترويج لبرنامج اقتصادي جديد يستعاض به عن البرنامج « الرجعي » ذي الخمس والعشرين نقطة ،الذي أقره الحزب عام ١٩٢٠. وقد أراد الاخوان شتراسر وغوبلز تأميم الصناعـات والاقطاعيات الكبيرة والاستعاضة

عن الرايشستاغ بمجلس الاتحادات على الطريقة النـــازية . ورفض هتلر حضور اجتماع ولكنه اوفــد تابعه الامين غوتفريد فيــدر لتمثيله ولسحق العصاة . ولكن غوبلز طـــالب بطرد فيدر من الاجتماع قائلاً « نحن لا نريد بيننا دمى خادعة ». وقد شهد الاجتماع عدد من الزعماء الذين قدر لهم ان يلعبوا فيما بعـد دوراً بارزاً في الرايخ الثالث وبينهم بيرنهارد روست وايريك كوخ وهانز كيرل وروبرت لي ، وكان الاخير ، وهو كيمائي يعمل في الكحول ، ويتولى الزعامة النازية في منطقة كولون الوحيد الذي ايد هتلر . وعندما قال كل من الدكتور لي وفيدر ان الاجتماع غير قانوني ، وان ليس في امكانه اتخـــاذ قرار دون وجود هتلر الزعيم الاعلى – صرخ غوبلز – كما يقـول اوتو شتراسر الذي شهد الاجتماع قائلاً : « انـــني اطلب طرد ادولف هتلر ، البورجوازي الصغير من الحزب النازي » .

وبدا لغريغور شتراسر ان الهجّاء الشاب غوبلز قد مضى بعيداً ، بعــد ان كان واقعاً تحت سحر هتلر قبل ثلاث سنوات .

وقد قال غوبلز مستذكراً انطباعاته عن المرة الأولى التي استمع فيهـا الى هتلر وهـــو يخطب في سرك « كرون » في ميونيخ في حزيران عام ١٩٢٢ : « لقد ولدت مرة ثانية في تلك اللحظة ... وقـد اصبحت اعرف الآن الطريق الذي يجب ان اسلكه...حقاً انه لأمر علي ان اطيعه» وكان متحمساً جداً لسلوك هتلر ابان محاكمته في قضية انقلاب ميونيخ ، فقد بعث الى الفوهرر بعد صدور القرار برسالة قال فيها :

« لقد ظهرت امام اعيننا الحائرة مثل الكوكب المشرق ، وقد قمت بالمعجزات لصقل عقولنا ، ومنحتنا الايمان في عالم من الشكيّة واليأس . لقد حلـّقت فوقا لجماهير ممتلئاً بالايمان وواثقاً بالمستقبل ، واسيراً لإرادتك في ان تحرّر هذه الجماهير بحبك الذي لا حدود له لكل اولئك الذين يؤمنون بالرايخ الجديد . وقد رأينا لأول مرة بعيون مشرقة براقة ، رجلاً يمزق القناع عن وجـــوه اولئك الذين

افسدتهم المطامع ، ووجوه اولئك الثرثارين البرلمانيين الوضيعين . . .
« وقد تجلـّيت امامنا في محكمة ميونيخ في عظمة الزعيم القائد .
وكان ما قلته اروع كلمات قيلت في المانيا منذ ايام بسمارك . . .
وقد اعربت عن اكثر من مجرد آلامك التي تحس بها . . فقد وضعت
النقاط على الحروف وذكرت ما يشعر به جيل كامل من حاجة الى
الرجال والمهمات باحثاً عنهما في توق يسوده الارتباك . ولا ريب
في ان ما قلته هو بمثابة الموعظة للعقيدة السياسية الجديدة التي
ولدها اليأس من عالم لا اله فيه ، آخذ في الانهيار . . . اننا
نشكرك . ولا ريب في ان المانيا ستشكرك في يوم ما . . . »

ولم يمض اكثر من عام ونصف العام حتى كان هذا المعبود غوبلز قد هوى في نظره ، فقد غدا « بورجوازياً صغيراً » جديراً بأن يطرد من الحزب . وقرر اجتماع هانوفر على الرغم من معارضة لي وفيدر ، تبني برنامج شتراسر الجديد للحزب ، ووافق على القرار بالاشتراك مع الماركسيين في حملة الاستفتاء لحرمان الملوك والأمراء السابقين من ممتلكاتهم .

واحتمل هتلر هذه الصدمة فترة ، ولكنه وجـّه ضربته المقابلة في الرابع عشر من شباط عام ١٩٢٦ . فقد وجه الدعوة الى اجتماع عقد في بامبرغ في جنوب المانيا ، بعد ان اختار مكراً منه ودهاء يوماً من ايام الاسبوع كان من الصعب فيه على زعماء الشمال ان يبتعدوا عن مناصبهم . وبالفعل لم يتمكن من الحضور الا غريغور شتراسر وغوبلز ، ووجدا نفسيهما ضعيفين امام جمع حاشد من الزعماء الجنوبيين الذين اختارهم هتلر . واضطر الرجلان تحت الحاف هتلر وضغطه الى التسليم والتخلي عن برنامجهما . وقد ذكر المؤرخون الألمان الذين أرّخوا النازية من امثال هايدن واولدن ، والكتـّاب غير الألمان الذين مشوا في عين اتجاههم ، ان غوبلز تخلى علناً في اجتماع بامبرغ عن شتراسر منضماً إلى هتلر . ولكن يوميات غوبلز التي اكتشفت بعد ان وضع هايدن واولدن تاريخهما ، تكشف النقاب عن انه لم يتخل عن شتراسر بمثل هذه الصورة المباغتة ، إذ انها تظهر ان غوبلز على

الرغم من انضمامه الى شتراسر في التسليم لهتلر، اعتقد ان الفوهرر كان على خطأ تام، وانه لم يعتزم في هذه اللحظة على الأقل، الانضمام الى جانبـــه في اية صورة من الصور. فقد اسرّ في الخامس عشر من شباط أي في اليوم الذي تلا اجتماع بامبرغ بالكلمات التالية الى يومياته :

« تحدث هتلر مدة ساعتين. وشعرت وكأن شخصاً قد صفعني، ترى أي طراز من الناس هتلر هذا ؟ هل هو رجعي؟ انه غريب كل الغرابة وغير مستقر في آرائه. انه على خطأ تام في القضية الروسية. هل ايطاليا وانكلترا هما الحليفتان الطبيعيتان لنا كما ذكر !! يا له من قول فظيع !.. علينا ان نبيد روسيا ... وعلينا ان لا نمس موضوع الاملاك الخاصة بالنبلاء!! يا للفظاعة! .. لم استطع ان اتفوه بكلمة واحدة. أشعر بأن انساناً قد ضربني على رأسي. لا شك في ان ما دار كان من أعظم ما منيت به من خيبة أمل في حياتي. لم أعد أثق ثقة عميــاء في هتلر هذا هو الشيء الفظيع، فقد انتزعت من تحتي القواعد التي كنت أجلس عليها ».

ولقد مضى غوبلز مع شتراسر الى المحطة ليظهر اين يتجه ولاؤه، وحاول التسرية عنه. وسجل بعد نحو من اسبوع أي في الثالث والعشرين من شباط ما يلي : « اجتمعت طويلاً بشتراسر. وكانت النتيجة ان علينا ان لا نحقد على جماعة ميونيخ انتصارهم المرهق المتعب. ولكن علينا ان نشرع من جديد في نضالنا من اجل الاشتراكية ».

ولكن هتلر كان اكثر تقديراً لهذا الشاب الرايني الملتهب من شتراسر. وقد دوّن غوبلز فى التاسع والعشرين من آذار ما يلي : « تلقيت هذا الصباح رسالة من هتلر. سألقي في الثامن من نيسان خطاباً في ميونيخ ». وقد وصل بالفعل الى هناك في السابع من نيسان، وكتب يقول ... « كانت سيـــارة هتلر في انتظاري.. يا له من استقبال ملكي حافل! سأخطب في قاعة الحانة التاريخية». وقد خطب بالفعل في اليوم التالي على نفس المنبر الذي خطب هتلر عليه. ودوّن

كل انطباعاته في يومياته ، بتاريخ الثامن من نيسان :

« هتف لي هتلر .. ان لطفه رغـم موقفي في بامبرغ يدفعني الى الخجل ...ومضينا في السيارة في الساعة الثانية بعد الظهر الى حانة الجعة . كان هتلر قد وصل . اشعر بخفقان قلبي يشتد حتى وكأنه يكاد ينفجر . دخلت الى القاعة . كان الاستقبال رائعاً والهتاف داوياً ... طال خطابي ساعتين ونصف الســاعة .. الناس يهتفون ويرعدون .. عانقني هتلر في النهاية . انني احس بالسعادة.. انهتلر دائماً الى جانبي » .

واستسلم غوبلز تمام الاستسلام لهتلر بعد بضعة ايام . فقد دون في يوميّتة في الثالث عشر من نيسان ما يلي : « خطب هتلر مدة ثلاث ساعات . كان رائعاً . ان هذا الرجل يحملك على الشك في آرائك . ان ايطاليا وانكلترا هما حليفتانا . أما روسيا فتريد أن تبتلعنـا .. انني احبه ... لقد فكر في كل شيء تفكيراً كاملاً...ان مثله الاعلى يتركز في الجماعية العادلة والفردية العادلة . أما بالنسبة الى الارض ، فكل شيء ملك الشعب . ويجب أن يكون الإنتاج فردياً وخلاقاً . أمـــا الاحتكارات ووسائل النقل فيجب تأميمها اشتراكياً ... لقد اصبحت أحس بالراحة بالنسبة إليه ... واني لأحني هامتي للرجـــل الاعظم ، للعبقري السياسي » .

وعندما غادر غوبلز ميونيخ في السابع عشر من نيسان ، كان قد غدا رجل هتلر ، وقدر له ان يظل اكثر اتباعه اخلاصاً وولاءاً حتى النفس الاخير . فقد بعث الى الفوهرر في العشرين من نيسان برسالة في عيد ميلاده جاء فيها : « ايها العزيز الأجل ، ادولف هتلر ! لقد تعلمت منك الكثـير ... فقد جعلتني أرى النور أخيراً . . » وكتب في نفس الليلة في يومياته « لقد بلغ اليوم السابعـــة والثلاثين.انني احبك يا ادولف هتلر لأنك عظيم وبسيط في وقت واحد .وهذه صفات الانسان العبقري » .

وقضى غوبلز شطراً كبيراً من الصيف مع هتلر في برختسغادن،واحتشدت

يومياته بالتقريظ للزعيم . وعندما حل شهر آب ، اعلن رسمياً انفصاله عن شتراسر في مقالة نشرها في الفولكشاير بيوباختر جاء فيها :

« لقد عرفتكم الآن فقط ، على حقيقتكم ، ثوريين قولاً لا عملاً (يخاطب الاخوين شتراسر واتباعهما) ... لا تتحدثوا كثيراً عن المثل العليا ، ولا تخدعوا انفسكم بالاعتقاد بأنكم خالقوا هذه المثل وحماتها . فنحن لا نكفّر عن اخطائنا بالوقوف متضامنين وراء الزعيم .. اننا ننحني له ... بنفس ذلك الكبرياء المنتصب الخليق بالرجال ، الذي كان يبديه أهل الشمال القدامى عند وقوفهم منتصبين أمام سادتهم الاقطاعيين من الجرمان. ونحن نشعر بأنه أعظم منا جميعاً ، أجل أعظم منكم ومني . إنه أداة الإرادة السماوية التي ترسم التاريخ من جديد بعواطف خلاقة مبتكرة » .

واختار هتلر في تشرين الأول عام ١٩٢٦ ، قائداً لبرلين . وأصدر اليه أمره بأن يطهر الحزب من المشاغبين من ذوي القمصان البنية الدائمي الخلافات ، لما يضعونه من عراقيل بأعمالهم في طريق نمو الحركة هناك ، وان يستولي على عاصمة المانيا ليجعل منها قلعة للاشتراكية الوطنية ، فلقد كانت برلين «حمراء» ، وكان معظم المقترعين فيها من الاشتراكيين والشيوعيين. وشرع غوبلز ، غير هياب او وجل ، وكان قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، وارتفع في غضون عام واحد من مرتبة التفاهة الى مرتبة احد الاضواء الساطعة في الحزب النازي ، ينفذ المهمة التي عهد اليه بها في المدينة البابلية العظيمة .

فترة من الراحة والعشق في حياة هتلر

كانت السنوات العجاف سياسياً ، أسعد السنوات لهتلر كما كتب فيما بعد . فقد منع من الخطابة في الاجتماعات العامة حتى عام ١٩٢٧ ، وقرر ان ينتهي من كتابه « كفاحي » في الوقت الذي كان يضع فيه الخطط لمستقبل الحزب الألماني

ومستقبله هو ، وأخذ يقضي وقته في « اوبرسالزبرغ » التي ترتفع فوق قرية برختسغادن في جبال الألب البافارية . وكان هذا المكان بالنسبة اليه جنة للراحة والاستجمام .

وقد اترعت احاديث هتلر في مقر قيادته في الجبهة ابان الحرب ،عندما كان يحس في ساعات الليل المتأخرة ، بالاسترخاء مع رفاقه القدامى في الحزب ،ومع سكرتيراته الامينات ، مستذكراً أيامه الخوالي ، بالحنين الى ذلك الملجأ الجبلي الذي كان يأوي اليه ، والذي أقام فيه البيت الوحيد الذي ملكه في حياته والذي ترك الكثير من الذكريات في نفسه . وقد ذكر عشية السادس عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٢ في احدى هذه الجلسات ... ما نصه : « اجل ... هناك وشائج عدة تربطني الى اوبرسالزبرغ ... فلقد خلقت هناك اشياء عدة ... وقد قضيت فيها اجمل ساعات حياتي ... فهناك ثبتت جميع مشاريعي العظيمة ونضجت . وقد اتيحت لي فيها ساعات من الراحة والمتعة وكان لي هناك بعض الاصدقاء والصديقات » .

وكان هتلرقد عاش في السنوات الثلاث الأولى بعد إطلاق سراحه من السجن في عدد من الفنادق الصغيرة في « اوبرسالزبرغ » وقد قضى نحواً من ساعة كاملة في تلك الليلة ، يتحدث عنها . واستقر أخيراً في بيت « دوتيشه »،حيث قضى زهاء عامين ، اتم في غضونهما املاء كتابه « كفاحي ». وكان مع اخوانه في الحزب شغوفين جد الشغف بزيارة « دريميديرلهاوس » حيث كانت ثمة فتيات جميلات . ويمضي هتلر قائلاً ... « واتاح لي هذا المكان مجالاً فسيحاً للتأمل . لا سيما وقد كانت هناك فتاة جميلة حقاً » .

وقد ألمح هتلر في ذلك المساء في مقر قيادته في الجبهة الروسية الى سامعيه، بأن عملين استنزفا منه وقته واهتمامه في تلك السنوات الممتعة التي قضاها في برختسغادن :

« لقد عرفت في هذه الفترة التي قضيتها في اوبرسالزبرغ عدداً كبيراً من النساء واصبحت على اتصال بعدد منهن . اذن لمَ لمْ

اتزوج آنذاك ؟ ما كنت استطيع ان اتصور نفسي وقد خلفت امرأة ورائي . فهناك خطر يتهددني في انني لو ارتكبت اقل حماقة لعدت الى السجن ثانية اقضي فيه ست سنوات . ولهذا لم يكن هناك مجال للزواج . وتحتم علي تبعاً لذلك ان ارفض عدداً من الفرص التي لاحت لي » . [1]

وكان هناك كل ما يبرر مخاوف هتلر في تلك الفترة من العودة إلى السجن ، او من الابعاد الى خارج البلاد . فقد كان لا يزال مربوطاً بتعهده . ولو خالف بصراحة الحظر المفروض عليه لمنعه من الخطابة في الاجتماعات العامة ، لكان في امكان الحكومة البافارية ان تودعه غياهب السجن من جديد ، أو تلقي به وراء الحدود الى النمسا مسقط رأسه . وكان من الاسباب التي دعته الى اختيار اوبرسالزبرغ ملجأ له ، قربها من الحدود النمسوية ، إذ كان في وسعه ، عند تلقيه أي انذار ان يعبر الحدود وان ينجو من اعتقال الشرطة الألمانية له ، ولكن العودة الى النمسا ، طواعية أو إكراهاً ، لا تعني الا القضاء على آماله ومشاريعه. وقد قرر هتلر للتخلص من خطر إبعاده نهائياً ، ان يتخلى عن جنسيته النمسوية فتخلى عنها في السابع من نيسان عام ١٩٢٥ ، وهي خطوة تقبلتها الحكومة النمسوية بالارتياح فوراً . لكن هذا العمل تركه بلا رعوية واصبح رجلا لا جنسية له . فقد تخلى عن جنسيته النمسوية دون ان يحصل على الجنسية الألمانية . وكان مثل هذا الوضع يؤلف عقبة لسياسي يعيش في الرايخ ، اذ لا يمكنه من أن ينتخب في أي منصب . وكان قد أعلن أنه ان يتقدم قط الى الحكومة الجمهورية بطلب للحصول على الرعوية التي يعتقد انها حق من حقوقه بحكم ما قدمه من خدمات لألمانيا الامبراطورية في أيام الحرب . ولكنه قضى النصف الثاني من حقبة العشرين ، وهو يحاول بصورة سرية إقناع الحكومة البافارية بمنحه الرعوية الألمانية ولكن جميع جهوده ذهبت ادراج الرياح .

---

١ - احاديث هتلر السرية .

وكان ثمة شيء من الحقيقة فيما رواه هتلر ذلك المساء من عام ١٩٤٢ عن النساء والزواج فلقد كان على النقيض من الفكرة العامة السائدة عنه ، يميل الى صحبة النساء ولا سيما اذا كنّ من الجميلات ، وكان يعود الى هذا الموضوع بين فترة وأخرى في أحاديثه الخاصة في مقر قيادته ابان الحرب. وقال لإخوانه عشية الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٤٢.. « ما اجمل النساء في هذا العالم ! » ، ثم شرع يحدثهم عن عدد من التجارب الشخصية التي مر بها في حياته الى ان قال : « وفي صباي ، عندما كنت في فيينا. عرفت عدداً من الجميلات. » وقد سرد هايدن عدداً من التلهفات الغرامية في أيامه المبكرة ، إلى فتاة تدعى جيني هوغ ، كان أخوها يعمل سائقاً لهتلر وكانت عشيقة له في عام ١٩٢٣ ، والى الفتاة الطويلة الرشيقة ايرنا هانفستينغل ، شقيقة بوتزي ، والى وينفريد واغنر ، كِنَّة ريشارد واغنر. لكن غرامه العميق الوحيد في حياته كلها كانت مع قريبته.

وقد استأجر هتلر في صيف عام ١٩٢٨ ، دارة « واخنفيلد » في « اوبر سالزبرغ » فوق برختسغادن مقابل مائة مارك في الشهر (٢٥ دولاراً) من ارملة صناعي من أهل همبورغ ، ثم أقنع شقيقته الارملة انجيلا روبال ، بالمجيء من فيينا ، لترعى منزله ، في المسكن الأول الذي كان في وسعه ان يدعوه بمسكنه حقاً [١] . وقد جاءت السيدة روبال معها بابنتيها جيلي وفريدبل . وكانت جيلي في العشرين من عمرها ذات شعر أشقر ينساب على كتفيها جميلة التقاطيع غرّيدة الصوت ، مع سمرة شمسية جعلتها جذابة إلى الرجال [٢] .

---

١ ـ ابتاع هتلر هذه الدارة فيما بعد ، وعندما غدا مستشاراً اعاد بناءها على نطاق واسع ، وابدل اسمها من دارة « واخنفيلد » الى « بيرغهوف » او « وكر النسر » .

٢ ـ يتحدث بعض الثقات من امثال هايدن وبولوك عن مجيء السيدة روبال وكريمتيها الى دارة واخنفيلد في عام ١٩٢٥ ، عندما كانت جيلي روبال في السابعة عشرة من عمرها. ولكن هتلر قد أوضح أنه لم يحصل على الدارة الا في عام ١٩٢٨ ، ثم أضاف قائلاً « وعلى الفور هتفت لشقيقتي في فيينا متحدثاً اليها عن النبأ ، ورجوت منها ان تتكرم بالقيام بدور سيدة الدارة » راجع ـ احاديث هتلر السرية . ص ١٧٧ .

وسرعان ما وقع هتلر في شراك غرامها . وبدأ يأخذها معه إلى كل مكان ، فتشهد الاجتماعات والمؤتمرات ، ويسير معها طويلاً في الجبال ، ويمضي بصحبتها الى مقاهي ميونيخ ومسارحها . وعندما استأجر في عام ١٩٢٩ شقة فخمة ذات تسع غرف في شارع « البرنس ريجنت » الارستقراطي في ميونيخ ، خصص لجيلي غرفة من غرف المنزل . وانتشرت الهمسات في فيينا عن زعيم الحزب وابنة اخته الجميلة الشقراء وسرعان ما امتدت الى جميع حلقات الحزب في جنوب المانيا واقترح بعض الفضلاء أو الغيورين من قادة الحزب ، ان يتوقف هتلر عن الظهور مع حبيبته الفتيّة علناً ، أو ان يتزوج منها . واشتد غضب هتلر من مثل هذه الأحاديث ، وبلغ به الهياج ذات مرة عند التحدث عن الموضوع إلى الحد الذي حمله على طرد زعيم الحزب في وورتمبرغ من منصبه .

ومن المحتمل أن يكون هتلر قد اعتزم الزواج . وكثيراً ما تحدث رفاق الحزب القدامى الى مؤلف هذا الكتاب وذكروا له ان زواج الزعيم من قريبته كان أمراً لا مفر منه . ولم يكن ثمة من شك لديهم في ان هتلر يحبها حباً مبرحاً . أما عواطفها هي فمدار تساؤل وشك . ولكن لا ريب في انها قد استهوتها عواطف الرجل الذي يشق طريقه نحو الشهرة ، وطربت لها . أما انها بادلت خالها الحب ، فأمر ما زال في طي الغيب ، ولكن من المحتمل ان لا تكون قد احبته ، ولم تحببه في النهاية . فقد نشأ تصدع عميق بين هتلر وفتاته لا يعرف حتى الآن أي انسان مصدره أو طبيعته . وقد كثرت التكهنات عن هذا التصدع دون ان يقوم دليل على صحتها . ويبدو أن كلاً منهما كان مصاباً بالغيرة ، فقد كانت تنقم عليه ملاطفته لغيرها من النساء كوينفريد واغنر وغيرهما . وكان هتلر يشك في وجود علاقة غرامية وسرية لها بأميل موريس المجرم السابق الذي عمل حارساً له . وكانت تعترض ايضاً على استعباد خالها لها ؛ اذ كان لا يريد ان تظهر في صحبة أحد سواه . وقد منعها من العودة الى فيينا لاستكمال دروسها في الغناء ، مخمداً طموحاً في نفسها لتغدو من مغنيات الاوبرا ، فقد كان يريدها لنفسه دون سواه .

وهناك اشارات غامضة تقول بأنها أصيبت بالاشمئزاز من الانحرافات الجنسية في حبيبها ، وقد ذكر علماء الجنس ان الطاغية المتوحش في السياسة يكون على الغالب تواقاً الى الاحساس بالعبودية للمرأة التي يحبها . ويتحدث هايدن عن رسالة بعث بها هتلر الى ابنة اخته في عام ١٩٢٩ معترفاً لها بعواطفه العميقة في هذه الناحية . وقد وقعت هذه الرسا في يدي ابنة صاحبة المنزل الذي يعيش فيه ، فأدى وقوعها الى نتائج مفجعة بالنسبة الى اكثر من حياة واحدة [١] .

ومهما كانت الاسباب التي شوّهت الغرام بين الخال وابنة اخته ،فان الخصام المستمر بينهما أخذ يشتد عنفاً ، واعلنت جيلي في نهاية صيف عام ١٩٣١ ، انها عائدة الى فيينا لاستئناف دراستها في الغناء . ومنعها هتلر من الذهاب ، وشهد الجيران معركة بينهما عشية السابع عشر من ايلول عام ١٩٣١ ، عندما غادر هتلر مسكنه في ميونيخ ذاهباً الى همبورغ . وسمع الناس الفتاة الشابة وهي تصرخ لخالها من النافذة ، عندما كان يهم بركوب سيارته ... « اذن فلن تسمح لي بالذهاب الى فيينا ؟ » وسمعوه وهو يجيبها ... « لا » .

وعثر على جيلي روبال في الصباح التالي ،قتيلة في غرفتها. وقرر المدعي العام بعد تحقيق شامل واسع النطاق ان الوفاة نشأت عن انتحار الفتاة . وشهد الطبيب الشرعي بأن عياراً نارياً اخترق صدرها تحت كتفها الأيسر ونفذ الى القلب ، وبدا جلياً للعيان ان الطلقة كانت بيد الفتاة نفسها .

ومع ذلك فقد انتشرت همسات خافتة في ميونيخ استمرت سنوات طوالاً ، تقول جيلي روبال قد قتلت بأمر هتلر في سورة غضبه ، وان قاتلها هو هملر ، الذي أراد ان يزيل من الوجود وضعاً غدا مربكاً للحزب كله.ولكن لم يقم أي دليل معقول على صحة هذه الشائعات .

واصيب هتلر نفسه بالفجيعة من هذا الحادث . وروى غريغور شتراسر فيما بعد ، انه اضطر الى البقاء يومين كاملين وليلتين الى جوار هتلر ليحول بينه وبين الانتحار . وبعد اسبوع واحد من تشييع جثمانها الى مقره الاخير في فيينا،

---

١ — هايدن ـ الفوهرر . ص ص ٣٨٤ ـ ٣٨٦ .

حصل هتلر على اذن خاص من الحكومة النمسوية ، للذهاب الى هناك ، حيث قضى ليلة بطولها الى جانب قبرها يبكيها . وظل هتلر عدة أشهر في حـــالة لا تقبل العزاء .

وقابل هتلر للمرة الأولى هندنبرغ بعد ثلاثة اسابيع من موت جيلي . وكانت هذه المقابلة اول خطوة يخطوها في طريق مستشارية الرايخ ويعزو الكثيرون ، الذين عرفوا هتلر معرفة وثيقة ما اصابه من ذهول اثناء هذه المقابلة التاريخية ، إذ قيل انه لم يكن مالكاً لأعصابه وجميع قواه اثناء الحديث الذي اتجه اتجاهاً سيئاً بالنسبة الى الزعيم النازي ، الى الصدمة التي اصابته بوفاة قريبته المحبوبة .

ونشأت لدى هتلر ، أثر هذه الضربة الشخصية ميول صوفية على ما اعتقد ، كان بينها قراره الامتناع عن أكل اللحوم ، وهذا مـــا ارتآه عدد من إخوانه المقربين اليـــه . وقد صرح لهؤلاء الاخدان فيما بعد ان جيلي روبال كانت المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته ، وكان يتحدث عنها دائمـــاً بشيء من القداسة العميقة ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، ويقول خدمـــه ان غرفتها في دارة « اوبرسالزبرغ » قد ظلت على الحالة التي كانت فيها ابان حياتها ، حتى بعد ان قام هتلر باعادة بناء الدارة وتوسيعها في عهد مستشـــاريته . وكان هتلر يعلق صورة لها [1] في غرفته في الدارة ، وفي دار المستشارية في برلين بصورة دائمة ، ويحيط هذه الصورة بالازهار في الذكرى السنوية لميلادها ووفاتها في كل عام .

ولا ريب في ان هذه العاطفة القوية من جانب هتلر للفتـاة جيلي روبال ، تقف ماثلة كسر من الاسرار الغامضة في حياة هذا الرجل المتوحش الشرس ، الذي لم يستطع ان يحب مخلوقاً آخر في حياته . ومثل هذا السر كغيره من الاسرار لا يمكن إيضاحه ، وان كان في الإمكان ذكره ليس الا . ومن المؤكد ان هتلر لم يفكر قط بعد هذا الحادث مطلقاً ، تفكيراً جدياً في الزواج حتى اليوم الذي سبق انتحاره بعد اربعة عشر عاماً .

وقد تمكن الأب برنهاردت ستيمبغل ، الراهب الكاثوليـــكي الجيرومي ،

---

١ — قام ادولف زيغلر مصور هتلر المفضل برسم هاتين الصورتين بعد موتها .

والصحفي المناوىء لليهود ،الذي ساعد الزعيم النازي في اعداد كتابه « كفاحي » للطبع ، من استعادة الرسالة التي بعث بها هتلر الى ابنة اخته ، والتي وقعت في يد ابن صاحبة منزل هتلر . ويقول هايدن ان فرانز ايكزافيه شوارز، خازن الحزب هو الذي دفع النقود اللازمة لشراء الرسالة، وهكذا فقد كان الأب ستيمبغل، احد الاشخاص القلائل الذين عرفوا شيئاً من أسرار حب هتلر لجيلي روبال . ويبدو أنه لم يحتفظ لنفسه بهذه الأسرار مطلقاً ، وقدر عليه أن يدفع حياته ثمناً لهذه الهفوة ، عندما غدا مؤلف « كفاحي » ديكتاتور المانيا، وعندما شرع في تصفية حساباته مع بعض اصدقائه القدامى .

ولم يعرف انسان حتى الآن المصدر الحقيقي لدخل هتلر في هذه السنوات المريحة ، التي ابتاع ابانها دارة في اوبرسالزبرغ ، واستأجر شقة فخمة في ميونيخ واستقل سيارة فارهة يسوقها سائق خاص ،دفع ثمناً لها عشرين الفاً من الماركات (خمسة آلاف دولار) .ولكن ملفات ضريبة الدخل التي عثر عليها بعد الحرب ألقت ضوءاً على هذا الموضوع [1] . فلقد كان هتلر حتى الساعة التي اصبح فيها مستشاراً في عراك مستمر مع دائرة ضريبة الدخل ، وكانت له اضبارة ضخمة في دائرة مالية ميونيخ ضمت معاملاته بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٣ .

وقد ابلغته هذه الدائرة في الأول من أيار عام ١٩٢٥ انه تقاعس عند تقديم كشف عن دخله لعام ١٩٢٤ او للربع الاول من عام ١٩٢٥،ورد هتلر على ذلك بقوله : « لم أحصل على أي دخل في عام ١٩٢٤ (كان في السجن) او في الربع الأول من عام ١٩٢٥ .وقد امنّت النفقات اللازمة لمعيشتي من قرض مصرفي » . اذن من اين أتى بالخمسة آلاف دولار لسيارته ؟ هذا هو السؤال الذي وجهته اليه دائرة الضريبة ، فرد هتلر بأنه حصل على قرض مصرفي ايضاً . وكان هتلر ينص في جميع كشوفاته على انه «كاتب» ويحاول بذلك ان يعفي اكبر نسبة من دخله من الضريبة، ولا ريب في انه كان عليماً بالاجراءات التى يتبعها الكتاب في هذا

---

١ — راجع التحليل الرائع لكشوفات ضريبة الدخل التي قدمها هتلر الذي أعده الاستاذ اورون جيمس هيل في المجلة التاريخية الامريكية - تموز ١٩٥٥ .

الصدد في كل مكان . ويشير اول كشف قدمه عن الربع الثالث من عام ١٩٢٥ ان دخله الاجمالي بلغ (١١،٢٣١) ماركاً يعفى منها كنفقات مهنية (٦٥٤٠) ماركاً وكفوائد لقروض مصرفية (٢٢٤٥) ماركاً ، مما يبقي المبلغ الخاضع للضريبة في حدود (٢٤٤٦) من الماركات .

ودافع هتلر في رسالة تقع في ثلاث صفحات عن المبلغ الضخم الذي حدده للنفقات المهنية قائلاً ان قسماً كبيراً منه انفقه على نشاطه السياسي ، الذي يؤمن له المادة التي يحتاجها في كتاباته السياسية التي تساعد في زيادة المبيع من كتابه .

« ولولا نشاطي السياسي لظل اسمي مغموراً ، ولظللت مفتقراً الى المواد اللازمة لطباعة كتابي السياسي ... وهكذا فإن نفقات نشاطي السياسي بوصفي كاتباً سياسياً وهي شرط اساسي لكتاباتي المهنية ، ولضمان نجاحي المالي ،لا يمكن ان تكون خاضعة للضريبة .

« وفي وسع دائرة المالية ان ترى انني لم انفق على نفسي من دخل كتابي في هذه الفترة الا القليل ، ولا أملك في أي مكان ممتلكات او موجودات رأسمالية يمكن أن اقول عنها . وانا اضيّق انفاقي على حاجاتي الخاصة على قدر الامكان حتى انني لا اتعاطى الكحول او الطباق ، واتناول وجباتي في المطاعم المتواضعة ، واذا ما استثنينا اجارة الشقة المتواضعة التي اقيم فيها ، فأنا لا أنفق اي مبلغ يصح فرض الضريبة عليه . أما [1] السيارة فليست الا وسيلة لغاية ، فهي وحدها التي تمكنني من اداء اعمالي اليومية » .

وقد قبل ضابط المالية تصريحه عن نصف التخفيضات وعندما استأنف هتلر القرار الى « مجلس الاستئناف » ،اقر هذا التقدير الاصلي . وهكذا قبلت السلطات اعفاء نصف نفقاته . وقد احتج هتلر على ذلك ولكنه دفع الضريبة .

وتتطابق تصاريح هتلر عن دخله في كشوفات الضريبة تطابقاً دقيقاً مع

---

١ ـ المجلة التاريخية الامريكية تموز ١٩٥٥ .

مرابحه من كتابه كفاحي. فقد بلغت ١٩٬٨٤٣ ماركاً في عام ١٩٢٥، و١٥٬٩٠٣ في عام ١٩٢٦ و ١١٬٤٩٤ في عام ١٩٢٧ و ١١٬٨١٨ في عام ١٩٢٨ و ١٥٬٤٤٨ في عام ١٩٢٩ . ولما كانت كشوفات الناشرين عرضة التدقيق من دائرة الضريبة ، لم يكن في وسع هتلر ان يكذب في كشوفاته . ولكن ماذا كان موقفه من مصارد دخله الاخرى ؟ انه لم يقدم أي تصريح عنها في كشوفاته قط . ومن المعروف أنه كان يطلب اجوراً ضخمة يحصل عليها من المقالات التي يقدمها في تلك الايام الى الصحف النازية الفقيرة . وكان ثمة الكثير من التذمر في اوساط النازي من السعر المرتفع الذي يطلبه هتلر لكتاباته . ولكن كشوفاته تخلو من أي ذكر لها. وعندما شارفت حقبة العشرين على نهايتها كانت الأموال قد بدأت تتدفق على الحزب النازي من عدد من كبار الصناعيين في بافاريا وحوض الراين الذين استهوتهم معارضة هتلر الماركسيين والنقابات المهنية. وقد تبرع فريتز تيسين رئيس احتكار الفولاذ الألماني واميل كيردورف ملك الفحم في الروهر بمبالغ ضخمة للحزب . وكانت الأموال تسلم مباشرة الى هتلر . ولا يمكن لإنسان ان يعرف كم كان هتلر يحتفظ لنفسه من هذه المبالغ . ولكن مستوى الحياة التي عاشها في السنوات الاخيرة قبل أن يغدو مستشاراً تقيم الدليل على انه لم يكن يقدم الى خزانة الحزب جميع المبالغ التي كان يتلقاها من مؤيديه .

وكان يشكو بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٨ من المشقة في تأمين المبالغ المطلوبة لدائرة الضريبة ولذا فقد كان دائماً « متأخراً » في دفعها ، ويطلب التأجيل . ولقد كتب في ايلول عام ١٩٢٦ الى دائرة المالية : « لست في وضع يمكنني في الوقت الحاضر من دفع الضرائب، وقد اضطررت الى الاقتراض لتأمين معيشتي ». وقد ذكر فيما بعد عن هذه الفترة انه كان يعيش على تفاح التيرول . ومضى يقول : « وما احاول القيام به للتوفير شيء لا يكاد يصدق . فكل مارك أوفره هو للحذب ». وقد ذكر للدائرة انه في هذه المدة كان غارقاً في الديون الآخذة في الازدياد. وقد صرح في كشوفاته ان نفقاته لعام ١٩٢٩ بلغت (٣١٬٢٠٩) من الماركات بينما لم يتعد دخله (١٥٬٩٠٣) واضاف انه غطى الفرق من قروض

مصرفية جديدة .

وفجأة وبصورة تكاد تشبه المعجزة اختفت من تصريحه لعام ١٩٢٩ ، على الرغم من انخفاض دخله عما كان عليه في عام ١٩٢٥ ، الفوائد التي يدفعها على قروضه كما لم يرد ذكر شيء عن وفاء هذه القروض . وقد علق الاستاذ هيل ، الذي استندت فيما سلف على دراساته على هذه الحقيقة بقوله « لا ريب في ان معجزة مالية قد حدثت في هذه الفترة ، مكنته من تصفية جميع ديونه » [١] .

ويجب ان يقال ، بأن هتلر لم يأبه قط بالمال . فقد كان يكفيه منه ما يؤمن له الحياة الرخيّة المريحة ، شريطة ان لا يكد أو يتعب في سبيل الحصول عليه كأتعاب أو كمرتب . على أي حال ، عندما حل عام ١٩٣٠ ، كانت عائداته من كتابه قد بلغت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه بصورة مفاجئة اذ تعدت الاثني عشر الف دولار ، وكانت الأموال قد اخذت التدفق من كبار رجال الأعمال ، وهكذا اختفت اية متاعب مالية كان يعاني منها الى الابد . واصبح في وسعه ان يكرس جميع ما لديه من حيوية دافقة ومن مواهب لمهمته في اداء رسالته . وقد حانت الساعة لزحفه العظيم طلباً للسلطان والديكتاتورية والتحكم في شعب كبير .

فرص الأزمة الاقتصادية

أتاحت الأزمة الاقتصادية التي انتشرت في العالم كوباء مخيف في نهاية عام ١٩٢٩ لهتلر الفرصة ، وقد استغلها الى اقصى حدود الاستغلال . فهو كغيره من الثوريين لا يحقق النجاح الا في ايام الأزمات ، عندما تصبح الجماهير عاطلة عن العمل وجائعة ويائسة ، واخيراً عندما تشملها الحرب . لكنه على أي حال كان فريداً في نوعه بين ثوريي التاريخ . فقد اعتزم ان يحقق ثورته بعد وصوله الى السلطان السياسي . ولم يكن يرى داعياً للقيام بثورة لاحراز السيطرة على

---

١ ـ المجلة التاريخية الامريكية ـ تموز ١٩٥٥ .

الدولة ، فهـذا هدف يجب الوصول اليه إمـــا عن طريق رغبـة الناخبـين او عن طريق موافقة حـــكام البلاد ، أي بالأساليب الدستورية وحدها . وكان على هتلر ، ليضمن الأصوات التي يريدهـــا ، ان ينتهز سوانح الوقت ، التي شهدت الشعب الألماني في مطلع حقبة الثلاثين وقد عاوده اليـأس القاتل . أما الحصول على تأييـد ذوي السلطان ، فقد تطلب منه اقناعهم بأنه الوحيد الذي يستطيع انقاذ المانيا من مصيرها المفجع. وقد مضى الزعيم النازي الجريء والداهية في الفترة المضطربة الواقعة بين عامي ١٩٣٠و ١٩٣٣،متذرعاً بالحيوية المتجددة يعمل على تحقيق هذين الهدفين التوأمين . وإذا مـا عاد المرء بفكره الى تلك الايام اتضح له ان الاحداث نفسها ،وما تميزت به تلك الحفنة من الرجال الذين كان من واجبهم طبقاً لقسم الولاء الذي ادوه للحفاظ على الجمهورية الديموقراطية التي كانوا يحكمونها ، من ضعف وارتباك ، قد أعـانت هتلر في تحقيق اهدافه . لكن هذه الحقائق لم تكن معروفة في بداية عام ١٩٣٠ .

وتوفي غوستاف ستريسمان في الثالث من تشرين الأول عام ١٩٢٩ . وكان قد انهك قواه بالجهود المضنية التي بذلها كوزير للخارجية في السنوات الست السابقة ليعيد المانيا المهزومة الى صفوف الدول العظمى ، وليوجه الشعب الألماني الى طريق الاستقرار السياسي والاقتصادي. وكان ما حققه من نجاح عظيم باعثاً على الدهشة اذ تمكن من ادخال المانيا في عصبة الامم ومن التفاوض على مشروعي داوس ويونغ اللذين خفضا التعويضات المفروضة على المانيا الى مستوى يمكنها من دفعها بسهولة،كما كان في عام ١٩٢٥ واحداً من المهندسين الرئيسيين الذين خططوا ميثاق لوكارنو ، وهو الميثاق الذي حمل لدول اوروبا الغربيـة ولشعوبهـا التي انهكتها الحروب واضنتها المنازعات اول فترة من الهدوء عرفتهـا منذ اكثر من جيل .

ولم تمض ثلاثة اسابيع على وفاة ستريسمان ، حتى انهارت سوق الاوراق المالية في « وول ستريت » . وسرعان ما أحست المانيا بالأثر ، وكان احساسها مفجعاً ، فلقد كانت القروض الخارجية ولا سيما من امريكا والتجارة العالمية هما

حجر الزاوية في الانتعاش الاقتصادي الالماني . وعندما توقف تدفق القروض الخارجية ونضب معينها ، وحلّت مواعيد دفع الاقساط المستحقة بالنسبة الى القروض القديمة ،لم يتمكن الكيان الاقتصادي الالماني من الصمود للأزمة . وعندما وهنت التجارة العالميـة من جراء الانهيار العام في الاسعار ، عجزت المانيـا عن تصدير ما يكفي لدفع قيمة الواردات الضرورية من المواد الخام والأغذية التي تحتاج اليها . ولم يكن في وسع الصناعة الالمانية الابقاء على مصانعها عاملة في حقـل الانتاج ، إذا لم يتوافر لها التصدير . وهكذا هبط الانتاج الى النصف بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٢ . وأصبح الملايين من العمال بلا عمل . وأفلست الوف المشاريع الصغيرة. وفي ايار عام ١٩٣١ انهار اكبر مصارف النمسا (كريديتانستولت) ، وسرعان ما لحق به في الثالث عشر من تموز مصرف من أهم المصارف الالمانيـة وهو (دار مستيديتر اوند ناسيونال بانك) ، مما أرغم حكومة برلين على اغلاق كافة المصارف بصورة مؤقتة . ولم يستطع الاجراء الذي اتخذه الرئيس هوفر باعلان تأجيل الديون الحربية (الموراتوريوم) وبضمنها ، بالطبع ، التعويضات الالمانية ، والذي غدا ساري المفعول باعتباراً من السادس من تموز ، أن يوقف التيار . وهكذا داهمت العالم الغربي بأسره قوات لم يستطع زعماؤه فهمها وآمنوا ان التغلب عليها يفوق طاقة البشر . وعمّت الحيرة الجميع ، إذ كيف يمكن ان تحل مثل هذه الفاقة الضخمة المفاجئة ، ومثل هذه الآلام الانسانيـة مع وجود مثل هذه الوفرة في كل شيء ؟

وكان هتلر قد تنبأ بوقوع الكارثة ، ولكنه لم يكن أكثر نجاحاً من غـيره من الساسة في فهم أسبابها ، ولعله كان أقلهم فهماً لها بالنسبة الى جهله من ناحية ، والى عدم اهتمامه بالشؤون الاقتصادية من الناحيـة الاخرى . ولكنه لم يكن جاهلاً ولا غير مكترث بالفرص التي أتاحتها له الأزمـة فجأة . ولم تثر تعاسة الشعب الالماني الذي كانت تجربته المفجعة أثناء انهيار المارك ، قبل أقل من عشر سنوات والتي تركت جراحاً لم تلتئم بعد في حياته ، اشفاق هذا الرجل ، بل على النقيض من ذلك ، اثارت في نفسه المرح فقد كتب في احدى الصحف النازية ،

في تلك الايام المتناهية في التعاسة ، عندما كان الصمت يطبق على المعامل ، وكان عدد العاطلين المسجلين قد ارتفع فوق الستة ملايين ، وكانت صفوف طالبي الخبز تمتد بعيداً في شوارع كل مدينة من مدن البلاد يقول : « لم يسبق لي في حياتي أن شعرت بمثل هذا المرح وذلك الارتياح اللذين شعرت بهما في تلك الايام ، فقدفتح الواقع المضني عيون ملايين الالمان على الاكاذيب والخيانات والخدع التي لا مثيل لها ، والتي استعملها المحتالون الماركسيون في خداع الشعب »[1] . وهكذا لم تكن آلام اخوانه الالمان ، شيئاً يستحق ان يضيع وقته في التفجع أو العطف عليه ، وإنما كانت سبباً في أن يحيلها عن سابق اصرار وعمد وبصورة فورية الى تأييد سياسي لمطامحه . وقد شرع في ذلك فعلاً في أواخر صيف عام ١٩٣٠ .

واستقال هيرمان مولر ، آخر مستشار ديموقراطي اشتراكي في المانيا ورئيس آخر حكومة إئتلافية تضم الأحزاب الديموقراطية التي استند إليها كيان جمهورية ويمار ، من منصبه في اذار عام ١٩٣٠ ، بسبب خلاف وقع بين الأحزاب المشتركة في الحكم على موضوع صندوق تأمين البطالة . وخلفه في الحكم هنريخ برونينغ ، الزعيم الألماني لحزب الوسط الكاثوليكي ، الذي نال الصليب الحديدي ، عندما كان قائداً لإحدى سرايا المدافع الرشاشة ايام الحرب ، والذي اجتذبت اراؤه المحافظة والمتزنة في الرايشستاغ اهتمام الجيش وعطفه ، ولا سيما تأييد قائد عسكري برتبة فريق يدعى كورت فون شلايخر ، الذي لم يكن الشعب الألماني يعرف عنه شيئاً حتى ذلك الحين . وكان شلايخر الضابط الركن ، المغرور والطموح والمعروف بكفايتـه ، والذي اعترفت الأوساط العسكرية به دسّاساً ذا مواهب خارقة ومعروفة ، قد اقترح اسم برونينغ على الرئيس هندنبرغ . وهكذا كان المستشار الجديد ، على الرغم من عدم ادراكه هذه الحقيقة ادراكاً تاماً ، مرشح الجيش . وركز برونينغ ، وهو شخصية صافية نقية ، متواضعة ونزيهة وبعيدة عن الاثرة ومعروفة بالاخلاص وببعض الغرابة في الاطوار ، آماله في إعادة الاستقرار إلى

---

١ ـ هايدن ـ الفوهرر ـ ص ٤١٩ .

الحكم الديموقراطي في المانيا وفي انقاذ البلاد من الانهيار الاقتصادي المتزايد والفوضى السياسية . ولقد كانت مأساة هذا الانسان الوطني السليم الطوية والديموقراطي الميول ، انه في محاولاته هذه ، حفر قبر الديموقراطية الألمانية دون وعي أو إدراك ، ومهد الطريق بصورة غير متعمدة لمجيء ادولف هتلر الى الحكم .

ولم يتمكن برونينغ من اقناع غالبية برلمانية في الرايشستاغ ، بتأييد بعض الاجراءات التي وضعها في برنامجه المالي . ولذا فقد طلب الى هندنبرغ ، اللجوء الى المادة الثامنة والاربعين من الدستور ، واستعمال صلاحيات الطوارىء فيها لإصدار لائحته المالية على شكل مرسوم جمهوري . ورد المجلس على ذلك بالاقتراع على طلب بسحب هذا المرسوم . وهكذا أخذ الحكم البرلماني ينهار في الوقت الذي تطلبت فيه الأزمة الاقتصادية وجود حكومة قوية . وطلب برونينغ من الرئيس ، محاولاً إيجاد مخرج من هذه الورطة ، في تموز عام ١٩٣٠ ، حل الرايشستاغ والدعوة إلى انتخابات جديدة في الرابع عشر من ايلول . ولم يستطع أحد حتى الآن أن يجيب على سؤال يتعلق بالطريقة التي كان برونينغ يأمل فيها بايجاد أغلبية برلمانية مستقرة في انتخابات جديدة . ولكن هتلر أدرك أن فرصته هو قد لاحت بأسرع مما كان يتوقع .

وكان الشعب المثقل بالمتاعب يطالب بمخرج من هذه الحالة المحزنة . فالملايين من العاطلين تريد العمل ، وأصحاب الحوانيت ينشدون العون . وكان هناك نحو من أربعة ملايين من الشبان الذين بلغوا سن الاقتراع منذ جرت الانتخابات الأخيرة يتطلعون إلى أمل في المستقبل يتيح لهم فرصة الحياة على الأقل . وقدم هتلر للملايين المتذمرين في عاصفة دعائية ، ما بدا لهم في هذا الجو من الشقاء الذي يحيونه ، شيئاً من الأمل . فقد أعلن لهم أنه سيعيد المانيا إلى قوتها وسيرفض دفع التعويضات ، ويرفض معاهدة فرساي ويقضي على الرشوة والفساد ، ويفرض سيطرته على ملوك المال ولا سيما إذا كانوا من اليهود ، ويضمن لكل الماني العمل والخبز . ولم يكن مثل هذا النداء يفتقر إلى الاستجابة بالنسبة إلى

الملايين من اليائسين والجياع الذين لم يكونوا يبحثون عن مجرد الغوث وإنما ينشدون الإيمان ويسعون وراء آلهة جديدة .

وعلى الرغم من اشراقة آماله ، فقد ذهل هتلر ليلة الرابع عشر من ايلول عام ١٩٣٠ عندما بدأت النتائج الانتخابية في الظهور . فقبل عامين ، كان حزبه قد حصل على (٨١٠) آلاف صوت فقط مكنته من الحصول على اثني عشر مقعداً في الرايشستاغ . وكان يأمل هذه المرة في أن ينال أربعة أضعاف الأصوات السابقة وأن يحصل على خمسين مقعداً في البرلمان . ولكن تبين له عندما ظهرت النتائج أن الحزب قد حصل على (٦,٤٠٩,٠٠٠) صوت مكنته من احتلال (١٠٧) مقاعد في الرايشستاغ فارتفع من مرتبة أصغر حزب في البرلمان إلى مرتبة الحزب الثاني .

وارتفع الحزب الشيوعي من الطرف الآخر من (٣,٢٦٥,٠٠٠) صوت في عام ١٩٢٨ إلى (٤,٥٩٢,٠٠٠) صوت كما ارتفع عدد المقاعد التي يحتلها من (٥٤) إلى (٧٧) . وخسرت أحزاب الوسط المعتدلة باستثناء الوسط الكاثوليكي أكثر من مليون صوت ، كما خسر الاشتراكيون الديموقراطيون على الرغم من إضافة أربعة ملايين مقترع جديد إلى عدد الناخبين . وهبط عدد المقترعين إلى جانب الوطنيين اليمينيين(هوغنبرغ)من أربعة ملايين إلى مليونين . واتضح أن النازيين استولوا على ملايين الأصوات من مؤيدي أحزاب الطبقة الوسطى الاخرى. واتضح أيضاً أنه سيكون من الشاق جداً على برونينغ وعلى غيره من المستشارين الحصول على أغلبية برلمانية مستقرة. وإذا لم تتوافر مثل هذه الأغلبية فكيف يمكن للجمهورية ان تعمّر وان تبقى ؟

وقد غدت هذه القضية في منتهى الأهمية صبيحة يوم ظهور النتائج الانتخابية في عام ١٩٣٠ ، بالنسبة إلى دعامتين أساسيتين من دعائم البلاد، كان زعماؤهما، قد قبلوا بالجمهورية على اعتبار انها مصيبة عابرة في التاريخ الألماني، وهما الجيش وعالم كبار الصناعيين ورجال المال . وتكهرب هتلر بهذا النجاح الذي حققه في الانتخاب ، فوجه كل اهتمامه إلى كسب هاتين الفئتين القويتين إلى جانبه . وكان

منذ عهد طويل وهو في فيينا ، قد تعلم درساً كما رأينا من أساليب عمدة المدينة كارل لوغر، الذي أدرك أهمية كسب « المنظمات القوية القائمة » إلى جانبه .

***

وكان هتلر قبل نحو من عام أي في الخامس عشر من آذار عام ١٩٢٩ ، قد ألقى خطاباً في ميونيخ ناشد فيه الجيش أن يعيد نظره في العداء الذي يحمله للاشتراكية الوطنية وفي التأييد الذي يبديه للجمهورية وقال :

« لن يكون المستقبل إلى جانب الأحزاب الهدامة ، بل إلى جانب الأحزاب التي تحمل في وجودها قوة الشعب ، والتي هي على استعداد وراغبة كل الرغبة في ربط نفسها إلى هذا الجيش ، لتساعده في يوم من الأيام في دفاعه عن مصالح الشعب . وعلى سبيل القياس ما زلنا نرى ضباط جيشنا يعذّبون أنفسهم ببطء بالبحث في موضوع المدى الذي يستطيع المرء أن يسير فيه مع الديموقراطية الاشتراكية . ولكن يا سادتي ، هل تعتقدون حقاً بوجود أي شيء يجمعكم مع عقيدة ، تدعو إلى حل كل ما هو أساس لوجود أي جيش ؟ »

ولا ريب في أن هذا النداء كان بارعاً في طلب تأييد ضباط الجيش الذين يعتقد معظمهم بصحة ما كرره هتلر أكثر من مائة مرة ، وهو انهم قد طعنوا من الخلف ، وان الجمهورية التي يؤيدونها اليوم والتي لا تحمل أي حب لطبقة العسكريين وكل ما تمثله ، هي التي خانتهم . ومضى يحذر الضباط ، متكهناً بما يعتزم هو عمله في حالة انتصاره ، ومما سيحل بهم في حالة انتصار الماركسيين على النازيين . وقال ان هذا لو حدث ...

« لا ضطررتم ان تكتبوا بأنفسكم « نهاية الجيش الألماني » . إذ يتحتم عليكم آنذاك أيها السادة أن تصبحوا حتماً من الساسة ... وقد تصبحون آنذاك جلادي العهد ومفوّضيه السياسيين ، وإذا لم تسلكوا سلوكاً حسناً فإن نساءكم وأطفالكم سيصبحون وراء القضبان . وإذا ما مضيتم في سوء سلوككم ، فقد تطردون من

الجيش ، أو يحكم عليكم بالموت ضرباً بالرصاص ... »[1]

ولم يستمع إلى هذا الخطاب إلا عدد قليل من الناس نسبياً ، ولكن الفولكشاير بيوباختر ، رغبة منها في نشره بين أوساط الجيش ، نشرت نصه في طبعة خاصة أصدرتها للجيش ، كما نوقش مناقشة مسهبة في أعمـــدة مجلة نازية شهرية تدعى « دويتشر ويهرغيست » تعني بالشؤون العسكرية وكانت قد صدرت مؤخراً .

وكان الجيش قد حظّر في عام ١٩٢٧ تجنيد النازيين في جيش المائة ألف النظامي ، كما حرم عليهم العمل حتى في الوظائف المدنية في مستودعات الجيش ومخازن تموينه . ولم يحل مطلع عام ١٩٣٠ ، حتى أصبح من الواضح ان الدعاية النازية أخذت تشق طريقها في الجيش ولا سيما بين صغار الضباط ، الذين لم تستهوهم وطنية هتلر المتعصبة فحسب ، بل الآمال التي لوّح لهم بها في إعادة الجيش إلى أمجاده وحجمه القديم حيث تتاح لهم الفرص التي حرموا منها الآن لوجود هذه القوة العسكرية الصغيرة ، في الارتقاء الى رتب أعلى .

وقد غدا تغلغل النازيين في القوات المسلحة من الخطورة بمكان أرغم الفريق غرونر ، الذي كان قد أصبح الآن وزيراً للدفاع ، على اصدار أمر يومي في الثاني والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٠ ، استعاد فيه ذكر انذار مشابه وجهه إلى الجيش الفريق فون سيخت عشية محاولة انقلاب حانة الجعة قبل سبع سنوات . وقال الفريق في أمره ان النازيين يطمعون في الحكم . « ولهذا فهم ينشدون ود الجيش . ورغبة منهم في استخدامه في أهدافهم السياسية ، يحاولون أن يحملوا الجيش على الاقتناع بأن الاشتراكيين الوطنيين ، هم وحدهم الذين يمثلون القوة الوطنية تمثيلاً صادقاً » وطلب الى الجنود الامتناع عن السياسة و « خدمة الدولة » بعيداً عن الصراع الحزبي .

وسرعان ما اتضح ان بعض صغار الضباط لم يكونوا قد امتنعوا عن السياسة

---

١ — لايظهر هذا الخطاب في مجموعة باينز أو روس دي سال عن خطب هتلر . ولكنـــه نشر في طبعة خاصة من الفولكشاير بيوباختر في ٢٦ آذار عام ١٩٢٩ . وقد اقتبسته مجلة « الابحاث والدراسات » في جامعة واشنطن عدد حزيران ١٩٤٥ .

أو على الأقل عن النشاط السياسي النازي ، وأثار هذا شيئاً من الغضب في المانيا ، ومن الخلافات بين كبار أركان فيلق الضباط ، ومن المسرّة في المعسكر النازي . فقد اعتقل في ربيع عام ١٩٣٠ ثلاثة ملازمين من الشبان هم لودين وشيرينغر وويندت ، من ضباط حامية أولم ، بتهمة نشر العقائد النازية في الجيش ، ومحاولة اقناع زملائهم الضباط بعدم اطلاق النار على الثائرين في حالة وقوع ثورة نازية مسلحة . وكانت التهمة الأخيرة خيانة عظمى ، ولكن الفريق غروينر ، رغبة منه في عدم اعلان الحقيقة بوجود خيانة في الجيش ، حاول اسدال ستار من الصمت على القضية ، وذلك عن طريق محاكمة المتهمين أمام محكمة عسكرية بتهمة مخالفة النظام العسكري . ولكن موقف التحدي الذي وقفه الملازم شيرينغر في تهريب مقال نازي الى صحيفة الفولكشاير بيوباختر احبط خطة الفريق غروينر . ووقف الضباط الثلاثة بعد اسبوع واحد من نجاح النازيين في انتخابات ايلول عام ١٩٣٠ امام المحكمة العليا في لايبزيغ ، يحاكمون بتهمة الخيانة العظمى . وكان بين المحامين الذين تولوا الدفاع عنهم ، محاميان نازيان طالعان هما هانز فرانك والدكتور كارل ساك . [١]

لكن الأضواء لم تسلط على المحاميين أو على المتهمين أثناء المحاكمة وانما سلطت على ادولف هتلر . فقد استدعاه فرانك للشهادة . وكان ظهوره في المحكمة يمثل مجازفة يحسب لها الف حساب. فقد يكون من المربك له ان ينكر علاقة الملازمين الثلاثة بالحزب ، لأن نشاطهم دليل على نمو العطف على النازية في الجيش ، وهو عطف لم يكن هتلر راغباً في عدم تشجيعه . كان من المربك له أيضاً من الناحية الأخرى ، أن يكشف النقاب عن الجهود النازية لإفساد الجيش . ولم يكن مما يساعد « تكتيكه » الراهن من الناحية الأخرى ان يقوم الادعاء

---

١ – لقد انتهى الرجلان الى الموت على المشنقة ، فقد اعدم ساك بتهمة التآمر على حياة هتلر في ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ ، واعدم فرانك في نورمبرغ جزاء لما ارتكبه من فظائع في بولندة باسم هتلر .

العام بتوجيه الاتهام الى الحزب النازي بأنه منظمة ثورية تهدف الى قلب الحكومة عن طريق القوة. ولإنكار هذه التهمة رتّب هتلر مع فرانك ان يستدعيه للشهادة. وكانت للفوهرر في الواقع اهداف اكثر اهمية . فقد اراد بوصفه زعيماً لحركة تمكنت من تسجيل نصر مذهل وساحق في الانتخابات ان يطمئن الجيش ولا سيما كبـار ضباطه ، بأن الاشتراكية الوطنية بالاضافة الى بعدها عن التفكير في تهديد الجيش ، وهو ما يمكن ان يفهم من قضية الملازمين الثلاثة ، هي في الواقع طريق الخلاص للجيش ولألمانيا نفسها .

وقد افاد هتلر من هذه المنصة القومية التي اتاحها له منبر الشهادة ، ليستغل كل ما لديه من مواهب في الجدل . ومن احساس ماكر بالسوقية السياسية ، ولم يستطع إلا القليلون جداً في المانيا ، وحتى بين القادة العسكريين ان يدركوا ما في تمثيله الرائع من خداع ضخم . وأكد هتلر للمحكمة بلطف ووداعة وكذلك لضباط الجيش ان جيش العاصفة والحزب النازي لا يحاربان الجيش . ثم مضى يقول... « وكنت دائماً ارى ان اية محاولة للخلاص من الجيش هي محض جنون . فليست لأي منا مصلحة في الخلاص منه ... وسنضمن عندما نصل الى الحكم ان جيشاً عظيماً للشعب الألماني سينبثق عن الجيش الحالي » .

وعـاد يؤكد للمحكمة وللقادة العسكريين ان الحزب النازي يسعى الى اقتناص الحكم بالوسائل الدستورية وحدهـا وان الضباط الشبان على خطـأ إذا كانوا يتوقعون ثورة مسلحة . ثم مضى يقول :

« ولا تحتاج حركتنا الى العنف ، فسيحين الوقت عندما يفهم الشعب الالماني حقيقة افكارنا ، وآنذاك سيقف خلفنا خمسـة وثلاثون مليوناً من الالمان ... وعندما تصبح الحقوق الدستورية في حوزتنا ، نقوم آنذاك برسم الدولة في الصورة التي نعتبرها صحيحة .

رئيس المحكمة – وهل يكون هذا ايضاً بالطرق الدستورية ؟

هتلر – أجل .

ولكن على الرغم من ان هتلر ، كان يوجه حديثه الى الجيش والى العناصر

المحافظة الاخرى في المانيا ، إلا أنه رأى من واجبه أن يأخذ بعين الاعتبار الروح الثورية عند أتباعه الحزبيين . ولم يكن في وسعه أن يتخلى عنهم كما تخلى عن المتهمين الثلاثة . واغتنم الفرصة التي أتاحة له رئيس المحكمة عندما ذكّره بقول له في عام ١٩٢٣ ، أي قبل شهر من محاولة الانقلاب الفاشلة ، جاء فيه « ان الرؤوس ستتدحرج على الارض » . ثم سأله إذا كان ينكر هذا القول الآن ، فرد قائلاً :

« في وسعي أن اؤكد لك أنه في حالة انتصار الحركة الوطنية الاشتراكية في هذا الصراع ، فستكون هناك محاكم قضائية اشتراكية وطنية . وآنذاك سنثأر من ثورة عام ١٩١٨ وستتدحرج الرؤوس »[١] .

* * *

وليس في وسع أي انسان أن ينكر أن هتلر لم يحذّر الناس مما ينوي عمله في حالة وصوله الى الحكم . ولكن يبدو أن النظّارة في قاعة المحكمة قد رحبوا بهذا التحذير ، إذ أنهم صفقوا طويلاً وعالياً للتهديد ، وعلى الرغم من أن رئيس المحكمة لم يشترك في التصفيق ، إلا أنه هو أو المدعي العام لم يعترضا على هذه الملاحظة . وقد نشر هذا التهديد كعنوان ضخم في صدر الصفحات الأولى من الصحف الألمانية والعالمية . وهكذا ضاعت القضية موضع النظر في غمرة الحماس الذي أثارته أقوال هتلر ،فقد وجدت المحكمة بعد أن استنكر زعيم النازية نفسه حماس الضباط الشبان الثلاثة للاشتراكية الوطنية ، أنهم مدينون بتهمة التآمر لارتكاب الخيانة العظمى ، وقضت عليهم بأخف العقوبات وهي السجن ثمانية عشر شهراً في إحدى القلاع ، أما أقصى العقوبات التي كانت تطبق بصدد هذه التهمة في المانيا الجمهورية ، فتنزل بأولئك الذين يؤيدون الجمهورية[٢] .

---

١ ـ نقلت هذه المقتبسات من صحيفة « الفرانكفورتر زايتونغ » عدد ٢٦ ايلول ١٩٣٠ .

٢ ـ تألم الملازم شيرينغر مما اعتبره خيانة من هتلر ، فتخلى عن الحزب النازي وهو في السجن وغدا شيوعياً متعصباً . وكان من المقرر ان يصفى في تطهير ٣٠ حزيران ١٩٣٤ ولكنه تمكن

وشهد شهر ايلول عام ١٩٣٠ ، نقطة تحول في الطريق التي قادت الألمان بصورة جامدة نحو الرايخ الثالث . وأقنع النجاح المدهش الذي حققه الحزب النازي في الانتخابات العامة ، الملايين من أفراد الشعب العاديين بالإضافة الى عدد من قادة رجال الأعمال والجيش ، بأن هذا الحزب يمثل زحفاً لا يمكن وقفه . ومن المحتمل أن لا يكون الكثيرون قد أحبوا ما في الحزب من غوغائيـة ورخص ولكنه من الناحية الاخرى كان يثير المشاعر القديمـة من الوطنية والقومية الألمانية التي كانت قد اخرست طيلة السنوات العشر الأولى من حياة الجمهورية . فقد وعدهم هذا الحزب بابعاد الشعب الألماني عن الشيوعية والاشتراكيـة والنقابية وسخافات الديموقراطية ، يضاف الى هذا أن الحزب أوقد ناراً ساعرة في الرايخ كله . إنه إذن حزب ناجح .

وبدأ بعض القادة العسكريين من « الفرقاء » بسبب هذا التفكـير ، وما استمعوا إليه من تطمينات للجيش في محاكمة لايبزيـغ من هتلر نفسه ، يستعرضون في اذهانهم ما إذا كانت الاشتراكيـة الوطنية ليست بالحركة المطلوبة حقاً لتوحيد الشعب وإعادة أمجاد المانيا القديمة ، وخلق جيش كبير وعظيم ثانيـة وتمكين البلاد من التخلص من قيود معاهدة فرساي المذلـّة . وكانوا قد سرّوا غاية السرور من رد هتلر على سؤال لرئيس المحكمة العليا عمّا يعنيه من ترديده دائماً لعبارة « الثورة الوطنية الألمانية » إذ قال : « إن هذه الثورة تعني إطلاقاً إنقاذ الشعب الألماني المستعبد اليوم . فألمانيا مكبلة بالاصفاد في يديها وقدميها بمعاهدات الصلح ... ولا يعتبر الاشتراكيون الوطنيون هذه المعاهدات قانوناً ، وإنما يعتبرونها شيئاً فرض على المانيا بالقوة . ونحن لا نرضى بأن تعاني الأجيال المقبلة البريئة كل البراءة من أعبائها . وإذا كنا نحتج على هذه المعاهدات بكـل

من الفرار وعاش حتى يشهد نهاية هتلر . أما الملازم لودين فقد ظل نازياً متحمساً وانتخب نائباً في الرايشستاغ عام ١٩٣٢ ، وأصبح من كبار ضباط جيش العاصفة والحرس النازي ثم غدا وزيراً مفوضاً لالمانيا في دولة سلوفاكيا « الالعوبة » حيث اعتقل عند تحرير تشيكوسلوفاكيا وأعدمـه التشيكيون .

ما يتوافر لنا من سبل ، فسنجد أنفسنا آنذاك سائرين في طريق الثورة » .

فهذه هي آراء فيلق الضباط أيضاً . وكان بعض كبار القادة العسكريين قد انتقدوا الفريق غرونير ، وزير الدفاع ، انتقاداً مراً ، لسماحه بمحاكمة الملازمين الثلاثة أمام المحكمة العليا . وكان الفريق هانزفون سيخت ، القائد العام للجيش الذي احيل قبل آونة قصيرة الى التقاعد ، والمعترف به عامة كعبقري الجيش الألماني في فترة بعد الحرب ، والخليفة الجليل للقائدين شارنهورست وغنيزناو ، قد احتج لدى غرونير بأن عمله هذا قد أضعف روح التضامن بين الضباط . ولم يكتف العقيد لودفيك بيك ، الذي غدا بعد وقت قريب رئيساً لأركان الجيش ، ثم أصبح فيما بعد شخصية بارزة للغاية في هذا التاريخ الذي اكتبه ، والذي كان في عام ١٩٣٠ قائد الكتيبة المدفعية الخامسة في اولم ، التي ينتمي إليها الملازمون الثلاثة ، بالاحتجاج بعنف لدى رؤسائه على اعتقالهم ، بل شهد دفاعاً عنهم في محكمة لايبزيغ .

أما وقد انتهت المحاكمة الآن ، واستمع القادة الى خطاب هتلر ، فقد غدوا أكثر ميلاً الى هذه الحركة التي كانوا يعتبرونها فيما مضى خطراً يهدد الجيش . وقد أبلغ الفريق الفرد يودل مدير العمليات الحربية في القيادة العامة للقوات المسلحة ابان الحرب الكونية الثانية ، المحكمة العسكرية في نورمبرغ ، ما عناه بيان الزعيم النازي في لايبزيغ لفيلق الضباط . فلقد كان كبار الضباط حتى ذلك الوقت يعتقدون ، كما قال يودل ، ان هتلر ، يحاول القضاء على الجيش ، فجاء الآن يطمئنهم . وقد تحالف الفريق فون سيخت بعد انتخابه عضواً في الرايشستاغ عام ١٩٣٠ جهاراً مع هتلر مدة من الزمن ، وحث شقيقته في عام ١٩٣٢ على أن تقترع الى جانب هتلر ضد رئيسه القديم هندنبرغ في انتخابات الرئاسة .

وهكذا شرع العمى السياسي الذي أصاب ضباط الجيش الألماني ، والذي كان قاضياً عليهم في النهاية في النمو والظهور .

* * *

ولم تكن تفاهة أرباب الصناعة والمال في الحقل السياسي أقل من تفاهة

القادة العسكريين وسخافتهم . فقد اعتقدوا اعتقاداً خاطئاً ، بأنهم إذا قدموا مبالغ ضخمة من المال إلى هتلر، فإنه سيصبح أسيراً لهم وينفذ أوامرهم في حالة وصوله إلى الحكم. وشرع أرباب التجارة والصناعة والمال في المانيا يعتقدون أن هذا النمسوي الحديث النعمة بالمجد والعظمة ، كما كانوا يعتبرونه في الحقبة المنصرمة ، سيغدو مسيطراً على المانيا ، وذلك بعد انتصاره المثير في انتخابات ايلول عام ١٩٣٠ .

وقد شهد وولتر فونك أمام محكمة نورمبرغ بأنه عندما حل عام ١٩٣١ ، « كان أصدقائي من الصناعيين واثقين مثلي من أن الحزب النازي سيصل إلى الحكم في المستقبل القريب جداً » .

وفي صيف ذلك العام استقال فونك هذا الرجل الصغير الجسم الكبير البطن، الرجراج العين ، المتجعد الوجه، الذي كان يذكرني وجهه كل ما رأيته بالضفدع، من منصبه الذي يدر عليه المال كرئيس تحرير احدى كبريات صحف المانيا المالية ، وهي « البرلينربورصن زايتونغ » لينضم إلى الحزب النازي ، وليصبح حلقة الوصل بين الحزب وبين عدد من كبار رجال المال والاعمال في البلاد. وقد أوضح في محاكمات نورمبرغ ان عدداً من أصدقائه الصناعيين ولا سيما من البارزين في مؤسسات المناجم في الراين قد حرضوه على الانضمام إلى الحركة النازية « لإقناع الحزب بانتهاج طريق التخطيط على أساس المشاريع الفردية » .

« وكانت قيادة الحزب في ذلك الوقت تحمل آراء متناقضة ومرتبكة ، في السياسة الاقتصادية. وحاولت اداء رسالتي بالتأثير شخصياً على الفوهرر والحزب وإقناعهما بأن الحافز الشخصي والاتكال الذاتي لرجال الاعمال ، والقوى الخلاقة للمشاريع الحرة وغيرها يجب أن تكون أساس السياسة الاقتصادية للحزب . وقد أكد الفوهرر شخصياً مراراً وتكراراً أثناء محادثاته معي ومع القادة الصناعيين الذين قدمته إليهم ، انه ضد اقتصاد الدولة أو ما يدعى « بالاقتصاد الموجه » وانه يعتبر المشاريع الحرة والتنافس

من الضرورات المطلقة لتحقيق أكبر انتاج ممكن [1] . »

وهكذا فقد بدأ هتلر كما يقول وزير اقتصاده المقبل ومدير مصرف الرايخ في عهده ، يجتمع إلى من يمسكون بزمام المـــال في المانيا ، وكان يسمعهم ما يريدون أن يسمعوه وكان الحزب في حاجة إلى مبالغ ضخمة من المال ، لتمويل الحملات الانتخابية ، ودفع نفقات دعايته المنتشرة والمتضخمة ، وتأمين الأجور والرواتب لمئات موظفيه الدائمين ، والانفاق على جيوش العاصفة والحرس النازي الذي أصبح يعد في نهاية عام ١٩٣٠ أكثر من مائة ألف رجل ،وغدا قوة أضخم من جيش الدولة النظامي نفسه ولم يكن رجال الأعمال وأصحاب المصارف هم المصدر الوحيد لتمويل الحزب وإن كانوا أضخم هذه المصادر التي اشتملت أيضاً على جمع الأموال عن طريق الرسوم والتبرعات وبيع صحف الحزب وكتبـــه ومجلاته . وكان هؤلاء كلما ضاعفوا المبالغ التي يدفعونها إلى النازيين كلما خفضوا من الأموال التي كانوا يدفعونها إلى الأحزاب المحافظة الاخرى التي كانوا يدعمونها حتى الآن .

ويروي اوتو ديتريخ ، مدير صحافة هتلر في الحزب أولاً وفي الرايخ فيما بعد ما يلي : « وفي صيف عام ١٩٣١ ، قرر الفوهرر فجأة أن يركز تركيزاً منظماً على استغلال كبار رجال الصناعة من ذوي النفوذ » [2] .

ولكن من هم هؤلاء ؟

لقد ظلت هوياتهم سراً على الجميع إلا على أفراد الحلقة الداخلية المحيطة بالزعيم . وكان على الحزب أن يلعب على الحبلين، فعليه من الناحية الاولى أن يسمح لشتراسر وغوبلز وفيدر النشيط ، بخداع الجماهير برفع شعارات « الاشتراكية » الحقيقية للاشتراكيين الوطنيين والحملة على ملوك المال ، وكان عليه من الناحية الثانية أن يبتز المال اللازم لاستمرار الحزب من تلك المصادر القادرة على تزويده به . ويقول ديتريخ ان هتلر « ذرع المانيا طولاً وعرضاً في النصف الأخير من عام ٩١٣١ ،

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان ـ الملحق . ص ١١٩٤

٢ ـ اوتو ديتريخ... « مع هتلر في الحكم » .

عاقداً اجتماعات خاصة مع الشخصيات الكبرى من رجال الاعمال ». وكان بعض هذه الاجتماعات من النوع السري والمكتوم حتى أن بعضها كان يعقد في « بعض الممرات النائية في غابة من الغابات » . ويشرح ديتريخ ذلك قائلاً : « وكانت السرية ضرورية للغاية ، فمن الواجب ان لا يسمح للصحافة بخلق المشاكل . وكانت النتيجة نجاحاً كاملاً » .

وهكذا اتسمت السياسات النازية بمثل هذا الالتواء المضحك وحدث مرة في خريف عام ١٩٣٠ ان تقدم شتراستر وفيدر وفريك بمشروع قانون الى الرايشستاغ بالنيابة عن الحزب النازي، يقترحون فيه ان لا تتعدى الفائدة اربعة في المائة ، ونزع الملكية من أيدي جميع « أقطـــاب المصارف وسوق الأوراق المالية » ومن جميع « اليهود الشرقيين » بدون تعويض ، وتأميم جميـع المصارف الضخمة . وأصاب الفزع هتلر ، فمثل هذا المشروع لا يعني البلشفية فحسب بل يعني أيضاً الانتحار للحزب وعلى الفور أصدر أمره الى الحزب بسحب المشروع. وهنا تقدم به الشيوعيون دون ان يغيّروا فيه حرفاً واحداً . وأصدر هتلر أمره الى حزبه بالاقتراع ضده .

وقد عرفنا من مناقشة فونك في محاكمات نورمبرغ بعد الحرب ، عدداً من هؤلاء « الاقطاب الصناعيين من ذوي النفوذ » الذين كان هتلر قـد اتصل بهم . فقد تمكن هتلر في مؤتمر الحزب عـام ١٩٢٩ من غواية اميل كيردورف قطب اتحاد المناجم ورئيس ما يسمى « بخزانة الروهر » وهو صندوق يتولى الانفـاق على الدعايات المفسدة ، وكان يتولى جمع الأموال من ادارات مناجم المانيـــا الغربية . وكان فزيتز ثيسـّن ، رئيس اتحاد الفولاذ الذي قدر له ان يعيش ليندم على حماقته ويكتب كتابه « لقد دفعت الى هتلر » ، من قدامى المتبرعين للحزب. وكان قد اجتمع الى الزعيم النازي في ميونيخ في عام ١٩٢٣ ، واستهوته بلاغته فتبرع عن طريق لودندورف للحزب النازي المغمور آنذاك بمبلغ اولي قدره مائة الف مارك ذهبي ، أي خمسة وعشرين الف دولار ، وقد انضم الى ثيسـّن ، أحد كبار العاملين في صناعة الفولاذ أيضاً ويدعى البرت فوغلر . ويتضح من هذا

ان صناعات الفحم والفولاذ كانت المصدر الرئيسي للأموال التي تدفقت من الصناعيين لمساعدة هتلر على التغلب على آخر ما يقف في طريقه من عقبات للوصول الى الحكم في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٣ .

ولكن فونك ذكر ايضاً عدداً من الصناعات والمشاريع التي لم يرغب مديروها ان يظلوا بعيدين عن الصورة اذا تمكن هتلر أخيراً من تحقيق حلمه . وعلى الرغم من ان القائمة لم تكمل بعد ، إلا انها طويلة جداً ، فقد خانت الذاكرة فونك عندما وصل الى محاكمات نورمبرغ وقد ضمت القائمة جورج فون شنيتزلر المدير البارز في مؤسسة « فاربن » المحتكرة للصناعات الكيماوية ، وأوغست روستيرغ وأوغست ديين من أصحاب صناعة البوتاس ، وكونو من شركة همبورغ - امريكا الملاحية ، وشركة صناعة الفحم في أواسط المانيا ، ومؤسسة كونتي لصناعة المطاط ، واوتو وولف من كبار الصناعيين في كولون والبارون كورت فون شرويدر ، من اصحاب البنوك في كولون الذي قدر له ان يلعب دوراً هاماً في المناورة الاخيرة التي أوصلت هتلر إلى السلطة ، وعدد من كبار المصارف وبينهم بنك « دوتشيه » والبنك التجاري والفردي ، والبنك « دريسدن » وبنك « دوتشيه كريديت غيسيلشافت » ، ومؤسسة الاليانس التي تعتبر اكبر مؤسسة للتأمين في المانيا .

وتمكن ولهلم كيبلر وهو من مستشاري هتلر الاقتصاديين من ضم عدد من كبار الصناعيين في جنوب المانيا الى انصار هتلر ، وأسس جمعية غريبة لرجال الأعمال اعلنت اخلاصها لهملر رئيس الحرس النازي وأطلق عليها اسم « حلقة الاقتصاديين الاصدقاء » التي غدت تدعى فيما بعد بحلقة « اصدقاء زعيم الحرس النازي » أي هملر ،وقد جمعت له ملايين الماركات التي مكنت هذا اللص الكبير من متابعة « بحوثه العلمية » في أصول العنصر الآري وقد لقي هتلر منذ مستهل عهده السياسي عوناً مالياً واجتماعياً من هوغر بروخمان، الناشر الثري في ميونيخ وكارل بيخشتاين ، صانع أجهزة البيانو ، اللذين احبت زوجتاهما النجم النازي الشاب الطالع ولقد اجتمع هتلر في دارة آل بيخشتاين في برلين لأول مرة بعدد

من كبار رجال الاعمال وقادة الجيش ، وفي تلك الدارة نفسها عقد عدداً من الاجتماعات السرية الحاسمة التي قادته نهائياً الى الديكتاتورية .

ولم يهرع جميع رجال الأعمال في المانيا الى الوثوب الى العربة التي تضم جوقة هتلر ، بعد نجاح الحزب النازي في انتخابات عام ١٩٣٠ . فلقد ذكر فونك ان اتحادي الصناعة الكهربائية « سيمنز » و « آي . إي . جي .A.E.G » قد ظلا بعيدين عن هذه الجوقة ، كما ظل بعيداً عنها ملك صناعة الذخيرة « كروب فون بوهلين اوند هالباخ » . وقد أعلن فريتز ثيسّن في اعترافاته ان كروب كان « خصماً عنيفاً » لهتلر ، وانه ظل حتى اليوم الذي سبق اختيار هندنبرغ له مستشاراً ، يحذر المشير العجوز من ارتكاب مثل هذه الحماقة . ولكن كروب سرعان ما تفتحت عيناه وأبصر الضوء ، وغدا على حد تعبير ثيسّن النادم « نازياً كبيراً » [١] .

وهكذا يتضح انه في زحف هتلر الأخير نحو السلطان ، تلقى الزعيم النازي عوناً مالياً من عدد كبير من رجال الأعمال الألمان . ولم يستطع أحد بعد أن يقرر ما قدمه هؤلاء من أموال فعلاً الى الحزب النازي في هذه السنوات الثلاث الاخيرة التي سبقت عام ١٩٣٣ . ويقول فونك ، ان من المحتمل ان لا يكون هذا المبلغ قد اربى كثيراً على بضعة ملايين من الماركات . ويقدر ثيسّن هذه الأموال بمليوني دولار في السنة ، ويضيف انه هو شخصياً قد تبرع بمليون مارك . ولكن إذا ما حكمنا على ذلك من المبالغ الضخمة التي كانت موجودة تحت تصرف الحزب في تلك الأيام على الرغم من ان غوبلز كان يشكو من انها لم تكن قط كافية ، فإن في وسعنا ان نقول ان الهبات التي تلقاها الحزب من المصالح الكبيرة قد اربت على هذه التقديرات كثيراً بل بلغت أضعاف أضعافها . وسنرى فيما بعد في هذا السرد التاريخي مدى الخير الذي عمله هؤلاء الناس الذين

---

١ - شهادة فونك - المؤامرة النازية والعدوان (ص ١١٩٤ - ١٢٠٤) وكتاب ثيسن - « انا دفعت لهتلر » ص ٧٩ - ١٠٨ .

شابهوا الاطفال في تفكيرهم السياسي . وكان من اكثرهم حماساً في هذا الوقت كما كان من اكثرهم خيبة أمل فيما بعد، الدكتور شاخت الذي استقال من رئاسة بنك الرايخ في عام ١٩٣٠ ، بسبب معارضته لمشروع يونغ . واجتمع بغورنغ في ذلك العام وبهتلر في العام التالي ثم كرس كل ما لديه من كفايات عظيمة في العامين التاليين للتقريب بين هتلر وبين أصدقائه من رجالات المصارف والصناعة ، وللوصول به الى هدفه العظيم في مستشارية الرايخ. وقد كتب هذا الساحر الاقتصادي في عام ١٩٣٢ ، الذي يحمل مسؤولية كبرى عن ظهور الرايخ الثـــالث وانتصاراته الباكرة، الى هتلر يقول : « ليس لدي من شك في أن التطور الحالي للأمور يسير بك في طريق المستشارية .. فحركتك توجّه في الداخل توجيهاً قوامه الحقيقة القوية والحاجة، حتى ان النصر ، لا يمكن إلا ان يكلل هامتك قبل طويل وقت .. ومهما وقع لي في المستقبل القريب ، وانّي قادني عملي ، حتى ولو سجنت في احدى القلاع ، ففي وسعك ان تعتمد عليّ دائماً كواحد من انصارك المخلصين » .. وقد وقع على احدى هاتين الرسالتين اللتين نقلنا منهما هذه العبارة بكلمة « هايل .. هتلر » [1] .

وهناك « حقيقة قوية » واحدة للحركة النازية ، لم يحاول هتلر قط اخفاءها وهي ان الحزب إذا سيطر على المانيا، فإنه سيضع نهاية للحرية الشخصية في المانيا بما فيها حرية الدكتور شاخت وأصدقائه من رجال الاعمال. وكان من المحتوم ان يمضي وقت ما ولا شك قبل ان يستفيق رئيس بنك الرايخ الأنيس واللطيف ، وهو المنصب الذي عاد اليه في ظل حكم هتلر ، ورفاقه من رجال الصناعة والمال الى هذه الحقيقة. ولما كان هذا التاريخ شأن غيره من التواريخ حاشداً بالسخرية الفائقة، فقد كان من المحتوم ايضاً ان لا يمضي طويل وقت قبل ان يثبت للدكتور شاخت انه كان نبياً صادقاً لا بالنسبة الى تكهنه بوصول هتلر الى المستشارية فحسب ، بل وبالنسبة الى تكهنه بسجنه ، لا في احدى القلاع وإنما في معسكر

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان ـ وثائق نورمبرغ ص ٥١٢ ـ ٥١٣ و ص ٤٥٦

للاعتقال هو اسوأ من القلعة ، لا كأحد « أنصار هتلر المخلصين » ، بل بوصفه معارضاً له ، وهنا يقوم الخطأ الوحيد في نبوءته .

***

وكان هتلر الآن أي في مستهل عام ١٩٣١ ، قد أحاط نفسه داخل الحزب بعصبة صغيرة من الرجال المتعصبين القساة ، الذين قدر لهم ان يعينوه في زحفه الأخير للوصول الى السلطان ، والذين قدر لهم ان يكونوا جميعاً باستثناء واحد منهم فقط ، الى جانبه لمساعدته في الحفاظ على ذلك السلطان طيلة ايام الرايخ الثالث ، على الرغم من ان هذا المستثنى كان أقربهم إليه ، وربما كان أكثرهم كفاية وقسوة ووحشية ، ولكنه لم يتمكن حتى من الحفاظ على حياته إلى ما بعدالسنة الثانية من الحكم النازي. فلقد كان هناك خمسة يقفون فوق الآخرين من الاتباع ، وهم غريغور شتراسر ، روهم ، غورنغ ، غوبلز ، وفريك .

وقد عاد غورنغ إلى المانيا في نهاية عام ١٩٢٧ ،بعد أن صدر عفو سياسي عام أصدره الرايشستاغ بعد وقوف الشيوعيين في تأييده إلى جانب أحزاب اليمين . وكان قد قضى معظم سنوات ابعاده منذ انقلاب عام ١٩٢٣ في السويد حيث دخل أحد المصحات ليعالج نفسه من ادمان المخدرات ، وعندما شفي تماماً من هذه العلة شرع يكسب ما يقيم اوده بالعمل في إحدى شركات الطيران السويدية . وكان بطل الحرب الكونية والمقدام قد غدا الآن بديناً ضخم الجثة ، ولكنه لم يفقد شيئاً من حيويته أو من حماسه للحياة . وقد أقام الآن في شقة صغيرة ولكنها فخمة من المساكن التي يقطنها العزّاب عادة في « باد شتراسه » في برلين إذ أن زوجته المصابة بالصرع والتي كان يحبها أشد الحب ، كانت قد بقيت عليلة في السويد بعد أن أُصيبت بالسل ، وأخذ يكسب رزقه من العمل كمستشار لشركات الطيران وللخط الجوي الألماني « لوفتهانزا » وبدأ في تعهد علاقاته الاجتماعية . وقد شملت علاقاته الواسعة عدداً كبيراً من الناس بينهم ولي العهد السابق والامير فيليب اوف هس زوج الاميرة مفالدا ابنة ملك ايطاليا وفرينز ثيسّن وغيره من ملوك المال والاعمال بالاضافة إلى عدد من الضباط

البارزين في الجيش .

وكانت هذه الاتصالات هي ما يحتاج اليهـا هتلر وان كان يفتقر اليها ، وسرعان ما نشط غورنغ في تقديم الزعيم النازي الى اصدقائه وفي القيام باعمال ضمن اطار الطبقة العالية تزيل الروائح القذرة التي كان يخلفها بعض الاوغاد من ذوي القمصان البنيّة في المجتمع . وقـد اختار هتلر غورنغ في عام ١٩٢٨ ليكون احد النواب الاثني عشر الذين يمثلون الحزب النازي في الرايشستاغ ، الذي اصبح رئيساً له عندما اصبح النازيون اكبر حزب فيه بعد انتخابات عام ١٩٣٢ . وقد عقدت الاجتماعـات الكثيرة ، وحيكت الدسائس والمناورات التي ادت الى انتصار الحزب النهائي ، في المقر الرسمي لرئيس الرايشستاغ ، وفي هذا المقر بالذات . هذا اذا سبقنا السياق الزمني في السرد ، اعدت الخطة التي ساعدت هتلر على البقاء في الحكم بعد ان غدا مستشاراً ، وهي الخطة التي تمثلت في احراق الرايشستاغ .

وكان ارنست روهم قد اختلف مع هتلر في عام ١٩٢٥ ، فسافر بعد وقت قصير الى بوليفيا حيث عمل عقيداً في جيشها . وقد ناشده هتلر في نهاية عـام ١٩٣٠ العودة الى المانيا ليتسلم من جديد قيادة جيش العاصفة الذي شب عـلى الطوق وغدا صعب القياد . وكان اعضاء هذا الجيش وحتى بعض قادته يعتقدون على ما يبدو في مجيء ثورة نازية تقوم على العنف ، وقد دأبوا في الآونة الأخيرة كثيراً على الخروج الى الشوارع لضرب خصومهم السياسيين وقتلهم احياناً . ولم تكن تخلو أية معركة من المعارك الانتخابية محلية أو اقليمية أو بلدية أو قومية من معارك وحشية في الشوارع والأزقة .

وأرى لزاماً علي ان اقدم هنا لمحة خاطفة عن إحدى المعارك التي دارت في هذه الفترة والتي قدمت للاشتراكية الوطنية احد شهدائها العظام . فلقد كان هورست ويسّل احد قادة جيش العاصفة في الضواحي القريبة من برلين ، وهو نجل أحد القسس البروتستانت ، ولكنه هجر اسرته ودراساته ، ومضى ليعيش في بيت قذر مع احدى العاهرات السابقات وليكرس حياته للنضال من أجـل

النازية . وذكر الكثيرون من خصوم النازية ان الشاب كان يكسب ما يقيم أوده من العمل « كقوّاد » لصديقته ، ولكن هذه التهمة لا تخلو من المبالغة ، وان كان من المعروف ان الشاب قد انسجم مع « القوّادين » والعاهرات . وقد قتله بعض الشيوعيين في شباط عـــام ١٩٣٠ ، وكان من المتوقع ان يمضي الى زوايا النسيان مع مئات آخرين من ضحايا الفريقين الذين قتلوا في معارك الشوارع ، لولا انه خلـّف وراءه اغنية نظم كلماتها ولحنها بنفسه . وقد دعيت هذه الاغنية « هورست ويسّل » وقد غدت في وقت قصير انشودة الحزب الرسمية ثم غدت فيما بعد النشيد الوطني الثاني ، بعد نشيد « المانيا فوق الجميع » للرايخ الثالث . وغدا هورست ويسل نفسه بفضل دعاية الدكتور غوبلز الماهرة ، احد الابطال الاسطوريين في الحركة النازية ، يمجـده الحزب كمثالي نقي وهب حياته دفاعاً عن القضية .

وعندما تسلم روهم قيادة جيش العاصفة كان غريغور شتراسر ولا ريب الرجل الثاني في الحزب النازي . وقد امتاز بالبلاغة في الخطابة والروعة والتنظيم ،وكان يرئس أهم دائرة من دوائر الحزب وهي الدائرة السياسية ، وساعده منصبه هذا في ان يغدو ذا نفوذ عظيم لدى قادة الحزب المحليين والاقليميين بواقع اشرافه على نشاطهم . ومكنته طبيعته البافارية الفطرية من ان يغدو اعظم الزعماء النازيين شعبية في الحزب بعد هتلر ، وكان على النقيض مـن هتلر يتمتع بثقة المعارضين السياسيين الشخصية وحبهم . وكان ثمة عدد ضخم من النـــاس في ذلك الوقت داخل الحزب وخارجه ، يعتقدون بأن شتراسر قد يحـل محل القائد النمسوي المتقلب المزاج إلى حد لا يعد ولا يحصى . وكانت هذه النظرية أقوى ما تكون لدى قادة الجيش النظامي ورجالات القصر الجمهوري .

أما اوتو ، شقيق غريغور شتراسر ، فقد سقط في الطريق إلى النصر . فمن سوء حظه ، انه نظر نظرة جدية لا إلى صفة « الاشتراكيـة » المرافقة للحزب فحسب بل وإلى كلمة « العمال » في الاسم الرسمي الكامل للحزب وهو « حزب العمال الالمان الاشتراكي الوطني » . وكان قد أيد عدداً من الاضرابات التي قامت

بها النقابات الاشتراكيـة ، وطالب بأن يقف الحزب الى جانب تأميم الصناعة .
واعتبر هتلر هذا الموقف بالطبع هرطقة ، فاتهم اوتو شتراسر ، بالتعبـــير عن الخطايا العظمى « للديموقراطية والليبرالية ». ووقع خلاف في الواحد والعشرين والثاني والعشرين من شهر ايار عـام ۱۹۳۰ بين الفوهرر وبـين مساعده الثائر ، وطالبه بالطاعة العمياء ، وعندما رفض اوتو ذلـــك ، فصله هتلر من الحزب فحاول تشكيل حركة اشتراكية وطنية صحيحة اطلق عليها اسم اتحـــاد الاشتراكيين الوطنيين الثوريين ، وهي الحركة التي غدت تعرف فيما بعد باسم « الجبهة السوداء » . وعندما حلّـت المعركة الانتخابية في شهر ايلول ، فشلت الحركة الجديدة في أن تكسب إلى صفها أي عدد من الأصوات النازية .

أما غوبلز العضو الرابع بين الخمسة الكبار الذين يحيطون بهتلر ، فقد ظـل عدواً لغريغور شتراسر ومنافساً له بعد انفصالهما في عام ١٩٢٦ . وقد خلف شتراسر بعد سنتين من هذا التاريخ في منصب مدير دعاية الحزب ، عندما نقل الاخير مديراً للدائرة السياسية . وظل يحتفظ بمنصبه كقائـد لبرلين . وقد اثر بما حققه من انجازات في تنظيم الحزب هناك وبما ابداه من مواهب في حقل الدعاية على الفوهرر تأثيراً كبيراً ، ولم تحببه طلاقة لسانه رغم ما فيها من نكتة قارصة ، وسرعة بديهة ألى قلوب كبار مساعدي هتلر الآخرين ،الذين لم يمنحوه قط ثقتهم . ولكن الزعيم النازي كان مرتاحاً من رؤيته الشقاق يدب في صفوف مساعديه الرئيسيين لا لسبب سوى اعتباره مثل هذا الشقاق ضمانة تحميـــه من تآمرهم على زعامته . ولم يمنح هتلر ثقته المطلقة قط إلى شتراسر ، ولكنه كان يثق ثقة مطلقة بغوبلز،بالاضافة إلى ان المتعصب الاعرج الصغير كان يعج ّبالآراء التي ثبت نفعها للزعيم . وأخيراً فقد كانت مواهب غوبلز كصحفي جماهيري ، إذ صارت له الآن صحيفة في برلين يقذف على صفحاتها بما يعن له وهي«انغريف» ، بالاضافة إلى قوته الخطابيـــة التي تثير الدهماء من المكاسب التي لا تقـــدر بثمن للحزب .

وكان ولهلم فريك العضو الخامس والاخير في الجماعة ، الشخصية الوحيدة

التي لا لون لها في هذه الفئة . فهو موظف الماني من الطراز الأول . وقد عمل عندما كان ضابطاً شاباً في شرطة ميونيخ قبل عام ١٩٢٣ ، كعين لهتلر في قيادة الشرطة ، وكان الفوهرر يحس نحوه دائماً بشيء من مشاعر الاعتراف بالجميل . وكثيراً ما قبل القيام بالمهام التي لا حمد ولا شكر فيها. وكان بتحريض من هتلر ، أول نازي يقبل منصباً في الأقاليم ، إذ عيّن في ثورنجيا، ثم غدا فيما بعد زعيم الكتلة البرلمانية النازية في الرايشستاغ ، ولم يكن من الناس الذين تشوب ولاءهم اية شائبة ، عظيم الكفاية في عمله ، ولعل ما تظاهر به من طبيعة انعزالية ودماثة في الخلق ، قد جعله نافعاً في اتصالات الحزب مع الموظفين المتذبذبين في الحكومة الجمهورية .

وقد قدر لعدد من الرجال الذين كانوا أقل شأناً في مطلع حقبة الثلاثين ان يكسبوا الشهرة والبروز والسلطان الشخصي المرعب في عهد الرايخ الثالث . فلقد كان هنريخ هملر ، مربي الدجاج والرجل الذي يبدو بأنفه الذي تقف عليه نظارته اشبه ما يكون بناظر مدرسة متواضع ،والذي حصل على شهادة زراعية من مدرسة التقنية في ميونيخ ، يعمل على بناء حرس هتلر البريتوري من ذوي القمصان السوداء . ولكنه كان يعمل في ظل روهم الذي أشغل منصب القائد العام لكل من جيش العاصفة والحرس النازي ، ولم يكن معروفاً في اوساط الحزب وخارج حدود بافاريا . وكان هناك ايضاً الدكتور روبرت لي ، الصيدلي المدمن على الخمر ، الذي عمل قائداً لكولون ، وهانس فرانك المحامي الشاب اللامع الذي غدا رئيساً للقسم القضائي في الحزب . وهناك أيضاً وولتر داريه ، الذي ولد عام ١٨٩٥ في الارجنتين ، والخبير في الزراعة ، والذي اجتذبه هس الى الاشتراكية الالمانية ، ودفع كتابه « الفلاحون مصدر الحياة للجنس النوردي » (الشمالي) ، هتلر الى الاهتمام به وإلى تعيينه رئيساً للدائرة الزراعية في الحزب . واحتفظ رودلف هس ، المفتقر الى الطموح الشخصي والمعروف بولائه العميق للزعيم ، بمركزه كالسكرتير الخاص للفوهرر . أما السكرتير الخاص الثاني فهو مارتن بورمان ، الرجل الذي يشبه الخلد (في

العامية الخلنـــد) ، والذي كان يؤثر أن يبقى في جحره في ظلمة النسيان في الحزب ، ليسهل عليه حبك الدسائس ، والذي كان قـــد قضى سنة في السجن لاشتراكه في جريمـة قتل سياسية . وتولى بالدور فون شيراخ زعـامة الشبيبة النازية ، وهو شاب ذو عقل رومنطيقي ، وقدرة رائعة على التنظيم . وقد ولد عن أم امريكية كان والدها ضابطـاً في الجيش الامريكي ، وقد خسر إحدى ساقيه في سباق للثيران . وقد ذكر لسجّانيه الامريكيين في نورمبرغ انه غدا عدواً للسامية وهو في السابعة عشرة من عمره بعد أن قرأ كتـاب « اليهودي العالمي » لهنري فورد .

وكان هناك أيضاً الفرد روزنبرغ الفيلسوف البلطيقي المزيّف ، والانسان المحدود الذكاء والمترهل الجسم ، وهو الرجل الذي غدا كما سبق لنا أن قلنا أحد مستشاري هتلر الأوائل ثم شرع بعد انقلاب عام ١٩٢٣ ،يخرج سلسلة من الكتب والنشرات من النوع المشوّش في محتوياته واسلوبه والذي بلغ أوجه فيها عندما أصدر كتاباً يقع في سبعمائة صفحة وعنوانه « خرافة القرن العشرين »، كان في حد ذاته مزيجاً مضحكـاً من أفكاره غير الناضجـة عن تفوق العنصر الشمالي (النوردي) ، واعتبر في الحلقات النازية ثمرة حصيفة من ثمرات الفكر الذي لم يستطع هتلر فهمه إذ كان يقول على سبيل المزاح دائماً انه يحـاول قراءته ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح ، ولعل هذا الكتاب هو الذي حمل شيراخ الذي كان يعتبر نفسه كاتباً على ان يعلق ذات يوم قائلاً بأن روزنبرغ « كان رجلاً باع من كتابه نسخاً غير مقروءة تفوق في عددها أي كتاب لأي مؤلف آخر » إذ بيع منه بعد طباعته في عام ١٩٣٠ وفي العشر سنوات الاولى أكثر من نصف مليون نسخة . وقد احتفظ هتلر منذ بدايته حتى نهايته ، بمكانة كبيرة في فؤاده لهذا الرجل البليد السخيف والمتسكع ، ومنحه عدداً من المناصب الحزبية كرئاسة تحرير الفولكشاير بيوباختر وغيرها من المطبوعات النازية ، كما عينه واحداً من نواب الحزب في الرايشستاغ بعد انتخابات عام ١٩٣٠ حيث مثل الحركة النازية في لجنة الشؤون الخارجية البرلمانية .

هذا هو نوع المزيج من الرجال الذين أحاطوا بزعيم الاشتراكية الوطنية . ولو كان المجتمع الذي عاشوا فيه طبيعياً ، لبدوا حتماً كمزيج غريب كل الغرابة من الرجال المصابين بالصرع . ولكنهم أخذوا يظهرون في الايام الاخيرة للجمهورية التي سادتها الفوضى ، الى الملايين من الألمان الذاهلين بمظهر المنقذين وكانت هناك ميزتان تجعلانهم أفضل من خصومهم ، أولاهما ان قائدهم رجل يعرف ما يريد وثانيهما انهم كانوا على درجة كبيرة من القسوة والانتهازية ، دفعتهم الى مساعدته والسير معه الى أبعد مدى لتمكينه من تحقيق ما يريد .

وعندما كان عام ١٩٣١ ، يسير طريقه الوعر ، حيث لا يزال خمسة ملايين من كاسبي الأجور عاطلين عن العمل ، والطبقات الوسطى تواجه الدمار ، والفلاحون عاجزين عن دفع أقساط ديونهم ورهنيات أراضيهم ، والبرلمان في حالة من الشلل ، والحكومة تبذل غاية جهدها لحل المشاكل التي تواجهها ، والرئيس العجوز ذو الأربعة والثمانين حولاً يتجه مسرعاً الى الخرف ، تعالت الثقة في أفئدة الزعماء النازيين ، بأن فترة انتظارهم للوصول الى الحكم لم تعد طويلة ، وتبجح غريغور شتراسر جهاراً بقوله : « إن كل ما يعمل على ترسيب الكارثة .. نافع جداً لنا وللثورة الألمانية » .

٦

آخر أيام الجمهورية

١٩٣١ - ١٩٣٣

ظهر الآن في خضم هذا الاضطراب وتلك الفوضى اللذين رافقا الحياة الألمانية ، شخص غريب ومنحرف ، قدر له أكثر من أي فرد آخر ، أن يعمل على حفر قبر الجمهورية بيديه ، فيقوم بدور المستشار في خدمتها مدة قصيرة ، ويحاول يائساً ، بصورة لا تخلو من سخرية الأقدار ، وبانحرافة أخيرة من انحرافات حياته العجيبة ، على انقاذها ولكن بعد فوات الأوان ، وهذا الرجل هو كورت فون شلايخر الذي يعني اسمه في الألمانية « الدساس » أو « المتسلل » .

وكان هذا الرجل قد بلغ رتبة « اللواء » في الجيش في عام ١٩٣١ . ولد في عام ١٨٨٢ ، وانضم الى الجيش وهو في الثامنة عشرة ، ملازماً في كتيبة هندنبرغ المسماة بكتيبة حرس المشاة الثالثة ، حيث غدا صديقاً حميماً لأوسكار فون هندنبرغ ، نجل المشير والرئيس . وكان له صديق ثان برهنت صداقته عن قيمتها الكبيرة وهو الفريق غروينر ، الذي اعجب بالشاب وبذكائه كطالب في الكلية الحربية ، ثم لما خلف لودندورف في القيادة العليا للجيش في عام ١٩١٨ ، جاء بالضابط الشاب ليعمل مرافقاً له . وكان هذا الضابط من ضباط

الاركان قبل كل شيء ، ولذا لم يخدم إلا فترة قصيرة في الجبهة الروسية ، وظل قريباً من مصادر السلطان في الجيش وفي جمهورية ويمار حيث قربته سرعة بديهته وأخلاقه الأنيسة الوديعة ، وذكاؤه السياسي اللماح من القادة العسكريين والساسة على حد سواء . ولعب هذا الرجل دوراً هاماً تحت قيادة الفريق فون سيخت وساعده في تنظيم الفيلق الحر غير الشرعي « والجيش الاسود » السري أيضاً ، كما لعب دوراً خطيراً في المفاوضات السرية التي دارت في موسكو والتي أدت إلى تدريب ضباط الطيران والدبابات الألمان في الاتحاد السوفياتي وفي إقامة مصانع المانية للسلاح فيه . ولما كان شلايخر من خيرة المنظمين الموهوبين ، ومن الذين يتميزون بالميل إلى الدسائس ، فقد كان بارعاً في العمل في الظلام . وظل اسمه مجهولاً لدى الرأي العام حتى مستهل حقبة الثلاثين ، ولكنه كان قبل ذلك قد شرع في اجتذاب الاهتمام المتزايد في شارع « بيندلر » حيث تقوم وزارة الحربية ، وفي « الوهلمشتراسة » حيث تقوم وزارات الدولة الاخرى .

وكان قد استغل نفوذه المتضخّم عند الرئيس هندنبرغ في عام ١٩٢٨ ، بعد أن أصبح قريباً منه عن طريق صداقته الوثيقة لولده اوسكار ، ليحمله على تعيين رئيسه السابق الفريق غروينر ، وزيراً للدفاع ، فكان أول عسكري يحتل هذا المنصب في عهد الجمهورية . وجعل غروينر من شلايخر يده اليمنى في الوزارة ، فعهد إليه بمنصب جديد اخترعه وهو مكتب الوزارة الذي يدير الشؤون السياسية والصحفية المتعلقة بالجيش والبحرية . وكان غروينر يطلق عليه اسم « كردينالي في الشؤون السياسية » وقد أطلق يده بحرية ليتصرف في موضوع علاقات الجيش بالوزارات الاخرى والزعماء السياسيين . وهكذا أصبح شلايخر رجلاً ذا نفوذ لا في مجالات فيلق الضباط فحسب بل وفي الميدان السياسي أيضاً. وشرع في الجيش يحطم كبار الضباط فتخلص أولاً من الفريق فون بلومبرغ القائد الثاني للجيش في عام ١٩٣٠ بحيلة ماكرة ، مستعيضاً عنه بصديق قديم له في كتيبة المشاة الثالثة هو الفريق فون هامرشتاين . وقد رأينا كيف عمل في

ربيع ذلك العام على بذل اول جهد له في اختيار المستشار وكيف حمل بمساعدة الجيش الرئيس هندنبرغ على اختيار هنريخ براونينغ مستشاراً .

وقد نفذ شلايخر بهذا النصر السياسي الذي حققه ، أول خطوة في مخطط ضخم لبعث الجمهورية ، منبثقاً عن فكرة طالما جالت برأسه الذكي الماكر منذ أمد بعيد . فلقد رأى بوضوح كما رأى غيره ، الأسباب الحقيقية لضعف جمهورية ويمار . فهناك عدد اكثر من اللزوم من الأحزاب السياسية ، إذ وجدت في عام ١٩٣٠ عشرة أحزاب حصل كل واحد منها على اكثر من مليون صوت . وكانت أهدافها كلها متضاربة ، بينما جعلت شغلها الشاغل الاهتمام بالمصالح الاقتصادية والاجتماعية للفئات التي تمثلها . وقد حال هذا الوضع بينها وبين دفن خلافاتها وإقامة أغلبية كبيرة في الرايشستاغ يكون في وسعها ان تدعم حكومة مستقرة قادرة على مواجهة الازمة الرئيسية التي عانت منها البلاد في مستهل حقبة الثلاثين. وكان الحكم البرلماني قد غدا أشبه ما يكون بتجارة الماشية – على حد تعبير الالمان – إذ كانت المساوات تعقد بين الاحزاب للحصول على المنافع الخاصة للجماعات التي تمثلها ، على حساب المصلحة العامة . ولم يكن من الغريب والحالة هذه عندما تسلم براونينغ المستشارية في الثامن والعشرين من آذار عام ١٩٣٠ ، ان يستحيل ايجاد اغلبية في الرايشستاغ تؤيد أية سياسة لليسار أو الوسط أو اليمين ، وأن يجد هذا نفسه مضطراً لإدارة دفة الحكم ، والقيام بأي عمل لمواجهة الشلل الاقتصادي ، الى اللجوء الى المادة الثامنة والاربعين من الدستور التي تسمح له في حالات الطوارىء وبموافقة الرئيس ، بالحكم بموجب مراسيم جمهورية .

وكانت هذه هي الطريقة التي ارتأى شلايخر ان على المستشار اتباعها في الحكم . فهي تضمن قيام حكومة قوية تحت اشراف يد الرئيس القوية ، لا سيما وان الرئيس ، كما رأى شلايخر ، يمثل عن طريق انتخابه المباشر ، الشعب الذي انتخبه بالاضافة الى ما يلقاه من تأييد الجيش ، وإذا لم يكن في وسع الرايشستاغ المنتخب بطريقة ديموقراطية ان يؤمن حكومة مستقرة ، فإن في وسع الرئيس

المنتخب ديموقراطياً كذلك ، ان يؤمن هذه الحكومة . وكان شلايخر واثقاً من ان ما تريده غالبية الألمان هو قيام حكومة تتخذ موقفاً صلباً وتخرج بهم من هذه الحالة اليائسة التي يعيشونها . لكن الانتخابات التي أجراها براونينغ في ايلول ، لم تظهر في الواقع ان غالبية الألمان كانت تريد ما خاله شلايخر ، أو أنها على الأقل ، لم ترغب في ان تخرج بها من متاهات البيداء حكومة من الطراز الذي اختاره شلايخر وأصدقاؤه في الجيش وفي القصر الجمهوري .

وقد اقترف شلايخر في الواقع خطيئتين قتالتين ، اولاهما انه بوضعه براونينغ مستشاراً وتشجيعه على الحكم عن طريق المراسيم الجمهورية ، حطم الاسس التي تقوم عليها قوة الجيش في البلاد ، وهي ان يظل دائماً فوق مستوى الخلافات السياسية مما أدى الى دمار المانيا والجيش نفسه . أما ثانية هاتين الخطيئتين فهي ان حسابه عن المقترعين كان مغلوطاً . وعندما رأى ان ستة ملايين ونصف المليون من المقترعين ، قد صوتوا الى جانب الحزب النازي في الرابع عشر من ايلول بدلاً من (٨١٠) آلاف في الانتخابات السابقة التي جرت قبل سنتين ، ادرك الجنرال السياسي ان الواجب يقتضيه اتخاذ خطوة جديدة . ولم تمض نهاية العام حتى كان يتصل بروهم ، الذي كان قد عاد قبل فترة قصيرة من بوليفيا كما اتصل بغريغور شتراسر . وكان هذا اول اتصال جدي بين النازيين وبين من يمسكون بزمام السلطان السياسي في الجمهورية . وقد قدر لهذا الاتصال الذي نما في السنتين التاليتين ان يصل بأدولف هتلر الى هدفه وبالفريق فون شلايخر الى سقوطه وقتله في النهاية .

* * *

وقد قابل هتلر الرئيس هندنبرغ لأول مرة في حياته في العاشر من تشرين الأول عام ١٩٣١ ، أي بعد ثلاثة أسابيع من انتحار جيلي روبال ابنة اخته وحبيبته . وكان شلايخر ، وهو يحوك دسيسة جديدة ، قد أعد هذه المقابلة . وكان قد تحدث في وقت مبكر من ذلك الخريف الى ادولف هتلر ورتب له مقابلتين مع المستشار ورئيس الجمهورية . وكان يفكر تفكيراً عميقاً في مؤخرة

عقله بماسيحدث عندما تنتهي فترة رئاسة هندنبرغ البالغة سبع سنوات في ربيع عام ١٩٣٢ ، إذ يكون المشير العجوز قد بلغ الخامسة والثمانين من عمره ، وكانت فترات صفائه الذهني تقصر رويداً رويداً . ومع ذلك فقد أدرك كل انسان ان الرئيس إذا لم يرشح نفسه مرة ثانية ، فإن هتلر الذي لم يغد بعد مواطناً المانياً من الناحية القانونية ، سيحاول ان يرشح نفسه ، وأن يخوض المعركة الانتخابية ويفوز فيها ليصبح رئيساً .

وكان المستشار المثقف قد قضى الصيف وهو يفكر ساعات طويلة ، في كل يوم ، في الوضع اليائس الذي وصلت اليه المانيا . وقد أدرك ان حكومته غدت أقل الحكومات التي قامت في عهد الجمهورية شعبية ،وكان قد أصدر عدة مراسيم لمواجهة الأزمة الاقتصادية المستحكمة قضت بتخفيض الأجور والرواتب وتخفيض الاسعار ايضاً كما فرض قيوداً صارمة على الأعمال التجارية والمالية والخدمات الاجتماعية . وقد اطلق عليه النازيون والشيوعيون على السواء لقب « مستشار المجاعة » . ومع ذلك فقد ظن بأنه سيجد اخيراً طريق الخلاص الذي يقود الى ايجاد الاستقرار والحرية والرخاء في المانيا . فسيحاول التفاوض مع الحلفاء على إلغاء التعويضات التي كان دفع أقساطها قد توقف مؤقتاً بسبب التأجيل الذي أقره الرئيس الامريكي هوفر. وسيحاول في مؤتمر نزع السلاح الذي كان من المقرر عقده في السنة القادمة اما حمل الحلفاء على الوفاء بعهودهم التي قطعوها في معاهدة فرساي بتخفيض أسلحتهم إلى مستوى التسلح في المانيا أو السماح لها أي لألمانيا بالشروع جهاراً في تنفيذ برنامج معتدل للتسلح ، كان في الحقيقة وبتدبير منه ، قد بدأ به فعلاً بصورة سرية . وهكذا يزول آخر قيد من قيود معاهدة فرساي وتظهر المانيا كدولة تقف على قدم المساواة مع الدول الكبرى. ورأى براونينغ ان مثل هذا العمل لا يكون بمثابة مجرد نعمة للجمهورية فحسب وانما يخلق جواً من الثقة في العالم الغربي يؤدي الى انهاء الأزمة الاقتصادية الخانقة ، التي جاءت بالشقاء الى الشعب الالماني ، كما ينتزع من الحزب النازي في الوقت نفسه مصدر قوته .

ورسم براونينغ ايضاً خطته للسير سيراً جريئاً في الجبهة الداخلية فقد قرر ان يعدل الدستور الألماني تعديلاً اساسياً عن طريق الاتفاق مع جميع الأحزاب الرئيسية باستثناء الحزب الشيوعي . وكان يرمي إلى إعادة ملكية آل هوهنزلرن فهو يرى انه حتى ولو تمكن من اقناع هندنبرغ في خوض معركة الرئاسة مرة ثانية ، فليس من المنتظر ان يعيش الرئيس بالنسبة الى كبر سنه ، المدة الكاملة لرئاسته الجديدة وهي سبع سنوات . ولو قدر له ان يموت بعد عام او عامين فإن الطريق ستظل مفتوحة امام هتلر لينتخب رئيساً للجمهورية . ورغبة منه في احباط هذا الاحتمال ، ولضمان الدوام والاستقرار في منصب رئيس الدولة ، فقد وضع براونينغ المخطط التالي وهو ان تؤجل انتخابات الرئاسة في عام ١٩٣٢، وان تمدد فترة الرئيس هندنبرغ الحالية بقرار من البرلمان بمجلسيه الرايشستاغ والرايشسرات، يتخذ بأغلبية الثلثين، وإذا ما تحقق هذا فيقترح ان يعلن البرلمان عودة الملكية مع ابقاء الرئيس هندنبرغ وصيــاً على العرش . فإذا ما توفي ، جيء بأحد انجال ولي العهد ليحتل عرش الهوهنزلرن. واعتقد براونينغ انهذا العمل سيضعف من قوة النازيين اذ يعني نهايتهم كقوة سياسية .

لكن المشير العجوز لم يهتم بهذا المخطط، فالرجل العسكري الذي تطلب منه واجبه كقائد للجيش الامبراطوري ، ان يطلب الى القيصر في تلك الايام المظلمة من خريف عام ١٩١٨ النزول عن العرش في سبا ، لأن عهد الملكية قد انتهى ، لم يكن ليقبل بأن يعود أي أمـير من آل هوهنزلرن الى العرش باستثناء الامبراطور نفسه الذي كان لا يزال يعيش في منفاه في دورن في هولندة. وعندما حاول براونينغ ان يوضح له ان الاشتراكيين الديموقراطيين وأعضاء النقابات العمالية الذين قبلوا مترددين كل التردد بخططه، لسبب واحد وهو انه يؤمن الفرصة البائسة الأخيرة لوقف هتلر عند حده ، لن يقبلوا بعودة الامبراطور غليوم أو نجله الأكبر، وان يضيف الى ذلك قوله بأن الملكية في حال عودتها يجب ان تكون ديموقراطية دستورية على غرار النسق البريطاني، ثار الماريشال العجوز الاشمط ، ثورة حملته على ان يطرد مستشاره من حضرته . وعاد فاستدعاه بعد اسبوع

ليعلن له انه قرر عدم خوض المعركة الانتخابية الجديدة للرئاسة .

وفي غضون ذلـك كان هتلر قد اجتمع لأول مرة بالمستشار أولاً ثم برئيس الجمهورية ثانياً . وقد اتجهت المحادثات في الاجتماعين اتجاهاً سيئاً بالنسبة الى الزعيم النازي إذ لم يكن قد استفاق بعد من الصدمة التي أُصيب بها من جراء انتحار جيلي روبال ، وكان دائم الذهول ، وفاقد الثقة بنفسه . وقد رد هتلر على طلب براونينغ تأييد النازيين لاستمرار هندنبرغ في الرئاسة بخطاب طويل حمل فيه على الجمهورية مما لم يترك مجالاً للشك لدى المستشار في أنه لا يوافق على مخططه . وكان هتلر كثير الارتباك والحيرة في حضرة هندنبرغ . وقد حـاول التأثير على الرجل العجوز بخطاب مطول . ولكن محاولته منيت بالفشل ولم يتأثر الرئيس في هذه المقابلة الأولى « بالعريف البوهيمي » كما اسمـاه . وقال لشلايخر ان مثل هذا الرجل قد يصلح وزيراً للبرق والبريد لا مستشاراً ، وهو قول سرعان ما اضطر المشير الى ابتلاعه والعدول عنه .

وسارع هتلر في غيظ وحنق الى « باد هارزبورغ » حيث انضم في اليـــوم التالي أي الحادي عشر من تشرين الأول ، الى مظاهرة جماهيرية ضخمة قامت بها « المعارضة الوطنية » احتجاجاً على حكومتي المانيا وبروسيا . ولم يقتصر هـذا الاجتماع على متطرفي اليمين الذين يمثلهم الاشتراكيون الوطنيون فحسب بل ضم أيضاً قوات الرجعية المحافظة القديمة من أمثال الحزب الألماني الوطني (هوغنبرغ) والجيش الخاص لمحاربي الجناح اليميني المسمى « ستاهلهيلم » ، وشبيبة بسمارك ، وعصبة النبلاء الزراعية ، ومجموعة غريبة من قدامى الجنرالات العسكريين . لكن هتلر لم يول الاجتماع جماع عواطفه . فقد كان يحتقر هؤلاء الرجـــال من مخلفات العهد البائد الذين يلبسون الملابس الرسمية والقبعات العالية ويضعون الأوسمة على صدورهم ، وكان يرى في الارتباط معهم خطراً يهـــدد حركته « الثورية » . وأسرع في خطابه دون صناعة أو زخرف ، ثم غادر الميدان ، قبل أن يجري عرض الستاهلهيلم ، الذي بدت فيه هذه القوات متفوقة في عددها على قواته من جيش العاصفة ، وهكذا ولدت جبهة هارزبورغ ، التي تألفت في ذلك

اليوم والتي مثلت محـاولة قام بها المحافظون من أنصار الاتجاه القديم ، لحمـل النازيين على السير في جبهة موحدة للشروع في الهجـوم النهائي على الجمهورية ، إذ طالبت باستقالة براونيننغ الفورية . ولم يرغب هتلر في أن يمثل دور العازف الثاني مع هؤلاء السادة الذين كانت عقولهم في رأيه مدفونة في الماضي الذي كان واثقاً من أن لا رجعة إليـه . وخيل إليه أن في وسعه أن يستغلهم مؤقتاً إذا ساعدوه في تحطيم جمهورية ويمار ، ووفروا له ، كما حدث فعلاً ، مصادر مالية جديدة . ولكنه لن يسمح لهم باستخدامه ، ولم تمض بضعة أيام ، حتى كانت جبهة هارزبورغ تواجه الانهيار النهائي، وحتى كانت العناصر المختلفة التي ألفتها قد أخذت بخناق بعضها البعض .

ولكن هذه العناصر اتفقت في موضوع واحد ، فقد رفض كل من هوغنبرغ وهتلر الموافقة على اقتراح براونيننغ بتمديد فترة هندنبرغ الرئاسيـة . وجدد المستشار في مطلع عام ١٩٣٢ محاولته لاقناعها بتبديل آرائها ، وكان قد تمكن بعد جهود هائلة من إقناع الرئيس بالموافقة على الاستمرار في الخدمة ، إذا قرر البرلمان تمديد رئاسته . وهكذا لم يعد من الضروري بالنسبة إليـه أن يتحمل أعباء معركة انتخابية عنيفة . ووجه براونيننغ الآن الدعوة الى هتلر للمجيء الى برلين لإجراء مشاورات جديدة . وقد وصلت البرقية في الوقت الذي كان فيه هتلر مع هس وروزنبرغ ، في مكتب تحرير الفولكشاير بيوباختر في ميونيخ وقذف هتلر بالورقة في وجهيهما وصرخ هاتفاً ... « لقد غدوا الآن في جيبي ! لقد اعترفوا بي الآن كشريك في مفاوضاتهم »[1] .

وتشاور هتلر صباح السابع من كانون الثاني مع براونيننغ وشلايخر ، ثم عقد اجتماعاً آخر في العاشر منه . وكرر برونيننغ اقتراحه بأن يوافق الحزب النازي على تمديد رئاسة هندنبرغ . وأكد انه في حالة اتمام هذا، وبعد ان ينهي موضوع الغاء التعويضات والمساواة في التسلح ، سيستقيل من المستشارية . وتقول بعض

---

١ – هايدن ـ الفوهرر ص ٤٣٣ .

المصادر ، اذ ان هناك خلافاً في الموضوع ، ان برونينغ قدم طعماً آخر لهتلر ، اذ وعده بأن يقترح اسمه – أي هتلر – على الرئيس ليخلفه في المستشارية . [1]

ولم يعط هتلر رداً نهائياً على الفور ، فقد انسحب الى «كايزرهوف» للتشاور مع مستشاريه . وقد أيد غريغور شتراسر خطة برونينغ ، قائلاً ان هندنبرغ سيفوز في المعركة الانتخابية اذا فرضها النازيون عليه . أما غوبلز وروهم فقد أيد فكرة الرفض المطلق للعرض . وقد كتب غوبلز في يومياته بتاريخ السابع من كانون الثاني يقول : ليست القضية موضوع رئاسة الجمهورية . فبرونينغ يريد ان يقوي مركزه الشخصي بصورة غير محدودة . لقد بدأت لعبة الشطرنج للحصول على السلطان .. والشيء المهم ان نحتفظ بقوتنا وان لا نتساهل . وكان قد كتب في الليلة السابقة يقول : « هناك رجل في المنظمة لا يثق فيه انسان ... وهو غريغور شتراسر » [2] .

ولم ير هتلر نفسه سبباً يدعوه الى شد ازر برونينغ واعطاء الجمهورية جرعة تمكنها من البقاء في الحياة . ولكنه كان يختلف عن هوغنبرغ الذي رفض المشروع فوراً ، بدهائه ومكره . ولم يرد على المستشار ، بل تخطاه الى الرئيس معلناً أنه يعتبر اقتراح برونينغ متعارضاً مع الدستور ومؤكداً انه سيؤيد اعادة انتخابه – أي هندنبرغ – اذا رفض المشير مشروع برونينغ . ويقول اوتو فون مايزنر وزير الدولة الذكي في القصر الجمهوري ، الذي خدم باخلاص وحماس ، بهذه الصفة ، كلاً من الرئيس الاشتراكي ايبرت والرئيس المحافظ هندنبرغ ، والذي كان على استعداد للتفكير بخدمة رئيس ثالث أياً كان حتى ولو جاء هتلر الى القصر ، ان الزعيم النازي في محادثة سرية جرت في كايزرهوف ، عرض ان يؤيد هندنبرغ في الانتخابات شريطة ان يتخلص اولاً من برونينغ وان يؤلف حكومة « قومية » ويصدر مرسوماً باجراء انتخابات جديدة للرايشستاغ والبرلمان البروسي .

---

١ – هايدن – تاريخ الاشتراكية الالمانية ص ١٦٦ .

٢ – غوبلز – كايزرهوف – ص١٩ – ٢٠ .

ولم يوافق هندنبرغ على هذا العرض . وهاجه رفض النازيين والوطنيين ،ان يوفروا عليه جهد المعركة الانتخابية ،لاسيما وان الاخيرين هم اصدقاؤه ومؤيدوه على سبيل الافتراض ، فقرر أن يخوض المعركة. ولكن هياجه هذا من الاحزاب اليمينية قد صاحبته مرارة من برونينغ ، فقد احس ان المستشار قد تصرف في القضية كلها تصرفاً سيئاً ، دفع به الى التصارع صراعاً مؤلماً الآن مع عين القوى الوطنية التي انتخبته رئيساً للجمهورية في عام ١٩٢٥،ضد مرشحي الماركسيين والليبراليين وها هو لا يستطيع ان يفوز الآن الا بتأييد الاشتراكيين والنقابيين الذين كان دائم الاحتقار لهم بصورة لا يخفيها وانما يجهر بهـا . وهكذا اصيبت علاقاته بمستشاره بالفتور بعد ان كان يقول عنه قبل ايام بأنه « خير مستشار منذ ايام بسمارك » .

ولحق الفتور تجاه المستشار بالجنرال الذي اوصله الى المستشارية . فقد ادرك شلايخر ان المستشار الكاثوليـكي الحازم ، فشل في مهمته ، اذ غدا أقل مستشار عرفته الجمهورية شعبية في تاريخها. وقد عجز عن الحصول على اغلبية في البلاد كما فشل في كبح جماح النـــازيين أو حتى في كسبهم الى صفه ، وتعثّر في قضية ابقاء هندنبرغ في الرئاسة . وهكذا قرر شلايخر وجوب اختفاء برونينغ ومعه الفريق غرونير ، الذي يحله شلايخر كرئيس له ، وذلك لفشله في تفهّم الآراء التي يحملها هو بالنسبة الى المستقبل . ولكن الفريق شلايخر ، صاحب المشاريع والخطط ،لم يكن على عجلة من أمره،ومن الواجب الاحتفاظ ببرونينغ وغرونير في الحكم بالنظر الى قوتهما ، الى ان يعاد انتخاب الرئيس هندنبرغ ، مخافة ان يفشل في المعركة دون مساعدتهما . أما اذا انتهت الانتخابات فستنعدم الفائدة من وجودهما .

هتلر ينافس هندنبرغ

وقعت هناك حالات عدة في حياة ادولف هتلر ، تحتم عليه فيها ان يواجه

قرارات صعبة ، فتردد ولم يكن حازماً ، ولعل هذه الحالة التي واجهها الآ ن كانت من هذا النوع . وكان السؤال الذي تحتم عليه ان يحزم أمره في موضوعه هو : هل يخوض معركه انتخابات الرئاسة او لا يخوضها؟ فالظاهر ان هندنبرغ من النوع الذي لا يقهر . ولن يلقى البطل الاسطوري التأييد من عناصر اليمين الكثيرة التي أيدته في عام ١٩٢٥ فحسب ، وانما من العناصر الديموقراطية الاخرى التي عارضت انتخابه آنذاك والتي رأت فيه الآن المنقذ للجمهورية . وفكر هتلر ، ألا يعني خوضه المعركة ضد المشير ، التي سيغلب هو فيها ولا ريب تعريضاً لسمعة الحزب التي اخذ الآن في بنائها عاماً بعد آخر من انه الحزب الذي لا يقهر ؟ ولكن ألا يعني عدم خوضها من الناحية الاخرى اعترافاً من الحزب بضعفه ، وعرضاً لما تشعر به الاشتراكية النازية من افتقار الى الثقة في وصولها الى عتبة الحكم ؟ وكان هناك اعتبار آخر ، فلقد كان هتلر في ذلك الحين يفتقر الى الشرعية في خوض المعركة اذ انه لم يكن قد غدا مواطناً المانياً بعد .

وحثه جوزيف غوبلز على ان يعلن ترشيحه . وسافر الرجلان معاً الى ميونيخ في التاسع عشر من تشرين الثاني ، وسجل غوبلز في يومياته تلك الليلة يقول: « بحثت موضوع الرئاسة مع الفوهرر . لم يتوصل الزعيم الى قرار . رجوته غاية الرجاء ان يعلن ترشيحه » وتعكس يوميات غوبلز للشهر التالي، ما طرأ على عقل هتلر من موجات المد والجزر في هذا الموضوع. فقد كتب في الواحد والثلاثين من كانون الثاني يقول : « سيتخذ الفوهرر قراره يوم الاربعاء ، اذ لا يمكن الابقاء على الشك في هذا الموضوع فترة اخرى » . ويبدو انه قد اتخذ قراره في الثاني من شباط اخيراً . فقد سجل غوبلز في يومياته : «لقد قرر ترشيح نفسه ». ولكن غوبلز يعود فيضيف ان هذا القرار سيظل طي الكتمان الى ان يتضح موقف الاشتراكيين الديموقراطيين . واجتمع قادة الحزب في اليوم التالي في ميونيخ للاستماع الى قرار هتلر . وسجل غوبلز: « انهم ينتظرون بلا جدوى. والكل في حالة عصبية واجهاد » ويحاول رئيس الدعاية الصغير الحجم، البحث عن السلوى تلك الليلة ، فيسرق نفسه ويمضي لمشاهدة غريتا غاربو في احد افلامها

« ويتأثر ويهتز » من هذه الممثلة التي يعتبرها « اعظم ممثلة حيّة » . ثم يكتب : « وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة جاءني عدد من الرفاق القدامى في الحزب. انهم يشعرون بالقنوط من عدم اتخاذ قرار . وهم يخشون ان يكون انتظـــار الفوهرر قد طال اكثر من اللازم » .

ومن الحق ان يقال ان انتظاره قد طـــال ، ولكن ثقة هتلر في انتصاره النهائي لا تضعف ولاتهن وسجلت يوميات غوبلز ان الفوهرر تحدث إليه طويلاً في احدى الليالي في ميونيخ عن المركز الذي سيشغله في الرايخ الثالث . ويقول غوبلز ان الزعيم فكر في ان يسند اليه « وزارة التربية الشعبية التي سيشمل اختصاصها الاشرطة السينمائية والاذاعة والفن والثقافة والاعلام والدعاية » . ويتحدث هتلر في ليلة اخرى حديثاً طويلاً الى مهندسه المعماري الاستاذ تروست عن المخطط الذي يضعه لإحداث « تبدلات عظيمة في عاصمة الوطن » . ويضيف غوبلز قائلاً ... « لقد أتم الفوهرر اعداد جميع مخططاته ، فهو يتحدث ويعمل ويحس ، وكأنه قد غدا في الحكم » .

ولكنه لا يتحدث بعد وكأنه تواق الى خوض المعركة ضد هندنبرغ فلقد سجل غوبلز في التاسع من شباط : « لقد عاد الفوهرر الى برلين مناقشات اخرى في كايزرهوف عن خوض معركة الرئاسة . ما زال كل شيء معلقاً في الهواء » . وبعد ثلاثة أيام يجلس غوبلز مع الزعيم ليحسبا سوية عدد الاصوات .. ثم يقول هتلر .. « انها مغامرة ولكن يجب القيام بها » ، ويعود هتلر الى ميونيخ ليعاود التفكير من جديد في الموضوع .

وأخيراً يقرر له هندنبرغ نفسه ما يعمله . فقد أعلن الرئيس العجوز في الخامس عشر من شباط اخيراً ترشيحه . ويحس غوبلز بالسعادة . « لقد غدونا الآن مطلقي الحرية في التصرف . ولم نعد في حاجة الى اخفاء قرارنا » . ولكن هتلر يصر على اخفائه حتى الثاني والعشرين من شباط . ويسجل غوبلز مرحاً . « وفي اجتماع عقدناه في كايزرهوف في ذلك اليوم خولني الفوهرر ان اعلن ترشيحه في قصر الرياضة تلك الليلة » .

وكانت الحملة مؤلمة ومربكة في آن واحد . ويقف غوبلز في الرايشستاغ ليصم هندنبرغ بأنه « مرشح حزب الخونة » . فيقرر البرلمان اخراجه لتحقيره الرئيس . وتحولت صحيفة « دويتشه زايتونغ » القومية في برلين التي كانت قد أيدت هندنبرغ في انتخابات عام ١٩٢٥ ، الى مهاجمته بعنف الآن . فقد اعلنت تقول .. « ان القضية الراهنة هي ما اذا كان الخونة الدوليون والخنازير الانهزاميون ، سيأتون بتأييد من هندنبرغ بالدمار النهائي لألمانيا » .

وانقلبت جميع الولاءات التقليدية للطبقات والاحزاب في حمى المعركة الانتخابية وفوضاها. فلقد لقي هندنبرغ البروتستانتي البروسي المحافظ والملكي التأييد من الاشتراكيين والنقابيين وكاثوليك برونينغ من أتباع حزب الوسط وبقايا احزاب الطبقة الوسطى الديموقراطية والليبرالية. ولقى هتلر الكاثوليكي النمسوي الافاق السابق ، والاشتراكي الوطني وزعيم جماهير الطبقة الوسطى — الدنيا التأييد بالإضافة الى حزبه من بروتستانت الطبقة العليا في الشمال، واصحاب الاقطاعيات الزراعية المحافظين من النبلاء وعدد من الملكيين بينهم ولي العهد السابق الذي اعلن تأييده له في اللحظة الأخيرة . وقد تضاعف الارتباك من جرّاء دخول مرشحين آخرين في المعركة ، ليس في وسع ايهما ان يطمع في الحصول على اغلبية كافية تحول دون احراز واحد من المرشحين الرئيسيين الاصوات الكافية لنوال الاغلبية المطلقة التي يحتاجها . فلقد رشح الوطنيون ثيودور دويستربيرغ القائد الثاني لفرق ستاهلهيلم التي كان هندنبرغ نفسه قائدها الأعلى الفخري ، وهو عقيد سابق في الجيش لا لون له، استطاع النازيون فرحين ان يكتشفوا فوراً ان جده كان يهودياً . ورشح الشيوعيون الذين اعلنوا ان الاشتراكيين قد خانوا العمال بتأييدهم هندنبرغ ، مرشحهم الخاص تايلمان ، زعيم الحزب الشيوعي . ولم تكن هذه هي المرة الاولى او الاخيرة ، التي نصر فيها الشيوعيون بصورة غير مباشرة بناء على الاوامر التي جاءتهم من موسكو ، الحزب النازي .

وتمكن هتلر قبل اشتداد حمى المعركة الانتخابية من حل مشكلة جنسيته .

فلقد اعلن وزير داخلية ولاية برنزويك في الخامس والعشرين من شهر شباط ، تعيين الهر هتلر ملحقاً في مفوضية برنزويك في برلين. وتمكن الزعيم النازي عن طريق هذه المناورة المسرحية الهزلية ، من ان يغدو بصورة آلية مواطناً في برنزويك وبالتالي في المانيا ، وان يغدو ذا حق في ترشيح نفسه لرئاسة الرايخ الألماني . وقذف هتلر بنفسه بعد أن تخطى هذه العقبة الصغيرة بسهولة في خضم المعركة بحماس فائر ، ذارعاً البلاد طولاً وعرضاً ، وخاطباً في الجماهير الضخمة في عشرات الاجتماعات العامة ، دافعاً بهم الى اوج الحماس المحموم. واتبع غوبلز وشتراسر ، الخطيبان الساحران ايضاً ، برنامجاً مماثلاً . ولكن هذا لم يكن كل شيء ، فقد وجهوا جميعاً حملة دعائية لم تعرف لها المانيا مثيلاً من قبل ، اذ الصقوا ملايين المنشورات ، من مختلف الألوان ، على جميع الجدران في المدن والبلدان الصغيرة ، ووزعوا ثمانية ملايين منشور انتخابي واثني عشر مليون نسخة اضافية من صحف الحزب ، وعقدوا اكثر من ثلاثة آلاف اجتماع انتخابي في اليوم ، واستخدموا لأول مرة في تاريخ الانتخابات الألمانية الاشرطة السينمائية والاسطوانات التي تتلو اناشيدها ودعايتها على اجهزة الحاكي التي تطوف بها السيارات الشاحنة وقد حملت مكبرات الصوت .

وجهد المستشار برونينغ بكل ما لديه من حول وقوة ليكسب المعركة للمشير العجوز ، وتحول هذا الرجل العادل مرة واحدة الى القسوة وعدم الانصاف ، فاحتفظ بجميع اوقات الاذاعة على مختلف محطاتها للدعاية للمشير ، وهو إجراء اثار غضب هتلر وسخطه . ولم يخطب هندنبرغ الا مرة واحدة ، في اذاعة مسجلة في العاشر من آذار أي عشية اليوم الذي سبق الإقتراع . وكان الخطاب انوفاً ينطوي على الشمم ، بل لعله واحد من الخطابات « النظيفة » القليلة التي القيت إبان المعركة وتركت اثراً ملحوظاً اذ قال فيه ...

« ان انتخاب رجل حزبي ، يمثل الآراء المتطرفة لجهة واحدة ، ويدفع بالتالي غالبية الشعب الى الوقوف ضده ، سيعرض الوطن الى اضطرابات خطيرة ، لا يمكن لأي انسان ان يقدر عواقبها ...

ولقد حتّم عليَّ واجبي ان احول دون ذلك ... واذا قدر لي ان اهزم في المعركة ، فلن أجلب على الأقل ، على نفسي اللوم والتثريب بيدي لأنني تخليت عن مركزي ، في ساعة من ساعـــات الخطر والحرج ... انني لا أطلب من الذين لا يودون الاقتراع الى جانبي ، ان يعطوني اصواتهم » .

وكان عدد الذين اعطوه اصواتهم أقل بنسبة اربعة في العشرة من واحد في المائة من النسبة المئوية التي كان يحتاجها لنوال الاغلبية المطلقة . فعندما تم فرز النتائج الانتخابية في الثالث عشر من آذار عام ١٩٣٢ ظهرت على النحو التالي :

هندنبرغ	١٨,٦٥١,٤٩٧	٤٩و٦ ٪
هتلر	١١,٣٣٩,٤٤٦	٣٠و١ ٪
ثيلمان	٤,٩٨٣,٣٤١	١٣و٢ ٪
دويستربرغ	٢,٥٥٧,٧٢٩	٦و٨ ٪

وكانت الارقام مخيبة لآمال الفريقين . فقد تفوق الرئيس العجوز عـــلى الغوغائي النازي بأكثر من سبعة ملايين صوت ، ولكنه فشل في الحصول على الأغلبية المطلقة ، مما اقتضى اعادة الانتخاب على ان يفوز فيه المرشح الذي يحرز اكثر الاصوات وفقاً للدستور . وكان هتلرقد تمكن من ان يزيد في عدد المقترعين الى جانب النازية بخمسة ملايين صوت ، عن عام ١٩٣٠، أي بنسبة ٨٦ في المائة ومع ذلك فقد ظل بعيداً عن اللحاق بهندنبرغ وخيم اليأس العميق في الساعات المتأخرة من ليلة الاقتراع على منزل غوبلز في برلين حيث احتشد معظم الزعماء النازيين للاستماع الى النتائج على المذياع . وكتب غوبلز في يومياته تلك الليلة : « لقد هزمنا ، انه توقع مخيف . وقد اصيبت دوائر الحزب بالقنوط وخيبـــة الامل ... ان الطريقة الوحيدة لانقاذنا تقوم في ضربة ذكية » .

ولكن هتلر اعلن في صبيحة اليوم التالي في الفولكشاير بيوباختر ما نصه : « لقد انتهت الحملة الانتخابية الاولى ... وها هي الحملة الثانية تبدأ اليوم . انني سأتولى قيادتها » . وحقاً فقد خاض الحملة بنفس القوة التي خاض بها الحملة الاولى.

واستأجر طائرة خاصة من طراز « يونكرز » وأخذ يتنقل بها من مكان الى آخر في المانيا ، مجدداً بذلك في اساليب الدعاية الانتخابية خاطباً في ثلاثة مهرجانات أو اربعة في كل يوم وفي عدد من المدن، وبدّل اساليبه بدهاء وخبث ليجتذب عدداً آخر من الاصوات . فلقد كان يعزف في الحملة الاولى على شقاء الشعب وضعف الجمهورية، أما الآن فقد أخذ يتحدث عن المستقبل السعيد لجميع الألمان الذي سيتحقق اذا ما اعيد انتخابه ، وعن العمل للعمال والاسعار المرتفعة للمزارعين ، والازدهار التجاري للتجار ، والجيش الضخم للعسكريين، كما وعد في خطاب ألقاه في لوستغارتن في برلين بأن تجد كل فتاة المانية في الرايخ الثالث زوجاً لها .

وسحب الوطنيون دويستربرغ من المعركة ، وطلبوا الى انصارهم انتخاب هتلر . واعلن ولي العهد السابق والخائب من جديد ، الامير فردريك ولهلم، انه سيقترع الى جانب هتلر .

وكان يوم الانتخاب الثاني العاشر من نيسان من الايام القاتمة والماطرة ، ولذا فقد نقص عدد المقترعين بنحو من مليون . وكانت النتائج التي اعلنت في ساعة متأخرة من ذلك المساء على النحو التالي :

هندنبرغ	١٩,٣٥٩,٩٨٣	٥٣ ٪
هتلر	١٣,٤١٨,٥٤٧	٣٦,٨ ٪
ثيلمان	٣,٧٠٦,٧٥٩	١٠,٢ ٪

وعلى الرغم من ان هتلر قد زاد عدد مقترعيه بنحو من مليون صوت وعلى الرغم من ان هندنبرغ قد احرز مليون صوت جديد ، الا ان انتخابه تم بأغلبية مطلقة واضحة . وهكذا اعرب اكثر من نصف الشعب الالماني عن ايمانهم بالجمهورية الديموقراطية ورفضوا رفضاً حاسماً المتطرفين من ناحيتي اليمين واليسار على حد سواء ، أو لعلهم قد خيل لهم ذلك ليس إلا .

وتحتم على هتلر ان يفكر طويلاً فلقد ترك انطباعات قوية وتمكن من مضاعفة الاقتراع النازي في عامين . ومع ذلك فما زالت الاغلبية تتملص من

الوقوع بين يديه وبالتالي ما زال يفشل في الحصول على السلطـان السياسي الذي يبحث عنه. هل وصل الى نهاية هذا الطريق المعين ؟ لقد قال شتراسر في المناقشات الحزبية التي تلت اقتراع العاشر من نيسـان أن هذا هو الوضع الحقيقي بالنسبة الى هتلر . وحث شتراسر على وجوب عقد صفقة مع اصحاب السلطان الحقيقي كالرئيس وحكومة برونينغ والفريق غرويز والجيش . وشك هتلر في اخلاص كبير مساعديه ولكنه لم ينبذ الفكرة كلية، اذ لم ينس احد الدروس التي وعاها منذ ايام فيينا ، وهي ان الحصول على السلطان يتطلب نوال تأييد بعض « المنظمات القوية » القائمة .

وقبل ان يتمكن من اتخاذ قراره بصدد الخطوة المقبـلة قامت احدى هذه « المنظمات القوية » ، وهي حكومة الجمهورية بتوجيه ضربة اليه .

وكانت حكومة الرايخ وعدد مـــن حكومات الولايات المتحدة الألمانية قد توصل منذ اكثر من عام الى الحصول على وثائق تظهر ان عدداً من كبار زعماء النازي ولا سيما من قادة جيش العاصفة يعدون العدة للاستيلاء على المانيا بالقوة واقامة حكم من الارهاب فيها . وقد تمت تعبئة جميع رجال هذا الجيش عشية يوم انتخاب الرئاسة في المرة الأولى ، وكانوا قد بلغوا الآن نحواً من اربعمائة الف رجل ، وعهد اليهم بفرض نطاق على برلين . وعلى الرغم من ان روهم قائد هذا الجيش قد اكد للفريق فون شلايخر ان هـذا الاجراء احتياطي ليس الا ، فان الشرطة البروسية كانت قد صادرت وثائق في مقر قيادة النازي في برلين ، تظهر بجلاء ان جيش العاصفة كان يعتزم القيام بانقلاب عسكري في الليلة التـــالية للانتخابات اذا نجح هتلر في الوصول الى رئاسة الجمهورية ممـا يدل على ان روهم كان متسرعاً في تحقيق الرغبة في الوصول الى الحكم . وقد ايد غوبلز في احدى فقرات يومياته التي كتبها في الحادي عشر من آذار ان ثمة شيئاً كان في طريق الاعداد اذ قال : « تحدثت بناء على التعليمات التي تلقيتها الى قادة جيش العاصفة والحرس النازي . القلق العميق يسيطر في كل مكان . وكلمة انقلاب تملأ الجو » . واصيبت الحكومة القومية وحكومات الولايات بالفزع وطالب ممثلو عدة

ولايات في الخامس من نيسان يقودهم ممثلو بافاريا وبروسيا، وهما اكبر الولايات، الحكومة المركزية بالقضاء على جيش العاصفة، مهددين بأنهم سيقومون بذلك في مقاطعاتهم اذا تقاعست الحكومة المركزية عن هـــذا العمل . وكان المستشار برونينغ خارج برلين يشرف على ادارة المعركة الانتخابية ، فاستقبلهم غرونر بوصفه وزيراً للداخلية والدفاع في آن واحد، ووعدهم بالعمل فور عودة المستشار المتوقعة في العاشر من نيسان أي يوم الانتخاب للمرة الثانية . واعتقد برونينغ وغرونر ان ثمة اسباباً طيبة للقضاء على جيش العاصفة ، اذ ان مثل هذه الخطوة ستضع حداً للتهديد بنشوب الحرب الاهلية ، وقد تكون بداية النهاية بالنسبة الى هتلر كعامل رئيسي في الحياة السياسية الألمانية . ولما كانا واثقين من اعادة انتخاب هندنبرغ بالاغلبية المطلقة ، فقـــد شعرا بأن المقترعين في هذه الحالة يخولونها الحق في حماية الجمهورية من تهديدات النازي بقلبها والقضـــاء عليها. وقد حان الوقت لاستخدام القوة ضد القوة كما ان فشلهما في اتخاذ اجراء حاسم سيضيع على الحكومة تأييد الاشتراكيين الديموقراطيين والنقابيين الذين كانوا يؤمنون معظم الاصوات لهندنبرغ ويقدمون الدعم الكافي لبقـــاء برونينغ في الحكم .

وعقد مجلس الوزراء اجتماعاً في العاشر من نيسان إبان يوم الاقتراع واتخذ قراراً بتوجيه ضربة فورية الى جيوش هتلر الخاصة . وكانت هناك بعض المصاعب في اقناع هندنبرغ بتوقيع القرار ، اذ ان شلايخر بعد ان وافق عليه في البداية أخذ يهمس في اذن الرئيس لاقناعه بعدم تصديق القرار ، ولكن هذا صدقه اخيراً في الثالث عشر من نيسان ووضع موضع التنفيذ في الرابع عشر منه .

وكانت الضربة مذهلة للنازيين . وكان من رأي روهم وبعض المتحمسين من الحزب ان يعارضوا أمر الحل . ولكن هتلر ، وهو الاكثر ذكاء من معاونيه ، أمر باطاعة القرار ، فقد رأى ان الوقت لم يكن صالحاً للثورة المسلحة . يضاف الى هذا وجوب انباء ممتعة عن شلايخر . وقد دوّن غوبلز في يومياته في ذلك اليوم اي الرابع عشر من نيسان ما يلي : « بلغنـــا ان شلايخر لا يوافق على اجراء

غروينر .. » ثم عاد فدوّن في ساعة متأخرة من اليوم نفسه .. « تلقينا مكالمة هاتفية من سيدة معروفة هي صديقة حميمة للفريق شلايخر . قالت السيدة ان الفريق يعتزم الاستقالة من منصبه »[1] .

وكان شلايخر حتى قبل صدور الأمر بحل جيش العاصفة ، بناء على ما له من سيطرة على قائد الجيش الضعيف الشخصية ، الفريق فون هامر شتاين ، قد ابلغ قادة المناطق العسكرية السبع ، بصورة مكتومة ان الجيش يعارض في مثل هذا الاجراء. ثم عاد فأقنع هندنبرغ بأن يبعث برسالة مزعجة الى غروينر في السادس عشر من نيسان يسأله فيها لماذا لم تقم الحكومة باجراء مماثل فتحل فرقة « راية الرايخ » وهي المنظمة شبه العسكرية التابعة للاشتراكيين الديموقراطيين . وقام شلايخر بخطوة اولى ، للقضاء على مركز رئيسه ، فأوحى بحملة من الشائعات الشريرة على الفريق غروينر ، تتحدث عن مرضه الشديد وعجزه عن اداء واجباته الرسمية ، وعن تحوله الى الماركسية وحتى الى الانهزامية ، وتعلن ان وزير الدفاع قد لطّخ سمعة الجيش ، إذ ولد له طفل بعد خمسة شهور فقط من زواجه الذي وقع اخيراً ، وقال لهندنبرغ ان الطفل قد اصبح يلقب في اوساط الجيش باسم « نورمي » وهو اسم العدّاء الفنلندي ذي الشهرة الأولمبية ، تصويراً للسرعة التي جاء فيها الى الحياة .

واستأنف شلايخر في الوقت نفسه اتصالاته بجيش العاصفة ، وعقد محادثات مع روهم القائد العام للجيش ومع الكونت فون هيلدورف قائد منطقة برلين . وسجل غوبلز في مذكراته في السادس والعشرين من نيسان ان شلايخر قد ابلغ هيلدورف « بأنه يعتزم ان يبدّل منهجه » . واجتمع شلايخر بعد يومين بهتلر ودوّن غوبلز « لقد سارت المحادثات على ما يرام » .

واتضح حتى في هذه المرحلة من اللعبة ان شلايخر كان يتآمر مع روهم ، من وراء ظهر هتلر ، بالنسبة الى موضوع واحد . فقد كان الرجلان يريدان ضم

---

١ - غوبلز - كايزرهوف ، ص ٨٠ - ٨١ .

جيش العاصفة الى الجيش النظامي كقوة اضافية (مليشيا) ، وهي خطوة كان الفوهرر يعارضها أشد معارضة . وكانت هذه القضية سبباً دائماً في الخلاف بين هتلر ورئيس اركان حرب جيش العاصفة الذي كان يرى في جنوده قوة عسكرية يمكن ان تستخدم في تقوية جيش البلاد ، بينما كان هتلر يعتبرها ، مجرد قوة سياسية او عصابة لإلقاء الرعب ونشره في الشوارع ضد الخصوم السياسيين ، وللحفاظ على الحماس السياسي في صفوف النازيين. ولكن شلايخر كان يهدف في محادثاته مع الزعماء النازيين الى شيء آخر . فلقد اراد ان يرتبط جيش العاصفة بالجيش النظامي ليغدو تحت سيطرته ، كما اراد ان يتولى هتلر ، الوطني المحافظ الوحيد الذي يتمتع بقوة جماهيرية ، الحكم ، ليتمكن من السيطرة عليه ايضاً . ولكن الحظر على جيش العاصفة عرقل أي تقدم في تحقيق اهدافه .

ووصلت دسائس شلايخر في نهاية الاسبوع الأول من شهر أيار عام ١٩٣٢ ذروتها . فلقد دوّن غوبلز في يوميته للرابع من ايار : « لقد بدأت الغام هتلر تنطلق . يجب ان يمضي غرونير اولاً ثم يلحق به برونينغ » . وذكر غوبلز في يوميته للثامن من ايار : « ان هتلر عقد اجتماعاً حاسماً مع الفريق شلايخر ، ومع عدد من السادة المقرّبين الى الرئيس . كل شيء يسير وفق الخطة المرسومة . سيسقط برونينغ في غضون اربعة ايام ، اذ يسحب الرئيس ثقته منه » . ويرسم بعد ذلك المخطط الذي اتفق عليه شلايخر واعضاء مكتب الرئيس مع هتلر فيقول ان الرايشستاغ سيحل وستقوم حكومة يعينها الرئيس تصدر أمراً بالغاء جميع اوامر الحظر السابقة على جيش العاصفة والحزب النازي . ويضيف غوبلز ، ان هتلر سيظل بعيداً عن برلين مخافة اثارة شكوك برونينغ فيما يجري اعداده وراء الستار . ويرافق غوبلز في ساعة متأخرة في تلك الليلة زعيمه الى ميكلينبرغ ، حيث اختفى مدة من الزمن .

ويقول غوبلز في يومياته لليوم التالي ان النازيين يعتبرون ان الوزارة التي سيعينها الرئيس ستكون انتقالية ، لا لون لها « تمهد الطريق لنا . وكلما كانت هذه الحكومة اضعف ، كلما كان من الاسهل علينا التخلص منها » . لكن هذا

لم يكن رأي شلايخر ، الذي كان يحلم كذلك في قيام حكومة جديدة تحـــل البرلمان الى ان يتم تبديل الدستور على ان يسيطر هو عليها . ومن الواضح ان كلاً من هذا الرجل وهتلر كان يفكر بأن يستغل الآخر لمصلحته . لكن الورقة الرابحة هي في يد شلايخر في الوقت الحاضر. ففي وسعه ان يقنع الرئيس العجوز بأنه يستطيع ان يقدم اليه شيئاً عجز عنه برونينغ، وهو اقامة حكومة يؤيدها هتلر ، دون ان يتحمل الرئيس شر دخول هذا الغوغائي فيها .

وهكذا تم اعداد كل شيء، وبعد يومين من اجتماعه بهتلر مع الحاشية المحيطة بهندنبرغ ، أي في العاشر من ايار ، وجّه شلايخر ضربته وكانت موجهـــة في الرايشستاغ . فقد هب الفريق غروينر يدافع عن قرار حظر العمـل على جيش العاصفة ، فهاجمه غورنغ هجوماً عنيفاً . وحـاول وزير الدفاع المصاب بمرض السكر ، والمريض في قرارة نفسه من احساسه بخديعة شلايخر ، ان يدافـع عن نفسه ،ولكنه عجز عن ذلك امام زوبعة عنيفة من الاهانات التي وجهها اليه النواب النازيون . وأحس الوزير بالضعف والاذلال ، فسارع الى مغادرة قاعة المجلس ، وهرع الى الفريق فون شلايخر الذي واجهه بمنتهى البرود بقوله « انه فقد ثقة الجيش وان عليه ان يستقيل » . ومضى غروينر يشكو امره الى هندنـــبرغ ، الذي خدمه باخلاص مرتين وتحمل عنه التبعة ، اولاً في اللحظة الحرجة في عام ١٩١٨ ، عندما قام بابلاغ القيصر نيابة عنه بوجوب التنازل عن العرش وفي عام ١٩١٩ عندما نصح الحكومة الجمهورية بتوقيع معاهدة فرساي . ولكن المشير العجوز الذي لم ينفك لحظة واحدة عن التضـــايق مما يحس به من التزام نحو ضابطه الاصغر منه سناً ورتبة ،اجابه بأنه «يأسف» لعدم تمكنه من مساعدته . وأحس غروينر بـــالمرارة وخيبة الأمل [١] فقدم استقالته في الثالث عشر من

---

١ – كتب غروينر الى شلايخر بعد بضعة اشهر أي في التاسع والعشرين من تشرين الثاني يقول: « ان الغضب والازدراء يتأججـــان في صدري لأنني خدعت فيك يا صديقي القديم ، وحواري وولدي الذي تبنيته . » (راجع غوردون كريغ – الجيش والاشتراكية الوطنية ـ سياسة ولهلم غروينر – مجلة علم السياسة تموز ١٩٤٨) .

ايار . وسجل غوبلز تلك الليلة في يومياته ... « وردتنـــا انباء من الفريق شلايخر . كل شيء يسير طبق الخطة المرسومة » .

وكانت الخطة تقضي بسقوط رأس برونينغ كخطوة ثانية ، ولم يطل الوقت بالفريق الداهية حتى كان قد تمكن من دحرجته على الارض . فلقد كان سقوط غروينر نكسة خطيرة للجمهورية المترنحـة ، اذ كان هذا الرجل هو الوحيد بين العسكريين، الذي خدمها باخلاص وكفاية، ولم يكن هناك في الجيش من يضارعه في المكانة والولاء ليحل محله . ولكن برونينغ الحرون والمجد في العمل ، كان لا يزال قوة يحسب لها الحساب . فلقد ضمن تأييد اغلبية الألمان لاعادة انتخاب هندنبرغ ، ولبقاء الجمهورية كما اعتقد . وبدا وكأنه على عتبة تحقيق نجاح مثـير في حقل السياسة الخارجية بالنسبة الى الغاء التعويضات والمساواة في التسلح . ولكن الرئيس الشيخ كان قد كافأ ، كما رأينا جهود المستشار التي تفوق طاقـــة البشر لانجاحه في الانتخابات بمنتهى البرود. وقد تصلب موقفه منه ايضاً عندما اقترح المستشار ان تتسلم الدولة اقطاعيات بعض النبلاء المفلسين في بروسيـــا الشرقية بعد التعويض عليهم لتتولى توزيعهـــا على الفلاحين الذين لا يملكون ارضاً . وعندما ذهب هندنبرغ لقضاء عطلة عيد الفصح في منتصف شهر ايار الى نيوديك ، وهي الاقطاعية القائمة في بروسيا الشرقية والتي كان النبلاء بمساعدة بعض الصناعيين المالية قد قدموها اليه هدية في عيد ميلاده الثمانين ، توالت على مسامعه الشكاوى من جيرانه الارستقراطيين الذين الحفوا عليه بوجوب اقـــالة المستشار الذي نعتوه « بالبلشفي الزراعي » .

ولا ريب في ان النازيين قد عرفوا قبل برونينغ عن طريق شلايخر ان الحكومة في طريق الذهاب . وعاد غوبلز في الثامن عشر من ايار من ميونيخ الى برلين ، فلاحظ ان جو الفصح ما زال مخيماً ، وكتب في يوميته يقول: «يبدو ان الشتاء قد حل بالنسبة إلى برونينغ وحـده ، ومن المضحك ان يكون هو الوحيد الذي لا يدرك ذلك . انه عاجز عن ايجاد من يتعاون معه في وزارته ، فقد بدأت الجرذان تفرُّ من الباخرة المشرفة على الغرق». ولو قال غوبلز ان كبير

الجرذان شرع يبحث عن قبطان جديد للباخرة بدلاً من ان « يفر من الباخرة المشرفة على الغرق » لكان اكثر دقة في تعبيره . ودوّن غوبلز في اليوم التالي : « لقد رفض الفريق شلايخر ان يتولى وزارة الدفاع » . وكان هذا القول صحيحاً ولكنه لم يكن دقيقاً . فلقد عرض عليه برونينغ المنصب حقاً بعد ان لامه على تحطيمه لغرونير فرد هذا قائلاً : « سأتولى هذا المنصب ، ولكن ليس في حكومتك »[1] .

وسجّلت يوميات غوبلز للتاسع عشر من ايار ما يلي : « تلقينا رسائل من شلايخر . لقد أعدت قائمة الوزراء . ان الأمر غير هام بالنسبة الى فترة الانتقال . وهكذا يبدو ان النازيين كانوا يعرفون قبل اسبوع ان عمر حكومة برونينغ قد انتهى . واستدعى هندنبرغ ، مستشاره برونينغ الى حضرته في التاسع والعشرين من ايار وطلب اليه باختصار وايجاز ان يستقيل ، فقدم هذا استقالته في اليوم التالي .

وهكذا انتصر شلايخر ، ولكن السقوط لم يقتصر على برونينغ وحده ، فقد سقطت معه الجمهورية الديموقراطية ، على الرغم من ان آلام النزع قد امتدت ثمانية اشهر اخرى ، قبل ان تقع اللعبة الاخيرة . ولا ريب في ان مسؤولية برونينغ عن موت الجمهورية ليست بالضئيلة ، اذ على الرغم من ميوله الديموقراطية في قرارة فؤاده فقد سمح لنفسه ان يصل الى وضع وجد نفسه مضطراً فيه الى الحكم عن طريق المراسيم الجمهورية دون الحصول على موافقة البرلمان . ولا ريب في ان ما تعرض له من استفزاز لاتخاذ مثل هذه الخطوة كان عظيماً اذ ان الساسة بما هم عليه من عمىً سياسي قد ارغموه عليها . ومع ذلك فقد تمكن حتى في الثاني عشر من ايار ان يحرز ثقة المجلس عند الاقتراع على بعض قوانينه المالية ، ولكنه حيث كان يلقي معارضة من المجلس ، كان يعتمد في تنفيذ سياسته على سلطة الرئيس . وها هي هذه السلطة تسحب منه الآن . وقد قدر لهذه السلطة ان تمنح منذ الآن ، أي من حزيران عام ١٩٣٢ حتى كانون الثاني عام ١٩٣٣ ، الى رجلين اقل شأناً من برونينغ . وعلى الرغم من عدم انتمائهما الى النازية الا انهما

---

١ - ويلر - بنيت - الهة النقمة ص ٢٤٣ .

لم يشعرا بأي حافز يدفعهما الى الحفاظ على الجمهورية الديموقراطية ، أو على الأقل على الشكل القائمة فيه حالياً .

ولم يعد السلطان السياسي في المانيا الآن مستقراً كما كان منذ مولد الجمهورية في ايدي الشعب والهيئة التي تعبر عن ارادته وهي الرايشستاغ ، وانما غدا متركزاً في ايدي رئيس خرف يبلغ الخامسة والثمانين من عمره ، ومَنْ حوله من الرجال الطموحين والضحلين ، الذين كانوا يتلاعبون بعقله التعب والكثـــير التقلُّب . وقد ادرك هتلر هذه الحقيقة بوضوح ، ورأى فيها ما يتفق مع اهدافه. وبدا ان من غير المتوقع ان يتمكن من نيل الأغلبية البرلمانية . ولكن الطريق الجديـد الذي سار فيه هندنبرغ يتيح له الفرصة الوحيدة التي ما زالت موجودة امـامه للوصول الى السلطان ، ان لم يكن الآن فبعد وقت قصير بكل تأكيد .

وطار هتلر الى برلين من اولدنبرغ ، حيث كان النـــازيون قد احرزوا في انتخابات البرلمان المحلي التي جرت في التاسع والعشرين من ايار الأغلبية المطلقة . وقد قابل في اليوم التالي من وصوله الرئيس هندنبرغ الذي اكد له النقـــاط الاخرى في الصفقة التي كان الزعيم النازي قد عقدها سراً مع شلايخر في الثـامن من ايار ، وهي رفع الحظر عن جيش العاصفة وقيام وزارة ادارية يختارهـــا هندنبرغ نفسه وحل الرايشستاغ . ترى هل يؤيد هتلر الحكومة الجديدة ؟ هذا هو السؤال الذي وجهه اليه الرئيس..فرد هتلر بأنه سيؤيدها . وكتب غوبلز في يوميته لذلك المساء في الثلاثين من ايار . « لقد سـار حديث هتلر مع الرئيس على ما يرام ... ان الاختيار سيقع على فون بابن لتولي المستشارية.. ولكن هذا لا يعنينا كثـــيراً . الشيء المهم هو ان الرايشستاغ قد حل . الانتخابات ! . الانتخابات ! . سنتجه الى الشعب مباشرة .. اننا سعداء جميعاً » [١] .

مهزلة فرانز فون بابن

وظهرت الآن في وسط المسرح ،ولفترة قصيرة، شخصية هزلية وغير متوقعة

١ - غوبلز - كايزرهوف ص ٨١ - ١٠٤ .

فالرجل الـــذي دسه الفريق فون شلايخر على الرئيس الثمانيني ، والذي غدا في الأول من حزيران عام ١٩٣٢، مستشاراً لألمانيا، هوفرانز فون بابن الذي يبلغ الثالثة والخمسين من عمره ، وهو ينتمي الى عائلة فقيرة من نبلاء ويستفاليا . وقد عمـل سابقاً ضابط ركن في القيادة ، وأتقن ركوب الخيل . كما ينتمي الى فئات الساسة الهواة من الوسط الكاثوليكي ، ثم غدا صناعياً ثرياً عن طريق الزواج. ولا يعرف الناس عنه شيئاً سوى انه كان ملحقاً عسكرياً سابقاً في واشنطن ، وقد طرده الامريكيون من هناك إبان الحرب ، لاشتراكه في تخطيط بعض عمليات التدمير كنسف الجسور وخطـــوط السكك الحديدية في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة فيه لا تزال دولة محايدة .

وكتب السفير الفرنسي في برلين يقول ... « لقد قوبل اختيار الرئيس بشيء من الريبة وعدم التصديق . ولم يكن هناك من لم يبتسم أو يضحك متكلفاً أو يقهقه عند سماعه بالنبأ وذلـــك لأن بابن كان يتمتع بشيء من الغرابة ، حتى ان اصدقاءه واعداءه على السواء لم يكونوا يحملونه محمل الجد . وكان من المعروف عنه انه انسان متصنع كثير الزلل ، بعيد عن الصدق ، واسع الطمـوح ، مغرور وداهية ودسّاس »[1]. وقد عهد هندنبرغ بالحاف من شلايخر الى مثل هـــذا الرجل ، الذي لم يبالغ السيد فرانسوا بونسيه في وصفه ، بمصير الجمهورية المشرفة على الموت .

ولم يكن هناك أي دعم سياسي لفون بابن على الاطلاق ، ولم يكن عضواً في الرايشستاغ . وكان اقصى ما وصل اليه في عالم السياسة مقعداً في مجلس نبلاء بروسيا (اللاندتاغ) . وعندما عهد اليه بالمستشارية قام حزبه الوسط الكاثوليكي بفصله من الحزب سخطاً منه على خيانته لزعيمه برونينغ . ولكن الرئيس ، كان قد طلب اليه تأليف حكومة فوق الاحزاب ، وقد تمكن من تحقيق هذه الرغبة فوراً لأن شلايخر كان قد أعد له قائمة وزرائه . وقد ضمت اشخاصاً حملوا الناس

---

١ - فرانسوا بونسيه - ص ٢٣ .

على تسميتها « بوزارة البارونات » نظراً لوجودهم فيها . فلقد كان خمسة منهم من النبلاء واثنان من مديري الاتحادات الصناعية الكبرى ، كما كان بينهم شخص يدعى فرانز غويرتنر الذي تولى وزارة العدلية وهو الذي حمى هتلر في الحكومة البافارية إبان تلك الايام المضطربة ، قبل انقلاب حانة الجعة وبعده . وأمر هندنبرغ بخروج الفريق فون شلايخر من وراء الكواليس ليتولى وزارة الدفاع . وقد استقبلت غالبية البلاد « وزارة البارونات » كأضحوكة ، على الرغم من ان قوة احتمال عدد منهم قد تمكنت من الصمود حتى ايام الرايخ الثالث ، وفي مقدمتهم البارون فون نوارث والبارون فون ايلتز - روبيناخ ، والكونت شويرين فون كروسيك والدكتور غويرتنر الذين اشغلوا مراكز وزارية في عهد الرايخ الثالث .

وكان اول عمل قام به فون بابن ، الوفاء بالوعد الذي قطعه شلايخر لهتلر . فقد صدر القرار بحل الرايشستاغ في الرابع من حزيران وبدعوة الشعب الى انتخابات جديدة في الواحد والثلاثين من تموز ، كما أمر بعد بعض الالحاف من النازيين الذين تبينت ريبتهم ، برفع الحظر المفروض على جيش العاصفة في الخامس عشر من حزيران . وسرعان ما تلت ذلك موجة من العنف والاغتيالات لم يسبق لألمانيا ان شهدت مثيلاً لها من قبل . واحتشد رجال جيش العاصفة في الشوارع ينشدون المعارك والدماء ، وكثيراً ما كانت تحدياتهم تلقى الاستجابة ولا سيما من الشيوعيين . ووقعت في روسيا وحدها بين الاول من حزيران والعشرين منه ، نحو من (٤٦١) معركة في الشوارع بلغ عدد ضحاياها اثنين وثمانين قتيلاً ونحواً من اربعمائة جريح . وقتل في شهر تموز نحو من ثمانية وثلاثين نازياً وثلاثين شيوعياً من مجموع ستة وثمانين شخصاً قتلوا في الشوارع ، كما قتل في يوم الاحد الذي تلاه ، وعندما كان النازيون يقومون في حراسة الشرطة بعرض في «التونا» ضاحية العمال في همبورغ ، نحو من تسعة عشر شخصاً واصيب (٢٨٥) آخرون بجراح . وهكذا أخذت اوضاع الحرب الاهلية التي ألّفت وزارة البارونات لمعالجتها ، تتردى من يوم الى آخر . وطالبت جميع الاحزاب باستثناء النازيين والشيوعيين الحكومة باتخاذ اجراء لإعادة النظام .

وقــد استجاب فون بابن باتخاذ اجراءين أولهما حظر جميع الاستعراضات العسكرية أو السياسية طيلة الاسبوعين اللذين سبقا المعركة الانتخابية في الواحد والثلاثين من تموز وثانيهما اجراء لم يستهدف تهدئة النازيين فحسب ، بل تدمير آخر ما تبقى من أعمدة الجمهورية الديموقراطية . فلقد أمر في العشرين من تموز بإقالة الحكومة البروسية وعيـّن نفسه مفوضاً للرايخ في بروسيا، وكان هذا العمل خطوة جريئة في طريق الحكومة السلطوية التي كان يعمل على اقامتها في المانيـا كلها . وكان المبرر الذي استند اليه في هذه الخطوة ، ان اضطرابات « التونا » قد اظهرت عجز الحكومة البروسية عن الحفاظ على الأمن والنظام . واتهم ايضاً ، مستنداً على « الأدلة » التي سارع شلايخر الى اخراجهـا ، السلطات البروسية بتواطؤها مع الشيوعيين وعندما رفض الوزراء الاشتراكيون اطاعة أمر الاقالة إلا بالقوة ، سارع بابن الى استخدامها .

وأعلنت الاحكام العرفية في برلين ، وبعث الفريق فون رونشتادت القائـد المحلي للجيش النظامي بملازم وعدد من الجنود للقيام بالاعتقالات اللازمة . ولم يفت هذا التطور ملاحظة رجال اليمين الذين تسلموا زمام السلطة في الحكومة الاتحادية، كما لم يفت ملاحظة هتلر ايضاً . ولم تعد هناك ثمة حاجة الى القلق أو التخوف من ان تبدي قوات اليسار أو حتى الوسط الديموقراطي مقاومة جدية لقلب النظام الديموقراطي . فلقد أدى الاضراب العام في سنة ١٩٢٠ ، الى انقاذ الجمهورية من السقوط . وقد تناقش زعماء النقابات والاشتراكيين في اتخاذ مثل هذا الاجراء الآن ولكنه رفض على اعتباره خطراً كل الخطورة . وهكذا دق فون بابن باقالته حكومة بروسيا الدستورية مسماراً آخر في نعش جمهورية ويمار . ولقد تبجـّح بأن هذا العمل لم يتطلب اكثر من فصيل من الجنود لوضعه موضع التنفيذ .

***

وكان هتلر واعوانه من ناحيتهم عازمين على الاطاحة لا بالجمهورية وحدها بل وبفون بابن و « باروناته » ايضاً . وقد شرح غوبلز الهدف في يومياته للخامس من حزيران بقوله : « علينا ان نفصل انفسنا في اسرع وقت ممكن عن هــذه

الحكومة البورجوازية الانتقالية » . وعندما اجتمع هتلر الى بابن لأول مرة في التاسع من حزيران ، قال الزعيم النازي للمستشار : « انني اعتبر وزارتك حلاً مؤقتاً ، وسأواصل جهودي لأجعل من حزبي اضخم قوة في البلاد ، وآنذاك ستؤول المستشارية الي » [1].

وكانت انتخابات الواحد والثلاثين من تموز لعضوية الرايشستاغ ، هي ثالث انتخابات قومية شهدتها المانيا في غضون خمسة اشهر . ولكن بدلاً من ان يكون النازيون قد أنهكوا من الحملات الانتخابية اقبلوا عليها الآن وقذفوا بأنفسهم في خضمّها ، بقوة وتعصب يفوقان كل ما عرف حتى الآن . وعلى الرغم من الوعود التي قطعها هتلر الى هندنبرغ بتأييد النازيين لحكومة بابن ، شن غوبلز حملات عنيفة للغاية على وزير الداخلية . وفي التاسع من تموز ، مضى هتلر الى شلايخر يشكو له بمرارة من سياسات الحكومة . واظهرت الجماهير التي احتشدت لرؤية هتلر ، ان الحزب النازي كان يسير في طريق التضخّم والقوة . وقد ألقى هتلر في السابع والعشرين من تموز ، خطاباً في أكثر من ستين ألف شخص في براندبرغ ، والى مثل هذا العدد تقريباً في بوتسدام وإلى أكثر من مائة وعشرين ألفاً في مساء اليوم نفسه في مدرج « غرينوولد » الرياضي في برلين ، بينما كان أكثر من مائة الف في الخارج يستمعون الى الخطاب عن طريق مكبرات الصوت .

وجاء اقتراع الواحد والثلاثين من تموز بنصر مذهل للحزب الوطني الاشتراكي ، إذ احرز (١٣،٧٤٥،٠٠٠) صوتاً مكنته من احتلال (٢٢٠) مقعداً في الرايشستاغ ، فغدا أكبر حزب في البرلمان وإن لم يتمكن من نوال الاغلبية المطلقة في مجلس يضم (٦٠٨) اعضاء . وخسر الديموقراطيون الاشتراكيون، بسبب ما ابدوه حتماً من جبن في بروسيا ظهر فيه زعماؤهم، عشرة مقاعد ، وأصبح لهم (١٣٣) نائباً في المجلس ومالت الطبقة العاملة الى الشيوعيين الذين كسبوا اثني عشر مقعداً جديداً وغدوا ثالث حزب في المجلس يملك (٨٩)

---

١ - مذكرات فون بابن ص - ١٦٢ .

مقعداً . وزادت قوة الوسط الكاثوليكي مـــن (٦٨) مقعداً الى (٧٣). ولكن احزاب الطبقة الوسطى الاخرى وفي مقدمتها حزب هوغنبرغ الالماني الوطني الذي اعلن في الانتخاب تأييده لبابن ، خسرت خسارة فادحة واذا ما استثنينا الكاثوليك ، تبين لنا ان افراد الطبقتين الوسطى والعالية قد مالوا الى النازيين .

واعـــتز هتلر في الثاني من شهر آب بانتصاره فعقد اجتماعاً في تيغيرنسي ، القريبة من ميونيخ ، مع قادة الحزب . فقدتمكن النازيون منذالانتخابات الاخيرة للرايشستاغ قبل نحو من سنتين من زيادة المقترعين الى جانبهم بنحو مـن سبعة ملايين صوت ، ورفعوا تمثيلهم في المجلس من(١٠٧) الى (٢٣٠) مقعداً. وهكذا كسب النازيون في السنوات الاربع التي تلت عام ١٩٢٨ ، أكثر من ثلاثة عشر مليون صوت جديد . لكن الاغلبية التي تدفع هتلر الى الحكم جارفة كل مـــا يقف امامها ، مـــا زالت تتملـّص منه ، فقد احرز (٣٧) في المائـة فقط من مجموع اصوات المقترعين ، وما زالت غالبية الالمان تقف ضده .

واستمرت المشاورات في تلك الليلة حتى ساعة متأخرة . وسجّـل غوبلز نتائجها في يوميـّته للثاني من شهر آب قائلاً : « يواجه الفوهرر قرارات صعبة ، هل يحافظ على الشرعية ؟ هل يتعاون مع الوسط ؟ » . فلقد كان في وسع هتلر ان يؤلف مع الوسط غالبية في المجلس . ولكن غوبلز يرى أن هـذا الاحتمال لا يمكن التفكير فيه مطلقاً . ثم يمضي فيقول : « لم يصل الفوهرر الى أي قرار نهائي ، وما زال الوضع في حاجة الى بعض الوقت ليتهيأ له النضوج » .

لكن هذا الوقت ليس بالطويـــل . فلقد نفد صبر هتلر بعد ان استهواه انتصاره وان لم يكن حاسماً . وسارع في الرابع من آب الى برلـين لا لمقابـلة المستشار فون بابن بل للاجتماع الى الفريق فون شلايخر ليقدم اليه مطالبه كما قال غوبلز ، مضيفاً انها « لن تكون معتدلة » . وحـدد هتلر في الخامس من آب للفريق فون شلايخر شروطه في الاجتماع الذي عقده معه في ثكنات فورستينبرغ . انه يريد المستشارية لنفسه ، ويريد رئاسة وزراء بروسيا لحزبه كما يريد وزارات الداخلية في بروسيا ، ووزارات العدل والاقتصاد والطيران في الرايخ مع ايجاد

وزارة جديدة لغوبلز تدعى وزارة الثقافة الشعبية والدعاية . وقدم هتلر لشلايخر كترضية له وزارة الدفاع ، يضاف الى هذا كله ان هتلر قد ابلغه انه سيطلب الى الرايشستاغ اصدار قانون يخوّله الحكم عن طريق المراسيم لفترة محدودة من الزمن ، فاذا رفض المجلس منحه اياها ، فسيرسل اعضاءه الى بيوتهم .

وخرج هتلر من الاجتماع وقد اقتنع بأنه تمكن من كسب فون شلايخر الى صفه وإلى تأييد برنامجه ، وعاد الى الجنوب منتعش الروح ليقضي ايامه في موئله الجبلي في اوبرسالزبرغ . أما غوبلز الكثير التشكك دائماً بالمعارضة ، والمفتقر الى الثقة بالجنرال السياسي ، فلم يكن واثقاً من النتيجة ثقة هتلر بها . وكتب يُسّر الى يومياته في السادس من آب بعد ان استمع الى ما ذكره الزعيم من تقرير متفائل عن مقابلته لشلايخر ... « من الخير ان نكون في وشك من التطورات المقبلة » . ولكن غوبلز كان واثقاً من شيء واحد فقط : « وعندما نحصل على السلطان لن نتخلّى عنه ابداً . وعليهم ان يرفعوا اجسادنا هامدة من الوزارات » .

ولم يسر كل شيء سيراً حسناً كما ظن هتلر . فقد كتب غوبلز في يوميّاته في الثامن من آب يقول : « مكالمة هاتفية من برلين . ان العاصمة ملأى بالشائعات . والحزب بأسره على استعداد لتولي الحكم . أما رجال جيش العاصفة فيغادرون اماكن عملهم ليكونوا على اهبة . ان زعماء الحزب يستعدون للساعة العظيمة . اذا سار كل شيء على مايرام فنعمّا ذلك . اما اذا اتجهت الأمور اتجاهاً سيئاً ، فستكون هناك نكسة فظيعة » . ووصل الى اوبرسالزبرغ في اليوم التالي كل من شتراسر وفريك وفونك يحملون انباء غير مشجعة تماماً . فقد أخذ شلايخر يتحول ثانية كما تتحول الديدان في اطوارها المختلفة . فهو يصر الآن على ان هتلر اذا غدا مستشاراً تحتم عليه ان يحكم بموافقة الرايشستاغ وذكر فونك ان اصحابه من رجال الاعمال ، قلقون من احتمال قيام حكومة نازية . وقد تلقى رسالة من شاخت تؤيد ذلك . وقال الثلاثة اخيراً لهتلر ان الولهلمشتراسه ، قلق من احتمال قيام انقلاب نازي .

وكانت ثمة مبررات لهذا القلق . فلقد علم غوبلز في اليوم التالي أي في العاشر من آب في برلين ، ان جيش العاصفة « في حالة استعداد مسلح ... وانه يفرض حصاراً اقوى على برلين ... وقد سادت العصبية الوهلمشتراسه من جراء ذلك ، ولكن هذه هي الغاية من تعبئتنا » . ولم يطلق هتلر الاحتمال في اليوم التالي ، بل سارع بسيارته الى برلين . ويقول غوبلز ، انه لا يريد ان يظهر فيها الا « نادراً » ولكنه يريد من الناحية الاخرى ان يكون على أهبة عندما يستدعى . وعندما لم يتلق أية دعوة طلب هو مقابلة الرئيس . ولكن تحتم عليه اولاً ان يقابـــل شلايخر وفون بابن .

وجرت المقابلة ظهر الثالث عشر من آب ، وكانت عاصفة للغاية . فلقد تراجع شلايخر عن موقفه الذي كان فيه قبل اسبوع ، اذ ايّد فون بابن في الاصرار على ان اقصى ما يستطيع هتلر أن يأمل به هو ان يغدو نائب المستشار . وثار هتلر ثورة عارمة . وهو يريد ان يغدو المستشار ولا يقبل ما دون ذلك . وقد انهى فون بابن المقابلة قائلاً انه سيترك القرار النهائي في الموضوع الى هندنبرغ[1] .

وعاد هتلر ساخطاً حانقـــاً الى كايزرهوف . وتلقى في الساعة الثالثة بعد الظهر نداء هاتفياً من مكتب الرئيس . وتساءل احدهم ولعله غوبلز ، اذا حكمنا على ضوء يومياته ... « ترى هل اتخذ قرار ؟ اذا كان الوضع كذلك ، فليس ثمة من داع الى ذهاب هتلر الى القصر » . وقال المتحدث ... « ان الرئيس يرغب اولاً في الحديث الى هتلر » .

واستقبل المشير العجوز الزعيم النازي وهو واقف في مكتبه ومتكىء على عصاه مضيفاً على المقابلة شيئاً من الفتور . وبدا الماريشال الذي بلـــغ الخامسة والثمانين من عمره ، والذي كان قبل نحو من عشرة اشهر قد عانى من فقدالذاكرة بصورة كاملة اكثر من أسبوع كامل ، في حالة صفاء عقلي الآن تثير الدهشة .

---

١ — لم يتحدث فون بابن في مذكراته عن وجود شلايخر في هذه المقابلة ، ولكن المصادر الاخرى تكاد تجمع على وجوده . وهذه نقطة مهمة بالنسبة الى الاحداث التالية .

وظل يصغي بأناة وصبر الى هتلر وهــو يعاود مطالبته بالمستشارية وبالسلطة الكاملة. ولم يشهد هذا الاجتماع الا اوتو فون مايزنر ، رئيس ديوان رئيس الجمهورية وغورنــغ الذي رافق زعيمه في الزيارة . وعلى الرغم من مايزنر لا يعتبر بحال من الأحوال مصدراً يمكن الاعتماد عليه كل الاعتماد ، إلا ان شهادته المشفوعــة باليمين في محاكمات نورمبرغ ، هي التقرير الوحيد الموجود والمباشر عما وقع في المقابلة . ولا ريب في ان هذه الشهادة تنطوي على شيء من نغمة الصدق :

« رد هندنبرغ انه بالنسبة الى تأزم الوضع ، لم يكن باستطاعته وهو مرتاح الضمير ، ان يغامر في نقل السلطة الحكومية الى حزب جديد كالحزب الاشتراكي الوطني ، الذي لم يستطع ان ينال اغلبية مطلقــة والمعروف بتعصبه وميله الى الاضطراب وافتقاره الى الانضبــاط .

« وعندما وصل الرئيس الى هذا الحد ، اشار بحماس الى عـدة حوادث وقعت اخيراً من امثـال المصادمات بين النازيين ورجال الشرطــة ، وأعمال العنف التي ارتكبها أتباعه ضد اولئك الذين يخالفونهم الرأي ، واتجاهات التطرف نحو اليهود وغيرها من الأعمال غير المشروعة . وقد قوّت جميع هذه الحوادث اعتقاده بوجود عناصر كثيرة في الحزب شرسة وخارجة على الانضباط... وبعد حديث طويل ، اقترح هندنبرغ على هتلر ان يعلن استعداده للتعاون مع الاحزاب الاخرى ولا سيما مع فئات اليمين والوسط ، وأن يتخلى عن فكرته الخاصة بوجوب الحصول على السلطان المطلق . واعلن هندنبرغ انه بتعاونه مع الأحزاب الاخرى ، يتمكن من ان يظهر ما في وسعه ان يحققه ، وان يحاول اصلاحه . واذا ما ابدى نتائج ايجابيــة فسيكون في وسعه ان يحقــق نفوذاً متزايداً ومسيطراً حتى في الحكومة الإئتلافية . وأكد هندنبرغ ان هذه هي الطريقة المثلى للقضاء على المخاوف المنتشرة من ان الحكومة الاشتراكية الوطنيــة

ستسيء استعمال سلطانها وتخفت كل الآراء التي تخالفها وتقضي عليها بالتدريج . وقال هندنبرغ انه على استعداد لقبول هتلر وممثلي حركته في حكومة ائتلافية ، أما التشكيلة الوزارية فتكون موضع تفاوض ، ولكنه لا يستطيع تحمل مسؤولية اضفاء السلطة الكاملة على هتلر وحده ... ولكن هتلر صمد كالصخر ، في رفض الوقوف موقف المساومة مع قادة الأحزاب الأخرى ، وتأليف حكومة ائتلافية على هذا النحو »[1] .

وانتهت المناقشات دون الوصول الى اتفاق ، ولكن بعد ان ألقى المشير العجوز ، وهو واقف ، محاضرة قاسية على الزعيم النازي . وذكر البلاغ الرسمي الذي صدر بعد المقابلة مباشرة أن « هندنبرغ يعرب عن أسفه لأن الهر هتلر لم يجدنفسه في وضع يمكنه من تأييد حكومة قومية تعيّن استناداً الى ثقة الرئيس، على النحو الذي كان قد وافق عليه قبل انتخابات الرايشستاغ » . ويرى الرئيس الوقور ان هتلر قد نقض عهده ، ولكنه اصبح قادراً على الحكم على المستقبل . ومضى البلاغ يقول : « وقد نبه الرئيس الهر هتلر الى وجوب قيادة المعارضة التي يمثلها الحزب النازي بصورة تنطوي على الشهامة والنبل ، وان يتذكر دائماً مسؤوليته نحو الوطن ونحو الشعب الألماني » .

وقد طبع هذا البلاغ الرسمي الذي ينقل وجهة نظر الرئيس عن الإجتماع بصورة سرية حتى انه جاء بمثابة مفاجأة لدعاية غوبلز ، لا سيما وقد تضمن اصرار هتلر على المطالبة بالسيطرة الكاملة على الدولة ، مما ألحق الكثير من الأذى بقضية هتلر لا أمام الرأي العام فحسب بل وأمام النازيين انفسهم . وحاول هتلر عبثاً ان يردد بأنه لم يطلب السيطرة الكاملة وانما طالب بالمستشارية وبعض المناصب الوزارية . وقد صدق الناس الى حد كبير قول هندنبرغ .

وفي غضون ذلك ، كانت فرق جيش الصاعقة التي تمت تعبئتها قد غدت

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان ، ص ٥٠٨ .

صعبة المراس يتعذر كبحها . واستدعى هتلر قادتها وتحدث اليهم في نفس تلك الليلة . وكتب غوبلز مدوناً في مذكراته : « انها مهمة شاقة من يدري اذا كان في الوسع الابقاء على تشكيلات الجيش في حالة انضباط . وليس ثمة من شيء اكثر صعوبة من ان يقال لجنود استهواهم النصر ، ان هذا الظفر قد اختطف من ايديهم » . وبحث الدكتور الصغير (غوبــلز) تلك الليلة عن العزاء في قراءة رسائل فريدريك الاكبر وراح في اليوم التالي الى شواطىء البلطيق ينشد قضاء اجازة راحة واستجمام فيها . وكتب يقول : « ان اليأس الشامل يسيطر على رفاق الحزب ». وقد رفض ان يخرج من غرفته ليتحدث اليهم ... « لا أريد ان استمع الى اية مناقشات سياسية لمــدة اسبوع على الأقل ، ان كل ما اريده هو الشمس والضياء والهواء والسلام » .

ومضى هتلر الى اوبرسالزبرغ ليتمتــع بنفس هــذه العناصر ، وليفكّـر في شؤون المستقبل القريب . وكتب غوبلز يقول : « لقد فاتتنا الفرصة الأولى الكبيرة » . وعثر هيرمــان روشنينغ ، الزعيم النازي في دانزيغ آنذاك ، على الفوهرر واجماً في مأواه الجبلي . وقال له هتلر : « علينا ان نقسو » . وشرع يتفوّه بحملة شعواء على فون‌بابن . ولكنه لم يفقد الأمل . فلقد كان في بعض الأوقات يتحدث وكأنه قد غدا مستشاراً بالفعل . وقال هتلر : « ان مهمتي ستكون أصعب من مهمة بسمارك . فعليّ اولاً ان اخلق البلاد قبل ان أشرع في معالجة المهام القومية التي تواجهنا ». ولكن لنفترض ان ديكتاتورية عسكرية يقيمها بابن وشلايخر ستعمل على اخماد الحزب النازي ؟ وفجأة سأل هتلر زائره روشنينغ عما اذا كانت دولة مدينة دانزيغ الحرة آنذاك والتي تعمل في ظل حماية عصبة الأمم ،قد عقدت اتفاقاً لتبادل تسليم المجرمين مع المانيا .ولم يفهم روشنينغ السؤال في بادىء الأمر ، ولكن اتضح له فيما بعد ان هتلر يبحث عن مكان يأوي اليــه في حالة اضطراره الى اللجوء خارج البلاد [1] . ودوّن غوبلز في

---

١ – هيرمان روشنينغ – صوت الدمار .

يومياته : « هناك شائعات كثيرة منتشرة تقول ان هتلر سيعتقل » . ولكنه حتى في هذه اللحظة وبعد الصدمة العنيفة التي تلقاها من رئيس الرايخ وحكومة فون بابن وشلايخر ، وعلى الرغم من مخاوفه من ان حزبه قد يعلن منظمة غير مشروعة ، فقد كان مصراً على التمسك « بالشرعية » والأساليب القانونية . وسرعان ما اخفت كل حديث عن انقلاب يقوم به جيش العاصفة . واذا ما استثنينا بعض فترات من اليأس المعنوي فقد ظل واثقاً من وصوله الى هدفه في النهاية ، لا عن طريق القوة او عن طريق الحصول على اغلبية برلمانية ، بل بالأساليب التي اوصلت شلايخر وبابن الى القمة ، وهي دسائس الكواليس التي يستطيع اثنان القيام بتمثيلها .

ولم يمضِ طويل وقت حتى كان يعرض نموذجاً . فقد تحدث غوبلز الى هتلر طويلاً في الخامس والعشرين من آب في برختسغادن ، ودوّن في يومياته يقول : « لقد اتصلنا بحزب الوسط ، لمجرد رغبة في نفوسنا في فرض الضغط على خصومنا » . وعاد غوبلز في اليوم التالي الى برلين ، حيث وجد ان شلايخر كان قد علم « باتصالات جسّ النبض التي اجريناها مع الوسط » . ومضى في اليوم التالي لمقابلة الفريق ليتأكد من ذلك . وخيّل اليه انه رأى شلايخر قلقاً من فكرة التفاهم بين هتلر والوسط الكاثوليكي ، اذ ان هذا التفاهم يضمن الحصول على اغلبية مطلقة في الرايشستاغ ، وكتب غوبلز عن شلايخر يقول : « لا ادري مدى الاصالة والزيف في هذا الرجل » .

وقد ادت الاتصالات مع حزب الوسط « على الرغم من ان النازيين لم يقصدوا قط ، ان يجعلوا منها اكثر من مجرد وسيلة للضغط على حكومة بابن ، الى النجاح في حادث مضحك ، وقع في هذه الفترة في مجلس الرايشستاغ ، وأشار الى بداية النهاية بالنسبة الى حكومة المستشار الفارس . فعندما إلتأم عقد المجلس في الثلاثين من آب ، انضم نواب الوسط الى النازيين في انتخاب غورنغ رئيساً للمجلس . وهكذا تبوأ اشتراكي وطني ، لأول مرة ، رئاسة الرايشستاغ عندما اجتمع في الثاني عشر من ايلول ليستهل دورته العادية . وقد استغل غورنغ

هذه الفرصة غاية الاستغلال . وكان المستشار فون‌بابن ، قد حصل مقدماً من الرئيس على مرسوم يقضي بحل المجلس ، وكانت هـذه هي المرة الأولى التي تعد فيها شهادة الوفاة للمجلس وتوقع حتى قبل ان يلتئم ليبدأ عمله . ولكنه نسي ان يأتي بهـذا المرسوم في جيبه لحضور الجلسة الأولى ، وقد أتى بدلاً عنه بخطاب يحدد فيه برنامج حكومته ، بعد ان تأكد من ان أحد النواب الوطنيين بالإتفاق مع معظم الأحزاب الاخرى ، سيعترض على الاقتراع المقترح على مشروع قدمه الشيوعيين لتوجيه اللوم الى الحكومة . وكان من المعروف في مثل هذه القضية ان اعتراضاً واحداً ، يصدر عن نائب واحد من الستمائة نائب يعتبر كافيـاً لتأجيل الاقتراع .

ولكن عندما وقف ايرنست تورغلر ، الزعيم الشيوعي ، ليقدم اقتراحه بلوم الحكومة كتعديل على جدول اعمال الجلسة ، لم يعترض على ذلك أي نائب من الوطنيين او غيرهم . وأخيراً طلب فريك تأجيل الموضوع نصف ساعة بالنيابـة عن النواب النازيين .

ويقول فون‌بابن في مذكراته ... « وهكذا غدا الوضع خطيراً ، ووقعت في الشراك دون ان اتخذ اهبتي ». فأوفد رسولاً على جناح السرعة الى المستشارية ليأتي له بمرسوم الحل .

وفي غضون ذلك كان هتلر يتشاور مع اعضاء كتلة حزبه البرلمانية في المقر الرسمي لرئيس المجلس عبر الشارع . ووجد النازيون انفسهم في ورطة لا يستطيعون الخروج منها . وأحسوا بأن الوطنيين قد خدعوهم ، بعدم تقديم الاقتراح بتأجيل الاقتراع . ووجد النازيون انفسهم مرغمين ، لاسقاط حكومة بابن على الاقتراع الى جانب الشيوعيين في مشروع قرار شيوعي . وقرر هتلر ابتلاع المرارة الناجمة عن مثل هـذا الارتباط ، واصدر امره الى نوابه بالاقتراع الى جانب التعديل الشيوعي واسقاط حكومة فون‌بابن قبل ان يتمكن المستشار من حل المجلس . وتحتم على غورنغ بوصفه رئيس الجلسة ، ان يقوم بمناورات سريعة « ونظيفة » من الاجراءات البرلمانية المألوفة لتحقيق هذه الغاية . وبرهن بطل الهواء السابق

والرجل المعروف بجرأته وكفاياته الكثر كما ثبت فيما بعد وفي مراحل لاحقة على انه قادر على مواجهة الوضع .

وعندما عادت الجلسة الى الانعقاد، ظهر فون بابن يحمل في يده الحقيبة الحمراء المعروفة التي جرت التقاليد على ان تضم عادة قرار حل المجلس، وهو القرار الذي بعث في طلبه من مكتبه على صورة الاستعجال . وعندما طلب حق الكلام ليتلو مرسوم الحل، تظاهر رئيس المجلس بأنه لم يره ، على الرغم من ان فون بابن، كان قد وقف الآن وقد احمر وجهه يلوح بورقة الحل امـــام جميع من في القاعة ليروها . ولقد رآها الجميع الا غورنغ، فقد أدار وجهه الباسم الى الناحية الأخرى . ودعا الى اجراء اقتراع فوري . وكان وجه فون بابن ، كما روى شهود العيان قد تحول الآن من الاحمرار الى البياض من شدة الغضب . وخطا المستشار الى منصة الرئاسة ووضع مرسوم الحل امام الرئيس . وتجاهله غورنغ تمام التجاهل وأصدر أمره بالاستمرار في الاقتراع . وخرج فون بابن يتبعه جميع وزرائه الذين لم يكن أي منهم عضواً في المجلس ، من القاعة . واقترع النواب، وكانت النتيجة (٥١٣) ضد الحكومة مقابل اثنين وثلاثين . وآنذاك فقط ، رأى غورنغ الورقة الـتي كان المستشار قد طرحها غاضباً على منصته . وقرأ المرسوم الى المجلس، وقرر ان لا قيمة له لأنه موقـع من مستشار ، فقد صفته القانونية بعد ان اقترع المجلس بأكثريته الدستورية على عدم الثقة به .

ولم يتضح فوراً أي العناصر في المانيا قد كسبت من هذا الحادث المضحك وأيها قد خسر، ومدى الربح والخسارة في الحالتين . لكن الذي لا ريب فيه ان بابن الأنيق قد غدا أضحوكة الجميع ، ولكنه كان اضحوكة من قبل ، طبقاً لما ذكره السفير فرانسوا بونسيه حتى عند أصدقائه . واتضح تماماً أيضاً ان الرايشستاغ قد أظهر ان غالبية الشعب الألماني تعارض في الحكومة « الرئاسية » المعيّنة من هندنبرغ . ولكن ألم يؤد هذا الاجراء الى إضعاف الثقة العامة في النظام البرلماني من جديد ؟ أما بالنسبة الى النازيين ، ألم يظهر هذا الحادث انهم بالإضافة الى عدم شعورهم بالمسؤولية ، كانوا على استعداد حتى للتواطؤ مع الشيوعيين في سبيل

تحقيق غاياتهم؟ يضاف الى هذا، أو لم يكن المواطنون قد ملّـوا من الانتخابات وان النازيين كانوا يواجهون احتمال خسارتهم لبعض الاصوات في الانتخابات الجديدة التي لم يكن ثمة مناص منها لا سيما وانها الرابعة في غضون عام واحد ؟ لقد حمل غريغور شتراسر وفريك مثل هذا الرأي وصرّحا بأن مثل هـــذه الخسارة ستكون كارثة بالنسبة الى الحزب .

لكن هتلر على أي حال ، كان بادي الانشراح في ذلك المساء على حد تعبير غوبلز « فقد اتخذ من جديد قراراً واضحاً وصحيحاً » .

* * *

واعترف الرايشستاغ فوراً بقرار الحل ، وحدد السادس من تشرين الثاني موعداً للانتخابات الجديدةالتي مثلت بالنسبة الى النازيين بعض المتاعب . فلقد ذكر غوبلز ان الشعب كان قد مل من الخطب السياسية ومن الحملات الدعائية . وكان الاعضاء العاملون في الحزب ايضاً ، كما اعترف غوبلز في يوميته للخامس عشر من تشرين الاول ، قد اصبحوا في حالة عصبية « نتيجة لهذه الانتخابات التي لا تنتهي . لقد غدوا مجهدين فوق طاقتهم ... » ، وكانت ثمة متاعب مالية ايضاً . فلقد وقف كبار رجال المال والاعمال وراء فون بابن ، الذي قدم لهم بعض الامتيازات . وكان هؤلاء قد غدوا كثيري الشك كما حذّر فونك ، من رفض هتلر للتعاون مع هندنبرغ ، كما ارتابوا فيما بدا لهم منه على انه تطرف متزايد ، وميل الى التعاون حتى مع الشيوعيين كما اثبتت القصة التي وقعت في الرايشستاغ . وقد لاحظ غوبلز هذه الحقيقة في يوميته التي دوّنهـا للخامس عشر من تشرين الأول فقال : « لقد غدا المال صعب المنال . وجميـع ذوي الاملاك والعلم ، يقفون الى جانب الحكومة » .

واشترك النازيون قبل بضعة ايام من موعد الانتخابات مع الشيوعيين في اعداد العدة لإضراب يقوم به عمـــال النقل في برلين ، وهو اضراب عارضه النقابيون والاشتراكيون . وادت هذه الخطوة الى نضوب جديـــد في الموارد المالية من رجال الأعمال في وقت كان فيه الحزب النازي في أمس الحاجة الى

المال ، لإتمام المعركة الانتخابية بشكل عاصف . ودوّن غوبلز في يوميته للأول من تشرين الثاني بلهجة لا تخلو من الكآبة يقول : « لقد غدت ندرة المال مرضاً مزمناً معنا . ونحن نفتقر الى المال الكافي للقيام بحملة ضخمة. فقد سيطر الفزع على كثير من الدوائر البورجوازية من جراء اشتراكنا في الاضراب . ولقد بدا الشك يساور نفوس عدد من الرفاق في الحزب » . ودوّن عشية الخامس من تشرين الثاني ، أي في الليلة التي سبقت الاقتراع ، في يومياته يقول : « انه الهجوم الأخير . اننا نقوم بزحف يائس لتجنب هزيمة الحزب . وقد نجحنا في الحصول على عشرة آلاف مارك في اللحظة الأخيرة . وسنقذف بهذا المبلغ في الحملة بعد ظهر السبت . لقد عملنا كل ما كان في وسعنا ان نعمله ، وعلى القدر ان يقرر مصيرنا الآن » .

وقرر القدر والناخبون الألمان في السادس من تشرين الثاني اشياء عدة لم يكن ايها يحمل معنى القطع والحسم ، بالنسبة الى مستقبل الجمهورية المنهارة . فلقد خسر النازيون مليوني صوت ونحواً من ٣٤ مقعداً في الرايشستاغ ، ولم يبقى لهم فيه الا ١٩٦ نائباً . وربح الشيوعيين ثلاثة أرباع المليون من الأصوات بينما خسر الاشتراكيون الديموقراطيون مثل هذا الرقم تقريباً ، مما أدى الى ارتفاع عدد النواب الشيوعيين من (٨٩) نائباً الى مائة وهبوط عدد النواب الاشتراكيين الديموقراطيين من (١٣٣) الى (١٢١) . وكسب الحزب الوطني الألماني ،وهو الحزب الوحيد الذي أيد الحكومة ، نحواً من مليون صوت اضافي كسبها على الغالب من النازيين وارتفع عدد نوابه من (٣٧) الى (٥٢) . وعلى الرغم من ان الاشتراكيين الوطنيين ما فتئوا أكبر الاحزاب في البلاد ، الا ان خسارتهم مليوني صوت ، اعتبرت نكسة خطيرة للغاية . وهكذا بدأ المد النازي ينحسر لأول مرة وينقلب الى جذر ، ومن نقطة مـــا زالت بعيدة كل البعد عن الاغلبية . وتزعزعت قواعد الاسطورة القائلة بأن الحزب النازي لا يقهر . وغدا هتلر في وضع أضعف مما كان عليه في أي وقت مضى منذ شهر تموز على صعيد المساومة . وتخلى فون بابن ،بعد ان أدرك هذا الأمر ،عما دعاه «بعدم استلطافه» الشخصي

لهتلر ، ووجه اليه رسالة في الثالث عشر من تشرين الثاني ، داعياً إياه الى مقابلته « لبحث الأوضاع » . ولكن الشروط التي وضعها هتلر في رده كانت من الكثرة بحيث حملت فون بابن على التخلي عن كل أمل في الوصول الى تفاهم معه . ولم يدهش المستشار المفتقر الى الكفاية وذو الوزن الخفيف في العيار السياسي من حماقة هتلر ، ولكن ما ادهشه حقاً هو السبيل الجديد الذي اختطه لنفسه صديقه ومستشاره شلايخر . فقد توصل صانع الملوك الذي يشبه الافعوان في مرونته الى الاستنتاج القائل بأن الغـاية المتوخاة من فون بابن قد انتهت ، كما انتهت من قبل الفائدة المرجوة من سلفه برونينغ . وبدأ العقل الكثير الخصومة يحوك خططاً جديدة لقد بات من واجب صديقه الحميم فون بابن ان يمضي عن المسرح . ومن الواجب ان يترك الرئيس حراً كل الحرية في تعامله مع الاحزاب السياسية ولا سيما مـع اكبرها . وحث شلايخر على وجوب استقالة فون بابن . وبالفعل رفع هذا استقالة حكومته في السابع عشر من تشرين الثـــاني . وبعث هندنبرغ فوراً يستدعي هتلر لمقابلته .

وكانت مقابلة التاسع عشر من تشرين الثاني اقل فتوراً وبرودة من مقابلة الثالث عشر من آب ، فقد قدم الرئيس هذه المرة مقعداً لزائره وسمح له بالجلوس في حضرته اكثر من ساعة . وقد عرض الرئيس على هتلر ان يختار أحد أمرين اما المستشارية اذا استطاع ان يضمن اغلبية مطلقة في الرايشستاغ تمكنه من تنفيذ برنامج محدود أو نيابة المستشارية مع بابن في وزارة «رئاسية» اخرى ، تستطيع ان تحكم بموجب مراسيم الطوارىء . وقد قابل هتلر الرئيس للمرة الثانية في الحادي والعشرين من الشهر كما تبادل عدداً من الرسائل مع مايزنر . ولكن الاتفاق كان مستحيلاً . فقد عجز هتلر عن تأمين اغلبية مطلقة في البرلمان ، اذ على الرغم من وعد حزب الوسط بالتأييد شريطة ان لا يتطلع الى الديكتاتورية فان هوغنبرغ ضنّ عليه بتأييد الوطنيين . واستأنف هتلر تبعاً لذلك مطالبته بالمستشارية في وزارة رئاسية ، ولكن الرئيس لم يوافق على هذا الطلب . فاذا كان لا بد من قيام حكومة تصرف الأمور بموجب مراسيم ، فان هندنبرغ يؤثر ان

يتولاها صديقه فون بابن. وذكرني رسالة بعث بها مايزنرنيابة عنه انه لا يستطيع تقديم مثل هذا المنصب الى هتلر « لأن مثل هذه الحكومة تتطور بصورة حتمية الى ديكتاتورية الحزب... وليس في وسعي ان اتحمل مسؤولية مثل هذا التطور امام القسم الذي اديته وأمام ضميري »[1] .

وكانت نبوءة الماريشال العجوز اصدق بالنسبة الى النقطة الأولى منها بالنسبة الى النقطة الثانية . أمـا بالنسبة الى هتلر ، فقد قرع باب المستشارية من جديد ليفتح امامه ثم ليعود فيوصد بقوة في وجهه .

وكان هذا عين ما توقعه فون بابن . وعندما مضى مع شلايخر لمقابلة هندنبرغ عشية اليوم الأول من كانون الأول ، كان واثقـاً من ان الرئيس سيعيد تعيينه مستشاراً . ولم يكن ليخطر في باله قط ما كان يعده الجنرال الماكر من خطـط جديدة . وكان شلايخر قد اتصل بشتراسر ، واقترح عليه ان يشترك النازيون في حكومة يرئسها هو – أي شلايخر – اذا كانوا يصرون على عدم الاشتراك في حكومة يرئسها فون بابن. واستدعي هتلر للمجيء الى برلين للتشاور مع الفريق، فاستقل القطار فعلاً تلك الليلة من ميونيخ الى برلين على حـد اقوال رواية انتشرت آنذاك في الصحافة الألمـانية وقبلها الكثيرون من المؤرخين على انها رواية صادقة . ولكنه اضطر الى ترك القطار في جينـا بضغط من غورنغ ليشهد في ويمار القريبة اجتماعاً عقده كبار النازيين . لكن الرواية النازية عن هـذا الحادث ، اكثر دقة على الغالب بشكل يثير الدهشة . فقـد سجل غوبلز في يوميته للثلاثين من تشرين الثاني ان هتلر تلقى برقية عاجـلة للمضي بسرعة الى برلين ، ولكنه قرر ان يدع شلايخر في انتظاره ليمضي الى التشاور مع رفاقه في ويمار ، حيث كان من المقرر ان يفتتح الحملة الانتخابية المحلية في ولاية ثورينجيا . وظهر خلاف بارز في هذا الاجتماع الذي ضم الكبار الخمسة وهم غورنغ وغوبـلز وشتراسر وفريك، وهتلر والذي عقد في اليوم الأول من كانون الأول. فقد ألح شتراسر

---

١ – لم يفاجأ غوبلز هذه المرة بالاحداث كالمرة الماضية فقد سارع الى تزويد الصحف بالرسائل المتبادلة وتم نشرها في الصحف التي صدرت صباح الخامس والعشرين من تشرين الثاني .

يؤيده فريـك على وجوب الوقوف موقف التسامح من حكومة رئيسها شلايخر وان كان يؤثر ان يشترك النازيون فيها . ولكن غورنغ وغوبلز عارضا بشدة هذا الرأي ووقف هتلر الى جانبهما ، ونصح هتلر في اليوم التالي ضابطاً يدعى الرائد « أوت » كان شلايخر قد اوفده اليه ، بأن يشير على الفريق بعدم قبول المستشارية ولكن هذه النصيحة جاءت بعد فوات الأوان .

وكان بابن غافلاً كل الغفلة عن الخدعة التي حاكها شلايخر وراء ظهره . فقد شرع يحدد في مستهل المقابلة التي جرت مع الرئيس في الأول من كانون الاول ، وهو واثق كل الثقة الخطة التي يراها بالنسبة الى المستقبل ، فذكر انه سيواصل العمل كمستشار ويحكم عن طريق المراسيم الجمهورية ، ويعلق جلسات « الرايشستاغ » الى امد بعيد يكون في أثنائه قد أعد خطته لتعديل الدستور . وكان فون بابن يريـد في الحقيقة « تعديلات » في الدستور تعود بالبلاد الى ايام الامبراطوريـة ويقيم حكماً للطبقات المحافظة . وقد اعترف فون بابن اثناء محاكمته في نورمبرغ في نهاية الحرب وفي مذكراته التي كتبهـا بما قاله للمشير ، مـن ان اقتراحاته « تؤلف خرقاً للدستور الحـالي من قبل رئيس الجمهورية » ، ولكنه اكـد لهندنبرغ ان « في امكانه ان يجد المبرر بتقديمه سعادة الشعب ومصلحته على يمين الولاء للدستور التي اقسمها » ، مضيفاً ان بسمارك نفسه قد فعل مثل هـذا في احدى المرات « رغبة منه في خدمة البلاد » [1] .

وذهـل فون بابن عندما رأى شلايخر يقاطعه معترضاً ، ويأخذ في العزف على امتعاض الرئيس العجوز الواضح من خرق اليمين التي أقسمها للحفاظ على الدستور اذا كان في الامكان تجنب ذلك ، لا سيما وان الفريق يرى ان هذا الامكان قائم فعلاً . واعرب الفريق عن اعتقاده بأن في الامكان تأليف حكومة تستطيع الحصول على تأييد غالبية الرايشستاغ اذا قام هو بتأليفها . وأكد ثقته بأن في وسعه ان يحمل شتراسر ونحواً من ستين نائباً نازياً على الانفصال عـن

---

١ ـ مذكرات فون بابن ـ ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

هتلر ، وفي وسعه ان يضم الى اصوات هؤلاء تأييد احزاب الطبقة الوسطى والديموقراطيين والاشتراكيين . واضاف انه يعتقد بأن الحركة النقابية ستؤيده ايضاً .

واصيب هندنبرغ بما يشبه الصاعقة من هذه الفكرة ، والتفت الى فون بابن وطلب اليه ان يمضي فوراً في تأليف حكومة جديدة . ويقول فون بابن ان « شلايخر اصيب بصدمة افقدته النطق » . ودار نقاش طويل بين الرجلين بعد ان غادرا مكتب الرئيس ، ولكنهما لم يتوصلا الى أي اتفاق . وعندما افترقا قال شلايخر لفون بابن نفس العبارة المشهورة التي وجهت الى لوثر عندما مضى لمقابلة المجلس في وورمز ، « ايها الراهب الصغير لقد اخترت طريقاً شائكاً » .

وقد تبينت هذه الاشواك لبابن صبيحة اليوم التالي، في الساعة التاسعة عندما عقد مجلس الوزراء جلسة طارئة بدعوة منه . وقد وصف فون بابن هذا الاجتماع بقوله :

> « هبّ شلايخر على قدميه معلناً استحالة تنفيذ التوجيه الذي تلقيته من الرئيس . فأية محاولة لتحقيق ذلك ستؤدي بالبلاد الى الفوضى . وليس باستطاعة رجال الشرطة وافراد القوات المسلحة ، ان يتعهدوا بالحفاظ على سير وسائل النقل وخدمات التموين في حالة وقوع اضراب عام ، ولا ان يتعهدوا بالحفاظ على الأمن والنظام في حالة وقوع حرب اهلية . وكانت هيئة اركان الحرب ، قد قامت بدراسة في هذا الموضوع واعدت ترتيباتها للرائد أوت بأن يضع نفسه تحت تصرف مجلس الوزراء وان يقدم اليه تقريراً في الموضوع »[1] .

وهنا أخرج الفريق الرائد من كمّه . واذا كانت ملاحظات شلايخر قد هزّت فون بابن هزة عنيفة ، فإن تقرير الرائد يوجين أوت الذي جاء في وقته

---

١ ــ مذكرات ـ فون بابن ـ ص ٢٢٠ .

المناسب قد حطمه . (خدم الرائد أوت في عهد هتلر سفيراً له في طوكيـو) .
فلقد ذكر هذا الرائد بمنتهى البساطة ان « الدفاع عن الحدود والحفاظ في الوقت نفسه على الأمن والنظام ، ضد النازيين والشيوعيين ، أمران يتجاوزان حدود طاقة القوات المسلحة الموجودة تحت امرة الحكومات الاقليمية والحكومـة الاتحادية الائتلافية . ولهذا فقد أوصى بأن تمتنع حكومة الرايخ عن اعلان حالة الطوارىء [1] .

ودهش فون بابن ، فان الجيش الألماني الذي حمـل الامبراطور ذات يوم على حزم امتعته ، والخروج من البلاد بعد التنازل عن العرش ، والذي أقصى الجنرال غروينر والمستشار برونينغ ، قبل فترة قصيرة ، عن الحكم ، يحيله هو اليوم على الاستيداع . ومضى الى هندنبرغ ، يحمل هذه الانباء اليه ، آملاً في ان يقيـل شلايخر من وزارة الدفاع وان يحتفظ به كمستشار ، ومقترحاً عليه بالفعل مثل هذا الاجراء .

وأجاب المشير العجوز الضخم الجثة ... «عزيزي بابن . قد لا تحمل عني فكرة طيبة اذا غيّرت رأيي . ولكنني رجل عجوز وقد مررت بالكثـير من المحن والمتاعب التي لا تمكنني من قبول المسؤولية في احتمال قيام حرب اهلية . ان أملنا الوحيد هو ان نسمح لشلايخر بتجربة حظه » .

ويقسم فون بابن ان « دمعتين كبيرتين انهمرتا على وجنتي هندنبرغ » . وبعد بضع ساعات ، وكان المستشار المخلوع يحزم اوراقه ، وصلته صورة الرئيس وقد وقع عليها وكتب العبارة التالية : « كان لي رفيق » . وبعث اليه الرئيس في اليوم التالي برسالة اعرب فيها عمّا يحسه من ألم لإخراجه من منصبه وأكد له ان ثقته فيه « ثابتة لا تتغير » . ولقد كان هندنبرغ صادقاً في هذا ودللت الأحداث بعد فترة قصيرة على صدقه .

وغدا كورت فون شلايخر في الثاني من كانون الأول مستشاراً ، فكان اول

---

١ - مذكرات فون بابن ص - ٢٢٢ .

قائد عسكري يحتل هذا المنصب منذ ايام الفريق الكونت جورج ليو فون كابريفي دي كابرارا دي مونتيكيوكولي ، الذي خلف بسمارك في عام ١٨٩٠ . وهكذا كانت دسائس شلايخر المضنية السبب أخيراً في وصوله الى أعلى منصب في الحكومة ، في وقت كانت الأزمة الاقتصادية الخانقة التي لا يفهم عنها شيئــاً قد بلغت ذروتها ، وفي لحظة كانت فيه جمهورية ويمار التي جهد كثيراً لتحطيمها قد بدأت في الانهيار ، وفي ساعة لم يعد فيه أي إنسان يثق فيه حتى الرئيس الذي استخدمه مـدة طويلة . وبدا لكل انسان إلا هو ، ان ايامه في الحكم معدودات جداً . وكان النازيون على ثقة من هذه الحقيقة . فقد سجّل غوبلز في يومياته للثاني من كانون الأول العبارة التالية : « لقد عيّن شلايخر مستشاراً ، ولكن عهده لن يطول » .

ورأى فون بابن ايضاً عين هذا الرأي. وكان يتوجّع من الجراح التي أصابت كبرياءه ويتعطش الى الثأر من « صديقه وخليفته »كما يلقبه في مذكراته .وعرض شلايخر على فون بابن ليخلص منه ، منصب السفارة في باريس ولكنه رفض . ويقول بابن ان الرئيس اراد منه البقاء في برلين ليكون في « متناول اليد » . وكانت العاصمة هي أفضل مكان سوقي (استراتيجي) يحوك فيه دسائسه ضد الدسّاس الاكبر . وشرع بابن في العمل وكأنه عنكبوت دائم الحركة كثـــير النشـــاط . ولم يدن عام ١٩٣٢ من نهايته حتى كانت برلين تحتشد بالمؤامرات والائتمار ضمن المؤامرات . وبالاضافة الى دسائس بابن وشلايخر ، كانت هنـاك مؤامرات اخرى تحاك داخل القصر الجمهوري وبطلاها كل من اوسكار نجل الرئيس ومايزنر رئيس ديوانه وهما اللذان يمسكان بزمام السلطان وراء الكواليس وهناك في فندق كايزرهوف ، كان هتلر ومَنْ حوله مِـن رفاقه يأتمرون لا على الدولة للوصول الى السلطان فحسب بل وعلى بعضهم البعض ايضاً . وسرعان ما غدت الدسائس معقدة كل التعقيد ، حتى أنه عندما حل مطلع عام ١٩٣٣ ، كان الدساسون جميعاً ، يجهلون كل شيء عن الدسائس التي تحاك ضدهم ايضاً . ولكن لم يعد ثمة من حاجة الى الانتظار طويلاً ليعرفوا الحقيقة .

شلايخر : آخر مستشار في الجمهورية

أسر شلايخر ذات يوم في اذن السفير الفرنسي الذي كان يصغي اليه بقوله : « لقد قضيت في الحكم سبعة وخمسين يوماً، وفي كل يوم منها كنت اتعرض للخيانة سبعاً وخمسين مرة . ولذا لا تحدثني ابداً عن شيء يدعى الولاء الالماني » . ولا ريب في ان حياته وأعماله ، قد جعلت منه حجـّة في هذا الموضوع .

وقد بدأ شلايخر اعماله بعد توليه المستشارية بأن عرض على غريغور شتراسر ان يغدو نائباً له في مستشارية المانيا وأن يصبح رئيساً لوزراء بروسيا . وهكذا بعد ان فشل شلايخر في اقناع هتلر بالانضمام الى حكومته ، شرع يعمل في تفسيخ النازيين عن طريق هذا الطعم الذي قدمه الى شتراسر . وكان ثمة كل ما يدفعه الى الامل في النجاح ، فلقد كان شتراسر الرجل الثاني في الحزب ، وكان بين العناصر اليسارية فيه ، وبالنظر الى ايمانه حقاً بالاشتراكية الوطنية فقد كان أكثر شعبية من هتلر . وكان بوصفه رئيساً للتنظيم الحزبي ، على اتصال مباشر بجميع قادة الحزب الاقليميين والمحليين ، وكان كما يبدو يتمتع بولائهم . وكان واثقاً الآن من ان هتلر قد وصل بالحزب الى نهاية ميتة خامدة ، فالاعضاء الاكثر تطرفاً في الحزب ، كانوا يتجهون الآن الى الشيوعيين ، كما ان الحزب وصل ايضاً الى مرحلة الافلاس المالي. وكان فرانز ثيسّين قد انذر الحزب في شهر تشرين الثاني ، من انه لن يكون في وسعه ان يقدّم تبرعات جديدة اليه . وهكذا لم تعد هناك أموال لدفع مرتبات موظفي الحزب أوجنود جيش العاصفة التي كانت تبلغ وحدها نحو مليونين ونصف المليون من الماركات في الاسبوع . واخذ اصحاب المطابع التي تصدر المطبوعات النازية يهددون بوقف العمل الا اذا تلقوا قيمة « فواتيرهم » التي تأخر دفعها . وكان غوبلز قد اشار الى هذا الوضع في يوميته التي كتبها في الحادي عشر من تشرين الثاني اذ قال : « غدا الوضع المالي للمنظمة في برلين يائساً. فليس ثمة الا الديون والالتزامات ». وأعرب عن اسفه في شهر كانون الاول لأن الحزب يجد نفسه مضطراً الى خفض الرواتب.

وأخيراً اظهرت الانتخابات الاقليمية التي جرت في ثورينجيا في الثالث من كانون الأول وهو اليوم الذي استدعى فيه فون بابن شتراسر للاجتماع به ، ان الحزب قد فقد اربعين في المائة من اصوات ناخبيه وغدا من الواضح ، بالنسبة الى شتراسر على الأقل ان النازيين لن يصلوا قط الى الحكم عن طريق الاقتراع .

ولذا فقد حث شتراسر زعيمه هتلر على التخلي عن سياسته القائلة « بكل شيء أو لا شيء » ، وعلى قبول أي سلطة تعرض عليه عن طريق الائتلاف مع شلايخر ، وحذره من ان عدم اتباع هذه السياسة سيؤدي الى تحطيم الحزب وتفسيخه . وكان يصر على هذا التبدل في سياسة الحزب منذ عدة اشهر ، اذ امتلأت يوميات غوبلز منذ اواسط الصيف حتى شهر كانون الاول ، بالاشارات المؤلمة الى « عدم ولاء » شتراسر للفوهرر .

ووقع الاصطدام في الخامس من كانون الأول في اجتماع عقده زعماء الحزب في فندق كايزرهوف في برلين . وطالب شتراسر بأن يقف الحزب على الاقل موقف التسامح من حكومة شلايخر ، وقد ايده في رأيه هذا فريك زعيم الكتلة النازية في الرايشستاغ ، وكثيرون من النواب الذين كانوا يخشون ضياع مقاعدهم ورواتبهم في حالة استفزاز هتلر للمستشار الجديد ودفعه الى اجراء انتخابات جديدة . وقد عارض غورنغ وغوبلز رأي شتراسر بقوة ، وتمكنا من اكتساب هتلر الى جانبهما . ولم يكن هتلر على استعداد للتسامح مع عهد شلايخر ، ولكنه كما حدث فعلاً كان على استعداد « للتفاوض » معه . وانتدب غورنغ للقيام بهذه المهمة ، إذ كان قد سمع من غوبلز عن الاجتماع السري الذي دار بين المستشار وبين شتراسر قبل يومين ودار نقاش بين هتلر وشتراسر في السابع من كانون الأول في « كايزرهوف » تحول الى شجار عنيف . واتهم هتلر كبير مساعديه بمحاولته طعنه في الظهر ، واخراجه من زعامة الحزب وتفتيت الحركة النازية . ونفى شتراسر كل هذه التهم عن نفسه ، وأقسم من جديد على اخلاصه وولائه ، ولكنه اتهم هتلر بأنه يقود الحزب الى الخراب . ويبدو انه لم يصرح بكل ما كان يعتمل في نفسه منذ عام ١٩٢٥ . وعندما

عاد الى غرفته في فندق « الاكسلسيور » دوّن كل ما عنّ له في رسالة بعث بها الى هتلر ، مضمناً اياها استقالته من جميع مناصبه في الحزب .

ووقعت الرسالة التي وصلت الى هتلر في الثامن من كانون الأول وقوع القنبلة على حد تعبير غوبلز . وتحول الجو الذي يخيّم على « كايزرهوف » الى ما يشبه جو المقابر . « وأحسسنا جميعاً بالألم ووهن العزيمة » ، وكانت هذه الصدمة اقسى ما عاناه هتلر منذ اعاد تنظيم الحزب في عام ١٩٢٥ . فها هو بعد ان اصبح على عتبة الحكم ، يجد ان كبير مساعديه قد تخلى عنه مهدداً بتحطيم كل ما بناه في غضون سبع سنوات .

وكتب غوبلز يقول : « وفي المساء جاءنا الفوهرر الى منزلنا . وكان من الصعب علينا ان نتظاهر بالمرح . فنحن نشعر جميعاً بالأسى وخيبة الامل ، ولا سيما ما يواجه الحزب من خطر التفسّخ والانهيار ، مما يضيع علينا ثمار كل ما عملناه ... وتلقينا مكالمة هاتفية من الدكتور لي . ان الوضع في الحزب يسوء من ساعة إلى أخرى . ويطلب الى الفوهرر العودة فوراً الى كايزرهوف » .

واستدعى غوبلز للانضمام اليه هناك في الساعة الثانية صباحاً . لقد اذاع شتراسر القصة الى الصحف الصباحية التي كانت قد بدأت تظهر الآن ، في الشوارع . ويصف غوبلز رد فعل هتلر قائلاً :

« خيانة ! خيانة ! خيانة ! .

« قضى الفوهرر الساعات الطوال وهو يذرع غرفته . لقد اصيب بجرح عميق آلمه كل الألم من هذه الخيانة . ووقف أخيراً وقال : لو انهار الحزب وتهاوى شذر مذر ، فسأضع نهاية لكل شيء في ثلاث ثوان بطلقة مسدس » .

ولكن الحزب لم يتهاوَ ولم يطلق هتلر الرصاص على نفسه . لقد كان في وسع شتراسر ان يحقق كلتا الغايتين ، وان يغيّر بتحقيقهما مجرى التاريخ على الغالب ، ولكنه تراجع في هذه اللحظة الحاسمة . وكان فريك بأمر من هتلر ، يذرع برلين كلها بحثاً عنه ، بعد ان اتفق على وجوب رتق الصدع ، مخافة انهيار الحزب .

ولكن شتراسر وقد ملّ كل شيء ، كان قد استقل القطار الى الجنوب ، ليقضي فترة استراحة في ايطاليا . وسارع هتلر الذي ألف ان يغدو في احسن حالاته عندما يكتشف ضعفاً في خصمه ، الى توجيه ضربته وبقسوة لا مثيل لها . فقد اعلن توليه بنفسه مكتب الحزب السياسي الذي كان شتراسر قد بناه ، وانتدب الدكتور لي قائد منطقة برلين رئيساً لأركانه فيه . وتمّ تطهير الحزب من اصدقاء شتراسر ، واستدعي جميع قادة الحزب الى برلين للتوقيع على اعلان جديد بالولاء لادولف هتلر وهو ما نفذوه فعلاً .

وهكذا تمكن النمسوي الداهية من جديد ، من التخلص من ورطة كان في امكانها ان تغدو كارثة بكل سهولة وبساطة . فقد تحطم غريغور شتراسر ، الذي كان الكثيرون يعتقدون بأنه يفوق هتلر في عظمته في لمح البصر . وكتب غوبلز في يوميته للتاسع من كانون الأول يقول عنه أنه « رجل ميّت » . وقد برهنت هذه النبوءة على صحتها فعلاً بعد سنتين عندما قرر هتلر تسوية حساباته الماضية .

* * *

وشرع فرانز فون بابن في العاشر من كانون الأول ، أي بعد اسبوع واحد من قيام شلايخر بإسقاطه ، يحوك دسائسه . فبعد أن ألقى خطاباً تلك الليلة في نادي « هيرين » الذي كان قد اختار من بين اعضائه الارستقراطيين والاثرياء ، اعضاء وزارته التي لم تعمّر طويلاً ، جرى له حديث خاص وطويل مع البارون كورت فون شرويدر المالي الكبير في برلين الذي كان من اكبر المتبرعين للحزب الوطني الاشتراكي . واقترح عليه ان يجمعه بصورة خفيّة بهتلر . ويزعم فون بابن في مذكراته ان البارون كان صاحب الاقتراح ، وانه وافق عليه . ولعل من غرائب الصدف ايضاً ان ولهلم كيبلر ، مستشار هتلر الاقتصادي ، وأحد همزات الوصل بينه وبين دوائر رجال المال والأعمال ، قد تقدم بنفس الاقتراح نيابة عن هتلر .

واجتمع الرجلان اللذان كانا قبل بضعة اسابيع على اشد خلاف ، بصورة

راعيا فيها السرية المطلقة كما خيّل اليهما ، في دارة شرويدر في كولون صباح الرابع من كانون الثاني. وقد فوجىء فون بابن بمصور يلتقط صورة له في مدخل الدارة ولكنه لم يكترث كثيراً بهذا الأمر الى ان حل اليوم التالي. وكان هس وهملر وكيبلر يرافقون هتلر في زيارته ، ولكنه تركهم في بهو الدارة، واعتكف مع فون بابن وشرويدر مدة ساعتين في مكتب المالي الكبير . وعلى الرغم من ان الحديث بدأ بداية سيئة ، اذ اعرب هتلر عن استيائه من الطريقة التي عامل فيها فون بابن النازيين عندما كان مستشاراً ، الا انه سرعان ما تحول الى نقطة ثبت فيما بعد انها كانت حاسمة بالنسبة الى الرجلين ، من ناحية ، والى بلدهما من الناحية الاخرى . ولا ريب في ان هذه اللحظة كانت في منتهى الحرج بالنسبة الى الزعيم النازي . فقد تمكن بجهد يفوق طاقة البشر من الحفاظ على وحدة الحزب بعد انسحاب شتراسر . وكان قد ذرع البلاد وجابها طولاً وعرضاً ، خاطباً في ثلاثة اجتماعات او اربعة في كل يوم ، حاثاً زعماء الحزب على البقاء متكاتفين متضامنين وراءه. ولكن معنويات الحزب ظلت في حالة جذر كامل، وكان قد اشرف على الافلاس من الناحية المالية .وخيل الى الكثيرين ان الحزب قد انتهى حتى ان غوبلز عكس في يومياته الرأي العام تجاه الحزب في الاسبوع الاخير من عام ١٩٣٢ ، فقال : « لقد حمل لنا عام ١٩٣٢ ، حظاً سيئاً للغاية... فلقد كان الماضي صعباً كل الصعوبة ويبدو المستقبل مظلماً وقاتماً ، اذ اختفت جميع الآمال والأماني العراض » .

ولهذا لم يكن هتلر في موضع يصلح للمساومة في سبيل الحكم ، كالوضع الذي كان فيه إبان الصيف والخريف الماضيين . ولكن فون بابن لم يكن في وضع افضل ايضاً ، إذ كان قد خرج من الحكم ايضاً . وهكذا التقى عقلاهما في وقت المحنة .

وهناك خلاف كبير على الشروط التي اتفق عليها الرجلان . فقد أصر بابن على القول إبّان محاكمته في نورمبرغ وفي مذكراته انه اخلاصاً منه لشلايخر ، اقترح على هتلر الانضمام الى حكومة الفريق . ولكن بالنظر الى ما عرف عن

بابن من سجل طويل حافل من الخداع والمكر ، والى ما عهد فيه من رغبة فطرية في ان يبدو في احسن الصور في نورمبرغ وفي كتابه ، وبالنسبة الى ما تلا المقابلة من أحداث ، يبدو لنا ان رواية شرويدر التي تختلف عن هذه الرواية تمام الإختلاف والتي تقدم بها في نورمبرغ ، كانت أكثر صحة من رواية فون‌بابن . فقد ذكر المالي ان بابن اقترح على هتلر تأليف حكومة تحل محل حكومة شلايخر، يتولى وبابن فيها منصباً متعادلاً .. ومضى يقول ...

« ولكن هتلر ... قال انه اذا أصبح مستشاراً ، فان من الضروري ان يكون هو رأس الحكومة ، وإن في وسع أنصار بابن أن يشتركوا معه كوزراء، إذا كانوا راغبين في السير معه في سياسته الرامية الى إحداث تبدلات كثيرة . وأضاف أن هذه التبدلات تنطوي على القضاء على الإشتراكيين الديموقراطيين والشيوعيين واليهود وإخراجهم من المراكز المهمة في المانيا ، وإعادة النظام الى الحياة العامة . وتوصل فون‌بابن وهتلر الى إتفاق مبدئي ...وتفاهما على وجوب المضي في إعداد التفاصيل في اجتماعات اخرى يعقدانها في برلين أو في أي مكان مناسب آخر »[١] .

وكان الإشتراط الوحيد أن تعقد هذه الإجتماعات في منتهى السرية طبعاً . ولكن بابن وهتلر ، فوجئا في اليوم التالي بصحف برلين وهي تصدر حاملة عناوين نارية عن إجتماع كولون ، وقد حملت انفجارات تعليقية ، تهاجم فون بابن لموقفه البعيد عن الإخلاص من شلايخر . فلقد نشر الفريق الداهية عيونه في كل مكان بكل ما عرف عنه من مكر ، وكان بين هولاء العيون ، كما عرف فون بابن فيما بعد ، ذلك المصور الذي التقط صورته وهو يهم بدخول دارة شرويدر .

وتمكن هتلر بالإضافة الى الصفقة التي عقدها مع بابن من تحقيق مكسبين

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان ، ص ٩٢٢ - ٩٢٤ .

آخرين من إجـتماع كولون كانت لها أهمية كبرى بالنسبة اليه . فقد علم من المستشار السابق أن الرئيس هندنبرغ لم يخول شلايخر صلاحية حل الرايشستاغ وكان هذا القول يعني ان في وسع النازيين بمعونة الشيوعيين الإطاحة بحكومـة الفريق في أي وقت يريدون زوالها . أما المكسب الثاني فهو ان هتلر خرج من الإجتماع وقد أفهم بأن المصالح المالية والتجارية الضخمة في المانيا الغربية ستتولى تسديد ديون الحزب النـــازي ، وسجل غوبلز بعد يومين من اجتماع كولون في يومياته ان « تطورات مرضية في الحقل السياسي قد وقعت » ولكنه ظل يشكو من « حراجة الوضع المــالي » . وسجل بعد عشرة أيام أي في السادس عشر من كانون الثاني ان الوضع المالي للحزب « قد تحسن بين عشية وضحاها » .

ومضى المستشار شلايخر في غضون ذلك ، وهو متفائل كل التفاؤل نظراً لقصر نظره ، يحاول إقامة حكومة مستقرة . وقد وجه في الخامس عشر من كانون الأول خطاباً إذاعياً الى البلاد ، ناشد فيه مستمعيه ان ينسوا كونه جنرالاً ، وأكد لهم انه لا يؤيد « لا الرأسمالية ولا الإشتراكية » وانه بالنسبة اليه « لم يعد لمفاهيم الإقتصاد الفردي أو الإقتصـــاد المخطط ، من معنى يبعث المخاوف في نفسه » ، وأضاف ان مهمته الأساسية هي في تأمين العمل للعـــمال العاطلين ، والعودة بالبلاد للوقوف على أقدامها الإقتصادية . وقال انه لا يعتزم زيادة الضرائب أو تخفيض الأجور ، بل انه على النقيض من ذلك يعتزم إلغاء التخفيض الأخير في الأجور الذي أدخله فون بابن في عهده . وذكر انه يعتزم انهاء الحصص الزراعية التي استحدثها فون بابن لمنفعة كبار أصحاب الأراضي ، وانه على النقيض من ذلك يعتزم وضع مشروع للإستيلاء على ثمانمائة الف فدان من أراضي النبـــلاء المفلسين في الشرق وتوزيعها على خمسة وعشرين الف أسرة من أسر الفلاحين ، وأكد انه يعتزم أيضاً فرض رقابة صارمة على أسعار بعض الحاجيات الضرورية كالفحم واللحم .

وكان هذا الخطاب يعني التقرب من نفس الجماهير التي كان حتى اليوم يقاومها أو يتجاهلها ، وسرعان ما أتبعها بمحادثات أجراها مع الزعماء النقابيين الذين

أوحى اليهم بأنه يتطلع الى مستقبل يكون فيه العمل المنظم والجيش دعـامتين توأمين تستند عليهما البلاد. ولكن العمال ما كانوا ليخدعوا مطلقاً برجل يشكون فيه اعظم الشك ولذا فقد ضنـّوا عليه بتعاونهم .

وهب الصناعيون و كبار الملاّك من الناحية الاخرى يحاربون برنامج المستشار الجديد ، الذي اعتبروه برنامجاً بلشفياً . وفزع كبار أرباب الأعمال من هذا الود الفجائي الذي يبديه شلايخر للاتحادات النقابية وثار غضب اصحاب الاقطاعيات الواسعة على ما قام به من تخفيض في الحماية الزراعية كما سخطوا على الفكرة التي نادى بها بتجزئة الاقطاعيات المفلسة في الشرق . وقام اتحاد كبار المزارعين في الثاني عشر من كانون الثاني (لاندباند) بمهاجمة الحكومة وطلب عدد من زعماء الاتحاد وبينهم نازيّان مقابلة رئيس الجمهورية ليرفعوا احتجاجهم اليه واستدعى هندبرغ ، وهو نفسه من النبلاء أصحاب الارض ، المستشار لمحاسبتـــه . ورد شلايخر على الرئيس مهدداً بنشر تقرير سري للرايشستاغ عن قروض الاغاثة في الشرق (اوستيلف) ، وهو تقرير يعتبر فضيحة من الفضائح الخطيرة ، التي تناولت كما يعرف الجميع ، مئات الأسر النبيلة القديمة التي كانت قد أثرت على القروض الحكومية التي لم تسدد ، والتي مسّت الرئيس نفسه بصورة لا مباشرة ، لاسيما وان الاقطاعية التي قدمت اليه كهدية في بروسيا الشرقية ، قد سجلت بصورة غير مشروعة لولده للخلاص من ضريبة الارث .

وظل شلايخر على ثقته من ان كل شيء يسير على ما يرام على الرغم من الضجة التي احدثها الصناعيون وملاّك الارض ومن الفتور الذي قابله به النقابيون ، وقام هو واعضاء وزارته في اليوم الأول من عام ١٩٣٣ ، بزيارة الرئيس العجوز ومضى يعرب له عن اعترافه بالجميل « لأن المصاعب الخطيرة قد امكن تذليلها ، ولأن الطريق غدا مفتوحاً الآن امام الجميع » . وفي الرابع من كانون الثـاني اي في اليوم الذي تشاور فيه هتلر مع فون بابن في كولون ، كان المستشار قد أعد العدة ليستقبل الرئيس ، الهر شتراسر ، الذي كان قد عاد من رحلته الاستجمامية في شمس ايطاليا الدافئة . واعلن الزعيم النازي الثاني سابقاً ، عند اجتماعه بالرئيس

بعد بضعة ايام عن استعداده للاشتراك في وزارة شلايخر . وقد اثارت هـذه الخطوة سخط النازيين الذين كانوا في تلك الآونة يخوضون في ولاية « ليب » الصغيرة وعلى رأسهم هتلر وكبار مساعديه ، المعركة الانتخابية المحلية لتحقيق نجاح محلي يمكن الفوهرر من تحسين وضعه اثناء المساومات الدائرة مع فون بابن. ويروي غوبلز وصول غورنغ عند منتصف ليل الثالث عشر من كانون الثـاني حاملاً الانباء السيئة عن شتراسر وكيف ان زعماء الحزب قضوا الليـل بطوله يناقشون الموضوع متفقين على أن شتراسر اذا قبل المنصب الوزاري ، اصـاب الحزب بنكسة خطيرة .

وكان هذا ما يراه شلايخر نفسه . وفي الخامس عشر من كانون الثاني وكان كورت فون شوشنينغ وزير العدل النمسوي يزوره ،أكد المستشار الالماني لزائره ان « هتلر لم يعد يؤلف مشكلة ، وان حركتـه قد توقفت عن ان تكون خطراً سياسياً ، وان المشكلة بكاملها قد حلت وغدت شأناً من شؤون الماضي » [١].

ولكن شتراسر لم يدخل الحكومة ، كما لم يشترك فيها هوغنبرغ ،زعيم الحزب الوطني الذي كان قد وعد هندنبرغ في اليوم السابق ، أي الرابع عشر من كانون الثاني بالاشتراك في الحكم . واتجه الرجلان الى هتلر ، فكان من نصيب شتراسر الآن ان يرفض رفضاً ينطوي على الفتور ، بينما حقق هوغنبرغ نجاحاً اكبر. وفي الخامس عشر من كانون الثاني ، اي في نفس اللحظة التي كان فيها شلايخر ينقل الى شوشنينغ رأيه في نهاية هتلر ،كان النازيون يسجلون نصراً محلياً في انتخابات امارة « ليب » الصغيرة . وعلى الرغم من ان الانتصار لم يكن كبيراً ، اذ ان مجموع المقترعين بلغ التسعين الفاً حصل النازيون على اصوات (٣٨) الفاً منهم أو ٣٩ في المائة أي بزيادة (١٧) في المائة على ما حصلوا عليه في الولاية في الانتخاب الماضي ، الا ان زعماء النازية قرعوا الطبول احتفاءً بهـذا النصر . ومن الغريب ان يبدو وكأن هذه الانتحابات قد أثـّرت على عدد من المحافظين وبينهم اولئك

---

١ – كورت فون شوشنينغ ـ وداعاً يا غسا ـ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

الذين يقفون وراء هندنبرغ ، والذين يقف وزير الدولة مايزنر رئيس ديوان الرئيس ، وولده اوسكار في طليعتهم .

وتسلل الرجلان عشية الثاني والعشرين من كانون الثاني من قصر الرئاسة ، واختطفا سيارة اجرة ، على حد تعبير مايزنر ، ليتجنبا ان يراهما انسان ، ومضيا فيها الى منزل يقع في الضواحي يقطنه نازي لم يكن قد برز الى المقدمة بعد ، يدعى يواكيم فون روبنتروب ، صديق بابن ، إذ كانا قد عملا معاً ابان الحرب الكونية الأولى في الجبهة التركية . وهناك اجتمع الرجلان الى بابن وهتلر وغورنغ وفريك. ويقول مايزنر ان اوسكار فون هندنبرغ كان معارضاً حتى هذه اللحظة في عقد أية صفقة مع النازيين . وكان هتلر يعرف هذه الحقيقة لكنه اصرّ على أي حال على ان يتحدث اليه حديثاً خاصاً . وقد دهش مايزنر من موافقة هندنبرغ الصغير على ذلك ، اذ انسحب مع هتلر الى غرفة مجاورة اغلقا بابها عليهما ، وظلا على انفراد نحواً من ساعة . ولم يستطع انسان ان يعرف حتى اليوم ما قاله هتلر لنجل الرئيس الذي لم يكن معروفاً بذكائه اللمّاح او شخصيته القوية . وكان من المعتقد في الأوساط النازية بصورة عامة ان هتلر قدم عروضه مشفوعة بالتهديد في هذه المقابلة ، إذ ألمح بصورة غير مباشرة الى التهديد باذاعة علاقة اوسكار بفضيحة قروض « الاغاثة الشرقية » والطريقة التي تخلّص فيها من دفع الضرائب عن اقطاعية هندنبرغ في بروسيا . وفي وسع المرء ان يعرف العروض التي قدمها هتلر اليه من الحقيقة الواقعة وهي أن خمسة لاف فدان معفاة من الضرائب قد أضيفت بعد بضعة اشهر الى اقطاعية اسرة هندنبرغ في نوديك، وان اوسكار قفز في شهر آب عام ١٩٣٤ من رتبة عقيد الى رتبة أمير لواء في الجيش .

لكن مما لا يشك فيه اثنان، ان هتلر ترك انطباعاً قوياً في نفس نجل الرئيس. ولقد ذكر مايزنر في شهادته المشفوعة باليمين فيما بعد في نورمبرغ : « وعندما كنا في سيارة الاجرة عائدين الى القصر بعد الاجتماع، ظل اوسكار فون هندنبرغ صامتاً طيلة الوقت ، وكانت الملاحظة الوحيدة التي تفوّه بها، ان ادخال النازيين

في الحكم غدا أمراً لا مناص منه . وكان الانطباع لدي ان هتلر قد افلح في إساره بسحره ».

ولم يبق أمام هتلر الا ان يسحر الوالد ايضاً . ولا ريب في ان هذه المهمة كانت أكثر صعوبة ، اذ على الرغم من عيوب المشير العجوز العقلية ، فان كبر السن لم يؤثر مطلقاً على طبيعته الصخرية . أجل كانت هذه المهمة اكثر مشقة ولكنها لم تكن مستحيلة . فلقد كان بابن ، يعمل في دأب النحل وكده ، على التأثير يومياً على عقل الرجل الشيخ وكان من السهل على المرء أن يرى ان شلايخر ، على الرغم من كل دهائه وذكائه كان يسير في طريق التعثر والسقوط . فلقد فشل في كسب النازيين الى صفه أو في تمزيقهم . ولم يكن في وسعه ان يحصل على التأييد من الوطنيين أو من حزب الوسط أو الاشتراكيين الديموقراطيين .

وهكذا مضى شلايخر لمقابلة الرئيس في الثالث والعشرين من كانون الثاني ، فاعترف له بأنه لا يستطيع ان يضمن الأغلبية في الرايشستاغ وطالب بحل المجلس ومنحه صلاحيات الطوارىء ليحكم البلاد بموجب المراسيم وفقاً للمادة الثامنة والاربعين من الدستور . ويقول مايزنر ان الفريق قد طلب « تعليق البرلمان مؤقتاً » واعترف بصراحة انه يتحتم عليه ان يحوّل حكومته الى « ديكتاتورية عسكرية » [1] . وعلى الرغم من كل مؤامراته الشيطانية فقد عاد شلايخر الى الوضع الذي كان فيه فون بابن في مستهل كانون الأول ، مع ان وضعيهما قد انعكسا الآن فقد طلب فون بابن آنذاك سلطات الطوارىء لنفسه وقد عارضه شلايخر ، مقترحاً ان يقوم هو بتأليف الحكومة التي تستند على الاغلبية بتأييد من النازيين . أما الآن فكان الفريق يصر على الحكم الديكتاتوري المطلق ، وكان الثعلب الماكر بابن يؤكد للمشير الرئيس ، ان في استطاعته ان يشرك هتلر معه في حكومة تستطيع الحصول على غالبية في الرايشستاغ . وهكذا تكون حظوظ الأوغاد والدساسين في صعود وهبوط !

---

١ ـ شهادة مايزنر ـ المؤامرة النازية والعدوان ـ ص ٥١١ .

وذكر هندنبرغ شلايخر بالأسباب التي كان قد قدمها في الثاني من كانون الأول ، لقب حكومة بابن وتنحيتها ، مضيفاً ان هذه الاسباب ما زالت قائمة حتى اليوم . وأمره بأن يعاود البحث عن غالبية برلمانية . وهكذا انتهى أمر شلايخر وأدرك هو بدوره هـــذه الحقيقة ، كما ادركها كل من كان على اطلاع بأسرار المؤامرات التي تحاك وراء الستار . وعلّق غوبلز وهو احد القلائل الذين كانوا يعرفون الحقيقة قائلاً : « سيسقط شلايخر في أية لحظة . أجل سيسقط الرجل الذي اسقط الكثيرين من قبل » .

وجاءت نهايته اخيراً وبصورة رسمية في الثامن والعشرين من كانون الثاني ، عندما قام بمقابلة الرئيس ليرفع اليه استقالته . وقـــال هندنبرغ للفريق الذي تحطمت آماله : « ها انني اضع احدى قدمي في القبر ، ولست واثقاً من انني لن اندم على هذا العمل في السماء فيما بعد » . ورد شلايخر وهو يختفي من التاريخ الألماني : « بعد هذا النكث بالعهد ، لا ادري يا سيدي ، اذا كنت واثقاً من انك ستمضي الى السماء » [1] .

وعهد الرئيس الى بابن عند الظهر ، للبحث عن امكانيات تأليف حكومـــة يرئسها هتلر ، « ضمن الاطار الدستوري » . وظل هذا الرجـــل الطموح الماكر اكثر من اسبوع يراود نفسه بفكرة مخادعة هتلر ، ليغدو هو مستشاراً من جديد في حكومة رئاسية يسندها هو غنبرغ . ودوّن غوبلز في السابع والعشرين من تشرين الثاني في يومياته يقول : « ما زال ثمـــة احتمال في ان يغدو فون بابن مستشاراً » . وكان شلايخر قد بعث الى الرئيس في اليوم السابق بقائد الجيش الفريق فون هامر شتاين يحذره من اختيار فون بابن وفي متاهات هذه الدسائس التي كانت تعم برلين آنذاك ، كان شلايخر حتى اللحظة الاخيرة ينفخ في هتلر ليخلفه في المستشارية ، ولكن هندنبرغ اكد لقائد الجيش انه لا يعتزم اختيار « ذلك العريف النمسوي ! » .

---

١ – مذكرة هامر شتاين – ويلر – بنيت ، الهة النقمة .. ص ٢٨٠ .

وتميّز اليوم التالي اي التاسع والعشرون من كانون الثاني بالحراجة .فقد لعب المتآمرون آخر ما بأيديهم من اوراق يائسة ، وملأوا العاصمة بجو مشحون من الشائعات المفزعة والمتضاربة ، مع العلم ان هذه الشائعات لم تكن كلها من النوع الذي لا أساس له . وأوفد شلايخر صديقه المخلص هامر شتاين مرة أخرى ، لتدبير الأمر . وراح قائد الجيش يقابل هتلر ليحذره من أن فون بابن قد يتخلى عنه مرة أخرى وأن من الخير للزعيم النازي ان يتحالف مع الجيش ومع المستشار الذي هوى . ولكن هتلر لم يكن كبير الاهتمام بما سمعه . فقد عاد الى فندقه (كايزرهوف) ليتناول القهوة والكعك مع مساعديه . وفي اثناء هذه الجلسة جاء غورنغ يحمل الانباء بأن هتلر سيغدو مستشاراً في الغد .

واحتفل زعماء النازي تلك الليلة بهذه الاخبار الطيبة والرائعة في منزل غوبلز في «الرايخ كانزلربلاتز» ، عندما جاءهم رسول آخر من شلايخر يحمل انباء تبعث على الذهول. وكان هذا الرسول هو ويرنر فون القنسليبن ، الرجل الشغوف بالمؤامرات الى الحد الذي يدفعه الى اختراعها في حالة عدم وجودها . وقد ابلغ هذا الرسول ، المحتفلين بأن شلايخر وهامرشتاين قد استنفرا حامية بوتسدام وأخذا يعدان العدة لحمل الرئيس العجوز وإلقائه في اقطاعيته في نوديك ، ليقيما ديكتاتورية عسكرية . وكانت هذه الانباء بالطبع مبالغة ضخمة ، ومن المحتمل ان يكون القائدان قد فكرا بمثل هذا العمل ولكنهما لم يقوما حتماً بأية خطوة في طريق تنفيذه . لكن النازيين على أي حال اصيبوا بالفزع من الاخبار . وسارع غورنغ بكل ما تمكنه بدانته من الركض يعبر الميدان الى الرئيس وبابن لتحذيرهما . أما ما فعله هتلر ، فقد وصفه هو بنفسه فيما بعد اذ قال :

« كان اول رد فعل قمت به لإحباط هذا الانقلاب العسكري الذي وضعت خطته ان ابعث في طلب الكونت فون هيلدورف قائد جيش العاصفة في برلين، ليستنفر جميع قواته فوراً. وأصدرت امري في نفس الوقت الى الرائد ريك من رجال الشرطة وهو ممّن اعرفهم وأثق بهم، اطلب اليه أن يستعد لاحتلال الوهملشتراسه

بستة افواج من الشرطة... واخيراً اصدرت امري الى الفريق فون بلومبرغ (الذي اختير وزيراً منتخباً للجيش) ، ليمضي فـوراً ، عند وصوله الى برلين في الساعة الثامنة من مساء الثلاثين من كانون الثاني ، الى الرئيس العجوز ، ليقسم اليمين امامه ، وليغدو في وضع كقائد أعلى للجيش يمكنه من اخماد أية محاولة محتملة للقيام بانقلاب عسكري »[1].

ولكن استدعاء الفريق ويرنر بلومبرغ ، وراء ظهر شلايخر والقائـد العام للجيش -- اذ كان كل شيء يتم في المانيا في هذه الفترة وراء ظهر الآخرين — لم يكن من جانب هتلر الذي لم يكن قد وصل الى الحكم بعد ، بل من جانب هندنبرغ وبابن الذي كان آنذاك في جنيف يمثل المانيـا في مؤتمر نزع السلاح ، ليصبح وزيراً للدفاع في حكومة هتلر — فون بابن . ويقول هتلر ان هذا الرجل كان يتمتع بثقته ، وكان قد غدا اسيرسحر رئيس اركان حربه في بروسيا الشرقية العقيد وولتر فون ريخناو ، المؤيد الصادق للنازية . وعندما وصل فون بلومبرغ الى برلين ، في صباح الثلاثين من كانون الثاني ، قابله في المحطة ضابطان ، يحمل كل منهما اوامر مناقضة لما يحمله الآخر . فقد جـــاء الرائد فون كونتزين مرافق هامرشتاين يأمره بأن يمضي توا ً لمقابلةالقائد الأعلىللجيش ، كما جاء الرائد اوسكار فون هندنبرغ ، مرافق والده الرئيس ، يأمره بالمضي فوراً لمقابلة رئيس الجمهورية. وحار الفريق القادم في امره ، ولكنه ذهب الى الرئيس ، فأقسم اليمين فوراً كوزير للدفاع . وهكذا اصبحت له السلطة الكافية لا للقضاء على أيـة محاولة انقلابية فحسب بل وللعمل على ضمان تأييد الجيش للحكومة الجديدة التي سيعلن عن تشكيلها بعد بضع ساعات . ولقد أحسن هتلر دائماً بالاعتراف بجميل الجيش الذي وافق على قبوله في تلك اللحظة الحاسمة والحرجة . ولم يمض طويل وقت ، حتى كان هتلر يقول في مهرجان حزبي : « لو لم يقف الجيش الى جانبنا في تلك

---

١ — محادثات هتلر السرية . ص ٤٠٤ .

الايام من ثورتنا ، لمـــا تمكنا من الوقوف هنا اليوم » . ولا ريب في ان هذه الجريرة اثقلت ضمائر فيلق الضباط فيما بعد ، وندموا عليهـــا في النهاية بعد فوات الاوان .

وفي ذلك الصباح الممطر في الثلاثين من كانون الثاني عـام ١٩٣٣ ، وصلت مأساة جمهورية ويمار ، التي مثلت المحاولة الغبيّة التي قام بها الالمان طيلة اربعة عشر عاماً لضمان سير الديموقراطية في بلادهم ، الى خاتمتها ، ولكن بعدان وقعت في اللحظة الاخيرة ، وقبل انسدال الستار الختامي ، مسرحية صغيرة بـــين المتآمرين المتنافري الألوان الذين احتشدوا ليهيلوا التراب على جثمان العهـــد الجمهوري . وقد وصف بابن هذه المسرحية بقوله :

« اجتمع اعضاء الوزارة المقترحة في منزلي في نحو الساعة العاشرة والنصف ثم مضوا يجتازون الحديقة الى القصر الجمهوري حيث كنا في انتظارهم في مكتب مايزنر وقد عاد هتلر يكرر تذمره من انه لم يعين مفوّضاً لبروسيا . وأحسن بأن هذا التجاهل يحدد كثيراً من صلاحياته . وقلت له .. ان في وسعنا تأجيـل تعيينه في المنصب البروسي الى وقت آخر . فرد هتلر قائلاً : انــه في حالة بقاء هذه القيود على صلاحياته ، فسيلحف بوجوب اجراء انتخابات جديدة للرايشستاغ . وقد خلقت هذه الأقوال وضعاً جديداً ، وسرعان ما حمي وطيس النقـــاش . واعترض هوغنبرغ بصورة خاصة على الفكرة ، فهدأ هتلر من روعه قائلاً انـــه لن يحدث أي تبدل في الوزارة مهما كانت نتائج الانتخابات .. وكانت الساعة قد تجاوزت الآن الحادية عشرة بكثير ، وهو الموعد الذي حدد لمقابلتنا للرئيس ، وطلب اليّ مايزنر ان انهي النقـــاش ، اذ ان الرئيس لم يكن على استعداد للانتظار فترة اطول .

« وهكذا وقـــع هذا الاصطدام في الرأي بصورة مباغتة ، فخشيت ان تتحطم حكومتنا الائتلافية قبل ان تولد .. واخيراً

مضينا الى حضرة الرئيس وقمت بواجب التعريف الرسمي . وألقى هندنبرغ خطاباً قصيراً ، أكد فيه ضرورة التعاون المطلق حرصاً على مصلحة البلاد ، ثم اقسمنا اليمين الدستورية . وهكذا تألفت حكومة هتلر »[1].

وبهذه الطريقة وحدها ، وعن طريق الابواب الخلفية وبواسطة صفقة سياسية دنيئة ، عقدها مع رجعيي المدرسة القديمة الذين كان يزدريهم في قرارة نفسه ، غدا الافاق السابق في فيينا ، والانسان الذي خلفته الحرب الأولى منبوذاً شريراً ، والثوري العنيف مستشاراً لدولة عظيمة .

وكان الاشتراكيون الوطنيون أقلية واضحة في الحكومة الجديدة ، اذ نالوا ثلاثة مقاعد فقط من مجموع احدى عشرة حقيبة وزارية ، واذا ما استثنينا منصب المستشار فإن الوزارات التي اعطيت لهم لم تكن مهمة مطلقاً . فلقد عهد الى فريك بوزارة الداخلية ، دون أن يكون له أي اشراف على الشرطة كما هي الحالة بالنسبة لوزراء الداخلية في معظم الدول الاوروبية ، وذلك لأن الشرطة في المانيا كانت في ايدي حكومات الولايات المختلفة . وكان غورنغ هو العضو الآخر في الوزارة ولكن بدون أية وزارة ، مع الافتراض بأنه سيصبح وزيراً للطيران عندما يصبح لألمانيا قوة جوية . ولم يلحظ احد آنذاك ، ان غورنغ قد عين وزيراً لداخلية بروسيا ومسيطراً على شرطتها ، اذ ان الاهتمام تركز في تلك الآونة على حكومة الرايخ. ولم يظهر اسم غوبلز في قائمة الوزراء ، مما اثار دهشة الجميع ، فقد ترك مؤقتاً في العراء .

وقد عهد بالوزارات المهمة الى المحافظين الذين كانوا على ثقة من انهم قد اوقعوا النازيين في حبائلهم تنفيذاً لأغراضهم . فقد واصل فون نوراث العمل كوزير للخارجية ، وتولى فون بلومبرغ وزارة الدفاع وهوغنبرغ وزارتي الاقتصاد والزراعة مجتمعين ، كما تولى سيلدت ، قائد « الستاهيلم » وزارة العمل . اما

---

١ – بابن – مذكرات . ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

الوزارات الاخرى ، فقد عهد بها الى « الفنيين » غير الحزبيين الذين كان فون بابن قد اختارهم قبل ثمانية اشهر . وتولى فون بابن هذا منصب نائب المستشار ورئيس وزراء بروسيا ، وكان هندنبرغ قد وعده بأن لا يجتمع بالمستشار إلا بحضوره. وكان واثقاً من ان هذا الوضع الغريب سيمكنه من ان يكبح جماح الزعيم النازي المتطرف . والأهم من هذا ان هذه الحكومة كانت مخلوقة فون بابن ووليدة افكاره ، وكان واثقاً من انه عن طريق العون الذي يلقـاه من الرئيس القوي العجوز ، الذي يعتبره صديقه وحاميه والمعجب به ، وعن طريق تأييد زملائه المحافظين الذين كانوا يفوقون في عددهم زملاءهم الصخّابين من النازيين بنسبة ثمانية الى ثلاثة ، سيغدو هو المسيطر الفعلي على الحكومة .

ولكن هذا السياسي المتآمر الاحمق ، لم يكن يعرف هتلر ، اذ لم يكن احد يعرفه حقاً ، ولم يستطع تقدير قوة العوامل التي دفعته الى المقدمة ، ولم يستطع بابن أو سواه ، باستثناء هتلر نفسه ، ان يدرك الضعف الذي لا يوصف والذي كاد يبلغ حد الشلل الآن ، والذي لحـق بالمنظمات القائمة كالجيش والكنائس والنقابات والاحزاب السياسية ، أو بالطبقات الوسطى الضخمة التي لا تميل الى النازية أو بالطبقة العاملة المنظمة تنظيماً حسناً ، اذ ان جميع هـذه القوى كما لاحظ فون بابن بأسى فيما بعد ، كانت على استعداد « للتسليم بلا قتال » .

وليس في وسع اية طبقة او جماعة او هيئة حزبية في المانيا ان تبرىء نفسها من اسهامها في المسؤولية في تخليها عن الجمهورية الديموقراطية وسماحهـا لأدولف هتلر بالتقدم والظهور . ولا ريب في ان الخطيئة الكبرى للألمـان الذين كانوا يعارضون النازية ، تقوم في فشلهم في الاتحاد ضدها . ولم يكن النازيون قـد احرزوا في ذروة قوتهم الشعبية في انتخابات تموز عام ١٩٣٢ ، اكثر من (٢٧) في المائة من مجموع الاصوات . ولكن الثلاثة والستين في المائة من الشعب الألمـاني الذين اعربوا عن معارضتهم لهتلر ، كانوا مجزئين تجزئـة ، وكانوا قصيري النظر الى الحد الذي حملهم على عدم توحيد قواهم ضد خطر مشترك ، كانوا ولا بد يعرفون انه سيطغى عليهم اذا لم يتحدوا حتى ولو مؤقتـاً ، لدرئه . وكان

الشيوعيون بايعاز من موسكو ، قد ركّزوا جهودهم كلها على الفكرة السخيفة القائلة بوجوب تحطيم الاشتراكيين الديموقراطيين اولاً ، وتحطيم النقابات الاشتراكية وأية قوى ديموقراطية للطبقة الوسطى ايضاً ، على اساس النظرية الغامضة القائلة بأنه على الرغم من ان هذا الموقف قد يؤدي الى قيام عهد نازي ، الا ان هذا العهد سيكون مؤقتاً وسيؤدي في النهاية الى زوال الرأسمالية ، مما يمكن الشيوعيين اخيراً من الاستيلاء على الحكم واقامة ديكتاتورية الطبقة العاملة . فالفاشية تمثل في رأي الماركسية البلشفية ، آخر مرحلة في الرأسمالية المحتضرة ، يعقبها الطوفان الشيوعي .

وقد اسهمت الاربع عشرة سنة الماضية من الاشتراك في السلطان السياسي في الجمهورية ، ومن قبول جميع التساهلات اللازمة للحفاظ على الحكومات الائتلافية في إضعاف قوة الاشتراكيين الديموقرطيين وحماسهم ، الى ان تحول حزبهم الى مجرد منظمة للضغط الانتهازي ، تعمل على المساومة في الحصول على ما تنشده من امتيازات للنقابات التي يستند اليها الحزب حقاً في قوته . وقد يكون من الصحيح القول بأن الحظ لم يبتسم للديموقراطيين الاشتراكيين كما ذكر عدد من قادتهم ، وان الشيوعيين بما عرف عنهم من تذبذب وبعد عن الديموقراطية ، قد جزّءوا الطبقة العاملة ، وأن الأزمة الاقتصادية قد اضرّت بالاشتراكيين الديموقراطيين اذ اضعفت نقاباتهم وحرمتهم من تأييد الملايين من العمال العاطلين الذين تحولوا في غمرة يأسهم إما الى الشيوعية او الى النازية . ولكن لا يمكن لمأساة الاشتراكيين الوطنيين ان تفسّر بمجرد القول بسوء الطالع. فلقد اتاح لهم الحظ ان يسيطروا على المانيا في تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، وأن يقيموا دولة على الاسس التي طالما بشروا بها ، وهي اسس الاشتراكية الديموقراطية ، ولكنهم كانوا يفتقرون الى الحزم اللازم للقيام بمثل هذا العمل . أما الآن وفي مطلع الحقبة الثالثة من القرن فقد غدوا حزباً انهزامياً منهوكاً ، يسيطر عليه رجال عجّز ، سليمو الطوية ، هم وسط في ذكائهم ومقدرتهم . ولقد ظل الاشتراكيون الديموقراطيون على ولائهم للجمهورية حتى النهاية ،

ولكنهم غدوا في النهاية مشوّشين خوّارين لا يستطيعون المجازفة أو المغامرة ، مع العلم ان مثل هذه المجازفة هي التي كان في وسعها وحدها ان تحفظ الجمهورية وهذا ما ظهر جلياً عندما جبنوا عن العمل ، في اللحظة التي بعث فيها فون بابن بفصيلة من الجند للقضاء على الحكومة الدستورية في بروسيا .

وكانت المانيا تفتقر في تأرجحها بين اليسار واليمين الى طبقة وسطى قوية سياسياً ، برهنت في البلاد الاخرى كفرنسا او انكلترا أو الولايات المتحدة ، على انها العمود الفقري للديموقراطية . ففي السنوات الاولى من حياة الجمهورية ، كان عدد الناخبين الذين اقترعوا الى جانب احزاب الطبقة الوسطى كالديموقراطي وحزب الشعب وحزب الوسط ، نحواً من اثني عشر مليوناً أي اقـــل من المقترعين الى جانب الفئتين الاشتراكيتين بمليوني صوت ولكن قوتهم اخذت تضعف فيما بعد ، عندما شرع مؤيدوهم ينقلبون الى ناحية هتلر والوطنيين . فلقد كان للديموقراطيين (٧٤) مقعداً في برلمان عام ١٩١٩ ، ولم يبق لهم الا مقعدان في برلمان عام ١٩٣٢ . وكان حزب الوسط الكاثوليكي هو الوحيد الذي احتفظ بقوته الاقتراعية حتى النهاية . فلقد كان له في اول انتخابات جمهورية للرايشستاغ في عام ١٩١٩ (٧١) نائباً ، وكان له في انتخابات عام ١٩٣٢ سبعون . ولكن المعروف عن حزب الوسط هذا منذ ايام بسمارك ، انه يفوق حتى الاشتراكيين الديموقراطيين في انتهازيته ، اذ يؤيد كل حكومة تقدم امتيـــازات لمصالحه الخاصة . وعلى الرغم من انه بدا موالياً للجمهورية وعلى استعداد للاسهام في النظام الديموقراطي ، إلا ان زعماءه ، كما رأينا من قبل ، كانوا يتفاوضون مع النازيين للوصول بهتلر الى المستشارية ، قبل ان يتغلب عليهم فون بابن والوطنيون في سباق المساومة مع النازية .

واذا كانت الجمهورية الألمانية قد افتقرت الى طبقة سياسية متوسطة ومعتدلة ، فإنها قد افتقرت كذلك الى الاستقرار الذي يؤمنه في كثير من البلاد الاخرى حزب محافظ حقيقي . ولقد اقترع الى جانب الوطنيين الألمان في قمة مجدهم في عام ١٩٢٤ ، نحو من ستة ملايين ناخب ، أمنوا لهم (١٠٣) مقاعد في الرايشستاغ ، وجعلوا منهم الحزب الثاني فيه . ولكنهم في هذه الآونة كما في أي وقت آخر في

حياة جمهورية ويمار، رفضوا ان يقفوا موقف المسؤولية سواء في الحكم او في المعارضة، باستثناء حالتين اشتركوا فيهما في حكومتين قصيرتي العمر من حقبة العشرين. وكان ما ينشده رجال اليمين الالماني الممثل في حزب الوطنيين، انهاء الجمهورية والعودة الى المانيا الامبراطورية التي تعود لهم في ظلها جميع امتيازاتهم القديمة. ولقد عاملت الجمهورية، رجال اليمين بالفعل، سواء كأفراد أو كطبقة، معاملة كريمة، ناظرة الى هدفهم بكثير من التسامح. فلقد سمحت كما رأينا، للجيش بالحفاظ على قوته كدولة داخل دولة، وسمحت لرجال الأعمال واصحاب المصارف بجني الارباح الطائلة، والنبلاء بالاحتفاظ باقطاعياتهم في وضعها غير الاقتصادي عن طريق الضرائب الحكومية التي لم تسدد اطلاقاً، والتي لم تستخدم الا نادراً في اصلاح هذه الاقطاعيات. ومع ذلك فان هذه المعاملة الكريمة لم تستطع ان تكسب ولاء اليمين للجمهورية او اعترافه بجميلها. فلقد ظل رجال اليمين يضربون بمعاولهم في أسس الجمهورية بغباء وعمى، وحزازات، لا يستطيع مؤلف هذا الكتاب الآن فهمها، الى ان تمكنوا اخيراً بتحالفهم مع هتلر من اسقاطها.

ولقد خيل للطبقات المحافظة انها وجدت في الأفاق النمسوي السابق الرجل الذي يستطيعون عن طريق ابقائه في اسارهم، تنفيذ ما يتطلعون اليه من اهداف وغايات. وكان تحطيم الجمهورية هو المرحلة الاولى في طريق التنفيذ. وكان كل ما يريدونه حكومة سلطوية في المانيا تستطيع ان تضع نهاية في الداخل لهذه «السخافات» الديموقراطية وحداً لسلطان النقابات المهنية، وتتمكن في الشؤون الخارجية من ان تحطم وثيقة عام ١٩١٨، وتمزق قيود فرساي، وتعيد بناء جيش عظيم تستعيد عن طريق قوته العسكرية امجاد البلاد بعد ان تعود بها الى مكانها اللائق تحت الشمس. ولقد كانت هذه هي عين اهداف هتلر. وعلى الرغم من انه تمكن من الحصول على ما كان المحافظون يفتقرون اليه، وهو التأييد الجماهيري، الا ان اليمين كان على ثقة من انه سيظل في جيبهم، اذ أو لم يتمكنوا من اعطائه مركزاً ضعيفاً في حكومة الرايخ لا يعدو نسبة الثلاثة الى الثمانية من

جماعتهم ؟ وخيل للمحافظين ان مثل هذا الموقف المسيطر سيسمح لهم بتحقيق اهدافهم دون بربرية النازية غير المهذبة . ويجب ان يعترف بأنهم كانوا وفق مفاهيمهم ، اناساً طيبين يخافون الله .

ولقد بنيت امبراطورية الهوهنزلرن على اكتاف الانتصارات العسكرية التي حققتها بروسيا ، بينما بنيت الجمهورية الألمانية على اساس الهزيمة التي ألحقها الحلفاء بألمانيا في حرب عظمى . ولكن الرايخ الثالث ليس مديناً بشيء لطوالع الحرب او تأثيرات النفوذ الاجنبي . لقد تمّ انشاؤه في زمن السلم وبطريقة سلميـــة على أيدي الالمان انفسهم ، وبحافز من مصادر ضعفهم وقوتهم . ولقد فرض الألمان على انفسهم طغيان النازية بأيديهم . ولعل الكثيرين منهم ، أو غالبيتهم لم يدركوا هذه الحقيقة تماماً ، عندما عهد الرئيس هندنبرغ ظهر ذلك اليوم ، الثلاثين من كانون الثـــاني عام ١٩٣٣ ، وبصورة دستورية صحيحة بمستشارية الرايخ الى ادولف هتلر .

ولكن قدر لهم ان يدركوها ، في اسرع مما كانوا يظنون .

٧

تحوّل المانيا الى النازية
١٩٣٣-١٩٣٤

نجحت النظرية التي توصل اليها هتلر في ايام تشرده في فيينا والتي لم ينسها قط ، والتي تقول بأن الطريقة التي تصل بالثورة الى السلطان ، تقوم في التحالف مع بعض منظمات الدولة القوية ، نجاحاً عملياً الآن على النحو الذي خطط له . فلقد جعل منه الرئيس - يؤيده في ذلك الجيش والمحافظون - مستشاراً لألمانيا . لكن سلطانه السياسي على الرغم من عظمته لم يصل بعد الى مرتبة الكمال ، فقد اقتسم هـــذا السلطان مع منابع السلطة الثلاثة التي أوصلته الى الحكم ، والتي ظلت خارجة عن الحركة الاشتراكية الوطنية بل وكثيرة الشكوك فيها .

وكانت مهمة هتلر الفورية الآن ، والحالة هـــذه ، ان يسارع الى تصفية شركائه الثلاثة وإبعادهم عن مقعد القيادة وأن يجعل من حزبه المسيطر الوحيد على الدولة ، ثم يبدأ مستخدماً قوة الحكومة السلطوية وشرطتها في تنفيذ ثورته النازية . ولم يكن قد مضى عليه مذ تسنّم الحكم اكثر من اربع وعشرين ساعة عندما قام بأول حركة حاسمة ، ناصباً شركاً لآسريه المحافظين السذّج ، ومطلقاً العنان لسلسلة من الاحداث التي إما أن يكون هو مولدها أو المسيطر عليها ، والتي اسفرت في نهاية اشهر ستة ، على تحول المانيا الكامل الى النازية وارتقائه الى سدة الحكم الديكتاتوري المطلق للرايخ الموحـــد والذي زالت عنه صفته

الاتحادية لأول مرة في التاريخ الالماني .

وعقد هتلر أول اجتماع لوزارته في الساعـــة الخامسة من مساء الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٣ أي بعد خمس ساعات فقط من أداء اليمين الدستورية .

وتظهر وقائع هذه الجلسة التي عرضت في محاكمات نورمبرغ مع مئات الاطنان من الوثائق السرية المصادرة ، كيف ان هتلر قد شرع بسرعة ونشاط يؤازره غورنغ الداهية في اختطاف زملائه المحافظين تمهيداً للقضاء عليهم.[1] فلقد عين هندنبرغ هتلر رئيساً لوزارة رئاسية شريطة ان ترتكز على اغلبية في الرايشستاغ ومع ذلك فقد كان النازيون والوطنيون وهما الحزبان الوحيدان الممثلان في الحكومة ، يملكون ٢٤٧ مقعداً من مجموع ٥٨٣ في البرلمان ، أي ان الحزبين لا يملكان الاغلبية المطلقة . وكانا في حاجة الى حزب الوسط الذي يمثله سبعون نائباً. وقد اوفد هتلر ، لتحقيق ما يحتاج اليه ، غورنغ في الساعات الأولى من قيام الحكومة الجديدة ، الى زعماء حزب الوسط للتحدث اليهم. فعاد الى مجلس الوزراء ليبلغه ان هذا الحزب يطلب بعض الامتيازات . واقترح غورنغ تبعاً لذلك ان يحل الرايشستاغ وان تجري انتخابات جديـــدة . ووافقه هتلر على اقتراحه . وعارض هوغنبرغ ، وهو رجل ذو عقل كالخشب على الرغم من نجاحه في أعماله ، إشراك حزب الوسط في الحكومة ، كما عارض من الناحية الاخرى

---

١ — كانت هذه الجلسة سرية بالطبع. وكغيرها من الجلسات والمؤتمرات التي عقدها هتلر مع معاونيه السياسيين والعسكريين في عهد الرايخ الثالث ، كانت مع الوقائع التي حوفظ على سريتها تمام المحافظة . ولم يعرف شيء عن وقائعها وقراراتها ، الا بعد ان حسر النقاب لأول مرة عنها في الوثائق الألمانية المصادرة والتي عرضت في محكمة نورمبرغ .

وسيظهر في هذا الكتاب منذ هذه اللحظة الكثير من هذه المناقشات السرية والقرارات الصادرة عنها ، والتي تعتبر كلها من اسرار الدولة ، لا سيما وان هذا الكتاب يرتكز في سرده للاحداث منذ هذه النقطة حتى النهاية، على الوثائق المسجلة في ذلك الوقت. وسأذكر المصادر التي استندت عليها دون حاجة الى شحن الصفحات بالارقام ، فليس ثمة من تاريخ لأي بلاد في فترة معينة من الزمن قد حظي بمثل هذه الوثائق . وقد بدا لي ان اغفال الاشارة الى هذه الوثائق قد يضعف من قيمة هذا الكتاب ، مهما كانت قيمته ، كسجل تاريخي للاحداث . (المؤامرة النازية والعدوان ص ٢٧٢ — ٢٧٥) .

في اجراء انتخابات جديدة ، مدركاً تمام الادراك ان النازيين ، وقد وضعوا جميع موارد الدولة تحت تصرفهم سيفوزون بالاغلبية المطلقة في الانتخابات وسيصبحون في وضع يمكنهم من الاستغناء عن خدماته وخدمات اصدقائه من المحافظين . واقترح عوضاً عن ذلك ، القضاء على الحزب الشيوعي ، واذا ما تم ذلك ، وتخلصت الحكومة من المائة مقعد التي يحتلها الشيوعيون في المجلس ، فان النازيين والوطنيين يصبحون في هذه الحالة حائزين على الأغلبية . ولكن هتلر ليس على استعداد للمضي الى هذا الحد في تلك اللحظة واتفق اخيراً على ان يقوم المستشار نفسه بالتشاور مع زعماء حزب الوسط في صباح اليوم التالي، فاذا لم تؤد المحادثات الى نتيجة ، فان الحكومة ستطلب آنذاك اجراء انتخابات جديدة .

وكان من السهل على هتلر ان يجعل هذه المحادثات غير مجدية . وقد قدم زعيم الوسط ، المونسنيور كآس ، بناء على طلب هتلر ، وكأساس للمحادثات ، قائمة بالمواضيع التي تضمنت طلباً بأن يعد هتلر بالحكم حكماً دستورياً . ولكن هتلر لعب بسعة حيلته على كل من كآس واعضاء وزارته ، فأبلغ هؤلاء ان الوسط قدم طلبات لا يمكن قبولها ، وانه لم يعد ثمة مجال للاتفاق . واقترح تبعاً لذلك ان يطلب الى الرئيس حل الرايشستاغ والدعوة الى اجراء انتخابات جديدة. ووقع هوغنبرغ وبابن في الفخ ، ولكنهما لم يوافقا على السير معه الا بعد ان اكد لهما تأكيدات قاطعة بأن الوزارة ستظل على حالها مهما كانت نتيجة الانتخابات. وهكذا حدد الخامس من آذار موعداً لإجراء الانتخابات الجديدة .

وكان في وسع الحزب النازي الآن وللمرة الاولى في هذه الانتخابات الاخيرة التي اتسمت بالحرية النسبية في تاريخ الجمهورية ، ان يستخدم موارد الحكومة الضخمة لكسب الاصوات . وأحس غوبلز بالفرح الغامر يسيطر عليه ، فكتب في يومياته في الثالث من شباط يقول .. « سيكون الآن من السهل ان نمضي في المعركة ، اذ ان في وسعنا تعبئة جميع موارد الدولة . فالاذاعة والصحافة تحت تصرفنا . وسنحقق مظهراً رائعاً من مظاهر الدعاية ، كما اننا لن نكون في هذه

المرة ، بالطبع ، مفتقرين الى المال » [1] .

وطلب الى رجال الأعمال الذين سروا من قيام الحكومة الجديدة التي ستضع حداً لنشاط العمال المنظمين وتلزمهم اماكنهم تاركة للادارات تسيير الاعمال على النحو الذي تشاؤه،ان يسهموا في الحملة. فلبوا هذا الطلب، وقرروا ذلك في اجتماع عقد في العشرين من شباط ، في مقر رئيس الرايشستاغ (غورنغ)الرسمي،وقام فيه الدكتور شاخت بدور المضيف ، بينما قام غورنغ وهتلر برسم المخطط لنحو عشرة من كبار ارباب العمل في المانيا وبينهم كروب فون بوهلين الذي انقلب الى نازي متحمس بين عشية وضحاها ، وبوخ ، وشنيتزلر من مؤسسة فاربين وفويفلر رئيس مجلس اتحاد الفولاذ . وقد حفظت وقائع هذا الاجتماع السري .

بدأ هتلر خطابه الطويل بترضية الى ارباب الصناعة اذ قال : « ان المشاريع الفردية ، لا يمكن الحفاظ عليها في عصر الديموقراطية الذي نعيش فيه،ولا يمكن قبولها الا اذا كان الشعب يتميز بفكرة سليمة عن السلطة والشخصية . ونحن مدينون بكل ما نملكه من سلع دنيوية الى نضال الفئة المختارة .. وعلينا ان لا ننسى انمن الواجب تقديم كل منافع الثقافة ونشرها بقبضة حديدية ». ووعد رجال الأعمال بأنه سيقضي على الماركسيين ويعيد الجيش الى مكانته (وكان هذا طعماً ذا اهمية خاصة لبعض الصناعات التي يملكها كروب واتحاد الفولاذ وفاربين والتي كان يهمهـــا استئناف التسلح) . ثم مضى يقول وهو يختم كلامه : « وها نحن نقف الآن على عتبة الانتخابات الاخيرة » ، ثم وعد سامعيه بأنه« مهما كانت النتيجة فلن يكون ثمة تراجع » . واضاف انه اذا لم يقدر له النجاح فسيظل في الحكم « بوسائل اخرى .. وبأسلحة ثانية ».وتحدث غورنغ عن النقطة الرئيسية العاجلة فأكد ضرورة « التضحيات المالية »التي« سيكون من الأسهل على الصناعة احتمالها اذا ادركت ان انتخابات الخامس من آذار ستكون حتماً الاخيرة للعشر سنوات القادمة ، ولربما للمئة سنة التالية » .

---

١ – غوبلز – كايزرهوف ، ص ٢٥٦ .

وغدا الموقف واضحاً بالنسبة الى الصناعيين المجتمعين ، وقد أستجابوا الى الدعوة بحماس وإلى الوعد بانهاء هذه الانتخابات الجهنمية ووضع حد للديموقراطية ونزع السلاح . وهب كروب ، ملك صناعة الذخائر الذي كان على ضوء ما قاله ثيسّين – قد حرض هندنبرغ في التاسع والعشرين من كانون الثاني على عـــدم اختيار هتلر مستشاراً ، على قدميـــه ، ليعرب للمستشار عن اعتراف رجال الاعمال بجميله لأنه « قدم لهم مثل هذه الصورة الواضحة » . وسرعان ما مد الدكتور شاخت قبعته ، واعترف في نورمبرغ [1] ، بأنه جمع ثلاثة ملايين مارك في ذلك الاجتماع .

***

وكتب غوبلز في الواحـــد والثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٤٣ ، اي في اليوم الذي عقب تسمية هتلر مستشاراً ، في يومياته يقول : « وضعنا في مؤتمر عقدناه مع الفوهرر ، المخطط للحرب التي سنشنها على الارهاب الاحمر . وسنمتنع في الوقت الحاضر عن القيام بأية اجراءات مضادة . ومن الواجب ان تنفجر اولاً المحاولات البلشفية للقيام بثورة . وسنضرب الضربة القاضية عندما يحين الوقت المناسب » .

وعلى الرغم من الاستفزاز المتزايد من جانب السلطات النازية ، لم تظهر ثمة أية بادرة على وجود نية عند الشيوعيين او الاشتراكيين للقيام بثورة ينفجر اوارها مع اقتراب موعد الانتخابات ، وقامت حكومة هتلر في مستهل شهر شباط ، بحظر جميـــع الاجتماعات الشيوعية ، واغلاق صحف الشيوعيين . وتعرضت المهرجانات الاشتراكية الديموقراطية اما للمنع او للفض على أيدي اجلاف جيش العاصفة ، كما تعرضت الصحف الاشتراكية البارزة للتعطيل المتواصل . ولم ينج حزب الوسط الكاثوليكي كذلك من الارهاب النازي . ولقد ضرب ذوو القمصان

---

١ – راجع شهادة جورج فون شنيتزلر المشفوعة باليمين. المؤامرة النازية والعدوان، ص ٥٠١. خطب غورنغ وهتلر ص ١٠٨٠ – مناقشة شاخت ص ٤٦٥ .

الحمراء ستيغروولد، زعيم النقابات الكاثوليكية ، عندما حاول الخطابة في حشد عام ، واضطر برونينغ الى طلب حماية الشرطة في مهرجان آخر ، بعد ان قام جنود العاصفة بجرح عدد من اتباعه . وقد قتل نحو من واحد وخمسين رجلاً من خصوم النازية ابان المعركة الانتخابية كما زعم النازيون ان ثمانية عشر شخصاً منهم قد قتلوا ايضاً .

وسرعان ما شرع الناس يلاحظون اهمية المركز الذي يحتله غورنغ كوزير لداخلية بروسيا ، فقد تجاهل سلطة فون بابن التي تستطيع وقفه عند حده بوصفه رئيساً لوزراء بروسيا ، وبالتالي رئيساً له على سبيل الفرض . وأقال مئات الموظفين الجمهوريين مستعيضاً عنهم بالنازيين ومعظمهم من رجال جيش العاصفة أو الحرس النازي . واصدر اوامره الى رجال الشرطة بأن يتجنبوا « مهما كان الثمن » ، معاداة جيش العاصفة أو الحرس النازي أو جيش متطوعي اليمين ، (ستاهيلم) ، على ان لا يظهروا في الوقت نفسه أي رحمة او شفاق تجاه اولئك « الذين يعادون الدولة » . وحث رجال الشرطة على استخدام الاسلحة النارية ، منذراً من لا يستعملها بأقسى العقوبات . وكان هذا الانذار بمثابة دعوة صريحة لهم ، لقتل كل من يظهر العداء لهتلر ، على ايدي شرطة ولاية بروسيا الذين يسيطرون على ثلثي المانيا . ولكي يتأكد من ان اوامره ستطاع ، اصدر في الثاني والعشرين من شباط أوامره، بتأليف قوة شرطة احتياطية قوامها خمسون الف رجل ، اربعون الفاً منهم من جيشي العاصفة والحرس النازي والعشرة آلاف الباقية من متطوعي اليمين . وهكذا غدت قوة الشرطة في بروسيا في ايدي اجلاف النازية، وبات من الحماقة ان ينشد الماني من مثل هذه القوة حمايته من الارهابيين النازيين .

ولكن على الرغم من هذا الارهاب كله ، فان « الثورة البلشفية » التي كان غوبلز ، وهتلر ، وغورنغ يتطلعون اليها ، لم تقع ولم « ينفجر اوارها » ، واذا لم يكن في الامكان استفزازها ، أليس في الامكان اختراعها ؟

وقامت شرطة غورنغ في الرابع والعشرين من شباط بمداهمة « بيت كارل

ليبخت » ، المقر الرئيسي للحزب الشيوعي في برلين ، وكان القادة الشيوعيون قد هجروا هذا المقر منذ عدة اسابيع ، اذ انتقل بعضهم الى العمل السري ، بينما فرّ البعض الآخر الى روسيا بهدوء. ولكن أكواماً هائلة من المنشورات الدعائية وجدت في اقبية المنزل ، وكان وجودها كافياً لتمكين غورنغ في البلاغ الرسمي الذي أصدره من القول بأن « الوثائق » المصادرة اقامت الدليل على ان الشيوعيين كانوا على وشك القيام بالثورة . وكان الشك في هذا القول ، رد الفعل الطبيعي الذي قوبل به عند الشعب وحتى عند الكثيرين من المحافظين من اعضاء الحكومة. وكان من الواضح وجوب العثور على شيء اكثر إثارة ، لبث الذعر عند النـاس قبل ان تجري الانتخابات في الخامس من آذار .

حريق الرايشستاغ

وكان اربعة من اقوى رجال المانيا يجتمعون ليلة السابـع والعشرين من شهر شباط ، في حفلتي عشاء متفرقتين في برلين . ففي نادي « الهيرينكلوب » الخاص في شارع « فوس » كان فون بابن ، نائب المستشار ، قد دعا الرئيس هندنبرغ الى العشاء . وفي بيت غوبلز ، كان المستشار هتلر ، يتناول عشاء عائلياً خاصاً. وكان المدعوون كما قال غوبلز ، مسترخين يستمعون الى بعض الاسطوانات الموسيقيـة ويتبادلون القصص . ومضى يقول ... « وفجأة ، رن جرس الهاتف ، وكان المتحدث هو الدكتور هانفستينغل ، الذي قال : « ان الرايشستاغ يحترق». انني واثق من انه يسرد قصة طويلة ، وقد رفضت ان اذكرها الى الفوهرر » (١) .

ولكن حفلة العشاء الثانية في النادي ، كانت على مقربة من الرايشستاغ بل وفي نفس الشارع .

وكتب فون بابن يقول فيما بعد : « رأينا فجأة وهجاً احمر ، وراء النوافذ ، وسمعنا اصوات صرخات في الشارع . وجاءني احد الخدم ، يهمس في اذني قائلاً :

---

١ - غوبلز - كايزرهوف . ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

« ان الرايشستاغ يحترق » . ونقلت النبأ الى الرئيس . فهب من مقعده ، ورأينـا من النافذة قبة الرايشستاغ ، وكأنها قد اضيئت بالمشاعل وكانت دفقات اللهيب ، وسحب الدخان الكثيفة ، تنفجر من المـكان »[1] .

وحمل نائب المستشار الرئيس العجوز الى قصره في سيارته وسارع الى البناء المحترق . وفي غضون ذلك ، كان غوبلز ، طبقاً لما ذكره في يومياته ، قد فكر بما قاله بوتزي هانفستينغل وأجرى عدة اتصالات هاتفية ، وتأكد من ان الرايشستاغ يحترق . ولم تمض بضع ثوان حتى كان هو والفوهرر ، يسارعان في السيارة بمعدل ستين ميلاً في الساعة ، عبر شارع « شارلوتينبرغر » الى مكان الجريمة .

وأعلن النازيون في الحال ، وفور وصول الزعيم الى المكان ، بأنها جريمـة شيوعية . وكان غورنغ الذي وصل الى المكان قبل الجميع يتصبب عرقاً ، وقد سيطر عليه الحماس ، يعلن الى السماء ، كما رأى فون بابن فيما بعد ، انها « جريمة شيوعية تستهدف التخريب ضد الحكومة الجديدة » . وصرخ غورنغ موجهاً حديثه الى رودلف دايلز ، رئيس الغستابو الجديد ، « هذه بداية الثورة الشيوعية ! علينا ان لا ننتظر لحظة واحدة . لن نظهر ادنى رحمـة او اشفاق . يجب ان نقتل كل موظف شيوعي حيثما وجد . ويجب ان نشنق كل نائب شيوعي هذا المساء »[2] .

ومن المحتمل ان لا تعرف قط الحقيقة الكاملة في موضوع حريق الرايشستاغ فجميع الذين عرفوها تقريباً ، أصبحوا الآن في عداد الاموات ، وقد ذبحهم هتلر في الاشهر التالية . ولم يكن في الامكان حتى في نورمبرغ نفسها الكشف عن الحقيقة كلية ، مع العلم ان ثمة ادلة كافية ومعقولة ، تثبت ان النازيـين هم الذين اضعوا خطة « الحرق العمد » ونفذوها لتحقيق اهدافهم السياسية .

فلقد كان هناك ممر ارضي بين بنـاء الرايشستاغ وبين مقر رئيسه الرسمي غورنغ ، تمر فيه انابيب اجهزة التدفئة المركزية . وكان كارل ارنست ، النذل

---

١ - بابن - مذكرات - ص ٢٦٨

٢ - رودلف دايلز - الشيطان ضد القديس ، ص ١٩٤

السابق في احد الفنادق، والذي غدا الآن قائد جيش العاصفة في برلين، قد قاد فئة صغيرة من جنوده عبر النفق، ليلة السابع والعشرين من شباط الى الرايشستاغ، حيث صبوا الغازولين (الكاز) على المقاعد ممزوجة مع بعض المواد الكيمائيـة التي تحترق ذاتياً ، ثم عادوا بسرعة الى قصر رئيس المجلس من حيث أتوا . وفي نفس الوقت كان شيوعي هولندي نصف مجنون، يستهويه الاحراق، هو مارينوس فان ديرلوبّه ، قد شق طريقه الى البناء الضخم المعتم، الذي يجهل ممراته، وأشعل فيه بعض النيران. وكان هذا الجبنار (اسم يطلق على المصاب بمرض حب الحرق) المجنون بمثابة عطية من السماء جاءت الى النازيين . وكان رجـال جيش العاصفة قد التقطوه قبل ايام بعد ان سمعوه وهو يقول في احدى الحانات متبجحاً بأنـه حاول احراق عدد من الابنية العامة، وانه سيحاول اشعال النار في الرايشستاغ في المرة القادمة .

ولا ريب في ان هذا التوافق الغريب الذي مكن النازيين من العثور على هذا الجبنار المهووس ، الذي كان ينوي ان يفعل تماماً مـا اعتزموا عمله ، قد يبدو شيئاً لا يمكن تصديقه، ولكن الادلة تقوم على صحته . وقد تولدت فكرة الحريق عند غوبلز وغورنغ ولا شك. وشهد هانز غيزيفيوس ، وكان موظفاً في وزارة الداخلية البروسية في ذلك الحين، في محكمة نورمبرغ ان غوبلز كان اول من فكر باشعال النار في الرايشستاغ ، واضاف رودلف دايلز، رئيس الغستابو في شهادته المشفوعة باليمين ، «ان غورنغ كان يعرف تماماً الطريقة التي سيبدأ فيها اشعال النار» وانه امره « بأن يعد ، قبل الحريق ، قائمة باسماء الناس الذين سيعتقلون فورنشوب الحريق » . وتذكر الفريق فرانز هولدر ، رئيس اركان حرب الجيش الالماني في مستهل الحرب الكونية الثانية، امام محكمة نورمبرغ كيف ان غورنغ تبجح ذات يوم بما فعله :

«وفي حفلة غداء اقيمت بمناسبة عيد ميلاد الفوهرر عام ١٩٤٢، انتقل الحديث الى موضوع دار الرايشستاغ وقيمتها الفنية . وسمعت بأذني غورنغ يقطع الحديث ويقول بصوت عال : « انا الوحيد الذي

يعرف شيئاً عن الرايشستاغ لأنني انا الذي اشعلت النـار فيه. وبعد ان فاه بهذه العبارة، ربت على فخذه براحة يده » . [1]

ويبدو من الواضح ان فان دير لوبّه كان الستار الذي استخدمه النازيون . فلقد شجعوه على محاولة احراق الرايشستاغ . لكن العمـل الرئيسي، كان من صنع جنود جيش العاصفة بدون علم الرجل . ولقد قام الدليل في المحاكمة التي جرت في لايبزيغ على ان المهووس الهولندي، لم يكن يملك الوسائل الكافية لإشعال النار في مثل هذا البناء الضخم بمثل هذه السرعة، اذ لم تمض دقيقتان ونصف الدقيقة على دخوله حتى كانت النار تلتهم القاعة المركزية الكبرى . ولم يكن يملك الا قميصه كوقود لإشعال النار . وقال الشهود من الخبراء في المحاكمة ان الحرائق الرئيسية قد اشعلت باستخدام كميات كبيرة من المواد الكيمائيـة و « الكاز » . وكان من الواضح، ان رجلاً واحداً لا يستطيع حمل كل هـذه المواد وادخالها الى البناء، كما لم يكن في وسعه ان يشعل مثل هذا العدد الكبير من الحرائق في عدة اماكن متباعدة وفي وقت قصير .

وقد اعتقل فان دير لوبّه على الفور واراد غورنغ كما ذكر فيما بعد للمحكمة، شنقه فوراً. وقام ايرنست تورغلر، زعيم الكتلة البرلمانية الشيوعية، بتسليم نفسه الى الشرطة في اليوم التالي، عندما سمع ان غورنغ يتهمه بالاشتراك في الجريمة، كما اعتقل بعد بضعة ايام جورجي ديمتروف، الشيوعي البلغاري الذي غدا فيمابعد رئيساً لوزراء بلغاريا، ومعه اثنان آخران من الشيوعيين البلغاريين هما بوبوف وتانيف. وتحولت محاكمة هؤلاء جميعاً امام المحكمة العليا في لايبزيـغ الى مسرحية هزلية بالنسبة الى النازيين والى غورنغ بصورة خاصة، اذ ان ديمتروف، وكان يدافع كمحام عن نفسه، استفزّه بسهولة في اثناء المناقشة باشاراته اللاذعة وجعل منه سخرية النظارة . وجاء في سجلات المحكمة ان غورنغ فقد اعصابه فصرخ بالبلغاري ... « اذهب الى الجحيم ايها الوغد » .

---

١ ـ انكر غورنغ عنداستجوابه وابان محاكمته في نورمبرغ حتى اللحظة الاخيرة، ان لهدورا في حريق الرايشستاغ .

القاضي (الى ضابط الشرطة) : اخرجه .

ديمتروف (وهو يخرج مع الشرطة) : هـــل تخاف اسئلتي يا حضرة الوزير الرئيس ؟

غورنغ : انتظر حتى نخرجك من هذه المحكمة ايها الوغد .

وقد برأت المحكمة ساحة تورغلر والبلغاريين الثلاثة ، لكن السلطات أمرت فوراً باعتقال الزعيم الشيوعي الألماني بموجب قانون منع الجرائم ، حيث ظـــل رهين السجن حتى وفاته ابان الحرب الكونية الثانية . أما فان دير لوبـّـه ، فقد ادين وحكم عليه بالاعدام الذي نفذ فيه [١] .

وقد ألقت المحاكمة ، على الرغم من استكانة اعضاء المحكمة للسلطات النازية، الكثير من الشكوك على غورنغ والنازيين ،ولكن هذه الشكوك جاءت متأخرة للغاية بحيث لم تـــترك اثراً عملياً ، وذلك لأن هتلر لم يضع الوقت بل سارع الى استغلال حريق الرايشستاغ الى أقصى الحدود .

وتمكن في اليوم الذي تلا الحريق ، أي في الثامن والعشرين من شباط ، من حمل الرئيس هندنبرغ على توقيع مرسوم « من أجـــل حماية الشعب والدولة »، يقضي بوقف العمل في الاجزاء السبعة من الدستور التي تضمن الحريات الشخصية والمدنية. وقد نص المرسوم الذي وصف بأنه « إجراء دفاعي موجه ضد الاعمال الشيوعية التي تهدد الدولة » على ما يلي :

> فرض القيود على الحرية الشخصية ، وعلى الحق في حرية التعبـير عن الرأي،وحرية الصحافة ، والحق في الاجتماع وتأليف الجمعيات، ومراقبة سرية الرسائل والاتصالات الهاتفيـة والبرقية ، والتوقف عن وجوب اصدار اوامر قضائيـة قبل تفتيش البيوت ، وكذلك السماح بمصادرة الاملاك وفرض القيود عليها دون الحاجة الى تطبيق الاشتراطات القانونية » .

---

١ — راجع شهادة هولدر . المؤامرة النازية والعدوان ص ٦٣٥ - مناقشة غزيفيوس - شهادة غورنغ وغيرها من الوثائق .

ونص المرسوم ايضاً على تخويـــل حكومة الرايخ تولي السلطة المطلقة في الولايات الاتحادية عند الضرورة ، وعلى فرض عقوبة الموت بالنسبة الى عدد من الجرائم وبينها « إثارة الاضطرابات الخطيرة ضد الأمن » من قبـــل اشخاص مسلحين [١] .

وهكذا تمكن هتلر بضربة واحدة لا من كمٍّ افواه خصومه ،أو من اعتقالهم عندما يشاء فحسب ، بـــل ومن بث الفزع والرهبة في قلوب الملايين من ابناء الطبقة الوسطى والفلاحين ، عن طريق التطبيل والتزمـير (الرسمي) للخطر الشيوعي ،وحملهم على الاعتقاد بأنهم ما لم يقترعوا الى جانب الاشتراكية الوطنية في الانتخابات التي ستجري بعد اسبوع ، فان البلاشفة قد يصلون الى الحكم ،وقد ألقي القبض على نحو من أربعة آلاف شيوعي وزعيم من زعمـــاء الاشتراكيين الديموقراطيين والاحرار ، وبينهم عدد من اعضاء الرايشستاغ الذين يتمتعون بحـــكم القانون بالحصانة البرلمانية . وكانت هذه هي التجربة الأولى التي خبرها الألمان من الارهاب النازي الذي تدعمه الحكومة . وأخذت سيارات الشحن الضخمة وهي ملأى بجنود العاصفة ، تجوب الشوارع في جميع انحاء المانيـــا ، ويقتحم رجالها البيوت فيلقون القبض على الضحايا ، وينقلونهم إلى معسكرات جيش العاصفة حيث يتعرضون للضرب والعذاب .ومنعت الصحف والاجتماعات الشيوعية ، وعطلت صحف الديموقراطيين الاشتراكيين والاحرار ، وتعطلت اجتماعاتهم امـــا للحظر أو للتفريق . ولم يكن يسمح الا للنازيين وحلفائهـــم الوطنيين بالسير في المعركة الانتخابية دون ان يتعرضوا الى أي اذى .

وتمكن النازيون بفضل ما تحـــت تصرفهم من موارد الحكومتين المركزية والبروسية وما امتلأت به خزائنهم من أموال كبار رجال الاعمال ، من السير بدعاياتهم الانتخابية على نطاق لم تشهد المانيا مثيلاً له من قبل . وحملت اذاعـة الدولة للمرة الاولى اصوات هتلر وغورنغ وغوبلز الى كل زاوية من زوايا البلاد .

---

١ — المؤامرة النازية والعدوان ص ٩٦٨ - ٩٧٠ .

وامتلأت الشوارع برايات الصليب المعقوف بينما رددت جوانبها قرع طبول جنود العاصفة . واقيمت مهرجانات جماهيرية واستعراضات لحملة المشاعل ، ودوّت الساحات العامة بمكبرات الصوت تنقل الخطب الانتخابية . وامتلأت لوحات الاعلانات باللافتات النازية الناريّة ، بينما اضيئت قمم التلال بالنيران الاحتفالية . وتعرض الناخبون الألمان لإغراءات الوعود بالفردوس الألماني وارهاب ذوي القمصان البنية في الشوارع ، وللتهديدات بالثورة الشيوعية . واصدرت الحكومة البروسية في اليوم الذي تلا حريق الرايشستاغ بياناً طويلاً اعلنت فيه عثورها على وثائق شيوعية تثبت ...

« ان النية كانت متجهة الى احراق المباني الحكومية والمتاحف والمنازل والأبنية الاساسية ... وكانت الخطة ترمي الى ايفاد الاطفال والنساء في مقدمة الجماعات الارهابية ... ولم يكن حريق الرايشستاغ الا اشارة البدء بثورة دموية وحرب اهلية ... وقد ثبت ان القرار كان قد اتخذ ليشهد هذا النهار أعمالاً ارهابية ضد الافراد في جميع انحاء المانيا وضد الممتلكات الفردية وضد ارواح واجساد السكان الآمنين الوادعين ، وليسجل بداية الحرب الاهلية العامة » .

وقد وعدت الحكومة بنشر « الوثائق التي تقيم الدليل على المؤامرة الشيوعية » ، ولكن هذا الوعد لم ينفذ ابداً . اذ ان شهادة الحكومة البروسية بصحة هذه الوثائق كانت كافية للتأثير على الكثيرين من الألمان .

وتأثر المترددون ايضاً بما صدر عن غورنغ من تهديد ووعيد . فلقد صرخ هاتفاً في فرانكفورت في الثالث من آذار ، عشية اليوم الذي سبق الانتخابات قائلا :

« مواطني الألمان ! إن أي تفكير قضائي لن يشل من اجراءاتي . ولا أرى بي حاجة الى القلق على العدالة ، فرسالتي هي ان ادمر فقط وان ابيد ولا شيء غير التدمير والابادة ... وليس ثمة من شك

في أنني سأستخدم سلطان الدولة ، وسطوة الشرطة الى اقصى حد، ولذا فلا تقعوا يا أعزائي الشيوعيين في أية استنتاجات خاطئة . وسأقود عن طريق رجالي من ذوي القمصان البنيَّة ، ذلك النضال حتى الموت ، الذي سأستخدم فيه قبضتي لأمسك بأعناقكم »[1] .

ولم يصغ احدالىصوت المستشارالسابقبرونينغ الذي خطب ايضاً فيذلكاليوم معلناً ان حزبه الوسط سيقاوم أيةمحاولة لهدم الدستور ، ومطالباً باجراءالتحقيق في الظروف الغامضة التي احاطت بإحراق الرايشستاغ ، ومناشداً الرئيس هندنبرغ ان يتولى « حماية المضطهدين من الطغاة » .لقد كان نداء لا جدوى منه. فقد احتفظ الرئيس العجوز بصمته . ولقد حان الوقت الآن للشعب في تخبّطه وتشنّجه ان يتكلم .

* * *

وتحدث الشعب الألماني بأصواته في الخامس من آذار عام ١٩٣٣ ، في آخر انتخابات ديموقراطية عرفها في حياة هتلر . وعلى الرغم من كل ما رافق الحملة من ارهاب وتخويف فان غالبية الشعب اعلنت رفضها لهتلر . فقد نال النازيون (١٧،٢٧٧،١٨٠)صوتاً أي بزيادة نحو خمسة ملايين ونصف المليون من الاصوات ، وحصلوا بذلك على (٤٤) في المائة فقط من مجموع اصوات المقترعين . وهكذا خابأمل هتلرفي الحصول على الاغلبية المطلقة . ولم تحل جميع اعمال الاضطهاد والكبت التي وقعت في الاسابيع الماضية دون ارتفاع عدد المقترعينالى جانب حزب الوسط من (٤،٢٣٠،٦٠٠) الى (٤،٤٢٤،٩٠٠) . وتمكن الوسط مع حليفه حزب الشعب الكاثوليكي البافاري منالحصول علىخمسة ملايين ونصف المليون منالاصوات . وحافظ الاشتراكيون الديموقراطيون علىمركزهم كالحزب الثاني في البلاد اذ حصلوا على(٧،١٨١،٦٢٩)صوتاً اي بنقص (٧٠) الف صوت فقط عن الانتخابات السابقة . وخسر الشيوعيون نحواً من مليون صوت ، ومع

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان.ص ٤٩٦

ذلك فقد اقترع الى جانبهم (٤٫٨٤٨٫٠٥٨) ناخباً . وخاب أمل الوطنيين الذين يقودهم فون بابن وهوغنبرغ خيبة مرة ، فقد حصلوا على (٣٫١٣٦٫٧٦٠) صوتاً تمثل ثمانية في المائة من مجموع اصوات المقترعين وكسبا اقل من مائتي الف صوت .

وظلت مقاعد الوطنيين التي يبلغ عددها (٥٢) تؤلف مع مقاعد النازيين التي بلغت (٢٨٨) اغلبية مطلقة لا تربو على الستة عشر بالنسبة الى مجموع اعضاء الاحزاب الاخرى . وكانت هذه الاغلبية الضئيلة كافية لتمكين الحكومة من تصريف الامور اليومية العادية ، ولكنها لم تكن في أي حال من الاحوال لتحقق اغلبية الثلثين التي يحتاج اليها هتلر لتنفيذ خطته الجريئة والجديدة الرامية الى إقامة ديكتاتورية بموافقة البرلمان .

عملية التناسق في الرايخ

وكانت الخطة التي وضعها هتلر بسيطة كل البساطة ، وتتمتع بميزة التستر بستار الوصول الى الحكم المطلق عن طريق الشرعية . فقد قرر هتلر ان يطلب الى الرايشستاغ المصادقة على « قانون للصلاحيات » ، يخول حكومته سلطات التشريع المطلقة في غضون السنوات الاربع القادمة . ويتضمن الطلب ، ان يقوم البرلمان الالماني بكل بساطة ، بالتخلي عن صلاحياته الدستورية وتسليمها الى هتلر ، ثم الانفضاض في اجازة طويلة . ولكن لما كان مثل هذا الاجراء يتطلب تعديلاً في الدستور ، فقد كان هتلر في حاجة الى أغلبية الثلثين للمصادقة عليه .

وكان البند الرئيسي على جدول اعمال الجلسة التي عقدها مجلس الوزراء في الخامس عشر من آذار ١٩٣٣ ، والتي عرضت وقائعها في محاكمات نورمبرغ[١] ، هو كيفية الوصول الى هذه الاغلبية . وكان الرأي ان جزءاً من المشكلة سيحل « بتغيب » النواب الشيوعيين الواحد والثمانين عن الرايشستاغ . واعتقد غورنغ

---

١ — المؤامرة النازية والعدوان ، ص ٦٦٩ .

ان في الامكان حل بقية المشكلة برفض السماح لعددمن الاشتراكيين الديموقراطيين بالدخول . وكان هتلر في حالة من الثقة والمرح . ففي وسعه على أي حال ، بموجب الصلاحيات التي خولها اياه مرسوم الثامن والعشرين من شهر شباط ، والذي اقنع الرئيس هندنبرغ بتوقيعه، بعد يوم واحد من حريق الرايشستاغ ، أن يعتقل أي عدد من نواب المعارضة يراه ضرورياً لتأمين اغلبية الثلثين في حالة غيابهم . وكان الشك يحيط بموقف حزب الوسط الكاثوليكي الذي يطالب ببعض الضمانات ، ولكن المستشار كان واثقاً من أن هذا الحزب سيوافقه على خطته ويسير معه . وطالب هوغنبرغ ، زعيم الوطنيين ، الذي لم يكن راغباً في وضع جميع السلطات في يدي هتلر ، بأن يخوّل الرئيس ، بالاشتراك في اعداد القوانين التي تصدرها الوزارة كمراسيم بموجب « قانون الصلاحيات » . ورد الدكتور مايزنر ، وزير الدولة لشؤون القصر الجمهوري ، والذي كان قد ربط مستقبله بالنازيين قائلاً : « لا أرى ضرورة لتعاون رئيس الرايخ في الموضوع » . ولقد كان سريع الفطنة في ادراك ان هتلر لم يكن راغباً في ان يقيد الرئيس العنيد يديه كما كان يفعل مع المستشارين الجمهوريين السابقين .

ولكن هتلراراد في هذه المرحلة ان يبدي بادرة اجلال مجيدة للمشير العجوز ، وبادرة احترام للجيش وللمحافظين الوطنيين أيضاً ، وأن يربط بعمله هذا بين عهده الثوري الغوغائي وبين سمعة هندنبرغ الجليلة وأمجاد بروسيا العسكرية الماضية . وقد رتب لتحقيق هذا الهدف مع غوبلز الذي كان قد غدا وزيراً للدعاية في الثالث عشر من آذار ، ما يمكن تسميته « بضربة معلّم » ، اذ قررا ان يقوم هتلربافتتاح الرايشستاغ الجديد الذي كان على وشك تحطيمه، في كنيسة الحامية في بوتسدام ، المزار العظيم للبروسية ، والتي تثير في نفوس الكثيرين من الألمان ذكريات الامجاد والعظمة الامبراطورية ، اذ في هذا المكان توجد رفات فريدريك الكبير ، وفيه كان ملوك الهوهنزلرن يؤدون صلواتهم ، كما كان هندنبرغ قد وفد اليه حاجاً في عام ١٨٦٦ لأول مرة، بعد ان عاد كضابط شاب من ضباط الحرس من الحرب النمسوية ـ البروسية ، التي ادت الى وحدة المانيا.

وكان التاريخ الذي اختاره هتلر للاحتفال بافتتاح أول رايشستاغ للرايخ الثالث وهو الواحد والعشرون من آذار ذا أهمية خاصة ايضاً ، اذ صادف الذكرى السنوية لليوم الذي افتتح فيه بسمارك اول رايشستاغ في عهد الرايخ الثاني في عام ١٨٧١. وعندما اجتمع المشيرون (الماريشالات) الشيوخ والفرقاء والاميرالات (امراء البحر) ، الذين خدموا في العهد الامبراطوري ، في بزاتهم العسكرية المتألقة في كنيسة الحامية ، وفي مقدمتهم ولي العهد والمشير فون ماكنزن في بزته الرائعة كقائد لحرس الهوسار ، سيطرت على القاعة ظلال فريدريك الكبير والمستشار الحديدي .

وتأثر هندنبرغ وبان عليه التأثر بوضوح . ولاحظ غوبلز الذي كان يشرف على اخراج المسرحية ويوجه الاذاعة عن الاحتفال للأمة الألمانية ، في لحظة واحدة ، كما دوّن في يومياته ، أن الدموع قد ترقرقت في عيني المشير العجوز . ومشى هتلر الذي بدا متضايقاً من لباس الصباح الرسمي (البونجور) ، الى جانب المشير الذي دخل القاعة في بزة الماريشالية الرمادية ، وقد ظهر على صدره وشاح (النسر الاسود) وحمل في يمناه خوذة مدببة وفي يسراه عصا الماريشالية. فاتجه ببطء عبر الممر في الكنيسة ، ثم توقف ليؤدي التحية الى المقعد الخالي الذي كان يحتله القيصر غليوم في الشرفة الامبراطورية ، ومضى بعد ذلك الى المذبح حيث وقف أمامه وتلا خطاباً قصيراً شفعه ببركاته لحكومة هتلر الجديدة .. وقال :

« ابتهل الى الله ان تنفذ روح هذا المزار الجليل والمقدس الى نفوس أبناء هذا الجيل ، وان تحررنا من الاثرة والخصومات الحزبية ، وان تدفع بنا معاً في احساس من الوعي القومي ، لنبارك المانيا الحرة العزيزة ، المتحدة في داخلها » .

وقد رمى هتلر من رده بما عرف عنه من دهاء ومكر ، الى العزف على المشاعر ، والى نوال ثقة جماعة العهد القديم الذين تمثلوا في هذا الاحتفال لهذه الصورة المتألقة فقال :

« لم يكن القيصر ، ولا حكومته ولا أمته من أراد الحرب .

ولكن انهيار البلاد هو الذي ارغم عنصراً متخاذلاً على ان يقبل على نفسه ، تبعة الحرب خلافاً لكل ما يساوره من ايمان مقدس » .

وعاد فالتفت الى هندنبرغ الذي كان يجلس الى مقعده على بضعة أقدام امامه وقال :

« لقد اعيدت الينا كرامتنا الوطنية بفضل ما حدث في الاسابيع الاخيرة من اعلاء فريد لشأننا ، لك انت وحدك الفضل فيه . وها نحن نحتفل يا سيدي المشير القائد ، بالوحدة القائمة بين رموز عظمتنا العريقة وبين قوتنا الجديدة . اننا ندين لك بالاجلال . ولتحميك العناية الصمدية لتجعلك دائماً في مقدمة قوات بلادنا الجديدة [1] » .

وتظاهر هتلر بالخضوع العميق والاجلال للرئيس الذي كان قد قرر ان ينتزع منه قبل نهاية الاسبوع سلطانه السياسي . فخطا الى الأمام باتجاهه ثم احنى هامته له احناءاً شديداً ، وأمسك بيده . وهناك وتحت اضواء آلات التصوير الخاطفة ، وبين (طقات) آلات التصوير السينمائية الخافتة ، التي اقامها غوبلز في كل مكان مع مكبرات الصوت التي احتلت مراكز استراتيجية ، لتسجل للامة الألمانية وللعالم بأسره ، الصورة الرائعة التي تمثلت في يد المشير الألماني العجوز قابضة على يد العريف النمسوي ، والتي اظهرت وحدة المانيا القديمة والجديدة .

وكتب السفير الفرنسي الذي شهد الاحتفال فيما بعد يقول : « وبعد هذا النذر المدهش الذي أخذه هتلر على نفسه في بوتسدام ، كيف امكن لأناس من امثال هندنبرغ واصدقائه ، من النبلاء والبارونات الملكيين ، وهوغنبرغ واتباعه من الوطنيين الألمان ، وضباط الجيش النظامي (الرايشوهر) ، ان لا يبعدوا عن رؤوسهم الخوف الذي بدأ يساورهم من الاساءات واعمال التطرف التي يقوم بها حزبه ؟ وهل كان في امكانهم الآن وبعد هذا النذر ، ان يترددوا في منحه

---

١ – وثائق عن السياسة الألمانية – ١٩٣٥ ص ٢٠ – ٢٤ .

ثقتهم المطلقة ، وفي الاستجابة لجميع مطالبه ، وتسليمه جميع الصلاحيات التي طلبها ؟ »[1] .

وقد جاء الرد على هذا السؤال بعد يومين ليس إلا ، وفي قاعة دار الاوبرا في برلين ، حيث اجتمع مجلس الرايشستاغ في الثالث والعشرين من آذار . وكان المجلس يناقش « قانون الصلاحيات » أو ما اطلق عليه رسمياً اسم « قانون ازالة شقاء الشعب والرايخ » . وكانت بنود هذا القانون الخمسة القصيرة ، تنتزع صلاحيات التشريع ، وبينها الاشراف على ميزانية الرايخ وابرام المعاهدات مع الدول الاجنبية ، وادخال التعديلات الدستورية ، من يد البرلمان وتسليمها الى وزارة الرايخ لفترة اربع سنوات . ونص القانون ايضاً على ان القوانين التي تصدرها الحكومة تكون من وضع المستشار الذي يحق له « ان ينحرف عن الدستور » . ونص القانون ايضاً على فقرة لعلها من اكبر المهازل، وهي ان «ليس لأي قانون أن يؤثر على وضع الرايشستاغ » وعلى ان تظل صلاحيات رئيس الجمهورية على حالها[2] .

وأكد هتلر هاتين النقطتين في خطاب ألقاه واحتفظ فيه بهدوئه تمام الاحتفاظ، موجهاً إياه الى النواب الذين اجتمعوا في قاعة دار الأوبرا المزخرفة ، والتي تخصصت منذ عهد طويل، بعرض «الاوبرات» الخفيفة ،بينما كانت جنبات القاعة وممراتها، مكتظة بجنود جيش العاصفة في قمصانهم الرمادية ووجوههم المليئة بالندوب ، مما اشار الى النواب بأن الحكومة لن تتسامح بأي سخف في القول من جانب نواب الشعب . وقال هتلر بعد مستمعيه :

« .. ولن تستخدم الحكومة هذه الصلاحيات إلا عندما تراها ضرورية لتنفيذ بعض الاجراءات الحيوية والتي لا مناص منها . ولن يكون ثمة أي تهديد لوضع الرايشستاغ أو الرايشسرات (المجلس الثاني) . وستظل حقوق الرئيس ومكانته مصونة لا تمس . ولن نعمل

---

١ – فرانسوا بونسيه ـ سنوات القدر. ص ٦١

٢ – نص القانون – المؤامرة النازية والعدوان ، ص ٦٣٨ - ٦٣٩ .

شيئاً يمس الوجود المنفصل للولايات الاتحادية . ولن نعمل على التقليل من حقوق الكنيسة وستظل علاقاتها بالدولة على حالها دون تعديل. وستكون الحالات التي تحتم فيها الضروريات الداخلية اللجوء الى مثل هذا القانون محدودة تماماً » .

وهكذا بدا الزعيم النازي الناري المزاج معتدلاً ومتواضعاً. وكان من السوابق لأوانه في حياة الرايخ الثالث حتى بالنسبة الى اعضاء المعارضة، ان يعرفوا تمام المعرفة ما لوعود هتلر من قيمة. ومع ذلك فقد نهض احد النواب وهو اوتو ويلز زعيم الديموقراطيين الاشتراكيين ، الذي كان نحو عشرة من نوابه قد اعتقلوا بأمر من الشرطة ، بين هدير جنود العاصفة خارج القاعة الذين كانوا يصرخرن « امـــا الصلاحيات الكاملة ، وامــا ..! » ، ليتحدى ديكتاتور الغد . وتحدث الرجل بهدوء وبمنتهى العزة والأنفـــة ، فأعلن ان في وسع الحكومـــة ان تنتزع من الاشتراكيين صلاحياتهم ، ولكن ليس في وسعها أبداً ان تنتزع منهم شرفهم . ثم قال :

« ونحن الاشتراكيين الديموقراطيين الألمان ، نعد وعداً قاطعـاً ومقدساً في هذه الساعـــة التاريخية بأن نلتزم دائماً جانب مبادىء الانسانية والعدالة والحرية والاشتراكية وليس في وسع اي «قانون للصلاحيات» ان يمنحك القدرة على تحطيم الافكار الخالدة والسرمدية والتي لا تقبل الفناء » .

وقفز هتلر ، وقد استبد به الغضب ، على قدميه ، وشهد المجلس صورة واقعية للرجل .. وقال صارخاً :

« لقد جئتم متأخرين ، ولكنكم أتيتم .. ولم يعد احد بحاجـة اليكم .. ان نجم المانيا سيرتفع ، وسيهوى نجمكم الى الحضيض . لقد قرع جرس موتـكم . انني لست في حاجة الى اصواتـكم . ان المانيا ستتحرر ولكن تحررها لن يأتي عن طريقكم .. » (تصفيق داو) .

ولكن الاشتراكيين الديموقراطيين الذين تحملوا مسؤولية كبرى في اضعاف

الجمهورية، قرروا ان يفوا لمبادئهم هذه المرة وإن يهووا معهاوهم في حالة التحدي . لكن حزب الوسط ، لم يقف هذا الموقف ، على الرغم من انه تحدى بنجاح ذات يوم المستشار الحديدي في « كالتركامف » . وكان المونسنيور كآس ، زعيم الحزب ، قد طلب تعهداً خطياً من هتلر بأن يحترم حق الرئيس في النقض. وعلى الرغم من ان هتلر قد وعد بإعطاء هذا التعهد قبل الاقتراع ، الا انه لم يف قط بوعده . ومع ذلك فقد نهض زعيم الوسط ليعلن ان حزبه سيقترع الى جانب مشروع القانون . وظل برونينغ صامتاً . وجرى الاقتراع فوراً فنال القانون ٤٤١ صوتاً مقابل (٨٤) كلها من اصوات الاشتراكيين الوطنيين. وهب النواب النازيون يصرخون ويقرعون الأرض باقدامهم في حماس جنوني ، وشرعوا ومعهم جنود العاصفة ، ينشدون نشيد « هورست ويسّل » الذي قدر له ان يقف بعد قليل على قدم المساواة مع نشيد « المانيا فوق الجميع » ، وليصبح احد النشيدين الوطنيين الألمانيين . . .

« ارفعوا الرايات عالياً . . . وقفوا صفاً وراء صف

وازحفوا يا جنود العاصفة بخطى ثابتة هادئة »

وهكذا تمّ دفن الديموقراطية البرلمانية في المانيا . واذا ما استثنينا اعتقال الشيوعيين وعدد من الديموقراطيين الاشتراكيين ، فان الاجراء قد تمّ بصورة مشروعة وان رافقه الارهاب . وهكذا تنازل البرلمان عن سلطاته الدستورية الى هتلر منتحراً بعمله هذا ، وان كان جسده لم يهل عليه التراب وانما ظل محنّطاً حتى اللحظة الاخيرة من حياة الرايخ الثالث . وكل عمله ان يكون « مجلس إصغاء » لبعض رعود هتلر وخطبه اللاهبة ، مع العلم بأن الحزب النازي هو الذي يختار اعضاءه ، اذ توقفت المانيا عن اجراء أي انتخابات حقيقية . ولا ريب في ان « قانون الصلاحيات » هذا ، هو الذي اتاح وحده لهتلر الاساس القانوني لديكتاتوريته . وغدا هتلر منذ الثالث والعشرين من آذار عام ١٩٣٣ ، الحاكم المطلق للرايخ دون أي قيد برلماني على سلطاته أو قيد عملي من الرئيس العجوز المنهك . ومع ذلك فقد ظل هناك الكثير من الأعمال ، لإرغام الأمة بمجموعها ،

وكافة منظماتها على الاذعان اذعاناً كاملاً للسيطرة النازية ، وان كانت هـــذه الخطوات في الواقع كما سنرى،قد تمّ تحقيقها بسرعة تقطع الانفاس وبالكثير من القسوة والخداع والوحشية .

وكتب ألان بالوك يقول...« وهكذا سيطرت عصابات الشوارع على موارد ومقدرات دولة عصرية عظيمة ... وهكذا وصلت القاذورات الى مرتبة الحكم والسلطان ».ولكن كل هذا قد تمّ،كما ظل هتلر يتبجّح دائماً، بصورة «قانونية» وبأغلبية برلمانية سابقة . وليس من حق الألمـان ان يلوموا احداً الا انفسهم على ذلك .

* * *

وأخذت المنظمات الألمانية القوية ، تستسلم لهتلر واحدة اثر الاخرى لتمضي الى عالم النسيان وتغيب عن الوجود بهدوء ودون احتجاج .

وكانت حكومات الولايات التي حافظت بعناد واصرار على سلطاتها المنفصلة طيلة التاريخ الألماني،أول من سقط من هذه المنظمات. ففي مساء التاسع من آذار، وقبل اسبوعين من تصديق « قانون الصلاحيات »،قام الفريق فون ايب، اطاعة لأوامر هتلر وفريك وبمساعـدة فريـق من جنود العاصفة،بالاطاحة بالحكومة البافارية ليقيم مكانها عهداً نازياً . وبعد اسبوع واحد ، عُيّن عدد من مفوضي الرايخ لتولي الحـكم في الولايات الاخرى باستثناء بروسيا، حيث كان غورنغ لا يزال صامداً على ظهر الجواد . وقام هتلر وفريك في الواحد والثلاثين من آذار باستخدام«قانون الصلاحيات» لأول مرة . فسنـّا قانوناً يقضي بحل جميع مجالس الولايات باستثناء بروسيا ويأمر باعادة تشكيلها على اســاس الاصوات التي تمّ انتخاب الرايشستاغ بموجبها . وتقرر ابقاء المقاعد الشيوعية خالية . لكن هذا الحل لم يدم اكثر من اسبوع واحد .فقد اصدر المستشار الذي كان يعمل بسرعة محمومة قانوناً جديداً في السابع من نيسان يقضي بتعيين حكام للرايخ في جميـع الولايات مع تخويلهم تعيين الحكومات المحلية واقامتها،وحل المجالس الاقليمية، وتعيين موظفي الحكومة والقضاة وإقالتهم . وكان جميع هؤلاء الحـكام مـن

النازيين وقد طلب اليهم ان ينفذوا « السياسة العامة التي يقررهـــا مستشار الرايخ » .

وهكذا تمكن هتلر في غضون اسبوعين من تسلمه زمام السلطان المطلق في الرايشستاغ، من تحقيق ما لم يجروء على محاولته بسمارك أو غليوم أو جمهورية ويمار، ومن إلغاء الصلاحيات المنفصلة لحكومات الولايات التاريخيـة وجعلها خاضعة للصلاحيات المركزية لحكومة الرايخ المركزة في يديه . وتمكن لأول مرة في تاريخ المانيا من توحيدها حقاً بتحطيم طبيعتها الاتحادية القديمة . وفي الثلاثين من كانون الثاني عـام ١٩٣٤ ، وبمناسبة الذكرى السنوية الأولى لتعيينه مستشاراً ، أتم هتلر مهمته هذه عن طريق قانون ، اصدره « لإعادة بناء الرايخ ». فقد امر بالغاء « المجالس الشعبية » في الولايات ونقل صلاحياتها السيادية الى حكومة الرايخ ، ووضع جميع حكومات الولايات تحت سيطرة حكومة الرايخ وربط الحكام جميعاً بادارة وزير داخلية الرايخ [١] . وقد اوضح وزير الداخلية فريك الوضع الجديد بقوله : « لقد غدت حكومات الولايات منذ الآن ، مجرد هيئات ادارية للرايخ » .

ونصت مقدمة قانون الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٤ ، على ان هـــذا القانون قد وضع بناء « على الاقتراع الاجماعي للرايشستـاغ » . ولقد كان هذا القول صحيحاً ، إذ ان جميع الاحزاب السياسية في المانيا ، كانت قـد صفيت بسرعة في هذا الوقت باستثناء الحزب النازي طبعاً .

ولا يمكن ان يقال ان هذه الاحزاب قد سقطت في المعركة . ففي التاسـع عشر من ايار عام ١٩٣٣ ، اقترع الديموقراطيون الاشتراكيون ، باستثناء اولئك الذين كانوا قد اصبحوا في السجن أو في المنفى، في الرايشستاغ بدون أية مخالفة، الى جانب سياسة هتلر الخارجية مؤيدينها . وكانت شرطـة غورنغ ، قبل هذا الاقتراع بتسعة ايام، قد استولت على مكاتب الحزب وصحفه وصادرت ممتلكاته

---

١ — قوانين ٣١ آذار و٧ نيسان ١٩٣٣ و٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ - المؤامرة النازية والعدوان ص ٦٤٠ - ٦٤٣ .

وعلى الرغم من هذا العمل ، فقد حاول الاشتراكيون ترضيـــة هتلر ، وهاجموا رفاقهم الذين كانوا يهاجمون هتلر في الخارج. وقاموا في التاسع عشر من حزيران بانتخاب لجنة جديدة للحزب . ولكن فريك اصدر امراً بعد ثلاثـة أيام وضع نهاية لمحاولاتهم التفاهم مع الفوهرر ، اذ حل الحزب الاشتراكي الديموقراطي باعتباره « حزباً هداماً ومعادياً للدولة » . واعتقل بول لوبه زعـيم الحزب ، وعدداً من اعضائه وممثليه في الرايشستاغ . أما الحزب الشيوعي ، فكان قد حل وأخفت صوته من قبل .

وبقيت أحزاب الوسط ، ولكن حياتها لم تطل ايضاً . فقد اعلن حزب الشعب الكاثوليكي البافاري ، الذي قام الانقلاب النازي في التاسـع من آذار بطرد حكومته ، حل نفسه بنفسه في الرابع من تموز . وسرعان ما حذا حذوه في اليوم التالي زميله ، حزب الوسط الكاثوليكي الذي كان قد تحدى بسمارك بقوة وشدة وهو في أوج عنفوانه والذي كان دعامة من دعائم الجمهورية ، تاركـــاً ألمانيا لأول مرة في تاريخها الحديث بدون حزب سياسي كاثوليكي ، وهي حقيقة لم تحمل الفاتيكان على العدول عن توقيع اتفاق مع حكومة الرايخ بعدا سبوعين. وانتحر حزب ستريسمان القديم — حزب الشعب — في الرابع من تموز بعد ان سبقه الى ذلك حزب الديموقراطيين قبل نحو من اسبوع .

ترى ماذا حل بشريك هتلر في الحكم ، وهو الحزب الوطني الألماني ، الذي لولا تأييده للعريف النمسوي السابق ، لما استطاع قط ان يصل الى الحكم بطريقة مشروعة ؟ لقد كان مصيره مصير سابقيه ، اذ على الرغم من صلته الوثيقـــة بهندنبرغ والجيش والنبلاء وكبار رجال الاعمال ، وعلى الرغم من الدين الذي طوّق به عنق هتلر ، اصابه ما اصاب الاحزاب الاخرى ، فقابل نهايته بنفس الضعف والاستخذاء . ففي الواحد والعشرين من حزيران ، قام رجال الشرطة وجنود العاصفة بالاستيلاء على مكاتبه في طول البلاد وعرضهـــا . وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه قدم هوغنبرغ رئيسه الشائك الملمس الذي كان قد ساعد هتلر في الوصول الى المستشارية قبل نحو من ستة اشهر ، استقالتـــه من

الحكومة ، وأعلن مساعدوه حل حزبهم .

ولم يبق في الميدان الا الحزب النازي . وصدر في الرابع عشر من تموز القانون التالي :

« يؤلف حزب العمال الألمان الاشتراكي الوطني ، الحزب السياسي الوحيد في المانيا .

« وكل من يحاول الحفاظ على التركيب التنظيمي لأي حزب سياسي آخر ، أو من يحاول تشكيل حزب سياسي جديد يعاقب بالسجن مع الاشغال الشاقة لمدة تصل الى ثلاث سنوات أو بالسجن من ستة اشهر الى ثلاث سنوات اذا لم يكن الجرم خاضعاً لعقوبة اكبر وفقاً للانظمة الاخرى »[1].

وهكذا تحققت الحكومة الجماعية ذات الحزب الواحد دون ان يرتفع أي صوت بالمقاومة أو التحدي ، وفي غضون اربعة أشهر فقط من تنازل الرايشستاغ عن مسؤلياته الديموقراطية .

وتمّ التخلص بسهولة ايضاً من النقابات الحرة التي سبق لها ان تمكنت ، كما رأينا من قبل ، من تحطيم انقلاب كاب الفاشي بمجرد اعلان اضراب عام في البلاد ولكن هذه الخطوة لم تتم على أي حال الا بعد اللجوء الى خدعة متقنة ، ثم تضليل النقابات بها . فلقد ظل اليوم الأول من أيار اليوم التقليدي لاحتفالات العمال الألمان والاوروبيين بعيدهم لمدة تربو على النصف قرن . ورغبة من الحكومة النازية في تهدئة العمال وزعمائهم قبل ان توجه اليهم ضربتها ، اعلنت بصورة رسمية انها تعتبر الاول من ايار « عيداً قومياً للعمل » ، وانها تستعد للاحتفال به بصورة تفوق أية احتفالات سابقة في اعوام خلت . وقد ذهل الزعماء النقابيون من هذا العرض المفاجىء للصداقة تجاه الطبقة العاملة من النازيين فتعاونوا بحماس مع الحكومة والحزب في انجاح هذه الاحتفالات . وطار زعماء العمال الى برلين من

---

١ - المؤامرة النازية والاستعمار - ص ٩٦٢

جميع انحاء المانيا ، وارتفعت ألوف الرايات واللافتات التي تعلن تضامن العهد النازي مع العمال . وأعد غوبلز في ميدان تمبلهوف العدة لإخراج اكبر عرض جماهيري شهدته المانيا حتى ذلك الحين . واستقبل هتلر قبيل المهرجان الضخم ممثلي العمال، معلناً لهم «سوف ترون بأنفسكم مدى ما في الادعاء بأن الثورة موجهة ضد العمال الألمان من كذب وإجحاف . انها على النقيض من ذلك » . وعندما ألقى هتلر خطابه فيما بعد في المطار ، امام اكثر من مائة الف عامل، رفع شعاره المشهورة « لنقدس العمل ونحترم العمال » ، ثم وعد بأن يحتفل بالأول من أيار تكريماً للعمال الألمان « على مدى القرون والاجيال » .

وعندما شرع غوبلز في ساعة متأخرة من تلك الليلة، يدوّن وصف احتفالات اول ايار التي أخرجها بمنتهى الروعة والعبقرية ، راسماً صورة نثرية رائعة للحماس الهائل الذي أبداه العمال ، اضاف جملة غريبة في يوميته قال فيها : « سنقوم غداً باحتلال بنايات النقابات ، ولن يكون ثمة الا مقاومة قليلة » [١] .

وهذا ما وقع بالفعل . فقد احتلت القوات النازية مكاتب النقابات في طول البلاد وعرضها ، وصودرت أموالها ، وصدر الأمر بحلها واعتقال قادتها . وقد ضرب عدد منهم ضرباً مبرحاً وزج بهم في معسكرات الاعتقال . وقد تعهد كل من تيودور ليبارت وبطرس غراسمان والأخير رئيس الاتحاد العام للنقابات ، علناً بالتعاون مع العهد النازي ، ولكنهما اعتقلا ايضاً . ولقد قال الدكتور روبرت لي زعيم الحزب في كولون، المدمن على الخمر، والذي عهد اليه بالسيطرة على النقابات واقامة جبهة العمل الالمانية . قال « قد يعلن ليبارت وغراسمان نفاقاً اخلاصهما

---

١ ـ اظهرت وثيقة حسر النقاب عنها في محاكمات نورمبرغ، ان النازيين كانوا يعدون العدة منذ امد ما لتحطيم النقابات . قد تضمن امر سري مؤرخ في الواحد والعشرين من نيسان ، وموقع من الدكتور لي ، تعليمات مفصلة «لتنسيق» النقابات في الثاني من ايار، ولقيام جيش العاصفة والحرس النازي باحتلال ممتلكات النقابات، وباعتقال زعماء الحركة النقابية اعتقالاً احترازياً، وبمصادرة جميع اموالها . ولم تمس النقابات الكاثوليكية المسيحية في الثاني من ايار بل جاءت نهايتها في ٢٤ حزيران. غوبلز ـ كايزرهوف ـ ص ٣٠٧ . المؤامرة النازية والعدوان ص ٣٨٠ ـ ٣٨٥.

للفوهرر ما شاء لهما نفاقهما ان يعلنا ، ولكن من الخير ان يكونا في السجن » . ولقد كان السجن بالفعل مصيرهما .

ولقدحاول هتلروولي مع ذلك في البداية ان يؤكدا للعمال ان حقوقهم ستكون مصونة . وقال لي في اول بيان له : « ايها العمال ! ان منظماتكم مقدسة لنا نحن معاشر الوطنيين الاشتراكيين . فأنا ابن فلاح فقير ، وأفهم معنى الفقر .. وإني لأعرف معنى استغلال الرأسمالية المجهولة . ايها العمال ! أقسم لكم اننا لن نحافظ على كل شيء قائم فحسب ، بل وسنبني الحماية والحقوق للعمال اكثر واكثر » .

ولم تمض ثلاثة اسابيع حتى كان ما في وعود هتلر من خواء قد تعرض للعيان عندما اصدر هتلر قانوناً وضع حداً للمساومة الجماعية ، ونص على قيام « وكالات عمالية » يعيّن هو أعضاؤها وتتولى « تنظيم اتفاقات العمل » وتحافظ على « السلام العمالي » [1]. ولما كانت قرارات الوكالات العمالية ملزمة بحكم القانون الجديد ، فان الاضرابات اصبحت من الناحية العملية غير قانونية . ووعد لي باعادة « القيادة المطلقة الى الزعيم الطبيعي للمعمل ، وهو صاحب العمل . . واصبح هذا هو صاحب الحق في اتخاذ القرارات » . ولما كان عدد كبير من اصحاب الاعمال يطالب منذ سنوات « بحق السيادة في المنزل » ، فقد غدوا الآن هم السادة في منازلهم .

وقد اثلجت صدور ادارات الاعمال بهذه القرارات فترة من الزمن . وأثمر انشراحها عن التبرعات السخية التي قدمها عدد كبير من اصحاب الاعمال الى الحزب النازي . ولكن نجاح العمل يتطلب شيئاً من الاستقرار في المجتمع . فقد انقضت اشهر الربيع والصيف ، على البلاد ، وهي في حالة تفتقر الى الأمن والنظام ، اذ كانت عصابات ذوي القمصان البنية ، من الذين اصابتهم لوثة في عقولهم ، يجوبون الشوارع ، وهم يعتقلون الناس ويضربونهم واحياناً يقتلونهم اذا ارادوا قتلهم ، بينما يقف رجال الشرطة مشدوهين لا يحركون ساكناً . ولم يكن

---

١ - قانون التاسع عشر من ايار عام ١٩٣٣ - المؤامرة النازية والعدوان - ص ٣٨٧ .

الارهاب الذي عمّ الشوارع ناجماً عن انهيار سلطة الدولة كما وقع في عهد الثورة الفرنسية ، وانما على النقيض من ذلك كان ناتجاً عن تشجيع الدولة واحياناً تلبية لأوامرها ، لا سيما وأن سلطتها في المانيا كانت اعظم وأكثر تركيزاً اليوم منها في أي وقت مضى . وسيطر الرعب على القضاة . وكانوا يخشون على ارواحهم اذا ادانوا جندياً من جيش العاصفة او حكموا عليه حتى ولو بتهمة القتل العمد . وكانت كلمة هتلر هي القانون ، كما قال غورنغ . ولم يحل شهر ايار وحزيران عام ١٩٣٣ ، حتى كان الفوهرر يقول : « بأن الثورة الاشتراكية الوطنية لم تكمل سيرها بعد » وانها « ستتم بصورة ظافرة بعد ان يتم تثقيف شعب الماني جديد». والتثقيف في المعجم النازي يعني « التخويف » الى الحد الذي يقبل فيه الجميع طواعية الديكتاتورية النازية وما هي عليه من بربرية. ولم يكن اليهود من الالمان بالنسبة الى هتلر الذي اعلن ذلك اكثر من الف مرة ، وعلى الرغم من انه لم يقدم على استئصال شأفتهم فوراً (إذ لم ينهب او يضرب او يقتل منهم في الاشهر الاولى الا عدداً قليل لا يتجاوز بضعة ألوف) ، الا أنه اصدر قوانين تحرمهم من الخدمة العامة أو العمل في الجامعات او المهن . وأعلن في الأول من نيسان عام ١٩٣٣ ، مقاطعة عامة للمتاجر اليهودية .

ووجد رجال الاعمال الذين كانوا شديدي الحماس عندما حطم هتلر النقابات العمّالية المزعجة ، إن النازنين من رجال الجناح اليساري الذين كانوا يؤمنون حقاً في اشتراكية الحزب ، اخذوا يحاولون الآن السيطرة على اتحادات اصحاب الأعمال وتدمير حوانيت السلع الكبرى وتأميم الصناعة . وتهافت الألوف من موظفي الحزب النازي المهلهلي الثياب على البيوتات التجارية التي يملكها اولئك الذين لم يؤيدوا هتلر ، مهددينهم بالقبض عليهم في مختلف القضايا ومطالبينهم بالحصول على مناصب ذات اجر طيب في ادارات هذه المؤسسات . وقد أصر الدكتور غوتفريد فيدر المهووس الاقتصادي ، على وجوب تنفيذ برنامج الحزب فوراً الآن بتأميم الاعمال الكبرى ، وتقاسم الارباح وإلغاء الدخل الذي ينال بلا حق وانهاء « عبودية الفائدة » . ولم يكتف وولتر داريه الذي عيّن قبل قليل

وزيراً للزراعة ، بهذا القدر من الاتجاهات التي ألقت الرعب في قلوب رجـال الأعمال ، بل زاد من حدة الحالة العصبيـة عند اصحاب المصارف عندما وعد المزارعين بتخفيض كبير في مجموع ديونهم ، وتخفيض في معدل الفائدة على مـا يتبقى منها بحيث لا تزيد على اثنين في المائة .

ولم لا يفعل هتلر كل هـذا وقد غدا في اواسط صيف عام ١٩٣٣ ، السيد المطلق في المانيا ؟ لقد اصبح في وسعه الآن ان ينفذ برنامجه . ولقد تفجرت جميع احلام بابن على الرغم من كل ما اتصف به من دهاء ومكر ، كفقاعات الهواء في وجهه ، اذ غدا وحيداً لا شأن له ولا وزن بعد ان انهـارت جميع حساباته التي كان قد افترضها على اساس انه هو وهوغنبرغ وغيرهمـا من حماة النظام القديم ، يملكون غالبية في مجلس الوزراء مقابل النازيين بنسبة ثمانية الى ثلاثة وانهـم يستطيعون ان يستخدموا هتلر تحقيقاً لغاياتهم المحافظة . وقد اخرج من منصبه كرئيس وزراء بروسيا ليحل محـله غورنغ في هذا المنصب . ولكنه ظل في الوقت نفسه نائباً للمستشار في حكومة الرايخ، وان كان قد غدا منصبه على حد اعترافه هو « شاذاً وغريباً » . فقد مضى هوغنبرغ « حواري المـال والاعمال » من الوزارة ، وحل حزبه . وكان غوبلز ، الرجل المهم الثالث في الحزب النازي قد دخـل الوزارة في الثالث عشر من آذار كوزير للارشاد الشعبي والدعاية . وكان داريه الذي يعتبر متطرفاً كغوبلز قد أصبح ايضاً وزيراً للزراعة .

وأخرج الدكتور هانز لوثر ، الرئيس المحافظ لبنك الرايخ، من منصبه الذي يعتبر مفتاح النظام الاقتصادي ،وأسند إليه هتلر،منصب السفارة في واشنطن. وسرعان ما خلفه في منصبه ذاك في السابع عشر من آذار عام ١٩٣٣ ،الدكتور شاخت المتأنق ، الذي أشغل هذه الوظيفة من قبل والتابـع المخلص لهتلر الذي رأى ما في النازية من « حقيقة وضرورة » . ولم يقدر لأي رجل فرد ان يكون اكثر عوناً لهتلر في بناء القوة الاقتصادية للرايخ الثالث من هذا الرجل ، ولا في السير ببرامج تسلحه لخوض غمار الحرب الكونية الثانية ، لا سـيما بعد ان غدا فيما بعد بالاضافة الى منصبه كرئيس لبنك الرايخ ، وزيراً للاقتصاد ومفوّضاً

عاملاً للاقتصاد الحربي . ومن الحق ان يقال ان هذا الرجل انقلب قبيل الحرب الثانية على الصنم الذي عبده ، مما ادى الى فصله من جميع مناصبه ، وإلى تآمره مع اولئك الذين اخذوا يخططون لاغتيال هتلر . ولكن الوقت كان قد فات على وقف سير الزعيم النازي ، الذي قدم له الولاء وفروض الخدمة امداً طويلاً ، ووضع تحت تصرفه كل ما يتمتع به من مكانة ومواهب ضخمة .

لا ثورة ثانية

على الرغم من ان هتلر قد سيطر على المانيا بمنتهى السهولة والبساطة ، الا انه واجه عند دنو صيف عام ١٩٣٣ ، عدداً كبيراً من المشاكل . فلقد كانت هناك على الاقل خمس مشاكل رئيسية اولاها الحيلولة دون وقوع ثورة ثانية ، وثانيتها تسوية العلاقات المتوترة بين الجيش النظامي وجيش العاصفة ، وثالثتها الخروج بالبلاد من الحمأة الاقتصادية وإيجاد الأعمال لنحو من ستة ملايين عامل عاطل ، ورابعتها تحقيق التكافؤ في التسلح لألمانيا في مؤتمر نزع السلاح في جنيف ، والاسراع في تسليح المانيا السري الذي كان قد بدىء به في السنوات الاخيرة من عند الجمهورية ، وخامستها مَنْ سيخلف هندنبرغ العليل في حالة وفاته .

وكان روهم رئيس جيش العاصفة ، هو مخترع تعبير «الثورة الثانية» والرجل الذي يصر على وجوب تنفيذها . وقد انضم اليه في موقفه هذا غوبلز ، الذي دوّن في يوميته للثامن عشر من نيسان ١٩٣٣ ، ما يلي : « يتحدث كل فرد من افراد الشعب عن الثورة الثانية التي يجب ان تتحقق . وهذا يعني ان الثورة الأولى لمّا تنته بعد . وعلينا الآن ان نسوي حساباتنا مع الرجعية ، ومن الواجب ان لا تتوقف الثورة في أية ناحية من النواحي » [1] .

وكان النازيون قد حطموا اليسار ، ولكن اليمين ظل قائماً ، متمثلاً في كبار الصناعيين والماليين والنبلاء ، وأصحاب الاراضي والقادة العسكريين البروسيين

---

١ ـ غوبلز ـ كايزرهوف ـ ص ٣٠٠ .

الذين يقبضون بيد من حديد على زمام الجيش. وأراد روهم وغوبلز والراديكاليون الآخرون في الحركة ، تصفية جميع هؤلاء . وقد قرع روهم ، الذي كان جنوده يعدون الآن نحواً من مليونين ، أي عشرين ضعفاً بالنسبـة للجيش النظامي ، جرس الخطر في حزيران اذ قال :

« لقد حققنا نصراً جديداً في الطريق إلى الثورة الألمانية ... ولن يسمح جيش العاصفة وجيش الحرس النازي ، اللذان احتملا المسؤولية العظمى في الابقاء على الثورة الألمانية مواصـلة غذّها ، لأحد بخيانتها أو وقفها في منتصف الطريق .. واذا كان الجبنـاء الرعاديد ، يعتقدون ان الثورة الوطنية قد عمّرت اطول مـن اللازم ... فلقد حان الوقت حقاً لإنهائها وتحولها الى ثورة وطنية اشتراكية ... فسنواصل صراعنا ، معهم أو بدونهم ، واذا ما حزبنا الأمر ضدهم ... فنحـن الكفلاء الذين لا نقبل الرشوة بتحقيق الثورة الألمانية » [١] .

واضاف على قوله هذا في شهر آب ، العبارات التالية التي وردت في خطاب له : « لا يزال هناك عدد من الناس في المراكز الرسمية اليوم الذين لا يحملون اية فكرة اطلاقاً عن روح الثورة . وعلينا ان نتخلص منهم بلا رحمة ولا اشفاق اذا تجرأوا على وضع آرائهم الرجعية موضع التنفيذ » .

لكن هتلر كان يفكر بصورة تناقض هذه الافكار . فلقد كانت الشعارات النازية الاشتراكية مجرد دعاية ووسيلة لكسب الجمـاهير الى جانبه في طريق وصوله الى الحكم. أما وقد حقق الآن هذه الغاية فلم يعد يكترث بهذه الشعارات مطلقاً . وهو في حاجة الآن الى الوقت لتثبيت اقدامه ، وترسيخ قواعد البلاد. وعليه لفترة ما على الأقل ، ان يرضي اليمين ممثلاً في رجـال الاعمال والجيش والرئيس . وهو لا يعتزم ان يفلس المانيا ، وان يعرض بذلك وجود عهده الى

---

١ ـ مجلة (مونتا تشفيته) الاشتراكية الوطنية ـ عدد ٣٩ ـ حزيران ١٩٣٣ .

الخطر ، فمن الواجب ان لا تكون ثمة ثورة ثانية .

وقد اوضح فكرته هذه ايضاحاً جلياً في خطاب ألقاه على قـــادة جيش العاصفة والحرس النازي في الأول من تموز . وقال ان كل ما تحتاجه المانيا الآن هو النظام . ثم مضى يقول : « وسأخمد كل محاولة لتعكـير صفو النظام القائم بنفس القسوة التي أخمد فيها ما يسمى بالثورة الثانية التي لن تؤدي الى شيء سوى الفوضى » . وقد كرر هذا التحذير في خطاب ألقاه في حكام الولايات النازيين الذين اجتمعوا في دار المستشارية في السادس من تموز اذ قال :

« ليست الثورة وضعاً دائماً لسير الأمور وعلينـــا ان لا نسمح للبلاد بالسير الى ذلك الوضع . ومن الواجب توجيه تيـــار الثورة الذي تحرر الى الطريق الأمين والمضمون للتطور . فعلينـــا ان لا نطرد رجل اعمال من عمله ، لمجرد أنه قد نجح في حياته ، حتى ولو لم يكن قد اعتنق بعد الاشتراكية الوطنية ولا سيما اذا كان الاشتراكي الوطني الذي سيخلفه في عمله ، لا يعرف شيئاً عن هذا العمـــل . ومن الواجب ان تكون الكفـــاية المستوى الوحيد المقبول في في العمل ...

« ولن يحكم علينا التاريخ طبقاً لتمكننا من فصل اكبر عدد من الاقتصاديين من اعمالهم وإيداعهم السجن ، بل طبقاً لنجاحنا في تأمين العمل . ولا تلزمنا الافكار الواردة في برنامجنا بالعمل كأناس حمقى وبقلب كل شيء ، وإنما تلزمنا بأن ندرك تيار افكارنا بحكمة وروّية . وسيغدو سلطاننا السياسي مع مرور الزمن اكثر أمنـــاً واستقراراً كلما نجحنا في دعمه اقتصادياً . وعلى حكام الولايات والحالة هذه أن يتأكدوا من عدم قيام أية منظمات حزبية بادعـاء العمل نيابة عن الحكومة ، فتطرد الافراد ، من مناصبهـم وتعين غيرهم بدلاً منهم ، وتقوم بالاعمـال التي هي من صلاحية حكومة

الرايخ ، أو من صلاحية وزير اقتصاده »[1] .

ولم تصدر أية بيانات رسمية اقوى من هذا البيان تقول ان الثورة النازية كانت سياسية لا اقتصادية . ولقد قام هتلر لدعم كلماته هذه ، بطرد عدد من المتطرفين النازيين الذين كانوا قد حاولوا السيطرة على اتحاد اصحـــاب الاعمال . وأعاد كروب فون بوهلين وفريتز ثيسّين الى مركزيهما كزعيمين في الاتحاد، وأمر بحل العصبة المناصلة لجماعة تجار الطبقة الوسطى التي كانت قد ازعجت اصحاب المحلات التجارية الكبرى ، وعين الدكتور كارل شميت خلفــاً لهوغنبرغ في وزارة الاقتصاد . وكان شميت هذا من اكثر رجال الاعمال تزمتاً ، وكان مديراً عاماً « للاليانس » ، وهي اكبر شركة للتأمين في المانيا . ولذا فلم يضع وقتاً في وضع حد لخطط الاشتراكيين الوطنيين الذين كانوا من السذاجة على درجة حملتهم على ان ينظروا الى برنامجهم الحزبي نظرة جدية .

وبلغت خيبة الأمل في القاعدة النازية ولا سيما عند جنود جيش العاصفـــة الذين كانوا يؤلفون النواة الضخمة لحركة هتلر الجماهيرية ، حداً كبيراً . فلقد كان معظمهم يمتون الى الجيش اللجب من الناس المحرومين والساخطين والمهلهلي الثياب . وكانوا أعداء للرأسمالية بطريق التجربة واعتقدوا ان الثورة التي ناضلوا من اجلها في معارك الشوارع ستأتي لهم بالغنائم والمناصب الطيبة إما في الأعمال الحرة أو الحكومة . ولكن هذه الآمال التي انتعشت في ظروف الربيع المتطرفة ، قد انهارت الآن . فلقد ظلت العصابات القديمة سواء أكان افرادها من اعضاء الحزب او لم يكونوا ، هي التي لا تزال تتحكم في الأعمال وتسيطر عليها . ولم يكن هذا التطور على أي حال ، هو الوحيد الذي اثار قلق جيش العاصفة .

وسرعان ما عاد النزاع القديم بين هتلر وروهم حول وضع جيش العاصفة واهدافه الى الظهور من جديد . فلقد كان هتلر يصر منذ اقدم ايام الحركة النازية على ان يكون جيش العاصفة قوة سياسية لا عسكرية، وكان على هذا الجيش ان

---

١ – بينز – ص ٢٨٧ و ص ٨٦٥ – ٨٦٦ .

يؤمن وسيلة العنف البدني والارهاب اللذين يستطيع الحزب عن طريقهما ان يشق سبيله الى السلطان السياسي . أما بالنسبة الى روهم ، فكان جيش العاصفة يمثل لا مجرد العمود الفقري للثورة النازية فحسب ، بل والنواة للجيش الثوري في المستقبل الذي سيؤمن لهتلر ، ما أمنته جيوش المتطوعة الفرنسية لنابليون بعد الثورة الفرنسية . وكان يرى ان الوقت قد حان لكنس القادة العسكريين البروسيين الرجعيين ، أو هؤلاء « الاغبياء الباردين » كما كان يسميهم زراية بهم واحتقاراً ، ولتأليف قوة ثورية محاربة هي جيش الشعب ، الذي يتولى هو واعوانه الذين يمتازون بالصلابة ، قيادته ، لا سيما وقد نجحوا في السيطرة على الشوارع الالمانية .

ولكن لم يكن ثمة ما هو ابعد على افكار هتلر من هذه الآراء . فلقد ادرك اكثر من روهم ومن أي نازي آخر ، انه ما كان بوسعه ان يصل الى الحكم دون تأييد قادة الجيش او تسامحهم على الاقل ، وان بقاءه على الأقل في قيمة الحكم يعتمد على استمرار دعمهم في الوقت الحاضر على الأقل ، لا سيما وأنهم لا يزالون يحتفظون بالقوة الفعلية التي تمكنهم من ابعاده عن الحكم اذا شاءوا . ورأى هتلر أيضاً ان ولاء الجيش له شخصياً امر ضروري للغايه في تلك اللحظة الحرجة، التي لن يطول الوقت على مجيئها عندما تنتهي حياة هندنبرغ ، القائد الأعلى العجوز الذي بلغ السادسة والثمانين من عمره .يضاف الى هذا ،ان الزعيم النازي آمن بأن فيلق الضباط وحده، بما عرف عنه من تقاليد عسكرية وكفايات ضخمة، هوالذي يستطيع ان يحقق له هدفه في بناء جيش قوي ومنضبط في اقصر فترة ممكنة . ولم يكن جيش العاصفة في رأيه الا قوة غوغائية تصلح لقتال الشوارع ، ولكنها لا قيمة لها كجيش عصري . ولقد انتهت مهمة هذه القوة ، وبات من الضروري من الآن فصاعداً ، ان تختفي بصورة ماكرة من الصور. ولم يكن في الامكان التوفيق بين رأيي هتلر وروهم . فنشب نضال حتى الموت بين هذين الرجلين منذ صيف عام ١٩٣٣ حتى الثلاثين من حزيران من العام التالي . فقد كانا يمثلان أصلب زعماء الحركة النازية عوداً وأشدها مراساً ، رغم ما يربطهما من وشائج

الصداقة الحميمة ، اذ كان ايرنست روهم هو الوحيد بين النازيين الذي يخاطبه هتلر بالضمير الشخصي (D U) الذي يعني زوال الكلفة بينهما .

وأعرب روهم عن الاحساس العميق بخيبة الأمل الذي سيطر على صفوف جنود العاصفة ، في خطاب ألقاه على نحو من خمسة عشر الف ضابط من ضباط جيشه ، في الميدان الرياضي في برلين ، في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٣ ، عندما قال : « ولقد بدأنا نسمع .. ان جيش العاصفة قد فقد الغاية من وجوده ، ولكن هذه الغاية ما زالت قائمة » . وتصلب هتلر في موقفه وقال في مناسبة اخرى ، في بادغودسبرغ في التاسع عشر من آب ... « يجب ان تكون العلاقة بين جيش العاصفة والجيش النظامي كالعلاقة بين الاخير وبين الزعامة السياسية » . وكان اكثر وضوحاً ايضاً في الخطاب الذي القاه في نورمبرغ في الثالث والعشرين من ايلول :

« علينا في هذا اليوم ان نتذكر بصورة خاصة الدور الذي قام به جيشنا ، اذ اننا نعرف جميعاً ، انه لو لم يقف الجيش الى جانبنا في ايام ثورتنا ، لما كنا نقف حيث نقف الآن . وفي وسعنا ان نؤكد للجيش اننا لن ننسى هذا الفضل ابداً واننا نرى في رجاله ، حملة ما امتاز به جيشنا العظيم المجيد من تقاليد ، واننا بجماع افئدتنا ، وبكل ما لدينا من قوة سنؤيد روح هذا الجيش .

وكان هتلر قبل هذا التاريخ ، قد قدم بصورة سرية للقوات المسلحة تأكيدات حملت عدداً من كبار الضباط على الوقوف الى جانبه . ففي الثاني من شباط عام ١٩٣٣ ، وبعد ثلاثة ايام من تسلمّه زمام الحكم ، ألقى خطاباً استغرق ساعتين في عدد من كبار القادة العسكريين وأمراء البحر في منزل الفريق فون هامرشتاين ، القائد العام للجيش . وقد كشف الاميرال ايريك ريدر ، في محاكمة نورمبرغ عن النغمة التي سادت هذا الاجتماع الاول بين المستشار النازي وبين فيلق الضباط [١] .

---

١ - من دراسة عنوانها «علاقاتي بأدولف هتلر والحزب» ، كتبها الاميرال ريدر في موسكو

وقال الاميرال ان هتلر قد بدد مخاوف الفئة العسكرية المختارة من ان تستدعى القوات المسلحة للاشتراك في حرب اهلية ، وأكد لأفرادها ان في وسع الجيش والاسطول ان يكرسا نفسيهما الآن ، دون اعاقة او خوف لاداء مهمته الرئيسية في اعادة تسليح المانيا الجديدة. واعترف امير البحر ريدر بأنه سر سروراً عارماً لما سمعه من احتمال بناء اسطول جديد . وذكر الفريق فون بلومبرغ الذي ادى توليه السريع وزارة الدفاع في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٣، الى احباط أي اغراء للجيش بالثورة على تعيين هتلر مستشاراً ، في مذكراتـــه التي لم تطبع بعد ، ان الفوهرر قد فتح آفاقاً من النشاط حملت في طياتها احتمالات عظيمـــة للمستقبل » .

وخلق هتلر رغبة منه في تشديد عزائم القادة العسكريين وحماسهم، في الرابع من نيسان ، مجلساً دفاعياً للرايخ مهمته الاشراف على برنامج سري للتسلح والاسراع فيه . وأصدر المستشار في العشرين من تموز ، أي بعد ثلاثة أشهر ، قانوناً جديداً للجيش الغى بموجبه صلاحيات المحاكم المدنية في محاكمة العسكريين ، ومزيلاً من الوجود قاعدة الانتخاب التمثيلي للجنود ، معيداً بذلك لفيلق الضباط امتيازاته العسكرية القديمة . وشرع الكثيرون من الفرقاء وامراء البحر ، ينظرون الى الثورة النازية بمنظار آخر ، اكثر ميلاً ووداً .

وأراد هتلر ترضية صديقه روهم ، فأسماه مع هس نائبين للزعيم في الحزب . وعيَّنه في الأول من كانون الأول عضواً في مجلس الوزراء ، كما وجه اليه في يوم رأس السنة لعام ١٩٣٤ ، رسالة ودية حارة بوصفه الرئيس الأعلى لجيش العاصفة . ومع تأكيده بأن من واجب الجيش النظامي « ضمان حماية البلاد ضد العالم الذي يقع خارج حدود بلادنا » ، اعترف « بأن مهمة جيش العاصفـــة تأمين النصر للثورة الاشتراكية الوطنية والوجود للدولة الاشتراكية الوطنية» . وأضاف ان

بعد وقوعه اسيراً في يد الروس وقدمت الى محاكمات نورمبرغ - المؤامرة النازية والعدوان - ص ٧٠٧ .

نجاح هذا الجيش انما كان « قبل كل شيء » بفضـــل روهم ، وانتهت الرسالة على النحو التالي :

« وفي ختام هذه السنة من الثورة الاشتراكية الوطنية ، أرى نفسي مضطراً لأن أشكرك يا عزيزي ارنست روهم ، للخدمات الخالدة التي قدمتها الى الحركة الاشتراكية الوطنية وإلى الشعب الألماني ، ولأن اؤكد لك ، كم انا مدين للقدر الذي مكنني من ان ادعو رجالاً مثلك اصدقاء لي وزملاء في النضال .

مع خالص صداقتي وعظيم تقديري

ادولف هتلر » [1]

وقد نشرت هذه الرسالة التي استعمل فيها هتلر ضمـــير المخاطب الشخصي الخالي من « الكلفة » في صحيفة الحزب الكبرى « الفولكشاير بيوباختر » ، صبيحة الثاني من كانون الثاني عام ١٩٣٤ ، وأدى نشرها الى التخفيف كثيراً من مشاعر السخط في صفوف جيش العاصفة . وفي جو الود الذي خـــيم في اعياد الميلاد ورأس السنة هدأت المنافسة بين جيش العاصفة والجيش النظامي مؤقتاً ، كما هدأ الصخب الذي يثيره النازيون المتطرفون مطالبين « بالثورة الثانية » .

طلائع السياسية الخارجية النازية

« لم يكن هذا نصراً ، اذ لم يكن ثمة اعداء » . هذه هي العبارة التي اوردها اوزوالد شبينغلر في تعليقه على السهولة التي تمكن بها هتلر من السيطرة على المانيا وتحويلها الى النازية في عام ١٩٣٣ . ولقد كتب مؤلف كتاب « انحـــلال الغرب » في وقت مبكر من العام يقول ... « انني لأشعر بالكثير من الريب والشكوك عندما اراهم يحتفلون به في كل يوم ، في مثل هذا الصخب والضجيج .

---

١ ـ باينز ـ خطب ادولف هتلر ـ ص ٢٨٩ .

ولا ريب في ان من الأفضل لو تريثنا في هذه الاحتفالات وأجلناها الى يوم نسجل فيه انتصارات واقعية ومحدودة ، أي على الصعيد الخارجي . فليس ثمة من انتصارات غير هذه »[1] .

ولقد كان المؤرخ الفيلسوف ، الذي بات لفترة قصيرة من الزمن معبود النازيين ، الى الوقت الذي فتر فيه الاستلطاف بصورة متبادلة بينهما ، على عجلة من أمره في موضوع السياسة الخارجية . فلقد تحتم على هتلر ان يسيطر على المانيا قبل ان يشرع في غزو العالم وفتحه . ولكن سرعان ما انتهى من أمر خصومه ، أو قاموا هم بتصفية انفسهم ، حتى رأيناه لا يضيع لحظة واحدة في توجيه عنايته الى الموضوع الذي كان دوماً يستأثر باهتمامه ، وهو موضوع السياسة الخارجية .

ولم يكن هناك ما هو اسوأ من وضع المانيا خارجياً في ربيع عام ١٩٣٣ . فلقد كان الرايخ الثالث معزولاً سياسياً وعاجزاً عسكرياً . ولقد ضج العالم بأسره من تطرف النازيين ولا سيما من اضطهادهم لليهود . وكانت جارات المانيا ولا سيما فرنسا وبولندة تنظر اليها نظرة الريبة والشك. وفي آذار عام ١٩٣٣، وعلى اثر مظاهرة عسكرية بولندية في دانزيغ ، أبدى الماريشال بلسودسكي ، الى الفرنسيين رغبته في التعاون على اساس حرب وقائية مشتركة ضد المانيا . حتى موسوليني ، على الرغم من ترحيبه الظاهري بقيام دولة فاشية جديدة ، لم يكن في الحقيقة متحمساً لوصول هتلر الى الحكم ، اذ ان ظهور زعيم في بلاد تملك طاقات اقوى بكثير من طاقات ايطاليا ، يؤدي إلى إلقاء الدوتشي في الظلال . وقيام رايخ ثالث «مكلوب» ، سيحمل في طياته اطماعاً في النمسا والبلقان وهي الاماكن التي كان الديكتاتور الايطالي،قد شرع في اعلان مطالبه تجاهها . وكان عداء الاتحاد السوفياتي لألمانيا النازية،بعد ان كان الصديق الوحيد لألمانيا الجمهورية في السنوات التي تلت عام ١٩٢١ ، واضحاً كل الوضوح .

---

١ – شبينغلر – انحلال الغرب – ص ٨ .

وهكذا كان الرايخ الثالث في الحقيقة دولة لا صديق لها في عالم معاد . وكانت بالاضافة الى ذلك دولة منزوعة السلاح نسبياً اذا ما قورنت بجاراتها القويّات المسلّحات .

وهكذا أملت الوقائع القاسية لوضع المانيا الضعيف والمعزول ، على سياسة هتلر الخارجية خططها السوقية (الاستراتيجية) والتعبوية الفورية وأساليبها . ولكن من سخرية الاقدار أن هذا الوضع ايضاً أمن الاهداف الطبيعية التي تنسجم مع رغباته العميقة ورغبات غالبية الشعب الألماني ، وهي التخلص من قيود معاهدة فرساي دون استشارة الآخرين الى فرض العقوبات ، والتسلح دون المجازفة بنشوب الحرب . ولن يكون في امكانه الا بعد تحقيق هذه الاهداف المستعجلة ، ان يضمن لنفسه حرية العمل والقوة العسكرية لمتابعة سياسته البعيدة المدى الرامية اساليبها وأهدافها الى تحقيق ما وصفه بصراحة وتفصيل في كتابه « كفاحي » .

وكان من الواضح ان اول ما يجب عليه عمله ، هو ارباك اعداء المانيا في اوروبا ، عن طريق التبشير بنزع السلاح والسلام ، مع الاحتفاظ بعين ساهرة ، ترقب أية ناحية من نواحي الضعف في الدرع الجماعي الذي ضربوا نطاقه حولها . وقد ألقى في السابع عشر من ايار عام ١٩٣٣ ، في الرايشستاغ خطابه المشهور « بخطاب السلام » وهو من اعظم الروائع الخطابية في حياته ، ويعتبر قطعة فنية من قطع الدعاية المضللة ، اذ أثر على الشعب الألماني تأثيراً عميقاً جعله يلتف حوله ويتحد وراءه ، كما ترك انطباعاً عميقاً وطيباً في العالم الخارجي . وكان الرئيس روزفلت ، قبل يوم واحد ، قد بعث برسالة طنانة الى رؤساء اربع وأربعين دولة حدد فيها خططه وآماله ، وخطط بلاده في مشروع عالمي للسلام ونزع السلاح وطالب بالغاء الاسلحة الهجومية من قاذفات قنابل ودبابات ومدفعية ثقيلة متحركة . وكان هتلر سريعاً في تقبل تحدي الرئيس الامريكي واستغلاله الى اقصى حدود الاستغلال :

« لقد نال اقتراح الرئيس روزفلت الذي سمعت به ليلة أمس ،

أعمق مشاعر الشكر من الحكومة الألمانية، فهي على أتم الاستعداد للموافقة على هذه الطريقة في التغلب على الأزمة الدولية..ولا ريب في ان اقتراح الرئيس شعاع من الراحة والطمأنينة لكل من يرغب في الحفاظ على السلام .. والمانيا على استعداد تام للتخلي عن كافة الاسلحة الهجومية ، اذا كانت الدول المسلحة القائمة الى جانبها على استعداد لتدمير ما لديها من اسلحة الهجوم...والمانيا على استعداد كلي ايضاً ، لتدمير ما تبقى لديها من كميات صغيرة من التنظيمات العسكرية والاسلحة ، اذا كانت الدول المجاورة لها راغبة في ان تعمل نفس الشيء .. والمانيا على استعداد للموافقة على ميثاق صادق لعدم الاعتداء ، اذ انها لا تفكر مطلقاً بمهاجمة احد ، وكل أملها ان تحافظ على أمنها وسلامها . »

وتضمَّن الخطاب ايضاً الكثير من الاعتدال ومن ادعاء الحب للسلام ممـا أدهش العالم القلق وبعث في نفوس الجميع مشاعر الارتياح . ان المانيا لا تريـد الحرب ، وإن الحرب «جنون مطبق » وإنها « ستؤدي الى انهيار النظام السياسي والاجتماعي الراهن». وليس لألمانيا النازية أية رغبة في«ألمنة»الشعوب الاخرى . و « عقلية القرن الماضي ، التي حملت البعض على التفكير بأن تحيل من البولنديين أو الفرنسيين المانا ً ، غريبة علينا . . فالفرنسيون والبولنديون وغيرهم هم جيراننا، ونحن نعرف ان ليس ثمة من حادث لا يكون مفهوماً من الناحية التاريخية يمكن له ان يغير هذا الواقع » .

وكان ثمة تحذير واحد.فلقد طلبت المانيا المساواة في المعاملة مع جميع الدول الاخرى ولا سيما في موضوع التسلح . واذا لم تحقق المانيا هذه المساواة ، فانها ستجد نفسهـا مضطرة الى الانسحاب من مؤتمر نزع السلاح ومن عصبـة الأمم ايضاً .

ولم يأبه احد بهذا الانذار ، فقد كان العالم الغربي مشغولاً بموجة السرور التي عمت ارجاءه من جراء هذا التعقل الذي لم يكن متوقعاً من هتلر . ووافقت

صحيفة « التايمز » اللندنية على ان مطالبة هتلر بالمساواة لا يمكن مناقضتها او دحضها . وطالبت صحيفة « الدايلي هيرالد » اللسان الرسمي الناطق لحزب العمال ، بأن تصدق وعود هتلر على علاتها . واستنتجت صحيفة « السبكتاتور » المحافظة بأن هتلر قد أمسك بيد روزفلت الممدودة وان هذه الايماءة تؤمن املاً جديداً مشرقاً للعالم المعذب . ونقلت وكالة الانباء الألمانية الرسمية من واشنطن على لسان سكرتير الرئيس الامريكي قوله : « لقد تحمس الرئيس لقبول هتلر اقتراحاته » .

وهكذا لم تصدر عن الطاغية الألماني النازي تهديدات فظة كما توقع الكثيرون وانما صدرت عنه نعومة وإشراقة . وسحر هتلر بخطابه العالم وفي الرايشستاغ نفسه اقترع النواب الاشتراكيون الذين لم يكونوا قد اودعوا السجن او فرّوا الى المنفى بعد ، الى جانب بيان هتلر عن سياسته الخارجية حتى تكون موافقة المجلس اجماعية .

ولكن انذار هتلر لم يكن مجرد كلام فارغ . وعندما اتضح في مستهل شهر تشرين الأول ان الحلفاء سيصرون على فترة ثماني سنوات لخفض تسليحهم بعدها الى المستوى الألماني ، أعلن الفوهرر فجأة في الرابع عشر من تشرين الأول ان المانيا بعد ان انكروا عليها المساواة في الحقوق مع الدول الاخرى في جنيف ، قررت الانسحاب فوراً من مؤتمر نزع السلاح ومن عصبة الأمم . وقام في نفس الوقت بثلاث خطوات اخرى ، اذ حل الرايشستاغ وأعلن انه سيعرض قراره بالانسحاب من جنيف على استفتاء شعبي وأمر الفريق فون بلومبرغ وزير الدفاع باصدار توجيهات سرية الى القوات المسلحة لمقاومة أي هجوم مسلح اذا لجأت عصبة الأمم الى فرض العقوبات على المانيا (١) .

وقد حسر هذا العمل العاجل عن خواء الخطاب الودي الذي ألقاه هتلر في

---

١ ـ اوامر بلومبرغ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب ـ وثائق نورمبرغ (٣٤) . ص ٤٨٧ ـ ٤٩١ .

الربيع داعياً الى التفاهم .وكانت هذه هي مقامرة هتلر العلنية الأولى في الشؤون الخارجية . وقد عنت ان المانيا النـــازية تعتزم من الآن فصاعداً تسليح نفسها متحدية أي اتفاق لنزع السلاح ولمعاهدة فرساي .وكانت هذه المغامرة مدروسة كما كانت الأولى بين مغامرات عدة . وكشفت التعليمات السرية التي اصدرهـــا بلومبرغ الى الجيش والاسطول ، والتي ظهرت في محـاكمات نورمبرغ ان هتلر لم يكتف بالمقامرة على احتمال فرض العقوبات فحسب ، بل انه غامر في وضع المانيا اليائس في حالة تطبيقها [1] . وقد حددت التعليمات خطوطا دفاعية في الغرب ضد فرنسا وفي الشرق ضد تشيكوسلوفاكيا وبولندة مع الأمر للقوات الألمانية « بالاحتفاظ بها اطول أمد ممكن » . ويتضح من أوامر بلومبرغ ان القـــادة العسكريين الألمان على الأقل،لم يكونوا مخدوعين في أن دفاع الرايخ لا يستطيع الصمود أية فترة من الزمن .

وكانت هذه الأزمة،الحلقة الأولى في سلسلة متتابعة من الأزمات التي قدر لها ان تستمر ثلاث سنوات أخرى ،حتى قام الألمان بإعادة المنطقة المنزوعة السلاح على الضفة اليسرى من نهر الراين في عام ١٩٣٦ ، والتي كان في امكان الحلفاء ان يطبقوا العقوبات ابانها ، لأن هتلر قد ترك مؤتمر نزع السلاح وعصبة الأمم بل لأنه قد انتهك بنود نزع السلاح التي نصت عليها معاهدة فرساي ، وهو انتهاك كان يسيرفي مجراه في المانيا مدة عامين على الأقل حتى قبل قيام هتلر. وكان من المؤكد ان في وسع الحلفاء في تلك الفترة ان يقهروا المانيا بسهولة ، وهو افتراض لا يقل في صحته عن الافتراض الآخر بأن أي عمل من جانب الحلفاء آنذاك كان كافياً لوضع نهاية للرايخ الثالث في نفس السنة التي ولد فيها ، ولكن مما تميزت به عبقرية هذا النمسوي الافـّاق في وقت ما ، انه كان يعرف تماماً المعدن الذي

---

١ ـ كان اللورد هيلشام وزير حربية بريطانيا قد حذر قبل بضعة أشهر ، أي في الحادي عشر من ايار ، بصورة علنية ، من أن أية محاولة من المانيا للتسلح من جديد تعني نقضاً لمعاهدة الصلح ، ويجب ان تقابل بالعقوبات طبقاً للمعاهدة نفسها .وكان الظن الغالب على المانيا ان العقوبات تعني الغزو المسلح .

يتكوّن منه خصومه في الخارج ، وكان في معرفته هذه لا يقل خبرةً او دهاءعن تلك التي اظهرها تجاه خصومه في الداخل . ولم تقم دول الحلفاء المنتصرة في هذه الأزمة كما في الأزمات العظيمة الأخرى التي تلت ، بأي عمل ، إذ كانت مجزّأة وكانت مغرقة في الكسل والترهّل ، وفي العمى الى الحد الذي حال بينها وبين تبيّن أو حتى استشفاف ما كان يجري اعداده وراء الراين. ولقد كانت حسابات هتلر في هذا الصدد سليمة كل السلامة ،تماماً كحساباته الاخرى في الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة الى شعبه . وكان يعرف تمام المعرفة ما سيقوله الشعب الألماني عند استفتائه ، الذي حدد موعده مع موعد الانتخابات الجديدة للرايشستاغ في دولة الحزب النازي الواحد في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩٣٣ ، اي في اليوم الذي يلي الذكرى السنوية لهدنة عـام ١٩١٨ ، وهو اليوم الأسود الذي يؤجج الذكريات الألمانية بنار الحقد والضغينة .

ولقد قال هتلر في مهرجان انتخابي اقيم في بريسلاو في الرابع من تشرين الثاني : « علينا ان نضمن بأن يسجل هذا اليوم فيما بعد في تاريخ شعبنا ، كيوم الخلاص ، وأن نرى تاريخنا وقد كتب على هذا النحو : في الحـــادي عشر من تشرين الثاني في سنة من السنين أضاع الشعب الألماني رسمياً كرامته ،وبعد خمسة عشر عاماً حل يوم الثاني عشر من تشرين الثاني ، فاستعاد هذا الشعب كرامته بنفسه » . وسارع هندنبرغ الوقور ، إلى تقديم تأييده عشية الحادي عشر من تشرين الثاني أي قبيل الإقتراع . فقال في إذاعة وجهها إلى الأمة :«اظهروا غداً وحدتكم القومية المكينة وتضامنكم مع حكومتـكم . وأيدوا معي ومع مستشار الرايخ مبدأ الحقوق المتساوية والسلام مع الكرامة ، واظهروا للعـــالم انكم قد اجتزتم دور النقاهة ، وأنكم ستحافظون بعون الله على وحدة المانيا » .

وكانت استجابة الشعب الألماني بعد خمسة عشر عاماً من خيبة الأمل ومن الحقد على نتائج الحرب الخاسرة اجماعية تقريباً . فقد اقترع نحو (٩٦) في المائة من مجموع الناخبين،وكانت أصوات(٩٥)في المائة منهم مؤيدة لانسحاب المانيا من عصبة الامم . ونالت القائمة النازية الوحيدة لعضوية الرايشستاغ التي ضمت

هوغنبرغ ونحو ستة من غير النازيين (٩٢) في المائة من مجموع اصوات المقترعين . واقترع (٢١٥٤) من مجموع (٢٢٤٢) هم نزلاء معسكر اعتقال داخاو الى جانب الحكومة التي احتجزتهم . ومن الحق ان يقال ان التهديد قد استخدم لدى بعض الجماعات التي لم يقترع أفرادها أو اقترعوا على النحو الخاطىء، كما ان الخوف قد سيطر في بعض الحالات على الناخبين من انهم اذا اقترعوا ضد العهد فسيكتشف أمرهم ويتعرضون للعقوبة . وحتى لو اخذنا هذه التحفظات بعين الاعتبار ، فان عملية فرز الاصوات قد تمت بمنتهى النزاهة. وكانت النتائج نصراً مذهلاً لأدولف هتلر . ولم يكن ثمة من شك في انه بتحديه للعالم الخارجي كما فعل ، كان يحظى بالتأييد الجماعي للشعب الألماني .

ولم تمض إلا ايام ثلاثة على الاستفتاء والانتخاب ، حتى كان هتلر يستدعي السفير البولندي الجديد ، جوزيف ليبسكي. وصدر على أثر المقابلة بلاغ مشترك لم يدهش الشعب الألماني فحسب ، بل والرأي العام في الخارج ايضاً . فقد اتفقت الحكومتان البولندية والألمانية «على معالجة كافة القضايا التي تمس بلديهما عن طريق المفاوضات المباشرة، وأن يتجنبا كل استخدام للقوة في علاقتهما ببعضهما دعماً للسلام الاوروبي » .

فلقد كانت بولندة العدو المكروه والمحتقر عند الشعب الألماني ولعل عداءه لها كان يفوق عداءه لفرنسا . فلقد كان الألمان يرون ان افظع جريمة ارتكبها مخططو صلح فرساي، فصل بروسيا الشرقية عن الرايخ بالممر البولندي، واقتطاع دانزيغ من بلادهم واعطاؤها الى بولندة مع مقاطعة بوزن، وقسم من سيليزيا التي على الرغم من ان غالبية سكانها من البولنديين كانت جزءاً من الاراضي الألمانية منذ ايام اقتسام بولندة . ولم يكن ثمة أي سياسي في المانيا إبان العهد الجمهوري على استعداد للاعتراف بدوام ما اغتصبته بولندة . ولقد رفض ستريسمان حتى دراسة ميثاق للشرق يكون مكملاً لميثاق لوكارنو في الغرب. وكان الفريق فون سيخت ، والد الجيش الألماني النظامي والمتحكم في سياسة المانيا الخارجية إبان السنوات الأولى من عهد الجمهورية، قد نصح الحكومة في عام ١٩٢٢، بأن «وجود

بولندة شيء لا يطاق ،ولا يتفق مع الأوضاع الاساسية للوجود الألماني ».ومضى يقول ... «ولذا يجب ان تزول بولندة وستزول حتماً » . وأضاف ان محوهـا من الوجود«يجب ان يكون احد الأسس الجوهرية في سياسة المانيا الخارجية.. وبزوال بولندة ستتهاوى دعامة من اقوى دعائم معاهدة فرساي، وتتهاوى معها زعامة فرنسا » [1] .

ولقد رأى هتلران الخطوة الأولى لزوال بولندة يجب ان تكون في فصلها عن تحالفها مع فرنسا . وأتاح له السبيل الذي سار فيه الآن عدة ميزات فوريـة بالاضافة الى الميزة النهائية . ففي طريق التخلي عن استخدام القوة ضد بولندة ، كان في وسعه الآن ان يقوي دعايته السلميه وأن يبدد المخاوف التي اثارها انسحابه من جنيف في كل من الاوربتين الشرقية والغربية . وعن طريق اقناع البولنديين بالتفاوض المباشر معه ،رأى ان في امكانه تجاوز صلاحيات عصبة الأمم وبالتالي اضعاف سلطتها. وهو بعمله هـذا لا يوجه ضربة فحسب الى نظرية العصبة في « السلامة الجماعية » ، بل يحطم ايضاً الأحلاف الفرنسية في اوروبا الشرقية التي تؤلف بولندة قاعدة أساسية من قواعدها . وقد لا يفهم الشعب الألماني بما يحمله من كره تقليدي للبولنديين ما رمى اليه هتلر ، ولكنه كان يرى أن من المزايا التي تجعل الديكتاتورية خيراً من الديموقراطية ان السياسات التي لا تحظى بالتأييد الشعبي والتي تؤمن نتائج مهمة في النهاية يمكن اتباعها بصورة مؤقتة مـن قبل الحكومات الديكتاتورية دون خوف من احداث ضجّة داخلية .

وصدر اعلان في السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٤ ، أي قبل اربعة ايام من موعد ظهور هتلرامام الرايشستاغ ، في الذكرى السنوية الأولى لتسنّمه الحكم ، يقول بأن ميثاق عدم اعتداء قد وقع بين المانيا وبولندة . ومنذ هذا التاريخ أخذت بولندة التي ازالت في ظل ديكتاتورية الماريشال بلسودسكي آخر مظاهر الديموقراطية البرلمانية ، تبتعد شيئاً فشيئاً عن فرنسا التي كانت

---

١ – تيلفورد تيلور ـ السيف والصليب المعقوف ، ص ٤١ .

تعتبر حاميتها منذ عودتها الى الحياة في عام ١٩١٩ ، وتدنو شيئاً فشيئاً من المانيا النازية . وكان هذا الطريق الذي سارت فيه ، هو الذي قادهـــا في النهاية الى دمارها ، قبل ان تنتهي مـــدة العمل بمعاهدة « الصداقة وعدم الاعتداء » التي عقدتها مع المانيا .

وعندما ألقى هتلر خطابه في الرايشستاغ في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٤ ، كان في وسعه ان يستعيد ما حققه من اعمال في سنة واحدة لا مثيل لها من تاريخ المانيا . فلقد تمكن في غضون إثني عشر شهراً ، من الإطاحة بجمهورية ويمار ، وأن يقيم ديكتاتوريتـــه الشخصية مكان ديموقراطيتها ، ويحطم جميع احزابها السياسية باستثناء حزبه ، ويزيل الحكومات الاقليميـــة في الولايات وبرلماناتها ويوحد الرايخ بعد ازالة الصبغة الاتحادية عنه ، ويكنس من الوجود النقابات العمالية ، ويمحو المنظمات الديموقراطية من كل نوع ، ويطرد اليهود من الحياة العامة والمهنية ، ويلغي حرية الكلام والصحافة ، ويزيل استقلال المحاكم ، « وينسّق » في ظل الحكم النازي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافيـــة والاجتماعية لشعب عريق ومتقدم في مضمار الحضارة. وقد نال بالنسبة الى جميع هذه المنجزات التي حققها وبالنسبة الى عمله الحاسم في السياسة الخارجية الذي اخرج المانيا من مجموعة الأمم في جنيف والذي أعلن تصميم المانيا على ان تعامل على قدم المساواة مع الدول العظمى ، تأييد الأغلبية الساحقة للشعب الألماني كما دللت على ذلك نتائج الاستفتاء والانتخاب الاخيرين .

ولكن السحب بـــدأت تتكاثف في الأفق النازي مع سير العام الثاني من ديكتاتوريته الى الأمام .

حمّام الدم في ٣٠ حزيران ١٩٣٤

نشأ هذا الادلهام في الأفق النازي عن ثلاث مشاكل لم تحل وكانت مترابطة مع بعضها البعض ، أولاها استمرار الصخب مـــن المتطرفين من قادة الحزب

وجيش العاصفة ومطالبتهم بالثورة الثانية ، وثانيتها المنافسة بين جيش العاصفة والجيش النظامي ، وثالثتها قضية خلافة الرئيس هندنبرغ ، لا سيما وان بوادر اقترابه من النهاية ، قد أخذت تظهر مع مجيء الربيع .

ولم يخدع روهم ، قائد جيش العاصفة الذي غدا يعد الآن اكثر من مليونين ونصف المليون من الجنود ، بالإيماءة الطيبة التي ابداها له هتلر بتعيينه عضواً في الوزارة ، ولا بالرسالة الشخصية الودية التي بعث بها اليه في يوم رأس السنة . وتقدم في شهر شباط بمذكرة طويلة الى مجلس الوزراء ، يقترح فيها ان يغدو جيش العاصفة نواة جيش جديد للشعب ، وأن تضم جميع القوات المسلحة وجيش العاصفة والحرس النازي وجماعات المحاربين كلها تحت اشراف وزارة واحدة للدفاع يتولى هو رئاستها كما توحي المذكرة ، وإن لم تنص على ذلك صراحة . ولم تكن هناك فكرة أكثر بشاعة عند فيلق الضباط و كبار اعضائه ، من هذه الفكرة . ولم يكتفوا برفضها رفضاً جماعياً وأنما سارعوا الى هندنبرغ ينشدون عونه . وقالوا للرئيس ان تقاليد الطبقة العسكرية كلها ستتعرض للتحطم والدمار اذا تمكن روهم الفظ ورجال جيشه من المشاغبين من السيطرة على الجيش ، يضاف الى ذلك ان القادة اصيبوا بالاشمئزاز من القصص التي بدأت تنتشر وتلقى رواجاً في انتشارها ، والتي تتحدث عن فساد الزمرة التي تحيط بقائد جيش العاصفة وميولهم الجنسية الشاذة وعهرهم . وقد شهد الفريق فون براوختش فيما بعد ، ان « اعادة التسلح مشكلة كثيرة الجدّية والصعوبة بحيث لا يمكن ان يشرك فيها هؤلاء اللصوص والسكيّرون والمصابون بالشذوذ الجنسي» .

ولم يكن في وسع هتلر في هذه الآونة ان يغضب الجيش ولذا فلم يؤيد اقتراح روهم . وقد ابلغ هتلر انتوني إيدن سراً في الواحد والعشرين من شباط ، عندما جاء هذا الى برلين للبحث في عقدة نزع السلاح المستعصية ، استعداده لتخفيض جيش العاصفة بنسبة الثلثين وللموافقة على نظام للمراقبة يضمن ان لا يتلقى من يتبقى من جنود هذا الجيش أي تدريب عسكري . وعندما تسربت هذه الانباء الى جيش العاصفة زادت من حدة ضرام المرارة التي يحس بها هو

وقائده روهم . واستمرت العلاقات بين الجيش المذكور وبين الجيش النظامي وبين قيادتيهما تسير من سيىء الى اسوأ مع اقتراب صيف عام ١٩٣٤ . وكثيراً ما وقعت خلافات عاصفة في مجلس الوزراء بين روهم والفريق فون بلومبرغ . واحتج هذا بوصفه وزيراً للدفاع في شهر آذار ، الى هتلر على قيام جيش العاصفة سراً بتسليح مجموعات ضخمة من الحرس الخاص بالمدافع الرشاشة الثقيلة ، مما لا يؤلف خطراً على الجيش وحده فحسب ، بل ويهدد ايضاً نظراً لعلنيـــة بعض اجراءاته ، عملية تسلّح المانيا السريّة ، التي تسير تحت اشراف الجيش النظامي .

ومن الواضح ان هتلر ، خلافاً لروهم العنيد وزبانيته ، كان يفكر في هذه اللحظة مسبقاً باليوم الذي يلفظ فيه هندنبرغ العليل انفاسه الأخيرة . وكان يعرف ان الرئيس الشيخ وقـــادة الجيش ومختلف القوى المحافظة في المانيا ، يفكرون جميعاً باعادة ملكية آل هوهنزلرن في اللحظة التي ينتقل فيها المشير من هذه الحياة . ولكن هتلر كان قد اعد خططاً أخرى . وعندما وصلت اليه الانباء في مطلع شهر نيسان بصورة سرية وان كانت موثوقة، ووصل مثلها الى بلومبرغ من إقطاعيـــة الرئيس نوديك ، ان ايام العجوز قد غدت معدودة ، ادرك ان عليه المسارعة الى توجيه ضربه جريئة . ولضمان النجاح ، كان هتلر محتاجاً الى دعم فيلق الضباط ، وهو دعـــم كان على استعداد للمضي في سبيل الحصول عليه الى ابعد الحدود لإرضائهم .

وسرعان ما تهيأت الفرصة لإجراء محادثات مكتومة مع الجيش. ففي الحادي عشر من نيسان ، مضى المستشار يرافقه الفريق فون بلومبرغ وزير الدفـــاع والفريق فريهر فون فريتشه القائد العام للجيش . وامير البحر ريدر القائد العام للاسطول ، على ظهر الطراد دويتشلاند من ميناء كييل الى كونيغزبرغ لحضور مناورات الربيع في بروسيا الشرقية . وقد نقلت الى قائدي الجيش والاسطول الانباء المتعلقة بصحة المشير هندنبرغ التي تسوء يوماً بعد آخر . واقترح هتلر يؤيده بلومبرغ بكل صراحة وصلابة، ان يغدو هو خليفة للرئيس بتأييد الجيش الألماني . وعرض هتلر مقـــابل الحصول على تأييـد العسكريين ان يقضي على

مطامع روهم وأن يخفض جيش العاصفة خفضاً جذريـــاً وان يضمن للجيش والاسطول مضيهما في ان يكون رجالهــما الوحيدين الذين يحملون السلاح في الرايخ الثالث . ومن المعتقد ان هتلر قد عرض على فريتشه وريدر ايضاً فكرة توسيع الجيش والا طول توسيعاً هائلاً اذا كانا على استعداد لتأييده والسير معه . ولم يكن ثمة مجـــال لريدر الضعيف الا أن يقبل، بينما اصر فريتشه وهو رجل اصلب عوداً ، على وجوب استشارة كبار قادته العسكريين .

وتمت الاستشارة في السادس عشر من ايار في باد نوهــايم . وبعد ان اوضح فريتشه للقادة العسكريين « اتفاق الدويتشلاند » ، اقر كبار قادة الجيش تأييد هتلر بالاجماع خليفة للرئيس هندنبرغ [1] ،وبرهن هذا القرار السياسي على اهميته التاريخية للجيش . فقد قرر هذا الجيش مصيره بموافقته طوعاً على ان يجعل نفسه اداة طيعة في يد هذا الديكتاتور المصاب بالعُظام (جنون العظمة). أما بالنسبة الى هتلر فستتيح له الصفقة ان يغدو الحاكم المطلق تماماً ، اذ بعد ان يزول المشير العجوز من طريقه ، وبعد ان يبعد احتمال اعادة الهوهنزلرن ويغدو رئيساً للدولة بالاضافة الى رئاسته للحكومة ، كان في وسعه ان يمضي في طريقه غير آبه بعقبة او زاجر . وكان الثمن الذي سيدفعه للوصول الى السلطان المطلق تافهاً لا قيمة له وهو التضحية بجيش العاصفة ، اذ لم يعد في حاجة اليه بعد ان تغدو السلطة كلها في يده . ولم يعد هذا الجيش الا مجموعة من الغوغاء الغلاظ ،اصبحت تضايقه . ولا ريب في ان ازدراء هتلر لعقول القادة العسكريين الضيقة قد ازداد في ذلك الربيع . فقد كان في وسعهم ان يعارضوا رغبتـه بعض الوقت ، وظل على هذا الرأي بالنسبة اليهم طيلة الوقت حتى نهايته ونهايتهم باستثناء لحظة سيئة واحدة

---

١ ـ كان الكتاب الأبيض عن عملية تطهير ٣٠ حزيران المطبوع في باريس في عام ١٩٣٥ مصدر هذا الإتفاق . وقد أيد هيربرت روزينسكي في كتابه «الجيش الألماني» ص ٢٢٢ - ٢٢٣ شروط هذا الاتفاق . وقد قبل بولوك ويلر ـ بنيت في كتابيهما عن هذه الفترة هذه الرواية.أما مصدر اجتماع السادس عشر من ايار الذي عقده القادة العسكريون فكتاب « تاريـــخ الجيش الالماني بعد الهدنة » لبنوا ـ ميشان ـ المجلد الثاني ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ .

في شهر حزيران .

ولكن متاعب هتلر لم تنته مع مجيء الصيف ،فقد سيطر جو متوتر مشحون بالنذر السيئة على برلين كلها،وتضاعف الصراخ مطالباً بالثورة الثانية ولم يقتصر هذا على روهم وجنود العاصفة وحدهم ، بل تعداهم الى غوبلز نفسـه الذي اخذ في خطاباته وفي الصحف التي يسيطر عليها يطالب بهذه الثورة . وارتفع الضجيج من الناحية الاخرى ، ناحية اليمين المحافظ والنبلاء ، وكبار الصناعيين المحيطين بفون بابن وهندنبرغ مطالباً بوقف الثورة،ووقف الاعتقالات التعسفية واضطهاد اليهود والحملة على الكنيسة والسلوك الاستفزازي لجنود العاصفـة ، وبوضع حد للارهاب العام المنظم الذي يقوم به النازيون .

ونشب صراع جديد وقاس داخل الحزب النازي نفسه على السلطان . فقد اتحد العدوان القويان لروهم ، وهما غورنغ وهملر ضد الرجل . اذ عيّن غورنغ في الأول من نيسان هملر قائد الحرس النازي من ذوي القمصان السوداء ، والذي ما زال يعتبر فرعاً من جيش العاصفة ، رئيساً للغستابو البروسية . فشرع هذا على الرغم من تبعيته لروهم في قيادة الحرس النازي ، يقيم امبراطورية بوليسية سرية لنفسه . وسرعان ما نزع غورنغ الذي عينه المشير هندنبرغ فريقاً في المشاة في آب المنصرم ، لباس ذوي القصان البنية التافه ، ليرتدي البزة العسكرية الجديدة التي رمزت الى تبدل جوهري في تفكيره . فقد انضم بعد ان اصبح فريقاً في الجيش وعضواً في اسرة الطبقة العسكرية الى جماعة الجيش في حربهم ضد روهم وجيش العاصفة . وأقام غورنغ ليحمي نفسه في حرب « الغاب » التي كانت تدور حوله في كل مكان الآن قوة شرطة خاصة تتولى حراسته اطلق عليها اسم « لانديس بوليس غروبه » ، وضمت عدة ألوف من الرجال الذين حشدهم في معسكر مدرسة مرشحي الضباط في ليخترفيلد ، وهي المدرسة التي دخلها عندما اصبح ضابطاً في الجيش لأول مرة والتي كانت تحتل مركزاً استراتيجياً منيعاً خارج برلين .

وزادت الشائعات عن المؤامرات والمؤامرات المعاكسة من حدة التوتر في

العاصمة . وكان الفريق فون شلايخر ، قد مل من حياة الغموض والنسيان ، ونقم على الحقيقة الواقعة وهي انه لم يعد يتمتع بثقة الرئيس المشير ، او قادة الجيش او المحافظين ، وانه غدا انساناً لا حول له ولا طول ، فشرع من جديد ينغمس في النشاط السياسي . واتصل بروهم وغريغور شتراسر ، وانتشرت الانباء التي وصل بعضها الى هتلر ، تقول بأنه كان يعد صفقة تمكنه من ان يغدو نائباً للمستشار خلفاً لعدوه القديم فون بابن وان يغدو روهم وزيراً للدفاع ويندمج جيش العاصفة في الجيش النظامي . واشتملت القوائم الوزارية التي وزعت بالعشرات في برلين، على اسم برونينغ في بعضها كوزير للخارجية، وشتراسر وزيراً للاقتصاد. وعلى الرغم من ان هذه الانباء كانت تفتقر الى الصحة الا انها على اي حال غدت مادة صالحة لتعليقات غورنغ وهملر ، اللذين رغبا في تحطيم روهم وجيشه ، كل لأسباب خاصة تعنيه ، كما رغبا أيضاً في تسوية حساباتهما السابقة مع شلايخر ومحافظيه الخائبين ، وكانا يحملان هذه الانباء الى هتلر ، الذي لم يكن في حاجة الى من يستحثه لتثور عنده الشكوك والمخاوف . ولم يكن ما يعني غورنغ ، ورئيس الغستابو تطهير جيش العاصفة فحسب ، بل تصفية الخصوم الآخرين في الشمال واليمين الذين يضمون عدداً من الذين كانوا قد قاوموا هتلر في الماضي ، والذين لم يعودوا ناشطين في الحقل السياسي . وراح من يحذر برونينغ وشلايخر في نهاية شهر أيار بأن أسميهما قد أشر عليهما بوجوب القتل والزوال. وسرعان ما تسلل الأول بهدوء من البلاد متنكراً ، ومضى الثاني الى بافاريا ليقضي اجازة فيها ، عاد منها الى برلين في نهاية شهر حزيران .

وفي مطلع شهر حزيران ، اشتبك هتلر في معركة كلامية حادة مع روهم ، استغرقت كما ذكر هو فيما بعد للرايشستاغ نحواً من خمس ساعات واستطالت حتى ساعة متأخرة من الليل . وأضاف هتلر ، ان هذه المعركة . كانت المحاولة الاخيرة التي بذلها للوصول الى تفاهم مع اقرب اصدقائه الى نفسه في الحركة النازية ...

« وقلت له ان الانطباع تولد لدي من الشائعات التي لا عد لها

ولا حصر ، ومن اقوال الكثيرين مـــن أعضاء الحزب القدامى والاوفياء ، وزعماء جيش العاصفة ،بأن العناصر التي لا ضمير لها ولا أخلاق ، تعد العدة « لعمل بلشفي وطني لا يمكن له أن يسبب الا المصائب التي لا يمكن وصفها لألمانيا ... وتوسلت اليه لآخر مرة ان يتخلى عن هذه الحماقة طوعاً ، وأن يستخدم بـــدلاً من ذلك صلاحياته للحيلولة دون وقوع تطور لا يمكن ان يسفر على أي حال من الاحوال الا عن الكوارث والمصائب » .

ويقول هتلر ان روهم تركه في تلك الليلة وقـد أكد له « بأنه سيعمل كل شيء ممكن لتصليح الاوضاع » . ولكنه شرع بعد ذلـــك ، كما ادعى هتلر ، « بعد العدة لازالتي من الوجود شخصياً » .

ولا ريب في ان هذا الادّعاء الاخير يفتقر تمام الافتقار الى الصدق . وعلى الرغم من ان القصة الكاملة لعملية التطهير ، تماماً كقصة الرايشستاغ ، ستظل مجهولة الى الابد ، إلا ان الدلائل التي ألقي عليها الضوء تشير الى ان قائد جيش العاصفة ، لم يتآمر قط على هتلر للاطاحة به ، وازاحته من الطريق . ومن سوء الحظ ان الوثائق المصادرة لم تلق ضوءاً على عملية التطهير كما انها لم تلق أي ضوء على حريق الرايشستاغ ، ومن المحتمل في كلتا الحالتـين ان يكون غورنغ هو الذي أصدر امره باحراق كافة الوثائق التي تدينه بعد ان توضح الحقائق .

ومهـــما كانت طبيعة النقاش الطويل الذي دار بـــين الزعيمين النازيين المخضرمين ، الا ان هتلر قد اصدر امره بعد يوم أو يومين منه الى جيش العاصفة بأن يمضي في إجازة طيلة شهر تموز محظراً على افراده ارتداء البزة العسكرية الخاصة به ، أو الاشتراك في اية استعراضات أو مناورات . وقد أعلن روهم في السابع من حزيران انه سيمضي هو في اجـــازته المرضية ، ولكنه اصدر في الوقت نفسه انذاراً يحمل كل معاني التحدي قال فيه : « واذا كان اعداء جيش العاصفة يأملون في أن هذا الجيش لن يعود الى قواعده بعد انتهاء الاجازة ، أو ان جزءاً منه فقط سيعود من الاجازة ، فاننا قد نسمح لهم بالتمتع بهذا الأمل

الخادع فترة قصيرة من الزمن ليس إلا . وسيتلقون الرد الذي يستحقونه في الوقت الذي يبدو ان مثل هذا الجواب ضروري وعلى النحو الذي يكون فيه ضرورياً . فجيش العاصفة هو قدر المانيا وسيظل قدرها الى الأبد » .

ودعا روهم هتلر قبل مغادرته برلين للتشاور مع قادة جيش العاصفة في مصيف « ويبسّي » القريب من ميونيخ في الثلاثين من حزيران . وقد وافق هتلر فوراً ، وذهب بالفعل الى هناك في الموعد المعين ولكن ليس على النحو الذي يمكن ان يكون روهم قد تخيله مطلقاً ، ولربما ليس على النحو الذي كان هتلر يفكر فيه ايضاً عندما قبل الذهاب في الموعد المحدد . ولقد اعترف فيما بعد لمجلس الرايشستاغ بأنه تردد المرة تلو المرة قبل ان يتخذ قراراً نهائياً وقال .. « وكان الأمل لا يزال يساورني بأن اتمكن من ان أوفر على الحركة وعلى جيش العاصفة عار مثل هذا الخلاف . وان اتمكن من ازالة الضرر دون الوقوع في مصادمات خطيرة وقاسية » .

ومضى يقول ... « ومن الواجب ان اعترف بأن الأيام الاخيرة من شهر ايار كانت تأتي لنا باستمرار بحقائق مزعجة » . ولكن هل كانت مزعجة حقاً ؟ لقد اعترف هتلر فيما بعد ان روهم ومتآمريه كانوا قد اتخذوا العدة للاستيلاء على برلين والقاء القبض عليه . ولكن لو صحت رواية هتلر هذه لتحتم علينا ان نتساءل اذن لم غادر جميع قادة جيش الحرس برلين في مطلع شهر حزيران ولماذا ـ وهذا السؤال اهم بكثير من سابقه ـ غادر هتلر المانيا في هذه اللحظة بالذات تاركاً المجال لرؤساء جيش العاصفة للاستيلاء على الدولة في غيابه ؟

فلقد طار هتلر في الرابع عشر من حزيران الى البندقية في ايطاليا ليعقد اول اجتماع من سلسلة متتالية من الاجتماعات مع زميله الديكتاتور الايطالي ، موسوليني . ولم يسر الاجتماع سيراً حسناً بالنسبة الى الزعيم الالماني . فقد بدا في معطفه الواقي من المطر الذي انتشر عليه الغبار وفي قبعته المهلهلة، في موقف قلق مع الدوتشي ، الأكثر خبرة منه، والمتألق في بزته

الفاشية السوداء المغطاة بالأوسمة والمداليات ، والذي مثل دور « المتنـــازل » للتحدث الى زائره . وعاد هتلر الى المانيا في حالة من الهياج والسخط ، ودعا فوراً الى اجتماع لقادة الحزب في بلدة جيرا الصغيرة في ثورنجيـا في السابع عشر من حزيران ، لينقل اليهم مـا دار بينه وبين موسوليني من محادثات ، وليقوم معهم بتقييم الوضع المتردي في الداخل . ولقد شاء القدر ان يعقد اجتماع آخر في نفس ذلك اليوم ، وكان يوم أحد ، في مدينة ماربورج الجامعية القديمـــة ، وهو اجتماع اثار في المانيـــا بل وفي العالم أيضاً اهتماماً أكبر من الذي اثاره اجتماع هتلر بقادة حزبه اذ ادى الى اقتراب الوضع الحرج من ذروة اثارته .

فلقد وجد بابن الولوع بالفن ، والذي أبعد بصورة فظة عن المسرح الرئيسي للأحداث بتأثير هتلر وغورنغ ، في نفسه الشجاعة الكافية ، وهو يشغل اسميـاً منصب نائب المستشار ويتمتع بثقة الرئيس هندنبرغ ، للتحدث علناً وفي اجتماع عام عن فظائع العهد وتطرفه ، متناسياً انه هو الذي ساعد كثيراً على قيامه في المانيا . وكان قد رأى في شهر ايار الرئيس العليل في اقطاعيته في نوديك ، وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي قابل فيها حاميه حياً ، فقال له المشير الازرق الناب رغم ضعفه ... ان الامور تسير سيراً سيئاً يا بابن. وعليك ان ترى ما في مكنتك ان تفعله لتقويم الوضع !

وأحس بابن بالشجاعة تدب في أوصاله، فقبل دعوة وجهت اليه لالقاء خطاب في جامعة ماربورج في السابع عشر من حزيران . وكان القسم الاكبر من الخطاب من اعداد أحد مستشاريه الشخصيين وهو ادغار يونغ ، المحامي اللامع في ميونيخ والكاتب ذي الاسلوب الرشيق والبروتستانتي المذهب ، وان كانت بعض الافكار التي جاءت فيـه من صنع احد سكرتيري نائـب المستشار وهو هربرت فون بوزيه ، وايريك كلاوزنر ، زعيم عصبة العمل الكاثوليكي ، وكان هذا التعاون بين الثلاثة سبباً في خسارتهم لحياتهم بعد وقت قصير. وكان الخطاب في الحقيقة نابضاً بالجرأة والشجاعة ، والفضل في ذلك راجع الى يونغ ، بفصاحة اسلوبه وروعة منطقه . وطالب الخطاب بوضع حد للثورة ، ونهاية للارهاب

النازي ، وعودة الحياة الكريمة المألوفة ، وقيام الحرية ولا سيما حرية الصحافة .
وقال فون بابن موجهاً كلامه الى غوبلز وزير الدعاية :

« ستكون المناقشات الصريحة المكشوفةالتي تنطوي على الرجولة اجدى على الشعب الألماني من هذا الوضع الراهن للصحافة الألمانية . وعلى الحكومة ان تأخذ بعين الاعتبار الحكمة الألمانية القديمة القائلة : « ان الضعفاء وحدهم هم الذين لا يستطيعون قبول النقد».. والدعاية لا تخلق عظماء الرجال .. واذا كانت لانسان رغبة في الاتصـــال بالشعب والوحدة معه ، فعليه ان لا يقلل من قيمة تفهمه وان لا يزدريه . وعلى المرء ان لا يترك الشعب دائماً في حالة من الارتباط بحبال الدعاية . فليس في وسع أية منظمة مهما كانت دعايتها ممتازة ان تحافظ وحدها على ثقة الشعب على المدى الطويل. والحفاظ على الثقة والاخلاص والولاء لا يكون بالاثارة . . ولا بالتهديد الذي يستخدم ضد الفئات التي لا حول لها ولا طول من الأمة ، وإنما يكون بمناقشة الأمور بصراحة مع الشعب ، ولا يملك الشعب الذي يعامل أفراده كما يعامل الحمقى المستكينين ، الثقة ليمنحها . . وقد حان الوقت لنتحد جميعاً في صداقة أخوية وفي احترام لجميع مواطنينا ، ولنتمكن من تجنب ارباك ما يقوم به الجدّيون من الناس من جهود ومن اسكات المتعصبين والمهووسين »[1] .

وعندما ذاع أمر الخطاب صفقت له ألمانيا طويلاً ولكنه وقع كالنقبلة على الفئة الصغيرة من زعماء النازي التي التأم عقدها في جيرا وسارع غوبلز الى العمل ليضمن ان يلقي الخطاب أقل مدى ممكن من الانتشار . فحظّر على الاذاعة ، نقل تسجيل له كان من المقرر إذاعته تلك الليلة ، كما حرم على جميع الصحف ان تشير اليـه مجرد اشارة ، وأمر رجال الشرطة بمصادرة اعداد « الفرانكفورتر

---

١ - خطاب نائب المستشار فون بابن في جامعة ماربورغ في ١٧ حزيران ١٩٤٣ (برلين - مطبعة جرمانيا) .

زايتونغ » التي كانت قد طلعت الى الأسواق حاملة أجزاء منه . ولكن سلطات وزير الدعاية المطلقة لم تكن كافية لتحول بين الشعب الألماني والعالم الخارجي وبين معرفة محتويات هـذا الخطاب المليء بالتحدي . وكان فون بابن الماكر قد زود المراسلين الاجانب والدبلوماسيّين في برلين ، بصورة مسبّقة عن الخطاب ، كما ان ألوف النسخ منه طبعت في مطابـع صحيفة فون بابن « جرمانيا » ووزعت بصورة سرية .

وبلغ الغضب بهتلر عندما سمع بخطاب ماربورغ حد الجنون . وحمل في خطاب القاه بعد ظهر اليوم نفسه في جيرا على «القزم الذي يتصور ان بإمكانه عن طريق بعض العبارات ، وقف عملية البعث الهائلة لحياة الشعب الألماني » . وثار فون بابن أيضاً لمنع خطابه من النشر والإذاعة ، وسارع ليقابل هتلر في العشرين من حزيران قائلاً له انه لن يستطيع التسامح مع هذا القرار بالمنع الصادر عن وزير « أقل منه مركزاً » وأصر على انه قد تحدث « بالنيابة عن الرئيس » ثم قدم فوراً استقالته مضيفاً انذاره بأنه « سيبلغ هندنبرغ فوراً بكل شيء » [١] .

ويبدو ان القلق قد أصاب هتلر من هذا التهديد ، اذ نميت الى مسامعه من قبل الأنباء القائلة بأن الرئيس غير مرتاح من الوضع وانه يدرس فكرة اعلان الاحكام العرفية في البلاد وتسليم الحكم فيهـــا الى الجيش . ورغب في ان يقدر حقيقة الخطورة في الوضع بالنسبة الى استمرار العهد النازي ، فطار الى نوديك في اليوم التالي الحادي والعشرين من حزيران ليقابل هندنبرغ . ولا شك في ان المقابلة قد زادت من مخاوفه . وقد استقبله عند وصوله الفريق فون بلومبرغ وزير الدفاع ، وسرعان ما ادرك الفوهرر ان موقف التزلف الذي كان يقفه منه وزير دفاعه قد اختفي بصورة مفاجئة . فلقد بدا الآن في صورة الجنرال البروسي العابس الذي ابلغ هتلر بصورة قاسية ان المشير قد خوله ابلاغ المستشار ، بأنه ما لم يوضع حد فوري لهذا الوضع الراهن من التوتر في المانيا فان الرئيس سيعلن

---

١ — مذكرات فون بابن - ص ٣١٠ .

الاحكام العرفية ويسلم السيطرة على الدولة الى الجيش . وعندما سمح لهتلر بمقابلة الرئيس لبعض دقائق بحضور بلومبرغ ، عاد المشير العجوز فأكد الانذار .

وكان هذا التحول في الأوضاع مفجعاً للزعيم النازي . فلو تسلم الجيش الحكم ، لما كان هذا التطور يعني نهاية لمخططه في خلافة الرئيس فحسب ، وانما يعني أيضاً انتهاءه هو وحركته النازية وحكومته . وعندما طار عائداً الى برلين في نفس اليوم ، فكر على الغالب ، بأنه لم يعد أمـــامه خيار إلا في اتباع سبيل واحد ليضمن البقاء . وحتّم عليه هذا السبيل ان يفي بوعده للجيش وان يقضي على جيش العاصفة وان يوقف استمرار الثورة التي يلحف قـــادة العاصفة بوجوب استمرارها . وبدا له ان الجيش مدعومـــاً بالرئيس الجليل ، لن يقبل بأقل من هذا .

ومع ذلك فقد ظل هتلر في الاسبوع الاخير من حزيران متردداً على الأقل في المدى الذي ستصل اليه اجراءاته الجذرية مع قادة جيش العاصفة الذين يدين لهم بالكثير . وسارع غورنغ وهملر الى نجدته في أزمته ومساعدته على اتخـــاذ قراره . واخرجا من جيوبهما قائمة بعشرات القضايا التي يريدان تسويتها ، وقوائم طويلة اخرى باعداء الحاضر والماضي الذين يرغبان في تصفيتهم . وكان كل ما يحتاجان اليه ، اقناع الفوهرر بضخامة « المؤامرة » التي تحاك ضده ، وبضرورة القيام بعمل سريع وقاس .. ولقد ذكر ولهـلم فريك وزير داخلية هتلر ، وأحد اتباعه الخلّـص للغاية في شهادته امام محكمة نورمبرغ ، ان هملر هو الذي افلح اخيراً في اقناع هتلر « بأن روهم ، يريد القيام بانقلاب » واضاف فريك قائلاً : « واصدر الفوهرر امره الى هملر ، باحباط الانقلاب » وهكذا صدرت التعليمات لهملر بالعمل في بافاريا ولغورنغ بالعمل في برلين [١] .

واشترك الجيش في حث هتلر على العمل ، ولذا فهو يتحمل أيضـــاً بعض المسؤولية في الاعمال الوحشية التي سرعان ما وقعت . فقد أعلن الفريق فون

١ — المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٦٥٤ — ٦٥٥ .

فريتشه قائد الجيش العام ، في الخامس والعشرين من حزيران حالة الاستنفار في الجيش، وألغى جميع الاجازات مصدراً أمره الى جميع القوات بالبقاء في ثكناتها. وصدر الأمر في الثامن والعشرين من حزيران بطرد روهم من « عصبة الضباط الالمان » وكان هذا لأمر بمثابة انذار واضح بأن قائد جيش العاصفة سيتعرض الى متاعب سريعة . وليضمن الجيش ان يعرف كل انسان ولا سيما روهم ، اين يقف الجيش حقيقة، اتخذ بلومبرغ خطوة لا سابقة لها فنشر مقالاً وقعه في صحيفة « الفلولكشاير بيوتاختر » في عددها الصادر في ٢٩ حزيران أكد فيه ان الجيش « يقف وراء ادولف هتلر .. الذي يظل واحداً منا » .

وهكذا يتضح ان الجيش كان يضغط لتحقيق عملية التطهير ولكنه لم يرغب في تلويث يديه بها ، فعلى هتلر وغورنغ وهملر ان يقوموا بالعملية بواسطة رجالهم من الحرس النازي الاسود وشرطة غورنغ الخاصة .

وغادر هتلر برلين يوم الثلاثاء في الثامن والعشرين من حزيران الى ايسّن لحضور حفلة زواج القائد النازي المحلي فيها جوزيف تيربوفين . واذا ما حكم الانسان على الوضع من زاوية هذه الرحلة وهدفها ، ادرك أن هتلر لم يكن يعتقد بوجود أزمة خطيرة قريبة . واصدر غورنغ وهملر أوامرهما في نفس اليوم الى قطعات خاصة من الحرس النازي ومن شرطة غورنغ بأن تكون على أتم استعداد للطوارىء . وقد شعرا بحريتهما في العمل بعد ان خرج هتلر من المدينة . وقام هتلر في اليوم التالي أي التاسع والعشرين من حزيران بجولة في معسكرات العمل المجند في ويستفاليا ، ليعود في المساء الى غودسبرغ على حوض الراين ، ويقضي الليل في فندق على ضفة النهر يديره أحد رفـــاقه القدامى في الحرب ، واسمه « دريسين » . ووصل غوبلز في ذلك المساء نفسه ، الى غودسبرغ ، بعد ان كان قد تردد طويلاً قبل ان يحزم أمره على الجهة التي يقف الى جانبها ، وبعد ان كان على اتصال سري بروهم، ولكنه حزم أمره الآن أخيراً وجاء ليروي لهتلر « أنباء خطرة » من برلين ، فقد ذكر له ان كارل ايرنست ، الذي كان يعمل في السابق غلاماً في أحد الفنادق ومن ثم ندلاً في أحد المقاهي التي يؤمها عادة ارباب الشذوذ

الجنسي، والذي عينه روهم قائداً لجيش العاصفة في برلين، قد اعلن حالة الاستنفار بين قوات العاصفة . وكان ايرنست ، وهو شاب جميل الصورة يفتقر الى الذكاء قد اعتقد آنذاك ، وفي الاربع والعشرين ساعة التي بقيت من حياته انه يواجه عملية انقلاب من جانب اليمين ، وانه سيناضل حتى اللحظة الأخيرة ضد الانقلابيين هاتفاً باعتزاز « هايل هتلر » .

وقد ادعى هتلر فيما بعد ، انه حتى تلك اللحظة في التاسع والعشرين من حزيران ، كان قد قرر فقط ان « ينحي روهم رئيس اركان حرب العاصفة عن منصبه ، وان يكتفي باعتقاله في الوقت الحاضر ، معتقلاً معه عدداً من قادة جيش العاصفة الذين قام الدليل على جرائمهم .. موجهاً نداءً حاراً الى الباقين ليعودوا الى اداء واجبهم » .

وقال للرايشستاغ في الثالث عشر من تموز :

« ومع ذلك .. وفي الساعة الواحدة صباحاً ، تلقيت رسالتين عاجلتين من برلين وميونيخ تتحدثان عن قيام حالة انذار وطوارىء ، فقد تقرر اعلان الانذار في برلين في الساعة الرابعة من المساء ، على ان يبدأ العمل في الخامسة بهجوم مباغت يؤدي الى احتلال مباني الحكومة ومكاتبها .. أما في ميونيخ فقد أعلنت حالة الانذار بالفعل واستدعي جنود العاصفة الى الاجتماع في التاسعة مساء .. انه عصيان مسلح .. ولم يكن امامي إلا سبيل واحد وقرار واحد ... فالعمل الحازم الذي يخلو من الاشفاق والذي تصبغه الدماء ، هو الشيء الوحيد الذي في مكنته ان يوقف انتشار الثورة ...

« وطرت في الثانية صباحاً الى ميونيخ » .

ولم يحسر هتلر قط النقاب عن مصدر هاتين الرسالتين وان كان من المعتقد انهما من هملر وغورنغ . والشيء الوحيد المؤكد هو انهما بالغتا في وصف الوضع كل المبالغة . ففي برلين ، لم يفكر كارل ايرنست قائد جيش العاصفة بشيء أكثر

تطرفاً في ذلك المساء من ان يمضي بسيارته مع عروسه ، في يوم السبت نفسه الى برلين ليستقل الباخرة منها الى جزر ماديرا لقضاء شهر العسل . أمـــا في الجنوب ، فلم يقم دليل على احتشاد المتآمرين من رجال العاصفة في أي مكان

وعندما كان هتلر وغوبلز الى جانبه في تلك الساعة الباكرة من صباح الثلاثين من حزيران ـ الثانية صباحاً ـ يمضيان بالسيارة من مطار « هانغيلر » القريب من بون ، كان روهم ومساعدوه من قادة العاصفة يغطون هانئين في نومهم في اسرتهم في فندق « هانسلباور » في وييسي على ضفـــاف « تيغيرنسي » . وكان ايدموند هاينز القائد الأعلى لجيش العاصفة في سيليزيا ، وهو قاتل من خريجي السجون ، ومن المشهورين بالشذوذ الجنسي ويحمل وجهاً نسوياً فوق جسد قوي شديد العضلات ، ينام في تلك الليلة ، في فراش واحد مع أحد الشبان . ولا ريب في ان زعماء جيش العاصفة كانوا بعيدين جداً تلك الليلة عن القيام بثورة ، ولعل مما يقيم الدليل على ذلك ان روهم كان قد أبقى رجال حرسه الاشداء في ميونيخ بعيدين عنه . ومن المؤكد ان الكثير من الشراب قد استنفذ تلك الليلة عند زعماء العاصفة ، ولكنهم لم يتآمروا .

ووصل هتلر ومن معه من رفاق لا يعدون اصابع اليد بينهم اوتو ديتريش ، رئيس قسم الصحافة وفيكتور لوتزيه قـــائد العاصفة في هانوفر الموالي لهتلر ، الى ميونيخ حوالي الساعة الرابعة من صباح السبت الثلاثين من حزيران. ووجدوا ان بعض الاجراءات قد اتخذت قبل وصولهم . فلقد قام الرائد وولتر بوخ رئيس محكمة الحزب وادولف واغنر وزير داخلية بافاريا يساعدهما عدد من رفاق هتلر القدماء من امثال اميل موريس، السجين السابق ومنافس الفوهرر في حب جيلي روبال ، وكريستيان ديبر تاجر الخيل والندل السابق في أحد المراقص ، باعتقال زعماء العاصفة في ميونيخ وبينهم القائد الأعلى لمنطقة ميونيخ شنايد هوبر الذي يشغل في الوقت نفسه منصب قائد الشرطة في المدينة . وقد عثر هتلر ، الذي كان يسير في تلك الآونة في طريقه الى الجنون العصبي ، على المسجونين في وزارة الداخلية . وخطا الزعيم الى شنايد هوبر وهو عقيد سابق في الجيش فنزع عن

كتفه شارته النازية وشتمه متهماً اياه بالخيانة .

بعد الفجر بقليل ، خرج هتلر ورفاقه من ميونيخ متجهين الى وييسي ، في صف طويل من السيارات ، فوجدوا روهم واصدقائه ما زالوا يغطون في نومهم العميق في فندق هانسلباور .واتسمت عملية الايقاظ بطابع القسوة الشديدة . وجر هاينز والغلام الذي يشاركه سريره جراً من الفراش الى خـــارج الفندق حيث قتلا بأمر من هتلر . ودخل الفوهرر ، كما روى اوتو ديتريش ، غرفة روهم وحده ، وأمره بأن يرتدي ثيابه ، ثم أصدر أمره بنقله الى سجن ستادلهايم في ميونيخ حيث كان قائد جيش العاصفة قد قضى فترة سجيناً بعد اشتراكه مــــع هتلر في انقلاب حانة الجعة الفاشل في عام ١٩٢٣ . وبعد أربعة عشر عاماً من الأعوام العاصفة ، وصل الصديقان ، اللذان كانا اكـــثر من غيرهما مسؤولية في اقامت الرايخ الثالث بما فيه من ارهاب ومن اذلال ، واللذان كانا يقفان معــاً ودائماً في لحظات الحرج والهزيمة والفشل على الرغم من خلافاتهما الكثيرة ، الى نقطة الافتراق ، ووصل الرجل ذو الوجه المليء بالندوب ، والمعارك الصخّاب دفاعاً عن هتلر والنازية ، الى نهاية حياته التي اتسمت بطابع العنف .

وأمر هتلر ، تنفيذاً لفكرة اخيرة طرأت على رأسه ، في اظهار عطفه على الرجل ، ان يوضع مسدس على المائدة في غرفة رفيقه القديم ، ورفض روهم استخدام المسدس وقال : « اذا كان لا بد من قتلي ، فليقتلني ادولف نفسه » . وعلى الأثر دخل ضابطان من رجال العاصفة ، كما روى شاهد عيان في محاكمات نورمبرغ في ايار عام ١٩٤٧ .كان ضابطاً في الشرطة ، وقد ادانته المحكمة بالسجن ثلاثة وعشرين عاماً ، الى زنزانة روهم ، وصوبا اليه فوهتي مسدسيهما من مكان قريب . وأضاف هذا الشاهد : « وقد رغب روهم في ان يقول شيئاً ، ولكن ضابط العاصفة أمره بالسكوت » . ووقف روهم وقفة استعداد ، وانتزع الضابطان عنه ملابسه حتى خصره ، بينما كانت علامات الازدراء تبدو في وجهه واطلقا عليه النار » . وهكذا مـــات هذا الرجل ميتة عنيفة كما عاش حياة صاخبة ، محتقراً الصديق الذي عمل على رفعه الى مكانة لم يصل اليها أي الماني

من قبل، ودون ان يعرف ان شأنه في ذلك شأن المئات من الألمان الذين قتلوا في ذلك اليوم وبينهم شنايد هوبر ، الذي هتف صارخاً ... « أيها السادة لا أدري ما العلة في كل هذا ... ولكن سددوا نيرانكم تماماً » ، السبب الواضح في مـــا حدث ، سوى انها خيانة لم يكن يتوقعها من ادولف وهتلر ، على الرغم من أنه - أي روهم - عاش حياته كلها على الخيانة واقترافها [1] .

وكان غورنغ وهملر في نفس الوقت ، مشغولين في برلين ، فقد تمكنا مـــن اعتقال نحو من مائة وخمسين من قادة جيش العاصفة ونقلهم الى مدرسة المرشحين في « ليختر فيلد » حيث أعدموا رمياً بالرصاص ، على أيدي فصائل من الحرس النازي الذي يقوده هملر ومن شرطة غورنغ الخاصة .

وكان بين هؤلاء كارل ايرنست الذي قطع عليه رماة الحرس النازي شهر عسله ، عندما اقترب بسيارته من بريمن . وقد أصيبت عروسه وسائقه أيضاً بجراح واغمي عليه عندما هووا على رأسه بكعاب بنادقهم ثم حملوه بالطائرة الى برلين حيث تم اعدامه .

ولم يكن رجال جيش العاصفة وحدهم ، هم الذين هووا صرعى في عملية التطهير هذه . ففي ساعات الصباح الباكر من اليوم المذكور ، مضت شلة من الحرس النازي في ملابس مدنية الى البيت الذي يسكنه الفريق فون شلايخر في

---

١ - كانت محاكمات ميونيخ في أيار عام ١٩٥٧، الفرصة الاولى التي تحدث فيها شهود العيان والمشتركون في عملية تطهير الثلاثين من حزيران عام ١٩٣٤ بصورة علنية . ولم يكن في مكنة احد ان يتحدث عن هـــذه العملية ابان عهد الرايخ الثالث . وكان سيب ديتريش الذي يعرفه مؤلف هذا الكتاب معرفة شخصية على انه من اكثر رجال الرايخ الثالث وحشية وقسوة ، قائداً لحرس هتلر الخاص في عام ١٩٣٤ ، فتولى تنفيذ عمليات الاعدام في سجن ستاديلهايم .وقد غدا هذا الرجل فيما بعد عقيداً في جيش الحرس النازي ابان الحرب، وحكم عليه بالسجن خمسة وعشرين عاماً لاشتراكه في قتل الاسرى الامريكيين ابان معركة الانتفاخ(Bulge) في عام ١٩٤٤ .وقد اطلق سراحه بعد ان قضى عشر سنوات في السجن ثم حوكم من جديد في ميونيخ في الرابع عشر من ايار عام ١٩٥٧ وحكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهراً بتهمة الاشتراك في عملية التطهير لعام ١٩٣٤ . وكان الحكم عليه وعلى ميشيل ليبرت الذي ادين أيضاً بتهمة قتل روهم ، اول عقوبة نزلت بالجلادين النازيين الذين اشتركوا في عملية التطهير .

ضواحي برلين وقرعت جرس الباب الخارجي. وعندما فتح الفريق باب الدارة، أطلق الرجال عليه النار فهوى قتيلاً لتوه، وعندما خرجت زوجته التي كان قد بنى بها قبل ثمانية عشر شهراً فقط بعد ان مل حياة العزوبة لترى ما حدث، قتلها المهاجمون ايضاً، ولقي الفريق كورت فون بريداو، وهو صديق حميم لشلايخر نفس المصير في مساء اليوم نفسه، واعتقل غريغور شتراسر في منزله في برلين ظهر يوم السبت ثم قتل بعد ساعات في زنزانته في سجن الغستابو في شارع الأمير البرت، بأمر شخصي من غورنغ.

وكان فون بابن اسعد حظاً، فقد نجا بحياته، ولكن رجال الحرس النازي داهموا مكتبه وقتلوا كبير سكرتيريه «بوز» وهو على مكتبه، كما قتلوا مساعده الذي يأتمنه، ادغار يونغ، الذي اعتقل من قبل الغستابو قبل ايام، في سجنه، وذبحوا أحد انصاره ايريك كلاوزنر، زعيم عصبة العمل الكاثوليكي وهو في مكتبه في وزارة المواصلات، بينما نقل بقية موظفيه وبينهم سكرتيرته الخاصة البارونة ستوتزينغن الى معسكرات الاعتقال. وعندما مضى فون بابن محتجاً الى غورنغ، لم يكن هذا على استعداد لاضاعة وقته في حديث لا طائل تحته، فطرده وأمر باعتقاله في دارته التي احاطها لفيف كبير من جنود الحرس النازي، والذي قطعت أسلاكها الهاتفية لمنع كل اتصال له بالعالم الخارجي. واحتمل نائب المستشار هذا الاذلال الجديد وابتلعه على خير ما يرام، اذ قبل بعد اقل من شهر، جالباً على نفسه العار، المنصب الذي قدمه اليه النازيون الذين قتلوا اصدقاءه، كوزير مفوض للرايخ في فيينا، حيث كان النازيون قد قتلوا قبل فترة وجيزة مستشارها دلفوس.

ولم يعرف حتى الآن عدد الذين قتلوا تماماً في عملية التطهير. وقد اعلن هتلر في خطابه الذي ألقاه في الرايشستاغ في الثالث عشر من تموز ان واحداً وستين شخصاً قد قتلوا بينهم تسعة عشر من كبار قادة جيش العاصفة، وان ثلاثة عشر آخرين ماتوا أثناء مقاومتهم الاعتقال، وثلاثة انتحروا، فبلغ المجموع سبعة وسبعين. ويقول «الكتاب الابيض عن التطهير» الذي أصدره أحد اللاجئين

الالمان في باريس أبان العهد النازي، ان (٤٠١) قد قتلوا اثناء عملية التهطير، ولكنه لم يذكر إلا أسماء (١١٦) فقط منهم . وقد ذكر في محاكمات ميونيخ عام ١٩٥٧ ان أكثر من ألف شخص قد قتلوا .

ولقد قتل كثيرون بدافع الانتقـــام لأنهم قاوموا هتلر في الماضي ، وقتل كثيرون آخرون لأنهم كانوا يعرفون أكثر من اللازم ، بينما قتل شخص واحد على الأقل بسبب الالتباس في هويته . وقد عثر على جثة غوستاف فون كار ، الذي روينا في السابق دوره في احباط انقـــلاب حانة الجعة في عام ١٩٢٣ ، والذي كان قد انسحب من العمل السياسي منذ أمد طويل ، وكانت الجثة على مقربة من مستنقع قريب من داخاو ، وقد اثخنت بالجراح من جراء الضرب بالفؤوس ، وكان قتله بالطبع نتيجة لشيء واحد وهو ان هتلر لا ينسى الاساءة ولا يغفر لمن أساء اليه . وعثر على جثة الأب بير نهارد ستيبمفيل ، من الرهبنة الجيرومية ، والذي ذكرنا في السابق كيف ساعد هتلر في طباعة كتاب « كفاحي » ، ثم كيف تحدث أكثر ممـــا يجب عما يعرفه عن الاسباب الحقيقية لانتحار جيلي روبال ، حبيبة هتلر ، وذلك في غـابة هارلا شينغ القريبة من ميونيخ ، وقد كسر عنقه واصابت ثلاثة عيارات نارية فؤاده . ويقول هايدن ان العصابة التي قتلته كانت بقيادة اميل موريس السجين السابق ، وعشيق جيلي روبال ايضاً . وكان بين القتلى أيضاً ثلاثة «كانوا يعرفون اكثر مما يجب» اذ اشتركوا على الغالب مع ايرنست بوصفهم من رجال جيش العاصفة في احراق الرايشستاغ فمضوا مع ايرنست يحملون سرهم معهم الى القبر .

وهناك حادثة قتل أخرى تستحق الذكر . ففي الساعة السابعة والدقيقة العشرين من مساء الثلاثين من حزيران كان الدكتور ويلي شميدت، الناقد الموسيقي المشهور في صحيفة «ميونيخنر نويسته ناخريختن» التي تعتبر أبرز الصحف اليومية في ميونيخ ، يعزف على « الشيلّو » في مكتبه بينما كانت زوجته تعد العشاء ، وأطفاله الثـــلاثة واكبرهم في التاسعة وأصغرهم في الثانية يلعبون في غرفة الجلوس في شقتهم الواقعة في شارع « شاكشتراسه » في ميونيخ ، وقرع باب

الشقة وظهر أربعة من رجال الحرس النازي من الباب ،فحملوا الدكتور شميدت ومضوا به الى الخارج دون ان يبينوا سبباً لعملهم هذا . وبعد أربعة ايام أعيدت جثته في تابوت وقد ارفقت بأوامر من الغستابو بعـــدم فتح التابوت مطلقاً . وتبيّن أن رجال الحرس النازي قد « خلطوا بين اسم الدكتور ويلي شميدت الذي لم يسبق له قط ان اشترك في أي عمل سياسي وبين ويلي شميدت القائد المحلي في جيش العاصفة الذي كان قد اعتقل في نفس الوقت على أيدي جماعة اخرى من رجال الحرس النازي وأعدم [1] .

ترى هل كانت هناك مؤامرة على هتلر ؟ ان الدليل الوحيد على وجودها هو ما قاله هتلر نفسه في البلاغات الرسمية وفي خطابه في الرايشستاغ في الثالث عشر من تموز ، ولكنه لم يشفع أقواله هذه بأي دليل مادي . حقاً ان روهم لم يخف قط طموحه في ان يرى جيش العاصفة يصبح نواة الجيش الجديد وان يكون هو قائد هذا الجيش . وليس ثمة من شك في انه كان على اتصال مـع شلايخر ، في موضوع هذا المخطط ، الذي كانا قد بحثا فيه عندما كان الفريق مستشاراً . ومن المحتمل ، ان يكون غريغور شتراسر ، كما ذكر هتلر ، قـــد ادخل في هذا المخطط ،لكن مثل هذه الاحاديث لا تشكل حتماً خيانة عظمى ، فلقد كان هتلر نفسه على اتصال بشتراسر وقد ذكر أخوه اوتو ان هتلر عرض على أخيه في حزيران منصب وزير الاقتصاد .

وقد كان أول ما قاله هتلر ، اتهامه لروهم وشلايخر بالبحث عن مساعدة « دولة أجنبية » ، والمقصود بها فرنسا على الغالب . واتهامه للفريق فون بريداو

---

١ – سردت كاتي ايفا هوبرلين ، الزوجة السابقة لويلي شميدت قصة مقتل زوجها في شهادة مشفوعة باليمين في السابع من تموز عام ١٩٤٥ في بنغهامتون في ولاية نيويورك ، وكانت قـــد غدت مواطنة امريكية عام ١٩٤٤ . وذكرت ان النازيين ارادوا القاء ستار على الخطأ الفظيع فقام رودلف هس نفسه بزيارتها، معتذراً عن (الخطأ) ، ومقدماً لها راتباً تقاعدياً من الحكومة الألمانية . وقد قدمت هذه الشهادة الى محاكمة نورمبرغ وادرجت في وثائقها — المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٨٨٣ — ٧٩٠ .

بأنه كان الوسيط في السياسة الخارجية » . ولا ريب في أن هـــذه الاتهامات كانت جزءاً من الوصمة التي ألحقت بهم بأنهم « خونة » . وعلى الرغم من أن هتلر كرر في الرايشستاغ هذه الاتهامات وتحدث بلهجة ساخرة عن الدبلوماتي الأجنبي « الذي لم يكن على الغالب إلا فرانسوا بونسيه ، السفير الفرنسي » ، الذي لعب دوراً في المؤامرة ، والذي حاول ان يوضح على أي حال ان الاجتماع مع شلايخر وروهم لم يكن ذا طابع مؤذٍ ، إلا أنه لم يستطع اقامة الدليل على اتهاماته . ولكنه مضى يقول ان من الجريـــة بالنسبة الى أي ألماني مسؤول في الرايخ الثالث ان يجتمع الى أي دبلوماتي أجنبي دون علمه هو اي هتلر .

« وعندما يرتب ثلاثة من الخونة في المانيا اجتماعاً مع سياسي أجنبي .. ويصدرون أوامرهم بأن لا يصل الى مسامعي شيء عن هذا الاجتماع ، فان واجبي يحتم علي ان آمر بقتلهم حتى ولو ظهر الدليل على صحة القول بأن المشاورات التي أحيطت بالسرية عني ، لم تتحدث عن شيء سوى الطقس والعملات القديمة وما شابه ذلك من المواضيع » .

وعندما احتج فرانسوا ـ بونسيه احتجاجاً عنيفاً على التلميح بأنه قد اشترك في « مؤامرة » روهم ، أبلغت وزارة الخـــارجية الألمانية الحكومة الفرنسية بصورة رسمية ان الاتهامات لا تستند الى أي أساس، وان حكومة الرايخ تأمل في ان يظل السفير في مركزه . وفي وسع مؤلف هـــذا الكتاب ان يشهد بأن فرانسوا ـ بونسيه ظل في منصبه وكانت علاقاته الشخصية بهتلر ، احسن من علاقات اي مبعوث لأي دولة ديموقراطية اخرى .

وقد ركزت الدعاية الألمانية في البلاغات الأولى التي صدرت بعد التطهير ، وفي رواية شاهد العيـــان التي قدمها اوتو ديتريش مدير الصحافة في مكتب الفوهرر الى الجمهور ، وحتى في خطاب هتلر في الرايشتساغ على النـــاحية الاخلاقية الداعرة لروهم وغيره من قادة جيش العاصفة الذين أعدموا . وأكد ديتريش ان منظر اعتقال هاينز وهو في فراشه في وييسي مع غلام داعر ، لا

يمكن وصفه من ناحية فسقه وعهره ، وأعلن هتلر في الخطاب الذي ألقاه في من تبقي من قـــادة جيش العاصفة في ميونيخ ظهر اليوم الثلاثين من حزيران ، وبعد عملية الاعدام ، ان انحطاط أخلاق هؤلاء كان سبباً كافيـــاً وحده لاعدامهم .

ولكن هتلر ، كان يعرف منذ أقدم أيام الحزب ، ان عدداً كبيراً من أقرب أتباعه اليه ، وأكثرهم أهمية ، كانوا من المنحرفين جنسياً ، ومن القتلة المحكومين بالسجن . ولقد كان من الأقوال الشائعة التي يتندر بها الجميع مثلاً ، ان هاينز كان يوفد رجال العاصفة ، يزرعون البلاد طولاً وعرضاً ، ليبحثوا له عن العشاق من الذكور الصالحين لارضاء نزواته . ولم يكن هتلر يكتفي في الماضي باظهار التسامح تجاه مثل هذه التصرفات فحسب ، بل كان يدافع عنها أيضاً ، وكثيراً ما حذر رفاقه في الحزب من أن يكونوا كثيري التذمّر من تصرفات الفرد الشخصية ، اذا كان في الحقيقة مناضلاً متعصباً في دفاعه عن الحركة النازية ، ولكنه الآن وفي الثلاثـــين من حزيران عام ١٩٣٤ ، يظهر فزعة من الانحلال الخلقي الذي أصاب بعض قدماء مساعديه .

وانتهت معظم عمليات القتل قبل مساء الاحد في الأول من تموز ، عندما أقام هتلر الذي عـــاد بالطائرة الى برلين من ميونيخ حفلة شاي في حدائق دار المستشارية . ووجه الرئيس هندنبرغ يوم الاثنين رسالة الى هتلر شكره فيها على « عمله الحازم ، وتدخله الشخصي الباسل الذي قضى على الخيانة وهي في مهدها وأنقذ الشعب الألماني من مخاطر عظيمة » . وهنأ الرئيس أيضاً غورنغ على « عمله الناجح النابض بالحيوية » في القضاء على « الخيانة العظمى » . وأعرب الفريق فون بلومبرغ يوم الثلاثاء الى المستشار عن تهنئة الوزارة التي قصد منهـــا اضفاء صفة الشرعية على المذبحة كاجراء ضروري « للدفاع عن الدولة » . وأصدر بلومبرغ ايضاً أمراً يومياً الى الجيش أعرب فيه عن ارتياح القيادة العامة لتطور الأحداث ووعد باقامة « علاقات ودية مع جيش العاصفة الجديد » .

وكان من الطبيعي ولا شك أن يبدي الجيش ارتياحه لازالة جيش العاصفة

الذي ينافسه من الوجود ، ولكن أين ذهب الشرف ، وولّت الكرامة ، حتى يقوم فيلق الضباط لا بالتغاضي فقط عن حكومة نفذت مذبحة لا مثيل لها في البشاعة في التاريخ الألماني ، بل ويشكرها ايضاً على ما عملته ، مع العلم ان اثنين من كبار قادته وهما الفريق فون شلايخر والفريق فون بريداو ، قد لقيا حتفهما عن سابق عمد واصرار بعد ان وصما بتهمة الخيانة اثناء المذبحة ؟ ولم يرتفع إلا صوتان في الاحتجاج ، هما صوتا المشير فون ماكنزن البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً والفريق فون هامرشتاين القائد العام السابق للجيش ، اذ استنكرا قتل زميليهما واتهامهما بالخيانة كمبرر لذلك [1] . ولا ريب في ان هذا السلوك من فيلق الضباط يكوّن وصمة عار في شرف الجيش الألماني ، ويكون دلالة على ما تميّز به من قصر نظر وادراك .

وقد وضع القادة العسكريون الألمان بجعلهم من عملية هتلر في الثلاثين من حزيران عام ١٩٣٤ التي لم يمكن وصفها إلا بأنها عمل من أعمال العصابات المخالفة للقانون ، قضية يشتركون فيها مع هتلر في مسؤوليتها انفسهم ، في وضع لم يعد في وسعهم في المستقبل من جرائه ، ان يقاوموا أعمال هتلر الارهابية لا في داخل الوطن فحسب بل وفي خارج حدوده ايضاً وفي استهدافها البعض منهم كذلك . ولقد أيد الجيش في عمله هذا ، ادعاء هتلر ، بأنه قد غدا ، هوالقانون ممثلاً في شخصه ، أو ادعاءه عندما قال في خطابه في الرايشستاغ في الثالث عشر من تموز .. « واذا ما وجه أي انسان اللوم الي وسألني عن الأسباب التي حالت دون الرجوع الى محاكم العدالة العادية » فان كل ما استطيع قوله هو هذا:

---

١ - واصل القائدان الكبيران المحاولات لازالة وصمة « الخيانة » عن شلايخر وبريداو ،وقد نجحا في حمل هتلرفي جلسة سرية اشترك في عقدها الحزب والقادة العسكريون في برلين في الثالث من كانون الثاني عام ١٩٣٥ ، على الاعتراف بأن قتل القائدين كان « خطيئة » وعلى الاعلان بأن اسميهما سيعادان إلى سجلات الشرف في كتائبهما . وعلى الرغم من أن « إعادة الاعتبار » هذه لم تنشر قطفي المانيا إلا أنفيلق الضباط قبلها على علاتها (راجع ويلر - بنيت - نقمة السلطان ص ٣٣٧) .

في هذه الساعة ، كنت مسؤولاً عن مصير الشعب الألماني ، ولذا فقد غدوت القاضي الأعلى للشعب الألماني . » ومضى هتلر يقول : « وعلى كل فرد ان يعرف في المستقبل انه اذا رفع يده لتوجيه ضربة الى الدولة ، فإن الموت الزؤام هو الذي ينتظره » . ولقد كان هذا القول بمثابة انذار بما أصاب القادة العسكريين أنفسهم بعد عشرة أعوام ، عندما حل اليوم الذي جرؤ فيه اكثرهم يأساً على رفع أيديهم ليضربوا بها « قاضيهم الأعلى » .

ولقد اخطأ فيلق الضباط بالاضافة الى هذا في الاعتقاد بأنه قد تخلص في عملية الثلاثين من حزيران الى الأبد من تهديد الحركة النازية لامتيازاته التقلدية وسلطانه . فلقد خلف الحرس النازي جيش العاصفة . وتم في السادس والعشرين من تموز فصل الأول عن الثاني ، اعترافاً بما أبداه من دقة في تنفيذ التعليمات ، على ان يتولى هملر قيادته العليا وان يكون مسؤولاً أمام هتلر مباشرة . وسرعان ما غدت هذه القوة التي تفوق سابقتها في الانضباط العسكري والولاء ، أقوى بكثير منها ، لا في هذه اللحظة فحسب ، بل وفي أي لحظة سابقة من تاريخها ، كما أصبحت منافسة قوية للجيش فنجحت في تحقيق ما عجزت عنه قوات روهم المهلهلة من ذوي القمصان البنّية .

لكن القـــادة العسكريين ، شعروا بالاطمئنان على أي حال ، في الوقت الحاضر على الأقل ، فلقد عاد هتلر يؤكد في خطابه الذي القاه في الرايشستاغ في الثالث عشر من تموز ان الجيش « سيظل الحامل الوحيد للسلاح » . وقـد تخلص المستشار اطاعة لأوامر القيادة العليا من جيش العاصفة الذي تجرأ على تحدي تلك القاعدة . وقد حان الوقت ليقوم الجيش بتنفيذ نصيبه من « اتفاق الدويتشلاند » .

وفـــاة هندنبرغ

وكان هندنبرغ الذي بدا في الماضي وكأنه لا يفنى ، قد أخذ في التدهور صحياً طيلة أشهر الصيف . وفي الساعة التاسعة من صباح الثاني من آب ، توفي

وهو في السابعة والثمانين من عمره. وأعلن بعد ثلاث ساعات ، أي عند الظهيرة ، أنه بناء على القانون الذي أصدره مجلس الوزراء في اليوم السابق ، تم الجمع بين مركزي الرئيس والمستشار ، وان ادولف هتلر قد تولى سلطات رئيس الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة . وألغي لقب رئيس الجمهورية ، وتقرر ان يعرف هتلر باسم الفوهرر ومستشار الرايخ . وهكذا غدت ديكتاتوريته مطلقـــة . ورغبة من هتلر في ان لا يترك فجوة أو ثغرة دون ان يسدها ، استخلص من جميع ضباط القوات المسلحة وجنودها يميناً بالولاء لا لألمانيا ولا للدستور الذي انتهك حرمته بعدم الدعوة الى انتخاب من يخلف هندنبرغ بل لنفسه . وهذا نص اليمين :

« أقسم بالله قسماً مقدساً ، بأن أقدم الطاعة العمياء الى ادولف هتلر ، زعيم الرايخ الألماني وشعبه ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة ، وأن اكـــون مستعداً كجندي باسل للتضحية بحياتي في سبيل الوفاء بهذا القسم » .

وهكذا ربط القادة العسكريون الألمان الذين كان في وسعهم حتى شهر آب عام ١٩٣٤ ان يقلبوا العهد النازي بسهولة عندما يشاءون ، انفسهم بعد هذا التاريخ بشخص ادولف هتلر ، معترفين به كالسلطة الشرعية العليا في البلاد ، وأوثقوا انفسهم له بيمين من الاخلاص ، شعروا بأن شرفهم العسكري يرغمهم على اطاعته في جميع الظروف مهما كانت هذه الظروف محطة لهم ولوطنهم . وكان هذا القسم سبباً في العذاب الذي أحاق بضمائر عدد قليل من كبار الضباط ، عندما شرع قائدهم الذي اعترفوا به يسير في الطريق الذي شعروا بأنه لن يؤدي بهم إلا الى دمار البلاد وهو ما يجب عليهم مقاومته . وكان هذا اليمين أيضاً هو الذي مكن عدداً اكبر من الضباط لأن يحاولوا تبرئة انفسهم من أية مسؤوليات شخصية عن الجرائم التي لا يمكن وصفها والتي نفذوها إطاعة لأوامر القائد الأعلى الذي عرفوه على طبيعته الحقيقية في مذبحة الثلاثين من حزيران . وقد نجم الكثير من الانحرافات المفزعة لفيلق الضباط الألمان منذ هذا التاريخ ، من هذا التناقض

في موضوع « الشرف » ، وهو موضوع يشهد مؤلف هذا الكتاب انه كان دائماً على ألسنة الضباط ، وكانت لهم فيه مفاهيم غريبة كل الغرابة . فعن طريق وفائهم للقسم الذي اقسموه ، تجنبوا جادة الشرف فيما بعد ، وبصورة متكررة ، ومسوا كرامتهم كمخلوقات بشرية ، وداسوا بأقدامهم على السنن الأخلاقية لشرفهم العسكري الذي مرّغوه في الوحل .

وعندما توفي هندنبرغ ، اعلن الدكتور غوبلز ، بوصفه وزيراً للدعاية بصورة رسمية ، انه لم يعثر على وصية اخيرة للمشير ، وانه تبعاً لذلك يجوز الافتراض بعدم وجود مثل هذه الوصيّة . ولكن في الخامس عشر من آب ، وقبل اربعة ايام من موعد الاستفتاء الذي طلب فيه الى الشعب الألماني الى ان يقرّ تولي هتلر منصب رئيس الجمهورية ، قام بابن نفسه بتسليم هتلر وصيته السياسية . وقد زوّدت عبارات الاطراء لهتلر الموجودة فيها المادة الدعائية القوية لغوبلز في الايام الاخيرة من حملة الاستفتاء ، وسرعان ما تعززت عشية يوم الاستفتاء باذاعة خاصة وجهها العقيد اوسكار فون هندنبرغ جاء فيها :

« لقد رأى والدي نفسه في ادولف هتلر ، خليفته المباشر ، كرئيس للدولة الالمانية ، وانني اشعر بأنني انفذ رغبة والدي الاخيرة ، عندما ادعو الالمان جميعاً رجالاً ونساءً الى الاقتراع الى جانب تسليم منصب والدي الى الفوهرر ومستشار الرايخ » [١] .

ولا ريب في ان هذا القول لم يكن صحيحاً مطلقاً . فلقد أكدت أكثر الدلائل المتوافرة ان هندنبرغ أوصى كرغبة اخيرة له بعودة الملكية بعد وفاته . وقد شاء ادولف هتلر ان يكتم هذا الجزء من الوصية .

وقد ألقت المناقشات التي جرت مع فون بابن بعد الحرب في محاكمات نورمبرغ وكذلك مذكراته فيما بعد بعض الضوء ان لم يكن كله على الغموض الذي احاط بالحقائق المتعلقة بوصية الرئيس العجوز . ومع اعتقادي بأن بابن لا يمكن اعتباره

---

١ — من الجدير بالذكر هنا ان هتلر رفع اوسكار في هذه الآونة من رتبة العقيد الى اللواء .

شاهداً لا يرتقي الشك قط الى اقواله، واعتقادي بأنه لم يذكر كل ما يعرفه، فان شهادته على أي حال من النوع الذي لا يمكن تجاهله . فلقد ذكر انه هو الذي دوّن مسودة الوصية الاخيرة بطلب من المشير نفسه . وقد جاء في مذاكراته ما يلي :

« لقد أوصت المسوّدة التي اعددتها باقامة ملكية دستورية كما أثرت نقطة عن الحكمة في الجمع بين منصبي الرئيس والمستشار. ورغبة في تجنب الاساءة الى هتلر ، كانت هناك اشارات ودية معينة الى بعض الانجازات الايجابية للعهد النازي » .

وقدم فون بابن المسودة الى هندنبرغ في نيسان عام ١٩٣٤ . ويمضي قائلاً :

« وبعد بضعة اسابيع استدعاني لمقابلته ثانية، وابلغني انه قرر عدم الموافقة على الوثيقة في الشكل الذي اقترحته . فلقد شعر .. بأن من حق الأمة بمجموعها ان تقرر شكل الدولة الذي ترغب فيه. ولذا فقد اعتزم ان يعتبر وصفه لخدماته كوصية ، وان تكون توصياته بعودة الملكية كرغبة اخيرة يوجهها في رسالة شخصية الى هتلر. وهذا يعني بالطبع ان الهدف الكلي من اقتراحي الرئيسي قد ضاع ،لا سيما وان التوصية باعادة الملكية لن توجه الى الشعب،وهي حقيقة استغلها هتلر فيما بعد تمام الاستغلال » .

ولم يكن ثمة الماني واحد ، في وضع افضل من وضع فون بابن لملاحظة مدى استغلال هتلر لهذه الحقيقة :

« وعندما عدت الى برلين بعد تشييع جثمان هندنبرغ في تاننبرغ، تحدث الي هتلر هاتفياً، وسألني اذا كان ثمة وصية سياسية لهندنبرغ، واذا كنت اعرف مكان هذه الوصية . ورددت بأني سأسأل اوسكار فون هندنبرغ عنها . فقال هتلر .. « سأكون شاكراً لك ، اذا تأكدت من وصول هذه الوثيقة الي في اسرع وقت ممكن ». ولذا طلبت الى سكرتيري الخاص كامينيك ، ان يمضي فوراً الى نوديك

وأن يسأل نجل هندنبرغ ، عمّا اذا كانت الوصية لا زالت موجودة، وعما اذا كان بوسعه ان يبعث بها الي لأسلمها الى هتلر . ولما كنت لم ار هندنبرغ بعد ان غادر برلين في نهاية أيار ، لم أكن اعرف حقاً ما اذا كان قد اتلف هذه الوصية او لا » .

وقد فشل اوسكار في العثور على هذه الوثيقة فوراً ، ولكنه وجدها اخيراً وبصورة مفاجئة . وقد شهد الكونت فون دير شولنبرغ، مرافق هندنبرغ ، في شهادته في محاكمة بابن إبان النظر في تحويل المانيا عن النازية بعد الحرب الثانية بأن العمل لم يكن شاقاً ، اذ كانت هناك وصيتان احدهما « للشعب الالماني » والثانية « لمستشارالرايخ » . وعندما غادر هندنبرغ برلين في رحلته الاخيرة الى نوديك، حمل شولنبرغ الاوراق معه . وقال بابن انه لم يكن يعرف هذه الحقائق آنذاك ، ولكن سكرتيره عاد فيما بعد من نوديك يحمل « مغلفين » مختومين ، سلمـّه اياهما اوسكار فون هندنبرغ .

وقام فون بابن بتسليمها الى هتلر في الخامس عشر من آب في برختسغادن :

« وقرأ هتلر الوثيقتين بمنتهى الاهتمام وبحث محتوياتهـــما معنا . وكان من الواضح ان توصيات هندنبرغ في الوثيقة التي اعرب فيها عن رغبته الاخيرة مناقضة لنوايا هتلر . ولهذا فقد استغلّ الحقيقة القائمة وهي ان الرسالة موجهة الى « مستشار الرايخ ادولف هتلر » وقال : « ان توصيات الرئيس المتوفي موجهة الي شخصياً . ولذا فسأقرر فيما بعد اذا كنت سأسمح بنشرها ، وموعد هذا النشر » . ورجوته ان ينشر الوثيقتين ، ولكن رجائي ذهب ادراج الرياح . وكانت الوثيقة الوحيدة التي سلمها الى مدير الصحافة في مكتبه للنشر حديث الرئيس المتوفي عن خدماتـه ، وهو الحديث الذي ينطوي على بعض المديح لهتلر » (١) .

---

١ - فون بابن - مذكرات - ص ٣٣٠ - ٣٣٣ .

ولا يذكر فون بابن شيئاً عما حدث بالوثيقة الثانية التي اوصى فيها هندنبرغ بأن يغدو احد امراء الهوهنزولرن لا هتلر رئيساً للدولة ، ولعله لا يعرف ما حل بها . ولما كانت هذه الوثيقة لم تظهر بين مئات الاطنان من الوثائق النازية السرية المصادرة ، فمن المحتمل كل الاحتمال ان يكون هتلر ، قد سارع الى اتلافها .

ولو كان هتلر على جانب من الشجاعة والشرف فنشر هذه الوثيقة ، لما وقع تبدل كبير في الوضع على الغالب . فقد تمكن حتى قبل وفاة الرئيس من حمل مجلس الوزراء على اصدار قانون يخوله صلاحيات الرئيس ، وكان هذا في اليوم الأول من آب أي قبل وفاة الرئيس بيوم واحد . ولم تكن لا شرعية هـــذا « القانون » بالشيء المهم في المانيا التي غـــدا العريف النمسوي السابق فيها هو القانون ممثلاً في شخصه . ولا شرعية هذا القانون واضحة كل الوضوح. ففي السابع عشر من كانون الأول عام ١٩٣٢ ، أي في عهد حكومة شلايخر ، كان الرايشستاغ قد سن قانوناً بأغلبية الثلثين اللازمة لتعديل الدستور ، نص على ان يتولى رئيس المحكمة العليا لا مستشار الدولة ، صلاحيات رئيس الجمهورية في حالة وفاته او استقالته او عجزه ، الى ان يتم انتخاب رئيس جديد. وعلى الرغم من ان « قانون الصلاحيات » الذي كان الاساس «الشرعي» لديكتاتورية هتلر قد خوّل المستشار الحق في سن قوانين مخالفة للدستور ، إلا ان هذا القانون بالذات قد حرّم عليه المساس بنظام الرئاسة .

ولكن ما قيمة القانون الآن ؟ انه لم يكن مهماً بالنسبة الى فون بابن الذي مضى مسروراً الى فيينا كوزير مفوض لهتلر ، يخدمه فيها ، ويهدىء من الاوضاع التي احدثها مصرع المستشار دلفوس على ايدي النازيين . ولم يكن القانون مهماً للقادة العسكريين الذين مضوا بجد واجتهاد في عملهم لبناء جيش هتلر. ولم يكن مهماً ايضاً لأرباب الصناعة ، الذين عادوا بحماس الى عمل التسلح المربح . ولم يستقل المحافظون من ابناء المدرسة القديمة او الألمان «الشرفاء» من امثال البارون فون نوراث من وزارة الخارجية او الدكتور شاخت من بنك الرايخ . اجل لم يستقل شخص واحد . وعلى النقيض من ذلك ، قبل الدكتور شاخت الواجبات

الاضافية لوزير الاقتصاد في الثاني من آب ، وهو اليوم الذي اغتصب فيه هتلر سلطات الرئيس المتوفي .

وما هو موقف الشعب الألماني يا ترى؟لقد مضى نحو من خمسة وتسعين في المائة من الناخبين المسجلين في التاسع عشر من آب الى صناديق الاقتراع ، واقترع اكثر من تسعين في المائة منهم يعدون اكثر من ثمانية وثلاثين مليوناً مؤيدين اغتصاب هتلر للسلطان المطلق . ولم يجد من الشعب الألماني إلا نحو من اربعة ملايين وربع المليون الشجاعة الكافية في انفسهم أو الرغبة ليقولوا « لا » .

ولذا لم يكن غريباً ان يجد هتلر نفسه في وضع الواثق التام عندما عقد مؤتمر الحزب النازي في نورمبرغ في الرابع من ايلول . ولقد رأيته في صبيحة اليوم التالي يخطو كامبراطور فاتح عبر الممر الرئيسي في قاعة لويتبولد الكبرى المزدانة بالاعلام ، بينما كانت الموسيقى تعزف لحن « بادن ويلر » العسكري ، وبينما ارتفعت نحو من ثلاثين الف يد بالتحية النازية . ولم تمض إلا بضع دقائق حتى كان يجلس مزهواً بنفسه في وسط المسرح ، وقد تعانقت ذراعاه ، واتقدت عيناه ببريق النصر ، بينما كان ادولف واغنر القائد النازي في بافاريا يتلو بيان الزعيم :

> « لقد تقرر شكل الحياة الألمانية بصورة نهائيـــة للألف سنة القادمة . وقـــد وجد عصر الاعصاب نهايته عندنا بعد ان ساد في بلادنا طيلة القرن التاسع عشر . ولن تكون هنـاك ثورة اخرى في المانيا طيلة الألف سنة القادمة ! »

ولما كان هتلر انساناً فانياً كالبشر ، فانه لن يعيش الف عام ، ولكنه سيحكم هذا الشعب العظيم طيلة حياته كأعظم وأقوى وأقسى حاكم مطلق عرفه هذا الشعب في تاريخه . فلقد مضى هندنبرغ الجليل الذي كان يستطيع ان يتحدى سلطانه ، وقد غدا الجيش طيّعاً بين يديه ، ملزماً بالطاعة له بقسم لا يستطيع أي جندي الماني نقضه بسهولة . بل غدت المانيا كلها ، وجميع الألمان بين يديه الملطختين بالدماء ، بعد ان صفّى موضوع جميع المخاصمين والمشاكسين أو بعد ان اختفوا من مسرح الاحداث .

وقال يحدث المراسلين الصحفيين الاجانب متبجحاً مزهواً في نورمبرغ بعد ان انتهى اسبوع منهك من الاستعراضات العسكرية والخطب والاحتفالات الوثنية الفخمة ، والتملق المهووس بشخص ذي منصب ، لم يشهد مؤلف هذا الكتاب مثيلاً له من قبل ... « حقاً انه لشيء رائع ! » . فلقد قطع ادولف هتلر شوطاً بعيداً من مجاري فيينا القذرة التي عاش فيها حتى وصل الى مكانته الجديدة . وقد بلغ الآن الخامسة والاربعين من عمره ، وكان لا يزال في مرحلة البداية . وكل من عاد الى المانيا لأول مرة منذ انتقلت الجمهورية الى رحمة الله ، كان في وسعه ان يرى ، مهما كانت الجرائم التي اقترفها هتلر ضد الانسانية انه - أي هتلر - قد اطلق طاقات خلاقة ديناميّة ، تفوق حدود التصور من عقالها ، بعد ان كانت مختزنة مدة طويلة عند الشعب الألماني . اما الهدف الذي كان يرمي اليه من اطلاق هذه القوى ، فقد سبق له ان اوضحه بجلاء على صفحات « كفاحي » وفي مئات الخطب التي مرت في طريقها دون ان يلاحظها الكثيرون او يهتموا بها زراية بها واستهزاءاً ، من الذين يعيشون في داخل الرايخ الثالث أو خارجه على وجه التخصيص .

٨

الحياة في الرايخ الثالث
١٩٣٣-١٩٣٧

وصلت الى الرايخ الثالث في هذا الوقت من اواخر صيف عام ١٩٣٤ ، لأعيش فيه واعمل. وكان في المانيا الجديدة الكثير مما يؤثر على المراقبين الاجانب ويزعجهم ويحيّرهم. فلقد بدت الغالبية الساحقة من الألمان وكأنها غير مكترثة بانتزاع حريتها الشخصية منها ، وبتحطيم الكثير من ثقافتها لتحل محله بربرية مجنونة ، وبأن حياتها واعمالها غدت منسقة على نحو عسكري الى حد لم يألفه أي شعب من قبل حتى ولو كان هذا الشعب قد ألف منذ اجيال طويلة حياة التنظيم العسكري.

ومن المحتمل ان يكون ارهاب الغستابو والخوف من معسكرات الاعتقال كامناً في النفوس ، ولا سيما بالنسبة الى اولئك الذين يخرجون على الصف المنظم أو الذين كانوا في ماضيهم من الشيوعيين أو الاشتراكيين أو المغالين في ليبراليتهم أو في ميلهم الى السلام ، أو الذين هم من اليهود. وكانت عملية التطهير الدموية في الثلاثين من حزيران عام ١٩٣٤ ، بمثابة انذار لما يمكن ان يكون عليه القادة الجدد من قسوة وشدة ، ومع ذلك فان الإرهاب النازي في سنواته الأولى لم

يكن قد اثر إلا على حياة عدد قليل من الألمان ،ولذا فان المراقب القادم حديثاً الى البلاد ، كان لا بد له وان يدهش من رؤية شعبها وكأنه لا يحس بأنه قد بات يحيا حياة الماشية ، وقد جثمت على صدره ديكتاتورية متوحشة لا ضمير لها ولا اخلاق ، اذ كان يرى على النقيض من ذلك ، هـذا الشعب وهو يؤيدها بحماس أصيل . ولقد بعثت هذه الديكتاتورية في نفوس ابناء هذا الشعب آمالاً جديدة، وثقة جديدة وايماناً مدهشاً بعظمة بلادهم ومستقبلها .

وكان هتلر قد اقبل على تصفية الماضي بكل ما فيه من فشل وخيبة أمل . فلقد شرع يحرر المانيا خطوة خطوة ولكن بسرعة هائلة سنراها فيما بعد من اغلال فرساي ، باعثاً الحيرة والارتباك في صفوف الحلفاء الظافرين ، وجاعلاً من المانيا قوة عسكرية من جديد . وكان هذا ما يريده معظم الألمان ، وكانوا على استعداد لتقديم كل تضحيات يطلبها الزعيم منهم ، كافتقادهم لحرياتهم الشخصية ، أو حِمْيتهم وحرمانهم على الطريقة الاسبارطية - المدفع قبل الزبدة - ، وتكليفهم بأعمال شاقة . ولم يحل خريف عام ١٩٣٦ حتى كانت مشكلة البطالة قد حُلَّت الى حد كبير ، وحتى كان كل واحد منهم قد وجد عملاً [١] . وكان في وسع الانسان ان يسمع اولئك العمال الذين حرموا من حقوقهم النقابية ، يتندّرون وهم يتناولون وجبات طعامهم كاملة ، بأن عهد هتلر قد قضى على الأقل على الحرية في الجوع . وانتشر في هذه الايام شعار نازي شعبي يقول « المصلحة المشتركة قبل المصلحة الشخصية » ، وعلى الرغم من ان عدداً من زعماء الحزب وفي مقدمتهم غورنغ كانوا يعملون سراً على جمع الثروات ،وعلى الرغم من ان الارباح من العمل الصناعي والتجاري كانت تسير في طريق التضخم ، إلا ان مما لا شك فيه ان الجماهير غدت تحت سيطرة الاشتراكية الوطنية الجديدة وما تبعثه فيها من سحر واستهواء ، بتقديمها في ظاهرها خير

---

١ - هبط عدد العمال العاطلين المسجلين من شباط عام ١٩٣٣ الى ربيع عام ١٩٣٧ من ستة ملايين الى اقل من مليون .

المجموع على ارباح الفرد .

وبدت القوانين العنصرية التي حرمت اليهود من المجتمع الالماني عودة مرعبة في نظر المراقبين الاجانب الى العهود البشرية البدائية، إلا ان الالمان وقد جعلتهم النظريات النازية العنصرية ممجّدين ، تصورهم على انهم ملح الارض والعنصر السيّد ، رأوا فيها شيئاً يتفق وأذواقهم . وكان في وسع المرء ان يقابل عدداً قليلاً من الالمان من الاشتراكيين السابقين او الاحرار ، او المسيحيين الاتقياء من رجال الطبقات المحافظة القديمة ، فيرى انهم مشمئزون من اضطهاد اليهود أو ناقمون ساخطون عليه ، وعلى الرغم من عدم تقاعسهم عن تقديم المساعدة لتخفيف المتاعب في عدد من الحالات الفردية ، إلا انهم لم يفعلوا قط شيئاً للمساعدة في وقف تيار الاضطهاد العام. وماذا كان في وسعهم ان يفعلوا يا ترى ؟ هذا هو السؤال الذي كثيراً مـــا واجهوك به ولم يكن من السهل عليك ان تجد جواباً له .

وكان الألمان قد سمعوا بصورة غير واضحة عن طريق اذاعاتهم وصحافتهم المراقبة ، شيئاً عن الاشمئزاز الذي قوبلت به هذه الاجراءات في الخارج ، ولكنهم لاحظوا أن هذا الاشمئزاز لم يحل بين الاجانب وبين الاقبال على الرايخ الثالث يتمتعون بحسن وفادته . فلقد كانت المانيا النازية اكثر انفتاحاً امام العالم من روسيا السوفياتية ، وكان في وسع كل انسان ان يزورها [1] . وقد انتعشت حركة السياحة وكانت تأتي للبلادبكميات ضخمة من النقد الاجنبي الذي تحتاج اليه اشد الحاجة . ويبدو ان الزعماء النازيين لم يكونوا يخشون على شيء من ان يراه

---

١ – وكانت المانيا النازية على سبيل المقارنة مع الاتحاد السوفياتي، تسمح ايضاً لجميع مواطنيها باستثناء بضعة الوف من مواطنيها كانت اسمائهم مدرجة في قوائم الشرطـــة السوداء ، بالسفر الى الخارج ، وان كان هذا السفر مقيداً بقيود العملة بسبب افتقار البلاد الى العملة الصعبة. لكن قيود النقد على اي حال ، لم تكن اشد قسوة من تلك التي فرضت على المواطنين البريطانيين عام ١٩٤٥ . والنقطة المهمة في الموضوع هي ان الحـكام النازيين لم يكن يبدو عليهم الخوف من ان يتأثر الالمان العاديون بالدعايات المناهضة للنازية اذ قاموا بزيارة البلاد الديموقراطية .

الناس . وكان في وسع أي اجنبي مهما اشتد عداؤه للنازية ، ان يذهب الى المانيا وان يرى مافيها ويدرس ما يريد، باستثناء معسكرات الاعتقال طبعاً ، والمؤسسات العسكرية التي تحرص كل بلاد العالم ، لا المانيا النازية وحدهـــا ، على سريتها .
وذهب الكثيرون من خصوم النازية الى المانيا ، وعاد الكثيرون منهم ، اذا لم يكونوا قد تحولوا عن كراهيتهم السابقة واعتنقوا النازية ، متسامحين على الأقل تجاه « المانيـــا الجديدة » ، اذ آمنوا بأنهم قد رأوا على حد قولهم « منجزات ايجابية » . فلويد جورج مثلاً ، ذلك الانسان الفاره الاريب ، الواسع الادراك والذكاء ، والذي قاد بلاده انكلترا الى النصر على المانيا في عام ١٩١٨ . وجعل شعار حملته الانتخابية في عام ١٩١٨ « لنشنق القيصر » ، قام بزيارة هتلر في « اوبرسالزبرغ » في عام ١٩٣٦ ، وعاد الى بلاده وقد سحره الفوهرر فأخذ يطريه جهاراً اعظم اطراء ، ويصفه « بالرجل العظيم » الذي يمتاز بسعة الادراك والارادة اللتين مكنتاه من حل المشاكل الاجتماعية لشعب حديث وفي طليعتها مشكلة البطالة ، وهي « قرحة » ما زالت « متقيحة » في انكلترا ، ولم يستطع الزعيم الليبرالي العظيم الذي قاد بلاده في الحرب ان يحلها أو يجد استجابة كبيرة في بلاده للبرنامج الذي وضعه لحلها والقائم على اساس الشعار القائل ، « في وسعنا ان ننتصر على البطالة » .

وأتاحت الالعاب الأولمبية التي اقيمت في برلين في شهر آب عام ١٩٣٦ ، فرصة ذهبية للنازيين ليتركوا انطباعات ضخمة في العالم عما حققه الرايخ الثالث ، وقد استغلوا هذه الفرصة الى اقصى حدود الاستغلال . وازيلت إبان هذه الفترة اللافتات التي تحمل عبارة «لا نرحب باليهود » والتي كانت مرفوعة على الحوانيت والفنادق والمقاهي والحانات واماكن اللهو ، كما توقف اضطهاد اليهود والكنيستين المسيحيتين بصورة مؤقتة ، وبدت البلاد في اروع مظاهر السلوك الطيب . ولم تشهد أية مباريات اولمبية سابقة في أي مكان في العـالم ما شهدته في برلين من تنظيم رائع ، وعرض سخي للكرم وحسن الوفادة . واقام غورنغ وريبنتروب وغوبلز حفـــلات مذهلة للضيوف الاجانب ، وشهدت « الليلة الايطالية » التي

اقامها وزير الدعاية في « بفونينزيل » القريبة من « وانسي » اكـثر من ألف صنف على العشاء في منظر لا يختلف عـن مناظر « الف ليلة وليلة » . وذهل الزوّار ومعظمهم من انكلترا وامريكا بروعة ما شاهدوه ، اذ رأوا في الظاهر شعباً سعيداً سليماً وودوداً ، متحداً خلف هتلر ، وهي صورة تختلف تمـام الاختلاف ، كما قالوا ، عن تلك التي انطبعت في اذهانهم مـن قراءة البرقيات الصحفية الصادرة عن برلين .

ومع ذلك ، فقد كان هناك ، في الحقيقة ، وتحت السطح الظاهري ، تحول ُمحطّ في الحياة الألمانية ، ظل خفياً على اعين السائحين في هذه الايام الرائعة من الالعاب الأولمبية التي جرت في برلين ، وتجاهله معظم الألمان او قبلوه بشيء من السلبية المحيّرة ، لكنه لم يخف عن اعين مراقب اجنبي كان يعيش في المانيا.

فلم تكن القوانين التي سنها هتلر ضد اليهود أو الاضطهاد الذي تشرف عليه الحكومة لهؤلاء الناس بالشيء الخفي أو السري بالطبع . فقد حرمت القوانين المسماة بقوانين نورمبرغ الصادرة في الخامس عشر من أيلول عام ١٩٣٥ اليهود من الجنسية الألمانية ، واحالتهم الى مرتبة (الرعايا) لا (المواطنين) وحظرت كذلك التزاوج بين اليهود والآريين والعلاقات غير الزوجيه بينهما ، وحرّمت على اليهود استخدام فتيات آريات دون الخامسة والثلاثين في بيوتهم . وصدر في السنوات القليلة التالية نحو من ثلاثة عشر قانوناً لاستكمال قوانين نورمبرغ ، ولتحويل اليهود الى اناس لا شرعية لوجودهم كلية . وعندما كانت المانيا تقوم بدور المضيف للألعاب الأولمبية في صيف عام ١٩٣٦ ، وتستهوي زائريها مـن الغربيين بحياتها ، كان اليهود قد غدوا اما بالقانون أو بالارهاب الذي يسبق القانون عادة ، محرومين من الوظائف العامة والخاصة الى الحـد الذي جعل نصفهم على الأقل بدون وسيلة للعيش . ففي السنة الأولى من قيام الرايخ الثالث أي في عـام ١٩٣٣ ، كان اليهود قد حرموا من الوظائف العامة والخدمة في الحكومة والعمل في الصحافة والاذاعة والزراعة والتعليم والمسرح والاشرطة السينمائية ، وفي عام ١٩٣٤ ، اخرجوا من الاسواق المالية (البورصة) . وعلى

الرغم من ان حرمانهم من ممارسة المهن الحرة كالمحاماة والطب ، و أمن العمل في التجارة ، لم يصبح مشروعاً بحكم القانون إلا في عـام ١٩٣٨ ، إلا انهم في الحقيقة ، كانوا قد ابعدوا عن هذه الميادين قبل نهاية السنوات الاربع الأولى من حياة الحكم النازي .

ولم يكتف النازيون بحرمان اليهود من كماليات الحياة وظرائفها بل حرموهم ايضاً من ضرورياتها . وكان اليهودي يجد من الصعوبة بمكان عظيم في الكثير من المدن العثور على الطعام عن طريق الشراء ، ان لم يكن ذلـــك مستحيلاً كلية . فهناك على ابواب حوانيت « البقالة » وبيع اللحوم والمخابز وحوانيت بيع منتجات الالبان لافتات كتب عليها : « يمنع دخول اليهود » . وقد استحال على اليهود في اكثر من مجتمع الحصول على الحليب حتى لتغذية صغارهم ، كما ان الصيدليات كانت تمنع عنهم العلاجات والعقاقير . وكانت الفنادق لا تسمح لهم بالمبيت فيها ، وحيثما ذهبوا ، كانوا يرون لافتات مؤلمة تحمل عبارات مثل «يمنع على اليهود منعاً باتاً دخول هذه المدينة » أو مثل « اذا دخل اليهود هذا المكان فعليهم ان يتحملوا مسؤولية هذه المجازفة » . وارتفعت لوحة عند منعطف حاد وخطر على مقربة من لودفيغزهافن تقول ... « قد سيارتك بعناية ! منعطف خطر ! اما اليهود فعليهم السير بسرعة ٧٥ ميلاً في الساعة » [١] .

كانت هذه هي الحالة الـــتي يحياها اليهود في الوقت الذي جرت فيـــه الاحتفات بالألعاب الأولمبية في المانيا . ولم تكن هذه الحالة إلا بداية الطريق المؤدية الى ابادتهم .

اضطهاد الكنائس المسيحية

بدأت الحرب النازية على الكنائس المسيحية بصورة اكثر اعتدالاً . وعـلى

---

١ – تعرض مؤلف هذا الكتاب لحملات عنيفة من الصحافة والاذاعة الألمانية وهدد بالطرد لانه ابرق اثناء فترة الالعاب الأولمبية الى صحيفته يقول ان بعض هـــذه اللافتات اللاسامية قد انتزعت مؤقتاً من اماكنها .

الرغم من ان هتلر ، وهو الكاثوليكي اسماً ، قد ندد بالكاثوليكية السياسية في كتابه « كفاحي » ، وهاجم كلاً من الكنيستين المسيحيتين لفشلهم في ادراك المشكلة العنصرية ، إلا انه كما رأينا في السابق ، حذر في كتابه بأن على « الحزب السياسي ان لا يتغافل مطلقاً عن الحقيقة المطلقة الواقعة وهي انه في جميع التجارب التاريخية السابقة ، لم يستطع أي حزب سياسي مجرد ان ينجح في تحقيق اصلاح ديني » . وقد نصت المادة الرابعة والعشرون من برنامج الحزب على « الحرية لجميع الطوائف الدينية في الدولة طالما انها لا تؤلف خطراً على ... المشاعر الاخلاقية للشعب الألماني . ويقف الحزب الى جانب المسيحية الايجابية » . وقد اثنى هتلر في الخطاب الذي القاه في الثالث والعشرين من آذار عام ١٩٣٣ في الرايشستاغ في الجلسة التي تخلت فيها هيئة المانيا التشريعية عن صلاحياتها للديكتاتور ، على العقائد المسيحية لأنها « عناصر جوهرية في الحفاظ على روحية الشعب الالماني » ووعد باحترام حقوقها، واعلن ان ما تطمح اليه حكومته هو عقد « اتفاق سلمي بين الكنيسة والدولة » ثم اضاف وهو يطمع في الحصول على اصوات حزب الوسط الكاثوليكي التي نالها بالفعل ، قائلاً « ونحن نأمل في تحسين علاقاتنا الودية مع الكرسي البابوي » .

ولم تكد تمضي على هذا الخطاب اربعة اشهر حتى كانت الحكومة النازية قد عقدت اتفاقاً مع الفاتيكان ضمنت فيه حرية الديانة الكاثوليكية، وحق الكنيسة في ان « تتولى بنفسها تنظيم شؤونها ». ولم يكد يجف المداد الذي وقع به الاتفاق من فون بابن ممثلاً لألمانيا والمونسنيور باشيلي وزير خارجية الفاتيكان الذي غدا فيما بعد البابا بيوس الثاني عشر ، حتى كانت الحكومة النازية قد خرقته . لكن توقيعه في لحظة كتلك اللحظة التي كان العهد الجديد في المانيا قد استفز فيه سورة غضب العالم وهياجه بما قام به من أعمال متطرفة ، قد ادى ولا ريب الى اضفاء شيء من المكانة على حكومة هتلر في وقت هي في أشد الحراجة اليها [١] .

---

١ ـ دافع البابا بيوس الثاني عشر في خطاب وجهه الى المجمع المقدس في الثاني من حزيران عام ١٩٤٥ عن الاتفاق الذي كان قد وقعه ، ولكنه وصف الاشتراكية الوطنية كما عرفها فيما بعد بأنها « مروق متغطرس على السيد المسيح ، وانكار لعقائده ، ولأعماله في خلاص البشرية ، وعقيدة مستندة الى العنف وعبادة العنصر والدم والقضاء على حرية الانسان وكرامته » .

وفي الخامس والعشرين من تموز أي بعد خمسة إيام فقط من ابرام الاتفـــاق سنّت الحكومة الألمانية قانونـــاً دعته بقانون « التعقيم » اثار سخط الكنيسة الكاثوليكية بصورة خاصة . ولم تمض خمسة ايام حتى كانت الحكومة تتخذ اول خطوات لحل عصبة الشبيبة الكاثوليكية . واعتقل في السنوات التالية ألوف من رجال الدين الكاثوليك والراهبات والزعماء العلمانيين ، وبعضهم بتهم اخلاقيـة مشينة طبلت الدعاية النازية لها وزمّرت والبعض الآخر ، بتهمة « تهريب النقد الاجنبي » . وقد رأينا سابقاً كيف ان ايريك كلاوزنر زعيم عصبة العمل الكاثوليكي قد قتل في حركة تطهير الثلاثين من حزيران عام ١٩٣٤ . وصودرت عشرات المطبوعات الكاثوليكية كما انتهك رجال الغستابو حرمة الاعتراف . ولم يحل ربيع عام ١٩٣٧ حتى كان كبار رجال الدين الكاثوليك الذين حاولوا في البداية ، شأنهم في ذلك شأن رجال الدين البروتستانت التعاون مع العهد الجديـــد ، قد طاشت احلامهم بصورة كاملة . وفي الرابع عشر من آذار عـــام ١٩٣٧ أصدر البابا بيوس الحادي عشر منشوراً بابوياً « اعرب فيه عن الأسى اللاهب » ، واتهم الحكومة النازية « بالانحراف » و « نقض » الاتفاق وببذر « بذور الشك والخلاف والكراهية والغيبة والعداء سراً وعلانية ضد المسيح وكنيسته » . ورأى البـــابا « في أفق المانيا ، السحب العاصفة منذرة بنشوب الحروب الدينية الهدامة ... التي لا هدف لها إلا الابادة » .

* * *

ورحب القس المحترم مارتن نيمولر ، شخصياً بوصول النازيين الى الحكم في عام ١٩٣٣ . وصدر في ذلك العام الكتاب الذي وضعه عن تاريخ حياته والذي اسماه « من الغواصة الى منبر الكنيسة » ، والذي تحدث فيه عن كيفية تحوله من قائد غواصـــة في الحرب الكونية الأولى الى راع بارز من رعاة الكنيسة البروتستانتية ، فسارعت الصحف النازية الى اطراء الكتاب والثناء عليه ، ولقي

رواجاً عظيماً . وكانت السنوات الاربع عشرة من حياة الجمهورية للقس نيمولر ، كما كانت لغيره من رجال الدين البروتستانت « سنوات في الظلام »[1]، ولذا فقد اضاف في نهاية كتابه ملاحظة سجل فيها رضاه على ان الثورة النازية قد انتصرت في النهاية ، وانها جاءت « بالبعث القومي » الذي ناضل هو طويلاً من اجله ، في الفيلق الحرّ الذي تخرّج منه عدد كبير من النازيين .

ولكن آماله سرعان ما طاشت . فالبروتستانت في المانيا كما في الولايات المتحدة ينقسمون الى طوائف وشيع . ولا يمت الى الكنائس الحرة كالكنيسة المعمدانية والكنيسة المثيودية إلا نحو من مائة وخمسين الفاً من مجموع خمسة واربعين مليوناً من البروتستانت . بينما يمت الباقون الى نحو من ثمان وعشرين كنيسة لوثرية ومنظمة ، اضخمها كنيسة الاتحاد البروسي القديم التي يتبعها نحو من ثمانية عشر مليوناً من الناس . وقد وقعت انقسامات جديـــدة مع ظهور الاشتراكية الوطنية بين البروتستانت اذ قام النازيون الشديدو التطرف في عام ١٩٣٢ بتنظيم « حركة العقيدة المسيحية الالمانية » التي كان اكثر قادتها غلواً شخص يدعى لودفيغ مولر ، القس السابق في الجيش ، وراعي منطقة بروسيا الشرقية العسكرية ، والتابع المخلص لهتلر ، الذي كان اول من جمع بينه وبين الفريق فون بلومبرغ عندما عين هذا قائداً للمنطقة . وأيد (المسيحيون الالمان) العقائد النازية عن العنصر والزعامة تأييداً حماسياً وارادوا تطبيقها على شكل « كنيسة للرايخ » تجمع كافة البروتستانت في منظمة واحدة شاملة . ولم يحل عام ١٩٣٣ حتى كانت حركة « المسيحية الالمانية » قد ضمت نحواً من ثلاثة آلاف قس من مجموع سبعة عشر الفاً من القسس ، بينما كان اتباعها من العلمانيين يمثلون نسبة اكبر من رواد الكنائس .

وكانت هناك جماعة صغيرة تعارض حركة « المسيحيين الالمان » وتطلق على نفسها اسم (الكنيسة الاعترافية) . وكان عدد القسس في هذه الجماعة معادلاً

---

١ - ليوشتاين - كنت في جهنم مع نيمولر - ص ٨٠ .

لعددهم في الحركة المذكورة ، ويتزعمهم نيمولر . وعارضت هذه الحركة تحول الكنائس البروتستانتية الى النازية ، كما قاومت النظريات العنصرية واستنكارها لعقائد روزنبرغ وغيره من القادة النازيين المناوئة للمسيحية . ووقفت غالبية البروتستانت بين الفئتين ، وقد بدت أجبن من ان تنضم الى أي من الفئتين المتصارعتين ، ووقفت الى جانب الحلبة ، ثم سقطت في ايدي هتلر ، راضية بسلطته في التدخل في شؤون الكنيسة ، ومطيعة اوامره دون أي احتجاج علني .

ومن الصعب على المرء ان يفهم سلوك معظم البروتستانت الالمان في السنوات الاولى للنازية ، إلا اذا وعى حقيقتين ، اولاهما تاريخ البروتستانتية ، وثانيتهما تأثير مارتن لوثر [١] . وكان المؤسس الاكبر للبروتستانتية من غلاة المناوئين للسامية ، والمؤمنين اشد الايمان بالطاعة المطلقة للسلطة السياسية . وقد اراد ان تتخلص المانيا من اليهود ، وعندما يبعدون ، يجب ان تؤخذ منهم « جميع نقودهم وجواهرهم وفضتهم وذهبهم » ، واضاف ان من الواجب « ان تحرق كنسهم ومدارسهم ، وان تحطم بيوتهم وتدمر ... وان يحشروا كالغجر تحت سقف واحد او في اسطبل ... ليعيشوا في شقاء واسار على النحو الذي يواصلون الشكوى علينا الى الله منه » ، وهي نصائح اخلص هتلر وغورنغ وهملر في اتباعها بعد اربعة قرون [٢] .

ولقد نصح لوثر الامراء إبان ثورة الفلاحين التي وقعت في عام ١٥٢٥ ، والتي كانت الثورة الشعبية الوحيدة في التاريخ الالماني باتباع اقسى الاجراءات مع « الكلاب المسعورة » كما اسمى الفلاحين البائسين الذليلين . ولقد استخدم لوثر في نصائحه هذه ، كما استخدم في اقواله عن اليهود ، لغة متوحشة وسليطة لا

---

١ — دفعاً لكل التباس ارى ان اقول هنا بأن المؤلف بروتستانتي .

٢ — نيومان — البهيموث (ص ١٠٩) . يقول نيومان في كتابه هذا ، انه اقتبس هذه المقتطفات من الدراسة المسماة (اللاسامية) التي قامت بها مؤسسة البحث الاجتماعي والتي طبعت في كتاب (دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية) الذي طبع عام ١٩٤٠ . المؤلف

مثيل لها في التاريخ الالماني الا في العهد النازي . وقد امتد أثر هذه الشخصية الضخمة عبر الاجيال في المانيا ولا سيما بين البروتستانت . ولعل من أهم نتائج هذا الاثر ان البروتستانتية الالمانية غدت بمنتهى السهولة، اداة في يد الحكم المطلق للملوك والامراء من القرن السادس عشر حتى زوالهم في عام ١٩١٨ . وكان الملوك الوراثيون والامراء الصغار قد غدوا الاساقفة الكبار للكنيسة البروتستانتية في مناطقهم . وهكذا كان ملك الهوهنزلرن في بروسيا ، رئيس الكنيسة في الوقت نفسه . ولم تكن هناك اية بلاد اخرى اذا استثنينا روسيا القيصرية ، اصبح فيها رجال الدين بحكم التقاليد خاضعين تمام الخضوع لسلطة الدولة السياسية . وقد وقف رجال الكنيسة باستثناء قلة منهم وقفة صامدة راسخة وراء الملك والنبلاء والجيش ، وقاوموا طيلة القرن التاسع مقاومة مخلصة الحركات الديموقراطية والليبرالية الطالعة . وكان معظم القسس البروتستانت يرون في جمهورية ويمار نفسها «لعنة» لا لأنها اقتلعت الملوك والأمراء من جذورهم فحسب ، بل ولأنها كانت تستمد عونها من الكاثوليك والاشتراكيين . وكان في وسع كل انسان ان يلاحظ بأن رجال الدين البروتستانت ، كانوا يؤيدون اثناء المعارك الانتخابية للرايشستاغ – ولعل نيمولر مثال نموذجي لهم – الوطنيين والنازيين من اعداء الجمهورية. وقد رحب معظم القسس ترحيب نيمولر بوصول ادولف هتلر الى المستشارية في عام ١٩٣٣ .

وسرعان ما تعرّف هؤلاء القسس على الأساليب النازية العنيفة التي جرفت هتلر امامها حاملة اياه الى قمة السلطان السياسي . واعد ممثلو الكنائس البروتستانتية في تموز عام ١٨٣٣ دستوراً « لكنيسة الرايخ الجديدة» ، واعترف مجلس الرايشستاغ بهذا الدستور في الرابع عشر من تموز . وانفجر نضال عنيف على الفور ، واصطراع على انتخاب أول « اسقف للرايخ » . وقد اصر هتلر على انتخاب صديقه القس مولر ، الذي كان قد عينه مستشاراً له في شؤون الكنيسة البروتستانتية لهذا المنصب الرفيع. لكن قادة « الاتحاد الكنسي » اقترحوا قسا بارزاً هو فردريك فون بودلشفينغ . وراح هتلر عشية يوم انتخاب

اعضاء المجلس الكنسي البروتستانتي تمهيداً لاختيار اسقف الرايخ يذيع شخصياً من اذاعة الرايخ حاثاً الناخبين على الاقتراع الى جانب « المسيحيين الألمان » الذين كان القس مولر مرشحهم للاسقفية . وكانت الحملة ناجحة كل النجاح ، فلقد ارغم بودلشفينغ في غضون ذلك على سحب ترشيحه ، وادت الانتخابات الى نجاح اغلبية من المسيحيين الألمان الذين اختاروا في شهر ايلول عندما اجتمع مجلسهم في ويتنبرغ حيث تحدى لوثر رومة لأول مرة ، القس مولر اسقفاً للرايخ .

ولكن الرئيس الجديد للكنيسة وهو رجل ذو نزعة ظالمة ، كان اعجز من ان يقيم كنيسة موحدة ، او ان يصبغ الرعوية البروتستانتية بالصبغة النازية . وقد أقام المسيحيون الالمان في الثالث عشر من تشرين الثاني عام ١٩٣٣ أي في اليوم الذي ايد فيه الشعب الألماني هتلر تأييداً كاملاً في الاستفتاء القومي ، مهرجاناً في ميدان برلين الرياضي. ونهض شخص يدعى الدكتور رينهاردت كراوس ، وهو زعيم الطائفة في منطقة برلين ، فاقترح التخلي عن العهد القديم بما فيه من « قصص عن تجار الماشية ووسطاء الدعارة »، وان يعاد النظر في العهد الجديد على اساس تعاليم المسيح المتطابقة تمام التطابق مع مطالب الاشتراكية الوطنية . واقترحت قرارات عدة في المهرجان تطالب « بشعب واحد ورايخ واحد وعقيدة واحدة » ، وتحتم على جميع رعاة الكنيسة ان يقسموا يمين الولاء لهتلر ، وان يعدوا بان تتبنى جميع الكنائس النظرية الآرية وتحرم اليهود الذين اعتنقوا النصرانية . وكان هذا اكثر مما يستطيع قبوله حتى البروتستانت الجبناء ، الذين رفضوا من قبل الاشتراك في حزب الكنيسة ، واضطر الاسقف مولر الى وقف الدكتور كراوس والتبرؤ منه .

وكان الصراع بين الحكومة النازية والكنائس امتداداً للصراع القديم حول موضوع التمييز بين ما لقيصر وما لله . وكان هتلر مصراً من ناحية البروتستانت على انه في حالة فشل «المسيحيين الالمان »النازيين في حمل الكنائس الانجيلية على الاذعان لاسقف الرايخ مولر ، فان الحكومة نفسها ستضطر الى تولي توجيه

الكنائس وادارتها. وكان هتلر يحمل ازدراء معيناً للبروتستانت اذ انهم على الرغم من كونهم اقلية ضئيلة في مسقط رأسه في النمسا، كانوا يؤلفون ثلثي سكان الرايخ. ولقد اسرّ ذات يوم الى اعوانه بقوله : « في وسعكم ان تفعلوا ما تشاؤون بهم ، فسيذعنون ... انهم اناس صغار النفوس تافهون ، يذعنون كالكلاب ، ويتصبب العرق منهم عندما تتحدث اليهم . » [1] وكان يعرف تمام المعرفة ان مقاومة الصبغة النازية للكنائس البروتستانتية تنطلق من عدد قليل من القسس ومن عدد اقل من الاتباع .

وغدا الراعي نيمولر الذي طاشت آمـاله في مستهل عام ١٩٣٤ ، الروح الموجهة للاقلية المعارضة في كل من « الكنيسة الاعترافية اللوثرية » و « عصبة الطوارىء للرعاة » . واعلنت الكنيسة اللوثرية (الاعترافية) في المجمع الكنسي العام الذي عقد في بارمين في ايار عام ١٩٣٤ وفي اجتماع خاص عقـد في تشرين الثاني في كنيسة المسيح في داهليم احدى ضواحي برلين والتي يرعاهـا نيمولر ، انها هي الكنيسة البروتستانتية الشرعية لالمانيا واقامت حكومة كنسية مؤقتة ، وهكذا نشأت جماعتان تدعي كل منهما الشرعية ، اولاها بزعامة اسقف الرايخ مولر والثانية بزعامة نيو مولر .

وكان من الواضح ان قس الجيش السابق ، على الرغم من صلاته الوثيقـة بهتلر قد فشل في دمج الكنائس البروتستانتية ، وفي نهاية عام ١٩٣٥ ، وبعد ان اعتقل الغستابو نحـواً من سبعمائة من قساوسة الكنيسة اللوثرية الاعترافية ، استقال من منصبه واختفى نهائياً من الصورة . وكان هتلر في تموز عام ١٩٣٥ قد عيّن أحد المحامين النازيين واسمه الدكتور هانز كيرل وزيراً لشؤون الكنيسة وزوده بالتعليمات اللازمة لبذل محاولة جديدة لتوحيد الكنائس البروتستانتية . وامتاز هذا الرجل رغم نازيته بالاعتدال والدماثة والروية في العمل ، ولذا فقـد لقي نجاحاً كبيراً في مستهل عمله . ولم يقتصر نجاحـه على كسب الاكليروس

---

١ ـ وشنينغ ـ صوت الدمار . ص ٥٤ .

المحافظ الى جانبه وهـو الذي يؤلف الاغلبية فحسب بل تعداه الى اقامة لجنة للكنيسة يرئسها القس المحترم الدكتور زويلنر الذي تجلّه جميع الفئات، لتشرع في اعداد تسوية عامة . وعلى الرغم من تعاون جماعة نيومولر مع اللجنة ، إلا انها اصرت على ادعائها بأنها الكنيسة الشرعية الوحيدة . وعندما وجهت في ايار عام ١٩٣٦ مذكرة لطيفة ولكنها حازمة الى هتلر تحتج فيها على ميول العهد المناهضة للمسيحية ، وتستنكر لا سامية الحكومة وتطالب بوضع حد لتدخل الدولة في الشؤون الكنسية ، رد فريك وزير الداخلية النازي بعمـل حازم ينطوي على القسوة ، اذ اعتقـــل المئات من قساوسة الكنيسة اللوثرية وقتل احد موقعي المذكرة وهو الدكتور وايزلر في معسكر اعتقال « ساشينز هاوزن » ، كما صادر اموالها وحرم عليها القيام بجمع التبرعات .

واستقال الدكتور زويلنر في الثاني عشر من شباط عام ١٩٣٧ مـن اللجنة الكنسية ، فقد حيل بأمر من الغستابو بينه وبين زيارة لوبيك حيث كان تسعة من القسس البروتستانت قد اعتقلوا ، ومحتجاً بأن وزير الكنيسة يخرّب عليـه اعماله . ورد الدكتور كيرل في اليوم التالي في خطاب القاه في جمع من رجال الكنيسة الخنوعين، فاتهم المحترم زويلنر بالفشل في فهم العقيدة النازية عن العنصر والدم والتربة ، وكشف بوضوح عن عداء الحكومـــة لكل من الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية .

وقال كيرل : « ويقف الحزب على اساس المسيحية الايجابية ، والمسيحية الايجابية هي الاشتراكية الوطنية ... والاشتراكيـــة الوطنية هي تنفيذ ارادة الله ... وتتكشف ارادة الله مـن الدم الألماني ... وقد حاول الدكتور زويلنر والكونت غالين (المطران الكاثوليكي لمونستر) ، ان يوضحـــا لي ان المسيحية تكـون في الايمان بأن المسيح هو ابن الله . ولا ريب في ان هذا التأكيد يحملني على الضحك .. لا ، ان المسيحية لا تعتمد على عقيدة الحواريين... فالمسيحية الصحيحة تتمثل في الحزب ، وها ان الشعب الالماني مدعو

الآن من الحزب ولا سيما من الفوهرر الى مسيحية حقيقيـة .. ولا ريب في ان الفوهرر هو البشير بتجلٍ « جديد »[1].

واعتقل الدكتور نيومولر في الأول من تموز عام ١٩٣٧ وأودع في سجن « موابيت » في برلين . وكان في السابع والعشرين من حزيران قـد ألقى آخر موعظة له في الجماهير الغفيرة من المصلين التي ألفت ارتياد كنيسته في داهليم . ولقد قال ، وكأنه يتكهن بما سيقع له ، « نحن لا نفكر باستخدام سلطاتنا في التهرب من يد السلطات ، ونقتدي تماماً بما فعله الرسل والحواريون ولكننا لسنا على استعداد للصمت بايعاز من انسان عندمـــا يأمرنا الله بالكلام . فالواجب يدعونا ، وسيظل هذا الواجب قائماً ، الى اطاعة الله لا الى اطاعة الانسان ».

وبعد ثمانية اشهر قضاها في السجن حوكم نيومولر في الثاني من آذار عـام ١٩٣٨ امام احدى المحاكم الخاصة التي اقامها النازيون لمحاكمة كل من يسيء الى الدولة ، وعلى الرغم من تبرئته من التهمة الرئيسية القائلة بأنـه « هاجم الدولة بصورة سرية » فقد غرم بألفي مارك وحكم عليه بالسجن سبعة اشهر « لإساءته استعمال المنبر » ، ولقيامه بجمع التبرعات في الكنيسة . ولما كان قد قضى مدة اطول من مدة الحكم في السجن ، فقد امرت المحكمه باطلاق سراحه ، ولكن رجال الغستابو اعتقلوه وهو يغادر قاعة المحكمة وأودعوه في «الاعتقال الاحترازي» ، في احد معسكرات الاعتقال ، اولاً في ساشين هاوزين ثم في داخاو ، حيث ظل نحواً من سبع سنوات الى ان حررته قوات الحلفاء .

واعتقل في عام ١٩٣٧ ايضاً نحو من (٨٠٧) من القسس و كبار العلمانيين من اتباع الكنيسة اللوثرية ، واعتقل مئات آخرون في السنتين التاليتين . ولا ريب في ان مقاومـــة جناح نيومولر في الكنيسة قد ضعفت ان لم تكن قد تحطمت بصورة كاملة . ولا ريب في ان هذا الجناح قد اذعن اخيراً شأنه في ذلك شأن

---

١ – ستيوارت هيرمان الصغير ... « ان ما نبغيه هي أرواحكم » ص ١٥٧ – ١٥٨ . وكان هيرمان راعي الكنيسة الامريكية في برلين بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٤٠ .

جميع الألمان للارهاب النازي. وقد تمكن الدكتور كيرل في نهاية عام ١٩٣٧ من اقناع المطران الجليل جداً ماراهرنينز اسقف هانوفر، لإصدار بيان عام، لا ريب في انه كان مذلاً للغاية للمتصلبين من رجال الله من امثال نيومولر .. فقد جاء فيه : « ان المفهوم الاشتراكي الوطني للحياة هو التعليم القومي والسياسي الذي يقرر الرجولة الألمانية ويبرزها . وهكذا فان هذا المفهوم إلزامي بالنسبة الى المسيحيين الألمان ايضاً » . واتخذ الأسقف ماراهرنينز في ربيع عام ١٩٣٨، الخطوة الأخيرة باصدار أمره الى جميع القسس في اسقفيته بأن يقسموا يمين الولاء للفوهرر . ولم يمض طويل وقت حتى كانت الغالبية الكبرى لرجال الدين تقسم اليمين رابطة نفسها شرعاً وخلقياً باطاعة اوامر الديكتاتور .

ومن التضليل اضفاء الانطباع بأن اضطهاد البروتستانت والكاثوليك في الدولة النازية قد ادى الى تجزئة الشعب الألماني أو الى اثارة غالبيتهم على الدولة . انه لم يؤد إلى أي شيء من ذلك . ولم يكن ينتظر من شعب لم يكترث كثيراً بفقده لحرياته السياسية والثقافية والاقتصادية، ان يغامر بالموت او بالسجن في سبيل الحفاظ على حرية عبادته . وكل ما اثر على الالمان حقاً في حقبة الثلاثين هو نجاح هتلر نجاحاً متألقاً في تأمين الاعمال وخلق الرخاء واسترجاع القوة العسكرية لألمانيا والانتقال من نصر الى آخر في سياسته الخارجية . ولم يشعر الكثيرون من الألمان بالقلق من جراء اعتقال بضعة الوف من رعاة الكنيسة والقسس أو من جراء المشاحنات بين مختلف الشيع المسيحية . وكان القليلون من الألمان هم الذين فكروا بأنه في ظل قيادة روزنبرغ وبورمان وهملر الذين يدعمهم هتلر كان العهد النازي يعتزم في النهاية تحطيم المسيحية في المانيا اذا استطاع، والاستعاضة عنه بالوثنية القديمة الممثلة آلهة القبائل الجرمانية القديمة والوثنية الحديثة المتمثلة في المتطرفين النازيين . فلقد قال بورمان، وهو من اقرب القادة النازيين الى هتلر في عام ١٩٤١ في خطاب عام « .. ان الاشتراكية الالمانية والمسيحية شيئان لا يتفقان » .

ولقد رسم روزنبرغ الوثني المعروف والذي كان يشغل بين مناصبه العديدة

وظيفة « مندوب الفوهرر في التربيـــة الفكرية والفلسفة والتثقيف للحزب الاشتراكي الوطني » أبان الحرب مخططاً ، لحكومة هتلر تجاه موضوع « كنيسة الرايخ الوطنية » ، يضم ثلاثين نقطة . ولعل بعض هذه النقاط الثلاثين ترسم صورة عن حقيقته ومحتوياته الاساسية :

« ١ – لكنيسة الرايخ الوطنية في المانيا الحق المطلق والسلطة المطلقة في الاشراف على جميع الكنائس داخل حدود الرايخ ، وهي التي تحدد الكنائس الوطنية للرايخ الالماني .

« ٥ – ان الكنيسة الوطنية مصممة على ان تقضي قضاء مبرماً على العقائد المسيحية الغريبة والاجنبية التي استوردت الى المانيا في سنة ٨٠٠ المشؤومة .

« ٧ – لا يتولى رعاية الكنيسة الوطنية حفظة الاناجيـــل أو كهنة أو قسس أو خوارنة وانمـــا يرعاهـا وعّاظ يتولون اعمال الوعظ فيها .

« ١٣ – تطلب الكنيسة الوطنية وقف طباعة الانجيل في المانيا ونشره فوراً ..

« ١٤ – تعلن الكنيسة الوطنية ، انها قررت ان كتاب « كفاحي » الذي وضعه الفوهرر هو بالنسبة اليها ، والى الشعب الالماني بالتالي ، اعظم وثيقة .. فهو لا يضم اعظم القواعد الاخلاقية فحسب ، وانما ينطوي ايضاً على اصدقها وانقاها بالنسبة الى الحاضر والى الحيـاة المستقبلة لأمتنا .

« ١٨ – ستقوم الكنيسة الوطنية بازالة جميع الصلبان والاناجيل وصور القديسين من كافة معابدها .

« ١٩ – يجب ان لا يكون على المذبح كتاب آخر سوى كتاب « كفاحي » فهو اقدس الكتب بالنسبة الى الشعب الالماني والى الله ، على ان يكون السيف معلقاً الى يسار المذبح .

« ٣٠ – تقوم الكنيسة في يوم تأسيسها بازالة الصلبان المسيحية من جميع الكنائس والكاتدرائيات والمعابد .. ويجب ان يستعاض عن هذه الصلبان بالرمز الظافر الوحيد وهو الصليب المعقوف » [١].

الصبغة النازية للثقافة

شهدت برلين مساء العاشر من أيار عام ١٩٣٣ ، أي بعد أربعة اشهر ونصف الشهر من ارتقاء هتلر سدة المستشارية ، حادثاً عجيباً لم تشهد أوروبا الغربية مثيلاً له منذ ايام القرون الوسطى . فلقد وصل عرض قام به الوف الطلاب يحملون المشاعل عند منتصف الليل الى ساحة عامة تقع مقابل جامعة برلين في شارع « اونتردن لندن » . وسرعان ما اشعلت النيران بكومة هائلة من الكتب وضعت في الساحة ، ثم بدأ الطلاب يقذفون بالكتب في النار المشتعلة الى ان بلغ عدد ما حرق منها نحواً من عشرين الفاً . ووقعت مناظر مماثلة في عدة مدن اخرى . وهكذا بدأت عمليات احراق الكتب .

وكان الكثير من هذه الكتب التي التهمتها النيران في برلين تلك الليلة على مشهد من الطلاب الفرحين ، ومرأى من الدكتور غوبلز من تأليف عدد من المؤلفين من ذوي الشهرة العالمية ، من امثال توماس مان وهنريخ مان وليون فوختوانغر وجيكوب واسرمان وارنولد وستيفان زفايج وايريك ماريا ريمارك وولتر راثينار والبرت اينشتاين وألفريد كير وهوغو بروس ، والاخير هو واضع دستور ويمار . ولم يقتصر الاحراق على مؤلفات عشرات من الكتاب الألمان فحسب بل تعداها الى كتب ألفها كتاب اجانب من امثال جاك لوندون واوبتون سينكلير وهيلين كيلر ومرغريت سانغر وإش جي ويلز ، وهافيلوك ايليس وارثر شنيتزلر وفرويد وجيد وزولا وبروست . ويقول البيان الذي أصدره الطلاب ان كل كتاب « يعمل في تهديم مستقبلنا أو يضرب بمعاوله جذور

---

١ – هيرمان – « ان ارواحكم ما نريده » ص ٢٩٧ – ٣٠٠ .

ثقافتنا الالمانية ، وبيتنا الالماني ، وقوى شعبنا المحركة » مصيره الى الحرق .

وألقى الدكتور غوبلز وزير الدعاية الجديد ، والذي شرع منذ الآن يقيد الثقافة الالمانية ضمن اطار النازية المحكم ، خطاباً في الطلاب ، بينما كانت ألسنة اللهيب تحيل الكتب الى رماد فقال : « في وسع الروح الالمانية ان تعبّر عن نفسها من جديد . ولا يقتصر عمل هذا اللهيب على اضاءة الخاتمة النهائية لعهد مدبر ، بل يضيء ايضاً حقبة مقبلة » .

وقد اضييء العهد الجديد للثقافة الألمانية النازية لا بهذه المشاعل من الكتب فحسب ولا بالاجراءات الفعّالة ، وان كانت رمزية ، الرامية الى ضمان توزيع مئات المجلدات وطباعة المئات من الكتب الجديدة ايضاً ، وانما بتصنيف الثقافة عسكرياً على نطاق لم تشهد له مثيلاً من قبل أية دولة غربية . وصدر قانون في الثاني والعشرين من ايلول عام ١٩٣٣ ، بانشاء مجلس ثقافي للرايخ تحت اشراف الدكتور غوبلز وتوجيهه . وقد حددت اهداف هذا المجلس بالعبارات التالية التي جاءت في القانون : «رغبة في اتباع سياسة ثقافية المانية يصبح من الضروري جمع الفنانين ذوي الطاقات الخلاقة في جميع الميادين في منظمة موحّدة تعمل تحت قيادة الرايخ . وعلى الرايخ ان لا يكتفي بتقرير خطوط التقدم العقلي والروحي ، بل ان يقبل على توجيه المهن وتنظيمها ايضاً ».

وقد انشئت سبع لجان فرعية تابعة للمجلس لتوجيه كل حقل من حقول الحياة الثقافية والسيطرة عليه ، وهي لجان الرايخ للفنون الجميلة والموسيقى والمسرح والأدب والصحافة والاذاعة والاشرطة السينمائية . وفرض القانون على كل من يعمل في هذه الحقول ان ينتمي الى اللجان الآنفة الذكر ، التي تحمل توجيهاتها وقراراتها قوة القانون . وفي وسع كل لجنة من اللجان ان تطرد أو ترفض قبول أي عضو بسبب عدم الوثوق به من الناحية العسكرية ، مما يرمز الى ان كل من يبدي تخاذلاً في قبول الاشتراكية الوطنية يحرم على الغالب من ممارسة المهنة أو الفن الذي يعمل فيه ، ويحرم تبعاً لذلك من وسيلة عيشه .

ولا يستطيع كل من عاش في المانيا في حقبة الثلاثين ، وكان يهتم بهذه القضايا

ان ينسى الانحلال والضعف اللذين لحقـــا بالمقاييس الثقافية لشعب عرف بسمو ثقافته امداً طويلاً من الزمن . وكان هذا الانحلال حتمياً بالطبع في اللحظة التي قرر الزعماء النازيون ان الفنون والآداب والصحافة والاذاعة والاشرطة السينمائية يجب ان تخدم الاهداف الدعائية للعهد الجديد ليس إلا وفلسفته العجيبة . واذا ما استثنينا ايرنست يونغر وايرنست ويخيرت ، فان أي مؤلف ذا قيمة وشهرة ، لم تطبع له كتب في المانيا في العهد النازي مع العلم ان ما طبع للمذكورين كان في السنوات الأولى من العهد . فلقد ارتحل معظم الأدباء الألمان عن البلاد وفي طليعتهم توماس مان ، أو من بقي في البلاد منهم فقد سكت أو اخرس . وكان القانون يفرض تقديم مسودة كل كتاب أو مسرحية الى وزارة الدعاية للحصول على موافقتها عليها قبل طباعتها او تمثيلها .

كان حظ الموسيقى خيراً من الفنون الأخرى ، ولعل السبب في ذلك انها أقل الفنون علاقة بالسياسة من ناحية ولأن مخزون الالمان منها كان ضخماً من ايام باخ فبيتهوفن فموزارت حتى برامز . ومع ذلك فقد حظر في المانيا النازية عزف مقطوعات مندلسون لأنه كان يهودياً ، كما حظر عزف مقطوعات اعظم الملحنين الألمان المعاصرين وهو بول هنديميث ليهوديته ايضاً . وسارع العهد النازي الى اخراج اليهود من الفرق الموسيقية السيمفونية ، ومن الاوبرا . وقد آثر معظم الشخصيات الموسيقية الألمانية العظيمة ، على النقيض من الكتاب البقـــاء في المانيا النازية ، واوقفوا شهرتهم ومواهبهم لخدمة النظام الجديد . وظل في البلاد ويلهلم فورت وينغلر ، الذي يعتبر من اكبر قـادة الفرق الموسيقية في القرن العشرين . وعلى الرغم من غضب العهد النازي عليه فترة قصيرة في عام ١٩٣٤ لدفاعه عـــن هنيديميث ، إلا انه سرعان ما استعاد مكانته عند هتلر واستأنف نشاطه طيلة المدة الباقية من حكمه . وظل في المانيا كذلك ، ريتشارد شتراوس اعظم ملحني العالم الاحياء . وغدا مدة من الزمن رئيس جمعية الموسيقى في الرايخ ، واضعاً اسمه العظيم وشهرته في خدمة تعهير غوبلز للثقافة ، وقضى وولتر غيسيكينغ ، عازف البيان الشهير ، معظم وقته جائلاً في البلاد الاجنبية وفق خطة نظمها غوبلز او

اقرّها ، لرفع اسم « الثقافة » الالمانيـة في الخارج . وهكذا كان في وسع المرء بسبب عدم هجرة الموسيقيين ونتيجة ما لدى المانيا من كنوز ثمينة في الموسيقى الكلاسيكية ، ان يستمع في ايام الرايخ الثالث الى اروع الموسيقات السيمفونية وان يشهد اروع الاوبرات تمثل على مسارحه . ولا ريب في ان فرقة برلين الفيلهارمونية ، وفرقة اوبرا الدولة في العاصمة ، كانتا من اروع ما عرفه العالم ، ولا ريب ايضاً في ان العروض الموسيقية الممتازة قد اسهمت كثيراً في حمل الناس على نسيان ما لحق بالفنون الاخرى وبالحياة في ظل الحكم النازي من تدهور وانحطاط .

وارى من واجبي القول بأن المسرح الألماني ظل محتفظاً بالكثير من تفوقه طالما انه كان يقوم باخراج المسرحيات الكلاسكية . ولقـــد مضى عن البلاد بالطبع ماكس راينهاردي وغيره من المخرجين اليهود ومديري المسارح والممثلين. أما كتاب المسرحيات من النازيين فكانوا من السوء على درجـــة تستثير الهزء والسخرية ، حتى ان الجماهير كانت لا تقبل على مشاهدة مسرحياتهم ، ولذا لم تكن تعمّـر على المسرح طويلاً . وقد تولى رئاسة مجلس المسرح في الرايخ شخص يدعى هانز يوست ، وهو كاتب مسرحي فاشل ، تبجح ذات يوم بأنه كان يحس بالرغبة في اشهار مسدسه دائماً لاطلاق النار على كل من يتفوه بكلمة « الثقافة » أمامه . لكن يوست هذا ومعه غوبلز ، وهما يقرران مـــا سيمثل على المسرح ثم يوجهان المسرحيات ويتوليان ادارة اخراجها ، كانا عاجزين عن منع المسرح الألماني من تقديم تمثيليات رائعة ومؤثرة من وضع غوته وشيلر وشكسبير .

ومن الغريب ان العهد النازي سمح باخراج عدد من مسرحيات شو ، ولعل السبب في ذلك ، هو ما في هذه المسرحيات من سخرية بالمجتمع الانكليزي وهزء بالديموقراطية ، أو أن ذكاءه اللماح وميوله السياسية اليسارية ، كانا مـن النوع الذي لا يفهمه العقل الألماني .

ولعل ما هو اغرب من كل هـــذا موقف غيرهارت هوبتمان اعظم كتاب المسرحية الألمان . فلقد كان هذا الكاتب العظيم من غلاة الاشتراكيين ولذا فقد منعت مسرحياته من التمثيل عـــلى المسرح الامبراطوري في عهد الامبراطور

وغليوم . وعندما حل عهد الجمهورية ، اصبح اعظم المسرحيين شعبية في المانيا ، لكنه ظل محتفظاً بهذه المكانة طيلة عهد الرايخ الثالث ، اذ ظلت مسرحياته تمثل على مسارح المانيا . ولن انسى ما حييت ذلك المنظر الذي شهدته في ختام العرض الاول لروايته الاخيرة « ابنة الكاتدرائية » ، عندما رأيت هذا الرجل الوقور بشعره الابيض وقد استرسل على معطفه الاسود ، يخرج من المسرح وقد شبك ذراعيه بغوبلز ويوست . فلقد آثر هذا الرجل كغيره من الالمان البارزين ان يظل على وئام مع هتلر ، وقد استغل غوبلز وهو الذكي الداهية هذا الموقف اكبر استغلال في دعايته مذكـّراً الشعب الالماني باستمرار ، والعالم الخارجي كذلك ، بأن اعظم كتاب المانيا المسرحيين الذي عرف باشتراكيته وبدفاعه عن عامة الناس ، لم يكتف بالبقاء في المانيا النازية ، بل وواصل وضع مسرحياته واخراجها .

ولعل ما حدث لهذا الرجل العجوز بعد الحرب يلقي ضوءاً على مدى انتهازيته أو اخلاصه او تقلـّبه ، فلقد اعتقدت السلطات الامريكية ان هوبتمان قد غالى في خدمة النازيين فحرمت اخراج مسرحياته في القطاع الذي تحتله في برلين الغربية . وهنا وجه اليه الروس الدعوة الى برلين الشرقية ، ورحبوا به كما يرحب بالابطال عادة ، وأخرجوا حلقة كاملة من مسرحياته على مسارحهم في برلين الشرقية . وبعث هوبتمان في السادس من تشرين الاول عام ١٩٤٥ رسالة الى « الرابطة الثقافية للبعث الديموقراطي في المانيا » وهي المنظمة التي يسيطر عليها الشيوعيون ، معرباً عن احسن تمنياته لها وعن امله في أن تنجح في تحقيق « بعث روحي » للشعب الألماني .

* * *

ولم تكن المانيا التي انجبت للعالم ديورر وكراناخ ، بارزة كل البروز في الفنون الجميلة في العصر الحديث وان كان الفن التعبيري الالماني في الرسم وفي فن العمارة « الميونيخي » ، قد أثارا الكثير من الاهتمام كحركتين أصيلتين . وقد اسهم الفنانون الالمان في العمليات التطويرية والاندفاعات في القرن العشرين عن

طريق الانطباعية ورسم المكعّبات والاسلوب « الدادي » الذي يتمثل في وقف اية علاقة بين الافكار والتعبير .

وكان هتلر ، الذي يعتبر نفسه فناناً اصيلاً رغم فشله الباكر في فيينا ، يعتقد ان الفن العصري كله ، منحل وخال من المعاني . وقد ركز في كتابه « كفاحي » البحث مطولاً على هذا الموضوع ، وكان من اول ما قام به من اعمال بعد وصوله الى السلطة « تنظيف » المانيـا من « فنها » المتدهور ، ومحاولة الاستعاضة عنه بفن « جرماني » حديث . وقد رفعت من المتاحف الالمانية اكثر من ستة آلاف وخمسمائة صورة عصرية من رسم فنانين المان من امثال كوكوشكا وكروز وغير المان من امثال سيزاني وفان كوخ وغوغوان وبيكاسو وغيرهم .

وقد عرض الفن الذي يخلف هذه القطع المعروفة في صيف عام ١٩٣٧ عندما افتتح هتلر بصورة رسمية « بيت الفن الالماني » في ميونيخ في بناية تعهّر الفن الكلاسيكي في اقامتها ، اذ صمّم هتلر مخططها الذي وصفه بأنه لا مثيل له ، ولا تمكن محاكاته في الهندسة المعمارية . وقد اشتمل هـذا المعرض الذي كان الاول من نوعه للفن النازي على نحو من تسعمائة صورة ، اختيرت من مجموع خمسة عشر ألف صورة من اسوأ المنتجات الفنية التي رآها مؤلف هذا الكتاب في حياته في جميع البلاد التي زارها . ولقد قام هتلر نفسه بعملية الاختيار النهائي ، ويقول بعض رفاقه النازيين الذين كانوا معه اثناء العملية ، انه ثار ثورة هائلة على بعض الرسوم التي اختارتها لجنة التحكيم النازية التي رئسها ادولف زيغلر[1] الفنان المتوسط الذي كان يرئس مجلس الفنون في الرايخ ، وقد بلغ به الغضب حداً حمله على ألا يكتفي بالقاء بعض هذه الرسوم خارج المعرض بل وعلى تمزيقها بضربات المهماز في حذائه . ولقد قـال في خطابه الطويل الذي افتتح به المعرض ... « لقد كنت مصراً دائماً ، في حالة انعام القدر علينا بالحكم على ان لا اناقش هذه القضايا المتعلقة بالحكم الفني بل عـلى اتخاذ القرارات بصددها » . وحقاً فقد

١ - كان زيغلر مديناً بمركزه هذا للظروف السعيدة التي جعلته يرسم صورة جيلي روبال .

اتخذ قراراته .

ولقد رسم في خطابه هذا الذي القاه في الثامن عشر من تموز عام ١٩٣٧ ، المخطط النازي للفن الالماني فقال :

« ان الاعمال الفنيّة التي لا يمكن فهمها ، والتي تحتاج الى مجموعة ضخمة من التعليمات لاقامة الدليل على حقها في الوجود ولكنها تشق طريقها الى المجانين الذين يتقبلون مثل هذه التفاهات البليدة او الحمقاء ، لن يتاح لها بعد اليوم ان تصل الى الشعب الالماني . فليفهم هذا كل انسان فهماً صحيحاً ، ولا يخدعنّ نفسه . لقد انطلقت الاشتراكية الوطنية مطهرة الرايخ الالماني وشعبنا من جميع تلك التأثيرات التي تهدد وجودهما وطبيعتهما ... فبافتتاح هذا المعرض حلّت نهاية الجنون الفنّي ونهاية التدنيس الفنّي لشعبنا » .

ومع ذلك فقد كان بعض الألمان على الأقل ولا سيما في المركز الفني لألمانيا وهو مدينة ميونيخ يؤثرون ان يدنسوا بصورة فنيّة . وقد اقيم في معرض منحلّ في جزء آخر من المدينة لا يمكن الوصول اليه إلا عن طريق ضيقة مدرجة ، عرض آخر « للفن المنحل » نظمه الدكتور غوبلز ليظهر للشعب ما اراد هتلر انقاذه منه . وقد اشتمل هذا المعرض على مجموعة مختارة من الصور الحديثة التي رسمها كوكوشكا وشاغال وغيرهما من الرسامين التعبيريين والانطباعيين . وفي اليوم الذي قمت بزيارته بعد أن انقطع نفسي من زيارة « بيت الفن الألماني » الشامخ ، كان هذا المعرض مكتظاً بصف طويل من الناس يمتد على طول السلم المؤدي اليه والى الشارع بعد ذلك . ولقد كان عدد الذين أمّوه ضخماً الى الحد الذي ارغم الدكتور غوبلز ، بعد ان شعر بالضيق والحرج على اغلاقه .

السيطرة على الصحافة والاذاعة والاشرطة السينمائية

دأب محررو الصحف اليومية في برلين ومراسلو الصحف التي تصدر في اماكن

اخرى من الرايخ ، على الاجتماع في صباح كل يوم في وزارة الدعاية ليتحدث اليهم الدكتور غوبلز أو أي واحد من مساعديه عن الانباء التي يجب ان ينشروها او يمنعوا نشرها وكيف يكتبون هذه الانباء ويضعون عناوينها، وأي حملات دعائية يجب ان يشنوها او يوقفوها وأية مقالات افتتاحية يرغبون في كتابتها في ذلك اليوم . وكانت هناك توجيهات خطية يومية تجنباً لأي سوء تفاهم ، قد تحدثه التعليمات الشفوية أما التوجيهات الى صحف الاقاليم الصغيرة والمجلات الاسبوعية فكانت توجه برقياً او عن طريق البريد .

وكان من شروط تولي رئاسة التحرير في الرايخ الثالث ان يكون الصحفي اولاً وقبل كل شيء «نظيفاً» من الناحيتين السياسية والعنصرية . وقد نص قانون الصحافة في الرايخ الصادر في الرابع من تشرين الأول عام ١٩٣٣ على ان الصحافة «مهنة عامة» تنظم عن طريق القانون، وان على جميع الصحفيين ان يحملوا الجنسية الالمانية وان يكونوا من الآريين عنصرياً ، وان لا يكون الواحد منهم متزوجاً من يهودية . ونصت الفقرة الرابعة عشرة من القانون على ان من واجب المحررين ان يبعدوا عن الصحف كل ما من شأنه ان يضلل الناس ، او يخلط بين الاهداف الانانية واهداف المجموع أو يميل الى اضعاف قوة الرايخ الألماني خارجياً او داخلياً او اضعاف العزيمة المشتركة للشعب او الدفاع عن المانيا وثقافتها واقتصادها أو يسيء الى شرف المانيا وكرامتها . وهو قانون لو كان قائماً قبل عام ١٩٣٣ لأدى الى اخفات صوت كل محرر نازي او صحيفة نازية في البلاد . اما الآن فقد ادى هذا القانون الى اخراج كل صحيفة او صحفي ، لا تحمل أو يحمل الصبغة النازية أو يمتنعان عن حملها من الميدان .

وكانت صحيفة « فوزيخ زايتونغ » من اولى الصحف التي اضطرت الى التوقف . وقد تأسست هذه الصحيفة في عام ١٧٠٤ وكان بين الذين اسهموا في الكتابة فيها في الماضي فريدريك الكبير وليسينغ وراثيناو . وقد غدت الصحيفة الأولى في المانيا وتقارن عادة « بالتايمز » اللندنية و « النيويورك تايمز » الامريكية ولكنها كانت صحيفة ليبرالية في اتجاهها وتملكها اسرة اولشتاين اليهودية

وقد توقف عن الصدور في اليوم الأول من نيسان عام ١٩٣٤ بعد ان استمرت في الصدور بانتظام مائتين وثلاثين عاماً . وعاشت « البرلينر تاغيبلات » وهي من الصحف الليبرالية ذات الشهرة العالميـــة فترة أطول ، اذ لم تتوقف عن الصدور إلا في عام ١٩٣٧ ، وان كان صاحبها الأصلي هانز لاكان - موسّي ، وهو يهودي قد ارغم على التنازل عن مصالحه فيها في عام ١٩٣٣ . اما صحيفة المانيا الليبرالية الثالثة وهي « فرانكفورتر زايتونـغ » فقد واصلت الصدور بعد ان انفصلت عن صاحبها ومحرريها اليهود . وقد غدا رودلف كيرشر ، وهو مراسلها السابق في لندن ، والمعروف بميوله الى بريطانيا والى الليبرالية ، رئيساً لتحريرها . وقد خدم النازيين اصدق خدمة شأنه في ذلك شأن كارل سيليكسة الذي غدا رئيساً لتحرير « دويتشه الغماينة زايتونغ » بعد ان كان مراسلاً لها في لندن وهو من خريجي اوكسفورد وقد درس فيها بموجب منحة السيرسيسيل رودس ، كما كان من اشد المعجبين ببريطانيا وبالآراء الليبرالية ، وغـدا فيما بعد خليفة اوتوديتريش في منصبه كرئيس لدائرة الصحافة في الرايخ وقد نقل عنه وصفه لصحف المعارضة بأنها « بابوية اكثر من البابا نفسه » . ولا ريب في ان وزارة الخارجية الالمانية كانت السبب في بقاء هذه الصحف الثلاث ، لأنها ارادت الابقاء عليها وهي ذات الشهرة الدولية ، كنموذج يؤثر على العالم الخارجي . وقد اضفت هذه الصحف شيئاً من الاحترام على المانيا النازية وعملت في نفس الوقت على الترويج لدعايتها .

وكان من الطبيعي بعد ان غدت جميع الصحف في المانيا تتلقى الاوامر بما تنشره وبالطريقة التي تنقل فيها الانباء وتعلق عليها بافتتاحياتها ، ان يظهر هناك انسجام بليد وتشابه في جميع هذه الصحف ، مما حمل الشعب على الرغم من تنظيمـه بصورة عسكرية ومن تعوده على قبول السلطة ، على الملل من قراءتها . وهبط التوزيع بالنسبة اليها كلهـــا وبينها بالطبع الصحف اليومية النازية البارزة كالفولكشاير بيوباختر الصباحية و «انغريف» المسائية . وهبط كذلك التوزيع الاجمالي للصحف الاسبوعية بعد ان اخذت تهوي واحدة اثر اخرى في ايدي

النازيين . وقد هبط عدد الصحف اليومية في السنوات الاربع الاولى من حياة الرايخ الثالث من (٣٦٠٧) الى (٢٦٧١) صحيفة .

لكن خسارة البلاد للصحف الحرة والمتنوعة كان كسباً للحزب من الناحية المالية على الاقل . وكان ماكس امان رئيس العرفاء في الفوج الذي كان هتلر يعمل فيه ابان الحرب الكونية الاولى قد غدا مدير المؤسسة الطباعية للحزب (ايهير فيرلاغ) ، واصبح بذلك السلطة المالية المطلقة في الصحافة الالمانية. وكان من حقه القانوني بوصفه زعيم صحافة الرايخ ورئيس جمعية الصحافة ان يوقف أية مطبوعة يشاء وان يبتاع أية صحيفة يهوى . وسرعان ماغدت « الايهير فيرلاغ » منظمة طباعية هائلية لعلها الأضخم من نوعها في العالم واكثرها ربحاً . وعلى الرغم من الهبوط الذي لحق بكثير من المطبوعات النازية فان الصحف اليومية التي يملكها الحزب ويشرف عليها أو التي يملكها افراد نازيون كانت توزع ثلثي ما توزعه الصحف الألمانية كلها في اليوم وهو رقم تجاوز الخمسة والعشرين مليوناً عند بدء الحرب الكونية الثانية [1] . وقد شرح أمان الطريقة التي كان يعمل فيها في شهادة مشفوعة باليمين تقدم بها الى محاكمات نورمبرغ اذ قال :

« بعد ان وصل الحزب الى الحكم في عام ١٩٣٣ .. وجدت بعض المؤسسات الصحفية كدار اولشتاين التي كانت تملكها وتسيطر عليها المصالح اليهودية او التي كانت بعض المصالح الدينية والسياسية المناوئة للحزب النازي تتحكم فيها ، ان من مصلحتها ان تبيع صحفها أو حصصها وموجوداتها الى مؤسسة « ايهير » . ولم تكن هناك سوق حرة لبيع هذه الممتلكات والمصالح ، وكانت الايهير فيرلاغ ، المشتري الوحيد تقريباً . وهكذا توسعت مؤسستنا عن هذا الطريق ومعها المصالح الطباعية التي تملكها أو تسيطر عليها ،

---

١ - ارتفع دخل امان ارتفاعاً هائلاً من (١٠٨) آلاف مارك في عام ١٩٣٤ الى (٣،٨٠٠،٠٠٠) مارك في عام ١٩٤٢ . (رسالة الى المؤلف من الاستاذ اورون هيل ، الذي قام بدراسة للسجلات الباقية عن حسابات المؤسسة الطباعية النازية) .

لتغدو احتكاراً للعمل الصحفي في المانيا .. وغدا استثمار الحزب في هذه المشاريع الطباعية مربحاً وناجحاً للغاية من الناحية المالية. ولعل من الصدق ان يقال بأن الهدف الأساسي للبرنامج الصحفي النازي كان ازالة كافة الصحف التي تقف موقف العداء من الحزب »[١].

ووجه كل من أمان وغوبلز ذات يوم من ايام عام ١٩٣٤ نداء الى الصحفيين الموالين ، لـكي يجعلوا صحفهم اقل رتابة وتشابهاً. وقال أمان في ندائه انه مشمئز من « هذا الانسجام البعيد المدى القائم في الصحافة والذي لا يمكن ان يعتبر ثمرة من ثمار أجراءات الحكومة ، ولا يتفق مع ارادتها وسياستها » . وقد اخطأ صحفي متهور هو « إيهم ويكلي ، فحمل نداءي غوبلز وأمان على محمل الجد» وهاجم في صحيفته الاسبوعية « غروين بوست » قلم وزارة الدعاية الأحمر ، وتشديدها في محاسبة الصحف بحيث تبدو في هذا الشكل الرتيب البليد. وسرعان ما أوقفت صحيفته لمدة ثلاثة اشهر ، وتولى غوبلز طرده من العمل بها وبعث به ليحل ضيفاً على احد معسكرات الاعتقال .

وسرعان ما سخرت الاذاعة والاشرطة السينمائية ايضاً لخدمة الاغراض الدعائية للدولة النازية . وكان غوبلز يرى دائماً في الاذاعة – اذ لم تكن التلفزة قد عرفت بعد – الاداة الرئيسية للدعاية في المجتمع الحديث ، وقد تمكن عن طريق دائرة الاذاعة في وزارته ومجلس الاذاعة من السيطرة الكاملة على البرامج الاذاعية وتوجيهها توجيهاً يتفق مع اهدافه. وكانت مهمته سهلة في المانيا ، اذ ان الاذاعة فيها كما في غيرها من بلاد اوروبا ، كانت احتكاراً للدولة التي تملكها وتتولى ادارتها. وعندما وصل النازيون الى الحكم في عام ١٩٣٣ وجدوا انفسهم بصورة آلية ، المسيطرين على مصلحة اذاعة الرايخ .

وظلت صناعة الافلام السينمائية في ايدي الشركات الخاصة ولكن وزارة

---

١ – اعطيت الشهادة في ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٥ ونشرت في وثائق المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧٣٥ – ٧٣٦ .

الدعاية ومجلس الاشرطة السينمائية سيطرا على كل ناحية من نواحي الصناعة التي حددت اهدافها على حد قول تعليق رسمي « برفع مستوى الافلام من مجالات الافكار الاقتصادية الحرة ، وتمكينها من اداء تلك الواجبات التي يتحتم عليها القيام بها في الدولة الاشتراكية الوطنية » .

وكانت نتيجة ذلك كله ان الشعب الألماني اصابه الكرب من البرامج الاذاعية والافلام السينمائية التي كانت لا تقل في خوائها وما تبعثه من ملل وسآمة ، عن خواء ومزعجات الصحف اليومية والاسبوعية ، حتى بالنسبة الى شعب ألف الاذعان دون احتجاج لكل ما يقال له ، مما حمله على اظهار استنكاره لهذا الوضع . واخذت الجماهير تبتعد عن الاشرطة النازية وتقبل بتلهف على الدور التي تعرض بعض الافلام الاجنبية ومعظمها من انتاج هوليود ومن الدرجة الثانية ، والتي كان غوبلز يسمح بعرضها على الشاشة الالمانية . وقد بلغ الهمس من جانب الناس ضد الافلام الالمانية في حقبة الثلاثين ، حداً دفع ولهلم فريك وزير الداخلية ذات يوم الى اصدار تحذير عنيف ضد «السلوك الذي ينطوي على الخيانة والذي يبدو من جماهير رواد دور السينما . واشتدت النقمة كذلك على برامج الاذاعة وانتشر نقدها بين الناس الى الحد الذي حمل رئيس مجلس الاذاعة وهو هورست دريسلور اندريس ، الى الاعلان بأن هذا القدح يعتبر « امتهاناً » لا يمكن التسامح به للثقافة الألمانية » . وكان في امكان المستمع الألماني في تلك الايام من حقبة الثلاثين ان يدير مؤشر جهازه الاذاعي على عدد من محطات الاذاعة الاجنبية ، دون ان يخشى كما حدث فيما بعد ، اثناء الحرب ، من ان تطيح السلطات برأسه . ولكن عدد الألمان الذين كانوا يفعلون ذلك ضئيل للغاية ، وهذا ما حمل مؤلف هذا الكتاب على ان يقر بانطباعه من انه مع مضي السنوات اقام الدكتور غوبلز الدليل على صحة رأيه في ان الاذاعة غدت اكثر الوسائل الدعائية تأثيراً في العهد النازي ، وحققت اكثر من أية اداة اخرى للمواصلات رسالتها في توجيه الشعب الالماني نحو الغايات التي توخاها هتلر .

وقد قدر لي ان امر بتجربة تثبت تأثير الصحافة والاذاعة الكاذبتين

والمراقبتين في الدولة الجماعية . وعلى الرغم من انني كنت خلافاً لمعظم الالمان أصل بسهولة يومياً الى الصحف الاجنبية ولا سيما تلك التي تصدر في لندن وباريس وزوريخ والتي كانت تصل الي في اليوم التالي لصدورها ، وعلى الرغم من انني كنت اصغي بانتظام الى الاذاعة البريطانية وغيرها من الاذاعات الاجنبية الا ان عملي كان يقتضيني ان اصرف كل يوم عدة ساعات في قراءة الصحف الالمانية بدقة وفي الاستماع الى الاذاعة الالمانية والحديث الى الموظفين النازيين وحضور اجتماعاتهم الحزبية . وكان من الغريب بل ومن المذهل احياناً ان اجد نفسي على الرغم من الفرص المتاحة لي لمعرفة الحقائق ، وعلى الرغم مما أحسّ به من ميل فطري الى التشكيك في صحة ما اسمعه من المصادر النازية ، وقد غدوت تحت تأثير الغذاء المستمر سنوات طويلة من الاكاذيب والاضاليل التي اسمعها قد شرعت في تصديقها والأخذ بها مما اوقعني في بعض الحـــالات من التضليل والتشوّش الفكري . وليس في وسع انسان لم يعش مثل ما عشت من سنوات طويلة في بلد يحكم بالطريقة الجماعية ان يدرك بسهولة مدى الصعوبة في التخلص من النتائـج المفزعة للدعاية المخططة والمستمرة لذلك العهد . وكثيراً ما كنت اجد نفسي وجهاً الى وجه اما في البيوت أو المكاتب الالمانية ، او في المحادثات العرضية مع اناس لا اعرفهم في مطعم او مقهى او حانة للجعة ، مع تأكيدات غريبة وعجيبة تصدر من اشخاص يبدو عليهم التعليم والذكاء . ومن الواضح انهم كانوا يرددون كالببغاوات بعض التفاهات التي استمعوا اليها في الاذاعة او قرأوها في الصحف. وكثيراً ما كنت اندفع بالاغراء الباطن المنبثق من دخيلتي في قول الحقيقـــة ، فأجد أمامي في غالب الحالات تشكيكاً في صحـة ما أقول أو صمتاً مرعباً ، وكأنني قد كفرت بالإله الخالق ، وآنذاك ادرك تمام الادراك ان لا طائل حتى من محاولة ايجاد اتصال مع عقل غدا مغلـّفاً باطار سميك ، وباتت امامه حقائق الحياة لا تخرج عمّـا يسمعه من هتلر وغوبلز عنها على الرغم من تجاهلها الكلبي (نسبة الى فلسفة الكلبية القائمة على الشك) للحقيقة المجردة .

التربية والتعليم في الرايخ الثالث

عيّن بيرنهارد روست في الثلاثين من نيسان وزيراً للعلم والتربية والثقافة الشعبية في الرايخ ، وهو من كبار قادة جيش العاصفة ، وكان في وقت من الاوقات القائد النازي لولاية هانوفر ، كما كان من اعضاء الحزب ومن اصدقاء هتلر منذ مطلع حقبة العشرين . ولا ريب في ان هذا الرجل كان جديراً بمنصبه الجديد في هذا العالم النازي الغريب الاطوار ، الذي انقلبت فيه الموازين والمقاييس عاليها سافلها ، اذ كان منذ عام ١٩٣٠ استاذاً من اساتذة الاقاليم عاطلاً عن العمل بعد ان طردته من منصبه كمدير لاحدى مدارس هانوفر السلطات الجمهورية المحلية آنذاك ، لظهور بعض عوارض الشذوذ العقلي عليه ، وان كان حماسه الشديد للنازية هو السبب الى حد ما في هذه الاقالة . اذ كان الدكتور روست يبشّر بانجيل النازية بحماس غوبلز وهياج روزنبرغ . وعندما عيّن وزيراً للعلم والفنون والتربية في الحكومة البروسية في شباط عام ١٩٣٣ ، اخذ يتبجح بنجاحه بسرعة هائلة في الخلاص من المدرسة كمنظمة للبهلوانات الفكرية » .

وقد عهد الى هذا الرجل الفارغ العقل الآن بالاشراف المطلق على العلم الألماني وعلى المدارس ومؤسسات التعليم العالي ومنظمات الشباب . وكان هتلر قد خطط لأن يكون التعليم في الرايخ الثالث غير محصور في الدروس الجامدة في الصفوف بل يتعداها الى التدريب العسكري والسياسي الاسبارطي في منظمات الشباب المتتابعة ، حتى يصل ذروته لا في الجامعات أو الكليات الهندسية التي لا تستوعب إلا اقلية ضئيلة من الطلاب فحسب بل وفي خدمة العمل الالزامي اولاً عندما يكون الطالب في الثامنة عشرة من عمره وبعدها في الخدمة كمجند في القوات المسلحة .

ولقد بدا ما يحمله هتلر من ازدراء « للاساتذة » وللحياة المدرسية الفكرية في صفحات كتابه « كفاحي » حيث دوّن بعض آرائه عن التعليم . فلقد كتب يقول : « يجب ان يهدف التعليم كله في الدولة الوطنية اول ما يهدف لا الى حشو

الأدمغة بالمعلومات المجردة بل الى بناء الابدان الصحيحة والسليمة » . ولعل ما هو أهم من ذلك، ان هتلر قد أكد في كتابه مدى ما يعلقه من اهتمام على اجتذاب الطلاب الى الحركة النازية وتدريبهم بعد ذلك على خدمـــة « الدولة الوطنية الجديدة » وهو موضوع طالما عاد الى التحدث عنه بعد ان غدا الحاكم المطلق لألمانيا . ولقد قال في خطاب له ألقاه في السادس من تشرين الثاني عام ١٩٣٣ : « وعندما يقول احد الخصوم لنا ... « اسمعوا انني لن اميل الى جانبكم » ... فانني اقول له بهدوء ... لا بأس ، ولكن اطفالك ينتمون الينا ... أما أنت فما قيمتك ؟ انك ستمضي عن هذه الحياة ، ولكن ذريتك تقف على أي حال الى جانب المعسكر الجديد. ولن يمضي طويل وقت الا ويكونون جميعاً لا يعرفون شيئاً سوى مجتمعهم الجديد » . وعاد فأعلن في خطاب ألقاه في الأول من ايار عام ١٩٣٨ : « ان رايخنا الجديد لن يسمح باعطاء شبابه الى أي انسان ، فهو الذي سيتولى رعايتهم ، ويقدم اليهم ، ما أعده لهم من تربية وتعليم وتنشئة ». ولم يكن ما قاله هتلر مجرد تبجح مغرور بل كان حقيقة واقعة .

وقد تم تحويل المدارس الألمانية كلها من الصفوف الابتدائية الأولى حتى الصفوف النهائية في الجامعات . واتبعت السرعة في اعـــادة تأليف الكتب المدرسية المقررة، كما تم تغيير البرامج المدرسية المقررة، وغدا كتاب « كفاحي » على حد تعبير مجلة « دويتشه ايرزيهر » اللسان الرسمي الناطق للطبقة التدريسية ، « النجم الهادي العصوم في حقل التربية عندنا » ، كما فصل من العمل المدرسون الذين لم يتمكنوا من رؤية الضوء الجديد . وكان معظم المعلمين من النازيـين عاطفة على الأقل ان لم يكونوا من اعضاء الحزب العاملين . وعمدت الحكومة رغبة منها في تقوية الجانب العقائدي عندهم ، الى ايفادهم الى مدارس خاصة ، حيث يمرون بتدريب ضخم على المبادىء الاشتراكية الوطنية مع التأكيد بصورة خاصة على عقائد هتلر العنصرية .

وفرض على كل عامـــل في المهنة التدريسية من معلمي حدائق الاطفال الى اساتذة الجامعات ، الانتماء الى عصبة الاساتـذة الاشتراكيين الوطنيين ، وهي

عصبة جعلها القـــانون « مسؤولة عن تنفيذ التنسيق العقائدي والسياسي بين الاساتذة طبقاً للعقيدة الاشتراكية الوطنية ». وطلب قانون الخدمة المدنية لعام ١٩٣٧ من المعلمين ان يكونوا « منفذي ارادة الدولة ذات الحزب الواحد » وان « يكونوا على استعداد في كل وقت للدفاع عن الدولة الاشتراكية الوطنية دون تحفظ » . وكان احد القوانين السابقة قد صنفهم على انهم من الموظفين المـدنيين وانهم يخضعون تبعـــاً لذلك للقوانين العنصرية . ولقد منع اليهود من العمل في التعليم بالطبع . وأقسم جميع المعلمين اليمين على ان يكونوا « موالين ومطيعين لأدولف هتلر » . ولم يعد في وسع انسان ان يعلّم فيما بعد الا اذا كان قد قضى مدة من الخدمة في جيش العاصفة والعمل المجنّد وشبيبـــة هتلر » . وكان على المرشحين للتدريس في الجامعات ان يقضوا أولاً فترة ستة اسابيع في معسكر للمراقبة حيث يقوم الاخصاء النازيون بدراسة آرائهم واخلاقهم لتقديم تقرير عنها الى وزارة التربية التي تصدر لهم الرخص للتعليم مستندة على مدى الثقة السياسية بالمرشحين .

وكانت المدارس الرسمية العامة قبل عام ١٩٣٣ تابعة لصلاحيات السلطات المحلية ، بينما كانت الجامعات تدار من الولايات نفسها ، أما الآن فقد غدت المدارس والجامعات كلها تحت اشراف القبضة الحديدية لوزارة التربية في الرايخ فالوزير هو الذي يقوم بتعيين رؤساء الجامعات وعمدائها، بعد ان كانوا ينتخبون في السابق من الهيئات التدريسية في الجامعات نفسها . وغدا الوزير هو الذي يعين كذلك زعماء اتحادات الطلبة الجامعيين التي يجب ان يكون جميع الطلاب اعضاء فيها ، ورؤساء اتحادات المحاضرين التي تضم جميع الاساتذة . وكانت اتحادات الاخيرة النازية تحت اشراف النازيين المحكم هي التي تلعب دوراً حاسماً في اختيار الاساتذة الذين يقومون بالتدريس ، وهي التي تتأكـــد من ان ما يعلمونه يتفق تمام الاتفاق مع النظريات النازية .

وكانت ثمرة هذه العملية الضخمة من صبغ جميع كل ما يمت الى التربية والتعليم بالصبغة النازية بمثابة كارثة للتربية والتعليم الألمانيين. وقد حرّف التاريخ

في الكتب المقررة الجديدة ، وفي محاضرات الاساتذة حتى انه غـــدا مضحكاً يبعث على السخرية . وكان تعليم « العلوم العنصرية » يقوم على اساس ان الألمان يؤلفون العنصر السيد وان اليهود هم سبب كل شر وعلة في العالم . وفي جامعـة برلين التي كانت مقراً لعدد كبير من عظماء الاساتذة والعلماء في الماضي ، قـام الرئيس الجديد ، وهو من رجال جيش العاصفة ومن الاطباء البيطريين بحـكم مهنته ، باعداد خمس وعشرين مادة للتدريس الجامعي في العلوم العنصرية وبعد ان تمت له السيطرة على الجامعة اعد ستاً وثمانين مادة تتعلق بالطب البيطري .

وتدهور تعليم العلوم الطبيعية الذي كانت المـــانيا متفوقة فيه منذ اجيال تدهوراً سريعاً . وطرد كبار اساتذة الفيزياء من امثال اينشتين وفرانك او احيلوا على التقاعد ، كما طرد كبار اساتذة الكيمياء من امثال هابر وويلستاتر وواربورغ. أما الذين ظلوا في الحقل العلمي، فقد اصيبوا بلوثة الانحرافات النازية وحاولوا تطبيقها على العلم المجرد . وقد شرعوا يدرسون ما غدا يدعى بالفيزياء الألمانية والكيمياء الألمانية والرياضيات الألمانية . وقـد صدرت في عام ١٩٣٧ مجلة المانية تحمل اسم « الرياضيات الألمانية » وتناول مقالها الافتتاحي تنـاولاً جدياً الفكرة القائلة بأن الحكم على الرياضيات يمكن ان يقوم على اسس لا عنصرية وقال « ان هذه الفكرة تنطوي على جراثيم الدمار للعلم الالماني » .

وقد غدت حماقات هؤلاء العلماء الألمان من النوع الذي لا يكاد يصدقه حتى الأشخاص العاديون . ولقد تساءل الاستاذ فيليب لينارد من جامعة هيدلبرغ ، والذي كان واحداً من اكثر العلماء الألمان علماً وشهرة دولية في الرايخ الثالث قائلاً : « الفيزياء الألمانية ؟ هناك من يسأل هـذا السؤال ، وهناك من يرد عليه بقوله ان العلم لا جنسية له وسيظل بلا جنسية . لكن هذا القول خاطىء . فالعلم في الواقع كأي نتاج انساني آخر عنصري ويتكيّف مع الدم » ومضى الاستاذ رودلف توماشيك مدير معهد الفيزياء في دريسدن الى ابعد من ذلك فقال : « ان الفيزياء الحديثة اداة من ادوات اليهودية العالمية في تحطيم النوردي ... أما الفيزياء الحقيقية ، فهي من خلق الروح الألمانية ...وفي الحقيقة فان العلم الاوربي

كله هو ثمرة من ثمار الفكر الآري او الألماني بصورة محـــددة » . وقد ارتأى الاستاذ جوهانز ستارك رئيس المعهد الوطني الألماني لعلم الفيزياء نفس هذا الرأي ايضاً ، اذ قال ... « ان الدلائل تشير الى ان رواد البحث في الفيزياء وكبار المستكشفين من عهد غاليليو الى عهد نيوتن الى رواد الفيزياء في العصر الراهن كانوا جميعاً تقريباً من الآريين ولا سيما من الجنس النوردي » .

ولقد رأى الاستاذ ولهلم مويلر من الكلية الصناعية في آخن في كتابه الذي دعاه « اليهود والعلم » وجود مؤامرة يهودية عالمية النطاق لتدنيس العلم ، وتحطيم الحضارة عن طريق هذا التدنيس . ورأى ان اينشتين بنظريته عن النسبية كان الوغد الأول في تنفيذ هذه المؤامرة . وكانت نظرية اينشتين التي يرتكز اليها الكثير من قواعد الفيزياء العصرية ، بالنسبة الى هذا الاستاذ النـــازي الفرد « موجهة من اولها الى آخرها نحو هدف واحد وهو تحويل العالم الحي – أي غير اليهودي – بجوهره الحي ايضاً ، والنابع عن الأرض الأم ، ليحاط من كل ناحية بالدماء ، وليغدو مسحوراً في صورة اطـلاقية خيالية ، تضيع في لا واقعها جميع الخلافات الفردية بين الشعوب والدول والحدود الداخلية للاجناس البشرية ولا يبقى فيها الا تنوع تافه في الابعاد الهندسية تنبع منه جميع الاحداث صادرة عن قوة الضغط الناجمة عن اخضاعها الالحادي للقوانين» . وأعلن الاستاذ مويلر ان الدوي العالمي الناطق بالاعجاب الذي لقيه اينشتين بعد طبع نظريته عن النسبية، لم يكن إلا احتفالاً «بدنو الحكم اليهودي الذي يهبط بالرجولة الألمانية بصورة سرمدية لا يمكن اصلاحها الى مستوى العبيـــد الذين يفتقرون الى الحياة والنشاط » .

وكان اينشتين بالنسبة الى الاستاذ لودفيك بيبرباك من جامعة برلين « مجرد دجال اجنبي » . ورأى الاستاذ لينارد « ان اليهودي يفتقر بصورة جليّة الى تفهّم الحقيقة ... اذا ما قورنت بالعالم البحاثة الآري، المعروف بارادته الدقيقة والجدّية في تحري الحقيقة .. وهكذا فليست الفيزياء اليهودية إلا شبحاً وظاهرة

طبيعية تشير الى انحلال اسس الفيزياء الالمانية »[1] .

***

وكان اساتذة الجامعات شأنهم في ذلك شأن رجال الدين البروتستانت قد ايدوا الحكومة المحافظة ابان عهد الرايخ الثاني واهدافها التوسعية تأييداً أعمى، وكانت قاعات المحاضرات المكان الذي تفرّخ فيه الافكار القومية واللاسامية السامّة. وقد اصرت جمهورية ويمار على الحرية الاكاديمية الكاملة ، وكان من نتائج هذه الحرية ان الغالبية الكبرى من اساتذة الجامعات بافكارهم اللاليبرالية واللاديموقراطية واللاسامية قد ساعدوا على تحطيم العهد الديموقراطي . فمعظم الاساتذة الجامعيين من القوميين المتعصبين الذين يرغبون في عودة المانيا الملكية المحافظة . وعلى الرغم من ان معظمهم كانوا يرون في النازيين قبل عام ١٩٣٣ تطرفاً في الضوضائية والعنف لا يجتذب ولاءهم ، الا ان ما يشعر به هؤلاء الاساتذة مهّد الطريق لمجيء النازية . ولم يحل عام ١٩٣٢ حتى كانت غالبية الطلاب تبدو متحمسة اشد الحماس لهتلر .

وقد دهش البعض من ان يروا هذا العدد الكبير من اعضاء الهيئات التدريسية الجامعية في المانيا يذعنون لهذا الاتجاه في صبغ التعليم العالي بالصبغة النازية بعد عام ١٩٣٢ . وعلى الرغم من ان الارقام الرسمية تحدد عدد الاساتذة والمدرسين الذين فصلوا من العمل في غضون السنوات الخمس الأولى من العهد بنحو من (٢٨٠٠) شخص أو ما يعادل ربع المجموع الكلي، الا ان نسبة من فقدوا مراكزهم التعليمية بسبب تحديهم للاشتراكية الوطنية كان على حد قول الاستاذ ولهلم روبكه الذي فصل من جامعة ماربورغ في عام ١٩٣٣ ، « قليلة للغاية » .

---

١ – احتفظ عدد كبير من المراسلين الاجانب في برلين بمجموعات من هذه الدرر الاقوال . وقد فقدت مجموعتي . ومعظم هذه الفقرات المقتبسة من كتاب لينارد « الفيزياء الألمانية » ومن كتاب والاس ديول « الشعب في ظل هتلر » ومن وليام ايبنشتين « الدولة النازية ».

وعلى الرغم من قـلة عددهم فقد كانت هناك بينهم اسماء مشهورة في الحقل الاقاديمي الألماني من امثال كارل جاسيرز وأي آي غومبل وتيودور ليت وكارل بارث وجوليوس ايبنغهاوس وعشرات آخرين . ولقـد ارتحـل معظمهم الى سويسرا وهولندة وانكلتره في البداية ، ثم انتهوا في امريكا . وكان احدهم وهو الاستاذ ثيودور ليسينغ قد فر الى تشيكوسلوفاكيا فطارده السفاحون النازيون وقتلوه في مارينياد في الحادي والثلاثين من آب عام ١٩٣٣ .

ومع ذلك فقد ظلت الغالبية الكبرى من الاساتذة في مراكزهم ، وفي مطلع خريف عام ١٩٣٣ ادى نحو من تسعمائة وستين منهم يقودهم بعض الكواكب الساطعة مـن امثال الاستاذ ساوربروخ العالم في الجراحة وهايديغر الفيلسوف الوجودي وبندر مؤرخ الفـن ، اليمين العلني لتأييد هتلر والعهد الاشتراكي الوطني .

وقد كتب الاستاذ روبيكه فيما بعد يقول ... « حقاً لقد كان منظراً داعراً لطخ تاريخ العلم الألماني الشريف . [1] » وكتب الاستاذ جوليوس ايبنغهاوس ، في عام ١٩٤٥ ، وهو يستعرض المجازر القديمة يقول ... « لقد فشلت الجامعات الألمانية قبل ان يفوت الأوان في ان تجهر بمعارضة دمار المعرفـة والدولة الديموقراطية بكل ما لديها من قوة . ولقـد فشلت في الابقاء على مشعل الحق والحرية مضيئاً طيلة ليالي الطغيان » [2] .

وكان ثمن هذا الفشل عظيماً للغاية . فلقد هبط عدد الطلاب الجامعيين الالمان بعد ست سنوات من صبغ الحياة الجامعية بالصبغة النازية تفوق النصف اذ سقط الرقم مـن (١٢٧٫٩٢٠) الى (٥٨٫٣٢٥) . وكانت نسبة هبوط التسجيل في المعاهد التقنيّة التي تستمد المانيا منها علماءها ومهندسيها اكبر من هذه بكثير فقد نزل الرقـم من (٢٠٫٤٧٤) الى (٩٫٥٥٤) . وانحطت مستويات التعليم

---

١ ـ ولهلم روبيكه ـ حل المشكلة الألمانية . ص ٦١ .

٢ ـ نقل في كتاب فريدريك ليلج « تحقير المعرفة ـ فشل الجامعة الألمانية » ص ١٧٠ .

الاقاديمي الى الهاوية بصورة مذهلة . ولم يقتصر الهبوط في عام ١٩٣٧ على عدد الشبان الذين يتلقون العلوم والهندسة فحسب ، بـل تعداه الى مؤهلاتهم العلمية ايضاً . وبدأت الصناعة الكيميائية الألمانية قبل نشوب الحرب الكونية الثانية بمدة طويلة ، على الرغم من انشغالها الكلي في دفع عجلة التسلّح الالماني ، تشكو في الصحيفة الناطقة باسمها « الصناعات الكيميائية » من ان المانيا تسير في طريق اضاعتها للمرتبة القيادية في الكيمياء . ولم يقتصر الشلل في رأي الصحيفة عـلى الاقتصاد الوطني بل تعداه الى الدفاع الوطني ايضاً ، والقت اللوم في الافتقار الى العلماء الشبان وفي ضعف مستوياتهم العلمية ، على الحالة التعسة التي تسود الكليات التقنيّة نفسها .

ولقد ثبت فيما بعد ان خسارة المانيا كانت من حسن طالع العالم الحر ولا سيما في السباق على اختراع القنبلة الذرية ، ولا ريب في ان قصة الجهود الناجحة التي بذلها القادة النازيون وفي طليعتهم هملر لعرقلة برامج الطاقـة الذرية ،قصة طويلة للغاية وكثيرة التعقيد ، مما لا ارى مجالاً للحديث عنها هنا . فلقد كان من سخريات القدر ان الفضل في تطور القنبلة الذرية في المانيا يعود الى جهود رجلين طردا من بلديهما بسبب النظريات العنصرية التي دعت اليها الديكتاتوريتان النازية والفاشية وهما اينشتاين الذي طرد من المانيا وفيرمي المطرود من ايطاليا .

* * *

ولم يكن هتلر يعتمد في تثقيف شبيبة المانيا واعدادها للقيام بالاهداف التي وضعها نصب عينه ، على المدارس العامة التي خرج هو منها قبل ان يكملها في فتوته ، بل على منظمات الشبيبة الهتلرية . وفي سنوات كفاح الحزب النازي للوصول الى الحـكم ، لم يكن عدد الاعضاء في شبيبة هتلر كبيراً للغاية . ففي عام ١٩٣٢ . وهو العام الاخير من حياة الجمهورية ، كان عدد المسجلين في هذه الحركة (١٠٧,٩٥٦) من مجموع اكثر من عشرة ملايين شاب ينتمون الى مختلف المنظمات المتحدة في لجنة الرايخ لمنظمات الشبيبة الألمانية . ولم تشهد أي بـلاد في العالم حركة شباب تمتاز بالحيوية ووفرة العدد ، كالحركة التي كانت قائمة في المانيا الجمهورية

وقد ادرك هتلر هذه الحقيقة فقرر ان يستولي عليها وان يصبغها بالصبغة النازية .

وكان ساعد هتلر الايمن في اداء هذه المهمة شاب جميل الصورة ذو عقل عادي تافه ، وان امتاز بالحيوية الدافقة ، يدعى بالدور فون شيراخ ، الذي اجتذبه سحر هتلر الى النازية فانضم الى الحزب عام ١٩٢٥ وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وغدا في عام ١٩٣١ ، زعيم شبيبة الحزب النازي . وكان يبدو بين ذوي القمصان البنية من المشاغبين الذين تمتلىء وجوههم بالندوب ، كطالب في احدى الكليات الامريكية في منتهى النشاط وعدم النضوج ، ولعل هذا عائد الى انتمائه كما رأينا سابقاً الى بعض الجدود الامريكيين وبينهم اثنان من الموقعين على اعلان استقلال امريكا . [١]

ولقد عين شيراخ زعيماً لشبيبة الرايخ الالماني في حزيران عام ١٩٣٣ ، وسرعان ما حذا حذو زعماء الحزب الذين يكبرونه سناً ، فكان اول عمل قام به ان يرسل عصابة مسلحة قوامها خمسون شاباً من شبيبة هتلر الاقوياء لاحتلال المكاتب القومية للجنة الرايخ لاتحادات الشبيبة الالمانية ، حيث ارغم رئيس اللجنة الفريق البروسي العجوز « فوغت » على الفرار منها . وانتقل بعد ذلك الى مداهمة اتحاد الشبيبة الذي يرئسه احد ابطال المانيا البحريين وهو الاميرال فون تروتا رئيس اركان حرب اسطول البحار البعيدة في الحرب الكبرى الاولى . واضطر الاميرال المبجّل الى الفرار ايضاً فأمر شيراخ بحل منظمته . وتم اغتصاب ممتلكات هذه المنظمات التي تقدر بملايين الدولارات والتي تضم مئات من « بيوت الشباب » الصغيرة الموزعة في جميع انحاء المانيا .

وكان الاتفاق الذي عقده هتلر مع البابا في العشرين من تموز عام ١٩٣٣ قد نص على استمرار اتحاد الشبيبة الكاثوليكية في نشاطه ، دون أي مساس ، ولكن هتلر اصدر قانوناً في الأول من كانون الثاني عام ١٩٣٦ اعلن فيه حل

---

١ — اوضح العالم النفسي الامريكي دوغلاس ام . كيلي في شهادته امام محكمة نورمبرغ اثناء محاكمة كبار مجرمي الحرب الألمان جذور شيراخ الاميركية . وقد نقلها في كتابه « ٢٢ زنزانة في نورمبرغ » ص ٨٦ - ٨٧ . — المؤلف —

هذا الاتحاد وغيره من منظمات الشبيبة غير النازية في المانيا ... قد نص في القانون على ما يلي ...

« ... يكون جميع الشبان الألمان في الرايخ منظمين في شبيبة هتلر ... وسيدرب الشبان الألمان بالاضافة الى العناية بهم في الاسرة والمدرسة ، تدريباً بدنياً وعقلياً وخلقياً ضمن اطار روح الاشتراكية الوطنية ... عن طريق شبيبة هتلر »[1].

وغدا شيراخ بعد الآن مرتبطاً بهتلر مباشرة بعد ان كان بحكم منصبه تابعاً لوزارة التربية والتعليم .

وهكذا غدا هذا الشاب الغر ، الذي لا يكاد يبلغ التاسعة والعشرين من عمره ، والذي ينظم الشعر العاطفي في مدح هتلر واطرائه فيصفه « بالعبقري الذي يرعى النجوم » ، والذي تتلمذ على روزنبرغ في وثنيته الغريبة وعلى شترايخر في لا ساميته العنيفة الحاكم المطلق في شبيبة الرايخ الثالث .

وكان الصبيان والفتيات بين السادسة والثامنة عشرة ، والأخير هو السن الذي يغدو الجميع فيه صالحين للتجنيد في العمل المجند وفي القوات المسلحة ، ينظمون في مختلف درجات الشبيبة الهتلرية . وكان الآباء الذين يدانون بمحاولة الابقاء على اطفالهم بعيدين عن هذه المنظمة يتعرضون لعقوبة السجن مدة طويلة ، حتى ولو كانوا مدفوعين الى الاعتراض بالرغبة في منع فتياتهم من الانضواء الى خدمات كثرت فيها حالات الحمل غير الشرعي الى الحد الذي اثار فضائح تزكم الأنوف برائحتها .

وكان الصبي الذي يتراوح سنه بين السادسة والعاشرة يقضي فترة من التدريب في الشبيبة الهتلرية ، ويعطى لكل فتى دفتر علامات يدون فيه سير تقدمه في حركة الشبيبه النازية كلها بما في ضمنه نموه العقائدي . وعندما يبلغ العاشرة ويجتاز اختبارات مناسبة في الالعاب الرياضية ، واقامة المخيمات والتاريخ المصبوغ بالصبغة النازية كان يتخرج ليدخل في « حركة الفتيان » بعد ان يقسم اليمين التالي :

---

١ — مقتبسة في المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٩٧٢ — ٩٧٣ . — المؤلف —

« اقسم امام هذه الراية الدموية التي تمثل الفوهرر ، بأن اكرس كل نشاطي وقواي لخدمة منقذ بلادنا ادولف هتلر واني راغب وعلى استعداد لتقديم حياتي فداء له فليكن الله في عوني » .

وعندما يبلغ الفتى الرابعة عشرة من عمره ينضم الى شبيبة هتلر الاصلية ، ويظل فيها الى ان يبلغ الثامنة عشرة عندما ينتقل الى العمل المجند والخدمة العسكرية . وكانت منظمة الشبيبة واسعة كل الاتساع وقد نظمت على أسس شبه عسكرية تشبه الى حد كبير أسس جيش العاصفة ، ويتلقى فيها الفتيان الذين يقتربون من سن الرجولة ، تدريباً منظماً لا في اقامة المخيمات او الرياضة او العقيدة النازية فحسب بل وفي اعمال الجندية ايضاً . وقد شاهد مؤلف هذا الكتاب عندما كان يقوم بنزهاته الخلوية في ضواحي برلين ابان العطلة الاسبوعية جماعات من شبيبة هتلر ينتشرون في الغابات أو بين المروج وقد حملوا بنادقهم ، وعلى ظهورهم بانت حقائب الجنود العسكرية الضخمة .

وكثيراً ما كانت الفتيات يتدربن ايضاً على الأعمال العسكرية اذ ان حركة الشبيبة الهتلرية لم تهمل العنصر النسائي في نشاطها . وكانت الفتيات الألمانيات بين العاشرة والرابعة عشر يسجلن في فئات «الفتيات الشابات » ، ويرتدين زيهن الخاص بهن ايضاً والمؤلف من « بلوزة » بيضاء ومن «تنـّورة» زرقاء ، وجوارب سوداء مع احذية ثقيلة تفتقر الى العنصر النسائي فيها . وكان تدريبهن كثير الشبه بتدريب الصبيان الذين يكونون في نفس اعمارهن ، ويتمثل في مسيرات طويلة في العطل الاسبوعية وقد حملن الحقائب الضخمة ، وفي تفقيههن بالفلسفة النازية ، ولكن التأكيد كان دائماً على ان يكون دور المرأة في الرايخ الثالث قبل كل شيء دور الأم السليمة للاطفال السليمين . وكان هذا الدور يزداد تأكيداً عندما تبلغ الفتيات الرابعة عشرة فيصبحن عضوات في « عصبة الفتيات الالمانيات » .

وعندما تبلغ الفتيات الثامنة عشرة وهن في العصبة ، اذ ان السن النهائي فيها هو الواحد والعشرون ، كان الألوف منهن يمضين الى الخدمة سنة واحدة في المزارع وهو عمل يشبه ما يقوم به الشبان في الخدمة المجنّدة . ومهمة الفتيات ان

يساعدن في الاعمال البيتية والزراعية في آن واحد . وكثيراً ما كانت الفتيات يعشن في بيوت المزارع أو في معسكرات صغيرة في المناطق الريفية يحملن منها في الشاحنات كل صباح الى المزارع ، وسرعان ما نبتت المشاكل الاخلاقية . فكثيراً ما كان وجود فتاة المدينة الجميلة في المزرعة يؤدي الى مشاكل في حياة الفلاحين العائلية والى شكاوى غاضبة من الآباء الذين يرون فتياتهم وقد حملن بصورة غير مشروعة اثناء عملهن في المزارع.ولم تكن هذه المشكلة هي الوحيدة مطلقاً . فكثيراً ما كانت معسكرات الفتيات تقوم الى جـــانب معسكرات الشبان للعمل المجند . وكان هذا الاقتراب يؤدي الى علاقات غير مشروعة . وانتشرت مقطوعة تضم بيتين من الشعر في جميع ارجاء المانيا اذ تقول ...

« وفي الحقول ... وفوق المروج
افقد القوة عن طريـــق المسرّة »

ونشأت مشاكل اخلاقية كثيرة ايضاً اثناء سنة الخدمة البيتية للفتيات ، حيث كان نحومن مليون فتاةمن شبيبة هتلر ، يمضين في كل عام الى قضاء سنة في الخدمة البيتية في المدن ولم يكن النازيون المخلصون يعتبرون هذه المشاكل اخلاقية على الاطلاق . ولقد استمعت اكثر من مرة الى زعيمات نسويات من حركة « عصبة الفتيات الالمانيات ، ومعظمهم من غير المتزوجات ، يلقين محاضرات على من بعهدتهن من صغار الفتيات عن الواجب الوطني والاخـــلاقي في انجاب الاطفال لرايخ هتلر عن طريـــق الزواج ان امكن أو بدونه اذا لم يكن ذلك ممكناً .

وبلغ عدد اعضاء شبيبة هتلر في نهاية عام ١٩٣٨ نحواً من (٧،٧٢٨،٢٥٩) وعلى الرغم من ضخامة هذا الرقم فقد بدا ان اربعة ملايين شاب قد ظلوا خارج المنظمة وفي آذار عالم ١٩٣٩ اصدرت الحكومة قانوناً يقضي بتجنيد جميع الشباب في شبيبة هتلر على نفس الاسس التي كانوا يجندون بموجبها في الجيش . وقد حذّر الآباء المترددون من ان اولادهم سيؤخذون منهم ويودعون في المياتم او في بيوت اخرى اذا لم يسجلوا في الحركة .

وكان الانحراف النهائي في شؤون التعليم في الرايخ الثالث في اقامة ثلاثة أنواع من المدارس لتدريب الطبقة المختارة، وهي مدارس ادولف هتلر التي تعمل تحت ارشاد شبيبة هتلر، ومعاهد التربية السياسية الوطنية وقلاع النظام، والأخيرتان تعملان تحت اشراف الحزب. وكانت مدارس ادولف هتلر تختار افضل الفتيان وأكثرهم ذكاء. وهم في سن الثانية عشر ليقضوا ستة أعوام من التدريب العنيف على القيادة في الحزب وفي الخدمات العامة. وكان الطلاب يعيشون في المدارس في ظل انضباط اسبارطي صارم، ويصبحون عند تخرجهم منها صالحين لدخول الجامعات. وقد تم فتح عشر مدارس من هذا النوع بعد عام ١٩٣٧، وكانت أهمها «أكاديمية» برنزويك.

وكان الهدف من المعاهد السياسية للتربية إعادة طراز التعليم الذي كان متبعاً في السابق في المعاهد العسكرية البروسية. وتزرع هذه المعاهد، كما يقول تعليق رسمي «الروح العسكرية وما يتفرع عنها من شجاعة واحساس بالواجب وبساطة». وقد أضيف الى ذلك تدريب خاص على المبادىء النازية. وكانت المدارس تحت اشراف الحرس النازي الذي يؤمن لها المدرين ومعظم الأساتذة. وقد تم فتح ثلاثة من هذا النوع من المدارس في عام ١٩٣٣ ثم ارتفع هذا الرقم الى احدى وثلاثين مدرسة قبل نشوب الحرب، ثلاث منها للفتيات.

وكانت قلاع النظام في قمة هذا الهرم الثقافي. ففيها حيث يخيم جو القلاع التي انشئت في عهد الفرسان التيوتون في القرنين الرابع والخامس عشر، كان يتم تدريب الفئة المختارة من الطبقة النازية المختارة. وكان نظام الفروسية هذا يستند الى مبدأ الطاعة العمياء للرئيس، والى الاخلاص لفكرة احتلال الألمان للبلاد السلافية في الشرق واستعباد أهلها. وقد وضعت أنظمة وأهداف مشابهة لقلاع النظام النازية ويرسل الى هذه المعاهد أكثر الطلاب الاشتراكيين الوطنيين تعصباً بين احسن خريجي مدارس ادولف هتلر والمعاهد السياسية. وكانت هناك أربع قلاع، ينتقل الطالب الواحد بالتتابع بينها. وكانت السنة الأولى من مدة الدراسة التي تبلغ ست سنوات متخصصة في «العلوم العنصرية» وفي

النواحي الأخرى من العقيدة النازية . وكان التأكيد في هذه السنة على التدريب العقلي والانضباط مع بعض التدريب البدني . أمـــا في السنة الثانية فينعكس الوضع تماماً في قلعة أخرى حيث تحتل الألعاب الرياضية وتسلق الجبـــال والتمرينات البدنية مكان الصدارة . وفي القلعة الثالثة ، حيث يقضي الطالب عاماً ونصف العام يتلقى ابانها ثقافة سياسية وعسكرية . وفي المرحلة الرابعة والأخيرة يقضي الطالب سنة ونصف السنة في اوردنسبرغ في مقاطعة مارييننبرغ القريبة من الحدود البولندية . وهنا في نفس القلعة التي كانت حصن الفرسان التيوتون قبـــل خمسة قرون يتركز التدريب السياسي والعسكري على المسئلة الشرقية وحاجة المانيا وحقها في التوسع في البلاد السلافية في بحثها الدائم والازلي عن المجال الحيوي ، وهو إعداد رائـع كما ثبت فيما بعد وكما قصد منه ولا ريب للاحداث التي وقعت في عام ١٩٣٩ ، وما تلاها من أعوام .

* * *

وهكذا كان الشبان يدربون على الحياة والعمل والموت في الرايخ الثالث . وعلى الرغم من أن عقولهم كانت تسمَّم بطريقـــة منظمة وعلى الرغم من أن دراساتهم المنظمة كانت تنقطع ومن أن مساكنهم كانت تتبدل بتبدل ترتيبهم ، فان الفتيان والفتيات والشبان والشابات كانوا يبدون في منتهى الغبطة والسعادة ، وقد امتلأوا حماساً للحياة في الشبيبة الهتلرية . ولم يكن ثمة من شك في أن الاجراء الذي أتبع في توحيد الأطفال الذين يمتون الى مختلف الطبقات وطرائق الحياة ، وجمعهم في بوتقة واحدة سواء من كان منهم يمت الى أسرة فقيرة أو أسرة غنية والى بيئة عمالية أو أخرى قروية أو ثالثـــة تجارية أو الى بيئة ارستقراطية ، ليشتركوا جميعاً في عمل واحد ، هو اجراء طيب وسليم في وقت واحد . ولم يكن ثمة ضرر في معظم الحالات لابن المدينة او بنتها في أن يقضيا ستة أشهر في العمل المجند الالزامي ، حيث يعيشان في الهواء الطلق ، ويتعلمان فوائد العمل اليدوي وفوائد السير مع أولئك الذين يختلفون عنهما في أسسهما وجذورهما ولم يكن في وسع أي انسان يذرع المانيا طولاً وعرضاً في تلك الأيام ويتحدث

الى شبابها في معسكراتهم ، ويراقبهم وهم يعملون ويلعبون ويمرحون وينشدون، أن يعجز عن رؤية أن هؤلاء الشباب مهما كانت قسوة تعليمهم كانوا يمثلون حركة شبيبة ديناميكية لا تكاد تصدق .

وأخذ الشبان في الرايخ الثالث ينشأون وقد حملوا أجساداً قوية وسليمة يؤمنون بمستقبل بلادهم وبأنفسهم ويحسون باحساس الزمالة والرفقة الذي يقضي على جميع الحواجز الطبقية والاقتصادية . وقد فكرت بذلك فيما بعد . وفي أيام شهر أيار من عام ١٩٤٠ عندما كان المرء يرى على الطريق بين آخن وبروكسل الفرق بين الجنود الألمان الذين لوحتهم الشمس فغدوا في لون البرونز وفي أجسام ممشوقة القوام من جراء الحمية الصحية المناسبة وبين أول الأسرى الانكليز بصدورهم الضيقة وأكتافهم العريضة ، وقوامهم المترهل وأسنانهم السيئة كان رأساً يفكر بالاهمال المطلق الذي لقيته شبيبة انكلترا من جراء التنشئة الخالية من المسؤولية في الفترة الواقعة بين الحربين .

المزارع في الرايخ الثالث

عندما وصل هتلر الى الحكم في عام ١٩٣٣ ، كان المزارع ، في وضع يائس كما هي الحالة بالنسبة الى معظم البلاد الأخرى . ويقول أحد الكتاب في صحيفة الفرانكفورتر زايتونغ أن هذا الوضع كان أسوأ مما كان عليه في أي وقت مضى منذ حرب الفلاحين المدمّرة في عـــام ١٥٢٤ — ١٥٢٥ التي أتلفت الأرض الألمانية . وكان الدخل من الزراعة قد هبط في عام ١٩٣٢ — ١٩٣٣ الى مستوى خفيض للغاية ، يقل بنحو من بليون مارك عن أدنى مستوى في السنوات التي تلت الحرب وهو مستوى عام ١٩٢٤ — ١٩٢٥ . وكان المزارعون مدينين بما يعادل اثني عشر بليوناً من الماركات وقد تراكم معظم هذه الديون في السنوات الثماني الأخيرة . وتستهلك الفوائد على هذه الديون اكثر من أربعة عشر في المائة من دخل المزارع ، وقد أضيف اليهـــا عبء ثقيل لا مثيل له من الضرائب

والتبرعات للخدمات الاجتماعية .

وقد وجه هتلر في مستهل عهد مستشاريته التحذير التالي : « عليكم أيها الرفاق الحزبيون أن تتأكدوا من شيء واحد وهو أن ثمة فرصة واحدة وأخيرة أمام المزارع الألماني » . وعاد في تشرين الأول عام ١٩٣٣ فأعلن أن « دمار المزارع الألماني يعني دمار الشعب الألماني بأسره » .

وكان الحزب النازي منذ سنوات طويلة يحاول الحصول على تأييد الفلاحين وقد وعدتهم المـــادة السابعة عشرة من برنامج الحزب الذي لا يقبل التبدل « بالاصلاح الزراعي ... وبقانون لمصـــادرة الأراضي دون تعويض للاغراض العامة وإلغـــاء الفوائد على القروض الزراعية ، ومنع كل مضاربة في أسعار الأراضي » . ولم يف الحزب بالوعود التي قطعها للفلاحين في برنامجه الحزبي شأنها في ذلك شأن الوعود الأخرى في البرنامج باستثناء النص الوحيد على المضاربات الزراعية . ولقد ظل توزيع الأراضي بعد خمس سنوات من الحكم النازي أي في عـــام ١٩٣٨ ، اكثر ارتخاءً في ألمانيا منه في أية بلاد أخرى في الغرب . وأظهرت الأرقام التي نشرت في ذلك العام في كتاب الاحصاء السنوي الرسمي، أن أصغر مليونين ونصف المليون من المزارع كانت تقل في مساحة الأراضي التي تشتمل عليها عن الواحدة في المائة من كبريات المزارع . ولم تجرؤ الديكتاتورية النازية كما لم تجرؤ من قبلها الحكومات الاشتراكية البورجوازية في الجمهورية على تحطيم الاقطاعيات الزراعية الضخمة التي يملكها النبلاء « اليونكرز » والتي تقع الى الشرق من نهر الإلب .

ومع ذلك فقد قام العهد النازي بافتتاح برنامج زراعي جديد شامل رافقته موجة دعائية شاملة عن « الدم والتربة » وعن ان الفلاح هو ملح الأرض والأمل الأكبر للرايخ الثالث . وقد اختار هتلر لتنفيذه وولتر داريه ، وهو واحد من زعماء الحزب القليلين الذين على الرغم من اسهامهم في الأسطورة النازية كانوا يعرفون ميدان عملهم تمام المعرفة وبصورة فنية . وكان هذا الرجل اخصائياً بارزاً في الزراعة وقد تلقى تدريباً اقاديمياً رائعاً، وعمل مدة طويلة في وزارتي الزراعة

في بروسيا والرايخ . ولما وجد نفسه مضطراً للاستقالة من الوزارتين بسبب الاصطراع مع رؤسائه ، انسحب الى بيته في منطقة الراين في عام ١٩٢٩ وكتب كتاباً عنوانه « الفلاحون مصدر الحياة للجنس النوردي » . وكان حرياً بمثل هذا العنوان ان يجتذب اهتمام النازيين . وجاء رودلف هس بداريه الى هتلر ، الذي أعجب به كل الاعجاب حتى أنه عهد اليه باعداد برنامج زراعي مناسب للحزب .

وبعد خروج هوغنبرغ من الحكم في حزيران عام ١٩٣٣ ، أصبح داريه وزيراً للأغذية والزراعة ،ولم يحل شهرأيلول حتى كان قد غدا مستعداً بالخطط التي وضعها لتنظيم الزراعة الألمانية . وصدر قانونان في ذلك الشهر إعادة تنظيم الجهاز الكامل للانتاج والتسويق ،هادفاً الى تأمين أسعار أعلى للمزارعين ، والى الوصول بالفلاح الألماني الى مركز جديد ، منفذاً هدفه هذا على أساس مناقض عن طريق العودة به الى المركز الذي كانت فيه المزارع في القديم ، كما في العهد الاقطاعي ، في أيدي الفلاحين وورثائهم المتعاقبين الذين يجدون أنفسم مرتبطين بالحصص المعينة من الأرض شريطة أن يكونوا من الألمان الآريين حتى نهاية حياتهم .

وكان قانون الإرث الزراعي الذي صدر في التاسع والعشرين من ايلول عام ١٩٣٣ مزيجاً غريباً من العودة بالفلاحين الى القرون الوسطى ومن حمايتهم ضد مساوىء العصر المادي الحالي . وقد نص القانون على اعلان جميع المزارع التي تقل مساحتها عن (٣٠٨) من الأفدنة والتي تؤمن المعيشة الكريمة لأسرة واحدة، اقطاعيات وراثية خاضعة للقوانين القديمة المتعلقة بالوقف الذري. وتضمن القانون أيضاً تحريم بيع هذه الاقطاعيات أو تجزئتها أو رهنها أو منع فكاك رهنها بحكم الديون المثقلة بها. وقضى القانون عند وفاة صاحبها بانتقال الأرض بطريق الأرث الى أكبر الأبناء أو أصغرهم طبقاً للعادات المحلية أو الى أقرب الذكور من الأقرباء، شريطة أن يتعهد الوارث الجديد بتأمين المعيشة والتعليم لإخوته واخواته حتى يصلوا سن الرشد. ولم يكن في وسع أي شخص أن يثبت ملكيته لهذه الاقطاعية إلا اذا أقام الدليل على نقاء دمه الآري الألماني منذ عام ١٨٠٠ حتى اليوم. ومثل

هذا الشخص وحده جدير بأن يحمل لقب الفلاح المشرّف ، وهو لقب يصبح غير جدير به إذا خرق « قانون شرف الفلاح » أو توقف بسبب العجز أو لأي سبب آخر عن العمل الجدي في الزراعة . وهكذا وجد المزارع الألماني المثقل بالديون في مستهل عهد الرايخ الثالث ، الحماية الكافية من فقده الأرض عن طريق بيعها وفاء لرهنها أو عن طريق تقلصها في الحجم إذ حظر القانون بيع جزء منها وفاء للدين ، ولكنه وجد نفسه أيضاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتربة لا يقل عن ارتباط رقيق الارض بها في القرون الوسطى .

ووجد الفلاح أيضاً كل ناحية من نواحي حياته وعمله ، منظمة تنظيماً دقيقاً عن طريق « اقطاعية التغذية الألمانية » التي أقامها داريه بموجب قانون سنّه في الثالث عشر من أيلول عام ١٩٣٣ ، وكانت هذه الاقطاعية في حد ذاتها منظمة واسعة النطاق لها صلاحياتها الكاملة على كل فرع يمكن إدراكه من فروع الانتاج الزراعي والتسويق وحفظ الأغذية ، وقد رئسها هو بنفسه بوصفه زعيم فلاحي الرايخ . وكان الهدف الرئيسي لهذه المنظمة مزدوجاً اذا أراد داريه عن طريقها الحصول على أسعار مستقرة ومربحة للفلاح ، وجعل ألمانيا مكتفية اكتفاءً ذاتياً بانتاجها من المواد الغذائية .

فالى أي حد يا ترى نجحت المنظمة في تحقيق هذا الهدف المزدوج ؟ ان الفلاح الذي كان منذ عهد طويل يشعر بنفسه مهملاً في دولة تركز اهتمامها وعنايتها على مصالح العمل التجاري والصناعي ، وجد نفسه في البداية ولا شك وقد استهوته هذه الفكرة التي تبرزه ليصبح محل العناية والاهتمام ، وليغدو بطلاً قومياً ومواطناً شريفاً . وقد ازداد سروره من الارتفاع في الأسعار التي تمكن داريه من تحقيقه له ، عن طريق تحديدها تحديداً الزامياً يضمن لها مستوى محدوداً من الارباح . وقد ارتفعت أسعار المواد الغذائية بالجملة في جميع أنحاء ألمانيا في السنتين الأوليين من الحكم النازي بنسبة عشرين في المائة ، وكان الارتفاع في أسعار الخضار ومنتجات الألبـان ولحوم الماشية أعلى من هذه النسبة ، ولكن هذه الفائدة سرعان ما زالت بسبب الارتفاع المماثل في أسعار الحاجيات التي كان يتحتم على

المزارع شراؤها كالآلات الزراعية والأسمدة .

ولم يستطع القادة النازيون الذين كانوا يعدون العدة منذ هذه اللحظة لخوض الحرب تحقيق الاكتفاء الذاتي في الغذاء على الرغم من شعورهم بضرورته لتحقيق أهدافهم الحربية، لا سيما وأن هذه الغاية لا يمكن تحقيقها، إذا أخذنا بعين الاعتبار وضع التربة الألمانية كماً وكيفاً على ضوء علاقتها بالسكان، وكانت غاية ما استطاع النازيون تحقيقه على الرغم من « معركة الانتاج » التي خاضوها والتي طلبوا لها كثيراً ، هو الحصول على نسبة ٨٣ في المائة من الاكتفاء الذاتي ، ولكنهم تمكنوا بما احتلوه من أرض أجنبية من الحصول على كميات كافية من المواد الغذائية التي أتاحت لهم الصمود في الحرب الكونية الثانية تلك المدة الطويلة التي صمدوها .

اقتصاد الرايخ الثالث

لم يعتمد هتلر في انتصاراته التي حققها في السنوات الأولى من حكمه على دعائم من النجاح في السياسة الخارجية الذي مكنه من تحقيق ذلك العدد الضخم من الفتوحات التي لم تسفك قطرة واحدة من الدماء فيها فحسب ، وإنما اعتمد قبل كل شيء على استعادة ألمانيا لمكانتها الاقتصادية ، وهو عمل اعتبرته دوائر الحزب وعدد كبير من الاقتصاديين في الخارج ، معجزة هائلة . ولقد بدت هذه الحقيقة بالفعل الى الكثيرين من الناس . فلقد هبط عدد العمال العاطلين كما رأينا سابقاً من أكثر من ستة ملايين في عام ١٩٣٢ الى أقل من مليون بعد أربع سنوات مما أدى الى اختفاء مشكلة البطالة التي كانت لعنة حقبة العشرين وطليعة حقبة الثلاثين . وارتفع الانتاج القومي بنسبة (١٠٢) في المائة بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٧ ، كما تضاعف الدخل القومي . وبدت ألمانيا للمراقبين الأجانب في أواسط حقبة الثلاثين وكأنها خلية نحل . فعجلات المصانع تعمل ليل نهار، داوية هادرة وكل انسان يعمل فيها وكأنه فرد في هذه الخلية .

وكان الدكتور شاخت هو المسؤول عن تقرير السياسة النازية الاقتصادية في السنة الأولى ، لأن هتلر كان كارهاً للشؤون الاقتصادية التي لا يفهم فيها شيئاً ، وقد ركز شاخت اهتمامه على حل مشكلة البطالة وإعادة جميع العاطلين الى العمل عن طريق تشغيلهم في الأشغال العامة التي توسّعت توسعاً كبيراً وعن طريق دفع المشاريع الفردية الى العمل . وأمَّن العبقري الاقتصادي القروض الحكومية عن طريق خلق سندات خاصة للبطالة ، وتخفيف الضرائب بصورة سخيّة عن الشركات التي رفعت من انفاق رساميلها وزادت في عدد العاملين فيها .

لكن الأساس الحقيقي لانتعاش ألمانيا الاقتصادي راجع الى موضوع التسلح ، وهو الهدف الذي وجه العهد النازي جميع النشاط في العمل والعمال و كذلك عند القادة العسكريين اليه منذ عام ١٩٣٤ . وغدا الكيان الاقتصادي الألماني في مجموعه يعرف باسم الاقتصاد الحربي وفقاً للتعبير النازي ، وقد استهدف بصورة متعمّدة العمل لا في أوقات الحرب وحدها بل وفي أوقات السلم التي تسبق الحرب أيضاً . وقد بيّن الجنرال لودندورف في كتابه « الحرب الجماعية » الذي طبع في برلين عام ١٩٣٥ ، والذي أسيئت ترجمة عنوانه الى الانكليزية فظهر باسم « الشعب في الحرب » ، ضرورة تعبئة الاقتصاد في البـــلاد على نفس الأسس الجماعية التي يقوم عليها كل شيء في ألمانيا ، وذلك لاعداد الأمة اعداداً صالحاً للحرب الجماعية . ولم تكن هذه الفكرة جديدة حقاً على الألمان ، ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت الحكومة البروسية تنفق نحواً من خمسة أسباع ميزانيتها كما رأينا على الجيش . وكان ينظر الى اقتصاد البلاد كلها على أساس أنه اداة لا لتأمين الرخاء للشعب بل لدعم سياسة الجيش العسكرية .

وهكذا وقـع على عاتق العهد النازي أن يكيّف سياسة الاقتصاد الحربي للحقبة الثالثة من القرن العشرين . وقد لخص اللواء جورج توماس رئيس أركان حرب الاقتصاد العسكري النتائج تلخيصاً صادقاً عندما قال : « سيعرف التاريخ أمثلة قليلة فقط من الحالات التي توجه فيها أية بلاد جميع قواها الاقتصادية حتى في أوقات السلم بصورة متعمدة ونظامية الى متطلبات الحرب ، تماماً كما أرغمت

ألمانيا على أن تعمل في الفترة الواقعة بين الحربين الكونيتين »[1] .

ولم تكن ألمانيـــا بالطبع « مرغمة » على أن تستعد للحرب على مثل هذا النطاق الواسع ، ولكن هذا الاعداد جاء بناء على قرار متعمد مدروس اتخذه هتلر نفسه . فلقد عين في قانون الدفاع السري الذي صدر في الواحد والعشرين من أيار عام ١٩٣٥ الدكتور شاخت مفوضاً عاماً للاقتصاد الحربي ، موعزاً إليه « بأن يبدأ العمل سلفاً في أوقات السلم » ومخولاً إياه الصلاحيات « لتوجيـــه الاعدادات الاقتصادية للحرب » . ولكن الدكتور شاخت ، الذي لا مثيل له ، لم ينتظر حتى ربيع عام ١٩٣٥ ، ليشرع في بناء الاقتصاد الألماني على أساس الحرب . ففي الثلاثين من أيلول عام ١٩٣٤ ، وقبل أقل من مضي شهرين على توليه وزارة الاقتصاد ، قدم الى الفوهرر تقريراً عنوانه « تقرير عن وضع العمل للتعبئة الاقتصادية الحربية في ٣٠ أيلول عام ١٩٣٤ » ، أكد فيه بشيء من الكبرياء والاعتزاز أن وزارته « قد أخذت على عاتقها مهمة الاعداد الاقتصادي للحرب » . وقدم شاخت في الثالث من أيار عام ١٩٣٥ ، أي قبل ثلاثة أسابيع من تاريخ تعيينه مفوضاً للاقتصاد الحربي ، مذكرة شخصية ، إلى الفوهرر بدأها بالعبارة التالية : « يؤلف تحقيق برنامج التسلح تحقيقاً سريعاً وضخماً مشكلة السياسة الألمانية ، ولهذا يجب أن يسخّر كل شيء آخر في سبيل تحقيق هـذا الهدف .. » وأوضح شاخت لهتلر أنه « لمـــا كانت قضية التسلـّح قد تطلبت التعمية بصورة كاملة حتى السادس عشر من آذار عام ١٩٣٥ ، عندما أعلن هتلر التجنيد لجيش يضم ستاً وثلاثين فرقة ، فقد اقتضى هذا الوضع استخدام المطابع » لتمويل المراحل الأولى من العملية . وأشار أيضاً بشيء من الانشراح الى أن الأموال التي صودرت من أعداء الدولة ومعظمهم من اليهود ، والأموال التي أخذت من الحسابات الأجنبية المجمدة قد ساعدت على دفع أثمان المدافع لهتلر ثم مضى يتفاخر قائلاً : « وهكذا فان أسلحتنا ستمول الى حد ما من

---

١ — اللواء جورج توماس — « حقائق اساسية عن تاريخ الحرب الألمانية واقتصاد التسلح » نقل في وثائق المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٩٧٢ - ٩٧٣ .

اعتمادات أعدائنا السياسيين » (١) .

وعلى الرغم من مواصلته الاحتجاج أثناء محاكمته في نورمبرغ بكل براءة ضد الاتهامات التي وجهت إليـــه بأنه أسهم في المؤامرة النازية لشن الحرب العدوانية ، ومن زعمه باستمرار أنه إنما فعل النقيض من ذلك ، فقد ظلت الحقيقة ماثلة ، وهي أنه ليس ثمة من شخص فرد أكثر مسؤولية عن استعداد ألمانيـــا الاقتصادي للحرب التي أثارها هتلر في عام ١٩٣٩ ، من شاخت . وقد اعترف الجيش اعترافـاً صريحاً بهذه الحقيقة . فقد كتبت الصحيفة العسكرية الألمانية التي يصدرها الجيش (ميليتر – ووخنبلات) في الثاني والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٧ ، بمناسبة بلوغ شاخت الستين من عمره مطرية إياه تنعته بأنه « الرجل الذي جعل في حيّـز الامكان إعادة تشكيل الجيش من الناحية الاقتصادية » ثم أضافت تقول : « وقوى الدفاع مدينة لعبقرية شاخت وكفايته العظيمة ، في أنها تمكنت ، متحدية متاعب النقد من بناء قوتها الراهنة بعد أن كانت لا تعدو جيشاً قوامه مائة ألف رجل » .

وقد سخر شاخت كل ما لديه من سحر معترف به في العمل على اعـــداد الرايخ الثالث للحرب . وكانت طباعة أوراق النقد ، مجرد ابتكار من ابتكاراته . وكان يدّبر شؤون النقد بخفة يد المشعوذ ، حتى قدر بعض الاقتصاديين الأجانب قيمته ذات مرة بمائتين وثلاثة وسبعين سعراً مختلفاً . وقد تفاوض بصورة مربحة الى حد الدهشة لألمانيا ، في عقد صفقات مع عشرات من الدول ، وأظهر بنجاح وبصورة بعثت الحيرة عند الاقتصاديين من ذوي الآراء المستقيمة أنه كلما كانت البلاد مدينة الى بلاد أخرى كلما كان في وسعها أن تعقد صفقات تجارية أكثر معها . ولقد كان من ثمار عبقريته ، أو ما وصفه البعض بأنه عمل من أعمال

---

١ – تقرير الوزراة في ٣٠ ايلول ١٩٣٤ – وثائق المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٣٠٦- ٣٠٩ . تقرير شاخت في ٣ ايار ١٩٣٥ – » » » » (٣) ص ٨٢٧- ٨٣٠ . قانون الدفاع السري – » » » » (٤) ص ٩٣٤- ٩٣٦ .

النبوغ خلقه اعتمادات مالية في بـلاد لا تملك رؤوس أموال متحركة ولا تملك احتياطاً مالياً كبيراً . وكان اختراعه لسندات « الميفو » مثلاً بارزاً على ذلك ، وهي سندات يصرفها بنك الرايخ ، وتضمنها الدولة وتستعمل في دفع اثـــمان المشتروات من مصانع السلاح . وكانت جميع المصارف تقبل هـذه السندات وتخصمها في النهاية من بنك الرايخ . ولما كانت لا تظهر في الحسابات العلنية للمصرف الوطني ولا في ميزانية الدولة السنوي ، فقد مكنت الحكومة مـن الحفاظ على السرية في موضوع مدى التسلـــح الألماني . وقد استخدمت هذه السندات بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٨ ، لتمويل التسلح كلية وبلغ مجموع قيمتها نحواً من اثني عشر بليونـــاً من الماركات . وقد حاول الكونت شفيرين فون كروزيك وزير مالية الرايخ المنزعج ، ان يصفها الى الفوهرر ، فقال انها مجرد طريقة اخرى في « اصدار اوراق نقدية جديدة »[١] .

وعندما استهلت المانيا مشروع السنوات الاربع في ايلول عام ١٩٣٦ بقيادة غورنغ الفولاذية ، بعد ان خلف شاخت في منصب الديكتاتور الاقتصادي على الرغم من جهله الذي يضارع جهل هتلر في الشؤون المالية ، مضى الرايخ في طريق اقتصاد الحرب الجماعية . وكان الهدف من المشروع خلق الاكتفاء الذاتي في غضون اربع سنوات ، بحيث تستطيع البلاد الصمود في حالة فرض الحصار الحربي عليها . وقد خفضت الواردات الى اقل حد ممكن ، وفرضت الرقابـــة الصارمة على الاسعار والاجور ، وحددت الفائدة بستة في المائة ، وباشرت المصانع الضخمة في انتاج المطاط الصناعي والمنسوجات الصناعية والوقود وغيرها من المنتجات من موارد المواد الاولية ، الـــتي تملكها المانيا ، وبدأت مصانع هيرمان غورنغ الضخمة في انتاج الفولاذ من الحديد المحلي الخام الخفيض الدرجة وهكذا تمت تعبئة الاقتصاد الألماني للحرب ، وغدا رجال الأعمال على الرغم من صعود ارباحهم الى ارقام خيالية مجرد « اسنان » في العجلة الحربية ، وقد احيط

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٤٧٤ .

عملهم بمختلف القيود ، وتحتم عليهم أن يملأوا مختلف النماذج ، مما حدا بالدكتور فونك الذي خلف شاخت في عـــام ١٩٣٧ كوزير للاقتصاد وفي عام ١٩٣٨ كرئيس لبنك الرايخ الى الاعتراف بأن « المراسلات الرسمية غدت تؤلف الآن أكثر من نصف مراسلات أي صناعي ألماني » ، وإلى القول بأن « تجارة الصادر في ألمانيا تضم نحواً من أربعين ألف معاملة مفردة يومياً مع العلم بأن كل معاملة منها تطلب تعبئة نحو من أربعين نموذجاً » .

وهكذا وجد رجال الأعمال أنفسهم وقد دفنوا رؤوسهم بين جبـــال من المراسلات الرسمية المختومة بالشمع الاحمر ، والتي تحدد لهم الدولة فيهـــا ما يستطيعون انتاجه وكم يستطيعون وبأي سعر يستطيعون أن يبيعوا انتاجهم ، كما وجدوا أن الضرائب قد زادت وأن الدولة تحلبهم «طلباً للتبرعات الخاصة» التي لا تنتهي للحزب ، فرأوا بعد أن كانوا قد رحبوا بمجيء عهد هتلر ترحيباً حاراً وحماسياً لانهم اعتقدوا أنه سيحطم التنظيمات العمالية ويسمح لأصحاب الاعمال بممارسة المشاريع الحرة بصورة لا قيود عليها ، ان أحلامهم قد طاشت . وكان فريتز ايسّن واحداً من هؤلاء وهو من أول الذين تبرعوا للحزب بمبالغ ضخمة ، فاضطر الى الفرار من البلاد عند نشوب الحرب ، وأعلن بعد فراره أن « العهد النازي قد حطم الصناعة الالمانية » . وكان يقول لكل من قابله في الخارج «يالله كم كنت غبياً » [١] .

لكن رجال الاعمال كانوا قد خدعوا أنفسهم في البداية بالاعتقاد بأن الحكم النازي هو استجابة من الله لصلواتهم . وايضاحاً لهذا الموقف أقول أن هؤلاء قد رأوا في برنامج الحزب « الذي لا يقبل التبدل » الكثير مما يبعث على التشاؤم بالوعود التي أغدقها لتأميم الاحتكارات والاشتراك في الارباح الناجمة عن تجارة الجملة ، وجعل حوانيت السلع المختلفة ملكاً للمجموع ، أو تأجيرهـــا بأسعار رخيصة الى صغار التجار ، وتنفيذ الاصلاح الزراعي و إلغاء الفوائد على الرهونات .

---

١ – تيسين .. انا دفعت لهتلر ص ١٥٧ .

ولكن سرعان مـا عرف رجال المال والاعمال أن هتلر لا ينوي مطلقاً الوفاء بأي وعد من الوعود الاقتصادية المدرجة في برنامج الحزب ، إذ أن هذه الوعود المتطرفة إنما أدخلت في البرنامج لاجتذاب الاصوات ليس إلا . وحاول بعض متطرفي الحزب في الاشهر الاولى من عـــام ١٩٣٣ ان يسيطروا على الاتحادات الكبيرة ، وأن يستولوا على حوانيت بيع السلع الضخمة وأن يقيموا دولةجماعية متحدة على غرار الأسس التي يحاول موسوليني اتباعهـــا في إيطاليا . ولكن سرعان ما قام هتلر بطرد هؤلاء المتطرفين ليعين بدلاً منهم عدداً من رجال الاعمال المحافظين . فلقد عـــين هتلر مستشاره السابق في الشؤون الاقتصادية غوتفريد فيدر ، الافاق الذي فكر في إلغاء « عبودية الفائدة » وكيلاً لوزارة الاقتصاد ولكن رئيسه الدكتور كارل شميدت ، قطب التأمين المعروف والذي قضى جل حياته في اقراض الاموال وجني الفوائد ، لم يعطه أي عمل يمارسه في الوزارة ، وعندما جاء شاخت اليها فيما بعد ، كان أول ما فعله التخلص من خدمات فيدر .

أما صغار رجال الاعمال الذين كانوا من أول مؤيدي الحزب النازي ، والذين توقعوا من المستشار هتلر ، الشيء الكثير ، فقد وجدوا وبسرعة أن الكثيرين منهم قد زالوا من الوجود ، وان آخرين قد أرغموا على العودة الى صفوف كاسبي الاجور . ونصّت القوانين التي صدرت في تشرين الاول عـــام ١٩٣٧ على حل جميع الاتحادات التجارية التي يقل رأسمالها عن أربعين الف دولار ، كما حظرت تأليف شركات تجارية جديدة يقل رأسمالها عن المائتي الف دولار . وقد أدّت هذه القوانين الى التخلص فوراً من نحو من خمس الشركات الصغيرة . أمـــا الاحتكارات الضخمة التي كانت تلقى العطف حتى من الحكومة الجمهورية فقد قوي أمرها على أيدي النازيين من الناحية الاخرى . وبالفعل فقد غدت هذه الاحتكارات إلزامية بموجب قانون الخامس عشر من تموز عام١٩٣٣ .وخولت وزارة الاقتصاد صلاحيات القيام بتنظيم احتكارات إلزامية جديدة أو اصدار الأمر الى الشركات بالانضمام الى الاحتكارات القائمة .

وحافظ النازيون على نظـــام الاتحادات التجارية والصناعية الكبيرة العدد

وهو النظام الذي تم وضعه في عهد الجمهورية ، ولكن العهد النازي أعاد تنظيمها على ضوء المخططات التي جاءت في قانون السابع والعشرين من شباط عـــام ١٩٣٤ ، وعلى أساس مبدأ القيادة ، ووضعت تحت سيطرت الدولة واشرافها . وقد أرغمت جميع المؤسسات على الانضواء الى عضوية هذه الاتحادات . وتقوم غرفة الرايخ الاقتصادية في قمة هذا التركيب المعقد تعقيداً يعسر على الفهم ، ويرئسها زعيم تعينه الدولة ، وهي تتولى الاشراف على سبع من المجموعـــات الاقتصادية القومية وثلاث وعشرين غرفة اقتصادية ومائة غرفة صناعية وتجارية وسبعين غرفة للحرف اليدوية . وكان أكثر رجال الاعمال دربة ودراية وفهماً يضيع وسط هذا التنظيم العويص المربك وما ينطوي عليه من مئات المكاتب والوكالات التابعة لوزارة الاقتصاد ومشروع السنوات الاربع وشلالات المراسيم الخاصة والقوانين الـــتي تعد بالألوف ، وأصبح من المحتوم على أية مؤسسة اذا أرادت أن تعمل، أن تستعين بالمشورة القانونية لمحامين تخصصوا في هذا العمل . وغدت أرقام الاموال التي يدفعها رجل الاعمال للعثور على السبيل المؤدي الى الموظفين المهمين الذين في وسعهم اتخاذ القرارات التي تعتمد عليها الاوامر أو للتملص من الانظمة والقوانين الحكومية التي لا عد لها ولا حصر وتلك التي تضعها الاتحادات التجارية ، أقرب الى الارقام الفلكية في حقبة الثلاثين . وقد وصف لي أحد رجال الاعمال هذا العمل بأنه « ضرورة اقتصادية » .

ومع ذلك ، كان رجال الاعمال يجنون أرباحاً طائلة على الرغم من المتاعب التي يلقونهـــا . وقد رفعت الصناعات الثقيلة ، التي كانت المنتفـع الرئيسي من التسلح أرباحها من (٢) في المائة في عام ١٩٢٦ وهي سنة ارتفاع الاسعار الى ٦،٥ في المـــائة في عام ١٩٣٨ وهي السنة الكاملة الاخيرة التي سبقت الحرب الكونية الثانية . ولم يستطع حتى القانون الذي حدد الارباح بستة في المائة ان يفرض أية متاعب على الشركات نفسها ، بل انه على النقيض من ذلك سهل لها مهمتها . فقد نص القانون من الناحية النظرية على ان كل ربح يربو على هذه النسبة يجب ان يستثمر في السندات الحكومية ، اذ لم تكن الحكومة تفكر بأي شكل

من أشكال المصادرة . وكانت معظم الشركات تعود في الواقع إلى استثمار أرباحها غير الموزعة في أعمالها ، وارتفعت هذه الارباح غير الموزعة من (١٧٥) مليوناً من الماركات في عـــام ١٩٣٢ إلى خمسة بلايين في عام ١٩٣٨ ، وهي السنة التي بلغ فيها مجموع الوفر في بنوك التوفير مجرد بليونين من الماركات أو أقل من نصف الارباح غير الموزعة ، والتي لم يرتفع رقم الأرباح الموزعة فيها على الأسهم عن بليون ومائتي مليون مارك . وقد سر رجل الأعمال بالاضافة إلى أرباحـــه المتضخمة والمفرحة من الطريقة التي اتبعها هتلر في إلزام العمال حدودهم . ولم يعد هناك مطالب غير معقولة لزيادة الأجور . وقد انخفضت الأجور في الواقع بعض الشيء على الرغم من الارتفاع الذي طرأ على مستوى المعيشة والذي قدر بخمسة وعشرين في المـــائة . يضاف إلى هذا انه لم تعد ثمة اضرابات تلحق الخسائر باصحاب الأعمال ، أو ان الاضرابات قد توقفت نهائياً ، إذ ان مثل هذه المظاهر للافتقار الى النظام كانت محرمة تمام التحريم في الرايخ الثالث .

عبودية العمـــل

غدا العامل الالمـــاني في الرايخ الثالث بعد ان حرم من تنظيمه النقابي ، ومن مساومته الجماعية على الاجور والحق في الاضراب رقيقاً صناعياً مرتبطاً بسيده صاحب العمل ، تماماً كما كان المزارع في القرون الوسطى مرتبطـــاً إلى سيد الاقطاعية . ولم تكن جبهة العمل المزعومة ، والتي استعيض بها نظرياً عن النقابات المهنية القديمة تمثل العامل . ولقد وصفها قانون الرابع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٣٤ ، الذي خلقت تنفيذاً له ، بأنها منظمة الخلاّقين الالمان من ذوي العقول والسواعد المفتولة » . ولم تكن عضويتها مقتصرة على كاسبي الأجور والرواتب بل تعدتهم إلى أصحاب الاعمال وإلى أرباب المهن الحرة . وهكذا لم تكن في الواقع إلا منظمة دعائية ضخمة أو كما أسماها أحد العمال « خدعة هائلة » . ولم يكن هدفها كما نص على ذلك القانون الذي انشئت بموجبه

حماية العمال وإنما « خلق مجتمع اشتراكي منتج صحيح يضم جميع الالمان . وكانت مهمتها أن تتأكد من ان كل فرد يجب أن يكون قادراً على إداء أقصى ما يمكنه من العمل » . ولم تكن جبهة العمل منظمة ادارية مستقلة ، بل كانت كمعظم الجماعات الاخرى في ألمانيا النازية ، هذا إذا استثنينا الجيش ، جزءاً لا يتجزأ من حزب العمال الألمان الوطني الاشتراكي أو كما قال قائدها ، الدكتور لي ، السكير المدمن ، « إيداة في يد الحزب » . ولا ريب في ان قانون الرابع والعشرين من تشرين الاول قد نص على ان ينبثق موظفوها من صفوف الحزب ، أو النقابات النازية السابقة أو جيش الحرس النازي أو جيش العاصفة ، وهذا واقع .

وكان قانون تنظيم العمل الوطني الصادر في ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٣٤ ، والمعروف « بسرعة العمل » ، قد وضع العامل في مكانه ورفع صاحب العمل الى مركزه القديم كالسيد المطلق مع خضوعه بالطبع لتدخل الدولة التي تتفوق على كل شيء بقوتها وسلطانها . وقد حدد هذا القانون صفة صاحب العمل بأنه « قائد المشروع » وحدد للعامل مركزه في التبعية . ونصت الفقرة الثانية من القانون على ان « قائد المشروع هو الذي يضع القرارات للمستخدمين والعمال في جميع الشؤون المتعلقة بالمشروع وكما ان سيد الأرض كان في الماضي مسؤولاً عن سعادة رعاياه وأتباعه ، غدا صاحب العمل في العهد النازي مسؤولاً عن رفاه مستخدميه وعماله » . وقال القانون « ان المستخدمين والعمال مدينون له مقابل ذلك بالاخلاص » ، أي ان عليهم ان يعملوا بجد ولمدة طويلة ، وان لا يتذمروا أو حتى يتهامسوا في موضوع الاجور .

وتقوم وكالات العمال المعينة من قبل جبهة العمل بتحديد الاجور ، ويكون هذا التحديد في الواقع طبقاً لرغبات أصحاب الاعمال ، إذ لا يتضمن القانون أي نص حتى باستشارة العمال في مثل هذه القضايا ، مع العلم بأنه عندما لم يعد العون إلا نادراً بعد عام ١٩٣٦ في مصانع السلاح ، وعندما حاول بعض أصحاب الأعمال رفع الأجور رغبة منهم في اجتذاب العمال ، أمرت الدولة

نفسها بخفض مستوى الاجور . وكان هتلر صريحاً كل الصراحة في موضوع وجوب الابقاء على مستوى الأجور الخفيض ، ولقد أعلن في بداية عهده « ان المبدأ الفولاذي للقيادة الاشتراكية الوطنية لا يكون في السماح بأي ارتفاع في مستوى اجور الساعات بل في زيادة الدخل عن طريق زيادة العمل والانتاج [1] » . ولا يعني هذا القول في البلاد التي ترتكز الاجور فيها على الانتاج بالقطعة ، ان في وسع العامل ان يأمل في زيادة دخله الا عن طريق الاسراع في الانتاج . والعمل اطول عدد ممكن من الساعات .

ولقد كانت الأجور في المانيا دائماً خفيضة اذا ما قسناها على مستوى الأجور في الولايات المتحدة وبعد ان نأخذ في حسابنا الفروق في مستويات المعيشة وفي الخدمات الاجتماعية . ولا ريب في انها هبطت في العهد النازي بعض الهبوط عما كانت عليه في العهد السابق . وتشير دائرة الاحصاء في الرايخ الى انها هبطت بالنسبة الى العمال الفنيين من (٢٠٫٤) من السنتات في الساعة في عام ١٩٣٢ أي في ذروة الأزمة الاقتصادية الى (١٩٫٥) من السنتات في اواسط عام ١٩٣٦ وهبطت مقاييس الأجور للعمال غير الفنيين من (١٦٫١) من السنتات في الساعة الى (١٣) سنتاً. وصرح الدكتور لي زعيم جبهة العمل في مؤتمر الحزب في نورمبرغ في عام ١٩٣٦ ان معدل الكسب للعامل الذي يعمل عملاً كاملاً قد بلغ (٦٫٩٥) من الدولارات في الاسبوع. أما دائرة احصاء الرايخ فقد حددت هذا الرقم بالنسبة الى جميع العمال بـ (٦٫٢٩) من الدولارات .

وعلى الرغم من توفير العمل للملايين فان حصة جميع العمال الألمان من الدخل القومي هبط من (٥٦٫٩) في المائة في سنة الازمة الخانقة في عام ١٩٣٢ الى (٥٣٫٦) في المائة في سنة ارتفاع الاسعار في عام ١٩٣٨ . وارتفع دخل رأس المال واصحاب الاعمال في الوقت نفسه بالنسبة الى مجموع الدخل القومي من (١٧٫٤) في المائة الى (٢٦٫٦) في المائة. ومن الحق ان يقال انه بسبب تضخم

---

١ ـ نيومان ـ البهيموت . ص ٤٣٢ .

الاعمال وتوفيرها للعمال ارتفع مجموع الدخل الناتج من الأجور والرواتب من خمسة وعشرين بليوناً من الماركات الى اثنين واربعين بليوناً أي بزيادة قدرها (٦٦) في المائة . لكن الدخل من رأس المال واصحاب الاعمال ارتفع ارتفاعاً اضخم اذ كان بنسبة (١٤٦) في المائة . وكان جميع القائمين على شؤون الدعاية في الرايخ الثالث من هتلر الى اصغر انسان قد ألفوا ان يحملوا في خطبهم العامة على البورجوازيين والرأسماليين وان يؤكدوا تضامنهم مع العمال ، لكن أية دراسة متزنة للارقام الرسمية وهي الدراسة التي لم يكترث إلا بعض الالمان بالقيام بها، حسرت النقاب عن ان الرأسماليين الذين يتعرضون للهجوم لا العمال هم الذين يفيدون اكبر الفائدة من السياسات النازية .

واخيراً لقد تقلّصت المبالغ الصافية التي يحصل عليها العمال الألمان ايضاً . فبالاضافة الى ضرائب الدخل القاسية الالزامية لمساعدة المرضى والعاطلين ، وصناديق الضمان للعجزة ، ورسوم جبهة العمل، كان العامل الالماني كغيره من الناس في المانيا النازية يتعرض الى ضغط دائم للتقدم بهبات متزايدة الى مجموعة من اعمال البر الالمانية التي يقف مشروع معونة الشتاء في مقدمتها ، وكثيراً ما أضاع العامل عمله لأنه رفض ان يتبرع الى معونة الشتاء ، أو لأن تبرعه اعتبر ضئيلاً . وقد وصفت احدى محاكم العمال التي ايدت طرد مثل هذا العامل بدون انذار بأنه « سلوك معاد الى مجموعة الشعب . يستحق اقسى اللوم والاستنكار » . وقد قرّر ما يدفعه العامل من ضرائب وتبرعات في منتصف حقبة الثلاثين بما يعادل نسبة تتراوح بين (١٥) و(٣٥) في المائة من مجموع دخله واذا ما طرحناهذا المبلغ من مجموع الأجر الذي يتقاضاه وهو (٦و٩٥) من الدولارات في الاسبوع تبيّن لنا ان ما يتبقى للعامل من مال لايجار بيته وغذائه وملبسه ،لم يكن كافياً مطلقاً .

***

وقد وجد العمال في المانية هتلر انفسهم في عين الاوضاع التي كان رقيق الارض يعيشونها في القرون الوسطى ، أي الارتباط اكثر فأكثر بالمكان الذي يعملون

فيه ، مع وجود الفارق طبعاً ، وهو ان الدولة لا صاحب العمل هي التي تربطهم.
ولقد رأينا كيف ان الفلاح في الرايخ الثالث كان مرتبطاً بأرضه بموجب قانون الارث الزراعي . وهكذا فان العامل الزراعي كان يجد نفسه بحكم للقانون ايضاً مرتبطاً بالارض ومحروماً من تركها ليعيش في المدينة ، وفي وسعنا ان نقول ان هذا القانون، هو الوحيد بين قوانين النازية الذي لم يطع طاعة عمياء ، فقد ارتحل بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٩ نحو من (١،٣٠٠،٠٠٠) عامل زراعي الى المدينة للعمل في الصناعة والتجارة ، لكن هذا القانون كان يطبق تطبيقاً حازماً بالنسبة الى العمال الصناعيين . وقد حددت المراسيم الحكومية المتعددة ابتداء من قانون الخامس عشر من ايار عام ١٩٣٤ تحديداً صارماً حرية الحركة والانتقال من عمل الى آخر . ومنحت السلطات المطلقة للاشراف على التوظيف الى دوائر توظيف الدولة بعد حزيران عام ١٩٣٥ ، فأصبحت هي التي تقرر تشغيل العمال وتحدد اجورهم واماكن عملهم .

وبدأ استعمال « بطاقات العمل » في شباط عام ١٩٣٥ ، واصبح الحصول على هذه البطاقة شرطاً اساسياً في الوصول الى عمل . وكانت البطاقات تتضمن سجلاً لمهارات العامل واماكن عمله ، وقد أدت هذه البطاقات الى ربط العمال باماكنهم بالاضافة الى توفيرها معلومات دقيقة للدولة واصحاب الاعمال عن كل عامل في البلاد . وكان في وسع صاحب العمل ان يحتفظ ببطاقة أي عامل من عمّاله يود الانتقال الى عمل آخر ، وهذا يعني حرمانه من العمل وفرض قانون خاص صدر في الثاني والعشرين من حزيران عام ١٩٣٨ ، عن وزارة مشروع السنوات الاربع ، العمل المجند في البلاد . فقد اصبح في وسع الدولة ان تفرض على أي الماني ان يعمل في المكان الذي تختاره له . وكان العمال الذين يتغيبون عن اماكن عملهم دون أية اسباب صحية يتعرضون للغرامة والسجن . وكان هناك ، كما يتضح جانب آخر للقضية ، فالعامل الذي يجند من قبل الدولة في أي عمل يغدو تابعاً لمكتب التوظيف الرسمي ولا يحق لأي صاحب عمل اخراجه من عمله الا بموافقة المكتب المذكور ، وهكذا وجد العامل الضمان للبقاء في عمله وهو شيء لم يكن يعرفه في

عهد الجمهورية .

وكانت الدولة تزود العمال « بالسيركات » أو مدائن الملاهي لصرف اهتمامهم عما يشعرون به من جراء القيود الضخمة المفروضة عليهم ومن أجور خفيفة لا تكاد تفي بمقتضيات العيش تماماً كما كانت الدولة الرومانية تفعل مع طبقتها البروليتارية . ولقد اوضح الدكتور لي ذلك ذات يوم بقوله : « علينا ان نصرف اهتمام الجماهير عن القيم المادية الى القيم المعنوية، فتقديم الغذاء الى ارواح الناس أهم من تقديمه الى بطونهم » .

وهكذا طلع الدكتور لي بمنظمة جديدة اطلق عليها اسم « القوة عن طريق المسرّة » . وكانت مهمة هذه المنظمة أن تؤمن للعمال ما يمكن تسميته بالملاهي المنظمة . فالدول الديكتاتورية الجماعية في القرن العشرين ، كما في القرون التي سبقتها ، ترى ضرورة الاشراف على اوقات راحة العامل بالاضافة الى اوقات عمله . وهذا ما حاولت المنظمة الجديدة ان تعمله . وكانت هناك في الايام التي سبقت النازية عشرات الالوف من النوادي التي تخصصت في كل شيء من لعب الشطرنج وكرة القدم الى مراقبة الطيور ، فلما جاء العهد النازي ، لم يسمح لأية جماعة منظمة سواء أكانت اجتماعية او رياضية أو بقصد الترويح عن النفس ان تعمل إلا في ظل منظمة « القوة عن طريق المسرة » واشرافها .

وكانت هذه المنظمة « الترويحية » الشاملة والرسمية بالنسبة الى الالماني العادي في الرايخ الثالث أفضل بكثير من عدم وجود أي شيء من نوعها اطلاقاً . إذ لم يكن في الامكان السماح له بأن يبتكر هو وسائله الخاصة للترويح عن نفسه . فلقد كانت تؤمن لأعضاء جبهة العمل مثلاً القيام بالرحلات السياحية الرخيصة للترويح عن النفس براً وبحراً . وقد بنى الدكتور لي باخرتين للركاب حمولة الواحدة منها خمسة وعشرين الف طن ، اطلق على احداهما اسمه ، واستأجر عشر بواخر أخرى للقيام برحلات عبر المحيط الاطلسي لأعضاء منظمة « القوة عن طريق المسرة » . وقد اشترك مؤلف هذا الكتاب ذات مرة في رحلة من هذه الرحلات ، وعلى الرغم من أن الحياة في الخارج قد نظمت على

ايدي القادة النازيين الى حد التنكيل والارهاق ، فان العمال الالمان بدوا وكأنهم يقضون وقتاً طيباً . وكانت تكاليف هـذه الرحلات رخيصة للغاية فالرحلة الى جزر ماديرا مثلاً لم تكن تكلف اكثر من خمسة وعشرين جنيهاً وهي تشمل ايضاً اجور النقل بالسكك الحديدية من المكان الذي يعيش فيه الى الميناء الذي تبحر منه الباخرة وبالعكس عند العودة ، وكانت الرحلات الأخرى على هـذا النحو من رخص التكاليف . وكثيراً ما استأجرت المنظمة الشطئان البحرية وضفاف البحيرات ليقضي فيها آلاف المصيفين اجازاتهم . وشرعت المنظمة في اعداد شاطىء روجن مثلاً على بحر البلطيق ولم تكن الاعدادات فيه قد تمت عندما نشبت الحرب ، وكان بينها بناء فنادق تتسع لعشرين الف انسان . وكانت المنظمة تعد في الشتاء رحلات خاصة للتزلج في جبال الألب البافارية وتتقاضى أحد عشر دولاراً فقط عن الشخص الواحد في الاسبوع مقابل النقل والمأوى والطعام واجور ادوات التزلج وحضور الدروس الخاصة به والتي يلقيها المدربون .

ونظمت الألعاب الرياضية التي تولت الاشراف عليها هذه المنظمة على نطاق واسع، ويشترك فيها حسب الاحصاءات الرسمية اكثر من سبعة ملايين انسان في السنة . ووفرت كذلك على اعضائها بطاقات رخيصة لحضور المسارح ، ودور الاوبرا والحفلات الموسيقية مؤمنة وسائل الترويح الرفيعة للانسان العامل، طبقاً لما كان يدعيه الموظفون النازيون . وكانت للمنظمة ايضاً فرقتها الموسيقية السيمفونية التي تشتمل على تسعين قطعة تجوب انحاء البلاد باستمرار عازفة في البلدان الصغيرة التي لا تتوافر فيها عادة الموسيقى الرائعة . وتسلمت المنظمة اخيراً أكثر من مائتي مؤسسة تعليمية غريبة كانت قد انتعشت في ايام الجمهورية وكانت تابعة لحركة عامة نشأت اول ما نشأت في البلاد الاسكندنافية ، وقد واصلت ادارتها على الرغم من اضافة مزيج قوي من العقيدة النازية على دروسها.

وكان العمال يدفعون بالطبع نفقات هذه الملاهي كلها ، وقد بلغ الدخل السنوي من الرسوم التي تفرضها جبهة العمل نحواً من (١٦٠) مليون دولار في

عام ١٩٣٧ ثم ارتفع الى مائتي مليون عندما نشبت الحرب ، وهي ارقام ذكرها الدكتور لي ، اذ لم يكن لها وجود في ميزانيات الدولة لأن دائرة الماليـــة في الحزب هي التي كانت تتولى حساباتها . وقد خصص نحو من عشرة في المائة من هذه الرسوم لمنظمة « القوة عن طريق المسرة » بينما بلغت الاجور التي دفعهـــا الافراد للاشتراك في الرحلات ووسائل التسلية والترويح عن النفس نحواً من بليون ومائتين وخمسين مليوناً من الماركات في العام . ولما كانت المنظمة هي اضخم هيئات الحزب الوحيد في الدولة فقد احتمل كاسب الاجور الالمـــاني تكاليف باهظة اخرى بسببها اذ سرعان ما تضخمت الى بيروقراطية حزبية تضم عشرات الالوف من الموظفين الذين يتقاضون كرواتب لهم ما يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين في المائة من مجموع الدخل .

وقد قامت المنظمة بعملية تدليس اخرى على العمال الالمان كان هتلر شخصياً هو المسؤول عنها ، وأرى انها تستحق الاشارة هنا . وتتعلق هـــذه العملية بسيارة الشعب التي كانت ثمرة انطلاقه عاصفـة من انطلاقات تفكير الفوهرر ، فلقد رأى ان من حق كل الماني او كل عامل على الاقـــل ان تكون له سيارته الخاصة به ، تماماً كما هي الحالة في الولايات المتحـدة . وكان العمال في هذه البلاد التي يبلغ عدد السيارات فيها بنسبة سيارة واحدة لكل خمسين شخصاً مقابل سيارة لكل خمسة اشخاص في الولايات المتحدة ، يستخدمون الدراجات النارية او وسائل النقل العامة في تحركاتهم . ولذا فقد اصدر هتلر امره بصنع سيارة شعبية تباع للعامل بتسعمائة وتسعين ماركاً اي ما يعـــادل (٣٩٦) دولاراً بالسعر الرسمي . ويقال ان الفوهرر نفسه قد اشترك في وضع تصميم السيارة التي تم صنعها تحت اشراف الدكتور فرديناند بوش ، مهندس السيارات النمسوي .

ولما كانت الصناعات الخاصة لا تستطيع انتاج مثل هذه السيارة بهذا السعر فقد أصدر هتلر أمره الى الدولة بأن تتولى هي العمل ، وعهد الى جبهة العمـل بتنفيذ هذا المشروع . وشرعت منظمة الدكتور لي في عـام ١٩٣٨ ، تبني في فولرزليبن القريبة من برونزويـغ « اضخم مصنع للسيارات في العالم » ، ذا طاقة

انتاجية بمعدل مليون ونصف المليون من السيارات في العام ، وهو انتاج يفوق انتاج فورد على حد تعبير الدعاة النازيين . وقدمت جبهة العمل رأسمال قدره خمسون مليوناً من الماركات، ولكن هذا المبلغ لم يكن الوحيد في تمويل المشروع، فقد ابتكر الدكتور لي مشروعاً عبقرياً وهو ان يدفع العمال انفسهم رأس المال اللازم عن طريق ما بات يدعى « ادفع قبل ان تأخذ » ، وهي اقساط بمعدل خمسة ماركات في الاسبوع أو عشرة أو خمسة عشر اذا كان في وسع العامل ان يدفع وعندما تبلغ مدفوعات العامل (٧٥٠) ماركاً ، كان في وسعه ان يحصل على رقم معين يخوله حق تسلم السيارة حال انتاجها . ولكن لم يستطع أي عامل الماني طيلة ايام الرايخ الثالث الحصول على سيارة واحدة من هذه السيارات . وقد دفع كاسبو الاجور عشرات الملايين من الماركات دون ان تعوض عليهم مدفوعاتهم . وعندما نشبت الحرب تحول مصنع سيارات الشعب (الفولكس فاغن) الى صناعة سلع اكثر فائدة للجيش الالماني .

* * *

وعلى الرغم من هذه الخديعة وعلى الرغم من انحطاطه الى مرتبة الرق وعيش الكفاف ، ومن افتقاره الى الاستعداد شأن القطاعات الاخرى من المجتمع الالماني للاشتراك في النازية أو للوقوع اسير حبائل دعايتها المستمرة ، فان العامل الالماني لم يبد ، والحق يقال ، أي نقمة أو الم على وضعه المتدني في الرايخ الثالث . ولا ريب في ان الآلة الحربية الألمانية الهائلة ، التي اندفعت تعبر حدود بولندة في الأول من ايلول عام ١٩٣٩ ، ما كانت لتظهر على النحو الذي ظهرت فيه ، لولا الاسهام العظيم الذي قدمه العمال الالمان لتقويتها . فلقد فرض عليهم التنظيم العسكري كما تعرضوا للارهاب ، كأي فرد آخر في المانيا ، مع العلم ان الالماني كان قد ألف لقرون طويلة خلت مثل هذا التنظيم وكان على استعداد لإطاعة كل ما يؤمر به . وعلى الرغم من ان مما يجفو الحكمة ان يحاول المرء التعميم في مثل هذه الأمور الا ان الانطباع الغالب على مؤلف هذا الكتاب ، هو ان العامل في برلين أو في حوض الروهر ، مع شعوره بالشك في وعود العهد ، لم يكن يفكر

مطلقاً بالثورة تفكيراً يفوق ما يفكر بـه أي أنسان آخر في الرايخ الثالث. وماذا كان بوسعه ان يعمل وهو المفتقر الى التنظيم والقيادة ؟ هذا هو السؤال الذي كان المرء يسمعه من العمال انفسهم.

ولعل السبب الاكبر في قناعته بوضعه ودوره في المانيا النازية هو حصوله على العمل من جديد وتأكده من انه سيحتفظ بهذا العمل. وكل مراقب عرف شيئاً عن وضعه الغريب في عهد الجمهورية ادرك تمام الادراك لماذا بدا هذا العامل غير مهتم بافتقاره للحرية السياسية أو لنقاباته المهنية، اذ انه عـثر على العمل الكامل ولم يعد يرى سبباً يحمله على افتقاد ما اضاعه. ولقد كانت « الحرية من الجوع ». تكسف في الماضي عند نحو من ستة ملايين رجل مع اسرهم، حقوقهم في الحياة الحرة في المانيا. ولما تمكن هتلر من انتزاع هذه الحرية الاخيرة أي حرية الجوع فقد اصبح واثقاً من تأييد الطبقة العاملة له، وهي اكثر الطبقات المماثلة لها مهارة ونشاطاً وانضباطاً في عالم الغرب كله. ولم يكن هذا التأييد ممنوحاً الى عقائديته المسلوقة أو الى نواياه الشريرة. بل الى ما هو اهم من ذلك بكثير، وهو انتاج السلع الضرورية للحرب.

العدالة في الرايخ الثالث

توقفت المانيا منذ الاسابيع الأولى من عام ١٩٣٣ عن ان تكون مجتمعاً يقوم على القانون، فقد كثرت الاعتقالات بالجملة وبطريقة استبدادية ارغامية وصحبتها عمليات ضرب وقتل يقوم بها اصحاب السلطان. وكثيراً ما تبجح نجوم القضاء في المانيا النازية بأن « هتلر هو القانون »، وايد غورنغ هـــذه الفكرة عندما اعلن في اجتماع عقده ممثلو النيابة العامة في المانيا في الثاني والعشرين من تموز بأن « القانون وارادة الفوهرر شيء واحد» ولقد كان غورنغ صادقاً في قوله تمام الصدق. فالقانون هو ما يقوله الديكتاتور وهو الذي يقوم بتنفيذه في اوقات الازمات كما حدث في « حمّام الدم » وكما ذكر في خطابه الذي وجهه الى الرايشستاغ بعد

تلك الاحداث الدموية مباشرة ، عندما اعلن بأنه « القاضي الاعظم » للشعب الألماني وانه مخول بأن يقضي بالموت على من يشاء .

وكان معظم القضاة في ايام الجمهورية، شأنهم في ذلك شأن غالبية رجال الدين البروتستانت ، واساتذة الجامعات ، قد كرهوا جمهورية ويمار كراهية شديدة ، وكانوا قد سجلوا في قراراتهم كما ظن الكثيرون اسود صفحة في حياة الجمهورية الألمانية مسهمين الى حدٍ ما في اسقاطها . ولكن القضـــاة كانوا في عهد دستور ويمار مستقلين على أي حال، ولم يكونوا يخضعون الا للقانون ، ويتمتعون بحصانة من الاقالة الاعتباطية ، ويرتبطون نظرياً « بالمادة ١٠٧ » التي تحتم عليهم ضمان المساواة أمام القانون . وكان معظمهم ميالين الى الاشتراكية الوطنية ولكنهم لم يكونوا على استعداد ، للمعاملة التي سرعان ما تلقوها في ظل حكمها الحقيقي . وقد طبق قانون الخدمة المدنية الذي صدر في السابع من نيسان عام ١٩٣٣ على جميع القضاة ، وسرعان ما طهّر السلك القضائي لا من اليهود فحسب بل ومن الاشخاص الذين يشكّ في نازيتهم ، أو الذين كما نص القانون « ابدوا انهم ليسوا على استعداد لقبول الشفاعة دائماً من الدولة الاشتراكية الوطنية » ، ولعل من الحق القول ان هذا القانون لم يصفّ عدداً كبيراً من القضاة ولكنه انذرهم على الأقل اين يجب ان يكون واجبهم . وللتأكد من انهم فهموا ذلـــك تمام الفهم تحدث الدكتور هانز فرانك مفوّض الجهاز القضائي وزعيم التشريع في الرايخ الى جماعة المشرعين قائلاً : « إن العقيدة الاشتراكية الوطنية هي قاعدة جميع القوانين الاساسية ولاسيما التي اوضحت في برنامج الحزب وفي خطب الفوهرر ». ومضى الدكتور فرانك يوضح ما عناه قائلاً :

« ليس ثمة من استقلال للقضاء عن الاشتراكية الوطنية . وعليكم ان تسألوا انفسكم عند اتخاذكم اي قرار : « ترى ماذا يكون قرار الفوهرر لو كان في مكاني ؟ » وعندما تتخذون أي قرار وجهوا الى انفسكم السؤال التالي : « هل يتفق هذا القرار مع الضمير الاشتراكي الوطني للشعب الالماني؟ » وآنذاك سيتوافر لكم اساس صلب كالحديد

اذا ما اتحد مع وحدة دولة الشعب الاشتراكية الوطنية تحالف مع اعترافكم بالطبيعة الخالدة لإرادة ادولف هتلر ، يضفي على مجـــال قراركم سلطة الرايخ الثالث الباقية ما بقي الدهر » [١] .

ولا ريب في ان هذا القول كان واضحـاً كل الوضوح ، ويتفق في جلائه مع قانون الخدمة المدنية الذي اتخـــذ في العام التالي ، أي في السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٧ ، والذي دعا الى فصل جميع الموظفين وبينهم القضاة بالطبع بدافع عدم الركون اليهم سياسياً . وقد ارغم جميع القضاة والمشرعين ايضاً على الانضمام الى عصبة القضاة الألمـــان الاشتراكيين ، حيث كانوا يتلقون محاضرات تسير في خطوطها العريضة على قواعد الحديث الذي ادلى به فرانك .

ولكن بعض القضاة على الرغم من عدائهم للنظام الجمهوري ، لم يستجيبوا بصراحة كافية للمخطط الحزبي . وقد حاول البعض منهم على الأقل في الحقيقة ان يقيموا احكامهم على اساس القانون ، ولعل من اسوأ الأمثلة على ذلك من وجهة النظر النازية القرار الذي اتخذته محكمة المانيا العليا بتبرئة ثلاثة من المتهمين الشيوعيين في قضية حريق الرايشستاغ في آذار عام ١٩٣٤ ، على اساس نقص الادلة ، اذ لم تدن المحكمة الا فان دير لوبيه « الهولندي نصف المجنون الذي اعترف بجريمته » وقد اثار هـــذا الحادث سخط هتلر وغورنغ الى حد كبير حتى انهما اصدرا بعد شهر واحد وفي الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩٣٤ ، مرسوماً يقضي بانتزاع صلاحية محاكمة قضايا الخيانة العظمى التي كانت حتى الآن وقفاً على المحكمة العليا ليس الا ، من هذه الهيئة القضائية الجليلة الشأن ونقلها الى محكمة جديدة هي محكمة الشعب ، التي اضحت بعدوقت قصير ، المحكمة التي تثير الفزع والخوف في جميع ارجاء البلاد ، وكانت تتألف من قاضيين محترفين وخمسة آخرين يختارون من موظفي الحزب والحرس النازي والقوات المسلحة مما يجعلهم اغلبية في المحكمة . ولم تكن قرارات هـذه المحكمة تقبل نقضاً أو استئنافاً .

---

١ — اينشتين ـ المانيا النازية ـ ص ٨٤ .

وكانت تعقد جلساتها على الغالب سرية . أما في القضايا التافهة التي لا يتوقع صدور احكام قاسية فيها ، فقد كانوا يدعون المراسلين الاجانب لحضورها احياناً .

وهكذا تمكن مؤلف هذا الكتاب من مشاهدة قضية امام محكمة الشعب ، فخرج منها يحمل الانطباع بأنه في محكمة عسكرية لا في محكمة مدنية وقد انتهت الاجراءات في يوم واحد ، ولم يكن ثمة مجال لتقديم شهود للدفاع (اذ لا يجرؤ احد على الظهور للدفاع عن متهم بتهمة الخيانة العظمى) ، وكانت الحجج التي استند اليها محامو الدفاع وهم من النازيين « المعروفين » ضعيفة ومهلهلة الى الحد الذي ظهرت فيه متناهية في غرابتها . وكان المرء اذا ما قرأ الصحف وما نشرته عن القضية يخرج منها وقد حمل انطباعاً بأن معظم المتهمين التعساء لا بد وان يحكموا بالموت. ولم تنشر أية ارقام عن الاحكام التي اصدرتها هذه المحكمة ، وان كان رولاند فريزلر رئيسها المرهوب الجانب والذي قتل ابان الحرب عندما اصابت قنبلة امريكية قاعة المحاكمة حيث كان يعقد جلسة فيها ، قد اعلن في كانون الاول عام ١٩٤٠ بأن اربعة في المائة فقط من المتهمين الذين ظهروا أمام هذه المحكمة قد أدينوا بالاعدام .

وكان العهد النازي قد اقام محكمة اخرى قبل محكمة الشعب المخيفة ، اطلق عليها اسم المحكمة الخاصة ، وقد انتزعت من المحاكم العادية صلاحياتها في نظر قضايا الجرائم السياسية أو ما اطلق عليها قانون الواحد والعشرين من اذار عام ١٩٣٣ ، الذي انشئت بموجبه ، اسم « القضايا المتعلقة بالهجمات الخبيثة على الحكومة » . وكانت المحاكم الخاصة تتألف من ثلاثة قضاة من اعضاء الحزب الموثوقين وينظرون في القضايا دون اللجوء الى المحلفين . وكان من حق المدعي العام النازي ان يختار عند احالته القضية ، بين المحاكم العادية والمحاكم الخاصة ، وكان يؤثر على الغالب الاخيرة لأسباب واضحة ، لا سيما وان محامي الدفاع فيها كما في محكمة الشعب ، يجب ان يعينوا بعد موافقة السلطات النازية . وقد حاول بعض المحامين رفع قضية على الدولة بإسم ارملة الدكتور كلاوزنر زعيم عصبة العمل الكاثوليكي الذي

قتل في بيته اثناء حملة التطهير الدامية في عام ١٩٣٤ ، مطالبة اياها بالعطل والضرر ، فما كان من السلطات النازية الا وقد زجّت بهم في معسكر اعتقال ساشينهاوزن حيث ظلوا رهن الاعتقال الى ان سحبوا القضية بصورة رسميه .

وكان من حق هتلر ومن حق غورنغ احياناً وقف أية اجراءات قضائية . وقد سلّطت الاضواء في وثائق نورمبرغ [١] على قضية تشير الى ان وزير العدل قد أوصى توصية حارة بمحاكمة موظف من كبار رجال الغستابو ومجموعة من رجال جيش العاصفة ، قامت الأدلةفي رأيه ،على انهم مذنبون بتهمة تعذيب بعض المعتقلين في احد معسكرات الاعتقال. وقد بعث الوزير بالأدلة التي توصل اليها ، الى هتلر ، ولكنه أمر بوقف الاجراءات القانونية وكانت لغورنغ في البداية مثل هذه السلطات القانونية ، فقد أمر في نيسان عام ١٩٣٤ بوقف الاجراءات القضائية في حق احد المشهورين من رجال الاعمال . وسرعان ما عرف ان المتهم قد دفع الى غورنغ ثلاثة ملايين من الماركات . وقد علق غير هارد.اف. كرامر ، وهو محام بارز في برلين في تلك الايام ، فيما بعد قائلاً : « وكان من المتعذر اقامة الدليل على أي الاحتمالين هو الأصح ، هل قام غورنغ بابتزاز المال من الصناعي عن طريق التهديد ، أو هل قام هذا برشوة رئيس وزراء بروسيا » [٢] . لكن الدليل قد وجد على ان غورنغ قد اوقف الاجراءات القضائية بحق هذا الرجل .

وخول رودلف هس نائب الفوهرر من الناحية الاخرى صلاحيات اتخاذ « اجراء لا رحمة فيه ولا شفقة » مع المتهمين الذين تصدر عليهم في رأيه احكام خفيفة . فلقد جرت العادة على ان تقدم كافة احكام المحاكم الصادرة بحق من يقوم الدليل على اجرامه بتهمة مهاجمة الحزب أو الفوهرر أو الدولة الى رودلف هس ، الذي كان في وسعه اذا رأى ان الحكم لا يتفق في لينه مع الجريمة ان يتخذ

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٥٦٨ – ٥٧٢ .
٢ – الرايخ الثالث – اعداد بيومونت – ص ٦٣٠ .

اجراءً لا رحمة فيه ولا شفقة ، ويكون هذا الاجراء عادة امـا بالزج بالمتهم في احد معسكرات الاعتقال أو في التخلص منه برصاصة أو خنجر .

ومن الواجب ان يقال ان المحاكم الخاصة كانت تظهر في بعض الاحايين شيئاً من الاستقلال وتمسكاً بالقانون . وفي هذه الحالة كان رودلف هس او سلطة الغستابو يسارعان الى التدخل . وقد رأينا من قبل كيف ان رجال الغستابو قد سارعوا الى اختطاف القس نيمولر ، عندما برأته المحكمة الخاصة من التهمـة الرئيسية وادانته بتهمة تافهة فقضت عليه بالسجن مدة قصيرة كان قد قضاها فعلاً في فترة توقيفه ، وبعثوا به الى احد معسكرات الاعتقال .

* * *

فلقد كانت الغستابو تماماً كهتلر ، هي القانون مجسداً . وكان غورنغ قبـد امر في مستهل العهد النازي بانشائها لتحل محل الشعبة الاولى في الشرطة السرية البروسية القديمة . وكانت غايته بادىء ذي بدء ان يطلق عليهـا اسم دائرة الشرطة السرية ولكن الحروف الاولى من اسمها الألماني كانت تبدو شبيهـة بالشرطة السرية الروسية (الغيبو) . واقترح موظف مغمور في دائرة البرق والبريد، طلب اليه ان يعد ختماً للدائرة الجديدة، تسميتها بشرطة الدولة السرية التي تختصر بكلمة الغستابو (GESTAPO) ، فخلق بذلك هذا الاسم الذي كان مجرد ذكره يبعث الرعب في المانيا اولاً وفي خارجها فيما بعد .

ولم تكن الغستابو في بداية الأمر الا مجرد اداة شخصية للارهاب يستخدمها غورنغ في اعتقال خصوم العهد وقتلهم . ولم يبدأ توسع الغستابو كسلاح مـن اسلحة الحرس النازي الا في نيسان عام ١٩٣٤ عندما عين غورنغ هملر ، تاجر الفراخ الدمث الخلق « والصادي » المزاج ، نائباً لرئيس الشرطة السرية البروسية وهكذا غدت الغستابو في ظل رئيسهـا الجديد ، ومساعده الشاب الشيطاني التفكير رينهارد هايدريش [١] سوط النقمة المسلط على الرقاب ، والذي يتحكم

---

١ - راجع كتاب يوجين كوغون « نظرية جهنم وتطبيقها » .

في مصير كل الماني .

واصدرت المحكمة الادارية البروسية العليا في عام ١٩٣٥ تحت ضغط النازي قراراً باعتبار اوامر الغستابو واعمالها غير خاضعة للاستئناف القضائي . وصدر القانون الاساسي للغستابو في العاشر من شباط عام ١٩٣٦ ، واضعاً المنظمة البوليسية السرية فوق القانون . ولم يسمح للمحاكم بأي شكل من الاشكال ان تتدخل في اعمالها أو نشاطها . وقال الدكتور وارنر بيست اليد اليمنى لهملر في الغستابو موضحاً هذا الوضع بقوله : « طالما ان الشرطة تتولى تنفيذ ارادة القيادة ، فانها تعمل والحالة هذه طبقاً للقانون » [1] .

وقد اضفي ستار من « الشرعية » على الاعتقالات التعسفية التي كانت تقوم بها الغستابو وعلى زجها بالضحايا في معسكرات الاعتقال ، ويسمى هذا الستار « بالاعتقال الاحترازي » او التحفظي ، وقد استندت الغستابو في ممارسته على قانون الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٣ ، الذي اوقف كما رأينا العمل ببنود الدستور التي ضمنت الحريات الديموقراطية . لكن « الاعتقال التحفظي » لم يحم أي انسان من الضرر المحتمل ان يتعرض له كما هي الحالة في البلاد المتمدنة . فلقد كان هذا الاعتقال يعاقب الانسان عن طريق الزج به وراء الاسلاك الشائكة .

وقد انتشرت معسكرات الاعتقال في جميع ارجاء المانيا في السنة الأولى من قيام الحكم النازي . ولم يشرف عام ١٩٣٣ ، على نهايته حتى كان هناك نحو من خمسين معسكراً منها اقامها في الغالب جيش العاصفة ليتولى رجاله ضرب الضحايا فيها ثم يعيدونهم الى اقربائهم او اصدقائهم بعد استيفاء الفدية عنهم . وكانت هذه الطريقة شكلاً من أشكال الابتزاز . وكثيراً ما كان المسجونون يلقون حتفهم من جراء تلذذ معذبيهم بضربهم حتى الموت أو نتيجة الوحشية في معاملتهم . وقد ظهرت اربع قضايا من هذا النوع في محاكمات نورمبرغ ، كانت

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان – (٢) ص ٢٥٨ .

قد وقعت في عام ١٩٣٣ في معسكر الحرس النازي في داخاو القريب من ميونيخ وقد لقي احد المسجونين حتفه في كل حادثة من هذه الحوادث اما من جراء الضرب بالسياط أو نتيجة الخنق . وقد اثارت هذه الحوادث حتى ممثل النيابة في ميونيخ فاحتج عليها .

وقد خيل الى الكثيرين مـــن الألمان بعد انتهاء عملية التطهير الدموي في حزيران ١٩٣٤ ، واخفات كل مقاومة للعهد النازي ان « الاعتقالات التحفظية » بالجملة ، والزج بالألوف في معسكرات الاعتقال امور ستتوقف بطبيعتها. واصدر هتلر عشية عيد الميلاد في عام ١٩٣٣ ، عفواً عاماً وأمر باطلاق سراح نحو من سبعة وعشرين الفاً من نزلاء المعتقلات ، ولكن غورنغ وهملر ، تملصا من تنفيذ الأمر ولم يطلقا إلا سراح عدد قليل. وحاول فريك البيروقراطي وتاجر المطاط الذي كان وزيراً للداخلية في نيسان عام ١٩٣٤ ، التخفيف من مساوىء الزبانية النازيين ، باصدار مراسيم سرية تفرض قيوداً على استخدام الاعتقال التحفظي بالجملة ، وتقلل من عدد الحالات التي يزج فيها بالناس في معسكرات الاعتقال ، ولكن هملر اقنعه بالعدول عن فكرته هذه. وكان زعيم الحرس النازي يرى بوضوح اكثر من وزير الداخلية ان الغاية من معسكرات الاعتقال ليست مجرد معاقبة اعداء العهد ، بـــل بعث الفزع في القلوب والحيلولة دون أي تفكير في مقاومة الحكم النازي .

وقد أمر هتلر بعد انتهاء عملية تطهير روهم ، بتسليم معسكرات الاعتقال ، الى إشراف الحرس النازي الذي شرع في تنظيمها بما عرف عن هذه الفئة المختارة من قوات الأمن من كفاية وقسوة . وتولت القيام بأعمال الحفر فيها وحدات « رأس الموت » التي كان افرادها يجمعون من اصلب العناصر النازية بعد ان يتعهدوا بالخدمة اثني عشر عاماً ، يضعون في غضونها على قمصانهم السوداء شارة « الجمجمة والعظام » . وقد عهد الى ثيودور ايكه قائد اول فيصل من فصائل هذه القوة وأول قائد لمعسكر داخاو بالاشراف على جميع المعتقلات . وسرعان ما اغلقت المعسكرات الصغيرة وتم تشييد اخرى اكبر منها واضخم ، وتقف في

طليعتها معتقلات داخاو القريب من ميونيخ ، وبوخنفيلد القريب من ويمار ، وساشينهاوزن القريب من برلين ، ورافينز بروك (وهو مخصص للنساء) القريب من ميكلينبرغ ، وميتهاوزن القريب من لينز بعد احتلال النمسا في عام ١٩٣٨ واوشويتز وبيلزيك وتريبلينكا في بولندة ، وكلها اسماء غدت ذات شهرة عالمية كبيرة .

وقد مات الملايين في هذه المعتقلات كما تعرضت ملايين اخرى لعمليات التعذيب والإهانات التي لا يمكن لعقل بشري ان يتصورها . لكن نزلاء هذه الاماكن في مطلع العهد النازي في حقبة الثلاثين لم يكونوا يتجاوزون العشرين الفاً او الثلاثين ، في وقت واحد ، ولم تكن أساليب التعذيب المخيفة التي ابتكرها هملر ونفذها فيما بعد قد عرفت في ذلك الحين . ولم تظهر معتقلات الابادة ومعتقلات العمل السخرة ، ومعتقلات اجراء التجارب الطبية على البشر وكأنهم من الخنازير الا بعد نشوب الحرب .

لكن المعتقلات الاولى على أي حال لم تكن انسانية مطلقاً . وقد عثرت بين وثائقي على انظمة معتقل داخاو الصادرة في الأول من تشرين الثاني عام ١٩٣٣ والموقعة من أول قائد له ، ثيودور ايكه ، الذي سرعان ما طبقها في المعتقلات الاخرى بعد ان غدت جميعها تحت اشرافه :

« المادة الحادية عشرة » ـ كل من تثبت عليه الجرائم التالية يعتبر محرضاً ويقضى عليه بالموت .. الاشتغال بالسياسة ، القاء الخطب التحريضية وعقد الاجتماعات ، تأليف الشيع والجماعات ، النهب والسلب ، جمع المعلومات الكاذبة او الصادقة عن المعتقلات لخدمة الاغراض الدعائية للمعارضة وتزويدها بقصص التعذيب ، تلقي مثل هذه المعلومات او اخفاؤها ، او الحديث عنها الى الآخرين او تهريبها الى خارج المعتقلات لايصالها الى الزائرين الاجانب .. الخ .

« المادة الثانية عشرة : كل من يرتكب الأمور التالية يعتبر

عاصياً ، يقتل فوراً أو يشنق فيما بعد : مهاجمة احد رجال الحرس النازي او الخفراء ، رفض اطاعة الأوامر ، أو رفض العمل ... القهقهة والصراخ والخطابات المهيجة في اثنـــاء المسيرات او العمل » .

وخصصت عقوبات أخف من هذه كالسجن الانفرادي لمدة اسبوعين او الجلد خمساً وعشرين جلدة، لكل من يضع في رسالة أو أي نوع من الوثائق اشارات تحط من قيمة الزعماء الاشتراكيين الوطنيين او الدولة او الحكومـــة او يمجد الزعماء الماركسيين او الليبراليين من الاحزاب الديموقراطية السابقة » .

وسارت قوة اخرى تدعى « الجهاز السري » (S . D) جنباً الى جنب مع الغستابو في فظائعها ، وكان اسمها كافياً لبعث الفزع في قلوب الألمان وجميع الشعوب المحتلة فيما بعد . وقد قام هملر في البداية بانشاء هذه القوة في عام ١٩٣٢ لتكون بمثابة فرع المخابرات للحرس النازي ، وعهد بقيادتها الى رينهـــارد هايدريش الذي نال شهرة عالمية وغدا يلقب « بالجلاد هايدريش» وكانت مهمتها الاساسية مراقبة اعضاء الحزب ونقل أي نشاط يبعث الشكوك .وغدت في عام ١٩٣٤ تقوم بدور وحدة المخابرات للشرطة السرية ، وشملت صلاحياتها بموجب قانون عام ١٩٣٨ جميع ارجاء الرايخ .

وقد توسعت هذه القوة تحت اشراف هايدريش الخبير بشؤون المخابرات ، اذ كان يعمل ضابطاً في مخابرات الأسطول الألماني ولكن الاميرال ريدر طرده من منصبه في عام ١٩٣١ ،وكان في السادسة والعشرين من عمره لرفضه الزواج من ابنة احد اصحاب صناعة السفن التي كان قد اغواها،واصبحت شبكتها منتشرة في جميع ارجاء البلاد وتضم اكثر من مائة الف مخبر ، يوجههم الى شم الانباء واستراق السمع والتجسس على كل مواطن في البلاد ونقل أية إشارة أو نشاط يبدو معادياً للحكم النازي . ولم يكن احد ليجرؤ ، الا اذا كان أحمق ،على ان يقول أو يفعل شيئاً يمكن تفسيره ضد النازية ، قبل ان يتخذ كافة الاحتياطات اللازمة ليضمن ان اقواله لم تسجل على جهاز تسجيل لهذه القوة ، او لم يسمعها

احد عيونها وارصادها . وكان المرء في تلك الايام لا يثق بانسان اذا كان حكيماً او عاقلاً ، إذ لا يدري فقد يكون ولده أو والده ، زوجته او ابنة عمه ، صديقه او رئيسه ، سكرتيرته او سائقه مخبراً سرياً في منظمة هايدريش .

اما الموظفون الدائمون في هذه المنظمـة ، فلم يرب عددهم في أي وقت مـن الأوقات على الثلاثة آلاف في أي سنة من سني حقبة الثلاثين ، وكانوا يختارون من صفوف المثقفين الشبان من خريجي الجامعـات الذين لم يستطيعوا العثور على مناصب مناسبة أو على مكان مضمون في المجتمع العادي . وهكذا فقد ظهرت بين هذه الفئة من العيون المحترفين ، النزعة الرخيصة الى التعالمية . فهم يهتمون احياناً في بعض الشؤون كدراسة الآثار القديمـــة التيوتونية او جماجم الشعوب المنحطة أوتناسليات العنصرالسيد. وكان المراقب الاجنبي يجد صعوبة في التعرّف او في الاتصال مع هؤلاء الرجال الغريبين ، على الرغم من ان هايدريش نفسه ، وهو شخصية مغرورة جامدة وقاسية ،كان كثيراً ما يظهر في احد نوادي برلين الليلية ، وقد أحاط به فريق من رجاله الشبان الشقر الشعور . ولم يكن هؤلاء يبتعدون عن الاضواء بسبب طبيعة عملهم فحسب ، وانما كان يدفعهم الى ذلك في عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٥ شعور من الخوف اذ ان بعضهم كان قد تجسَّس على روهم واعوانه من رجال جيش العاصفة ، وكانوا يتعرضون للقتل على ايدي عصابة سرية اطلقت على نفسها اسم « المنتقمين لروهم » ، وكثيراً ما تركت اشارتها التي تحمل هذا الاسم على جثث ضحاياها .

وكان من مهام هذه القوة التي تبعث على الاهتمام ، التأكد من الذين يقترعون « بلا » في عمليات استفتـاء هتلر . وقد عثر بين وثائق نورمبرغ العديدة على تقرير سري لهذا الجهاز في « كوشيم » في موضوع استفتاء العاشر من نيسان عام ١٩٣٨ :

« ارفق طياً قائمة باسماء الاشخاص الذين اقترعوا « بـــلا » أو قدموا اوراقاً غير صالحة في كابيل . وقد تمكنا من معرفة هـذه الاسماء على النحو التالي : قام بعض اعضاء اللجنة الانتخابية بترقيم

اوراق الانتخابات . وأعدت قائمة بأسماء المقترعين اثناء العملية . وكانت الاوراق الانتخابية توزع حسب ترتيب ارقامها ... ولذا فقد بات من السهل فيما بعد العثور على اسماء الاشخاص الذين اقترعوا بلا ، أو قدموا أوراقاً اعتبرت غير صالحة . وقد وضعت الارقام على الأوراق بالحبر السري .

« وتجدون طيه ايضاً ورقة اقتراع القس البروتستانتي الفريد وولفرز »[١] .

***

وتم للمرة الاولى في تاريخ المانيا انشاء قوة شرطة موحدة للرايخ كله في السادس عشر من حزيران عام ١٩٣٦ ، بعد ان كانت كل ولاية من الولايات مسؤوله عن قوة الأمن فيها ، وعهد الى هملر برئاستها. وكانت هذه الخطوة بمثابة تسليم قوات الشرطة الى الحرس النازي الذي كان قد تضخم عدده تضخماً كبيراً منذ ان تمكن من اخماد ثورة روهم في عام ١٩٣٤ . وهكذا فان هذا الحرس البريتوري ، الذي يعتبر الفرع المسلح الوحيد في الحزب ، والذي يمثل الفئة المختارة التي ينبثق عنها زعماء الغد الالماني ، غدا الآن مسيطراً على قوات الشرطة. وتحول الرايخ الثالث بمقتضى حتمية التطور في جميع الديكتاتوريات الجماعية الى دولة بوليسية .

الحكومة في الرايخ الثالث

لم يقم هتلر بالغاء دستور ويمار بصورة رسمية على الرغم من ان الجمهورية التي كانت تستند في وجودها اليه قد زالت . ولقد اقام هتلر ، ولعلها مهزلة من مهازل القدر ، شرعية حكمه ، على الدستور الجمهوري الكريه. وهكذا استندت ألوف القوانين التي صدرت على شكل مراسيم ، اذ خلا الرايخ الثالث من

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

القوانين الصحيحة ـ الى مرسوم الطوارىء الرئاسي الصادر في الثامن والعشرين من شباط عام ١٩٣٣ لحماية الشعب والدولة ، وهو المرسوم الذي وقعه هندنبرغ بموجب المادة الثامنة والاربعين من الدستور . وجدير بنا ان نذكر ان الرئيس العجوز كان قد حُمِل خداعاً ومكراً على توقيع المرسوم في اليوم الذي تلا حريق الرايشستاغ ، وبعد ان اكد له هتلر أن ثمة خطراً فعلياً في قيـام ثورة شيوعية . ولقد ظل هذا المرسوم الذي ابطل مفعول كافة الحقوق المدنية وعلـّقها ، سارياً طيلة ايام الرايخ الثالث متيحاً للفوهرر فرصة الحكم بشكل مستمر من اشكال الحكم العسكري .

وكان قانون الصلاحيات الذي اقره الرايشستاغ في الرابع والعشرين من آذار عام ١٩٣٣ ، والذي تنازل فيه المجلس عن مهامه التشريعية الى الحكومة النازية هو الدعامة الثانية التي استندت اليها « دستورية » الحكم الهتلري . وكان العمل بهذا القانون يتمدد آلياً بعد كل أربع سنوات الى أربع سنوات اخرى ، بمجرد ختم من الرايشستاغ الذي ظل قائماً والذي لم يفكر الديكتاتور مطلقاً في الغائه ، بعد ان تحولت هذه المنظمة الـتي كانت ديموقراطية ذات يوم الى منظمـة لا ديموقراطية . ولم يجتمع اكثر من عشر مرات حتى نشبت الحرب ولم يصـدق إلا اربع قوانين [١] ، كما لم يجر أي مناقشات أو يقترع على أي اقتراحات أو يستمع الى أي خطب سوى تلك التي يلقيها هتلر .

وتوقفت المناقشات الجدية في مجلس الوزراء بعد الأشهر الاولى من عام ١٩٣٣ واصبحت جلسات المجلس اكثر تباعداً وندورة بعد وفاة هندنبرغ في شهر آب عام ١٩٣٤ ، ولم يجتمع مرة واحدة بعد شباط عام ١٩٣٨ . لكن اعضـاء المجلس فرادى ، كانوا يتمتعون بصلاحيات ضخمة تمكنهم من اصدار المراسيم التي تغدو بصورة آلية رتيبة ، قوانين بعد ابرامها من هتلر . ولم يكن المجلس

---

١ ـ قانون اعمار المانيا في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٣٤ والقوانين اللاسامية الثلاثة المعروفة بقوانين نورمبرغ في الخامس عشر من ايلول عام ١٩٣٥ . ـ المؤلف ـ

الوزراء السري الذي اقيم في عام ١٩٣٨ واحيط بهالة ضخمة من الدعاية للتأثير على رئيس الوزراء تشمبرلين على الغالب ، أي وجـــود إلا على الورق ، اذ لم يجتمع مرة واحدة.. ولم يعقد مجلس دفاع الرايخ الذي انشىء في مستهل العهد النازي كوكالة لتخطيط الحرب تحت رئاسة هتلر الا اجتماعين رسميين ، وان كانت بعض لجانه العاملة ، قد نشطت نشاطاً هائلاً .

وعهد بكثير من المهـام الوزارية الى وكالات خاصة كمكتب نائب الفوهرر (هس اولاً ومن ثم مارتن بورمان) ومكتب مفوض الاقتصاد الحربي (شاخت) ومكتب مفوض الادارة (فريك) ، ومكتب منـــدوب مشروع السنوات الاربع (غورنغ) . وبالاضافة الى هذه الوكالات كان هناك بعض « الوكالات الحكومية العليا » و « الوكالات الادارية القومية » التي ورث العهد النـــازي بعضها عن ايام الجمهورية . وهكذا بلغ عدد الوكالات التنفيذية اثنتين واربعين وكالة حكومية قومية تمارس اعمالها تحت سيطرة الفوهرر المباشرة .

وقد رأينا كيف تم الغاء حكومات الولايات الالمانية المختلفة ومجالسها في السنة الاولى من العهد النازي ، عندما تم توحيد البلاد واصـــبح حكام الولايات التي هبطت قيمتها الى مجرد اقاليم ، يعينون من قبل الفوهرر . وتمت إزالة الحكم الذاتي المحلي ايضاً ، وهو الميدان الوحيد الذي بدا فيه الالمان وكأنهم يخطون خطوات تقدمية اصيلة في طريق الديموقراطية . وصدرت سلسلة من المراسيم بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٥ حرمت البلديات من استقلالها المحلي ، وجعلتها خاضعة لإشراف وزير داخلية الرايخ المباشر الذي غدا يعين رؤساءها اذا كان عـــدد سكانها يتجاوز المائة الف ، واعاد تنظيمها على اساس المبدأ القيادي . أما في المدن الصغيرة التي يقل عدد سكانها عن المائة الف ، فقد كان حكام الاقاليم هم الذين يتولون تعيين رؤساء بلدياتها . واحتفظ هتلر لنفسه بحق تعيـين محافظي برلين وهمبورغ وفيينا بعد ان تم احتلال النمسا في عام ١٩٣٨ .

واخذ هتلر يمارس صلاحياته الديكتاتورية في اربع مكاتب اولها مكتب الرئيس (وقد توقف استعمال اللقب منذ عام ١٩٣٤) وثانيها مكتب المستشار

(وقد تخلى هتلر عن هذا اللقب في عام ١٩٣٩) وثالثها مكتب الحزب ورابعها مكتب مستشارية الفوهرر ومهمته رعاية شؤون هتلر الشخصية والقيام ببعض المهام الخاصة .

وقد مل هتلر في الحقيقة من تفاصيل العمل الحكومي اليومي الرتيب، وبعد ان ثبت اقدامه اثر وفاة هندبرغ، ترك تصريف معظم هذه الامور الى مساعديه وقد منح رفاق الحزب القدامى من امثال غورنغ وغوبلز وهملر ولي وشيراخ، مجالات حرة وواسعة لتنظيم امبراطوريات سلطانهم وكذلك شؤون منافعهم الخاصة . ومنح شاخت الحرية المطلقة في البداية لجمع اية اموال يراها ضرورية لتغطية الانفاق الحكومي المتمدد بأية وسيلة من الوسائل التي يراها مناسبة . ولم يكن هتلر ليتدخل الا في الحالات التي يصطدم فيها اعوانه عند تقاسمهم السلطة او الغنائم . ولم يكن ليهتم بهذه الخلافات والمنازعات بل كان يشجعها احياناً، اذ انها تضفي مهابة وجلالاً على مركزه بوصفه الحكم الاعلى، ولأنها تحول بين تكاتفهم ضده. وكان يتلذذ على مرأى التنافس قائماً بين ثلاثة رجال يعملون في الشؤون الخارجية، وهم نوراث وزير الخارجية وروزنبرغ رئيس دائرة الشؤون الخارجية في الغرب وريبنتروب الذي اسس مكتباً خاصاً به لتعاطي الشؤون الخارجية وظل الصراع قائماً بين الثلاثة وظل هتلر واقفاً موقف المتفرج منه، ومبقياً على المكاتب المتنافسة الى ان اختار في النهاية، ريبنتروب البليد الذكاء ليغدو وزير خارجيته والمنفذ لأوامره في الشؤون الخارجية .

وهكذا سار الحكم في الرايخ الثالث، يدار من القمة الى القاعدة على اساس ما يسمى بمبدأ القيادة، وتقوم على ادارته بيروقراطية واسعة ومنتشرة لا تتمتع بشيء من الكفاية التي اشتهر بها الالمان عادة . ومسممة بالابتزاز، ومقيدة بالاضطراب السائد والمنافسة القتالة التي تغذيها تدخلات رجالات الحزب المربكة، ويحيلها الى العجز ارهاب الحرس النازي والغستابو .

ويقوم على قمة هذا التكوّم الضخم، الافاق النمسوي سابقاً والرجل الذي غدا، اذا ما استثنينا ستالين، اقوى ديكتاتور على وجه البسيطة .ولقد ذكّر

الدكتور هانزفرانك جمعاً حاشداً من المحامين الذين عقدوا مؤتمراً لهم في الربيع عام ١٩٣٦ بهذه الحقيقة اذ قال : « هناك في المانيا اليوم سلطة واحدة ليس الا، هي سلطة الفوهرر » [١] .

وتمكن هتلر عن طريق هذه السلطة من تحطيم اولئك الذين عارضوه تحطيماً سريعاً ، ومن توحيد الدولة واضفاء الطابع النازي عليها ، ومن تنظيم مؤسسات البلاد وثقافتها على اسس عسكرية ، واخفات الحريات الفردية والغاء البطالة ، ودفع عجلات الصناعة والتجارة الى العمل الهادر .. وكلها منجزات ليست بالشيء التافه في فترة لم تزد على ثلاث سنوات أو اربع . وتلفت الآن ، وكان قد بدأ في هذا التلفت منذ مدة طويلة الى تحقيق الأملين الرئيسيين في حياته ، وهما توجيه السياسة الخارجية الألمانية نحو الحرب والفتح وخلق الآلة العسكرية الضخمة التي تمكنه من تحقيق الهدف الأول .

وجدير بنا ان نلتفت نحن الآن الى القصة . التي توافرت لدعمها الوثائق اكثر من اية قصة أخرى في التاريخ الحديث لنرى كيف شرع هذا الانسان غير العادي الواقف في قمة دولة عظيمة وقوية كالمانيا يسير في طريق تحقيق اهدافه.

---

١ ـ الفولكشاير بيوباختر ـ ٢٠ ايار عام ١٩٣٦ .



فهرست القسم الأول

